
مذكرات
فرانز فون پاپن
ترجمة : فاروق الحريري

مذكرات
فرانز فون پاپن

ترجمة : فاروق الحريري

الطبعة الاولى

مقدمة المؤلف

تبدو المذكرات مختلفة عن بعضها البعض من حيث الأساس فهي اما تمجيد صاحبها لنفسه او اعتذاره عما بدر منه . اما تقريري هنا عن حياتي فهو يصف حياة صادفت التحول الزمني وعايشت التمزق الذي طرا على العالم الاوربي ولذا فانني لم اكتب هذه المذكرات تعبيرا عن رغبة يحدوها الطموح .

وقد اتجهت رغبتي للناي عن السـرد التاريخي البحت الذي يتناول تطور الحوادث عبر السنين التي عشتها . كما انني راقبت التقديرات الخاطئة لتطبيق مفاهيم الاشتراكية والعقائد المتعلقة بها نتيجة لسوء تقديرات الاشـخاص او بسبب اخطائهم الخاصة . وساكون صريحا في سردي للحوادث دون التنصل من اية واقعة امانة مني للبحث التاريخي وكذلك حبا مني للحقيقة .

والرجل الذي يتولى مسؤولية المناصب الرفيعة ويتصـرف بحكم تلك المناصب لابد ان ياخذ في حساباته التعرض للنقد الطني . الا انه لن يكون قادرا على الدوام على الرد او دحض تلك الانتقادات بصورة موضوعية . ثم انه لن يتمكن من بيان المسببات لجميع فعالياته لان ذلك قد يتعارض مع طبيعة اهدافه السياسية والواضح من حياتي انني غالبا ما مارست النقد المرير وتعرضت له .

فمع بداية الحرب العالمية الاولى دعاني الواجب لاعمل ملحقا عسكريا للدول المركزية ضد موقف الولايات المتحدة الأمريكية الذي تبين لنا بجلاء انها لم تتخذ موقفا محايدا في تلك الحرب وانما كان موقفها غير ودي منا الى ابعد الحدود . ولقد رغبت في اسدال ستار الكتمان على طبيعة فعالياتي العسكرية التي قمت بها آنذاك . وسوف لن آبه للافتراءات والاكاذيب والتشهير التي تعرضت لهـا من جراء تلك الفعاليات .

وعندما ظهرت بوادر الوهن على حكومة فايمار نتيجة لمعاناتها من ازمـات الاقتصاد الدولي ولتفاقم ازمة البطالة والاضطرابات الداخلية التي لم تتمكن من التحكم بها واضطر المستشار بريونينغ على الاستقالة لاختلافه بالآراء مع رئيس الجمهوريةفون هندنبورغ وجدت نفسي على استعداد لتحمل المسؤوليةفأصبحت خلفا لبريونينغ .

وقد وجدت لزاما علي ان اتكتم ايضا على الملابسات التي رافقت وصولي للسلطة ولما تم القرار على جعل هتلر مستشارا لالمانيـا بعدئذ ولم تفلح جميـع المساعي التي بذلت لابعاده عن تولي السلطة قررت قبول منصب نائب المستشار لكي اساهم في ادارة دفة الحكم معه . لكن فعالياتي تعثرت بسبب تعرضي للمتاعب التي دبرها لي خصومي السياسيين واصطدمت ايضا بالمؤامرات الناتجـة عن الطموح او الانتقام او محاولات الدس ثم تعرضت بعدئذ لانتقاد الكثيرمن الاصدقاء نتيجة لفعالياتي آنذاك وافضل ان الوذ بالصمت ازاء تلك الانتقادات .

ولما قبلت في عام ١٩٣٤ منصب السفير في ڤينـــا ثم في عام ١٩٣٩ منصب السفير في انقرة فقد كانت لي اسبابي المبررة لذلك القبول بطبيعة الحال . وهي مبررات جديرة بالاعتبار . واذا ما وجهت لي اشد الانتقادات نتيجة لقبولي ذينك المنصبين ولفعالياتي السياسية خلالهما فانني اتقبل تلك الانتقـادات بصمت وهدوء .

لكنني اقرر هنا بان جميع الفعاليات التي قمت بها خلال اشـــغالي لتلك المناصب جعلت غرضي الاول منها خدمة وطني وتحقيق ارتقائه . ولقد اتسم عملي الدائب خلال مدة امتدت نصف قرن بالرغبة في الاستعانة على قضاء كل حوائجي بالكتمان وانني لآمل ان تكون هـــذه المذكرات بصيصا من الحقيقـــة يوضح ملابسات الاختلافات في الآراء المتعلقة بالسياسة الداخلية لكي تكون نبراســـا للساعين نحو اقامة اوربا الجديدة الموحدة وهذه لعمري حاجـة ملحة تفرضها المرحلة الراهنة .

فرانز فون پاپن

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

قد تكون شخصية فون پاپن غير معروفة بالنسبة للكثيرين من مثقفي الجيل الحالي ولكن فون پاپن كان علماً بارزاً من اعلام السياسة الأوربية في حقبة الثلاثينات وحتى انتهاء الحرب العالمية الثانية .

وكانت سيرته التي دونها في كتابه هذا قد صدرت منذ عام ١٩٥٢ وترجمت الى معظم اللغات الحية ولكنها لم تترجم للعربية وقد اقدمت على ترجمتها بناء على رغبة كريمة لسيد فاضل .

وفون پاپن يدعى في الاوساط السياسية (الثعلب العجوز) لدهائه وحصافته . والذي يهمنا في مذكراته هذه هو انصافه لقضية العرب المركزية قضية فلسطين واقدامه على ذكر رايه النبيل دون وجل رغم دقة موقفه السياسي ونجاته قبيل اصداره لكتابه هذا من محاكمات نورمبرغ .

كما ان مذكراته هذه مفعمة بالتجارب الفنية في ميادين السياسة والدبلوماسية والحرب والاجتماع . وهذا امر بديهي لمن عاش حياة حافلة عريضة وتميز بوضوح الرؤية .

واخيرا وليس آخراً فان من يتمعن في هذه المذكرات سيكتشف مدى حب الرجل لبلاده واخلاصه لها حتى في ادق الظروف وفي مختلف العهود . وهذا هو سر اكتسابه لاحترام اصدقائه وخصومه على حد سواء ذلك لأن من يحب بلاده ويخلص لها بكل تجرد فانه دوماً على صواب .

هذا والله من وراء القصد .

بغداد : مطلع العام السادس من قادسية صدام .

فاروق الحريري



الفصل الأول

من عهد الامبراطورية الى عهد الجمهورية

النشأة والطفولة والصبا .

العائلة وبيت الوالدين . وراثة آل زالتسبرغ . التقاليد والثقافة . شباب مجند . وصيف في بلاط صاحب الجلالة الامبراطور . شخصيات مشهورة : بسمارك ، مولتكه ، مينزل ، هايدهبراندت، بينغسن ، فيندهورست ، الملكية والديموقراطية ، اللورد سالسبوري يتحدث عن الديموقراطية ، ملازم ثان في جيش مملكة بروسيا .

كم هو ممتع أن يرجع المرء بذاكرته للوراء وصولا الى عهد الصبا . وكم هو شاعري أن أرجع بخيالي نحو الايام الحلوة التي كنا نرنو فيها لخرائب قلعة ڤيرلر أو تتطلع برهبة وخشوع نحو الكنيسة السامقة الرمادية اللون التي كانت الأثر الواضح الذي يميز مدينتنا الصغيرة ڤيرل التي كان والداي من سكانها الأصليين.

والمعروف في تلك المدينة ان اسلافنا الذين عاشوا فيها منذ مئات السنين تركوا الكثير من الآثار والرموز الدالة على امجادهم السالفة . ولربما يعود السبب في تخليدهم واستقرارهم فيها لامتلاكهم لمنجم ملح الطعام في ڤيرل ولكن تلك الأسرة العريقة لم يبق منها سوى عائلتين هما آل البارون فون ليلين التي قوامها فردين فقط وعائلتي.

أما المنجم الذي ارتبطت به الاسرة زهاء الألف عام فقد تخلت عنه اما لنضوب الملح أو لتأثره بأعمال مناجم الفحم العميقة المجاورة له والتي تستخدم فيها المعدات الحديثة في باطن الأرض على أعماق سحيقة ولذا فقد اصبحت قضية ابتعاد الأسرة عن المنطقة مسألة وقت . وهكذا اصبحت أسرة «اصحاب منجم الملح في ڤيرل» أثرا بعد عين.

ومما لا شك فيه ان لهذا التراث العائلي العريق ابلغ الأثر في ارتباطي الوثيق بالتقاليد وتمسكي بها . اضف الى ذلك ارتباطي المحكم بالكنيسة التي تطوع لخدمتها الكثيرون من ابناء أسرتي وبناتها عبر مئات السنين وحازوا مراتب رفيعة في سلك الكهنوت.

وعندما شرع القديس سويت بطرس في مطلع القرن الثامن بنشر المذهب البروتستانتي في المنطقة الواقعة بين الروهر وليبه كانت أسرتي من أولى الاسر التي تقبلت آرائه وصارت من معتنقي مذهبه.

وقد حازت الأسرة منذ القرن الخامس عشر ــ وبصورة مستمرة ــ ملكية ارض زراعية قريبة من ڤيرل وأنشأت لها قلعة فيها سميت « موئل كوينفن[1]» كان أخي الاكبر آخر مالكيها.

وقد أقيمت كنيستنا في عام ١١٦٣ في عهد هاينريش الأسد . وتضم سجلات تلك الكنيسة أسماء أفراد الأسرة على مر السنين كما انها لا تزال

---

(١) درج الالمان على تسمية بيوتهم الاثيرة وقلاعهم باسماء محببة على سبيل التمجيد او الظرافة احيانا . وهم ينقشون تلك الاسماء على واجهة الدار عادة . ــ المترجم ــ

تحتفظ بقطعة من الرخام تخلد اسم الأسرة منذ عام ١٤٨٥ وعليها شعار الأسرة الذي نقش مع شعارات ثماني أسر أخرى من اهل المنطقة . وقد شارك أجدادي في جميع الحروب التي شهدتها البلاد وبذلوا دمائهم في سبيل الوطن .

وحدث ان حضرت حفلا تكريميا لتمجيد الشهداء في كنيسة سانت ميخائيل عام ١٩٠٠ ممثلا لأسرتي . والآن وقد مر اكثر من نصف قرن على ذلك الاحتفال فان أسرتنا لم تعد تملك في تلك المنطقة لا دارا ولا عقارا ولا حتى كوخ من اكواخ الصيد كرمز لماضيها التليد . ألا اننا بقينا على تمسكنا بتقاليدنا الموروثة واني لواثق من ان اجيالنا المقبلة ستحافظ على التقاليد دون ان تتناسى الماضي الحافل .

لقد خدم رجال أسرتي على مر الأزمان في الدولة الالمانية بمختلف عهودها سواء في امارة كولن أو في امبراطورية آل هابسبرغ في النمسا والمجر التي كانت عاصمتها ڤينا مقرا لاتحاد الامارات الالمانية . وكان هذا من الاسباب التي دعتني للاهتمام بقضية وحدة النمسا مع المانيا عندما وجدت انها تعيش ازمة سياسية عاصفة عام ١٩٣٤ ولما ذهبت الى ڤينا لم أجد نفسي غريبا فيها .

كما انني أجد في نفسي ميلا وديا نحو بروسيا التي طالما مجدها أبي وحدثنا عن مآثرها عندما ساهم بحروب الوحدة الالمانية الثلاثة في اعوام ١٨٦٤ و١٨٦٦ و١٨٧٠ والتي تمخض عنها نشوء الامبراطورية الالمانية الحديثة التي أقامها بسمارك .

وكان جد أبي فريدريش ليوپولد الذي عاش من ١٧٨٢ حتى ١٨٥٦ قد حاز مكانة مرموقة في عهد الثورة الفرنسية وتزوج من النبيلة مارغريته هيدزدورف التي كانت أسرتها من أسر منطقة الراين المعروفة . وبهذه الوشيجة اصبحت لنا قرابة مع أسر جنوب المانيا . ولم تكن لنا أية قرابة مع البروسيين . الا ان جدي فرانز يوسف الذي أبصر النور في عهد نابليون بونابرت الحافل شهد حروب التحرير كطفل صغير وادرك ببصيرته الثاقبة

التحول الجذري من النظام البروسي المتسم بالتزمت الى روح الغرب الميالة نحو التحرر.

ثم ولد ابي عام ١٨٣٩ فشهد مع جدي تنامي الافكار الحرة في اواخر القرن التاسع عشر وخيبة الامل التي أعقبت مداولات التجمع الوطني في فرانكفورت التي جرت في كنيسة باولوس وشهدا أخيرا نشوء الامبراطورية الالمانية ولكن بدون النمسا مع الأسف.
ولابد ان من يسمع مثل أبي وأبناء جيله عن معارك ديوپل وكونيغ غراتس وميتز وسيدان وپاريس وعن تتويج ملك بروسيا امبراطورا على المانيا في قاعة المرايا بقصر فرساي بباريس يكون فخورا بامبراطورية المانيا التي أقيمت في وسط أوربا بفضل مساعي مستشارها البارع بسمارك. ولاعجب اننا اطفال ذلك العهد سمعنا الكثير عن ذكريات تلك الايام الرائعة وقرأنا كتابات الأدباء الالمان واستوعبنا قصص فرار الملكة لويزه الى ميمل ومعركة لايبزك ووصول بلوخر في آخر النهار لانقاذ الدوق ولنغتون والقضاء على نابليون في معركة واترلو.

ولم تكن تلك القصص بالنسبة لنا أحاديث خرافية وانما كانت واقعا متجسدا بوجود الامبراطور وابنه ولي العهد الامير فريدريش ڤلهلم وحفيد ملكة بريطانيا المشهورة ڤيكتوريا والمستشار الحديدي بسمارك والقائد اللامع فون مولتكه الذي صارت اساليبه السوقية فنا يدرسه جميع قادة الجيوش على مر الأزمان. أضف الى ذلك ما شهده ذلك الجيل من ازدهار للصناعة السلمية الحديثة . والملاحظ آنذاك ان البروسيين الشديدي التدين والمتمسكين بالمذهب البروتستانتي لم يكونوا محبوبين ولكنهم كانوا يحظون بكل التقدير والاحترام.

وبعد ان اتم أبي دراسته الجامعية في جامعة بون انتمى لعصبة البروسيين ببون وكون علاقات صداقة وطيدة مع الكثيرين من رجال المجتمع البارزين وكان احدهم غراف هوغو ليرشنفيلد الذي خدم مع المستشار بسمارك وكان أخلص معاونيه قرابة الثلاثين عاما بصفته ممثل ملك باڤاريا لدى الدولة

الالمانية ببرلين . وكان هذا الرجل النبيل وفيا لصداقة ابي فحباني بمودته لدرجة اجدني معها عاجزا عن وصف اللطف الذي لقيته منه كلما زرته بقصره الرائع في شارع فوس.

ولما كان الامبراطور ڤيلهلم الثاني من اعضاء عصبة البروسيين ببون ايضا عندما كان وليا للعهد فقد كان على معرفة بأبي . ولقد حاز أغلب اعضاء تلك العصبة بعدئذ على مناصب رفيعة سواء في عهد الملكية أو في عهد الجمهورية الالمانية فيما بعد.

خدم أبي في الجيش البروسي خلال الفترة من ١٨٦٤ حتى ١٨٧١ في وحدات الخيالة لمقاطعات الراين وديوسلدورف ثم انصرف بعد ذلك لادارة مزارعه وممتلكاته . والذي أذكره عنه انه كان خادما مخلصا لبلاده يتحلى بالكتمان ويولي وطنه وشعبه كل الحب والاخلاص.

وأجد لزاما علي — وقد أسهبت في سرد تأريخ أسرة ابي — ان اشير هنا لأسرة أمي التي تعتبر من اسر منطقة الراين العريقة . فأبوها هو النقيب الخيال المتقاعد البرت فون شتيفنس دريمبورن الذي سبق ان أقام ردحا من الزمن في ديوسلدورف . وكان جد الاسرة حارسا لاحدى الغابات في عهد نابوليون بونابرت وقد حاز الى جانب وسام النسر الاحمر البروسي نوط صليب جوقة الشرف الفرنسي.

كانت أمي باعثة الحماس ضمن الاسرة. فقد انشأتنا على تقوى الله وتوخي البساطة في الحياة . وقد بقيت قطب الرحى الذي يتجمع حوله شمل الاسرة حتى وافتها منيتها قبيل هجوم هتلر على بولونيا بأيام قلائل.

أما انا فقد ولدت لهذه الأسرة في ٢٩ تشرين الاول عام ١٨٧٩ وترعرعت مغمورا بحنان الوالدين والاخوة الذين غلب على حياتهم طابع المرح وفي سن الخامسة بدأت بتلقي العلوم . فقامت معلمة عجوز بتعليمي أسرار الالفباء . ولكن أهلي سرعان ما أدركوا ان من الاسهل عليهم ارسالي

للمدرسة . فارسلوني فعلا للمدرسة الابتدائية المجاورة للكنيسة والحقت بالصف الثاني تحت اشراف المعلم بويغمان، وهو رجل صارم كان مشهورا بعصاه الطويلة الموجعة.

وكان التأديب بالعصا من الأمور المألوفة بالمدارس آنذاك الا ان معلمنا كان قد حاز شهرة في ترويض التلاميذ المشاكسين في منطقة ڤيرل برمتها وقد حاز نجاحا باهرا في جلبهم للطريق القويم.

كان أول اصدقائي بالمدرسة جورج شيفر وهو ابن صانع مكانس وقد اكملنا دراستنا الابتدائية سوية . واني لمدين لوالدي ما حييت لحسن تربيتهما ورعايتهما التي كانت حافزا لتقدمي في المدرسة ثم في العمل.

ما ان اكملت دراستي الابتدائية الا وتحولت للدراسة في الثانوية العسكرية التي كانت في مدينة ڤيرل ولكنني لم ابق فيها سوى عاما واحدا. ولو سألني أحد عما اود ان اكونه في المستقبل لأجبته دون أي تردد بأن رغبتي تنحصر في الالتحاق بالخدمة العسكرية. ولربما يتهم البعض جيلنا في هذه الأيام[٢] بأنه كان متأثرا بالافكار البروسية العدوانية التي نالت من الشباب فجعلتهم يميلون للجندية بغية الاستعداد للاستيلاء على العالم فيما بعد عن طريق شن الحروب . الا انني لا اتفق مع هذا الرأي مطلقا لأن التربية العسكرية التي تلقيتها انطوت على حب الوطن والذود عن حياضه وليس الاعتداء على اوطان الآخرين ثم انني كنت اهوى العسكرية لأنها مهنة تسري في دمائي ولقد احببتها لأنني ورثتها عن أبي كما انني ورثت عنه حب الفروسية . الا ان أخي الاكبر ورث عن ابي مزرعته وانصرف لها متمتعا بحياة هانئة سعيدة.

وكانت الفرص المتاحة لي في حياتي هي اما ان اكون موظفا أو عالما أو جنديا . وقد استشرف أخوتي ميلي الجامح للجندية فلقبوني (بالرائد) على سبيل الملاطفة. ومن سخريات القدر انني رغم اندفاعي ومثابرتي وحبي

(٢) الف هذا الكتاب عام ١٩٥٢ . — المترجم —

لمهنتي الاثيرة فانني لم اصل ابدا لاكثر من رتبة رائد في الجيش الالماني.

وكان التحاقي بالخدمة العسكرية في نيسان ١٨٩١ خلافا لرغبة أمي التي ابدت معارضة عنيفة في التحاقي بمدرسة الضباط. وسرعان ما ادركت انها كانت مشفقة علي من المعاملة الفولاذية والتربية الاسبارطية الصارمة التي كنا نعامل بموجبها في المدارس العسكرية آنذاك . ولما وصلت للقلعة التي اتخذت مدرسة لنا ادركت مدى المرارة التي يشعر بها الفتى عندما يفارق بيت أهله لأول مرة .. وكان ذلك الألم ممضا لدرجة فاقت تصوري.

وجدت حال التحاقي بالمدرسة العسكرية انني يجب ان اخوض امتحان القبول . وكان امتحانا عسيرا لكنني اجتزته بسهولة ثم تم تنسيبي للسرية الخامسة فذهبت مع رفاقي لاستلام التجهيزات ولما تسلمناها الفينا أنفسنا في عالم جديد انسانا معاناة فراق الاهل لأننا صرنا تتطلع نحو اسرار حياتنا الجديدة فنكتشفها بأنفسنا.

ولقد كان من العسير حقا على صبي لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره ان يتحول من حياته الوادعة للحياة العسكرية الفظة ويتمسك بالضبط الشديد فيحيا حياة عسكرية يومية تنطوي على الصرامة المتناهية .. فقد كانت قاعات سكنانا عالية السقوف وليست فيها أية وسائل للتدفئة . وغالبا ما كنا نجد مياه المغاسل متجمدة عندما نهرع من أسرتنا الدافئة في الصباح الباكر على صوت بوق النهوض.

أما الطعام فكان بسيطا الى أقصى الحدود .. اذ يقتصر فطورنا على صحن من حساء الطحين مع كسرة من الخبز اليابس . وكان الزبد من الاطعمة النادرة . وكنا نزود باللحم مرة في الاسبوع وفي ايام الاعياد .. ولكن ابداننا الغضة اشتدت رغم ذلك وازددنا نموا يوما بعد يوم. وتنامى في نفوسنا بمرور الزمن حب الضبط والنظام وكان الشعار الذي جعلناه نصب اعيننا هو ان نكون قدوة صالحة لجنودنا من جميع الوجوه .. ولم يكن هذا – لعمري – بالامر الهين.

اتممت دراستي العسكرية في ربيع سنة ١٨٩٥ وحصلت على أول رتبة عسكرية تؤهلني لقيادة الرجال فأصبحت عريفا في السرية الثانية من احدى وحدات فيلق المقر العام وكانت ترابط بمعسكر ليختر فيلده الكبير الكائن في احدى ضواحي برلين • فلما وصلت الى ذلك المعسكر مع عدد من رفاقي وجدنا ان معاملتنا قد اختلفت وصرنا نعامل كرجال بالغين .• وصار بمقدورنا ارتداء القيافة العسكرية الخارجيـة الانيقـة والاشـتراك مرتين بالسنة في الاستعراض الكبير الذي يقـام في كل ربيع وخريف تحت رعـاية حضرة صاحب الجلالة الامبراطور • وكنا نبذل جهودا جبارة في الاستحضار لكل استعراض بغية الظهور بمظهر يفوق كتائب الحرس المدربة • الا أن العقبـة التي صادفتني هي عدم اقتناع رؤسـائي بقدرتي على اتقان مشية الاوزة السائدة في استعراضات الجيش البروسي نظرا لأنهم يزعمون بأنني (افحج) لانفراج ساقي نتيجة التدريب المتواصل على الفروسية فأهتبلت هذه (العلة) وتذرعت بها لأكون خيالا بدلا عن المشاة .•

ولقد رسخت في خاطري ايام الاستعراضات بالملابس المبهرجة والبنادق المعلقة على الجانب والمسير بالخطوات الهادرة امام حضرة الامبراطور •

وكنا في تلك الحقبة من حياتنا المفعمة بالحماس نعتبر الجيش البروسي رمزا لمجد الوطن ومشعلا ينير لنا درب الحرية وموئلا للتقـاليد التأريخيـة لشعبنا كما اننا جد فخـورين بأمجاد ذلك الجيش التي حـازها في مختلف المعارك سواء عند مقاتلته لنابليون في واترلو او في معـارك حروب الوحـدة الالمانية•

ولقد تعلمنا في وحدات ذلك الجيش كيف اننا ينبغي ان نبذل دمائنـا رخيصة في سبيل الدفاع عن دولة الوحدة الالمانية • ولكنني لم اسمع قط لا في خلال وجودي بالمدرسة العسكرية ولا بالاكاديمية الحربية بعدها ولا حتى في اوساط هيئة ركن الجيش بأية دعوة لتعديل وضعية حدود الدولة الالمانية على حساب جيرانها كما لم اسمع ابدا أية دعـوة لشن هجوم على البلدان الاخرى • بل اننا كنا تتلقى تعليما ينص على وجوب المحافظة على السلام في

وسط قارة أوربا وذلك امتدادا للفترة الهادئة التي مرت على بلادنا في تاريخها منذ الف عام • وكنا نبرر تنامي القوة البحرية البريطانية كضرورة للمحافظة على مستعمراتها التي فيما وراء البحار • ولن انسى تلك الرسالة التي كتبها الامير بسمارك في ٥ شباط من عام ١٨٨٤ للسفير فون شڤاينتز الذي كان يعمل في بلاط سان بطرسبورغ[٣] والتي جاء فيها:

« سوف لن تقوم المانيا بشن أي هجوم على فرنسا طالما بقيت انا مستشارا للدولة الالمانية • واذا ما صدر لي الأمر من المرجع الأعلى باتخاذ مثل هذا الاجراء فسأستقيل»•

تمتعنا خلال وجودنا بمعسكر ليختر فيلده بكثير من المناسبات الاجتماعية والعلمية فكنا نتردد على المتاحف والمعارض والمسارح والمعاهد لدرجة باتت تهدد بالانتقاص من الوقت اللازم لتدريبنا الأساسي • وكانت الموسيقى من الدروس الضرورية لنا ولذا فقد طلب الي أحد اساتذتي وهو السيد فون ايكاردت ان اتلقى ساعة في كل اسبوع تدريبا على آلة الكمان صحبة الأمير فريدريش ڤيلهلم فون پرويسن وهو اصغر اولاد الأمير البرخت الوصي على مقاطعة براون شڤايك في قصره المنيف الكائن في شارع البرخت ببرلين•

في ربيع ١٨٩٧ حلت الفترة الحاسمة المقررة لاختبارنا التنافسي من أجل الحصول على رتبة نائب ضابط مرشح وكان المقرر انتخاب افضل تسعين تلميذا من مجموع ستمائة ليلحقوا بالكلية الحربية • ثم يعودوا بعدها للخدمة في السرايا المقاتلة • وعلى الرغم من الحياة البائسة التي تنتظرنا وراء جدران الكلية الا ان التنافس من أجل المستقبل كان له ما يبرره • ذلك لأننا سنحوز رتبة الملازم قبل رفاقنا بستة اشهر أضف الى ذلك اننا سنحصل على فرصة الانتماء لافضل القطعات الفعالة التي ستتنافس بدورها لاستمالتنا

(٣) هي مدينة لينينغراد التي كانت عاصمة روسيا القيصرية آنذاك .
ـ المترجم ـ

للخدمة في صفوفها . وعلى الرغم من ردائتي في تعليم المشاة فقد حالفني الحظ ونجحت بتفوق بحيث كنت من ضمن اولئك التسعين.

ثم ما لبثت ان بدأت تلك السنة الحافلة بفعاليات اعدادنا لنكون ضباطا محترفين وقد ساعدنا التدريب الأساسي والضبط الشديد الذي جبلنا عليه في التخفيف من وطأة المجهود الذي بذلناه في هذا السبيل . ولقد أثبت ذلك التعليم والتأهيل الصارمين جدواهما اذ تدرج الكثيرون من زملائي في مدارج الرتب العسكرية وفي هيئة الركن فيما بعد واصبح بعضهم من القادة اللامعين ووصل عدد منهم الى رتبة المشير الرفيعة كما وحاز البعض الآخر وظائف مهمة في المجالات الاقتصادية وفي مختلف مرافق الدولة الحيوية.

حل يوم ٢٢ آذار ١٨٩٧ جالبا لنا مفاجأة مفعمة بالسرور وسوف لن انساها ما حييت . ذلك انني حزت فيها اول وسام لي عندما صدرت الاوامر بمنح جميع رجال الجيش الألماني الذين بالخدمة آنذاك «الوسام المئوي» بمناسبة مرور مائة عام على ميلاد الامبراطور الراحل ڤيلهلم الأول.

ولقد سمينا ذلك الوسام «الليمونة» بسبب لون شريطه الاصفر الفاقع. كما اننا حصلنا على الكثير من الذكريات المتعلقة بالبيت المالك الألماني بحكم اشتغالنا مع قطعات الحرس الامبراطوري أو اشراكنا في احتفالات البلاط. فقد حدث ان طلب امين البلاط اضباراتنا الشخصية وتقارير مفصلة عن فعاليات كل فرد منا وقابلياته مرفقة بتصاويره بغية اختيار افضل العناصر للالتحاق بكتائب الحرس . ولما وقع الاختيار علي ضمن مجموعة من رفاقي حملتنا من محطة القطار عربات ملكية انيقة الى قصر شپري[٤] العريق لكي تستلم من مستودعاته ما يلائمنا من سترات الحرس المموهة بقصب الفضة والقبعات المدببة والسراويل البيضاء الناصعة والتي تكون بمجموعها قيافة بمنتهى الاناقة الدالة على الذوق الرفيع. وكانت المناسبات الاجتماعية

---

(٤) سمي على اسم نهر شپري الصغير الذي تقع عليه مدينة برلين .

ــ المترجم ــ

للبلاط الامبراطوري تفتتح في الخريف عند افتتاح مجلس النواب أو مجلس الشيوخ في القاعة البيضاء . ويحضرها الامبراطور بنفسه يرافقه المستشار والوزراء فيتلو خطاب العرش . وكانت هذه المناسبة تتيح لنا امكانيةالتعرف على أهم الشخصيات السياسية في بلادنا وزعماء الأحزاب فتعرفنا مثلا على هايده براندت زعيم المعارضة والذي كان يدعى «ملك بروسيا غير المتوج» وكذلك على اولدنبورغ وليڤتسوڤ والشيخ كارورف وكان يكلف بحضور جلسات المجلس ملازم وثلاثة رجال ، وعندما يجيء دوري لانجاز هذه المهمة كنت اسعد كثيرا بالتعرف على الرؤوس المدبرة لادارة الدولة الالمانية.

وكان يوم الثامن عشر من كانون الثاني هو يوم ذكرى تتويج أول ملك على عرش بروسيا ليكون امبراطورا على المانيا وكان ذلك التتويج في قاعة المرايا بقصر فرساي بباريس(٥) وبحلول ذلك اليوم من كل عام تفتتح الاحتفالات الرسمية واهمها احتفال منح نوط النسر الاسود . ويحضر هذا الاحتفال جميع السادة الممنوحين لقب (فارس) وعندما يلتئم جمعهم يحضر الامبراطور تحيط به نخبة من رجال الدولة ويصطف جمع من الضباط بنظام متقن لتحيته واستقباله . وكانت مراسيم منح هذا النوط الرفيع تتطلب ركوع الممنوح أمام العرش ليتلقى النوط ذي السلسلة والمعطف ثم يتلقى ربتة يصحبها النطق الامبراطوري بتسميته فارسا من فرسان الدولة . وكان لهذه المراسيم تأثير عميق في نفوسنا فهي تشدنا للارتباط الوثيق بشخص الامبراطور.

الا اننا نستمتع برؤية المستشار بسمارك. ذلك لأن الامبراطور كان قد استدعى المستشار الشيخ قبل ذلك العام بثلاث سنوات أي في ١٨٩٤

---

(٥) حدث هذا اثر سقوط باريس بيد الالمان في حرب ١٨٧٠–١٨٧١ وكان امبراطور المانيا ڤيلهلم الاول ومستشارها بسمارك وقائدها فون مولتكه الكبير . اما امبراطور فرنسا فكان نابليون الثالث .

— المترجم —

ليحضر احتفالات الشعب بعيد ميلاده ببرلين ولما اوشكت الذكرى نفسها على الحلول في ١ نيسان ١٨٩٥ والتي تصادف الاحتفال بمرور ثمانين عاما على ميلاد المستشار لم يؤيد البرلمان بتأثير من حزب الوسط اقامة الاحتفال المقترح اذ صوت ١٦٣ نائبا ضد الاحتفال بينما حبذه ١٤٦ فقط. واعلن ذلك فون ليفتسوف رئيس المجلس . وقد بقي المستشار بسمارك مستقرا في غابة سكسونياه ولكنه لم يدر بخلده ما تضمره الايام لتقويض العمل الرائع الذي انجزه.

وبعد ايام قلائل من الاحتفال بتقديم نوط النسر الأسود يقيم الامبراطور وليمة كبرى يدعو لها جميع الموظفين والضباط الذين منحوا ذلك النوط ويتلقاهم بترحاب وبشاشة . ثم يتحلقون حول الموائد العامرة بمنتهى المساواة بين الوزير ومدير البريد وقائد الشرطة المحلية وقائد الفيلق فكلهم خدام لبلدهم . أما عدد المدعوين في تلك الولائم فيصل الى الألفي مدعو.

وكانت احتفالات البلاط البرليني السنوية تصل الى اوجها عند اقامة حفلة الرقص الكبرى التي يدعى لحضورها عدد من الأمراء الاجانب . ويفتتح الرقص عادة في الصالة البيضاء بالقصر الامبراطوري المزينة جدرانه بروائع الفن التأريخية ويحضر الاحتفال جميع أفراد البيت المالك من آل هوهنسولرن . وتجري قبيل اقامة حفلة الرقص الكبرى حفلات عديدة يحضرها علية القوم من رجال وسيدات وتتميز كل هذه الحفلات بالروعة المتناهية فالى جانب قيافات رجال الجيش والقوات المسلحة الأخرى المزركشة كنت تجد بدلات سيدات المجتمع الانيقة التي يتفنن بألوانها وطرزها وهي تضوع بالعطور الثمينة وكنا نستمتع آنذاك برؤية تلك المجموعة الرائعة من الناس والتي كانت تضم بطبيعة الحال عددا من الصبايا الفاتنات.

وكانت مهمتنا ـ نحن ضباط الحرس ـ الاحاطة بالعرش وايصال الشخصيات التي تقدم للذات الامبراطورية بالوقت المطلوب وبالحالة المقتضية وفقا للاصول المرعية وكم كنا نضحك في سرنا عندما نلاحظ اصابة احدى السيدات بحمى الرهبة وتعلو وجهها حمرة الخجل.

كان مدير المراسم في البلاط الامبراطوري رجلا تغلب الدعاية على طبعه ولقد حدثنا ملياً عن طبيعة عملنا معه مختتما ذلك الاسهاب بقوله:

« يجب ان تبذلوا قصارى جهودكم في هذا السبيل بحيث تحاول كل أميرة مكافأتكم بقبلة».

فلما بذلنا الهمة طمعا بنوال ذلك الثواب وجدنا انفسنا وقد غشنا السراب ذلك لأن التزمت كان سائدا في تلك الأوساط . فلم نحصل على القبل وانما رجعنا للمعسكر وجيوبنا محشوة بالحلوى الملكية النفيسة . الا اننا كنا نغتنم الفرصة عندما تقام حفلة راقصة كبرى ويحتشد في قاعة القصر الرئيسة اربعة آلاف مدعو فنراقص لفترة وجيزة احدى كرائم المدعوين في ركن قصي عن موقع رئيس المرافقين المرهوب الجانب المشير غراف اوغست أويلنبورغ . وكذلك بمنأى عن مديرة شؤون القصر البارونة بروكدورف.

وكنا — نحن الملازمين الشباب — نعتبر رئيس المرافقين قدوة لنا ومثالا يحتذى به . فهو رجل انيق ودقيق ومتواضع . اذ كان يعاملنا — رغم مكانته الرفيعة في الجيش والبلاط — مثل معاملته لقادة الفيالق الذين يحظون بمقابلة الامبراطور.

ومما لا شك فيه ان كل انسان ابن عصره ولا غرو اذا بقيت طوال حياتي متأثرا بالايام التي قضيتها في البلاط الامبراطوري . ذلك لأنني تلقيت هناك التعاليم الاولى للتمسك بالتقاليد والمحافظة على الانتظام.

في ختام سنة الاختيار التي قضيتها في الحرس ترتب علي أن اخوض اختبارا انهيته بالنجاح فلما اتيحت لي فرصة الانتماء للوحدة التي افضلها آثرت الالتحاق بكتيبة الأولان الخامسة المرابطة في اقليم ويستفاليا . لأن ابي كان قد خاض في صفوفها حربين فنسبت لها برتبة ملازم ثان وعمري ثمانية عشر ربيعا ونصف . وبذا أكون قد خطوت الخطوة الأولى من حياتي الحافلة.

الا انني لم يأخذ مني الغرور اي مأخذ، نظرا لأن نمط التعليم البروسي الصارم كان يستوجب التركيز على التعليم الاساسي المتقن لمهنة الجنديــة ويعتمد فيه المرء على نفسه مقتديا بأحسن الآمرين الذين يخدم بمعيتهم.

والآن وقد مرت تلك الأيام الجميلة فانني كثيرا ما اتلذذ بالذكريات التي عشتها آنذاك والتي ستبقى مصدرا لسرور خاطري ما حييت.



الفصل الثاني

الحَيَاة في سِنيُ تَحَوّل القِرن

ديوسلدورف وكتيبة الأولان الخامسة . الفنون والجنود . الفروسية واجتياز العراقيل . مدرسة الخيالة في هنوفر . في انكلترا الفيكتورية . سوسكس الشرقية . سوق هاربورو . مفارقة بريطانيا في عام ١٩١٣ .

استقبلتني كتيبة ديوسلدورف بأذرع مفتوحة . كما ان بيت جدي القديم في شارع هوف غارتن اعاد لخاطري ذكريات عزيزة على النفس . وقد خصص لي مسكن مستقل في ثكنة كتيبتي . وكان آمر الكتيبة آنذاك غراف فرديناند بروهل وهو سيد كريم المحتد وشخصية محترمة يقتدى بها .

كانت تلك السنين التي تحول بها عصرنا من القرن التاسع عشر الى مطلع القرن العشرين حافلة بالحماس من اجل الارتقاء الصناعي والتقني والفني بحيث صرنا نلمس التحول نحو الافضل وجني ثمار الحضارة المزدهرة من يوم لآخر . وقد ضمت كتيبتنا عددا كبيرا من ابناء الأسر الصناعية المشهورة في منطقة الراين امثال هانيل وپويسنغن وكارپ وهايه وتساپ وشايدت

وهويش وغيرها . وثمة افراد آخرين ينحدرون من عوائل معروفة في مجالي العلم والفن مثل اويدر وايكن بريخر ورويبر وماتيس. وكان لاتصالنا مع هؤلاء وهؤلاء فوائد جمة بتعرفنا على جوانب عديدة لنهضتنا الصناعية واطلاعنا على دقائق اسرارها.

والعجيب ان النهضة الفنية رافقت النهضة الصناعية ولعبت دورا مهما في تقدم الاخيرة . فقد انجبت اكاديمية الرسم والنحت جيلا معتبرا من الفنانين الكبار امثال كامپ هاوزن ولودڤيك كناوز وآرنولد بيوكلين والأخوة آخن باخ وابن ريتل وغيبهاردت واويغن كامپف الذين حازوا مكانة مرموقة في عالم الفن بفضل الروائع التي قدموها والتي لا زالت تسر الناظرين . وكانوا كلهم يساهمون في المناسبات الوطنية والاجتماعية والاعياد بتقديم تناجاتهم الفنية النفيسة . اما «بيت الفن» في ديوسلدورف فهو موئل معروف منذ اكثر من مائة عام وهو بناء شامخ جوار بوابة المدينة القديمة كان مالكه الأول الفيلسوف الشاعر ياكوبي الذي عاصر غوتيه . وكان قد شيده بعد عودته من الحملة على فرنسا عام ١٧٩٢ . ويقال ان قصة «هرمان ودروتيه» قد تم تأليفها في هذا البيت[١]. وبعد نصف قرن من ذلك التأريخ ــ أي في فترة الغليان الشعبي التي انتهت بثورة ١٨٤٨ ــ اصبح بيت الفن في ديوسلدورف من المنازل المشهورة في جميع ارجاء العالم.

ولقد سرت في تلك الفترة موجة من الفن الشعبي الذي امتد تأثيره ليس فقط الى مدن الدولة الألمانية وحدها وانما تعداها للمدن الاتحادية[٢]. وكانت تلك الموجة تذكي جذوة الحماس في نفوس المواطنين وتمجد روح الفروسية . ويمكن اعتبار تلك الموجة بداية ميلاد الفن الألماني الحديث.

كما ان احد فناني تلك الفترة اقام جسرا فنيا مع امريكا . اذ حدث ان

---

(١) قصة « هرمان ودروتيه » من تأليف الكاتب الالماني الكبير غوتيه .

(٢) ان المدن الاتحادية هي موانىء المانية تضامنت فيما بينها قبل قيام الوحدة ومنها مدن هامبورغ وبريمن ودانزك . ــ المترجم ــ

قابلت في واشنطن احد اصدقائي القدماء من ابناء ديوسلدورف في عام١٩١٤ فقلت له:

«لابد انك تستمتع هنا برائعة ايمانويل لويتسه!»

فأجابني صاحبي ضاحكا:

« أنا لا اعرف ايمانويل لويتسه هذا ولا رائعته التي تتحدث عنها فأنا لم أشاهد اية صورة رسمها الرجل».

فراهنته على زجاجة من الشراب الفاخر على ذلك فلما قبل الرهان قلت له:

« ألم تشاهد اللوحة الكبرى المعلقة في قاعة الاستقبال بالبيت الابيض؟» فأجابني نادما على قبول الرهان:

« يا الهي ، انها لصورة يعرفها كل طفل في امريكا . وهناك الملايين من الاعلانات التي تنشر وعليها صورة اللوحة الخالدة ولكنني لم اتصور انها من رسم الفنان الألماني لويتسه».

فشربنا معا القنينة التي خسرها صاحبي نخب الفنان الخالد لويتسه. وقضينا ساعات من مرح الشباب سوف لن انساها ما حييت.

وللمرء أن يقدر طبيعة الحياة الصاخبة التي عشتها آنذاك وأنا ملازم غر لم اتجاوز الثامنة عشرة وجدت نفسي فجأة وأنا في وسط تلك الدوامة من الحياة الصاخبة ، فعلى الرغم من انهماكي بالواجبات الكثيرة التي تستدعي مني كل جهودي في الليل والنهار كنت اختلس بعض ساعات اليوم ـ مضحيا براحة النوم ـ لاستمتع بمباهج الحياة. لكنني كان علي انا كون في الساعة الرابعة من صباح كل يوم ممتطيا جوادي لأبدأ بالتدريب الذي يتطلب مني اقصى طاقات التحمل البدني. لاسيما وان ـ خدمة الملك ـ كانت تقضي بوجوب ممارسة القسوة على النفس الى ابعد الحدود ، وكان ضباطنا الاقدمين يحرصون على المحافظة بشدة على معنوياتنا وقاية لنا من الاخطار المحيقة بنا أو من تلك التي يحتمل أن نتعرض لها في حياتنا العسكرية.

وكان الحفاظ على التقاليد يعتبر من الأمور البديهية بالنسبة لنا • ذلك لأن جميع الأمم العظيمة لابد ان يعتز ابناؤها بأمجادها وبتاريخها. ولما شهدنا بعد الحرب العالمية الأولى أوامر المنتصرين بالقضاء على التماثيل والنصب التذكارية للشهداء اعترتنا موجة عارمة من الكره والاشمئزاز • وكان ان استغل هتلر بعدئذ ذلك الشعور الوطني العارم فأمر باعادة تلك النصب والتماثيل فظهر ازاء الشعب الألماني بمظهر الحريص على التقاليد الموروثة .•

ولما علمت بأن النية متجهة لاقامة نصب تذكاري لشهداء كتيبة الأولان الخامسة في مدينة ديوسلدورف تمجيدا لأبطالها الذين سقطوا في ميادين الشرف ابان حروب الوحدة الالمانية وفي القرن العشرين ــ وكنت آنذاك سفيرا لبلادي في أنقرة ــ تقدمت برجاء لوزير المالية التركي لكي يسمح بتصدير خمسة اطنان من النحاس بغية نقلها الى ادارة الجيش الألماني للاستفادة منها في صنع التمثال المذكور فوافقت الحكومة التركية على الطلب• وتم نقل الكمية المطلوبة من النحاس الى المانيا ثم ما لبث وزير المالية التركي ان اخبرني بأنه مسرور لقرار حكومته باهدائي تلك الاطنان الخمسة من النحاس تقديرا منها لوفائي لرفاق السلاح وتمجيدا للروح العسكرية•

في ربيع ١٩٠٠ سمح لي آمر كتيبتي بالمساهمة في مسابقة « الجري بين الاعلام» وكانت قد تنامت رياضة الفروسية آنذاك في جميع ارجاء المانيا واحتدم التنافس بطبيعة الحال بين ضباط الخيالة بالدرجة الاولى .• وتميز اقليما الراين وويستفاليا بتنظيم أحسن المسابقات في اجتياز الموانع المعقدة ولابد من الاشارة هنا للمبرزين في ذلك الميدان اخص بالذكر منهم پوشكه هايدن ليندن آمر كتيبة الاولان ١٣ والأخوة كونيغسمارك وابرزهم فريتز والفارس ڤالينبرغ على حصانه المشهور تيبر لاسكي من مدرسة الخيالة وشپونك الذي ذاع صيته الى يوم الناس هذا كمدرب ممتاز للخيول واخيراً وليس آخراً صديقي الحميم اوتو زويرموندت الذي كان يرتدي قيافة فرسان دارمشتادت وقد حاز الأولوية في ما لا يقل عن ثمانية سباقات

لاجتياز الموانع.

ولقد تعلمت الكثير من اولئك الفرسان الأبطال . حيث وجب علي آنذاك أن لا يزيد وزني عند الركوب عن ثمانية وستين كيلوغرام وهذا معناه المحافظة على وزن جسمي بحيث يتراوح بين الستين والاربعة والستين كيلوغراما . وهذا الوزن يتطلب التعرض للجوع والتعرق والعزوف عن تناول الكحول.

ولم اكن موسرا لدرجة تتيح لي امكانية شراء حصان خاص لأن الخيول الاصيلة كانت ولا تزال مرتفعة الاثمان . ثم ان اقتناء الفرس يتطلب المواظبة على تدريبه في كل صباح. ولذا فقد استفدت من أحد خيول صديقي بارون رومبرغ الذي دأب على اعارتي ذلك الحصان في مختلف المناسبات.

ولما حالفني الحظ بعد ثلاثين عاما واصبحت رئيسا للحكومة تعرضت للكثير من الانتقادات الممضة والتعريض حيث زعم البعض بأنني كنت مدرب خيول ولذا فانني آخر من يصلح لمنصب مستشار المانيا .

ولقد اكدت لمنتقدي كلهم بأن ممارستي لرياضة الفروسية منحتني أسعد ساعات المتعة التي عشتها . ثم ان رياضة الفروسية تتطلب السرعة في التفكير والحسم والصبر والقسوة على النفس وعدم التخوف من التعرض للاصابة بكسور العظام وهذه كلها من الفضائل التي لابد للمرء أن يتدرب عليها. اما ممارسة السياسة فأمر آخر يختلف عن ممارسة الفروسية لأن السياسة تتطلب اتخاذ القرارات الصعبة والمعاناة الموجعة للقلب . وأنا أزعم بأن ممارسة الفروسية لم تكن ابدا ولن تكون مثلبة للسياسي.

أرسلتني كتيبتي للاشتراك بدورة في مدرسة الخيالة بهانوفر خلال الفترة ١٩٠٢ــ١٩٠٤ وكانت تلك الدورة ــ دورة ركائب ــ وهي من اصعب دورات الفروسية لأنها تتطلب البقاء في المضمار أو الجري وراء كلاب الصيد السريعة على خيول ثقيلة او ترويض الافلاء الفتية مع التمسك بأدق القواعد الرفيعة والتحلي بالرشاقة في ممارسة فن الفروسية . ولقد اعجبت

آنذاك بالوصف الذي جاء بمحاضرة «وايت ميلفل» عن الفروسية في بريطانيا وخصوصا «سوق هاربورو» فعقدت العزم على زيارة ذلك الموقع وحصلت فعلا على موافقة آمر المدرسة فسافرت مع صديق لي هو حفيد المصمم الميونيخي المشهور «كلينتسه» وكان ان عبرنا القنال الانكليزي في كانون الأول ١٩٠٢ .

كان الانطباع الذي حصلت عليه عن بريطانيا التي كانت قد شهدت العصر الفيكتوري الذهبي رائعا . اذ ان بريطانيا وصلت في تلك الفترة الى أوج القوة الامبراطورية في جميع المجالات . وحدث أن تعرفنا في مناسبة هناك على فارس بريطاني من المحاربين القدماء له صولات مشهودة في الحروب التي خاضتها بلاده.

ولما ذهبنا الى احد الاصطبلات المعروفة للبحث عن خيول جيدة قابلناه هناك فرمقنا بعين المتفحص وسألنا:

« هل انتما فارسان متمكنان ؟»

فأجبناه بتواضع:

« نأمل أن نكون كذلك ».

فقال لنا عندئذ :

« سأبعث اليكما غدا بحصانين لتحضرا بهما سباق صيد ابن آوى في بيلفوار».

ففارقناه مؤملين انه سيبعث لنا بحصانين ثقيلين لكي يختبر بهما مقدرتنا على التصرف . لكن الرجل فاجأنا باليوم التالي عندما بعث الينا بجوادين كريمين رشيقين فلما امتطيناهما وجدناهما مدربين على القفز والعدو هذبا بحيث يمكنني التأكيد بأنني لم استمتع في كل حياتي بأي ركوب كذلك الركوب الذي وجدت به حصاني وكأنه على معرفة قديمة بي ولذا فقد سهل علي اجتياز جميع الموانع التي صادفتني بالريف الانكليزي وأنا على ظهر ذلك الجواد الرشيق الخفيف الحركة والذي احببته حقاً.

كانت كلفة تأجير الحصان في اليوم الواحد أربعة جنيهات[٣] استرلينية فقط. ولو حدث للحصان اثناء ممارسة الرياضة أي حادث يؤدي الى نفقه فان مالكه يتقبل ذلك برحابة صدر ولا ينبس ببنت شفة. لقد لمسنا في تلك الزيارة الكرم الانكليزي عندما تعرفنا على عدد من رجال المجتمع وتقبلنا دعواتهم وكانت آخر تلك الدعوات هي الدعوة التي وجهها لنا السيد أوغوست نيڤن دومونت الذي كان يشغل آنذاك منصب رئيس ادارة سوسكس الشرقية. ولنا أن نتصور مدى العلاقة الوطيدة التي كانت تربط الشعبين الانكليزي والبروسي متمثلة بالتكريم البالغ الذي لقيناه من لدن اولئك السادة الأماجد.

وحدث ان قمت بعدئذ بزيارة أخرى قصيرة لبريطانيا واستصحبت زوجتي معي. وكان ذلك في تشرين الثاني من عام ١٩١٣ عندما رجاني مدير الاصطبلات الامبراطورية بارون ڤيستنفالن - قبيل سفري الى واشنطن - مرافقته في زيارة لبريطانيا بقصد شراء بضعة رؤوس من الجياد الأصيلة لاصطبلات الامبراطور. وقد دعانا لورد آنالي لمشاركته في حفلة لصيد ابن آوى على ظهور الخيل.

وكانت تلك السفرة افضل فرصة اتيحت لي للتمتع برؤية أجمل الخيول الأصيلة. وقد اعجبت انا والبارون ڤيستنفالن بحصان رشيق ففاتحنا صاحبه متسائلين عما اذا كان على استعداد لبيعه لأمبراطور المانيا فأجاب على التو:

« «لا يا سادة سوف لن ابيعه حتى ولا لملك بريطانيا»

كانت تلك آخر زيارة قمت بها لبريطانيا. وكم يحز في نفسي أن أجد تلك الامبراطورية العتيدة والمنقطعة النظير وقد اصبحت في ذمة التأريخ.

---

(٣) يعادل الجنيه الانكليزي ٢١ شلن اي انه أكثر من الباون بشلن واحد ويعتبر التعامل بالجنيه من مظاهر الوجاهة في المجتمع الانكليزي الارستقراطي.
- المترجم -

ذلك لأن حربيها العالميتين اللتين خاضتهما ضد المانيا جعلتها تفقد مستعمراتها المترامية الاطراف والمنتشرة في جميع ارجاء المعمورة.

واني لاغبط بريطانيا على نظامها البرلماني. والواقع هو انني لم افهم ابدا لماذا بقيت هذه البلاد محافظة على الرغم من متحرريها واشتراكييها الذين شهدوا انهيار النظام الملكي في المانيا بكثير من التشفي. ولو ان اولئك الناس تمعنوا بعقابيل الحرب لما اقدموا على خوض الحرب العالمية الاولى التي تمخضت عن فقدان اواسط اوربا لمركزها السياسي الذي كانت تتصدى منه لاطماع اوربا الشرقية في التوسع.



الفصل الثالث

في ليلة نشوب الحرب العالمية الأولى

بدء الحياة الجديدة • اكاديمية الحرب • پوتسدام • هيئـة الاركان الكبرى • في الوحدات النمسوية • غراف شليفن ومولتكه الصغير • التوترات الأوربية • تم تحقيق الغرض •

عندما رجعت الى ديوسلدورف في عام ١٩٠٥ ادركت بأن الوقت قد حان لوضع أسس حياتي العائلية • وقد حدث ان تزوجت في هذه الفترة احدى بنات عمي من ابن المستشار فون بوخ غالهاو وكان هذا الزواج بادرة خير لي لأنه كان المناسبة التي تعرفت بها على الأسرة الكريمة التي اتحفتني بزوجتي العزيزة وهي من أسر مدينة ميتلاخ الأثرية الجميلة • وفي مايس ١٩٠٥غادرت عروسي معي بيت اهلها المونق الكائن على ضفة السار وقد حظينا بلطفهم الجم عند وداعهم لأصغر بناتهم حيث استقرت في بيت الزوجية الذي اشاعت فيه الكثير من اللمسات الحانية التي جائت بها من أهلها ومن وطنها وحاولت تطبيقها في منزلي • وانني لعاجز عن تصور حالتي لو لم أتعرف على هـــذه

السيدة الأصيلة الكريمة المحتد والتي صحبتني طوال خمسة واربعين عـاما عشناها بسعادة منزلية وواتانا خلالها الحظ السعيد.

عندما اقيمت حفلة العشاء لاعلان خطوبتنا القى والد قرينتي كلمـة موجزة بالمناسبة باللغة الفرنسية جريا على عادة عوائل ميتلاخ آنذاك . ولم افهم من كلمة الرجل سوى نصف فحواها وكان هذا مدعاة لغيظي الذي كظمته على مضض . وقد قال حماي لابنته فيما بعد بأنه يكن تقديرا خاصا لضباط الركن .» ولذا فقد حزمت أمري على تعلم اللغـة الفرنسية أولا ثم اردت كسب التقدير الاستثنـائي الذي يكنه والد زوجتي لضباط الركن فقررت الانتماء لهيئة الاركان وكان قراري سهلا ولكنه استوجب علي سلوك الطريق الشاق الذي تعتوره الصعاب ويتطلب الكثير من الجهود المضاعفة.

كانت أسرة بوخ غالهاو أسرة شديـدة التأثر بالعلاقـات السيـاسية الالمانية ـ الفرنسية ولذا فان مرد اهتمامي الشخصي الكبير بمشكلة علاقة المانيا مع فرنسا يعود لتأثري بالمسألة بحكـم اهتمـام أسرة زوجتي بهـا. وللأسرة المذكورة وشائج قربى ببعض أسر لوكسمبورغ كما انها ذات قرابة مع أسر أخرى لورينية .» حيث ان احدى عمات زوجتي متزوجة من ضابط فرنسي . والاخرى متزوجة من المركيز الفرنسي دونسيو دي شـافاردون والثالثة متزوجة من النبيل اللوكسمبورغي لامورال ڤيلرز. اما الشقيقـة الكبرى لزوجتي فهي قرينة حفيد البارون نوت هومب الذي كان احدابطال استقلال بلجيكا.

ولقد ورثت زوجتي عن عمها ادولف فون غالهاو منبع المياه المعدنيـة في السار الذي اقامت اسرتنا على ارضه فيمـا بعد منزلها . وهكذا يجـد القاريء ان جميع هذه العوائل ساهمت بحروب الحدود الطويلة التي دارت في مناطق سكناهم منذ عهد لويس الرابع عشر . ولذا فليس من الغريب ابدا ان تجد ابناء تلك الأسر يفكرون دائما بالوفاق الدولي والوحدة الأوربيـة بحثا عن السلام. وهذا ما انعكس علي بالذات فحـذوت حذوهم وكأنني احدهم . واصبحت بحكم المصاهرة متأثرا بالافكار السـائدة في مجتمع

ميتلاخ.

ادرك والد زوجتي واسلافه في وقت مبكر المشاكل الاجتماعية المترتبة على النهضة الصناعية والقضايا الناتجة عن معيشة العمال في اماكن ضيقة في المدن الصناعية وهي المشاكل التي برزت بوضوح خلال القرن العشرين . وعليه فلم يدخروا وسعا ـ لاسيما وانهم كانوا من الموسرين ـ في تأسيس ملاجيء للايتام والعجزة ومستشفيات وصناديق للرعاية المالية التي تونى بانتظام للعوائل الفقيرة.

ولما تولت الدولة فيما بعد مهمة الاشراف على هذه الفعاليات الانسانية استمر الرجل على فعالياته ببذل المساعي الحميدة لخدمة المجتمع في شتى مناحي الحياة . وقد اقتديت به فيما بعد في اغلب نشاطاتي البرلمانية المتعلقة بالرعاية الاجتماعية وجعلته مثلي الاعلى.

عندما رشحت نفسي للالتحاق بكلية الاركان اشركت بدورة تمهيدية تفتح في كل حامية تحضيرا للاشتراك باختبار القبول الذي يتم في مقر كلية الاركان ببرلين . وهي دورة تتطلب الكثير من الجهود المضاعفة . حيث يشترك في الاختبار التنافسي الذي يجري في كل سنة اكثر من الف ضابط لكي يفوز منهم بالقبول زهاء مائة وخمسون ضابطا فقط. وتشتمل الاختبارات على دروس التأريخ والجغرافيا واللغات والتعبية والتأريخ العسكري والدروس العسكرية الاختصاصية الاخرى كالتحصين وتعليم الاسلحة والادارة .. الخ. وكان الحافز الاضافي الذي دعانا لترشيح أنفسنا للقبول في كلية الاركان هو تحول الضابط من الخدمة في حاميات الحدود الصغيرة الى الاقامة ببرلين طوال ثلاث سنوات تتاح له خلالها فرصةالدراسة الاختصاصية الرفيعة. واذا حاز المرء نجحاً في مساعيه وواتاه الحظ السعيد ليكون ضمن أول ١٥٪ من الخريجين فانه يجب ان يتوقع لنفسه مستقبلا باهراء

وهناك الى جانب مشاغل الدراسة في الكلية مناسبات فريدة يتشوق كل ضابط للمساهمة فيها كالمناورات الكبرى التي تنفذ في منطقة هيسن ـ راين

يفالتس • والتي دعي لحضورها في احـدى السنين الفريق الاول الانكليزي فرينش ولم نستشرف غياهب المستقبل آنذاك حيث أصبح ذلك القائد بعـد بضعة اعوام «قائدا لقوة الانقاذ البريطانية» التي ارسلت عبر القنال الانكليزي في آب ١٩١٤ لمساعدة الفرنسيين ضدنا .•

وفي السنة التالية أجرى المقر العام « تمرين القيصر » في منطقة هانوفر ــ ويستفاليا • وتم تنسيبي آنذاك مرافقا لضيف القيصر الامير دون كارلوس آل بوربون وهو نسيب ملك اسبانيا • فصحبت الضيف الى معسكر وحـدتي السابقة واستقبلني آمرنا فون پيليه ناربونه حيث أعد لنا اقامة مريحة في قصر مجلس الامراء القديم بهانوفر .•

ولقد اتيحت لي بطبيعة الحال فرصة التعرف على آراء الامير وصديقـه الامير نيكولايفيتش اذ وجدت ان الامير الاسباني واسع الثقافة ويمكنه ادارة دفة الحديث بموضوعية تامة في المجالات العسكرية والسياسية ويقدم آرائه الصائبة بصدد المعضلات التي كانت قائمة آنذاك •

وحدث ان باغتني مرة بقوله :

« انني لا أفهم قيصركم • فهو يدلل اليهود كثيرا .• وقد قلت له مرة بأنه سيجني عاقبة عمله هذا لانه أمر في غاية السوء » •

ولقد تعجبت كثيرا لهذا الانتقاد السافر من الامير لمضيفه .• وكان ان بقيت أتمعن بقوله هذا بين آونة وأخرى • فالمعلوم للجميع ان غليوم الثاني كان قد منح الكثيرين من أساطين الصناعة الالمانية اليهود القابا نبيلة وأسـبغ عليهم المكارم الوفيرة ووطد لنفسه معهم علاقات صداقة حميمة • وكان ان حاز القيصر

لقاء تلك المودة على الاخلاص[1].

ولقد عجبت فيما بعد لتنكر يهود الولايات المتحدة الامريكية لالمانيا وللقيصر بالذات ابان الحرب العالمية الاولى • حيث سمعت تهجم اليهودي الامريكي ـ الالماني الاصل ـ تشارلس شڤاب من شركة بيت لحم للفولاذ على المانيا وعلى القيصر شخصيا •

أما الامير الروسي نيكولايڤيتش الذي صار فيما بعد قائدا عاما للجيش الروسي فقد لاحظت عليه أيضا شدة انتقاده لالمانيا في ذلك الحين • ويبدو ان ذلك الرجل لم يدرك بأن عهد الحلف المقدس قد مضى وان عهد بسمارك قد انقضى وان قيصره الضعيف اصبح العوبة بيد الغلاة من دعاة القومية السلاڤية •

في تشرين الاول ١٩٠٧ وجب علينا ان نغادر مدينة ديوسلدورف الحبيبة وان اودع كتيبتي العزيزة لكي أبدأ مهمتي الجديدة في برلين التي استوجبت مني مفارقة القطعات وهذه حالة افتقدتها ما حييت لانني خسرت العلاقة الحميمة والمستمرة بين ضابط القطعات ورجاله الاشاوس • فعلى الرغم من الضبط الصارم تبقى روح المودة والعلاقة الرفاقية مستمرة على مر السنين طوال أيام

---

(١) لا نؤيد المؤلف برايه هذا لان الوقائع التاريخية الثابتة تناقض ما ذهب اليه. فقد كان غليوم الثاني من أشد اباطرة اوربا مودة لليهود الذين استغلوا صداقته للسلطان العثماني عبدالحميد الثاني الذي دعاه لزيارة القسطنطينية في عام ١٨٩٨ وعرج منها على دمشق والقدس حيث قابل هناك ـ نتيجة تدبير مسبق ـ داعية الصهيونية الاول تيودور هرتسل الذي اقنعه بمفاتحة السلطان لمنح فلسطين لليهود لقاء رشوة مجزية فلما فاتحه فعلا رفض السلطان الطلب ولم يتزحزح عن رايه بأن الارض المقدسة تعتبر جزءا من مسؤوليته المقدسة .
الا ان اليهود ما ان استشفوا خسارة المانيا الوشيكة للحرب العالمية الاولى الا وحولوا جهودهم و (ولائهم) لخدمة الحلفاء وخصوصا بريطانيا التي احتلت فلسطين بغية استمالتها وتنفيذ مخططاتهم الاجرامية وخانوا القيصر وبلاده . وقد أثار هذا الجحود حفيظة القوميين الالمان فيما بعد وخصوصا هتلر الذي انتقم منهم شر انتقام . ـ المترجم ـ

العمر . فالعوائل الويستفالية والراينية كانت تبعث اولادها الينا لانها تقدر مدى التثقيف وتعاليم النظافة والطاعة والاخلاص التي يحصل عليها اولئك الشباب .

وليس ادل على وفاء جنودي النجباء من الرسائل التي لا ازال اتلقاها من بعضهم بين آونة وأخرى رغم مرور أكثر من نصف قرن على خدمتنا معا .

على تلميذ الاركان ان يتم دراسة ثلاث سنوات في اكاديمية الحرب وتبدو مباني الاكاديمية التي كانت في شارع دوروتين ببرلين مثل مباني أية جامعة أخرى ولكن المحاضرات التي تلقى فيها تختلف عن المحاضرات الجامعية اختلافا تاما . اذ لا تسود في اكاديمية الحرب القواعد المعتادة وانما تعتبر الاستثناءات هي الاسس المعتمدة لترصين المعلومات التي تتضمن دراسات عديدة من أجل تقوية قابليات الدارسين فيها . وتستمر الدراسة العسكرية المتسمة بالدقة المتناهية خمس ساعات في اليوم وتتطلب كلها التحضير المسبق . أما ساعات العصر فتترك لتنظيم الامور المعاشية للتلاميذ وتلقى الدروس الاخرى غير العسكرية كالتأريخ والجغرافيا واللغات . ثم تأتي الاختبارات الصارمة لتقييم قابليات كل تلميذ وتحديد مستواه . وواضح ان الضبط الصارم والحرص الشديد على توخي العدالة لابد ان يؤديان الى بروز المتفوقين بجدارة دون غيرهم . وكان زملائي في الدورة ينحدرون من أسر المقاطعات الالمانية المختلفة. وقد اقمت علاقات صداقة وطيدة مع معظمهم استمرت طوال السنين الماضية التي تخللتها الكوارث والحروب ولقد برز من رفاقي الذين واصلوا الخدمة في المجال العسكري عدد كبير من القادة المرموقين في تأريخ المانيا العسكري امثال الفريق البارون فون فريتش والفريق البارون فون هامرشتاين اكوورد والمشير فون بوك .

وكان تعليمنا يشتمل على الالتحاق بوحدات من الصنوف الاخرى ولانني ضابط خيالة فقد الحقت لبضعة اشهر في لواء المشاة السكسوني الملكي في شتراسبورغ[٢] ثم بكتيبة مدفعية الميدان المرابطة في ترير[٣] .

(٢و٣) ضمت شتراسبورغ وترير الى فرنسا منذ نهاية الحرب العالمية الاولى لانهما تقعان ضمن اقليمي الالزاس واللورين .

ـ المترجم ـ

وعندما انهيت دراسة الاركان حصلت على اجازة طويلة قضيتها في فرنسا من أجل تقوية لغتي الفرنسية ، وللتعرف على طبيعة الشعب الفرنسي ،

ألحقنا ـ نحن المائة والخمسون ضابطا ـ بعد تخرجنا في الكلية بمختلف وحدات وتشكيلات الجيش الالماني لمدة ستة اشهر تم خلالها انتقاء عـــدد يتراوح بين ثلاثين واربعين ضابطا منا لكي يعملوا في هيئة الاركان الكبرى ، وكان من نصيبي ان الحقت في تلك الاشهر الستة بلواء مشاة قديم كان بأمرة آمري السابق العقيد فون پيليت ـ ناربونه وكان اسكان اللواء في بوتسدام وقد حظيت برعاية آمر اللواء ولطفه اللذين لن أنساهما ما حييت ،

في ١ نيسان ١٩١١ صدر الامر بانتقائي للعمل في هيئة الاركان الكبرى ببرلين ولعلي قضيت أفضل سنتين من سني الخدمة طراً في عملي هناك ، حيث اقمت مع اسرتي الصغيرة في دار تقع قبالة الحديقة الجديدة لقصر المرمر الذي أقام به ولي العهد آنذاك والقائم في أرقى أحياء برلين الحديثة وهو حي تحف به الحدائق الغناء الساحرة ، وكان هذا السكن المريح والحياة الهادئة مدعاة للعمل المثمر الى ابعد الحدود ،

ابدى المشير غراف شليفن رئيس هيئة الاركان الكبرى سروره البالغ عندما رآني احمل شعار كتيبته التي سبق أن خدم فيها ثم صار آمرها ردحــا طويلا من الزمن قبل ان يصبح رئيسا لهيئة الاركان الكبرى ، واستبشر لعملي معه ـ بصفة ضابط ركن حديث ـ في المقر العام الذي اقام في بناية فخمـــة بميدان الملك ببرلين ،

وبعد فترة وجيزة من التحاقي بالمقر العام تخلى المشير غراف شليفن عن منصبه وحل محله الفريق فون مولتكه الصغير وهو ابن أخ المشير فون مولتكه الكبير ، الا ان الروح التي نفحها غراف شليفن بادارة العمليات الالمانية بقيت سائدة ردحا من الزمن رغم تقاعده وحلول فون مولتكه الصغير بمحله ،

وقد حصلت على انطباع رائع لا يمحى من الذاكرة عندما استأنست باللقاء مع القائد غراف شليفن في مناسبات العشاء التي كانت تقام في المقر العـــام

واستمعت خلالها لآرائه العسكرية والسياسية السديدة والمتعلقة بموقف الدولة الالمانية في ذلك الحين •

كنت منسبا للعمل في الشعبة العاشرة التي كانت مختصـــة بالنمسا • ولم تكن امبراطورية النمسا والمجر تكتم عنا اي سر من اسرارها العسكرية وانما كان هناك تبادل لوجهات النظر فيما بين قادتنا وقادتهـا يتم على أعلى المستويات .• ولذا فقد كان رئيس هيئة اركان الجيش النمسوي الفريق كونراد فون هوتيسندورف يبادل رئيس الاركان الالماني اخلاصا باخلاص • وكانت الفكرة السائدة آنذاك هي ان نشوب الحرب بين امبراطورية النمسا والمجـر وامبراطورية روسيا يعتبر من الامور التي لا سبيل لتفاديها نتيجة لسياســة الوحدة السلافية التي شرعت روسيا بممارستها والتي استنكرتها حكومة برلين آنذاك •

وكان العمل في هيئة الاركان الكبرى يتسم ببذل الجهود المضنية من أجل انجاز الكثير من الفعاليات بمنتهى الدقة والانتظـام .• بالاضافـة الى تعدد الواجبات التي كنا نكلف بها • وكنا نطبق في كل اسبوع تقريبا تمرينا فحصيا اما ان يكون تعبويا أو سوقيا لكي تتاح لرئيس كل قسم التعرف على امكانيات ضباط ركنه وقابلياتهم عن كثب لـكي يتسنى لـه تمييز الغث من السمين • والامر الذي أثار اعجابي من هذا الموضوع كله هو تمتع الرؤسـاء بكامل مسؤولياتهم في تقدير كل فرد وتقديم تقرير جازم عن قابلياته .• امـا انا فقـد استفدت من التقييم الذي صدر بشأني في السنوات التي أعقبتـه وخصوصا عندما كنت أقوم بتقييم العاملين معي فيما بعد في رئاسة الحكومة وصـادفت نجاحا ملحوظا في هذا المجال ولم اتعرض للنقد الا لماما وأصبحت قـادرا على اتخاذ القرارات السريعة الصائبة والتصرف المباشر دون أي تلكوء • وقد تكون هذه الاجراءات اقل ملائمة لي كسياسي منها كعسكري ولكنني استفدت من هذه التجربة في كلتا الحالتين الى أبعد الحدود طيلة حيـاتي • وانني لمدين بالشكر لمن علمني واحسن تثقيفي •

كان عملنا في مركز القيادة الحيوي الرفيع المقـام وثيق العلاقة بكثير القرارات السياسية المؤثرة على اوربا الوسطى • ولقد استشففنا بوادر الحرب العالمية الاولى من غيوم الاختلافات التي بدأت تخيم على علاقات الدول • ولما كنت من مركزي المتواضع كضابط ركن صغير جزءا من الآلة الحربية الضخمة فقد قدرت فداحة الخسائر التي سوف تتمخض عنها الحرب الكبرى المتوقع نشوبها•فعلى الرغم من معلوماتنا المحدودة عن تأثيرات الاسلحة الحديثة ومدى تسلح الدول الاوربية فقد حدسنا الحاجة للسلام بدرجة تفوق الكثيرين من ساسة اوربا في ذلك الحين •

كانت مهمتنا تتلخص بادامة الماكنة العسكرية الالمانية بحيث تكون قادرة في كل حين • ولذا فقد كان من واجبنا في ١ نيسان من كل سنة تقديم خطط الحركات وخطط النفير المنجزة لذلك العام • وتكون عـادة بالشكل الملائم لتوجيهات القيادة السياسية • وغالبا ما كانت تلك الخطط تتضمن التعرض على فرنسا ــ عند اقتضاء الحال ــ والدفاع ازاء الشرق • او الهجوم على روسيا مع اتخاذ التدابير الدفاعية ازاء الغرب وانني لاتذكر جيدا بأن هيئـة الاركان الكبرى تلقت امرا من القيصر في كانون الثاني ١٩١٣ بعدم وضع أيغة خطط في نيسان من ذلك العام للتعرض على روسيا • ولعل الغرض الذي رمى اليـه القيصر من اصدار ذلك الامر هو اعطاء الاستخبارات الروسية ايماءة بنواياه التي عبر عنها بهذا الاجراء غير الاعتيادي لكي يزيل حـالة التوتر القائمة بين الدولتين •

ولما تأزمت العلاقات بين المانيا وروسيا بعد فترة وجيزة بسبب ازمـة البلقان عاد القيصر فأصدر أمرا مضادا يقضي باعادة اصـدار لائحة الحركات التي تتضمن التعرض على روسيا .• وواضح اننا تملكنا الحنق الشديد لضرورة انجاز تلك الخطط التي يتطلب اكمالها عمل بضعة أشهر خلال اسابيع قليلة • وقد تضمنت فعالياتنا انجاز خطط التنقل بالقطارات وهي لعمري خططا مرهقة لنا نحن الذين تكلفنا باعدادها بدقة متناهية الى حد الدقيقة الواحدة • ولم نكن نعمل لمدة معينة في تلك الايام وانما كنا نواصل الليل بالنهار حتى انجزنا المهمة

الموكلة بنا خلال فترة وجيزة .

وكثيرا ما كنا نشاهد رئيس اركان الجيش النمسوي بين ظهرانينا ابان الاشهر التي نشبت فيها حرب القرم. وكان القائد النمسوي دائبا على السعي لاستمالة الفريق مولتكه الصغير وموضحا له بأن المانيا سوف لن تكون لوحدها عندما تخوض أي نزاع مع روسيا . ويذكرني هذا الموقف بالموقف السائد بعد الحرب العالمية الثانية والذي يدعو فيه الكثيرون الى ضرورة القضاء على الشيوعية الدولية بوقت مبكر وان السبيل الوحيد لتحقيق هذه الضرورة الملحة هو اللجوء للحرب التي لا مفر من شنها.

الا ان الفريق مولتكه الصغير واعوانه كانوا يدركون تماما مدى ضعف حلفائنا النمسويون. وكانوا يتمثلون برأي بسمارك الذي ينص على وجوب عدم تورط المانيا بأية حرب في سبيل البلقان. وكان من رأيه ايضا عدم شن أية حرب وقائية . وهذا الرأي الاخير يشاركه فيه الفريق آيزنهاور الذي يتفق معه بآرائه السياسية والعسكرية.

في ٩ آذار ١٩١٣ وبعد خمس سنوات من العمل تحت التجربة في مختلف الشعب تم تثبيتي بأمر وزاري بمنصب ضابط ركن في هيئة الاركان الكبرى. وقد فرحت لهذا التثبيت غاية الفرح لأنه كان دليلا حاسما على نجاحي في اعمالي. وللمرء أن يتصور مدى تعجبي عندما استدعاني مدير ادارة الاشخاص بعد أشهر قليلة أي في خريف ذلك العام وسألني عما اذا كنت على استعداد لقبول منصب الملحق العسكري في واشنطن. وكان مثل هذا المنصب اكثر ملائمة لضابط مجرب من ضباط الركن كما انني كنت مشغوفا بالامبراطورية البريطانية الى درجة الهوس حيث ان رفاقي كانوا على علم بمدى متابعتي لقوة بريطانيا وحيويتها وأساليبها السياسية . أما الولايات المتحدة الامريكية فقد كانت ذات قوة بعيدة عن اوربا ولم تكن قوتها العسكرية معتبرة كما هي الآن.

ساورني الشك في مدى ملائمتي لقبول المنصب المعروض علي. الا انني

بقيت ارنو بفضول متزايد لمشاهدة القارة غير المعروفة بالنسبة لي والتي سمعت الكثير عن امكاناتها غير المحدودة.

تلقيت قبل مغادرتي المانيا لاستلام منصبي الجديد في كانون الاول ١٩١٣ امرا بمقابلة حضرة صاحب الجلالة القيصر . ولما قابلته دعاني لتناول الفطور على مائدته فوجدته مهاب الجانب وقد اتخذ الفطور صفة عائلية . وتحدث القيصر خلال الفطور عن اصدقائه ومعارفه الكثيرين في الولايات المتحدة ثم قال لي بأنني محظوظ جداً لتولي هذا المنصب. واردف قائلا:

« تعلم جيداً كيف تتكلم الانكليزية . وادرس البلاد والناس وخصوصا روحية الشعب الامريكي. وسأبعثك فيما بعد لتكون ملحقنا العسكري بلندن » .

ولما استأذنته للانصراف حملني تحية خاصة للرئيس تيودور روزفلت وكان لهذه التحية الودية أبلغ الأثر في نفس الرئيس الامريكي.

وعندما ابحرت بعد بضعة ايام تركت زوجتي واطفالي في المانيا على أمل استدعائهم في صيف ١٩١٤. لكنني لم أعلم بأنني سأبقى في امريكا لوحدي طوال سنتين دون ان اراهم خلالها أبداً.



الفصل الرابع

في الخِدْمَة الخَارِجِيَّة لأوّل مَرَّة



واشنطن . منصبي في المكسيك . حرب اهلية . حرب في ڤيراكروز . غيوم تتلبد فوق اوربا . غداء مع الاميرال كرادوك . اعلان الحرب . على ظهر مدمرة امريكية الى غالفستون . نظرة تأريخية .

كان لواشنطن في تلك الايام سحر المناطق الزراعية لأنها خالية من ناطحات السحاب وتحف بها حدائق غناء ومروج مخضرة تبعث المسرة في النفوس. كما ان بيوتها ذات طراز مريح. وكانت السفارة الالمانية تقيم في منزل منيف في شارع ماساشوسيتس. وقد خصص الطابق الارضي من بناية السفارة لدائرة المستشار . وخصص الطابق الاول لاقامة السفير . أما دائرتي فكانت في الجزء الخلفي من البناية ولا يمكن الوصول اليها الا بعد المرور بالقن الذي كان اصحاب الدار قد اقاموه لتربية دجاجاتهم.

كان السفير غراف بيرنستورف دبلوماسيا من المدرسة القديمة . ولذا فقد استقبلني ـــ وانا الملتحق بالخدمة الخارجية لاول مرة ـــ بمودة ظاهرة

مشوبة بالتحفظ وحذرني قائلا:

« تذكر دائما يا عزيزي فون پاپن بأنه ليس من مهمة الملحق العسكري ابدا ارسال أية تقارير سياسية للوطن».

فقدرت عندئذ بأن سلفي ربما أعيد الى المانيا لهذا السبب بالذات. وعليه فقد تم تحديدي بالانصراف كلياً للقضايا العسكرية.

أما مستشار السفارة فكان السيد فون هانيل وهو من ابناء اسرة هانيل المشهورة في ديوسلدورف.

وكان سكرتير السفارة البارون فون ليرسنر وهو من اصدقائي القدماء ي كتيبة الخيالة. وكان ابان دراسته الجامعية من اعضاء عصبة بون البروسية. كما عمل معنا في السفارة آنذاك غراف بيركهايم وهو ابن المبعوث الدبلوماسي لولاية بادن . وكان الملحق البحري في السفارة القبطان بوي اد الذي سرعان ما كونت معه علاقة صداقة حميمة لأننا كنا نتبادل الآراء ويقوم كلا منا بالوكالة عن رفيقه عند تغيبه عن العمل في السفارة لسبب او لآخر.

لم يكن هناك ما يستأهل الاهتمام في واشنطن من الناحية العسكرية بصورة عملية. فقد كان «الجيش الاتحادي» في تلك الايام منظماً وفق الأسس الاوربية السائدة وكان يقتبس منها مفاهيمه التعبوية والسوقية . الا انني لاحظت بأن العلاقة بين الآمرين والمرؤوسين تتخذ طابع الفظاظة في المعاملة. وسرعان ما وجدت نفسي منهمكا بالعمل المجهد. كما كانت هناك دعوات كثيرة توجه الي من أناس لا اكاد اعرفهم ثم انني غالبا ما كنت التقي بهم للمرة الأولى والاخيرة. ولذا فمن البديهي الا افهم الحياة في المجتمع الامريكي لاختلافها الواسع عن الحياة في العالم القديم.

ولكي اروّح عن النفس وامارس الرياضة بانتظام فقد انضممت لنادي اقليم تشيڤي تشيز وفي هذا النادي تعرفت على رجل يبدو للوهلة الاولى عدم امكانية ممارسته الرياضة وكان ذلك الرجل فرانكلين ديلانو

روزفلت، ولم يخطر ببالي مطلقا آنذاك بأن هذا الرجل ــ رغم العاهة التي اقعدته نتيجة لاصابته بشلل الاطفال ــ سيلعب دورا مهما بعد ثلاثين سنة فيؤثر على انهيار الامبراطورية الالمانية الثالثة وانــه سيؤثر علي بالذات لأنه سيساهم في تحديد مصير بلادي ومسيرتها التأريخية • ثم انني تعرفت على شخص آخر خلال ممارستي للفروسية صباح كل يوم في منتزه «روك كريك» هو الفريق ليونارد وود، وكان هذا قد خدم حاكما عاما لكوبا ثم حاكماً عاماً للفليبين فأظهر جــدارة تستحق التقدير • وليس أدل على نبله من حفظه لذمام صداقتنا الوطيدة حتى في الايام الحرجة التي عشتها بعد نشوب الحرب • وقد خصص لسكناه منزلا فاخرا في جزيرة الحاكم المطلة على ميناء نيويورك تقديرا لخدماته العسكرية الجلى،

أقام الرئيس وودرو ويلسون اول حفلة استقبال في البيت الابيض في شباط ١٩١٤ وقد كان لطيفا معي عندما تبسط في الحديث الا انني تصورت عينيه من خلال النظارة الطبية المؤطرة بأطار ذهبي وكأنهما عينــا استاذ التأريخ الذي كان يحرجني بأسئلته عن تواريخ الوقائع وهي اسئلة لم اكن اتوقعها ابداء

اخبرت الرئيس ويلسون بعزمي على زيارة المكسيك لأنني اعمل ملحقا عسكريا لبلادي في تلك البلاد ايضاء فعلق على قولي: «انني احسدك ايها الشاب فلطالما رغبت انا ايضا بزيارة المكسيك ورؤيتها عن كثب لكن لكثرة مشاغلي حالت دون تحقيق هذه الرغبة،»

تضمنت خطة سفري للمكسيك شيئا من التسكع، اذ كان القيصر قد امرني بالسفر للمكسيك بقصد رؤية اكثر ما يمكن ولذا فقد وضعت منهجا لزيارة قنــاة بنمــا خلال اشهر الصيف حيث يجري افتتاح المعرض الدولي في سان فرانسيسكو وتقوم بعض السفن الحربية من مختلف الدول ــ ومنها بعض السفن الالمانية ايضا ــ باجتياز قناة بنما • ثم اقوم بالتعريج على المكسيك، وكانت في المكسيك حرب اهلية الا ان هذا كان أمرا ممتعا بالنسبة لي بدرجة تفوق متعتي بالحياة الاجتماعية في واشنطن،

سافرت مع كلا من ليرسنر وبيركهايم في اواخر شباط ١٩١٤ الى كوبا ومنها الى جامايكا ثم الى مدينة مكسيكو حيث قدمت نفسي لرئيسي فيها القنصل الالماني العام الاميرال فون هينتسه. وكنت قد استحضرت لزيارة المكسيك بدراسة تأريخ تلك البلاد بامعان. ومع ان تزويق التأريخ يعطي للمرء صورة مشرقة عن البلاد الا ان الذي لمسته كان امرا آخر. وحسبي ان اسوق هنا ما صادفته في اول لقاء لي مع الرسميين. اذ ما ان وصلت الى مدخل القصر الجمهوري الشاهق لتقديم نفسي لوزير الحرب المكسيكي وأنا بكامل ملابسي العسكرية وعرّفت الحرس بمنصبي ورتبتي بأفضل ما أحسنه من العبارات باللغة الاسبانية. الا واشار آمر الحرس الى راية مركونة فيزاوية المدخل قائلا بأنني يقتضي علي اداء التحية لتلك الراية قبل ان اخطو داخل القصر. فأمتثلت لأمره وحييت الراية وواصلت سيري. ثم علمت فيما بعد بأن الراية المذكورة تخص كتيبة المشاة ٢٩ الميمونة النقيبة لأنها هي التي نفذت جميع ثورات المكسيك بنجاح.

وعندما قابلت وزير الحرب المكسيكي الفريق بلانكَيت وجدته سيدا لطيفا متقدما بالسن. وقد حياني الرجل بأدب جم وابدى اعجابه بالجيش الالماني . وقال ان الجيش المكسيكي يقتدي به ويحذو حذوه .

ولربما أراد الرجل ان يعرض لي نبذة عن فعالياته الشخصية للتدليل على قوة مركزه فحدثني قائلا انه كان عريفا في الجيش وقد قام مع حضيرته باطلاق النار على الامبراطور مكسيمليان في كويريتارو . الا انني حاولت تغيير اتجاه الحديث نحو الحالة المضطربة في المكسيك آنذاك وأخبرت الوزير بخطتي التي تتضمن السفر للمقاطعات الشمالية التي تدير فيها حكومته قتالا مستمرا مع عصابات پانشو ڤيلا الثائرة.الا انه نصحني بعدم السفر الى هناك وقال انه غير مسؤول ابدا عن سلامتي ولما قلت له بأنني على استعداد للسفر على مسؤوليتي الخاصة هز كتفيه متشككا بعودتي من السفرة سالما.

كانت العاصمة المكسيكَية تعيش حالة من الحصار في تلك الايام اذ كان

هناك زعيم ثوري يدعى «ثاپاتا» يشن غاراته الليلية الجريئة من المنـاطق الجبلية المحيطة بالعاصمة، وقد بدى لي بأن الجيش والشرطة عاجزين عن صد تلك الغارات، ولذا فقد قام الاوربيون المقيمين في حي خـاص بهم بتنظيم الدفاع عن حيهم بقصد المحافظة على ارواحهم وارواح عوائلهم وممتلكاتهم والفوا قوة من المتطوعين لهذا الغرض.

ونظرا لانني كنت العسكري الوحيد بين افراد السلك الدبلوماسي فقد رجاني اولئك الناس لكي اتولى مهمة قيادتهم، وكانت المـدمرة الالمانيـة «دريسدن» راسية قبالة ميناء «ڤيراكروز» وقد اعدت رشاشتين متوسطتين مع اعدادهما جاهزتين لتقديم الاسناد اللازم لقوتي، وقد حذت حذوهـا مدمرة يابانيـة كانت تلقي مراسيهـا على الساحل الغربي لذلك الميـناء، واستطعنا بتلك القوة البسيطة رد غارات عصابة ثاپاتا على اعقابها لكنني أرى لزاما علي ان اعترف بأن الاجراءات الوقائية الصارمة كانت اكثر مما ينبغي بكثير لأن قوة ثاپاتا لم تكن تستحق كل تلك التدابير لكن الاوربيين أرادوا ضمان سلامتهم باتخاذ تدابير أمنية مضاعفة .

فرحت كثيرا عندما سمح لي الفريق بلانكيت أخيرا بزيـارة المقاطعات الشمالية لأنه أتاح لي فرصة ذهبية للحصول على فكرة جيدة ومعلومات دقيقة عن الناس والبلاد . وقد أدى بي الطريق في أول الأمر الى كويريتارو وتمثلت مصير الامبراطور مكسيمليان البائس وسمعت فيها نواقيس كنيسة سان فيليبه وهي تقرع كما كانت في عهد ذلك الامبراطور المنكود.ثم وصلت الى تل (كيرو) الكائن في مشارف المدينة وكانت حوله بيوت قليلة متناثرة.وهو المكان الذي كتب فيه للامبراطور وصحبه أن يلقوا فيه مصائرهم . وكان قد أعدم معه كلا من الفريقين ميرامون وميخيا، وعندما سمعوا صوت البوق أجفل الامبراطور سائلا الفريق ميخيا المجبول على حب الدعابة:

« هل هذا اشعار بتنفيذ احكام الاعدام ؟»

الا ان الفريق ميخيا لم تزايله دعابته الاصيلة فأجاب سيده قائلا :

« لست ادري يا سيدي فاليوم سيتم اعدامي رميـا بالرصاص لأول

مرة» عندئذ جاء من يسأل الامبراطور عما اذا كان لديه ما يقوله قبل ان يموت.

فقال الامبراطور بصوت هامس :

« انني اتعرض هنا لمبارزة غير عادلة . ومع ذلك فانني أرجو المعذرة. فبلغوا معذرتي للجميع . وآمل ان يكون دمي المسفوك قربانا لسعادة هذه البلاد . تحيا المكسيك».

واصلت سفرتي الى توريون ومنها الى سالتيليو وهي قلعة حكومية لا يحميها سوى مدفع واحد. ووجدت عليه حارس واحد فلما تبسطت مع الرجل بالحديث الفيته يعاملني بحذر وكأنني جاسوس. وعندما ابتعدت عنه مسافة كافية اطلق علي صلية من بندقيته الحديثة . فبدى لي ان المعلومات التي جمعتها عن الحرب الاهلية المكسيكيك ضئيلة القيمة وهي بالتالي لا تستأهل المغامرة. وعليه فقد قررت الرجوع الى العاصمة.

وصلت حالة التوتر بين الولايات المتحدة الامريكية والمكسيك الى أقصى مدى. وكان الغوغاء قد انزلوا علما امريكيا في ميناء النفط «تامپيكو» فقامت الولايات المتحدة باجراءات انتقامية عنيفة الى ابعد الحدود . اذ اقتربت سفن اسطول الاطلسي الامريكي تحت قيادة الاميرال «باجر» من ميناء «ڤيراكروز» فأسرع المكسيكيون في تأليف قوة انقاذ ولما نزلت القوات الامريكية تحت قيادة اللواء فونستون. نشب قتال بين الطرفين دون اعلان الحرب . وعلى الرغم من المساعي المضنية التي قمت بها انا والجهود التي بذلها القنصل العام فون هينتسه فاننا لم تتمكن من ايجاد اية وسيلة لفض النزاع القائم بين البلدين.

وفي ١٩ نيسان ١٩١٤ أعلن الامريكان عن عزمهم على الانتقام من المكسيك فكان همنا الاول تحقيق أمن الرعايا الالمان في المكسيك وضمان سلامتهم ثم رعاية الاوربيين الآخرين قدر المستطاع. أما الرئيس المكسيكي هويرتا فقد كان بموقف بالغ الحرج ذلك لان قلقه كان موزعا بين الحرب الاهلية التي تهدد الوضع الداخلي وتكاد تعصف ببلاده وبين التهديد الامريكي الموجه لبلاده من

الخارج . وكان الجو السائد في العاصمة المكسيكية ينذر بالانفجار وان أنسى فلا أنسى تلك الليلة التي دعيت فيها الى حفلة رسمية كبرى بقصر « شاپولتيبك » اذ حدث ان انقطع التيار الكهربائي فجأة ولما عاد التيار بعد ثوان قليلة تم فيها اصلاح الخلل عجبت كثيرا لأن جميع الوزراء وأغلب الضيوف كانوا قد أشهروا مسدساتهم التي كانوا يخفونها تحت ملابس السهرة الانيقة تحسبا من أي خطر غامض قد ينالهم خلال فترة الظلام المفاجئة ولم اصادف طوال حياتي الحافلة بالاحداث الجسام اي موقف مثير للسخرية كذلك الموقف .

ويبدو من الممتع الآن ان اشير هنا لتصرفات القنصل البريطاني العام سير ليونيل كاردن لان لندن كانت قد اعطته ايمائة بالتدخل في الصراع الناشب بين المكسيك والولايات المتحدة الامريكية بأقصى طاقاته لانه يعتبر الاشارة الاولى لبداية الاستعمار الامريكي . وهكذا فترت العلاقات بين بريطانيا والولايات المتحدة . لكن هذا الفتور لم يستمر اكثر من بضعة اشهر تآلفت بعدها الدولتان وتوطدت علاقاتهما .

تدبرنا في اول الامر قطارا لنقل جميع الاجانب الذين رغبوا بمغادرة المكسيك . وقد رافقت هذه القافلة الى ڤيراكروز . ثم حصلت على موافقة الامريكان بالمرور من الارض الحرام وأوصلت القطار الى القاطع الامريكي وقدمت نفسي للقائد الامريكي بمقره . ولم تكن قوة الانزال الامريكية قد تكبدت ضحايا تذكر . كما ان الامريكان لم يوسعوا المنطقة التي احتلوها واقتصرت فعالياتهم على احتلال الميناء . وقد وجدت نفسي في تلك الاثناء بموقف يتيح لي القدرة على المقارنة بين القوتين المكسيكية والامريكية ولما تأملت ترتيبات كلا الطرفين وجدت ان قوة الحملة الامريكية كانت اكثر تنظيما . وقد جرى استقبالي في المقر الامريكي بحفاوة واضحة . وقد تعرفت بمقر الفريق فوستون على ضابط من هيئة ركنه أثار اعجابي بصورة خاصة ويدعى النقيب ماك آرثر[1] . وقد صحبني هذا الضابط في جولتي التفقدية

---

(١) اصبح المشير دوغلاس ماك آرثر من أشهر قادة الامريكان في الحرب العالمية الثانية لانه شغل منصب القائد العام في ميدان المحيط الهادي وهو الذي وقع وثيقة استسلام اليابان وهو احد ثلاثة قادة امريكان وصلوا الى رتبة المشير الرفيعة . — المترجم —

وعرض عليّ كل ما رغبت برؤيته ووجدت منه منتهى اللطف • ولما قرأت السيرة الذاتية لهذا الرجل بعد ردح طويل من الزمن صار فيه قائدا مرموقا وذاعت شهرته في ارجاء المعمورة ــ وكان كاتب السيرة السيد كيرونان ــ قرأت فيها ان ماك آرثر ارتدى في الفترة التي قابلته فيها بالمكسيك قيافة رعاة البقر واجتاز نقاط الحراسة المكسيكية بسهولة ثم غنم ثلاث قاطرات وعاد بها للخطوط الامريكية سالما غانما .• وزعم المؤلف بأنني ساهمت في هذه المغامرة • ولابد لي أن أقول هنا حبا بالحق بأنني لم أشارك القائد ماك آرثر في تلك الغزوة •

الا ان ماك آرثر شهد لصالحي في محاكمات نورمبرغ مشكورا • كما أيد افادتي بالاقوال التي اشرت فيها للقائي معه بالمكسيك .•

كان الجيش الامريكي صغيرا الا انه ضم ضباطا ممتازين وجنودا مدربين من الطراز الاول ولذا فقد كتبت في تقاريري الى برلين آنذاك بأن تلك البلاد يمكنها التحول ــ بحكم قابليتها الصناعية الكبيرة ــ خلال فترة وجيزة الى انشاء قوات مسلحة على غرار القوات المسلحة الاوربية • ثم توقعت ان الموقف الدولي المتوتر في اوربا لابد ان يكون حافزا للولايات المتحدة لكي تجعل من نفسها قوة مؤثرة على أوربا •

وسرعان ما تحققت نبوءتي عندما ادلهمت الخطوب اثر انطلاق الرصاصات القاتلة في سراييفو وتسببها في نشوب الحرب العالمية الاولى .• وكنت قد وطدت صداقتي مع كثير من اعضاء السلك الدبلوماسي في مدينة المكسيك وخصوصا مع الوزير المفوض لامبراطورية النمسا والمجر السيد فون كانيا الذي كان قد عمل رئيس تحرير في احدى دور الصحافة الكبرى ببلاده ابان قيام ازمة البوسنة وكذلك خلال حرب البلقان التي وضعت اوزارها قبل فترة وجيزة • وعلى الرغم من ان الرجل لم يقدر مدى الخطورة التي انطوت عليها حادثة الاغتيال التي وقعت في سراييفو الا انه كان متحسبا من النتائج المترتبة على مؤتمر السفراء الذي عقد بلندن •

اما الممثل الدبلوماسي الالماني الاميرال فون هينسه فقد سبق له ان خدم اكثر من عشرة أعوام في بلاط سان بطرسبرغ بصفة ممثل عسكري مطلق

الصلاحيات .• ولذا فهو يعرف دقائق السياسة السلافية التي تمارسها روسيا أكثر من غيره • وبديهي ان فون هينتسه لم يشارك فون كانيا الرأي واكد بأنه يعتقد ــ بناء على خبرته بالشؤون الروسية ــ بأننا على وشك الاشتراك في حرب ضروس لا مناص منها مع روسيا • والمؤسف ان نبوئة فون هينتسه قد تحققت .• وقد التقيت فيما بعد بالسيد كانيا ببرلين بعد ان اصبح سفيرا فيها للمجر ــ اثر انفصالها عن النمسا ــ وقد بقي الرجل على العهد في صداقته معي التي استمرت حتى فترة اشتغالي سفيرا لالمانيا بالنمسا حيث وافاه الاجل •

من بين هذه الذكريات تحضرني واقعة الاميرال البريطاني سير كريستوفر كرادوك الذي استضافني على ظهر سفينة القيادة وهي المدمرة (Good Hope) وكان الرجل من أشد المعجبين بقيصرنا غليوم الثاني وعليه فقد زين قمرته بالعديد من صور القيصر •

كان سير كريستوفر بهي الطلعة ودودا وقد تحدثنا مليا بشأن الموقف الاوربي الخطير بمنتهى الصراحة .• ولما ادركنا الاحتمالات الواردة قلت له بأنني آمل بقاء بريطانيا على الحياد فيما لو اضطرت المانيا على خوض حرب على جبهتين • وكان جوابه ملائما تماما لموقف بريطانيا آنذاك :

« ان بريطانيا سوف لن تدخل الحرب ضد المانيا مطلقا » •

ثم اردف قائلا بعد ثوان معدودة :

« على الاقل من أجل صداقتنا الشخصية » .•

بذلت جهودي في تلك الفترة لاعطاء برلين صورة واضحة عن الموقف في المكسيك فقابلت الرئيس المكسيكي هويرتا وتحدثت اليه مليا بشأن النزاع الناشب بين بلاده والولايات المتحدة الامريكية • لكن ذلك النزاع ما لبث ان تلاشى وئيدا لانهماك الولايات المتحدة بالاحداث الخطيرة التي عصفت باوربا• والتي ساهمت الصحافة الى حد بعيد في اذكاء نارها • واذكر انني كنت اتناول الفطور في ضحى أحد تلك الايام مع المبعوث الروسي البارون ستاليفسكي

فتمعنت آنذاك بمدى اقترابنا من خطر الحرب عندما حدثني البارون بصراحة تامة عن سفر ملحقه العسكري العقيد غوليڤسكي بصورة مفاجئةالىواشنطن، ولما استفسرت منه عن اسباب سفر الملحق العسكري اجابني :

« أظن انه ذهب الى هناك لتنظيم وتأسيس مكتب للخدمة السرية . ولكنني لا أعلم الغرض من ذلك المكتب بالذات » .

الا انني فهمت الغرض بطبيعة الحال لانني كنت مكلفا من قبل هيئة الاركان الكبرى بتأسيس مكتب مشابه في نيويورك وكنت قد هيأت جفرة خاصة للاتصالات البالغة السرية والسريعة مع برلين . وقد اخبرت المقر العام بالواقعة بنفس اليوم وبكل تفاصيلها .

دعيت في ١ آب ١٩١٤[٢] الى وليمة اقامها الفريق فونستون . وقد استقبلني مضيفي في باحة الفندق الذي يقيم فيه وهناك التقيت بزميلي الملحق العسكري الروسي الذي كان مدعوا هو الآخر . وبينما كنا بالانتظار قبيل الغداء أطل علينا الفريق بصورة مفاجئة وبيده ورقة يلوح بها خلال هبوطه من السلم . ثم ابتدرنا قائلا :

« عندي نبأ مثير لكم ايها السادة . فقد أعلنت المانيا الحرب على روسيا» وما اتم الفريق كلامه الا ورمقني العقيد غوليڤسكي وعلق على قول مضيفنا : « انني والحالة هذه أجد لزاما عليّ الا اشارككم الغداء » .

وقد ذهبت محاولات الفريق الامريكي سدى في اقناع الروسي بقبول تناول الطعام فاعتذر الرجل وانسل من الفندق بهدوء . وكان ان حذوت حذوه وغادرت الفندق .

جعلت همي الاول الوصول الى واشنطن بأسرع ما يمكن فاستعنت بقائد الاسطول الامريكي الاميرال بادجر فدعاني لمرافقته في سفينة القيادة وتحدثنا مليا احاديث مفعمة بالمودة . حيث تبين لي ان الرجل يولي المانيا الكثير من

---

(٢) اعلنت الحرب العالمية الاولى في ٢٨ تموز ١٩١٤ بعد سلسلة من اجراءات النفير التي اعلنتها الدول الاوربية المتحاربة . —المترجم—

عطفه . ولما لم تكن لديه أية معلومات عن الحرب فقد وعدني بنقلي في صباح اليوم التالي الى غالفستون على ظهر احدى مدمرات اسطوله . وللمرء ان يقدر مدى دهشتي عندما قابلت على ظهر المدمرة الامريكية التي تقلني زميلي الملحق العسكري الروسي الذي اراد الابحار الى واشنطن على وجه السرعة هو الآخر . ولما اقلعت المدمرة هتف بحارتها بحياة المانيا ثلاثا ثم اردفوا ذلك بالهتاف ثلاثا بحياة روسيا على سبيل المجاملة .

ولا يمكنني الزعم بأن تلك الرحلة كانت مريحة . اذ كانت المدمرة صغيرة الحجم والحرارة فيها مزعجة جدا ولذا فقد أراد القبطان تكريمنا فجعل سريرينا ــ انا وزميلي الروسي اللدود ــ على جسر ضيق تلعب فيه الرياح ولم تكن المسافة بين السريرين اكثر من نصف متر . كما لم تكن تفصلنا عن المحيط الواسع سوى دكة ضيقة . وسرعان ما حدست بأنه من السهل على ذلك الروسي ان يرفسني رفسة هينة خلال استغراقي بالنوم فيجعلني طعما لاسماك المحيط التي تساير مدمرتنا . وعليه فقد آثرت النوم مع رفاقي في عنبر المدمرة متحملا حرارته المرهقة لان النوم المأمون أفضل من النوم بعين مغمضة واخرى يقظة طوال ليالي السفر .

ولما مرت علينا يوما السفر تأملت بهدوء صرح الصداقة التقليدية القائمة بين بلدينا الاوربيين الذي قوضته الحرب . اما انا وصاحبي الملحق العسكري الروسي فقد وجب على كل منا أن ينجز واجبه على أفضل ما يستطيع وهذا لعمري اختبار عسير كنا نأمل الا يستمر طويلا .

كان العقيد الروسي قد عمل ملحقا عسكريا لبلاده في لندن لفترة ليست بالقصيرة ولذا فهو لديه تصور للتحرك السياسي المتوقع يفوق تصوري لسير الاحداث . وقد اراد الرجل ان يغمز من قناتي فتحداني قائلا : « انه ليس من العجيب ابدا اذا ما زعمت بأننا سنتغلب على المانيا . ذلك لاننا اباة الضيم وانكم ستخدعون انفسكم اذا ما ظننتم بأنكم ستقضون علينا سريعا . فهذه الحرب ستستمر سنتين او ثلاث أو عشر سنوات ان شئتم » .

ثم اردف قائلا بنبرة ذات معنى :

« سنستمر حتى نحصل على النتيجة المرجوة »

وبعد ان مرت على افتراقنا سنين طويلة وعندما اصبحت مستشارا لالمانيا في عام ١٩٣٢ تلقيت من ذلك العقيد الروسي بصورة غير متوقعة برقية تهنئة حيث يبدو انه هاجر اثر الثورة الروسية واقام في باريس•

ولربما اعتبر رجال الدولة الالمانية مسؤولين عن تحول بلاده للنظام الشيوعي وهذا يختلف عن ـ النتيجة المرجوة ـ التي هددني بها في آخر عهدي به•

في ٤ آب ١٩١٤ وصلنا الى غالفستون فكان اول ما فعلته هو ان توجهت الى أقرب بائع صحف واشتريت منه رزمة كبيرة من مختلف الصحف الصادرة في ذلك اليوم .• فقرأت فيها عناوين مثيرة مثل:

« استسلام جيش الماني قوامه ٤٠٠٠٠ رجل في لييج ـ انتحار ولي عهد المانيا»•

ولم أصدق هذه المزاعم لكنني قدرت مدى النتائج المترتبة على هذه الاباطيل • وفي مساء ذلك اليوم استقللت القطار الى نيويورك لأن الحرب كانت قد بدأت بالنسبة لي أيضاً•

وأود في هذا المقام ان اسمح لنفسي بألقاء نظرة على تطور الموقف في اوربا آنذاك • والاسباب الحقيقية التي اعتقدت في ذلك الحين بأنها تكمن وراء اصرار الدول الكبرى على خوض تلك الحرب الضروس•

لقد كانت هيئة الاركان الكبرى الالمانية تتابع تطورات الموقف الدولي باهتمام كبير • وقد تعلمت انا في هذه المؤسسة العتيدة للمرة الاولى الاتجاهات السياسية للدول الكبرى ومدى تأثير تلك السياسة على حفظ السلام•

فخسارة الروس للحرب الروسية ـ اليابانية لم يضعف من شأن قيصر روسيا فحسب وانما ادت الى تراجع روسيا عن مركز الصدارة في المساهمة

بالسياسة الاوربية لسنين عديدة.

وعلى الرغم من عدم استغلال قيصر المانيا غليوم الثاني او الحكومة الالمانية للوهن الذي أصاب روسيا في تلك الفترة الا ان بريطانيا دأبت على التمسك بسياسة التوازن الاوربي بصورة سافرة وعليه فقد رغبت في تغيير حالة روسيا لأنها لاحظت ان سياستها التقليدية المتعلقة بالتوازن الاوربي اصبحت مهددة بالاختلال . وعليه فقد بدأت بريطانيا اول الامر بعقدالميثاق الانكلو روسي في ٣١ آب ١٩٠٧ وهو الميثاق الذي سمي فيما بعد «سياسة التطويق » التي تبناها الملك ادوارد السابع . وقد تضمن الميثاق اقتسام ايران الى منطقتي نفوذ تكون الشمالية منهما لروسيا والجنوبية ـ التي تحوي منابع النفط والمطلة على الخليج العربي ـ لبريطانيا على ان تتعهد روسيا بالحياد وعدم التدخل في كل من افغانستان والتبت . أي انها تضمن بذلك حماية ظهرها في آسيا.

وكانت فرنسا وروسيا قد اعترفتا قبل ذلك التأريخ بشهرين لليابان بحرية التصرف بالصين. وبذا اصبحت بريطانيا راضية بتحقيق مبدأ التوازن الاوربي.

ولو ان الاوربيين في عهد سالزبوري وبسمارك اعتبروا روسيا دولة آسيوية وحجبوا عنها حق المشاركة في ادارة دفة السياسة الاوربية لكانت دول اوربا الغربية قد حافظت على سطوتها الاستعمارية لمدة اطول.

اننا هنا في معرض التحول الذي أدى الى نشوب الحرب العالمية الأولى. وقد زعم مؤرخ انكليزي شاب هو سير تشارلس پيتري بأن الميثاق الانكلو روسي كان يهدف الى انقاذ اوربا من الخطر الالماني وقد حقق هذا الهدف لمدة سبعة اعوام لأنه من شأنه اجبار المانيا على قبول الحرب على جبهتين. اما انا فأظن ان هذا التحليل يدل على عدم تفهم التأريخ لأن الميثاق انقذ بريطانيا من المانيا لبضعة اعوام الا انه أودى بأوربا فيما بعد.

خلال اشتغالي في هيئة الاركان الكبرى نشبت حرب بين ايطاليا

والدولة العثمانية بسبب احتلال الاولى لاقليم ليبيا لأن ايطاليا لم تشأ تجاهل التوسع الفرنسي في شمال افريقيا كما انها ارادت ان تغنم لنفسها شيئا من تركة «الرجل المريض» وهذا هو اسم الدولة العثمانية في أواخر ايامها. ولم يفلح العثمانيون باستعادة ليبيا من الطليان.

وعلى الرغم من عضوية المانيا في الحلف الثلاثي الذي يربطها مع ايطاليا الا انها كانت صديقة للدولة العثمانية. ولذا فقد لعبت دورا دبلوماسيا حاذقا في معالجة قضايا انتهاب الدول الكبرى لاجزاء عديدة من مناطق سيادة الدولة العثمانية . واذكر ان الحرب الايطالية ــ العثمانية جعلتنا بموقف شديد الحرج وبعد تقليب الموضوع على مختلف الأوجه في مقر هيئة الاركان الكبرى تم القرار على ايفاد بضعة مراقبين من الشباب . الا ان عواطفنا كانت مع العثمانيين بشكل قاطع.

كانت ادارة الحرب الايطالية بأحدث الأسلحة المعروفة آنذاك ضد الجيش العثماني المسلح بمعدات قديمة من الامور السهلة التي تجعل النصر الرخيص مضمونا . وقد كرر الطليان غلطتهم الفاحشة هذه مع الحبشة فيما بعد . لأنهم في كلتا الحالتين اصطدموا بمقاومة شعبية مديدة قاسية كبدتهم خسائر جليلة . ولكن الملاحظ تأريخيا ان الاتراك لم ينسوا للطليان ذلك العدوان قط . فعندما تقدم موسوليني في عام ١٩٣٩ لاحتلال البانيا توجست تركيا من ذلك العدوان خيفة وصارت تمارس سياسة التقرب من التحالف الانكلوفرنسي المناوىء لايطاليا.

ان المثال الايطالي ــ العثماني الذي سقته يعتبر حالة مبسطة لمسببات التوتر السياسي المعهودة في اوربا فالصراع المميت الذي تخوضه روسيا من اجل التدخل في الشؤون الاوربية بقصد بسط نفوذها على اقطار البلقان اصطدم اول ما اصطدم بسياسة امبراطورية النمسا والمجر المتسمة بالنظام المحافظ الى حد التزمت.

توفي ملك بريطانيا ادوارد السابع في عام ١٩١٠ ألا ان خطوط سياسة لتوازن الاوربي التي وضع اسسها ادت الى انحياز اقطار البلقان نحو

اقطار غرب اوربا . اما المانيا فقد اخذت تنظر بعين الريبة والقلق لاتساع رقعة الامبراطورية الفرنسية التي كانت تلقى تعاونا مباشرا من بريطانيا بحكم اتفاقهما على اقتسام الغنائم. ولذا فمن البديهي ان تقف المانيا ضد الدولتين عند نشوب أزمة مراكش في تلك الفترة.

فعندما تقدمت القوات الفرنسية في تموز متذرعة بالنجدة التي طلبها منها السلطان مولاي حافظ واحتلت مدينة فاس اعتبرنا ذلك اخلالا بالمعاهدة المعقودة بيننا وبين فرنسا لاسيما وان الفرنسيين وثبوا من فاس الى اغادير فأستثاروا حفيظة الانكليز ووصف الهجوم سير ادوارد غراي[٣] بأنه «عدوان لا فائدة من ورائه» كما ندد بالهجوم السيد لويد جورج وانتقده بمرارة في خطاب مطول لأسباب بسيطة هي ان بريطانيا لم تشأ ان نصل الى شواطيء مراكش في خضم تنافسنا مع الفرنسيين لأن ذلك يهدد وجودها البحري في البحر الابيض المتوسط.

ومع ان المؤرخين الانكليز اجمعوا على صحة رأي المانيا بصدد مشكلة مراكش الا انهم لم يعترفوا مطلقا بأن تسوية تلك المشكلة تمت بفضل مساعي السلام التي بذلها القيصر الألماني غليوم الثاني في شهر آب ١٩١١ لكن فرنسا عادت ففرضت حمايتها على مراكش في عام ١٩١٢ دون ان تأبه لألمانيا. هذه المواقف السياسية البريطانية المتعاقبة ولدت الفتور المشوب بالمرارة بين بريطانيا والمانيا.

فقد ادى النزاع الايطالي ــ العثماني بسبب ليبيا الى وقوف المانيا الى جانب الدولة العثمانية على حساب ايطاليا المنتمية الى الحلف الثلاثي الذي يجمعها مع كل من المانيا وامبراطورية النمسا والمجر مما جعل ايطاليا تنحاز لبريطانيا بصورة تدريجية . وقد حصلت بريطانيا لقاء ذلك على صمت كل من ايطاليا وفرنسا عندما وطدت وجودها في مصر على حساب الدولة العثمانية.

في هذه الاثناء اقدمت المانيا على الاتفاق مع الدولة العثمانية على مد سكة حديد بغداد ــ برلين فأثارت بذلك موجة بريطانية من العداء السافر

(٣) وزير خارجية بريطانيا آنذاك . ــ المترجم ــ

قام بشنها السياسي البريطاني ادوارد غراي الذي لم يقدر أبدا بأن المانيا لم تشأ مزاحمة المصالح البريطانية في الشرقين الأدنى والاوسط وانما كان مشروعها مجرد مشروع تجاري انتجته الصناعة الالمانية المزدهرة. وان العقد الثاني من القرن العشرين يعتبر وقتا متأخرا للتحري عن مستعمرات جديدة.

في تشرين الأول ١٩١٢ عقدت اتفاقية «اوخي» التي فقدت بموجبها الدولة العثمانية بلاد ليبيا لصالح ايطاليا وفقدت جزر الدوديكانيز لليونان بسبب اتحاد مجموعة من دول البلقان ضمت صربيا وبلغاريا واليونان ومونتنغرو وكانت هذه كلها قد عقدت اتفاقا سريا مع روسيا لمناهضة الدولة العثمانية . وفي اواخر عام ١٩١٢ وبداية عام ١٩١٣ تدهورت العلاقات بين روسيا وامبراطورية النمسا والمجر وباتت تنذر بخطر نشوب حرب بينهما.

رفض القيصر غليوم الثاني مساهمة المانيا في النزاع بين الدولتين بسبب البلقان سيرا على سياسة بسمارك الداعية لتجنب المانيا لأية مطامع في بلاد البلقان . واخيرا أفلحنا في المحافظة على السلام في اوربا بفضل التعاون الوطيد مع بريطانيا . والمؤسف ان هذا التعاون بقى محدودا. ولقد اوشكت اتفاقية لندن الموقعة في كانون الاول ١٩١٢ على انهاء النزاع حول البلقان الا ان انور باشا[4] ــ الذي دافع بشجاعة عن ليبيا ــ مارس ضغطا شديدا على حكومته لالغاء تلك الاتفاقية فعادت للحرب واحاقت بها انتكاسة عسكرية اخرى وفي مايس ١٩١٣ تم التوصل الى سلام جديد حصلت بموجبه اليونان على اقليم سلانيك وجزيرة كريت وحصلت صربيا على شمال مقدونيا بينما حصلت بلغاريا على ثرازيا وساحلا على بحر ايجة.

وبعد فترة وجيزة قامت بلغاريا بمهاجمة كل من صربيا واليونان ولكنها

---

(٤) كان انور باشا ابرز اعضاء حزب الاتحاد والترقي الثلاثة وهم (انور وطلعت وجمال) وقد اشغل منصب وزير الحربية ويعتبر الداعية الاول لاشتراك الدولة العثمانية بالحرب العالمية الاولى . ــالمترجمــ

خسرت معهما الحرب واستغلت الدولة العثمانية ظروف هذا القتال فأستعادت ادرنة بهجوم مباغت • ثم انتهت حرب البلقان بصورة نهائية اثر التوقيع على معاهدة بوخارست في آب من عام ١٩١٣ التي فقدت بلغاريا بموجبها اقليم مقدونيا وساحلها على بحر ايجة• كما وجب عليها التخلي عن دبروجة التي اعطيت الى رومانيا•

ولما لم تكن لصربيا سواحل على بحر الادرياتيك فقد اعطى الاستقلال لالبانيا المطلة على ذلك البحر • وتقدمت المانيا في أواخر عام ١٩١٣ باقتراح لتنصيب رفيقي القديم في هيئة الاركان الكبرى الامير فون ڤيد رئيسا لتلك الدولة الناشئة•

يمكن الجزم بأن الفضل في عدم اتساع حرب البلقان أو تحولها الى ازمة دولية يعود للتعاون الوثيق بين بريطانيا والمانيا • ولكن المؤسف ان ازمة أخرى ما لبثت ان سببتها فرنسا باحتلالها السافر لمراكش• وبتقويتها لأواصر التحالف مع روسيا • بينما بقيت بريطانيا تتجاهل ما يجري وكأن الأمر لا يعنيها حتى بعد ان اصدر قيصر روسيا قراره العلني المتضمن عزمه على اسناد صربيا بكل قواه • وقد وجد هذا القرار الموجه ضد امبراطورية النمسا والمجر ترحيبا من حكومة فرنسا•

بذلنا جهودنا السياسية لدى بريطانيا بقصد استمالتها للتعاون معنا من أجل وضع أسس ثابتة لاقرار السلام الذي بات مهددا في اوربا • واستطعنا في حزيران ١٩١٤ التوصل الى تفاهم مع بريطانيا ازلنا به اسباب الخلاف الذي كان قائما بشأن مد سكة حديد بغداد ـ برلين حيث اعترفنا بمصالح بريطانيا في الخليج العربي بينما اقرت لندن اطلاق ايدينا في العراق• وهكذا استطعنا تسوية المشاكل الاستعمارية ايضا بالطرق الودية • الا اننا لم نتمكن بطبيعة الحال من ازالة جميع الاختلافات القائمة بيننا وبين بريطانيا وخصوصا تلك المتعلقة بأوربا•

ولقد فشلت جميع المحاولات التي قام بها اللورد هالدان بشأن الموازنه بين القوى البحرية وكان يجب ان تفشل لأن بريطانيا ارادت تقوية الاسطول

الفرنسي ـ بعد ان تحالفت فرنسا مع روسيا ـ من اجل اخضاع الاسطول الالماني لمشيئة القيادة البحرية البريطانية.

في هذا الموقف المشحون بالمتناقضات السياسية انطلقت الرصاصات في سراييفو يوم ٢٨ حزيران ١٩١٤ وراح ضحيتها الامير النمسوي فرانز فرديناند فكانت اشارة البداية لاثارة الصراع القديم بين السلاف والالمان. فهل يمكن اعتبار مبدأ بسمارك الذي يقضي بتحاشي أي نزاع قد ينشب في البلقان قائما حتى في تلك الظروف؟

كلا . اننا لا يمكن ان نقبل بتحرك روسيا لتزعم بلدان البلقان لأن هذا سيهدد وجود امبراطورية النمسا والمجر لحساب الشعوب السلافية وبذا ستفقد المانيا مكانتها المرموقة في الحفاظ على التوازن الاوربي.

أما الادعاء بأن المانيا لا تريد المحافظة على السلام الا اذا بقيت الامبراطورية البريطانية بأسطولها المتفوق وراء المانيا فهذا امر غير وارد.

وهكذا تعقد الموقف وازداد غموضا . فبينما كنا نسعى لانقاذ السلام في اوربا اذا بدعاة الحرب يدعونا للتدخل . يشجعهم على ذلك ان الدبلوماسية الالمانية كانت غير واضحة المقاصد وضعيفة الى ابعد الحدود.

أما قيصر روسيا فقد أمر باجراء نفير جزئي ضد امبراطورية النمسا والمجر الا ان وزير حربيته اصدر امرا من وراء ظهر سيده بتقدم القوات الروسية ضد المانيا ايضا. لقد كانت روسيا وفرنسا تريدان الحرب بينما لم تشأ بريطانيا ثنيهما عن عزمهما. وهكذا اصبحت الكارثة وشيكة الوقوع وليس هناك من سبيل لتفاديها.

واليوم وبعد مرور اكثر من اربعين سنة على تلك الاحداث فقد بات من الواضح للجميع ان حدود امبراطورية شارلمان المقدسة قد اكتسحت وامتهنت حرماتها بسبب خطل سياسة الدول الاوربية الكبرى آنذاك . وقد اعتدنا نحن الالمان على تقبل الاتهام بمسؤولية بلادنا عن ايقاد نار الحرب

العالمية الاولى • وانني اشهد هنا من موقعي المهم آنذاك بأن عهد القيصر غليوم الثاني الذي كان امتدادا طبيعيا لعهد المستشار الحديدي بسمارك كان كثيرا ما يخطيء باتباع سياسة «الدفاع التعرضي» ازاء الدول المجاورة الا ان القيصر غليوم الثاني كان شديد الحرص على سلام المانيا • وليس ادل على ذلك من تصميمه للاسطول الالماني وجعله قوة دفاعية متجنبا الافكار التي تنطوي على المغامرة•

لم تكن اخطائنا في اتخاذ القرارات السياسية فاحشة لدرجة يمكن ان تؤدي الى نزاعات دولية • ثم ان الحقيقة الدامغـة تتمثل بأن المانيا كانت الدولة الوحيدة ــ الى جانب بريطانيا ــ التي دخلت الحرب الاولى دون ان تكون لها اية مطامع اقليمية في البلدان المجاورة • ولقد امتشقنا الحسام من اجل الحفاظ على مركزنا التأريخي في الدفاع عن وسط القارة وهو هدف دفاعي محض لمجرد الدفاع عن النفس ليس الا•

ولابد للمرء في النهاية من الاعتراف بالتأريخ•

ولكن قد يتهمنا البعض قائلا:

« ألم تبدأوا تلك الحرب بالاعتداء على بلد صغير مجاور وتتجاوزوا على حياده؟»

والاجابة على هذا السؤال في منتهى السهولة • ذلك لأن تقدمنـا في الاراضي البلجيكية ــ وانتهاكنا لحرمـة حيادهـا ــ لقي في بدايـة الامر استهجانا من العالم ثم تبين بأن اقتحامنا لبلاد البلجيك لم يكن لمقصـد الاستيلاء على أية أراض بلجيكية والاحتفاظ بها • ولكن السبب هو ان هيئة الاركان الكبرى خشيت من اضطرار المانيا على اللجوء للقتال على جبهتين في وقت معا ولم تجد مناصا من وضع خطة لتحقيق النجاح السريع في الجبهةالغربية وقد تضمنت خطة شليفن تطويق الجناح الشمالي للجيش الفرنسي وهذهالخطة لا يمكن تنفيذها ما لم تمر الجيوش الالمانيـــة من الاراضي البلجيكيـة •

والغلطة الوحيدة التي ارتكبتها المانيا هي ان هـــذه الخطة لم تتم مناقشتها واقرارها من قبل قيادة المانيا السياسية ولذا فانها لم تتمكن من موازنتها مع المواقف السياسية التي ستنجم عن تطبيقها • ولما سئل فون مولتكه الصغير عن أسباب انتهاك حياد بلجيكا أجاب قائلا :

« لو لم تتقدم عبر بلجيكا لخسرنا الحرب منـذ اليوم الاول للقتال » • وهذا التخبط سببته الهوة الواسعة بين القيـادتين السياسـية والعسكرية الالمانيتين •

ولو القينا نظرة على التأريخ الالماني منذ فترة الانتصارات المؤزرة التي حققها الالمان بالاستيلاء على كل الاراضي الواقعـة بين انهر البه والاودر وڤايكسل وكذلك احتلال بروسيا وأقاليم بحر البلطيق أخذ الشعب الالماني على عاتقه ــ بالاضافة الى النضال في سبيل العقيدة المسيحية ــ مهمة حماية وسط اوربا من أي عدوان آسيوي • وسواء أكان الغزاة جنود جنكيز خـان الذين وصلوا الى ليغنتس[٥] ام العثمانيون الذين حاصـروا ڤينا أم الروس الذين هاجموا الموانئ الشمالية المنجمدة • فان الجبهة الرئيسة التي قاتل فيها الالمان في جميع حقب التأريخ كانت الجبهة الشرقية •

لقد أصبحت هذه المهمة التأريخية للشعب الالماني مطبوعة في اعماق ضمير كل الماني • ولذا فان اشتراك المانيا بالحرب العالمية الاولى لم يكن سوى أمر طبيعي يتسق مع هذه المهمة •

وقد يتبين الدارس المتعمق للتأريخ الالماني ان بروسيا طالما عقدت من وقت لآخر أحلافا مع روسيا من أجل تحقيق مقاصد معينة • وانها حاولت كثيرا دمج دولة النمسا العظيمة في الاسرة الاوربية • ولعل الحلف المقدس الذي اقيم بين النمسا وبروسيا وروسيا في عهد قيصرها الكسندر الاول يعطينـا الدليل القاطع على ان زعماء الدولتين الالمانيتين ارتكبوا نفس الخطأ الذى ارتكبـه

---

(٥) تقع الآن ضمن الاراضي البولندية . ــالمترجمــ

روزفلت في يالطا فيما بعد . فروسيا تعتبر قوة آسيوية ولا يمكن أوربتها بحال من الاحوال .

واننا لنشهد الآن بعد أن وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها موقف الغرب وهو يعاني نفس المعضلة التي شهدتها المانيا لوحدها وتحملت وطأتها منذ مئات السنين . ولعل هذا الموقف بالذات يجعل الناس الآن يفهمون تماما لماذا اعتبرت أنا ومعي الكثيرين من الالمان معاهدة فرساي معاهدة مجحفة بحق المانيا لانها جعلت منها بلاد بلا حول ولا قوة بينما هي القوة الاولى التي تقف بمواجهة الشيوعية .

والحقيقة هي ان ظهور الاشتراكية الوطنية كحركة مضادة للشيوعية في المانيا كان النتيجة الطبيعية لمناهضة العنف الشيوعي وهذا ربما يمكننا من القاء الضوء على مبررات الاخطاء التي تقلل من الانتقادات الموجهة لنا .

ان سير الوقائع المتعاقبة وفقا للظروف التي تصاحب الاحداث يكو ن بمجموعه هيكل التأريخ . فهل لي ان اسرد بعض الملابسات التأريخية التي اكتنفت القرارات التي اتخذتها عندما أصبحت فيما بعد مستشارا لالمانيا ؟



الفصل الخامس

أمريكا والحرب



اساطير وحقائق . اقالة برنستورف . منظمة للخدمة السرية . انفلاقات على قناة ويلاند وجسر فانكيبورو . سير روجر كاسيمينت. شراء كل منتجات امريكا من المواد الحربية . مشكلة الغواصات . الباخرة لوزيتانيا . وثائق المدير البرت . قضية رنتلن . رسالة دومبا . ((شخص غير مرغوب به)) .

لو لم أجد نفسي مشغولا بصورة تامة طوال حياتي ولو اتيحت لي فرصة قصيرة من التفرغ لانبريت لتفنيد هالة الاساطير والافتراءات التي حيكت حول فعالياتي عندما عملت ملحقا عسكريا لبلادي في الولايات المتحدة الامريكية . فلقد ظهرت مختلف المذكرات والقصص بين آونة وأخرى وكلها مفعمة بالنيل مني وكان أشدها وقاحة كتاب يحمل عنوان « الشيطان الذي يرتدي القبعة العالية» وكلها مكتوبة بأساليب روائية حاذقة ومشوقة على غرار قصص الجرائم الغامضة . وكلها تتحدث كما يشاء كتابها بلا وازع من ضمير عن نشاطات وهمية

نسبت الي عن فترة اشتغالي في تلك البلاد خلال الفترة الممتدة لمدة الثمانية عشر شهرا الاولى من الحرب العالمية الاولى .

اذ اتهمني البعض بتنظيم شبكة واسعة كانت مسؤولة عن التخريبات وعن الاضرابات التي حصلت في معامل الانتاج الحربي وفي الموانىء . ونعتني البعض الآخر « الجاسوس الاستاذ » الذي يتربع على قمة منظومة سرية من الوكلاء الذين دأبوا على استعمال القنابل والمفرقعات في طول الولايات المتحدة وعرضها بقصد شل المجهود الصناعي العسكري الامريكي . وارجو ان يقدر القارىء الكريم بأن أخشى ما خشيته من هذه الحملة الظالمة هو تصديق الرأي العام لتلك الاتهامات الباطلة . ويجب التأكيد بأنها كانت حصيلة نشاط مصلحة الدعاية التي نظمها الحلفاء لانني كنت هدفا لحملة دعائية مدبرة شنها اعداءالمانيا في الولايات المتحدة الامريكية . ولم تكن لنا آنئذ أية تجربة في هذا المجال . أما اليوم فنحن نعرف ان هناك ما يسمى « بادارة الحرب النفسية » وهي اداة ذات قيمة تفوق التصور . ولا بد من الاعتراف بأن الحلفاء قد سبقونا في هذا المضمار . فهم لم تتيسر لديهم الوسائل الفنية المساعدة فحسب وانما تتوفر لديهم أيضا حرية الاتصال الهاتفي مع مختلف ارجاء العالم . ثم انهم مارسوا أساليب خبيثة في شن دعايات موجهة الغرض منها اذكاء حملة من الكراهية الشاملة ضد نظام المانيا الامبراطوري باعتباره يمثل قمة العداء لكل ما هو ديموقراطي والادعاء بأنه نظام عسكري يتصف بالاجرام .. ولذا فمن البديهي ان تنسج الخرافات وتنسب للملحق العسكري الالماني في واشنطن لا سيما وان مصدر تلك الدعايات المضللة كان امريكا نفسها[1] .

لم تتيسر لي بعد الحرب العالمية الاولى فرصة الرد على تلك الاباطيل ودحضها . الا ان الحكومة الالمانية أرادت تحليل الوقائع التي حصلت ابان الحرب فتألفت لجان لتقصي الحقائق وكلفت أنا بكتابة تقرير ضاف عنفعالياتي

(١) ان الصهاينة هم الذين يمتلكون ناصية وسائل الاعلام الامريكية ويسيطرون عليها قبل ذلك الحين وحتى يوم الناس هذا وعليه فهم المسؤولين عن امثال هذه الفعاليات باعترافاتهم الواردة في بروتوكولات حكماء صهيون .
ـ المترجم ـ

في واشنطن . ولكن الحقيقة بقيت مطموسة خارج برلين الا للقليلين من المنصفين .»

هذا والا لما ذكر فرانسوا پونسيه السفير الفرنسي ببرلين لسنين عديدة[٢] بأنني المسؤول عن اغراق العديد من السفن ابان الحرب العالمية الاولى .

ويشير التأريخ الرسمي الالماني للحرب العالميـة الاولى الى فعالياتي بملحوظة مقتضبة . وعليه فليس من الغريب بل من المؤسف تماما ان تخرصات الصحافة المعادية لالمانيا عادت للظهور في عام ١٩٣٢ عندما وقع عليّ الاختيار لاكون مستشارا لالمانيا . وفي تلك الاثناء كنت منهمكا بمسؤولياتي كرئيس للحكومة لدرجة لم استطع معها الرد على تلك الافتراءات لانني كنت بصدد ما هو أهم من ذلك . ولما شرعت الآن بكتابة مذكراتي رأيت ان من المناسب ايضاح هذه الحقائق .

عندما رجعت من المكسيك الى واشنطن وجدت نفسي بموقف لا أحسد عليه . فأنا الملحق العسكري الوحيد لدول الحلف المركزي . لان بلغاريا والدولة العثمانية وامبراطورية النمسا والمجر لم يكن لديها ملحقين عسكريين مع بعثاتها الدبلوماسية في واشنطن . وكان اعتمادها كلها على المانيـا التي كنت أقوم لوحدي بمهمة تنفيذ سياستها العسكرية في قارة امريكا الشمالية . ولما كانت مواصلاتي مقطوعة مع المانيا في اول الامر ثم أصبحت متيسرة ولكنها عسيرة جدا فقد كنت أعتمـد على نفسي في اتخاذ أغلب القرارات وأصبحت السفارة الالمانية في واشنطن بموقف العاجز نتيجة لاشتراك المانيا بالحرب .

ويبدو ان وزارة الخارجية الالمانية لم تكن قد أخذت في حساباتها احتمال دخولنا في حرب عالمية وانقطاع مواصلاتنا الهاتفية بفعل الاسطول البريطاني . وقد استمرت هذه الحال بضعة أشهر حتى استطاع غراف برنستورف ارسال تقاريره الى برلين عبر طريق ملتوية تمر من السويد .

---

(٢) عمل فرانسوا بونسيه سفيرا لبلاده ببرلين قبل الحرب العالمية الثانية .
ـ المترجم ـ

اما هيئة الاركان الكبرى فكانت في قلق واضح بشأني • لانها كانت قد زودتني بأوامر سرية لا يسوغ لي فتحها الا في حالة اشتراك بلادي بالحرب. فلما نشبت الحرب وفتحت تلك الاضمامة وجدتها تحتوي على عناوين لبعض الشركات في اقطار محايدة وتحتوي على جفرة اتمكن باستعمالها مع تلك الشركات من ايصال المعلومات العسكرية ببرقيات ظاهرها التجارة فتصل الى برلين بطريقة مضمونة • وكانت احدى الشركات الهامبورغية لها فرع في شارع هانوفر بنيويورك قد تكرمت باعارتي غرفة من ذلك المكتب فجعلت منها نقطة للاتصال بجميع ارجاء العالم هاتفيا واخذت اعبر منها المعلومات العسكرية المهمة •

وكان خصمنا قد أحكم سيطرته على الصحافة في وقت مبكر. ولكننا رغم ذلك استطعنا الحصول على معلومات عسكرية ثمينة وبمقادير وفيرة من المراسلات المستمرة مع بريطانيا وفرنسا • اذ استطعت مثلا اخبار هيئة الاركان الكبرى بأن قوة من حملة الانكليز التي ارسلت للمساهمة في الدفاع عن فرنسا كانت بقوة ٦٠٠٠٠ رجل وقد وصلت الى ميناء (آبفيل) خلال الايام الاولى من شهر آب ١٩١٤• واذكر ان برقيتي البسيطة تضمنت ما يلي تقريبا:

« تم شراء ٦٠ ٠٠٠ بالة قطن مطروحة في ميناء الاسكندرية لنقلها فورا الى جنوة • بسعر ٠٠٠. دولار وينتظر وصولها كلها للميناء يوم أمس• ويمكن نقل اقسام من الحمولة الى الموانيء الايطالية الاخرى ـــ شركة لويسفيل للقطن • »•

وقد ارسلت البرقية الى عدة شركات لتصنيع القطن في كل من ايطاليا وهولندا والسويد• كما ارسلت برقيات أخرى تتحدث عن صفقات السكر او الزيت أو مواد أخرى وكلها تعني معلومات عسكرية عن فرنسا وبلجيكا وتعتبر مهمة لادارة الحركات من قبل هيئة الاركان الكبرى•

وقد مرت مقترحاتي الى وزارة الحرب الالمانية في ايلول ١٩١٤ بشراء كل منتجات امريكا من الاسلحة والعتاد بنفس طريقة تعبير المعلومات•

وكان اشد ما اثار ايلامنا نحن وابناء الشعب الامريكي الذين ينحدرون من اصل الماني ان الصحافة الامريكية دأبت على بث اخبار مغلوطة متعمدة الغرض منها التقليل من شأن القوات الالمانية المقاتلة في جبهتي فرنسا وبلجيكا • وبينما كانت برقيات الصحافة تشير الى اندحار القوات الالمانية وتكبدها خسائر فادحة نجد ان حركة التطويق الالمانية كانت تسير بنجاح وتجتاح المدن البلجيكية تباعا • ولابد لي ان اذكّر القاريء الكريم بأن الاتصالات الهاتفية كانت لا تزال في اول عهدها وهي غير مضمونة وتتأثر كثيرا برداءة الطقس وهكذا وجدنا انفسنا معرضين لحملة مدبرة من الدعاية المناوئة لنا بينما كنا نبذل جهودنا لتبرير اخلالنا بحياد بلجيكا بحجج واهية •

وكانت هيئة الاركان الكبرى قد جعلت في حساباتها احتمال تقدم الجناح الشمالي للقوات الفرنسية عبر بلجيكا والوصول سريعا الى منطقة الروهر الصناعية الالمانية •

والواقع ان هذه التصورات كان لها ما يبررها • لأن هيئات ركن الحلفاء كانت قد اجرت محادثات بهذا الشأن مع هيئة الاركان البلجيكية • ولكننا عاجلناهم بحيث اننا عندما اجتازت قواتنا حدود البلجيك لم يكن على ارضها ولا جندي فرنسي واحد • وكان لاخلالنا هذا بحياد بلجيكا اسوأ الاثر على سمعتنا في الولايات المتحدة الامريكية منذ الايام الاولى للحرب•

وثمة محذور آخر تعرضت له المانيا في الولايات المتحدة الامريكية ويتمثل بعدم وجود اية علاقة اتصال بين السفير غراف بيرنستورف والحكومة الامريكية الجديدة التي هي من الحزب الديموقراطي ولا بد لنا من التذكير بأن الرئيس الامريكي ويلسون قد تم ترشيحه للرئاسة من قبل وليام جننغس بريان على الرغم من معارضة مجموعة متنفذة من الرأسماليين • وكان انتخابه البادرة الاولى لتأثير أزمات اوربا على انتخاب الرئيس الامريكي منذ ذلك الحين• وقد أثار كل من بييربونت مورغان وأوغوست بيلسونت وغيرهما من كبار الماليين غضب رجال الحزب الديموقراطي ولكن هذه الازمة تمثل وجهة

نظر المجتمع الارستقراطي الامريكي التي كانت ذات تماس مباشر بالهيئات الدبلوماسية الاجنبية في البلاد. وكان الديموقراطيون يعتبرون غير مريحين سياسيا وهم غير قادرين على الاندماج بالمجتمع بدرجة قلت ام كثرت. وكان بريان الذي أصبح وزيرا للخارجية رجلا فظا لا يطاق ويتجنبه الكثيرون.

اما الجمهوريون فكانوا ـ ومنهم اغلب الامريكان الذين هم من اصل الماني ـ اكثر مودة وميلا نحو المانيا . ومع انه منا لصعب اثبات ما اؤمن به الا انني ارى بأنه لو تم تجديد انتخاب الرئيس تيودور روزفلت لاقدم الرجل على سحب الولايات المتحدة من الحرب العالمية الاولى . وهو مشهور بدور الوساطة الذي لعبه في انهاء الحرب الروسية ـ اليابانية . وكان قمينا بالتوسط لانهاء النزاع الناشب في اوربا . حيث ان مسانة بلقنة اوربا لا يمكن وضع حد لها الا بتدخل دولة كبرى محايدة. ولما زجت واشنطن بنفسها في اتون الحرب وبعد انتخاب الرئيس ويلسون لم يعد بمقدورها لعب دور الوساطة بصفة الحياد.

ولكي تتمكن من ستر الثغرة الحاصلة في معلومات الشعب الامريكي عن تطورات الحرب فاننا بذلنا جهودنا لتزويد وسائل الاعلام الامريكية بوجهة نظرنا . وكان ان لقينا ترحابا من الصحف الامريكية الصادرة باللغة الالمانية وتلقينا اسنادا من الكثير من المؤسسات والاتحادات الثقافية التي يشرف عليها مواطنينا الاماجد.

ومن نافلة القول ان اشير هنا الى ان عواطف هؤلاء كانت كلها صالح المانيا. لكن هؤلاء ما لبثوا ان تعرضوا لحملات شعواء من الصحافة لامريكية المناهضة لألمانيا.

ونظرا لأن الامريكان الذين ينحدرون من اصل الماني تقتصر علاقاتهم لسياسية على الحزب الجمهوري فقط. فليس من العجيب تبادلنا الكره مع شياع الحزب الديموقراطي حتى اننا صرنا ننعت أي فرد منهم بالنعت لمشهور «الامريكي القبيح» . اما صحف الديموقراطيين فقد اخذت تسمي عضاء الحزب الجمهوري وانصاره «خونة» «وحلفاء دول المعاهدة المركزية».

كان من العسير علي في تلك الظروف تمثيل المصالح الالمانية على الوجه الاكمل. ولا افشي سرا اذا ما قلت بأنني اضطررت على خوض نزاع مع السلطات الامريكية في مناسبتين من اجل النهوض بواجباتي. فقد قادني تقدير الموقف العسكري الى احتمال نقل قطعات كندية كبيرة لنجدة فرنسا. ولابد ان تنقل تلك القوات سيتم على خط قطار كندا ـ المحيط الهادي وعليه فقد قررت تخريب سكة الحديد في عدة مواضع مهمة من أجل تأخير وصول تلك القوات الى ميدان المعركة وكانت هذه هي المرة الاولى التي خضت فيها النزاع مع الامريكان خلال الاسابيع الاولى من نشوب الحرب اما المرة الثانية فكانت في صيف ١٩١٥ (وبتحريض من هيئة الاركان الكبرى) ولما كانت تصلني يوميا مجموعات كبيرة من الشباب الالمان ـ من جميع الرتب العسكرية ـ وكلهم يتحرقون شوقا للعودة للوطن بغية القيام بواجباتهم الوطنية . فقد حاولت بذل المستطاع من اجل ايصال اعدادمحدودة منهم بطرق ملتوية لاسيما وان الاساطيل الانكليزية تتحكم بالملاحة البحرية وهي تمنع الشباب الالمان من الوصول الى وطنهم بطبيعة الحال .. وعليه فقد نظمت مكتبا لتزويد العسكريين الاحتياط الالمان بجوازات سفر مزيفة وهذه الفعالية لم تشكل أي خطر على المصالح الامريكية ـ المحايدة رسميا آنذاك ـ ولو انها كانت فعالية مخالفة للقوانين السائدة.

في الاسابيع الاولى من الحرب راجعني ايضا عدد من الالمان الذين لديهم آراء مفيدة ومقترحات جيدة تتعلق بادارة الحرب ولكنني عند التمعن بها وجدت ان اغلبها خيالية ويتعذر تطبيقها. وكان احد الذين راجعوني في تلك الفترة شاب متحمس هو الذي اقترح تخريب سكة حديد كندا وحدد بالذات الجسر المقام على قناة «ويلاند» بقصد تعويق وصول القطعاتالكندية الى الجبهة الغربية .. وكانت كندا بالنسبة لنا بلادا معادية . مع ان مبدأ مونرو ينص على تجنب قارة امريكا الشمالية ـ بما فيها كندا ـ لزج نفسها في الصراعات التي تنشب في اوربا.

سلمت للشاب المذكور خمسمائة دولار وقام احد اصدقائي في نيويورك

بتسليمه رزمة من المفرقعات . الا ان المحاولة احبطت قبيل تنفيذ التخريب وتمكن الحراس من اعتقال اثنين من المنفذين . وكان رئيس الزمرة قد قدم نفسه لي بأسم هورست فون دير غولتز بينما كان اسمه لدى السلطات الكندية برجمان تايلور. وتبين فيما بعد ان الرجل زودني بمعلومات مغلوطة عن فعالياته في الجيش الالماني كما لم يقدم نفسه لي بأسمه الصحيح. ولما عاد بعد اطلاق سراحه للولايات المتحدة لفه ستار النسيان واندمج بالمجتمع باحثا عن مصادر جديدة للحصول على المال.

كما ان محاولة نسف الجسر المقام على نهر سانت كروا بائت هي الاخرى بالفشل. وكان الرجل الذي كلف بتنفيذ هذه المهمة ضابط احتياط الماني يدعى ڤيرنر هورن. وقد تطوع لتنفيذ مهمة نسف الجسر لأنه لم تتح له امكانية الخدمة في صفوف الجيش الالماني.

واجد لزاما علي ان اعترف بأنني لم اتصرف في كلتا الحالتين بذكاء كاف ــ اذ ان نشوب الحرب كان حافزا لاثارة حماسي واندفاعي رغبة مني ــ وانا البعيد عن وطني ــ في القيام بأي عمل مثير مفعم بالنجاح. الا ان الواضح هو ان الانفلاقات واعمال التخريب لم تكن ابدا لتحقق اية مزايا سياسية. وقد تعلمت الكثير من هذه الدروس في الاشهر القليلة التالية.

في صيف ١٩١٥ وضعت هيئة الاركان الكبرى الالمانية خططا واسعة للتعرض على روسيا بقصد انهاء الحرب مع روسيا واخراجها من الحرب. وتضمنت هذه الخطط اهمية ابقاء قوات المانية ضعيفة لستر الجبهة الغربية على ان نبذل جهودنا لمنع وصول اية نجدات كندية او يابانية لتعزيز القوات الفرنسية.

ولتحقيق هذا الغرض فقد تلقيت توجيهات جديدة تتضمن اعادة محاولات تخريب سكة حديد كندا ــ المحيط الهادي لتعويق تنقل القوات الكندية الى سواحل المحيط الاطلسي . وقد قمت بسفرة لاستطلاع خط الحدود الكندية ــ الامريكية وتكلمت عن تفاصيل الخطط المناسبة مع السيد

فون رايتسفتز قنصل المانيا في شيكاغو الذي قدم لي المانيا متحمسا هو السيد البرت كالتشميدت الذي كان مندفعا لتنفيذ كل ما يطلب منه بالاضافة الى خططه الخاصة التي تتضمن رغبته في تخريب مصانع العتاد • الا انني منعته من التصرف على هواه• ثم ان مصلحة الاستخبارات الكندية افلحت في القاء القبض على المشتركين بالعملية قبل الشروع بتنفيذها واستنطقتهم فأدلوا بكل ما لديهم من معلومات•

وهكذا لم تنجح اية محاولة لتدمير خط سكة الحديد الكندية • الا اننا مع ذلك كله كنا سعداء بحقيقة مهمة هي ان القوات اليابانية لم تنتقل الى فرنسا ابدا لا عن طريق كندا ولا عن اي طريق آخر•

في خلال الاسابيع الاولى للحرب تعرفت على مسؤول احدى المنظمات الايرلندية وهو «السيد جون ديفوي» وكان يتزعم مجموعة كبيرة من الايرلنديين المقيمين في الولايات الشرقية •. وهو شديد الكره لبريطانيا — شأنه في ذلك شأن اغلب المواطنين الايرلنديين — وقد ابدى استعداده لتنفيذ اية مهمة يكلف بها طالما هو يناضل من اجل استقلال ايرلندا • وقد تعرفت بواسطته على «سير روجر كاسيمينت» المناضل الايرلندي المعروف • فقال لي الاخير ان انتصار المانيا يعتبر اسرع وسيلة لتحقيق استقلال ايرلندا •. ولذا فقد رحب الرجل كثيرا باقتراحي المتضمن سفره الى برلين لتنسيق التعاون مع رجال الدولة الالمانية• ثم انه ابدى استيائه لتزايد انجراف الولايات المتحدة نحو الحلفاء• وقد كان هذا الرجل هو الذي تقدم بمقترحات لحكومة برلين لتنفيذ فعاليات التخريب ضد عمليات شحن الاسلحة والاعتدة الامريكية ومنع وصولها لأيدي اعدائنا•

وهكذا تلقيت في ٢٦ كانون الثاني ١٩١٥ امرا صادرا عن الشعبة «٣ ب» وموقع من قبل معاون رئيس هيئة الاركان الكبرى للاستخبارات يتضمن عددا من عناوين الوطنيين الايرلنديين الذين يمكن التعاون معهم عند الحاجة• ونظرا لتجاربي في هذا المضمار فانني لم اكن متحمسا للاندفاع مع اولئك الغلاة في ذلك المجال•

وقد انجز سير روجر كاسيمينت جميع فعاليات التدخل في الصراع دون مساهمتي وأذكر ان الرجل وصل في عيد الفصح[٣] من عام ١٩١٧ الى سواحل ارلندا الجنوبية على ظهر غواصة المانية بقصد الاتصال بجماعته وتنظيم المقاومة ضد الانكليز لكنه القي القبض عليه حال وصوله ثم أعدم في برج لندن. وقد حاز هذا البطل الايرلندي الغيور الذي لا يعرف معنى الخوف والذي ضحى بحياته في سبيل بلاده على احترامي الدائم.

برزت لي واجبات اخرى جديدة نتيجة لتشديد وكلاء الخدمة السرية الامريكان والانكليز النكير على فعالياتي من اجل تعويق وصول المعلومات الدقيقة الى المانيا.

وكان لشركة النقل البحري هامبورغ ـ اميركا رجل حصيف يعمل رئيسا لادارة التحقيق في فرعها بنيويورك يدعى پاول كونيغ، ولما توقف النقل البحري استطعت تجنيده في العمل لخدمة مكتبي • وحددت له مهمة مألوفة بالنسبة له وتتضمن جمع المعلومات. والعمل على تعويق نقل المهمات العسكرية من امريكا الى اوربا بالاضافة الى تحقيق الامن الضروري لمكتبي وحجب الامور المهمة عن اعين الفضوليين من وكلاء العدو • وقد تمكنت بفضل همته من اخبار هيئة الاركان الكبرى بالمعلومات المهمة المتعلقة بشحن المعدات الحربية الى اوربا اولا بأول • كما ان كونيغ استطاع التدقيق بمهارة تامة في شخصيات الجموع الغفيرة من المراجعين الالمان والذين هم من اصل الماني مهما تستروا بالحماس او زعموا استعدادهم لتخريب المنشآت الصناعية العسكرية الامريكية • كما انه علمني كيفية تجنب مراقبة هيئات الاستخبارات المعادية لاسيما واني كنت عديم التجربة تماما في ذلك المضمار. وكنا نلجأ لتضليل معقبينا باللجوء مثلا الى متجر كبير والتحول بالمصعد من طابق الى آخر صعودا ونزولا ثم التحول الى باب اخرى ـ غير التي دخلنا منها ـ والتسلل باطمئنان بعيدا عن اعين المطاردين • ولابد لي من الاعتراف بأن مثل هذه الأساليب كانت تختلف مع طبيعتي.

(٣) يكون عيد الفصح بين منتصف آذار ومنتصف نيسان .

ـ المترجم ـ

اصبح من الواضح بعد معركة المارن ان الحرب ستستمر لفترة طويلة جداء وان النصر سيكون حليف من تتوفر لديه احتياطات اكثر عددا ومعدات أوفر، وتبين ان العامل المؤثر الى درجة الحسم سيكون الولايات المتحدة الامريكية لأنها لديها قدرة انتاجية واسعة، الا انني لاحظت ـ قبل اشتراك الولايات المتحدة بالحرب ـ انها اذا ما بقيت على الحياد فليس هناك أي أمل بحصول دول الحلف المركزي على اية معدات عسكرية امريكية لأن الحصار البحري الانكليزي المشدد على المانيا يجعل وصول المعدات متعذرا، وعليه فليس من غرابة في حرصنا على حرمان الحلفـاء من الحصول على المعدات العسكرية التي تنتجها امريكا.

عندما قابلت القيصر مستأذنا بالالتحـاق بمنصبي بأمريكا في كانون الاول ١٩١٣ ثم ودعت رئيس هيئة الاركان الكبرى المشير فون مولتكه الصغير سمعت من كليهما تنويها عن احتمال نشوب حرب أوربية ، ولكنني لم اتلق اية وصايا تتضمن ما يجب علي القيام به في حالة نشوب الحرب فعلا، وواضح ان السبب في ذلك هو عـدم توقع احد لامريكا ان تلعـب دورا حاسما في مثل هذا الصراع، ولكنني عجلت في كتابة تقارير ضافية حـال نشوب الحرب اخبرت فيها وزارة الحرب الالمانية بمدى اهمية الانتاج الحربي الامريكي لاستمرار الحرب ، وفي ١٢ أيلول ١٩١٤ تقدمت باقتراح يتضمن قيام المانيا بشراء بعض مصانع السلاح الامريكية او ربط تلك المصانع بعقود تشتري بموجبها كل منتجاتها . ويبدو ان وصول ذلك المقترح في الايام الاولى للحرب جعله لا يلقى الاهتمام اللازم من ضباط المقر العام ، وعلى الرغم من تأكيدي بعد مرور شهر ببرقية استفسار عن مآل مقترحي الا انني لم اقابل بغير الاهمال ، والذي حز في نفسي ان وكلاء الحلفاء شـرعوا يتقاطرون في هذه الاثناء على الولايات المتحدة الامريكية واخذوا يتفاوضون مع وكلاء شركات الاسلحة والاعتدة في نيويورك ومع انهم صادفوا صعوبات ليست بالهينة الا انهم استطاعوا التعاقد اخيرا مع مصنع للمدافع وآخر للبنـادق وكذلك مع مؤسستين اخريين لانتاج البارود والعتاد ، وقد تأكد لدي بأن

الحلفاء سوف لن يكتفوا بالتعاقد مع تلك المصانع وسرعان ما تحققت مخاوفي عندما اقيمت مصانع جديدة للاسلحة والاعتـدة في امريكا . وكان هـذا مغامرة اقتصادية بحتة اذا ما اردنا التساؤل ببسـاطة . الى متى ستستمر الحرب؟ واذا انتهت الحرب غدا فماذا سيفعل الامريكان بهذه المصانع ؟ ومما لا شك فيه ان التجار الامريكان يرغبون في تسديد اثمان مصانعهم الجديدة من تكاليف الصفقات الاولى التي يعقدونها وكانت حصيلة ذلك ان الاسعار التي ترتب على الحلفاء دفعها كانت مرتفعة الى اقصى الحدود.

كنت احصل على ادق المعلومات عن تلك الصفقات التجارية التي عقدها ممثلو الحلفاء لأن المصارف الكبرى في الولايات المتحدة كانت تضم نسبة عالية من الموظفين الذين هم من اصل الماني. وكان هؤلاء يتبرعون بتقديم اية معلومات اريدها عن طيب خاطر خدمة لوطنهم السابق.

ولقد فكرت في هذه الاثناء بامكانية بناء مشروع مستقل للانتـاج الحربي في امريكا يعمل لحساب المانيا ولما اختمرت الفكرة في خاطري كتبت مقترحا بهذا الشأن الى برلين مشيرا الى ان القوانين الامريكية لا تمنع اقامة المشروع. وفي ٢٤ آذار ١٩١٥ تلقيت موافقة برلين علي المضي في تنفيذ مقترحي.

كانت الخطة بسيطة نسبيا . وقد كلفت صديقا امريكيا يدعى جورج هودلي بتأسيس مصنع للمدافع والعتاد على ان يحمل اسماً امريكيا بحتاً وتكون له واجهة شركة أمريكية بحيث تتمكن من استمالة ممثلي الحلفـاء فقام الرجل بتأسيس «شركة بردج بورت المحدودة» لصناعة المحركات واجهزة الارجاع الهايدروليكية والمهمات الاخرى الضرورية للانتاج الحربي وانشأ لها مصانع ضخمة جعلها تنتج بأقصى طاقاتها . وصارت تلك المصانع تعمـل لصالحنا بموجب العقود التي وقعناها مع الشركة. وكنا نتوقع ان يكون اجرائنا هذا كفيلا باعاقة المشاريع الجديدة المشابهة لمدة تتراوح بين السنة والسنتين. ولما تقبل ممثلو الحلفاء في ربيع ١٩١٥ دفع فروق الاسعار اخيرا

وأرادوا التوســع في مشترياتهم بالتحول لحجز مشتريات المصــانع الجديدة ذهلوا لأنهم وجدوا منتجات المصانع الجديدة محجوزة لنا لأننا اشترينا تلك المنتجات قبل صنعها بسنة ، وكانت مصانع شركة بردج پورت المحدودة من بين المصانع الجديدة التي اشترينا منتجاتها سلفاء والجدير بالذكر اننــا افلحنا في كتمان السر ، ولو أن احدى لجان الكونغرس امرت بفتح التحقيق مع السيد جورج هودلي واتهمته بتصرفاته المتعارضة مع ولائه لامريكا لامكنه الدفاع عن نفسه متذرعاً بتمسكه بحياد امريكا المعلن آنذاك طالما ان امريكا باعت آنذاك سلاحا وعتادا للحلفاء فان حيادهــا يبرر بيع السلاح والعتــاد لالمانيا ايضا ، لاسيما وان الدعايات المناهضة لالمانيا لم تكن قد استشرت في امريكا آنذاك لدرجة الادعاء بأن المانيا تريد احتلال العالم كله.

نجحت شركة بردج پورت في شراء كل منتجات «شركة ايتنا للبارود» خلال سنة ١٩١٥ بمبلغ خمسة ملايين باون انكليزي. وكانت اكبر مشكلة صادفتني آنذاك هي كيفية خزن تلك المقادير الكبيرة من المفرقعات ، ولكنني تغلبت على تلك المعضلة على اية حال.

أما معضلة تمويل المشروع برمته فقد تكفل بمعالجتها الدكتور البرت الذي كان قد سافر قبيل نشوب الحرب الى سان فرانسيسكو بقصد المساهمة في تنظيم المعرض الالماني المزمع اقامته هناك ، ثم نقل منها ليكون مستشارا ماليا للسفارة الالمانية في واشنطن. ولما كان الامريكان الذين هم من اصل الماني قد تبرعوا بمبالغ طائلة للصليب الاحمر الالماني وحيث اننا لم نستطع تحويل الاموال اللازمة لتغطية نفقات المشتريات الحربيــة من امريكا فقد اقترضنا اموال التبرعات الممنوحة للصليب الاحمر وعوضنا تلك المؤسسة نقودا من المانيا فيما بعد.

وثمة مسألة أخرى جعلتني عرضة للانتقادات اللاذعة فيما بعد وخلاصتها ان عددا كبيرا من الالمان الذين فاجأتهــم الحرب وهم خــارج الوطن لم يستطيعوا الرجوع بأيــة وسيلة ، فأشتغلوا في امريكا بشتى المهــن وفقا

لاختصاصاتهم وكان منهم المهندس والعامل الماهر وغيرهم. وقد عمل عدد من هؤلاء في مصانع الاسلحة الامريكية . ولما تبين لنا انحياز امريكا لبريطانيا ثم تحولها لموالاة الحلفاء ومعاداتنا بصورة سافرة اصبح من غير المعقول ابقاء العمال والمهندسين الالمان يعملون في مصانع التسليح الامريكية فأنشأت مكتبا للتشغيل بقصد سحبهم تدريجيا من مصانع الاسلحة وتحويلهم للاشتغال في مجالات اخرى سلمية لكي احرم صناعة الاسلحة الامريكية من مهاراتهم وخبراتهم . ويبدو هذا الاجراء منطقيا وقد لقى التأييد من جميع المسؤولين الالمان.

وكما ذكرت آنفا فانني كنت في تلك الاثناء منهمكا بمعالجة مسألة خزن مقادير كبيرة من المفرقعات ثم نقلها للوطن. واردت نقل المفرقعات الى بلدان محايدة معينة مثل المكسيك والنرويج والسويد واسبانيا دون ان تتسلل منها اية كمية الى أيدي الاعداء. وقد زعمت شركة وهمية انها تصدر المفرقعات للمكسيك للاستفادة منها في مشروع نصب التلغراف المقرر انجازه خلال عام ١٩١٧ . وكان لالمانيا نشاط دبلوماسي بارز في المكسيك لدرجة ان وزير الخارجية الالماني اقترح على حكومة المكسيك اعلان الحرب على الولايات المتحدة الامريكية لقاء قرض مالي كبير تحصل عليه من المانيا. وقد اتهمني الكثيرون فيما بعد بأنني كنت وراء تلك المساعي الفاشلة التي اردت من ورائها عقد معاهدة مع طرف لا ترتجى منه أية فائدة .

اعتمدت في "مبيعاتي" للاسلحة والاعتدة الصورية على «كارلوس هاينن» الذي سبق ان تعرفت عليه في «ڤيراكروز» اذ كان يعمل فيها لسنين طويلة ممثلا لاتحاد صناعة لويد الالمانية . كما ان الرجل ساعد في قضية اخرى تتضمن خطط التعاون مع الوطنيين الهنود. ولم نكن نتوقع من وراء تلك الخطط مساعدة الهند على تحقيق استقلالها عن بريطانيا لأن الامبراطورية البريطانية كانت رصينة جدا آنذاك. الا اننا كنا نأمل من الاضطرابات التي قد يثيرها اولئك الوطنيون اشغال جزء من القوات البريطانية في تدابير الامن الضرورية على حساب القوات المرسلة الى فرنسا او الى ميادين القتال الاخرى.

أفتتحت المقاومة الهندية مكتبا لها في نيويورك وفتحت لها حسابا في احد المصارف بمبلغ مائتي الف دولار لشراء الاسلحة والاعتدة وتسويقها من كاليفورنيا الى المكسيك عن طريق البحر • وعندما أصدرنا أمر الشحن حملت الأسلحة المطلوبة على ظهر السفينة «آني لارسن» لكي تبحر بها من ميناء سان دييغو الى «جزيرة سوكورو» في المحيط الهادي وهنـاك تقابلها ناقلة النفط «ماڤيريك» التي دبرنا ايصالها الى هناك لنفس الغرض حيث تستلم السلاح والعتاد من «آني لارسن» وتبحر به الى ميناء كراجي.

والمؤسف ان خطتنا المدبرة باتقان صادفها الفشل الذريع. ذلك لأن السفينة «آني لارسن» ما ان وصلت الى جزيرة سوكورو قبل حلول الوقت المحدد لها الا وصادفتها معضلة عـدم توفر ماء حلو في الجزيرة وكانت السفينة خلوا من جهاز تحلية مياه البحر فأضطرت الى التحول الى ميناء «هواكويم» الصغير فأستغرق ذهابها وايابها بضعة ايام علمت خلالهـا الاستخبـارات البريطانية بالسر ـ ولو انني لم اعلم ابدا بالوسيلة التي تسلل منها الخبر اليها ـ فصدرت الاوامر لمدمرة بريطانية بالتحرك فورا الى جزيرة سوكورو وتفتيش حاملة النفط «ماڤيريك» ولما لم تعثر فيهـا على شيء فقد اخبرت السلطات الامريكية بشأن «آني لارسن» فتم تفتيشها من قبل الامريكان ومصادرة شحنتها.

في هذه الاثناء تفاقم شر الغواصـات الالمانيـة التي اصبحت تقض مضاجع مسؤولي الولايات المتحدة الى ابعد الحدود. اذ استطاعت الغواصات الالمانية تحطيم الحصـار البحري الذي فرضـه الانكليز والفرنسيون على المانيا. ولم يعد ذلك الحصار قائما لأن الحصار البحري معناه شل النشاط البحري لدول المعاهدة المركزية. وهذا امر لم يتحقق بصورة كاملة ابدا. ولما لم يستطع الحلفاء محاصرة الموانيء فقد حاولوا التصدي للسفن الالمانية في اعالي البحار. وطبيعي ان حكومة المانيا اتخذت جميع الوسائل الكفيلة باحباط هذه المحاولات التي يراد منها تعريض ١٢٠ مليون من الناس لمجاعة محققة • وكانت الغواصات اجدى الوسائل لتحقيق هذا الغرض.

الا ان هذه الوسيلة الدفاعية عرضت المانيا للاشتباك مع حكومة الولايات المتحدة الامريكية بنزاع مباشر. اذ كان من رأي قيادة البحرية الانكليزية ان حرب الغواصات يجب انتتم وفقا لنظرية حرب المدمرات. أي انه عندما تقوم غواصة ما باغراق سفينة تجارية فلربما يعني هذا ان الغواصة الالمانية تقوم اولا بالاستيلاء على السفينة ودراسة الوثائق التي يحملها القبطان وتخلى من جميع رجالها ثم يجري اغراقها بعد ضمان ارواحهم. الا ان الواقع هو عدم امكانية تطبيق هذه القاعدة في حرب الغواصات • ذلك لأن جميع السفن كانت مسلحة وهي قادرة على اغراق اية غواصة تقتربمنها لغرض تنفيذ هذه المحاولة كما انه من المتعذر تماما نقل بحارة اية سفينة من عابرات المحيط الى غواصة صغيرة • ولعل اقصى ما يمكن ان يفعله آمر الغواصة في مثل هذه الحال هو السماح لركاب السفينة المسيطر عليها بالتحول عن سفينتهم الى زوارق النجاة • والتأريخ العسكري للحرب البحرية في ذلك العام مليء بسرد روايات حافلة بالفعال التي تنطوي على الشهامة والفروسية • وكانت البحرية الالمانية قد دونت صفحة مشرقة في تأريخها لأن تلك الافعال الكريمة انطوت على المغامرة بأرواح البحارة الألمان من طوائف الغواصات فيما لو تعرضت اية غواصة لانتقام غادر.

الا ان الحكومة البريطانية استمرت على ترديد الادعاءات بأن حرب الغواصات تخل بالقوانين الدولية الى ان صدقت الحكومة الامريكية تلك المزاعم.

وعندما وجدت المانيا ان بمقدورها التصدي للسفن المعادية في عرض المحيط واغراقها دون أي انذار مسبق اعترضت الولايات المتحدة الامريكية على هذه الاجراءات. زاعمة تعرض سفن الدول المحايدة لخطر الغرق او انها يجب ان تقبل المرور من تلك السبل البحرية بتقبل الكثير من المغامرة. وقد أوضح الرئيس الامريكي بأن حرية البحار تعطي الحق الكامل لكل أمريكي بالانتقال الى أي جزء من العالم حسبما يشاء ويجب التصدي لأية تحديدات تفرض على هذا الحق.

في محاكمات نورمبرغ عام ١٩٤٥ اعاد الحلفاء اتهام البحرية الالمانية بادارة حرب الغواصات والاخلال بالقوانين الدولية للملاحة البحرية • ولما سئل الاميرال نيميتز قائد الاسطول الامريكي عن الادلة الثبوتية لهذا الاتهام افاد بأن البحرية الالمانية تلقت امرا في اليوم الاول لنشوب الحرب باغراق اية سفينة معادية تصادفها دون أي انذار مسبق•

لقد مرت ثلاثين عاما منذ عام ١٩١٥ لم يتغير فيها أي شيء من القوانين الدولية للملاحة البحرية • ومع ذلك فان قيادة القوات البحرية أصرت على ادانة اساليب القتال التي اتبعها الاسطول الالماني• الا ان الحال في عام ١٩١٥ وصلت الى درجة الخطر لأن الاتهامات الانكليزية كان يراد منها زج الولايات المتحدة الامريكية في الحرب الى جانب الحلفاء• اما بعد الحرب العالمية الثانية فلم تأخذ محكمة نورمبرغ بأقوال القائد البحري الامريكي لأن الحلفاء ليس من حقهم معاقبة الالمان عن اعمال قامت اساطيل الحلفاء بأعمال مشابهة لها •

أما الحادث الذي ادخل الولايات المتحدة الامريكية الحرب العالمية الاولى فكان حادث غرق الباخرة (لوزيتانيا) • اذ ان البحرية الالمانية شرعت منذ نيسان ١٩١٥ بتطبيق صفحة جديدة في حرب الغواصات • واصدرت تحذيرا للامريكان بتجنب المرور من المناطق الممنوعة في عرض المحيط• وفي ٣٠ مايس ١٩١٥ وصلت الى نيويورك انباء غرق الباخرة البريطانية (لوزيتانيا) وكانت هذه اكبر باخرة لنقل الركاب آنذاك• وقد غرق معها عدد من الركاب الامريكان المسافرين من نيويورك الى الموانيء الانكليزية • ولقد انكر الامريكان في اول الامر ان السفينة المذكورة كانت تحمل شحنة من المفرقعات• لكن المانيا حصلت على وثيقة تتضمن حمولة الباخرة المذكورة جاء فيها : في ١ نيسان ١٩١٥ اقلعت الباخرة لوزيتانيا من نيويورك متوجهة الى ليفربول وعليها ما يلي «١٢ صندوق قداحات و٦٠٢٦ صندوق خراطيش و٤٩٢ صندوق مهمات عسكرية و٢٢٣ صندوق اطارات سيارات • مجموع اثمانها ٤٦٤٤٧٠ دولارا»



وهذه الشحنة تهدد ارواح ركاب السفينة دون ادنى شك، ومع ذلك فان الرئيس الامريكي ويلسون استشاط غضبا لغرق تلك السفينة وارسل مذكرة لاسلكية شديدة اللهجة الى برلين وجاء فيها:

« انه يستنكر الوسائل الشيطانية واللاانسانية التي تتبعها دول المعاهدة المركزية في ادارة الحرب».

في نفس تلك الليلة صادف ان اقامت الجالية الالمانية في نيويورك حفلة ساهرة في دار الاوبرا لمنفعة جمعية الصليب الاحمر الالمانية، وما كدنا نفتتح الحفل بكلمة بأسم السفير الا وتناهت الى اسماعنا التفاصيل الاولية للواقعة والاتهامات التي تضمنتها وكلها تنحي علينا باللائمة لاننا تسببنا في قتل ركاب الباخرة الابرياء ، وقد انهينا الاحتفال على عجل، ولما هممنا بمغادرة البناية وجدنا جموعا من المتظاهرين الهاتفين ضد المانيا بصخب وحماس وسرعان ما تعاقبت الاحداث الخطيرة لدرجة ادركنا معها مدى تدهور العلاقات بين بلادنا وبين الولايات المتحدة الامريكية.

بينما كان وزير خارجية امريكا بريان يولي المانيا الكثير من مودته وعطفه فان خلفه لانسنغ تحول الى عكس ذلك التصرف وتجرد من كل حياد وصار يعامل المانيا بكل جفاء ومناكفة فلما وقعت حادثة السفينة «لوزيتانيا» جائت ضغثاً على ابالة، وقد سافرت حال علمي بالواقعة الى واشنطن واقترحت على السفير مقابلة رئيس الولايات المتحدة الامريكية والتحدث اليه بشأن العلاقات الالمانية ـ الامريكية من جميع جوانبها السياسية، وكانت للسفير غراف برنستورف علاقات شخصية وطيدة مع رئيس مرافقي الرئيس الامريكي العقيد هاوس الا ان هذه العلاقات لم تنفع ابدا في تسهيل مقابلته للرئيس لأن العقيد هاوس كان منحازا للحلفاء بصورة جازمة ، ولدي اسباب كافية تؤكد بأن اصدقاء الرئيس الامريكي المقربين اكدوا له ضرورة اهتبال هذه الفرصة لأثبات وجود امريكا على ارض اوربا، وواضح ان الرئيس الامريكي لم تخطر على باله مسألة اهمية بقاء قوة دول المعاهدة المركزية من اجل التصدي

للخطر السلاڤي الذي اخذ يهدد اوربا بالاجتياح. كما يبدو انه لم يفهم مسألة حرب الغواصات على حقيقتها التي تتمثل بكونها الوسيلة الوحيدة المتاحة لنا آنذاك لحماية خطوط مواصلاتنا البحرية مع العالم الخارجي.

وقد ذهبت كل محاولاتنا لتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة هباء. بينما استرسلت تلك الدولة في تموين اعدائنا بأسلحة واعتدة وفيرة بشكل متزايد جعل حيادها المعلن وهمياء وقد استطعت آنذاك البرهنة على مدى خطورة المساعدات المالية التي اسدتها الولايات المتحدة للحلفاء فذكرت في احد تقاريري:

« ان ديون الحلفاء من الولايات المتحدة الامريكية وصلت الى حد جعل أية حكومة امريكية تصل الى السلطة تحرص على انتصار الحلفاء على الاقل من اجل استعادة تلك الديون».

نجحت اعمال شركة (بردج پورت) بشكل رائع وكنت احول المبالغ التي تصلني كل شهر من ارباحها الوفيرة الى البرت الذي كان يقوم بأعمال تغطية نشاطها بمهارة تامة . وفي مساء ٣١ تموز ١٩١٥ وعندما كان راجعا الى بيته وهو في غاية الارهاق سرقت منه حقيبة يده المحشوة بتقاريري وحساباتي وواضح ان سراقها كانوا من وكلاء الاستخبارات الانكليزية او الامريكية.

وانني لا ازال اذكر بكل دقة مدى القلق الذي ساوره عندما وصل الينا في النادي الالماني وهو في اقصى درجات الغضب وكيف اننا بذلنا قصارى جهودنا لاستعادة محتويات تلك الحقيبة دون جدوى. وبعد ثلاثة ايام من تلك الواقعة نشرت صحيفة (نيويورك ورلد) بحروف كبيرة معلومات مسبقة من تقاريري الرسمية واستمرت على نشر نتف منها طوال اسبوع كامل بحيث جعلتها مثارا لاحاديث المجتمع الامريكي مما جعلني بموقف دقيق لا يوصف.

وعلى الرغم من عدم تصديق بعض القراء الامريكان لتلك المعلومات الا ان هؤلاء كانوا اقلية صغيرة ازاء الاغلبية الساحقة من رجال المال الاقوياء

الذين كانت عواطفهم وفعالياتهم لصالح الحلفاء بشكل سافر وقد ابدت هذه الاغلبية قلقها من فعالياتنا في احباط مساعيها المحمومة لتسليح الحلفاءالغربيين بالاسلحة والاعتدة والتجهيزات الامريكية. وكانت حصيلة ذلك ان امرت الحكومة الامريكية بالغاء عقودنا مع جميع الشركات الامريكية التي لم تكن قد جهزتنا بالمعدات المتفق عليها لأن تلك العقود كانت قد ابرمت بأسماء مستعارة وبعبارة اخرى فاننا فقدنا بضياع تلك الحقيبة كل ما وضعناه من خطط متقنة في ذلك السبيل.

وكان الفريق فون فالكنهاين قد اصدر لي امرا في العام السابق بوجوب بذل محاولاتي لاعاقة وصول المعدات الامريكية المرسلة الى الجبهة الغربية في صيف وخريف ١٩١٥ كلما استطعت الى ذلك سبيلا. وقد حاول في ذلك الصيف ضرب الروس ضربة حاسمة مما تطلب منه سحب قوات كبيرة من الجبهة الغربية وكان قد اختتم برقيته المعنونة لي آنذاك بالعبارة الآتية: «.... واذا تمكنت من تحقيق هذا الهدف فستكون وبجدارة تامة من المساهمين الفعالين في تحقيق نصرنا المؤثل». والمؤسف ان امله بانهاء الحرب خلال عام ١٩١٥ لم يتحقق. كما انني لم تكن خططي ـ ولفترة طويلة ـ مؤثرة بالشكل المطلوب لأن الامريكان لم يرسلوا الى الجبهة الغربية فيذلك العام سوى النزر اليسير من المعدات كما ثبت فيما بعد . ولكن يمكن القول بأن خططي حققت الغرض المنشود منها الى حد ما على الرغم من سرقة الوثائق التي كانت في حقيبة مستشار السفارة.

ولو سأل رجل صاحبه في أي مكان من العالم «ما الذي تعرفه عن فون پاپن؟» لتلقى عليه الاجابة التالية بكل تأكيد «انه الرجل الذي سرقت منه اوراقه» او «انه الرجل الذي فقد حقيبته» وقد تجلت الحقيقة الناصعةللعيان بعد مدة طويلة جدا أي بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ببضعة اعوام فيمقال نشرته صحيفة المانية بمدينة ميونيخ واكدت فيه بأنني رغم الاجحاف الذي اصابني لم احاول الرد على هذه الاكاذيب. ولكنني أجد بأن من المناسب

الآن توضيح القضية خدمة للحقيقة المجردة حيث انني سبق ان اقسمت اليمين امام هيئة رسمية بأن حقيبة صديقي مستشار السفارة البرت هي التي سرقت وليست حقيبتي.

ويطيب لي في هذا المقام ان ازجي الشكر الجزيل للسيد هوادلي على افضاله السابغة لأنه هو الذي اضفى على خططي مسحة من خبرته ومعلوماته فجعلها مفعمة بالحيوية وهيأ لها اسباب النجاح لتماشيها مع النمط الذي يتقبله الامريكان . وعلى الرغم من تأخري في الاعتراف بفضله فانني لا تتوفر لدي لحد الآن أية فكرة عن آرائه السياسية كما انني لست متأكدا من ميل عواطفه لصالح المانيا . الا انني اذكر بأنه سلمني صكا بمبلغ كبير جدا يمثل نسبة ١½٪ من قيمة جميع المبيعات باعتباره (المكافأة القانونية) التي استحقها . ولقد استغربت منحي هذا المبلغ الكبير وقلت له بأنه من المتعذر علي تماما قبول أي مبلغ لقاء اصداري لاوامر وظيفية تخص الحكومة الالمانية . الا ان السيد هوادلي اعتراه الاستغراب الشديد لموقفي هذا ولم يفهم ابدا رفضي للمبلغ فبذل جهوده محاولا اقناعي بقبول الصك بكل ما اوتي من قوة للاقناع ولكنني لم اتزحزح عن موقفي قيد انملة . واخيرا توصلت واياه الى حل مقبول يتمثل بوعدي لاستحصال موافقة السفير على ايداع المبلغ المذكور في صندوق هيئة الصليب الاحمر الالمانية ويبدو انالسيد هوادلي لم يرتضي لي هذا التصرف المجافي لروح التجارة وشعر بأنني الحقت بنفسي شيئا من الضرر فأهداني علبة ذهبية نفيسة للسيكار . وقد بقيتهذه التحفة بحوزتي تذكرني بالواقعة المذكورة حتى عام ١٩٤٥ عندما استولى عليها احد المحققين بعد الحرب واحتفظ بها لنفسه (تذكارا لفعالياته).

ويظهر ان رجال القيادة الالمانية تطلعوا نحو امكانيات احباط عمليات نقل المعدات الحربية من امريكا الى الحلفاء الغربيين في اوربا بغير النظرة الواقعية التي تطلعنا بها نحو القضية من واشنطن . فهذا العمل بنظر الكثيرين اخلال لموقف امريكا الحيادي وهو بالتالي يستدعي من الطرف المتضرر ــ المانيا ــ بذل مساعيها لأحباطه . كما كان بعض الناس في المانيا وفي امريكا

يعتقدون بأن قيام الولايات المتحدة بتزويد احد الاطراف المتقاتلة في اوربا بالسلاح ينطوي على اخلال بحيادها وهذا ما يبرر القيام بالاعمال التخريبية لاعاقة النشاط الامريكي . وكنت أتلقى في كل يوم عشرات الرسائل وكان اغلبها من وكلائي الذين يتقدمون لي بمقترحاتهم لاعاقة نشاط الامريكان بمختلف الوسائل . اما انا فكان رأيي منذ بداية القضية عدم اللجوء للاساليب المقترحة. وكان من الواضح ان الدعاية البريطانية كانت تتوخى جر امريكا للحرب وتوريطها بالدخول فيها الى جانب الحلفاء. ولذا فان اعمال التخريب التي سنقوم بها لابد ان تصبح فرصة ثمينة لاجهزة الدعاية المعادية لكي تحفز الرأي العام الامريكي ضد دول المعاهدة المركزية وتزيد من موجة السخط التي دبرتها ضدها.

ومن الطبيعي انني لم اكن بموقف يتيح لي امكانية منع تنفيذ فعاليات التخريب التي كان ينفذها عدد من المتحمسين الذين يتدفقون وطنية وشجاعة. وكان ان حصلت سلسلة من الانفجارات في مصانع الاسلحة الامريكية واتخذت صفة الحوادث التي تنجم عن اهمال تدابير الامن الصناعي. وكثيرا ما كان يتردد على مكتبي اناس من وكلائي فيزعمون انهم نفذوا اعمال تفجير معينة فيتلقون مني وسام الصليب الحديد مكافأة على تلك الاعمال الباهرة.

ومن القضايا التي أشتهرت آنذاك قضية القبطان فون رنتلن وهوضابط احتياط من ضباط القوة البحرية الامبراطورية ومهنته المدنية هي الصيرفة وقد استغلت الاستخبارات الالمانية اتقانه للغة الانكليزية وعلاقاته الواسعة بمختلف الاوساط الامريكية فأوفدته الى نيويورك. وفي احد ايام مطلع نيسان ١٩١٥ دخل مكتبي القبطان فون رنتلن ولم اكن على معرفة سابقة به فقدم لي نفسه وقال لي بوضوح تام وبصراحة بأنه ارسل الى نيويورك بمهمة تنظيم عمليات تخريب سفن الشحن الامريكية التي تنقل الاسلحة الى أوربا. وكذلك تدبير فعاليات الاضراب لعمال الموانيء بالاتفاق مع بعض عناصر نقاباتها بقصد تعويق شحن الاسلحة ايضا . ومع ان الرجل سرد كل فعالياته فيما

بعد في كتاب اصدره وقرأته مليا الا انني القي عليه تبعة جميع افعاله التي جانبها الحظ والمؤسف هو انه لم يذكر في كتابه اول مقابلة اجراها معي في واشنطن فقد حدث ان بادرته فور انتهائه من وصف خططه وبلا مجاملة:

« وهل تريد ان تنفذ خططك هذه التي تدور برأسك مفتتحا زيارتك الاولى للولايات المتحدة الامريكية بالوصول الى مكتب الملحق العسكري؟ ألا تعلم بأن كل من يتردد على مكتبي يقوم وكلاء الاستخبارات الانكليزية او الامريكية بالتقاط تصويره لكي تسهل مراقبته »•

والعجيب انه اجابني قائلا :

« ان هذا لا يفت في عضدي مطلقا بل العكس هو الصحيح• فأنا ارغب ان يطلع احدهم الرئيس الامريكي ويلسون وكم اتمنى لو انك تدبرت هذا الاخبار يا سيد فون پاپن»•

واكفهرت الدنيا بعيني ازاء هذه العقلية الضحلة وأردت مخلصا ان اوضح للرجل بأن فرص تنفيذ خططه التخريبية ضئيلة جدا ثم انه يجب ان يدرك ـ وهذا مهم جدا ـ بأن فعالياته التخريبية ستترتب عليها نتائج سياسية لابد ان تؤثر علينا جميعا وعليه فقد اوضحت له بصورة جلية طبيعة الجو المشحون الذي كنا نعيشه آنذاك والذي لم يكن لديه ادنى تصور بشأنه ولما قرأت علائم البلادة على محياه ادركت بأنني ازاء رجل محدود الذكاء ولا فكرة لديه عن طبيعة علاقاتنا السياسية مع الولايات المتحدة الامريكية الا انه يريد ان يعمل شيئا لصالح المانيا وهو مغرور بحيث يزعم بأنه سيستعرض نشاطه امام الرئيس الامريكي بينما هو موشك على القيام بأعمال يعاقب عليها القانون • وعليه فقد حررت برقية الى القيادة العامة للقوات البرية مؤملا تقديم رجاء للقوة البحرية كي تأمر باستعادة القبطان الاحتياط فون رنتلن لأنني قدرت بأن قيادة القوة البحرية لم يكن لديها وضوح تام بشأن الموقف السياسي وما يترتب على فعاليات الوكلاء بينما يتوفر لدى هيئة الاركان العامة تصورا واضحا للقضية بحكم متابعتها المستمرة للموقف السياسي• وقد ايد السفير بيرنستورف هذا الاجراء فأرسلت البرقيةمجفورة عن طريق السويد الى برلين•

اما خاتمة القصة فقد ذكرها فون رتلن بكتابه فبعد اسابيع قليلةوبينما كان منهمكا في تنفيذ خططه المتعلقة بتدبير التحريضات على اضراب عمال الموانيء تلقى أمر العودة الى الوطن. ومع إنه رجع تحت اسم مستعاروبجواز سفر مزيف الا ان الانكليز عرفوه عند وصول السفينة التي يستقلها الى القنال الانكليزي في اواسط تموز ١٩١٥ واعتقلوه وقدموه للمحاكمة ثم ارسلوه ــ لأسباب دعايوية ــ الى الولايات المتحدة الامريكية فيما بعد حيث اودع سجن اطلانطا ومكث فيه الى ان اخلي سبيله بعد ان وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها.

والواقع ان هذه المعاناة التي كابدها هذا الوطني الغيور الذي اراد أن يخدم بلاده بتضحية وشجاعة تعتبر من الامور المؤسفة جدا الا ان الذي يختار مهمة تنفيذ الفعاليات السرية لابد ان يتوقع التعرض لاكثر من هذا المصير. ومع ان فون رتلن القى علي تبعة فضحه وزعم في كتابه بأنني انا الذي وشيت به للانكليز بينما اعترف هؤلاء بعد الحرب بأنهم كانت بحوزتهم نسخة من جفرة السفارة الالمانية في واشنطن مما سهل القبض عليه. وقد ذكر الرجل بأنه سرد للمحققين الامريكان كل فعالياته بما في ذلك زيارته لمكتبي في واشنطن.

ويذكرني ارتباط اسم فون رتلن بأسمي في فضيحته بحقيقة تعاون فون رتلن مع كيمياوي الماني يدعى الدكتور شيله وكان الاخير قد زارني عند نشوب الحرب وعرض علي فكرة تتضمن قدرتـه على تحويـل النفط الى مسحوق وشحنه الى المانيا بهـذه الطريقـة ولما كان النفط من اهم المواد الضرورية التي يشكل قلة الرصيد منها نقطة ضعف جهاز التموين الالماني فقد كلفت الدكتور شيله باستخدام مصنع صغير لانجاز منتجاته وارسالها بصفة مواد زراعية الى بلاد محايدة وشحنها من هناك الى المانيا . وكانت (شركة نيوجرسي للمنتجات الزراعية) تغطية جيدة للكيمياوي الالماني الا ان فون رتلن كان قد تحرى عن الكيمياوي المذكور وقـابله في مايس ١٩١٥ واقنعه باتتاج محركات لتفجير السفن التي تنقل السلاح الى اوربا وقد بقي

هذا الاتفاق بينهما فقط ولم اعلم به في حينه ومن الطبيعي انني استشطت غضبا عندما علمت به فيما بعد واخبرت وزارة الحرب بتفاصيله في برقية ارسلتها الى برلين.

وعندما انتهت الحرب العالمية الاولى الف الكونجرس الامريكي لجنة للتحقيق في حوادث تفجير السفن الامريكية خلال الحرب والتي بلغ عددها بضع مئات فان نتائج التحقيقات لم تسفر عن اشتراك فرد واحد من اعضاء السفارة الالمانية بواشنطن في أي من هذه التفجيرات.

أدت فعالياتي الاخرى في سبيل رعايا دول المعاهدة المركزية الى الاهتمام بموضوع آخر غير موضوع التسليح وكانت النتيجة غير مسرة هذه المرة. فقد تعرض عدد كبير من رعايا امبراطورية النمسا والمجر العاملين في الولايات المتحدة الامريكية الى موقف دقيق ولذا فقد رجوت السفير النمسوي كونستانتين دومبا ان يقدم لي الاسناد اللازم لمساعدتهم. وقد ارسل الرجل تقريرا رائعا الى ڤينا في صيف ١٩١٥ وضمنه طلب الموافقة على مقترحاتي بشأن اولئك العمال . وقد تحدث السفير في تقريره المذكور بصراحة مطلقة ونال من حياء الحكومة الامريكية وقال اننا تسعى بكل ما أوتينا من قوة لتغيير هذا الموقف بحيث يمكن الجزم عند التمعن ببعض فقرات التقرير بأننا نحاول تحطيم الاقتصاد الامريكي بوسائل غير شرعية اذ جاء بالتقرير ما يلي :

« ... واذا لم نتمكن من ايقاف الانتاج الحربي الأمريكي بصورة تامة فاننا نتمكن في جميع الاحوال من ارباك ذلك الانتاج الى حد كبير وتأخيره لعدة أشهر . ويرى الملحق العسكري الالماني بأن هذا من الامور المهمة جدا وسيكون الانتاج الضئيل دليلا على تحقيق نجاحنا ... » .

وقد ارسل هذا التقرير مع عدد من رسائل السفارتين النمسوية والالمانية بيد صحفي امريكي مؤتمن يدعى آرشيبالد كنا نستخدمه معتمدا لايصال الرسائل وهو صديق حميم لكل من السفير الالماني والقنصل العام لامبراطورية النمسا والمجر في نيويورك السيد فون نوبر ويعتبر من أشد المخلصين لنا والمؤسف ان الاستخبارات الانكليزية تمكنت من الحصول على جميع الوثائق

المرسلة مع ارشيبالد واعادتها الى الولايات المتحدة الامريكية حيث أثار نشرها عاصفة جديدة من الاستنكار .

وكنا قد اعتبرنا الصحفي آرشيبالد مهملا لتدابير أمن المعلومات بعض الشيء . الا انني بقيت في شك من الواقعة الى ان تكشفت اسرارها فيما بعد وعلمت بأن القبطان النهري التشيكي[1] فوسكا يعمل باتصال وثيق مع الملحق

البحري الانكليزي بواشنطن القبطان غوي غاونت وقد نشر فوسكا كتابا عن فعالياته خلال الحرب العالمية الاولى وصدر بلندن عام ١٩٤١ بعنوان (جاسوس وضد الجواسيس) ذكر فيه كيف انه تمكن من تجنيد عدد من التشيكيين العاملين في قنصلية النمسا والمجر بنيويورك وكان تقرير السفير دومبا قد كتب في القنصلية النمسوية المجرية في نيويورك وبذا فقد سهلت معرفته مع عدد من الوثائق النمسوية والالمانية من قبل اولئك الوكلاء التشيك الذين زودوا الملحق البحري الانكليزي غاونت بقوائم دقيقة تتضمن كل ما حمله السيد آرشيبالد الى ڤينا وبرلين ولما سافر الصحفي الامريكي على ظهر الباخرة الهولندية (روتردام) ووصلت الى (فالماوث) قبض عليه الانكليز واستولوا على تلك الوثائق .

جنح فوسكا في كتابه نحو الخيال محاولا اضفاء صفة البطولة على أعماله التجسسية بقصد تمجيدها فتحدث عن عصا مجوفة زعم بأنني زودته بها وكنت قد تلقيتها هدية من البارون لينار وانني استخدمتها لنقل الوثائق البالغةالكتمان ولكن عصاه المشار اليها لم يعثر عليها أحد رغم تفتيش السفينة بكل دقة .

أصدرت الحكومة الانكليزية كتابا أبيض يتضمن محتويات الوثائق المستولى عليها مع الصحفي الامريكي آرشيبالد وكان من الوثائق المنشورةفيه تقريرا كتبته الى وزارة الحرب ورسالة كتبها السفير غراف بيرنستورف وفيهما

---

(١) كانت تشيكوسلوفاكيا جزءا من امبراطوريه النمسا والمجر آنذاك .

ـ المترجم ـ

اشارة صريحة لمحاولاتنا احباط نقل الاسلحة الامريكية الى اوربا • وواضح اننا كنا نبغي من محاولاتنا حماية الجنود الالمان في الميدان من التعرض للجرح أو القتل بفعل السلاح الذي ترسله الولايات المتحدة (المحايدة) الى اعدائنا •

وكنت قد كلفت السيد آرشيبالد بايصال رسالة شخصية الى زوجتي ولما أرسل الانكليز تلك الرسالة مع بقية الوثائق الى امريكا ولما لم يدرك المحللون الامريكان معاني بعض العبارات الواردة في تلك الرسالة فانهم نشروا نتفا من الرسالة مع المعاني المحتملة لها والمقتبسة من قاموس المحادثة وكانت بعضها ذات معانٍ محتملة بلغت الخمسة في ترجمتهم التي تدل على الغباء • والذي همنا كثيرا من الواقعة برمتها هو تقرير السفير دومبا لأنه تضمن اعترافا صريحا باللجوء الى وسائل غير شرعية لاعاقة الانتاج الحربي الامريكي • وكانت حصيلة ذلك ان اعتبرت الحكومة الامريكية ذلك السفير شخصا غير مرغوب فيه وطلبت من امبراطورية النمسا والمجر سحبه فورا • وكان سحبه من منصبه خسارة كبيرة لدول المعاهدة المركزية كما كان ذلك بالنسبة لي شخصيا حادثة مؤلمة • ذلك لأنه كان يتفهم تماما الصعوبات التي اصادفها عند ادائي لمهمتي ، ولما أصبحت سفيرا لالمانيا في فينا عام ١٩٣٤ التقيت به مرارا واستعدنا ذكرياتنا القديمة وحافظنا على روابط الصداقة الحميمة •

حاولت دعاية الحلفاء في الولايات المتحدة الامريكية التشهير بموقف المانيا باثارة عاصفة صحفية تتضمن اتهامات شديدة من شأنها الاساءة للالمان وتم التركيز على تقرير السفير دومبا باعتباره الدليل المادي على (الوسائل الاجرامية) التي يمارسها الوكلاء الالمان • وقد أفلحت تلك الدعايات في ايجاد موجة استنكار عدائية ضد التخريبات التي تدبرها المانيا ضد فعاليات تموين الولايات المتحدة للحلفاء بالاسلحة الامريكية • كما زعمت تلك الدعايات بأن الغواصات الالمانية تساهم هي الاخرى في اغراق السفن الامريكية المحايدة • وهذا ما أكده لي الفريق ليونارد وود حاكم نيويورك العسكري بصورة رسمية عند زيارتي له بمكتبه في ايلول ١٩١٥ وكان هذا من اكبر الشخصيات العسكرية الامريكية آنذاك وقد ذكرت له في جولة التريض الصباحية على ظهور الخيل

في حديقة (روك كريك بارك) بواشنطن حقيقة الاتهامات التي تكال لالمانيا جزافا فتفهم ذلك بروح المودة الصادقة التي تربطني به • ولما زرته ثانية في (جزيرة الحاكم) فاجأني بخطة كاملة زاعما بأنني كنت قد وضعتها وتتضمن نسف ميناء نيويورك ومحطتها التي تحت الارض وقال ان الاستخبارات الامريكية وجدت الخطة المذكورة في مكتبي • فلم يسعني سوى أن أضحك ضحكة كبيرة اعقبتها بحديث تفصيلي صريح مع الفريق الامريكي ذكرت له فيه تفاصيل الموقف السائد واوضحت له مبررات الهجمات الظالمة التي تكيلها لي الصحافة الامريكية وقلت له ان الخطة المزعوم وضعها من قبلي ــ مثلا ــ يتطلب تنفيذها وجود آلاف الوكلاء وجيش صغير من أجل تدمير جميع الاهداف المبينة فيها • وليس هناك ما هو اسهل من تنفيذ مزاعم وضعها من قبلي لكل ذي بصيرة ثاقبة ، ولذا فمن الواضح انها وثيقة مزعومة الغرض منها تحطيم العلاقات الحسنة السائدة بين بلدينا • وبعد تحقيق هذا الغرض ستظهر الخطوة الثانية المخطط لها ألا وهي جر امريكا للحرب الى جانب الحلفاء •

أيد الفريق وود وجهة نظري تماما ورجوته بدوري عدم التسرع في الحكم علينا بأية مزاعم تنطوي على اتياننا لاعمال من شأنها تقويض العلاقات الحسنة القائمة بين بلدينا • لكنني حصلت منه على انطباع مؤكد بأن الموقف بين البلدين تدهور لدرجة لا تطاق •

في كانون الاول ١٩١٥ قدمت الحكومة الامريكية مذكرة للسفارة الالمانية تعتبرني بها انا والملحق البحري النمسوي القبطان (بوي إد) شخصين غير مرغوب بوجودهما على الارض الامريكية وتطالب بترحيلنا للوطن خلال فترة محددة • وهكذا حققت صحافة الحلفاء هدفها الأولي عندما أزاحت المستشارين العسكريين لدول المعاهدة المركزية في الولايات المتحدة الامريكية • ولما طلبت الحكومة الالمانية من الحكومة الامريكية بيان الاسباب الموجبة لاستبعادنا جاءها الجواب (بأن الحكومة الامريكية لا تريد أية فعاليات عسكرية أو بحرية في بلادها) ولم توجه نحونا أية اتهامات معينة بصورة رسمية •

والحقيقة هي انني كنت مسرورا لقرار الاستبعاد لأنني بصفتي جندي

محترف لم أكن مرتاح الضمير لبقائي وراء منضدة المكتب بينما تخوض بلادي حربا تتقرر فيه حياتها أو مماتها • كما ان لرجوعي شخصيا فائدة أخرى هي تمكني من اعطاء الشخصيات المهمة في الدولة الالمانية صورة واضحة عن تغير الموقف كليا بالنسبة لنا في الولايات المتحدة الامريكية لأن الملابسات المعقدة التي حصلت في تلك البلاد لا يمكن أن يوضحها أي تقرير مكتوب • فالخطر المتوقع من دخول الولايات المتحدة الامريكية الحرب الى جانب الحلفاء بذريعة تفاقم فعاليات الغواصات الالمانية لا يمكن توضيحه الا بصورة شفوية لاسيما وان هذه الخطوة اصبحت وشيكة في ذلك الحين •

لقد حاولت طوال ثمانية عشر شـهرا عسيرة خدمة بلادي من الولايات المتحدة الامريكيـة بكل ما أوتيت من قوة • وقـد كنت عسكريا ولم اكن دبلوماسيا ــ ولذا فان النتائج المترتبة على فعالياتي كانت غير ملفتة للانظار • وكان بمقدوري أن أحيا حياة فراغ هادئة ووديعة دون ان اتعرض لأية مغامرة مجهولة العواقب لا سيما وانني كنت في بلد محايد واتمتع بالحصانةالدبلوماسية وأنا بمنأى تام عن ميادين القتال • ولكنني ربأت بنفسي ان انحدر الى التجرد من مسؤوليتي الوطنية وكان مصير بلادي نصب عيني طوال فترة ابتعادي عن الوطن وظللت قلقا من التقارب بين امريكا ودول العدو لأنه ينطوي على تهديد المانيا بالاندحار ولقد حظيت بتشجيع المسؤولين في برلين واسـنادهم لانهم ــ والحق يقال ــ لم يدخروا وسعا في العمل للنأي بأمريكا عن الألاعيب المدبرة لجرها نحو الحرب الى جانب الحلفاء •



الفصل السادس

حرب الغواصات بين التأييد والأنتقاد



العود احمد . محادثات حاسمة ببرلين . كفاحي ضد حرب الغواصات . مهمة مع فالكنهاين . لا احد يعلم بالتطورات الحاصلة في الولايات المتحدة الامريكية . تيربيتس يناضل من أجل غواصاته . الاسطول ضدي. مهمة مع المستشار فون بيتمان. لقاء مع الامبراطور. فون بيتمان يريد نشر محاضرتي في الصحافة الالمانية . أمر فالكنهاين: تستلم فوجك في الجبهة الغربية خلال ٢٤ ساعة . عجلة الحظ تدور.

مع انني أبعدت عن الولايات المتحدة قسرا الا أن وداعي كان مفعما بالعواطف الودية اذ ملئت عربتي التي اقلتني الى ميناء نيويورك بالورود والهدايا وأحطت بالوجوه الحانية التي ودعني أصحابها متمنين لي الحظ السعيد على الرغم من الجو الرسمي المعادي الذي اسبغته على سفري حكومة تلك البلاد .

سافرت على متن الباخرة (نوردام) ولما وصلنا الى ميناء (فالماوث) حدث ما لم أتوقعه عندما صعد الى السفينة أفراد من الحرس الانكليزي

ووضعوا حارسا على باب قمرتي وشرعوا بتفتيشها بدقة متناهية واستولوا على جميع ما بحوزتي من وثائق مطبوعة أو مكتوبة وقد ذهبت احتجاجات السفير الامريكي بلندن (السيد بيج) واشارته الى تمتعي بالحصانة الدبلوماسية ادراج الرياح ولم يحصل الرجل على أية اجابة.

استولى الانكليز (ضمن ما استولوا عليه من مقتنياتي) على حساباتي الشخصية في المصارف ودفاتر الصكوك • وواضح انهم قدروا استيلائهم على مصدر ثمين مفيد لاغراضهم الدعايوية • حيث اعتبروا مصروفات الغسيل لغسالة ملابسي أو وصولات الصيدلية التي كنت اشتري منها الأدوية اسماء رمزية لمصروفات سرية للوكلاء المعادين لبريطانيا • (ولابد أن اعترف بأنهم استولوا فعلا على بعض الأدلة المهمة على نشاطي السابق حيث كنت قد صرفت في ١ و ١٦ أيلول ١٩١٤ (٢٠٠) دولار الى كل من برجمان تايلور والياس فون ديرغولتز والياس ڤاخندورف لقاء جهودهم في اجتياز الحدود الكندية بقصد نسف سكة الحديد الكندية لاعاقة نقل القطعات من كندا الى بريطانيا الا ان ما عثر عليه الانكليز كانت صكوكا باسم السيد ڤيدل الذي زيف جوازات السفر لأولئك الوكلاء • وكان هناك صك آخر بتاريخ ٢ شباط ١٩١٥ باسم السيد هورن والحقيقة هو انه صرف على سبيل المكافأة عن نسف جسر ڤانكوڤر لاعاقة تنقل القطعات الكندية • وكان ان خفت الاستخبارات البريطانية للاتصال باوتاوا من أجل التحري عن السيدين تايلور وهورن• كما ان الانكليز ضاعفوا اهتمامهم بصك بمبلغ ٦٨ دولار باسم السيد (هـ) وهو ممثل شركة (كروب) عن ثمن كمية من مادة (حامض البكريك) وأثار قلقهم صك آخر بمبلغ ١٩ دولار للسيد فون هويغن وعليه ملحوظة (من أجل بحوث عتاد دم دم)• أفلا يعني هذا بأنني أسعى لتجهيز الجيش الالماني بعتاد (دم دم) المحرم دوليا؟ والواقع هو ان احدهم قدم لي عرضا لتجربة عتاد تصنعه الولايات المتحدة الامريكية بناء على طلب روسيا (القيصرية) وفق مواصفات خاصة أعدها الخبراء •

وحيث اني راجع لبلادي بعد انتهاء مهمتي فانني معرض للمحاسبة المالية

الى حد الفلس الواحد عما انفقته خلال تنفيذي لمختلف واجبات وظيفتي لاسيما وان رئاسة المحاسبات البروسية كانت صارمة في التحري عن المصروفات وتدقق في أصغر التفاصيل مهما كانت زهيدة او تافهة. ولما تجاهل الانكليز (حصانتي الدبلوماسية) وفتشوا مقتنياتي الخاصة ادركت بأن الحصانة الدبلوماسية والتدقيق المالي ليس لهما أية أهمية طالما ان الحرب قائمة .

ولقد منحتني وزارة الخارجية البريطانية شرف اصدار كتاب ابيض يتضمن كل ما عثر عليه رجال الاستخبارات الانكليز في تحريهم لقمرتي بالسفينة . وعلى المرء ان يتذكر بأن امريكا لم تكن قد انحازت لجانب الحلفاء بصورة رسمية بعد ، ولذا فان بريطانيا كانت حريصة على جمع الادلة الدامغة التي تبرهن بها للرأي العام ولامريكا بأن القيادة العسكرية الالمانية هي هيئة مجرمة وان من المهم للشعوب المحبة للحرية ان تتظافر للقضاء على هذا العدو الذي يهدد الانسانية برمتها . والذي زاد في الطين بلة هو ان السفير الامريكي بلندن السيد بيج كان من أشد انصار دخول بلاده الحرب ضد المانيا وبأقرب وقت ممكن .

عندما صعد الى سفينتنا عدد من الانكليز قام بعضهم بمناقشتي رجاء قيامي باحاطة المسؤولين ببرلين علما بأن الحكومة الانكليزية تريد السلام. ومن الطبيعي ان مثل هذه المحادثات لا تتضمن أية تأكيدات ملزمة لأن المرء لا يمكن ان يحدس ما ستتمخض عن تطورات الاحداث بالنسبة للطرف الآخر . وكانت خلاصة شروط الانكليز المسبقة تتضمن وجوب انسحاب القطعات الالمانية من اراضي فرنسا وبلجيكا وكذلك الموافقة على اعادة انشاء دولة بولندا . فأدركت في خاطري آنذاك ان روسيا لا يمكن ان توافق على انشاء دولة بولندا الا بعد أن تتلقى منا ضربة قاصمة. لكنني وعدت الانكليز بعرض مقترحهم على القيادة ببرلين.

وبعد تأخير لا يطاق في ميناء روتردام وصلت في ٦ كانون الثاني ١٩١٦ حدود الوطن الالماني. وكان لقائي مع زوجتي واطفالي الذي اعقب ذلك الغياب الطويل من المناسبات المفرحة النادرة المثيل في حياتنا. وقد تحدث

القوم ببرلين عن المساعي الحثيثة التي بذلتها بكل همة خلال السنة والنصف التي قضيتها في الولايات المتحدة الامريكية من اجل توضيح طبيعة الموقف غير المحايد الذي تتخذه تلك الدولة وهذه حقيقة لم يدركها اغلب المسؤولين الالمان آنذاك. ثم انني كنت اول شخصية رسمية تقوم بايضاح التطور النفسي الذي تحول به الرأي العام في امريكا بصورة مدبرة بحذق تام منذ بداية الحرب وعايشت ذلك التطور عن كثب بحيث صار بمقدوري تقديم تقارير مفصلة بهذا الشأن الى أعلى المستويات. وعليه فلا عجب ان اجد الكثير من اوساط قيادتي الجيش والاسطول وحتى اعداد كبيرة من معارفي يخفون الي بكل مودة مؤملين توقفي عن التحدث بهذا الشأن لكن ذلك لم يكن ليقف دون ما عزمت عليه في سبيل عرض الحقيقة المجردة.

وتم تكليفي في هذه الفترة بالقاء محاضرة على مسامع رئيس أركان جيش الميدان الفريق الاول فون فالكنهاين. وقد جلست مع الرجل عدة ساعات وانا اوضح له صورة الموقف السياسي للولايات المتحدة وتطوراته واعقبت ذلك بتصوراتي لمعالجة الامريكان للمعضلات المتعلقة بالحرب وانهيت محاضرتي بخلاصة ما يمكن ان تؤول اليه الحال في المستقبل . وقد شكرني فون فالكنهاين على ما اسديته من اسناد للجيش خلال وجودي في امريكا بتزويده بالكثير من المعدات التي استطعت الحصول عليها من المصادر الامريكية. وقد أيد آرائي في جميع ما ذهبت اليه. الا انه قال حيث اننا لم نحقق انتصارا مؤزرا على اعدائنا خلال عام ١٩١٥ فقد زاد احتمال تدخل امريكا بالحرب لصالح الحلفاء بقصد الاخلال بتوازن قوتينا.

أما انا فقد اعطيت الفريق الاول فون فالكنهاين فكرة عن الانتاج الحربي الهائل الذي تستطيعه الولايات المتحدة وكيف انها بمقدورها تجهيز الحلفاء بكميات غير محدودة من اية مادة يحتاجها الحلفاء وان المشكلة الوحيدة التي يمكن ان تقوم بين الطرفين هي تسديد اثمان تلك المواد وهذه يمكن النظر بها فيما بعد على ضوء المواقف السياسية التي ستتحكم بها واشنطن على حساب الحلفاء لقاء الديون الكبيرة المتوقعة وهذا ما سيتجلى اما في

اتفاقية السلام التي ستعقد بعد الحرب او بسوجب شروط مساهمة امريكا بالحرب.

لقد بذل الحلفاء ـ وخصوصا بريطانيا ـ جهودهم لادخال امريكا الحرب الى جانبهم ولجأوا الى مختلف الوسائل في هذا السبيل . وقد راقبت عن كثب مدى حرصهم ـ لتحقيق هذه الغاية ـ على اسائة العلاقات السياسية بين المانيا والولايات المتحدة الامريكية حيث انهم اتهموا وكلاء المانيا بجميع فعاليات التخريب التي حصلت في امريكا آنذاك وادعوا مرارا كثيرة بأن الغواصات الالمانية تمارس فعالياتها ضد سفن البحرية التجارية الامريكية رغم اصدار حكومة المانيا بيانات عديدة تستنكر فيها قيام الغواصات الالمانيه بمثل هذه الفعاليات.

في ختام المقابلة اوضحت للفريق الاول فون فالكنهاين بأننا كان علينا منذ حادثة غرق الباخرة (لوزيتانيا) المبادرة لاصدار ايضاح صحفي لمنع اعدائنا من مواصله الحرب النفسية التي يشنونها ضد المانيا في الولايات المتحدة الامريكية على نطاق واسع. لاسيما وان كل محب لالمانيا لا يمكن ان يقبل بأثارة دولة كبيرة وصديقة لالمانيا ويحولها للانحياز الى جانب العدو بينما تخوض المانيا حربا مصيرية. ثم ان المانيا ليست لديها اية مصلحة من معاداة الولايات المتحدة ولا يمكن ان تحقق اية مزايا من اثارة الحرب ضد تلك البلاد . وقلت للفريق الاول بأنني لو سئلت عما اذا كانت الولايات المتحدة ستبقى محايدة او انها ستنحاز للحلفاء في الحرب لأجبت بأن اغلبية شعب الولايات المتحدة الامريكية تفضل بقاء بلادها على الحياد وهذه هي الحقيقة المجردة الا ان الاحصائيات التي تقدمها الصحافة الامريكية وتزعم بأنها دقيقة وعلمية تشير الى ان ٩٠٪ من سكان الولايات المتحدة عازمين على خوض هذه الحرب ضد المانيا وان مسألة اشتراك الولايات المتحدة بالحرب مسألة مفروغ منها ولن تزيد عن كونها قضية وقت. ثم ان دخول امريكا الحرب سيجعل قوة الحلفاء البحرية اكبر بكثير من قوة المانيا البحرية وستسيطر اساطيل الحلفاء على الملاحة في المحيط الاطلسي وخصوصا على

السبل البحرية المؤدية الى بريطانيا • وانني لواثق من ان هذه الحقيقة وحدها كافية لتبرير سعي الانكليز لجر امريكا الى الحرب في صفهم•

ولما سألني رئيس اركان الجيش الالماني عن تصوراتي لمسير الحرب على الرغم من المعوقات الماثلة ازاء دول المعاهدة المركزية اجبته بأن الدبلوماسية الالمانية بدأت بداية سيئة جداء فالكل يعلم اننا لم ندخل هذه الحرب من اجل الاستيلاء على مناطق تعود للآخرين لأننا ليست لدينا اية مشاكل تتعلق بالحدود مع جيران المانيا • وكانت مصلحتنا الاولى من الاشتراك بالحرب حماية الاسواق ومحاولة ايجاد اسواق جديدة لمنتجاتنا بتوسيع مستعمراتنا فلماذا لم نعرض هذه الحقيقة بصورة جدية وواضحة الآن لكي نخرس التخرصات المفرصة والمزاعم القائلة بأننا نخوض حربا عدوانية؟ ثم انه لم يعد سرا بأننا قد دخلنا الحرب لكي نساعد امبراطورية النمسا والمجر في كفاحها ازاء التضامن السلافي الموجه ضدها • كما ان المانيا ليست لديها اية اهداف سياسية في المستقبل تدعوها للقتال ضد الولايات المتحدة الامريكية • لكننا يجب ان نعمل بتفهم وبذكاء لكي نعرض هذه الحقائق ليس في الولايات المتحدة الامريكية وحدها وانما في بلدان العدو ايضاء وبذا سنتصدى لدعايات الحلفاء المغرضة ونفندها•

كان الفريق الاول فون فالكنهاين رجلا ذكيا • وكان قد سافر كثيرا في حياته وعليه فهو يعرف العالم خارج المانيا بصورة جيدة • وهو بصفته رئيسا للاركان فان جميع الوسائل المحدودة التي كانت دول المعاهدة المركزية تعتمد عليها في المحافظة على وجودها معروفة بالنسبة له تماما • وكان معلوما بالنسبة له وللامبراطور غليوم الثاني ان سياسة تقوية الاسطول الالماني وهي السياسة التي وضعها امير البحر (تيربيتس) موضع التنفيذ وخصوصا ادارة حرب الغواصات كانت السياسة الاشد حسما في ادارة الحرب برمتها وقد ارجعت تحليلي هذا لما ستترتب عليه اتهامات الولايات المتحدة لنا بتأثير غواصاتنا على الملاحة البحرية الامريكية مما سيجر امريكا

للحرب ضدنا وهو أمر سيؤدي بنا الى خسران الحرب بصورة مؤكدة وهذا ما لا سبيل لتفاديه.

أجريت في الايام التالية محادثات اخرى كثيرة ومنها محادثات مع قادة البحرية امثال أمير البحر فون هولتسندورف وامير البحر فون ميوللر. وقد اختفى تعجبهم من الافكار التي جئتهم بها بشأن الموقف الذي تتخذه الولايات المتحدة الامريكية حالما لاحظوا بأنني خصم عنيد لمواصلة الحرب التي تشنها غواصاتنا الا انهم ادركوا جميعا مدى الخطر الذي تتعرض له المانيا من مغبة السياسة التي يسيرون عليها والتي نبهتهم لنتائجها. ولما اثير التساؤل القلق في المانيا عن كيفية الخروج من هذه الحرب بنتيجة تكون في صالح المانيا وعما اذا كانت حرب الغواصات تحقق هذا الغرض أم لا فلن اكون مغاليا اذا ما قلت بأنني اول من استشرف النتائج وحذر اغلب المسؤولين الكبار ببرلين قبل وقوع المحذور.

وحتى المستشار السيد فون بتمان ـ هولفيغ اراد الاستماع الى تقريري الشفوي. وقد ادليت لحضرته بحديث مطول على غرار ما فعلت مع رئيس هيئة الإركان. لكنني لم اكن هذه المرة ازاء عسكري يتحرى عن الوسائل التقنية فقط من اجل تحقيق النتيجة المطلوبة في الحرب وانما التقيت هنا بأكبر رأس سياسي مدبر مسؤول في المانيا وهو رجل مدرك تماما لحدود اشد القضايا العويصة التي تعترض سبل النصر الالماني. وهو الذي يلم بكل الاسباب الحقيقية التي دعت المانيا للاشتراك بالحرب والوسائل التي يمكن ان تصل بها الى السلام وهو يعرف تماما موقف دول المعاهدة المركزية وهو بالتالي لا يريد تكليف المتحمسين من ابناء الوطن خسائر أخرى رهيبة. ولهذا كله فان التحدث الى شخصية ذكية كالسيد فون بتمان كان متعة كبيرة بالنسبة لي.

اوضح لي المستشار بأن الحرب لا يمكن انهائها بالسلاح وحده. فتحقيق الاهداف القومية بصورة مثالية لا يمكن ان يتم بعد ان تعرض

قسم من ابناء الشعب الالماني للأذى ثم اننا تكلفنا حتى الآن ضحايا جليلة وحققنا انتصارات لا يمكن اغفالها وقد ايد الرجل وجهة نظري بأن الحرب غير المحدودة التي تشنها الغواصات الالمانية ستؤدي الى دخول الولايات المتحدة الحرب الى جانب اعدائنا فتميل كفة الحلفاء للرجحان وتكون خسارة المانيا مؤكدة. وعليه فان التصدي لحرب الغواصات اصبح من الامور الواجبة الا انه يخشى من اثارة الصحافة الالمانية والرأي العام الذي تعتبر اغلبيته ادارة حرب الغواصات من مستلزمات تحقيق النصر الوشيك مما يجعل ايقافها مدعاة لاثارة سخط تلك الاوساط التي تخشى على دول المعاهدة المركزية من الحصار البحري وما يتبعه من خطر المجاعة حسبما اعلنه امير البحر فون تيربتس. ولذا فقد قال المستشار بأن ايقاف حرب الغواصات يتطلب اجراء محاولة جديدة لتوضيح الاخطار المترتبة على مواصلة حرب الغواصات قبل الاقدام على ايقافها فعلا.

وقد رجاني المستشار ان اقوم بالقاء محاضرة على مجموعة من الصحفيين سيدعوها من مختلف ارجاء المانيا لاحدث اولئك السادة عن حقيقة الموقف الذي تتخذه الولايات المتحدة الامريكية وما سيؤول اليه . فأجبت المستشار بأنني سأكون مسرورا للقيام بهذه المهمة ورجوته ان يؤجل التقائي بالصحفيين الى ما بعد مقابلتي لحضرة صاحب الجلالة الامبراطور في اليوم التالي حيث سأعرض على جلالته خلاصة آرائي والوسائل التي يمكن ان نسند بها سياسة المستشار . ثم قلت للمستشار بأن محاضرتي هذه على الصحفيين تتطلب موافقة رئيس الاركان العامة لأنني لم اعد مرتبطا بوزارة الخارجية وانما انا مجرد عسكري يمتثل لاوامر قائده المباشر. ويبدو ان المستشار السيد فون بتمان لم يشك ابدا بأنه سيحصل على موافقة رئيس الاركان لقيامي بالقاء المحاضرة.

وفي احدى الأمسيات تلقيت امرا بالمثول امام الفريق الاول فون فالكنهاين

في صباح اليوم التـالي لكي ارافقه في سفرة الى پوتسدام[1] لكي اقـدم تقريرا شفويا لحضرة صاحب الجلالة الامبراطور في القصر الجديد • وقبل ان يتحرك بنا الركب قلت لرئيس الاركان بأنني اعلم رأيه بضرورة مواصلة حرب الغواصات • ولعله غير راغب في قيام احد مرؤوسيه بمنـاقضة هذا الرأي في حضرة الامبراطور عند القاء المحاضرة على اسماع صاحب الجلالة• ولذا افضل حضوره للاستماع للمحاضرة لأنني لست على استعداد للأدلاء بآراء تخالف ما اعتقده• فأجابني الفريق الاول فون فالكنهاين بايجاز:

« تعال معي ثم قل للامبراطور كل ما تعتقد بصوابه »

بدى لي القصر الجديد كالحا على غير ما الفته في زيارتي السابقة التي اجريتها في احد ايام كانون الاول ١٩١٣ عندما استأذنت من الامبراطور قبيل التحاقي بمنصبي في الولايات المتحدة الامريكية وتناولت مع جلالته طعام الفطور واستمتعت بحديثه الطلي عن اصدقائه في تلك البلاد واعجابه بالرئيس تيودور روزفلت• اما هذه المرة فقد اراد الامبراطور ان يعرف لماذا يعتبر الامريكيون حرب الغواصات موجهة ضدهم واستفسر بحرص بالغ عن توقعاتي لمسار الحرب اذا كانت الولايات المتحدة على وشك الاشتراك فيها•

والذي اثار تعجبي التام هو عدم اهتمام الامبراطور لمحاضرتي الموجزة وعدم طرحه لاكثر من ملحوظات عابرة وقـد تضمنت وجهة نظره بأن كل ضغوط الحلفاء سوف لن تجر امريكا الى الحرب حيث قال نصا:

« يمكنك التأكد بأن الشعب الامريكي ومجلس نوابه سوف لن يعلن علينا الحرب مطلقا»•

ولما تطلع لعيني المستنكرتين لكلامه مستفسرا عن اجابتي قلت له على الفور:

(١) تعتبر پوتسدام ــ الواقعة الآن في المانيا الشرقية الحي العسكري لمدينة برلين لان فيها موئل ملوك بروسيا وقصر (سان سوسي) الذي انشأه فردريك الكبير وثكنات الحرس الامبراطوري في عهد قياصرة المانيا •
ــ المترجم ــ

« لعلك لا تعلم يا صاحب الجلالة بأن الامور تغيرت بصورة جذريةفي امريكا منذ نشوب الحرب ومن يعيش ذلك الجو الذي عشته وخبرته عن كثب مع بقية اعضاء السفارة الالمانية ـ بدئاً من السفير غراف برنستورف حتى أصغر أمين سر ـ فلابد أن يدرك بأن آخر مجلس نواب امريكي يقرر كل ما يطلبه الرئيس ودرو ويلسون • فهو يتمتع بما يسمى بالافكار الحرة وعليه فلابد ان يعود اليها في يوم ما عندما يعرض وجهة نظره مع جميع الحقائق على اعضاء برلمان بلاده• وان سفير جلالتكم في الولايات المتحدة ونحن العاملين معه جميعا لعلى ثقة من ان الولايات المتحدة الامريكية سائرة

حثيثا نحو الحرب ضد المانيا اذا لم تتوقف عن ادارة حرب الغواصات او تتفاهم معها بشأن هذه الحرب»•

الا ان الامبراطور اجابني باصرار مشفوع باشارات من يده:
(كلا• كلا• فصديقي بالين يعرف الامريكان بصورة افضل• اذ قال لي بأن الرئيس ويلسون رجل عنيد ولكنه بموقفه غير المحايد سوف لن يتمكن من اقناع مجلس النواب الامريكي لاعلان الحرب ضد المانيا)•

ولم استطع سوى التعليق بأنني لا افهم كيف توصل السيد بالين الى هذا الاستنتاج ثم خرجت شبه مسخوط علي من حضرة الامبراطور•

وواضح ان جميع رجال الحاشية الكبار غيروا موقفهم مني ولم يستبقني احد لحضور وليمة الفطور المعتادة وهي الفرصة التي اردت اغتنامها لازالة الجفاء مع الامبراطور على أمل تغيير موقفه واقناعه بوجهة نظري•

أما الفريق الاول فون فالكنهاين فانه سبق له الاستماع لمحاضرتي ولم يقتنع بها • وقد حصلت على انطباع بأن الامبراطور سبق ان احيط علماً بخلاصة آرائي من قبل قادة القوة البحرية واعتبروها قضية موجهة ضدهم•
وبعد أيام قلائل التقيت في فندق (ايسپلانادا) ببرلين بالسيد بالين صديق الامبراطور ومدير الاستخبارات فأظهرت له تعجبي للانطباع الذي اعطاه للامبراطور فبانت على وجهه امارات التحرج بعض الشيء لأن الامبراطور

استشهد به في ادعائه بأن الولايات المتحدة الامريكية ستبقى بعيدة عن الحرب في جميع الاحوال • ومن الواضح جدا ان السيد بالين كان متفقا بالرأي مع امير البحر فون تيربيتز بأننا ليس امامنا أي اختيار سوى مواصلة حرب الغواصات لانهاء الحرب وآثرا اللجوء للمغامرة أملا في تحقيق هذا الغرض • والمعروف ان البحار الرائع فون تيربيتز لم يشأ ان يرى نهاية الاسطول الالماني (الذي يعود له الفضل الاول في اخراجه من البحار الى المحيطات بعد ان ادخل عليه تطورات هائلة) تتيجة لخسارة المانيا الحرب•

أبدى المستشار دهشته لابدائي آراء مناقضة لرأي الامبراطور ولكنه كان من رأيه ورأي امين سر الدولة للشؤون الخارجية السيد فون ياكوف ان اجتمع بالصحفيين وقد أمرني المستشار بيتمان بالحضور للالتقاء بالصحفيين بالساعة السادسة من مساء اليوم التالي في بناية مجلس النواب وأشعر بذلك رئيس الاركان العامة الفريق الاول فون فالكنهاين الا أن هذا الاجراء انتهى نهاية غير متوقعة • اذ ما ان تلقيت بطاقة المستشار الا ووصلتني بعد ساعتين رسالة سرية ذات لون ازرق من ذات الرسائل المألوفة التي تصدر عن وزارة الحرب ولما فضضت مظروفها قرأت الرسالة التالية :

« عليك الالتحاق بالجبهة الغربية خلال ٢٤ ساعة واخبارنا بالتحاقك بمنصبك الجديد آمرا لفوج مشاة في لواء المشاة الاحتياط ٩٣ (من فرقة مشاة الحرس الرابعة) » •

وكم كنت اتمنى لو تم تعييني في لواء خيالة الحرس الذي سبقت لي الخدمة فيه بصفتي ضابط خيالة حيث انني يصبح بمقدوري تطبيق الآراء التعبوية الحديثة بشكل أفضل• الا ان نقلي كان حلا جيدا للمأزق الذي وجدت نفسي به عندما اصبحت في موقع النيران المتقاطعة بين السياسة والطاعة العسكرية • وواضح ان اوساط قيادة القوة البحرية الامبراطورية ابتهجت كثيرا لازاحة ضابط الركن الصغير الذي حاول دس انفه في شؤون السوق البحري

وخصوصا في قضية حرب الغواصات التي لم يدرك اسرارها بنقله الى الجبهه الغربية لكي يكف عن التحدث بما لا يعنيه • أما أنا فقد تحولت لما يهمني وانهمكت بالقتال الشديد الذي تخوضه وحدتي في سهول الفلاندر •

الا ان خبرتي بقضايا امريكا لم يتم تجاهلها تماما•اذ تلقيت في عام ١٩١٧ رسالة ـ وأنا في خندق شقي أثناء معركة الفلاندر الموضعية الطويلة ـ من رئاسة الاركان العامة تتضمن أمرا ببيان رأيي بمدى قدرة الولايات المتحدة على ارسال جيش حديث الى اوربا في حالة دخولها الحرب بسبب استمرار حرب الغواصات • وكان الاتجاه السائد ان الجيش الامريكي غير مجهز بتجهيزات حديثة وغير مدرب ولذا فلا يحتمل اشتراكه بسرعة في معركة فرنسا الا بعد مرور مدة طويلة • الا انني اجبت على هذا التساؤل بالنفي اعتمادا على خبرتي بالقدرة الهائلة للمصانع الامريكية وطاقاتها الانتاجية الواسعة ونظام الاحتياط المتقن للجيش الامريكي الا ان المؤسف هو عدم انصات أحد لصوتي •

ثم تلقيت مرة أخرى وأنا في مقر فرقتي بمدينة (آرتوا) رجاء من وزارة الخارجية لبيان رأيي بصدد اعتقاد وزير الخارجية (تسمرمان) باحتمال دخول المكسيك في حرب ضد الولايات المتحدة الامريكية فكتبت تقريرا الى وزارة الخارجية ربما أثار غضب السادة في وزارة الخارجية فلم يولوا ما كتبه المقاتل الصريح أي احترام والقوه في سلة المهملات•

وبعد مدة قصيرة ضحك العالم كله من قصر نظر كل اولئك المسؤولين الالمان لأن الولايات المتحدة الامريكية أعلنت الحرب على دول المعاهدة المركزية وعندئذ ادركت بأن نهاية الحرب قد اقتربت لغير صالح بلادي •



الفصل السابع

في الخدمَة الفعليّة

الجبهة الغربية . في ميدان القتال مع العثمانيين . محاولة لاستعادة بغداد ؟ . جبهة فلسطين . نزاع فون فالكنهاين مع جمال باشا . اللنبي يهجم . الانسحاب من القدس . ليمان فون ساندرس . لورنس . تعرض شرق الاردن . زيارة للجبهة الغربية . لودندورف . انهيار جبهة فلسطين . العثمانيون يبرمون الهدنة . اصطدام مع المشير ليمان . الفرار الى المانيا . قدمت نفسي الى هندنبورغ . قبلت الاستقالة . الاخطاء التاريخية لكلا الطرفين ودروس للسلام .

ان تجربتي في حرب المواضع بالجبهة الغربية لا تختلف عن تجارب الملايين من مقاتلي الطرفين ولذا فانها لا تستحق التفصل باحداثها الصغيرة . فعندما تسلمت امرة الفوج الثاني كان لوائنا يدافع عن مرتفعات (ڤامي) المعروفة ثم شارك بعدئذ في معركة (السوم) و (الفلاندر) وكانت فرقة مشاة الحرس الرابعة التي كان لوائنا (لواء المشاة الاحتياط ٩٣) من نظام معركتها تعتبر من خيرة تشكيلات الجيش الالماني ولذا فان من الطبيعي قيام القيادة بزجها

والتشكيلات الاخرى الممتازة في جميع المواقف الحرجة والقتـالات الضارية وعندما يوشك الخصم على القيام بخرق في أي قاطع من الجبهة. وفي خلال الايام الاولى من معركة السوم تلقيت امرا من قيادة الفرقة باستخدامي للحلول محل ضابط ركن من ضباط مقر الفرقة لاصابته بمرض وبذا اتيحت لي فرصة الاستفادة من تدريبي الاساسي السابق وتجربتي القليلة مع القطعات من اجل تسهيل مهمة قطعات الفرقة في المواقف الصعبة التي تتعرض لها قدراستطاعتي. وفي ١٥ أيلول ١٩١٦ هاجمت مواضع فرقتنا عدة فرق انكليزية وكندية بين (آنكر وشولنيه) مستخدمة الدبابات لاول مرة . وقد جاء في تقرير القيادة العامة للقوات المسلحة الالمانية في احد تلك الايام بأن العدو افلح في احداث خرق عميق بالجبهة الالمانية ولم تصمد في مواضعها سوى فرقة مشاة الحرس الرابعة.

ان اعتراف القيادة هذا بتقريرها الموجز ينطوي على معان عميقة . فقد بدت ساحة القتال في نهاية المعركة خاليةً من المقاتلين وفي صباح اليوم التالي احصينا خسائر الفرقة فكانت ٧٢ ضابطا و٤٢٠٠ جنديا بينما كانت وراءنا مئات الكيلومترات التي ليست لدينا فيها أية فرقة احتياطية يمكننا استخدامها لرأب الخرق العميق الذي احدثه الخصم فما كان مني الا ان أسرعت في تجميع كل ما تيسر لدي من مراسلين وكتبة وطباخين وغيرهم سواء من مقر الفرقة او من بقايا القطعات الاخرى المحطمة وسلحتهم بالرشاشات المتيسرة وزججتهم في الثغرة لكي اضلل العدو واجعله يتصور وصول نجدات جديدة. وقـد حصلت في هذه الظروف على خبرة مفيدة خلاصتها ان الانكليز عندما يحققون نجاحا في الهجوم فانهم لا يستغلون اللحظة المناسبة لاستثمار الفوز في الموقع الحاسم الذي حققوا به النصر التمهيدي حرصا منهم على امن قطعاتهم.

زجت فرقتنا ثلاث مرات في ذلك الصيف المزعج بمعارك السوم الرهيبة واصبح قائدي واستاذي في التعبية ابان عهد التلمذة في الكلية العسكرية اللواء فون لوسبرغ من اشهر قادة الميدان . وهو رجل ذو اعصاب فولاذية يتفهم ويتقن السيطرة على كل موقف خطير تتعرض له الفرقة. وقد حظيت بشرف

الخدمة تحت قيادته في فرقته الباسلة التي بلغت خسائرها في معارك السوم المنيفة وحدها خلال صيف ١٩١٦ فقط ١٧٣ ضابطا و٨٦٦٩ جندياه

اشتبكنا مع العدو في قتال ضار يوم عيد الفصح الموافق ١١ نيسان ١٩١٧ بين (آراس) ومرتفعات (ڤيمي) وكنا نحاول فيه صد هجوم انكليزي شديد على المواضع الالمانية • ومع اننا فقدنا المبادأة في تلك المعركة الا ان العدو لم يحقق الخرق الذي اراد احداثه في جبهتناه وكان ان اثرت الخسائر الفادحة التي تكبدها العدو سواء في السوم او في عيد الفصح على عزمه المعروف في مواصلة الهجوم•

كما ادرك الجانب الالماني بأن الدفاع المستكن قد كلفه خسائر رهيبة في الرجال• وان التمسك بمواضع غير مهمة من اجل تحقيق بعض المزايا التعبوية التافهة وان حرب المواضع المديدة على طول الجبهة الواسعة لن يؤدي الى نتيجة حاسمة • ولذا فقد اشغلت المواضع الامامية بعدد قليل من الجنود وسترت الجبهة بمواضع مبعثرة على غرار توزيع احجار الشطرنج اقتصادا بالقوة وتقليلا للخسائر التي تلحقها المدفعية المعادية بحشود جنودنا على طوار الجبهة وفي عمقهاه وقد جائت هذه الفكرة سابقة لنفس الفكرة التي طبقها الفريق الاول فون لودندورف فيما بعد والتي حظيت بتأييد المقر العام الحماسي لهاه وقد سألني المشير فون هندنبورغ آنذاك عما اذا لم تكن هذه الطريقة مؤثرة بعض الشيء علىمعنويات القطعاتفي حالة تقسيمالوحدات الى قطعات صغيرة بدلا عن تجميعها بتشكيلات كبيرة تحت سيطرة افضل• وقد ايد القائد الكبير وجهة نظري عندما قلت له بأن المعنويات هي حصيلة التعليم الجيد والعلاقات الوثيقة بين الضباط وجنودهم• وكانت هذه المحادثة مع المشير ذات طبيعة عسكرية بحتة• الا انها تلقي الضوء على طبيعة العلاقا الشخصية التي كانت سائدة وهذه حالة افتقدناها في السنين الاخيرة معاننا نفترض قيامهاه

بينما كنت في زيارة لتفقد وحدات لوائي السابق في مواضعه وكان ذلك في احد ايام حزيران ١٩١٧ استدعيت لمكالمة هاتفية• وكان المتكلم صديقي

القديم ليرسنر الذي تربطني به علاقة حميمة منذ ايامنا في ديوسلدورف وخدم معي في سفارتنا بواشنطن وقد اصبح ضابط ارتباط وزارة الخارجية لدى القيادة العامة للقوات البرية. وقد قال لي مبشرا (لقد تم تعيينك ضابط ركن للحركات في مقر مجموعة جيوش الفريق الأول فون فالكنهاين وعليك السفر معه الى العراق) فلم اصدق ما سمعته اذني ورددت آخر كلمة قالها (العراق) اين تقع هذه البلاد من العالم؟ الا ان ليرسنر لم يضع وقته بتفاصيل اخرى يبثها هاتف الميدان فأوجز ندائـه قائلا بأن القوم ينتظرونني ببرلين وعلي الوصول اليها فوراء

وانني لاستميح القاريء عذرا اذا ما عرضت له ما شاهدته في الشرق الادنى والاوسط ببساطة تامة لأن ذلك مجرد ذكريات لضابط شاب شهد جزءا من سير الاحداث في جبهتي العراق وفلسطين الا انني حصلت على صورة واضحة عن تطورات الموقف على تينك الجبهتين • ويظهر ان كتابات التأريخ العسكري الالماني الرسمي تصف سير الاحداث في ذلك الجزء من الحرب بشيء من الانتقاص المتعمد ومن يطلع على سيرة المشير اللنبي او لورنس فلابد ان يلاحظ بعض الايماءات التي تؤيد هذا الرأي. وقـد تعرفت على شخصيات تركية قيادية لعبت فيما بعد ادوارا مهمة والتقيت بهـا ثانية بعد عشرين عاما عندما اصبحت سفيرا لبلادي في انقرة.

أبدل فالـكنهاين بعـد معركـة (ڤردون)[1] بالمشير هنـدنبورغ[2] والفريق الاول لودندورف[3] الا انه استعاد مقامه الرفيع بعد النصر المؤزر الذي حازه في الحملة على رومانيا ولما دعتنا الدولة العثمـانية لاسداء معونة عاجلة كان الفريق الأول فون ڤالـكنهاين الرجل المناسـب للنهوض بهـذه المهمة، وهو قائد يتميز على الرغم من ذكائه الحاد ووضوح رؤيته الى الأفتقار للموازنة بين تحمل المسؤولية المسموح به والمقدرة وكذلك اتخاذ القرارات التي لا يحمد عليها عندما تستدعي الضرورة.

وكان المشير الالماني فون ديرغولتز[4] هو المستشار العسكري للدولة العثمانية وقد ابدى هذا القائد اللامع مشورة نادرة المثيل لاصدقائنا

---

(١) جرت معركة ڤردون عام ١٩١٦ بين الجيشين الالماني والفرنسي وقد صمدت قلعة ڤردون الفرنسية بوجه الهجمات الالمانيـة المتعاقبة وكانت حصيلة المعركة ان تكبد الطرفان زهاء مليون قتيل وهي من معارك الدفاع الموضعي المشهورة .

— المترجم —

(٢) كان المشير فون هندنبورغ شيخا متقاعدا عندما نشبت الحرب العالميـة الاولى فاستدعي من التقاعد ونسب قائدا للجبهة الشرقية فأبلى بلاءحسنا بتحقيق الانتصار على جيشين روسـيين في البحيرات المازورية ببروسيا الشرقية في معركة تانبرغ الحاسمة التيتكبد بها الروس ۰۰۰ر۲۵۰ قتيل.

ولما وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها واعلنت الجمهورية الالمانية تم انتخابه رئيسا للجمهورية خلفا للرئيس ايبرت ثم تجدد انتخابه وبقي بمنصبه الرفيع حتى وفاته عام ١٩٣٤ . — المترجم —

(٣) كان الفريق الاول فون لودندورف رئيسا لاركان المشير فون هندنبورغ أبان الحرب العالمية الاولى.

— المترجم —

(٤) كان المشير فون ديرغولتز مستشارا عسكريا المانيا لدى الدولة العثمانية وقد اشرف على المعارك الافتتاحية لحصار الكوت لكنه توفي ببغداد عام ١٩١٦ ودفن في مقبرة الكلدان بالباب الشرقي.

— المترجم —

الاتراك ولما هاجم الانكليز بغداد حوصر القائد طاونزند[٥] في كوت الامارة حتى استسلم للعثمانيين وفي هذه الاثناء توفي فون ديرغولتز اما الانكليز فقد واصلوا ضغطهم على بغداد حتى سقطت بأيديهم[٦].

وضع الوزير العثماني انور باشا[٧] خطة تتضمن اشتراك الجيش السابع بقيادة الفريق مصطفى كمال باشا[٨] والجيش السادس بقيادة الفريق خليل[٩] باشا بالتعرض لاستعادة بغداد وأراد جعل الفريق الأول فالكنهاين قائدا لادارة هذه الحركة، الا ان القائد فون فولكنهاين ابدى تحفظه من برلين بشأن تنفيذ خطط انور باشا لأنه يجهل مدى امكانية تنفيذ الخطط على مختلف جبهات القتال للدولة العثمانية، وكان من رأيه قيام المانيا بأعداد قوة انقاذ لاسناد القوات التركية في تنفيذ خططها على تلك الجبهة، ولما استلمت منصبي الجديد لم تكن لدي ادنى فكرة عن الصعوبات الجمة التي تنتظرنا . فالى جانب المشاكل المختلفة في جميع الحملات كانت معضلة المواصلات العويصة تقف حائلا دون تحقيق مختلف اغراضنا بالاضافة الى تعدد شعوب الامبراطورية العثمانية ورداءة الطقس التي كانت بالنسبة لنا أم البلاء، ثم ان التعامل مع القادة العثمانيين لم يكن من الامور السهلة لأننا نجهل تماما

---

(٥) حوصرت قوة اللواء طاونزند في الكوت وكانت مؤلفة من فرقة مشاة ولواء خيالة ولم تفلح محاولات فك الحصار فأستسلم طاونزند مع قواته يوم ٢٩ نيسان ١٩١٦.

— المترجم —

(٦) احتل الانكليز بغداد يوم ١١ آذار ١٩١٧ — المترجم —

(٧) كان انور باشا وزيرا للحربية العثمانية وهو ابرز الزعماء الثلاثة الذين حكموا باسم حزب الاتحاد والترقي وكان من اشد المتحمسين لدخول تركيا الحرب الى جانب المانيا.

— المترجم —

(٨) هو الغازي مصطفى كمال اول رئيس للجمهورية التركية فيما بعد.

— المترجم —

(٩) كان خليل باشا عم الوزير انور باشا وقد عينه حاكما عاما للعراق وقائدا للجيوش العثمانية المدافعة عنه.

— المترجم —

طبائع القوم. كما ان بعض القضايا المقبولة او البديهيــة من وجهــة النظر العسكرية كانت تصطدم في كثير من الاحيان بأمور سياسية تستحق الاهتمام. وصفوة القول ان تجاربي التي اكتسبتها في تلك المهمة تغيرت بصورة جذرية عندما اوفدت الى تركيا الحديثة بمهمة أخرى بعد سنوات عديدة.

عندما وصلت الى برلين وجدت الاستحضارات المتخذة لتشكيل الفيلق الآسيوي الالماني قد قطعت مرحلة جيدة على الرغم من اعتبار القطعات جاهزة للقتال بعد حلول خريف ١٩١٧ وصار من الضروري ارســال طلائع الفيلق المؤلفة من الوحدات الامامية فورا الى تركيا . وفي بداية تموز ١٩١٧ وصل الفريق الاول فون فالكنهاين مع هيئة ركنه الى القسطنطينية التي اصبحــت تسمى (اسطنبول).

وبديهي انني اصطحبت معي مرافقي الأمين هانس ميده ماير الذيرافقني في جميع المعارك التي خضتها في الجبهة الغربية . ولكي تتكون لدينا صورة واضحة عن البلاد والسكان فقد جعلنا ضمن هيئة ركننا نخبــة من خبراء الآثار والفنون الاسلامية امثال ساري وڤيفاند وغيرهما. ومن حسن طالعي انني التقيت حال وصولي الى اسطنبول بصديقي القديم هانس هومان الذي توطدت صداقتي معه أبان عهد الشباب في برلين. وهو ابن العالم الآثاري المشهور الذي اكتشف آثار (بيرغامون) في منطقة أزمير وقد نشأ صديقي هذا مع انور باشا وكان لصداقته الحميمة مع اقوى قائد سياسي وعسكري عثماني آنذاك ابلغ الاثر في تعيينه ملحقا بحريا في سفارتنا لدى عاهل اسطنبول صحبة السفير فون ڤانغنهايم ولقد لعب صديقي (وصديق انور باشا) دورا حاسما في استمالة الدولة العثمانية الى صفوف دول المعاهدة المركزية حــال نشوب الحرب . وكان هومان بمعلومــاته المستفيضة عن الحيــاة الشرقية وادراكه لمفاتن الشرق والصعوبات التي تجابه الغربيين هناك في اول عهدي بتلك الانحاء نعم الصاحب الثمين.

عكفت شعبتي (شعبة الحركات) رغم حر اسطنبول اللاهب خلال الصيف على وضع خطة رائعة على الورق لاستعادة بغداد من الانكليز وقد تضمنت

الخطة تكامل الجيش العثماني السابع في منطقة حلب خلال خريف ذات السنة على ان يلتحق به الفيلق الآسيوي الالماني وقد تقرر بموجب خطتنا تقدم الجيش المذكور على طوار مجرى نهر الفرات مع الاستفادة من النهر لايصال مواد الادامة الضرورية للجيش. ويكفي القاء نظرة على الخارطة لادراك الصعوبات البالغة التي تنتظرنا عند تنفيذ مثل هذه الخطة عند مرورنا من الصحراء. ولم تتيسر في الفرات آنذاك أية وسائط نقل حديثة كالسفن او الصنادل وانما كانت الاكلاك هي واسطة النقل النهرية الوحيدة المتيسرة وهـذه الاكلاك ترقى للعهد البابلي وتتألف من جلود الماعز المنفوخة بالفم والمربوطة معا والتي يعلوها مشبك من جذوع الاشجار ثم تنطلق بقوة تيار الماء وهي تسير باتجـاه التيار فقط اما عند التنقل باتجاه معاكس فلا تتيسر لدينا الا نقلية الحيوانـات المؤلفة من الجمال والبغال وهذه طريقة غير ملائمة ابدا لادامة جيش حديث.

وأود ان اذكر القاريء الكريم بأن سكة حديد بغداد ــ برلين المشهورة لم تكن قد امتدت لا الى جبال طوروس ولا الى جبال آمانوس. ولم يكمل حفر نفق جبال آمانوس الا في صيف ١٩١٧ اما نفق جبال طوروس فلم يكمل الا في خريف ١٩١٨ ومن غريب الصدف ان انجاز نفق طوروس تم يوم اعلان الهدنة وانتهاء الحرب العالمية الاولى . وهكذا تم تموين الجيوش العثمانية المنتشرة من القفقاس الى العراق وفلسطين اعتمادا على طرق بدائية ونياسم جبلية تسير عليها نقلية الحيوانات. والمثير للاعجاب ان تلك الجيوش العثمانية حافظت على تماسك جبهاتها وارهقت اعدائها بالخسائر الرهيبة حتى انتهاء الحرب في تشرين الثاني ١٩١٨.

صادفنا مشكلة سوقية اخرى تستحق الاهتمام. فالجبهـة العثمـانية الجنوبية كانت تمتد على حافة الصحراء السورية بين غزة وبير السبع وتقاتل القوات العثمانية فيها تحت قيادة الفريق الالماني كريس فون كريسنشتاين

الذي يتلقى اوامره من حاكم سوريا العام جمال باشا[١٠]. وقد واصل الفريق فون كريسنشتاين بعد فشل الهجمات التي شنها جيشه على قناة السويس ترصين جبهته بطاقته الفولاذية المعهودة. فهذا الجندي الرائع اثبت جدارته وكفائة الجيش العثماني الذي بأمرته رغم ادامته المحدودة وتمكن من صد هجومين بريطانيين عنيفين على جناحه الايسر بقصد احتلال غزة وأجبر الانكليز على النكوص خائبين.

ألا ان الانكليز تداركوا موقفهم المحرج على جبهة فلسطين فنقلوا اليها قائدهم الفذ الفريق الاول اللنبي من الجبهة الغربية وواضح ان وصول هذا القائد الى القاهرة معناه الاستحضار لشن تعرض جديد على فلسطين. واستمرت الاستحضارات المتواصلة كشأن الانكليز دوما بمد سكة حديد وعلى امتدادها مشروع لايصال المياه النقية وهذان المشروعان مهمان جدا لادارة أية حركات في الصحراء.

خشي الفريق فون كريستنشتاين على جبهته من مغبة الاستحضارات الانكليزية المتواصلة وكان لتخوفه ما يبرره. وقد كنت انا قد قاتلت فرق اللنبي آنفا في مرتفعات (ڤيمي) ولذا فلا شك عندي بأنه سيلجأ لنفس طريقته التي الفناها في فرنسا وستتعرض مواضع العثمانيين لأشد ما يمكن من نيران المدفعية قبل شروع الانكليز بهجومهم الجديد.

واذا تعرضت جبهة فلسطين للخطر الداهم المنتظر فان حركتنا التي ننوي تنفيذها لاستعادة بغداد لابد ان تتعرض — من الناحية السوقية — للاحباط . ذلك لأن أي خرق يفلح الانكليز بتحقيقه في جبهة فلسطين يسهل عليهم اجتياح بلاد الشام برمتها والظهور وراء جيش انقاذ بغداد . وعليه فقد قرر الفريق الاول فون فالكنهاين القيام بزيارة شخصية لجبهة فلسطين

---

(١٠) هو جمال السفاح الذي حكم بلاد الشام خلال الحرب العالمية الاولى وقتل احرار العرب بعد محاكمات جائرة . وقد هام جمال باشا في فيافي روسيا بعد اندحار بلاده حتى قتل بالرصاص في مدينة تفليس في اوائل تموز ١٩٢٦. — المترجم —

للاطلاع على طبيعة الموقف السائد هناك وفي اواسط آب سافر الى فلسطين واستصحبني انا ومدير ميرة قيادته في تلك الرحلة.

اجتزت لأول مرة في حياتي هضبة الاناضول ومررت من تلك الاصقاع التي تكاد تكون خالية من الناس والتي ليست عليها الا مسحة أثرية من معالم المدنية الحديثة. ثم اجتزنا سلسلة جبال طوروس ولم نكد نجتازها الا ومررنا من (قره‌پونار) لنتسلق هضبة (اطنه) ومررنا من مضائق وعرة سلكتها كل الاقوام التي أرادت الوصول للاناضول على مر القرون منذ فجر التاريخ وقد سلك هذه المسالك الاسكندر المقدوني وغيره من الفاتحين ولم تبق من آثار كل هؤلاء سوى بضعة قلاع متداعية ماثلة للعيان.

لاحظت ان حرارة الشمس تزداد شدة كلما واصلنا رحلتنا باتجاه الجنوب وعندما وصلنا الى حلب كانت تلفها عاصفة ترابية عاتية بينما كانت تقترب منها قوافل الجمال الموقرة بمختلف البضائع. وتنتصب على تل في وسط المدينة قلعتها القديمة المجردة من مظاهر الجمال . اما دمشق فعلى العكس منها لأنها واحة مونقة تحف بها الغوطة وتنساب حولها الينابيع الثرة.

واصلنا سفرتنا من دمشق الى فلسطين باتجاه الجنوب وفي احد تلك الايام توقف القطار فجأة بالساعة الرابعة فجرا فتطلعت من عربة النوم لتقع عيني على بحيرة فلما استفسرت من فاحص بطاقات القطار عن السبب في التوقف اجاب هذا بأننا سنتوقف لمدة نصف ساعة فما كان مني الا ان هرعت وانا بثياب النوم لاستحم في تلك البحيرة . وبعد ان استحممت وارتديت ثيابي شاهدت مدير المحطة فسألته عن اسم محطته فأجابني بأنها (العفولة) المطلة على بحيرة الناصرة اما القرية الرابضة على التل والمؤلفة من بيوت مطلية بالجص الابيض فكانت الناصرة فسرعان ما ادركت بخشوع ران على خاطري بأن هذه القرية الصغيرة تلعب دورا مهما في تأريخ البشرية الحديثة لأن السيد المسيح نشأ فيها وترعرع قبل ما يقرب من عشرين قرنا ومن هنا انبعثت رسالة الايمان بالله لتنتشر في مختلف أصقاع الارض وقد آليت على نفسي ان اهتبل

كل فرصة تسمح لي بها طبيعة مهمتي لزيارة الناصرة والتبرك بآثارها • ولم أعلم آنذاك بأنني سوف اتمكن من قضاء احد اعياد الميلاد وبضعة اسابيع في تلك المدينة المحببة الى نفسي•

استأنف قطارنا سيره مارا من جبل الكرمل وقد ظهر ورائه البحر بزرقته الصافية ثم مررنا بميناء يافا والى جانبه المستعمرتين الالمانيتين (ڤيلهلما وزارونا) وهناك وصلت رحلتنا الى نهايتها حيث يتفرع خط حديدي يتجه شرقا حتى يصل الى مدينة القدس • الا اننا تحولنا الى سيارة نقلتنا مع فون كريس الى الجبهة• وبعد ان استمعنا الى محاضرة مفصلة عن الموقف السائد أراد الفريق الاول فون فالكنهاين القاء نظرة على الترتيبات المتخذة فأعدت لنا الخيول واتجهنا نحو الجنوب حيث قضينا اليوم الاول بتفقد قاطع غزة واليوم الثاني باستطلاع الجناح الايسر للموضع وصولا الى بئر السبع فلاحظنا عدم وجود اية ترتيبات دفاعية متقنة وكل ما يحمي ذلك الجناح مجرد نقاط دفاعية غير متساندة•

استنفذت حرارة الصحراء الشديدة والحاجة المستمرة للماء كل طاقاتي البدنية بسرعة فائقة • وكان لمكوثي وراء المكتب المريح في اسطنبول لفترة غير قليلة ابعد الأثر في ضعف مقاومتي وسرعة ظهور الاجهاد على بدني• ولكن سرعان ما تم انقاذي من تلك الازمة عندما عدنا بالقطار في مساء اليوم الثاني لزيارتنا•

أصدر الفريق الاول فون فالكنهاين أوامره بناء على مقترحاتي التي قدمتها له والتي تضمنت بايجاز:

ان الجبهة طويلة جدا وهي مشغولة بقوات رقيقة • وعلى الرغم من احتفاظنا باحتياطات ضعيفة فان اغلب احتياطاتنا كانت معبأة في الخطوط الامامية • ولا تتيسر لدينا اية احتياطات كافية بالعمق• وان تحصينات الميدان غير كافية وكلها ترقى الى عام ١٩١٤ ولا يمكن الاحتفاظ بهذه الجبهة مطلقا ازاء أي هجوم جديد مسند باستحضارات قصف مدفعي تمهيدي شديد • ثم ان المدافع والعتاد المتيسرين لنا غير كافيين لتنفيذ مهمتنا الدفاعية• ومعاننا

حصلنا على انطباع جيد عن القطعات الا ان بقائها بالمواضع طوال سنين عديدة دون اي تبديل يجعل الملل يتسرب الى نفوس المقاتلين ۰ اضف الى ذلك ان الطعام لا يكاد يكفي والتموين صعب الوصول لأن النقل يتم اعتمـادا على الحيوانات وهي وسيلة نقل بطيئة۰ ولا تتوفر اعداد اضافية من حيوانـات النقلية للتعويض عن الجمال والخيول والبغال النافقة۰ ومما هو جدير بالذكر ان القطعات ذبحت نصف جمال القوة وتغذت بلحومها۰

واذا ما اردنا الاحتفاظ بالموضع ازاء الهجمات المتوقعة التي سيشنها الفريق الاول اللنبي وفق أحدث الاسس بكل تأكيد فلابد لنا من اعادة النظر في تعبئة قواتنا وجعلها بعمق كاف مع اتباع احدث مباديء الدفاع التي تعتمد على توفير قوة نارية ومواضع متساندة واحتياط سريع ومؤثر وقوي ۰ وان الموضع الحالي للجيش العثماني في فلسطين يجعله مهددا بصورة مؤكـدة لدرجة يتهدد معها الجناح الجنوبي لمجموعة جيوش حلب۰

أيد رأينا الفريق الاول فون فالكنهاين لأنه كان لديـه نفس التصور للموقف ۰ وقد تأملنا خلال رحلتنا بالقطار بالايام المنصرمة المفعمة بالفعاليات وادركنا ان ادارة الحركات في المناطق الصحراوية ليست من الأمور التي يسهل القيام بها على أي كان وانما تتطلب خبرة طويلة ۰ وقد ثبت فيما بعد ان هذا الرأي هو الصحيح حسبما ذكره خبراء القتال في الصحراء ابان الحرب العالمية الثانية۰ وقد حدث في الحرب العالمية الاولى نفس ما قام به الحلفاء في العلمين فيما بعد۰ حيث اعد اللنبي ــ كما فعل مونتغمري بعدئذ ــ مقادير وفيرة من مواد التموين عبر البحر وبالسكك الحديد ولم يتعوق سيل الادامة ــ كما حصل بالنسبـة للالمان في الحرب العـالمية الثانيـة نتيجة لتقصير الاسطول الايطالي ــ الا ان ايطاليا كانت في عام ١٩١٧ في (الجانب الصحيح) وكانت قوافل التموين البحري الانكليزية تمضي بهدوء في البحر الابيض المتوسط دون اية مضايقات۰

بينما كنا نحرص على تقديم افضل ما لدينا لمعاونة الفريق الاول فون كريس من اجل تحشيد قواته قرب حلب واعدادها للقتال وصلتنا انباء سيئة مفادها ان بضعة عربات حمل محملة بالاعتدة المرسلة الينا انفلقت في محطـة

قطار حيدر باشا الواقعة في رأس سكة حديد بغداد في الجانب الآسيوي من اسطنبول فأدى انفلاقها الى تدمير عدد آخر من العربات المحملة بالذخائر. كما وصلنا نبأ آخر بالوقت نفسه مفاده تدمير مقادير اخرى وفيرة من مواد ادامة جيشنا الثمينة قرب مدينة حلب.

ولما كنا بصدد تنفيذ المراحل الاولية من الاستحضارات للحملة في سبيل انقاذ بغداد فقد كنا على ثقة من ان المعوقات التي تعرضنا لها لابد ان تكون بفعل تخريبات العدو وقد ارجعت هذه التخريبات عجلة استحضاراتنا لعدة أسابيع واشهر الى الوراء. وكان ان اعدنا النظر بجداول التوقيت المعدة للتنقل باتجاه بغداد. كما ان الفيلق الآسيوي الالماني تعرضت اجراءاته التمهيدية للتأخير هو الآخر.

في هذه الاثناء حاز فون فالكنهاين ترقية في الجيش العثماني ووصل الى رتبة مشير. وقد توصل هذا القائد ـ مثلي ـ الى الحقيقة المتمثلة بضرورة تخصيص كل القوات المتيسرة لدينا للمحافظة على فلسطين اولا قبل التفكير بخطط استعادة بغداد. لأن استعادة بغداد كانت مسألة معنوية اكثر من كونها ضرورة عسكرية. بينما يتمخض عن انهيار جبهة فلسطين فقدان العراق وسوريا برمتهما.

كان قرارنا هذا صائبا. الا ان الذي حز في نفسي هو الاستنتاج الذي توصل اليه فون فالكنهاين وكانت خلاصته:

انه يعترض على جعل جزء من جيشه جاهزا للخدمة بأمرة فون كريس لأن هذا الاجراء من شأنه أن يجعل للفريق الأول فون كريس نصيب كلمة حاسمة في قيادة الحركات في جبهة فلسطين وقد يفكر الرجل بشن هجوم آخر على قناة السويس. ثم ان وزير البحرية وحاكم سوريا العثماني جمال باشا لم يكن بالرجل الذي يتخلى عن صلاحياته قيد أنملة. وهو يتمسك بحقه في ممارسة القيادة العليا بقسوة شرقية لا يعترف معها بأية سلطة للقائد فون فالكنهاين.

ولما رجعنا الى دمشق لمقابلة الحاكم العام وجدنا انفسنا ازاء رجل ظاهر اللطف والذكاء لكنه عنيد الى ابعد الحدود وهو عنيف ازاء حركات التحرر العربية ويناصب الأسرة الهاشمية عداء سافرا. وكان رئيس اركانه العقيد علي فؤاد وهو من اذكى الضباط العثمانيين واقدرهم وسأتحدث عنه مليا في فصل لاحق.

ولما لم يجد فون فالكنهاين أية وسيلة ملائمة للتعاون مع الحاكم العثماني العام جمال باشا فقد اصبح التعاون الألماني ـ العثماني بالغ الصعوبة في بلاد الشام. وقد توسعت مدى الصعوبات التي سنتعرض لها بسبب ذلك الموقف الحرج. وخصوصا تعقد قضايا ادامة تشكيلاتنا التي يشرف عليها خصمنا اللدود بحكم موقعه المؤثر جدا وكذلك مسألة اتصالنا بقواعدنا الخلفية .
أصر فون فالكنهاين على موقفه بعناد شديد. وقد بات من الواضح لي آنذاك ان لعناده الذي لمسته كل الفضل في رصانة موقف المانيا في معركة (ڤردون) فهو لا يريد الاعتراف بالفشل مطلقا وكان ينحي باللائمة على رئيس هيئة الاركان العامة الالمانية بصدد تلك الواقعة لأنه كان يفتقر للكفاية . وهو متشوق في مهمته بفلسطين لتحقيق مجد عسكري مؤثل جديد . ولذا فقد حرص على عدم اشراك أحد معه في مهمته القيادية هذه.

ولقد اعجبت كثيرا بشخصية القائد فون فالكنهاين الذكي والمتدين الذي كثيرا ما كنت انصت باهتمام لمواعظه وسرده التأريخي للعهد القديم(١١) الا انني كنت اعزي عدم نجاحه لمغالاته في التطرف مما جعله موضع انتقاد القائدين فون مولتكه الكبير وفون دير غولتز.

وكان السبب المباشر في نشوب الخصومة المريرة بين فون فالكنهاين والوزير انور باشا وفون لودندورف هو عدم رغبة جمال باشا في التخلي مطلقا عن صلاحياته بأي ثمن. وكانت حصيلة ذلك الخصام ان اثار فون فالكنهاين ازمة وزارية في تركيا وبقي منتصرا على خصومه.

(١١) التوراة .

كان قائد الجيش السابع العثماني المتحشد حول حلب الفريق مصطفى كمال باشا وهو من اكفأ قادة الميدان الشباب الاتراك. وكان قد ابلى بلاء حسنا في معارك البلقان ثم في معارك الدردنيل[١٢]. وهو يتميز بمرونته في ادارة الحركات وقد حصلت عنه على انطباع رائع. وكنت اتحدث معه باللغة الفرنسية وقد لاحظت انه متأثر الى حد بعيد بالادب والثقافة الفرنسيين وبالتالي فهو اكثر ميلا الى فرنسا منه الى المانيا . وكم انا سعيد الحظ عندما واتتني هذه الفرصة للتعرف على هذه الشخصية التي تبلورت اهميتها في المجتمع الدولي بعد سنين قليلة ولعبت دورا مهما في تأريخ تركيا الحديثة.

اما رئيس اركان الجيش السابع العثماني فكان صديقي الرائد الركن فون فالكنهاوزن الذي صار في الحرب العالمية الثانية الحاكم الالماني العام لبلجيكا.

ولما وافتنا المعلومات المتواصلة الى مقر الفريق الاول فون كريس مشيرة الى ان الفريق اللنبي يوشك على انجاز استحضاراته النهائية لشن الهجوم المنتظر ارسلني الفريق الأول فون فالكنهاين مرة اخرى الى مقر فون كريس في أيلول ١٩١٧ وكانت مهمتي انجاز الاستحضارات لاستخدام جزء من تشكيلات الجيش السابع في المهمات المكلف بها مقرنا.

وعندما غادرت حلب كان برفقتي هانس ڤيدماير فأتيحت لي الفرصة الاولى لزيارة القدس التي اتخذناها مركزا لتموين جيش فلسطين.

تنازعتني مشاعر قدسية غامرة عندما وصلت الى المدينة المقدسة التي يقدسها ابناء الأديان السماوية الثلاثة عن طريق يافا. وعندما يتوجه المرء للقدس من الناصرة فانه يمر من الانحاء التي شهدت صراعا طويلا خاضه المؤمنون من مختلف الشعوب في سبيل الله واستمر اكثر من الف عام.

(١٢) هي معارك (جناق قلعة) المشهورة التي اراد بها الانكليز والفرنسيين اجراء انزال بحري بقصد احتلال العاصمة العثمانية اسطنبول ولكن الدفاع العثماني المجيد عن مضيق الدردنيل من جانبيه الاوربي والآسيوي ادى الى فشل الحملة الانكلو فرنسية فشلا ذريعا وتكبد المهاجمين خسائر فادحة .
– المترجم –

بتنا ليلتنا في مدينة القدس وعندما انبلج الصباح اسرعنا في القيام بجولة لمشاهدة معالمها المهمة قبل ان يحين موعد اداء واجبنا العسكري الذي كنا بصدده، ثم اتخذنا من بقعة تطل على جبل الزيتون مقرا لمركز تموين الجيش وكانت تلك المنطقة غنية بأشجار الزيتون الدائمة الخضرة.

وقد لاحظت ان مدينة القدس غنية بمختلف الآثار النصرانية التي تتكامل بها قصة حياة السيد المسيح المفعمة بالمعاني العميقة لتلك الحياة الحافلة بالاضافة لوجود الكنائس والمستشفيات وملاجيء الايتام ومعاهد التعليم الديني كما انها تحتوي على آثار اسلامية جليلة اهمها (الحرم القدسي) في المسجد الاقصى وقبة الصخرة ومهبط البراق وكذلك مسجد عمر الذي يدل مجرد وجوده على النبل والتسامح الديني. اما اليهود ـ الذين يحلمون منذ آلاف السنين بالاستقرار في القدس ـ فليس لهم فيها سوى حائط المبكى. ولما منح لورد بلفور وعده المشهور للصهاينة في عام ١٩١٧ لم يراع حقوق النصارى ولا المسلمين ولم يقدر ما انطوى عليه وعده من اجحاف لأبناء الطوائف المسيحية والمسلمين نتيجة لتجاوزات اليهود على الآثار والمعالم الثقافية والحضارية والدينية التي تخص الأديان الأخرى.

لقد راقبت خلال وجودي في القدس اساليب العبادة التي يتوجه بها الناس لعبادة بارئهم وتذكرت القول المأثور عن الشاعر الألماني غوتيه:
« ولله المشرق والمغرب . وهو الذي يسبغ السلام على بلاد الشمال والجنوب وبيده الخير للجميع ».

وقد تأثرت الى اقصى الحدود عندما شاهدت المسلمين يؤدون صلاتهم بخشوع وبساطة سواء في المساجد او في الصحراء السورية وفي الطرق والاسواق وفي القرى والمدن ـ وحيثما وجدوا ـ متوجهين بوجوههم وافئدتهم المفعمة بالايمان العميق الى الله العلي القدير. وايقنت اننا يمكن ان نتعلم منهم الكثير.

ولقد تقاتل المسلمون مع المسيحيين طوال قرنين في الحروب الصليبية التي دارت رحاها في بلاد الشام ـ ومنها فلسطين ـ عندما تنافسا للاستحواذ

على القدس • وكانت حصيلة تلك الحروب ان تعلمت اوربا الكثير من العرب المسلمين•

ولما تمثلت اسباب الحرب التي كنا نخوض غمارها ادركت حقائق جمة• فألمانيا ليست لديها أية رغبة في الاستيلاء على اية مستعمرات وانما تحرص على الاحتفاظ بوجودها فحسب• وروسيا جعلت من نفسها قيّمة على شعوب اوربا الشرقية بدعوى الوحدة السلافية• وفرنسا تريد لنفسها مستعمرات أخرى بينما ترغب انكلترا في تغيير موازين القوى في أوربا• ولكن هذه التناقضات تتوضح بصورة اجلى اذا ما رجعنا لتأريخ العلاقات بين الشرق والغرب والحروب السابقة ذات الصبغة الدينية والمطامع الدائمة بخيرات بلاد الشرق التي طالما تنافست عليها أقطار اوربا •

وعندئذ اطمأنت نفسي الى انني اقاتل في صفوف الطرف الذي كان على حق • وبينما كنت مسترسلا بأفكاري هذه دعانا الواجب للاسراع في الالتحاق بجبهة سوريا • وعندما قدمت نفسي للفريق الاول فون كريس كان الموقف قد ازداد تأزما• ففي صباح ذلك اليوم كانت احدى الدوريات العثمانية قد استولت على وثائق خلفتها دورية انكليزية على مقربة من الجبهة وتضمنت معلومات تشير الى استحضار العدو للقيام بهجوم واسع على مواضع بئر السبع• ولم يكن من المحتمل قيام العدو بهجوم على الجناح الايسر للموضع التركي ولكن اذا افلح العدو في التقدم عبر الصحراء من ذلك الاتجاه فستنفتح السبل امامه للتقدم الى الخليل ومنها الى القدس• ولكن هل كان فقدان تلك الوثائق حيلة مدبرة؟

تحدثت مع فون كريس بكل تصوراتي وعرضت له ضرورة اعادة النظر في تعبئة التشكيلات التركية المتكدسة في أقصى الخط الامامي للجبهة مع قلة عمق الموضع الدفاعي• وقد ايد الرجل تماما ما ذهبت اليه وقال انه يحمل نفس الفكرة لكنه عندما عرضها على القادة الاتراك اصطدم بمقاومتهم لها• ثم طلب الي معاودة بحث الموضوع نفسه مع قادة فرق الميدان بصورة شخصية• وكان ان بدأت بمهمتي عند الجناح الايمن القوي في قاطع مدينة

غزة الذي عبأ قائد الفيلق التركي المسؤول عنه الفريق رفعت باشا ثلاث فرق في الجبهة دون أن يحتفظ بأي احتياط في العمق.

استقبلني الفريق رفعت باشا بأدب جم وهو رجل ضئيل الجرم أنيقا ومتوقد الذكاء ويبدو عليه التودد في تعامله مع الآخرين. وقد شرحت له في خيمته تجاربنا مع خصمنا الجديد الفريق اللنبي عندما قاتلناه في مرتفعات ڤيمي في الجبهة الغربية . كما شرحت له الاسلوب الانكليزي المألوف عندشن الهجوم بالتمهيد له طوال يوم كامل بقصف مدفعي شديد. وان مواضع الفرق التركية اذا ما تعرضت لهذا القصف المدفعي فانها لن تؤمن للمشاة الاتراك اية وقاية من شظايا المدفعية المعادية. وعليه فقد رجوته ان يقوم بسحب فرقتين من فرقه الثلاث على الاقل لتكونا بمنجاة من القصف المدفعي المعادي والحصول على عمق كاف لموضعه في الوقت نفسه مع الاحتفاظ بجبهة رقيقة يسهل الدفاع عنها. الا ان الفريق رفعت باشا اجابني بالفرنسية بأسلوبه الودود وعلى وجهه ابتسامة:

« انني مدرك تماما لما تقوله يا عزيزي القائد. لكنني هنا سأعيش وهنا سأموت».

ومع انني اصبت بشيء من الذهول لعدم نجاحي في محاولتي لاقناع الفريق رفعت بوجهة نظري. الا ان محاولاتي المتكررة لم تصادف غير الاخفاق.

الا أنني ادركت بعد لأي بأن للتعبية التركية ـ التي لم اتفهمها في أول الامرـ ما يبررها. ذلك لأن المشاة الاتراك كانوا معتادين على الصمود في مواضعهم حتى آخر طلقة وآخر جندي. بكل ما لهذه العبارة من معنى. ولم يتفهم اولئك الجنود ولا قادتهم آنذاك ممارسة الحركات السيارة او ادارة القتال بمرونة. وقد التقيت برفعت باشا بعد سنين عديدة وتحدثنا بشأن تلك الواقعة مرارا عديدة لدرجة صارت معها حجر الاساس لاقامة صداقة متينة بيننا. وقد لعب هذا الرجل دورا كبيرا في اعادة بناء تركيا الحديثة بعد الحرب عندما اصبح وزيرا للحربية في عهد الرئيس اتاتورك كما انه ساهم

في اعادة بناء الجيش التركي الحديث. وسأتحدث عنه مليا في فصل لاحق.

ولما يئست من اقناع القادة العثمانيين بوجهة نظري وضعت حدا لمساعيي المحمومة وآثرت التريث لحين تلقينهم درسي على يد العدو لقاء ثمن باهظ . وسرعان ماتحقق تصوري عندماشرع الانكليز بهجومهم بصورة مباغتة لحلفائنا. كان الهجوم الانكليزي في اواخر تشرين الاول ١٩١٧ بالنسبة لي تكرارا لمعركة آراس التي شهدتها في فرنسا يوم عيد الفصح من ذلك العام . فقد استمر القصف المدفعي الشديد على تحصينات الميدان والمواضع وكل ما احتوته بحيث جعل عاليها سافلها . وقد صمدت القوات العثمانية ببطولة نادرة لكنها لم تستطع بعدئذ الاشتباك مع مشاة العدو الهاجمين لان القصف المديد استنزف كل طاقاتها . ثم وصلت فرق الخيالة الانكليزية والاسترالية بصولة خاطفة عبر الصحراء الى بئر السبع التي سقطت بيد العدو . ولكي نسد الطريق المؤدية الى القدس فقد رجوت القائد فون فالكنهاين تقديم الفرقتين التركيتين المتيسرتين لدينا في قاطع حلب للدفاع عن جناحنا الايسر المهدد . وكانت تينك الفرقتان التركيتان من خيرة التشكيلات العثمانية التي سبق أن قاتلت في الجبهة الروسية وأبلت بلاء حسنا . لكنها عندما وصلت صادفت مشكلة غير متوقعة تتمثل بقلة مياه الشرب في تلك المنطقة ، وقد اسرعت انا بالتوجه الى الجناح الايسر للاشراف على توزيع القوات هناك . ولما وصلت الى بئر أبو خوف الكائن في سفح جبل جنوب الخليل التقيت بالفريق مصطفى كمال باشا الذي كان متوجها الى جيشه السابع وتبينت انه لم يتفق بالرأي مع الفريق الاول فون فالكنهاين بشأن الاجراءات المضادة لهجوم العدو ، وقد بدا عليه منتهى الامتعاض وقد أدى هذا الاختلاف بين وجهتي نظر الرجلين القديرين الى تنحية الفريق مصطفى كمال عن منصبه حيث حل محله الفريق فوزي باشا . وقد بقي هذا القائد على رأس الجيش السابع حتى نهاية الحرب وقد حاز في حرب الاستقلال التركية ضد اليونان رتبة مشير ولقب (تشقماق) ثم اصبح رئيسا لهيئة الاركان العامة التركية في عهد الرئيس أتاتورك لسنين عديدة .

لم ينتظر الانكليز الاجراءات العثمانية المضادة البطيئة وانما قامت طائراتهم

بقصف الارتال التركية الخلفية واكداس الادامة • ولما كان ذلك القصف الجوي من الامور التي لم تتعرض لها تلك القوات التركيـة فقد أصابهـا الارتباك وانسحبت نحو الشمال بدون انتظام •

كان القائد فون فالكنهاين قد عجل بالذهاب الى القدس حالمـا وصلته الانباء الاولية عن الهجوم الانكليزي • وقد اصـدر اوامره من هناك لاعادة السيطرة على الموقف • وقد قام هذا القائد باجراء رائع عندما أمر ضباط ركن مقره بالتنقل فورا الى الطرق المؤدية الى الخلف فأسرع الجميع ــ من المـان واتراك ــ للاستفادة من أي رجل أو أية قطعة متراجعة في اعادة انشاء الموضع الجديد والصمود فيه • ولما كان الجناح الايمن لقوة الهجوم الانكليزي لم تتمكن من الاندفاع من بئر السبع ــ رغم النجاح التمهيدي الذي حققته • فقد تعثر تقدم الانكليز نحو القدس • وهذه غلطة تعبوية لا تغتفر وارتكبهـا العدو لسبب أجهله تماما • وعنـدئذ اتيحت لقوات الجيش السابع العثماني فرصة الاندفاع نحو الغرب لصد قوات الخصم المتدفقة من الشمال بجبهـة واسعة • الاان النجاح الذي حققناه لم يكن كاملا ومع ذلك فقد استطعنا انشاء موضع جديد قرب مدينة يافا ووراء العوجـة مما أجبر الانكليز على التوقف تماما • والذي أثار تعجبي هو أن الانكليز لم يستثمروا الفوز بعـد هجومهم الناجح وغلب عليهم التردد • وهذا ما خبرته عنهم في الجبهة الغربيـة ــ قرب تيبڤال وقرب آراس ــ حيث دأب الانكليز على الاكتفاء بالنجاح الضئيل الذي يحققونه دون أي سعي لاستثماره • ولو بذل الفريق اللنبي قليلا من الجهـد لحقق في تلك المعركة نصرا مؤزرا ولأنهى الحملة على فلسطين لصالح بلاده في تشرين الثاني ۱۹۱۷ ولاجبر تركيا على الاستسلام قبل انتهاء الحرب العالميـة الاولى بسنة كاملة •

الا ان صمود الجبهة التركية في فلسطين يعود لسببين متكاملين لا يمكن اغفالهما بحال وأعني بهما شجاعة القطعات العثمانية المشهورة ومهارة قائدهـا فون فالكنهاين •

تركز جهدنا بعدئذ على ازاحة العدو من المنطقة الممتدة من ساحل البحر

الابيض المتوسط الى مرتفعات الخليل والتي يهدد منها مدينة القدس • وقد نجحنا في محاولاتنا هذه لفترة وجيزة امتدت الى بداية شهر كانون الاول ١٩١٧ ولكن القتال أصبح بعدئذ اكثر شدة وخصوصا حول قرية اللد الواقعة على الطريق المؤدية الى القدس •

ما أن وصلنا الى جبل صهيون الا وسلمني ضابط الاستخبارات برقيـة مسترقة من محطة اللاسلكي لكارنر فون جاء فيها :

« قام الالمان في الايام القلائل الماضية بنسف قبر النبي صموئيل الواقع غرب مدينة القدس خشية وقوعه بأيدي القوات الانكليزية • وكيف سيكون صدى الاعمال الهمجية التي يقوم بها الالمان ضـد قدسية الاديان في مختلف ارجاء العالم بعد أن شرعوا بتدمير معالم المدينة المقدسة • لذا ينبغي توجيـه نداء عالمي للالمان لكي يكفوا عن ممارسة هذه الاعمال المنافية للحضارة » •

فما القصد من هذه البرقية ؟ لقد كانت هناك على قمة احد التلال الواقعة في ضواحي القدس مقبرة تركية يحمل أحد قبورها شاهد كتب عليه ما يفيد بأنه مرقد النبي البابلي صموئيل • وقد نصبت على ذلك التل رشاشتان تركيتان ضمن ترتيبات الدفاع عن المدينة المقدسة ولكي يستولي الانكليز على التل فقد رشقوه بقنابل مدفعيتهم واصابوا شاهد قبر النبي صموئيل واستولوا على التل المذكور • وكان ان نسبوا لنا (الاعمال الهمجية المنافية لقدسية الاديان) وهذا دليل آخر على تفوق الانكليز علينا في مضمار الدعاية ، حيث انهم اقنعوا الناس في مختلف ارجاء العالم بأننا قطعنـا أيدي الاطفال في بلجيكا • ولو احرقت مدفعية الانكليز مدينة القدس حتى احالتها الى اكوام من الرماد لادعوا بكل صفاقة بأننا ــ نحن المتوحشين ــ قد احرقنا المدينة المقدسة ولتباكوا عليها مع أول الباكين •

لقد مررت طول عام ونصف خلال وجودي بالولايات المتحدة الامريكية بتجربة مؤكدة عن مدى تأثير مثل تلك الدعايات المضللة • وعليه فقد عبّرت للفريق الاول فون فاكنهاين عن خشيتي من مغبـة سريان الدعاية الانكليزية

المغرضة ورجوته المبادرة لاخلاء مدينـة القدس من القطعات لكي لا تتعرض للتدمير نتيجة لاي هجوم انكليزي لا سيما وان المدينة ليست لها أية أهميـة سوقية بالنسبة لنا . ويمكننا اتخاذ خط الدفاع عن فلسطين بمسافة ثلاثة أميال فقط الى الشمال من المدينة . ومع ان فقدان المدينة يعتبر بالنسبة للقائد فون فالكنهاين مجرد مسألة معنوية الا انه اعتبرها مسألة حاسمة بالنسبة له شخصيا فأجابني قائلا :

« لقد سبق لي ان خسرت ڤردون ولو تخليت عن القدس لاعتبرهـا الناس في مختلف ارجاء العالم ــ بسبب شهرة المدينة ــ دليلا آخر على خسراني لمعركة اخرى. وهذا امر غير ممكن».

عندئذ تيقظ في ضميري شعور ديني غامر بوجوب انقاذ مدينة المسيح من الخراب المحدق بها فأتصلت هاتفيا بالسفير الالماني في اسطنبول الذي سبق ان خدمت بأمرتـه غراف برنستورف ورجوته الاتصال بالوزير انور باشا للموافقة على اخلاء مدينة القدس. كما اتصلت بالوقـت نفسه بقيـادة الجبهة الغربية الالمانية لعـرض نفس الفكرة على المقر العـام والضغط على القيادة العليا التركية للموافقة على اخلاء مدينـة القدس واخيرا افلحت في استصدار الامر المريح للقائد فون فالكنهاين باخلاء المدينة المقدسة .

صدر الامر باخلاء مدينة القدس في ٧ كانون الاول ١٩١٧ وكنت قبل صدور هذا الامر قد رجوت مدير عينة الجيش السابع غراف غالن نقل مهمات الجيش من كنيسة اللاتين الى الناصرة انقاذا لبطريركية اللاتين المقيمة فيها من التعرض للاضرار المتوقعة من الحرب.

احتفل العدو في جميع ارجاء العالم بالنصر الذي حازه بدخوله للمدينة المقدسة التي اخليناها بمحض اختيارنا ــ اشفاقا على آثارها ومعالمها الدينية الثمينة ــ واعتبرها واقعة تأريخية من الطراز الاول . وقد ارتبط دخـول الانكليز للقدس بوعد بلفور الذي كان قد صدر قبل اشهر قلائل بشكل او بآخر. اما بالنسبة لجبهة فلسطين فلم يؤثر عليها سقوط القدس بشيء لأن

الجيش العثماني ـ رغم انتصار اللنبي الرخيص ـ بقي محتفظا بصحراء فلسطين حتى خريف ١٩١٨.

هطلت في شتاء ١٩١٧ـ١٩١٨ امطار غزيرة تسببت في تكون طبقات كثيفة من الوحول فادت هذه مع قلة الطرق المتيسرة في فلسطين آنذاك الى اعاقة الحركات بالنسبة لكلا الطرفين • وفي هذه الاثناء نقلنا مقرنا الى الناصرة بينما استقرت الجبهة وانجز الطرفان تحصينات الميدان بصورة تدريجية ولكن متواصلة.

امتدت جبهة الجيش الثامن العثماني الذي كان بقيادة جواد باشا من ساحل البحر حتى طريق نابلس ـ القدس • وكان رئيس اركان ذلك الجيش عاصم بك الذي صار فيما بعد معاوناً لرئيس اركان الجيش التركي لسنين عديدة. اما المنطقة المحصورة من الطريق المذكور ونهر الأردن فكان يدافع عنها الجيش السابع العثماني الذي كان يقوده فوزي باشا وكان على جناحه الايمن الفيلق الثالث الذي كان بقيادة عصمت باشا[١٣] الذي نجح في احباط عدة هجمات انكليزية • وقد اثبت هذا القائد جدارته واستقلاليته في ادارة المعارك كما اثبت جدارته فيما بعد في ادارة دفة الدولة التركية بنجاح باهر عندما خلف الرئيس مصطفى كمال اتاتورك بعد وفاته.

استمتعت بالاحتفال بعيد الميلاد لذلك العام في كنيسة اللاتين بالناصرة لدرجة تفوق الوصف.

كلفني القائد فون فالكنهاين بمهمة وضع خطة للتعرض على الانكليز في ربيع ١٩١٨ وقد تبين لي من الدراسة التي اجريتها بأننا يتعذر علينا شن التعرض بالقوات المتيسرة لدينا فقط وعليه فلابد من حصولنا على قوات

(١٣) هو القائد الذي حاز لقب (اينونو) في حرب الاستقلال ضد اليونان التي اعقبت الحرب العالمية الاولى وقد تولى رئاسة الوزارة طيلة عهد مصطفى كمال اتاتورك ثم خلفه بمنصب رئيس الجمهورية التركية .
ـ المترجم ـ

اخرى اضافية. الا ان جبهات الجيوش العثمانية في القفقاس وفي العراق وفي فلسطين كانت كلها رقيقة وبدون احتياطات كما لم تتيسر للدولة العثمانية اية احتياطات سوقية. اما القيادة العامة للقوات الالمانية المسلحة فقد حاولت الحصول على نتيجة حاسمة في الجبهة الغربية خلال ربيع ١٩١٨ من اجل انهاء الحرب لصالحنا ولذا فانها لم تكن بموقف يتيح لها امكانية تخصيص اية تقويات لجبهتنا في فلسطين. وكنا نتوقع من الجبهة الاخرى قيام الفريق اللنبي بتعرضه في الربيع ايضا. ولما أيقن فون فالكنهاين من عدم جدوى تحمله مسؤولية تلك الجبهة التركية فانه كتب للامبراطور غليوم يرجوه تكليفه بمهمة اخرى. وفي شباط ١٩١٨ تحققت رغبته عندما تم تعيينه قائدا لأحد الجيوش الالمانية في الجبهة الروسية. وقد حل محله في قيادة جبهة فلسطين رئيس البعثة العسكرية الالمانية لدى الدولة العثمانية آنذاك المشير ليمان فون ساندرس.

حاز القائد فون فالكنهاين مقاما رفيعا في نفسي لكونه انسانا يعز وجود نظيره فهو يحافظ على تهذيبه حتى في احلك الظروف ويتعامل مع حلفائنا الاتراك بمنتهى الاحترام لأنه يدرك مدى حساسية موقفه كقائد لقوات صديقه ويقدر مدى حاجته لكسب ثقة القادة العثمانيين العاملين بأمرته. ومع ان ليمان فون ساندرس حاز خبرة امدها خمسة اعوام في التعامل مع الاتراك قبل توليه قيادة جبهة فلسطين الا انه صادف صعوبات اكثر من فون فالكنهاين بسبب عصبيته وعناده ولذا فأنه لم يكسب من الاتراك الا عدد قليل جدا من الاصدقاء.

تقدمت لقائدي برجاء لنقلي الى الجبهة الغربية. الا ان المشير فون ساندرس رفض طلبي واخبرني بأنني في جالة عدم رغبتي في مواصلة الخدمة بمقره فيمكن نقلي الى منصب رئيس اركان للجيش التركي المزمع تشكيله في شرق الاردن.

وكان الانكليز قد هجموا مرتين عبر نهر الاردن بقصد الوصول الى عمان وعليه فقد اصبح من الضروري تأمين هذا الجناح المكشوف بشكل

افضل. وقد خصص للجيش الرابع العثماني المنوي تشكيله في شرق الاردن القاطع المحصور بين جرابلس على نهر الاردن والى البحر الميت. وقد تولى قيادة هذا الجيش جمال باشا الصغير (وسمي بالصغير لتمييزه عن جمال باشا حاكم سوريا العام) الذي اسس مقره في قرية السلط الواقعة في منتصف الطريق بين جرش وعمان.

أسرعت في الالتحاق بمنصبي الرفيع الجديد ووجدت القائد جمال باشا رجلا كيسا ظاهر المودة وسرعان ما توطدت بيننا اواصر صداقة حميمة امتدت حتى وفاة ذلك الرجل المحترم. وقد تميز جمال باشا بهدوئه الرائع في ساعات الخطر المدلهمة وكان اقوى جوانب شخصيته يكمن في توطيده لعلاقات شخصية واسعة مع جميع شيوخ القبائل العربية مما جعلنا نتمتع باسنادهم المفعم بالاخلاص.

تقع السلط على ارتفاع ١٨٠٠ متر فوق مستوى سطح البحر الميت فهي كائنة فوق قمة جبال شرق الاردن . وكانت ورائنا مناطق اقامة العشائر العربية الموالية للانكليزي المشهور لورنس الذي افلح في كسبها الى جانب بريطانيا . وكان اتصالنا مع قيادة جبهة فلسطين يمر عبر سكة حديد الحجاز الممتدة من الشام الى درعا الى عمان ومنها الى المدينة المنورة. وكانت في المدينة المنورة فرقة تركية بقيادة فخري باشا وقد تعرضت هذه الفرقة لمناوشات مستمرة قام بها جيش الامير عبدالله الهاشمي الذي صار فيما بعد ملكا على الاردن.

كان الخطر المستمر الذي يهدد وجود الجيش الرابع المتشكل حديثا يتمثل بوجود العشائر المعادية للدولة العثمانية والمقيمة وراء الجيش بحيث يمكنها قطع خطوط مواصلاته . ولحسن الحظ كانت للقائد جمال باشا علاقة صداقة وطيدة مع الامير فيصل بن الحسين ـ الذي صار فيما بعد فيصل الاول ملك العراق ـ مما جعل موقف الجيش الرابع مطمئنا ولم يتعرض له احد بسوء.

كان من الواضح لنا ان خطة التعرض الربيعي التي يعتزم الفريق

اللنبي تطبيقها ستكون حركة التفاف واسعة يبغي الوصول بها الى عمان، ثم الاندفاع منها الى درعا بقصد تطويق جيش فلسطين العثماني والقضاء عليه. وكنا في تلك الاثناء قد انجزنا نصف اجراءات تشكيل الجيش الرابع عندما شن الانكليز في آخر يوم من شهر نيسان ١٩١٨ هجومهم الثالث على شرق الأردن. وقد قام الانكليز بمباغتتنا مع انبلاج الضيــاء الاول لذلك اليوم بهجوم جبهوي اشتركت به عدة فرق بينما قامت بالوقت نفسه ثلاث فرق خيالة بعبور نهر الاردن من منطقــة جرش بقصد الالتقــاء بالثوار العرب المسيطرين على قمم الجبال قرب منطقة السلط.

وقد ادركت على التو بأن من الواضح توقف مصير جبهــة فلسطين العثمانية برمتها على مدى نجاح الانكليز في تنفيذ تعرضهم او اخفاقهم فيه.

أدار معركة الفيلق الثامن العثماني الذي كان مقره في تل نمرين قائده العقيد علي فؤاد الذي سبق ان اشتغل لفترة طويلــة رئيسا لأركان حاكم سوريا العام وحاز شهرة واسعة من ذلك المنصب. كما ادار معركــة الجيش الثامن العثمــاني العقيد الركن عاصم بك الذي كان رئيسا لاركان ذلك الجيش. وقد ادركنا من الوهلة الاولى ان هذين القائدين سيقاتلا حتى آخر جندي. الا ان كل ما تيسر للجيش الثامن من احتياط كان مجرد فوج مشاة مرابط في السلط. وقد اخبرت العقيد على فؤاد بأن هذا الفوج لا يمكن ان يصمد بوجه ثلاث فرق خيالة معادية تقوم بالحملة على السلط.

تجمع افراد هيئة ركن الجيش الرابع في المقر المطوق لابداء المقاومة الممكنة وفي عصر ذلك اليوم احكمت فرق الخيالة المعادية تطويق السلط بصورة تامة بينما باشرت كتائب خيالة الاتراك بشن صولتها النهائية . وقد حاولت مع قــائد الجيش ايجاد طريقنا الى عمان وفي هذه الاثناء انفجر مستودع العتاد الرئيسي لجيشنا. وفجأة ظهرت امام اعيننا قافلة من الجمال المحملة باثقال مقرنا وقد فزعت الابل من شدة الانفجار فأثارت عاصفة من الغبار واصابني بعير هائج فرماني عن ظهر جوادي نحو جدار من الصخر الموجع ففقدت حصاني وحذاء الفروسية للساق اليمنى ولم تنقذ حيــاتي سوى همة مرافقي غراف شبي

الذي ساعدني باعطائي حصانا آخر تخلصت به من التطويق.

كانت اول محطة وصلناها وتتوفر فيها وسائل الاتصال الهاتفي هي مدينة جرش التأريخية وقد اتصلت منها بمقر قيادة الجبهة واخبرته بالموقف السائد. ثم واصلت تنقلي الى عمان متمعناً بآثار جرش ومسرحها الروماني واعمدتها وجدرانها القائمة منذ آلاف السنين وعلى الرغم من الانقباض النفسي الذي اصابني آنذاك وحرارة الطقس المزعجة فان الحفاوة واللطف اللذين لقيتهما من الأعراب الذين صادفتهم جعلاني اشعر بسعادة لا انساها ما حييت.

افهمني القائد فون ساندرس بأن بعض التشكيلات في طريقها الى عمان وانه يعتزم شن هجوم مقابل فوري على السلط بقصد استعادة تلك المنطقة. وفي صباح اليوم التالي شرعنا بشن هجومنا الا ان قلة المياه المتيسرة بالمنطقة وشدة الحرارة جعلا القتال في غاية الصعوبة . وقد اتصلت بالقائد فون ساندرس هاتفيا واخبرته بأن تقوياتنا وصلت الى مسافة ٣٠٠ متر فقط عن خطوط الانكليز ولم تستطع التقدم لمسافة اكثر وهي اوهن من ان تستطيع ازاحة العدو من السلط ورجوته ارسال تعزيزات اخرى. عندئذ فقد القائد اعصابه وصرخ بي هاتفا:

« اذا لم تستعد السلط غدا فسأحيلك الى المحكمة العسكرية».

في صباح ٣ مايس ١٩١٨ تقدمت بنفسي على رأس تشكيل هاجم من الرشاشات فأرسل لي العقيد علي فؤاد رسالة يقول فيها بأنه بسبب موقف العتاد وقلة الأرزاق فسوف لن يتمكن من مواصلة القتال الى اليوم التالي. وهكذا تعلق مصير جبهة الاردن بالقتال الحاسم في ذلك اليوم الذي وجب علينا فيه استعادة السلط والا فان العدو سيطوق كل قطعاتنا ثم يقضي عليها قضاء مبرما.

وفي الساعة الخامسة صباحا قمنا بمطاردة الخيالة الانكليزية الضعيفة في قرية السلط وطردناها منها وعندئذ اخبرت القائد فون ساندرس بأن

السلط عادت الى حوزتنا ورجوته بهذه المناسبة انهاء استخدامي وتنسيبي الى منصب آخر.

وعلى الرغم من العطش وشدة حرارة الطقس فقد اسرعت الى العقيد علي فؤاد وشددت على يده مهنئا بالانتصار وشاكرا لحسن بلاء قطعاته الممتازة. اما الانكليز فكان انسحابهم شاملا. وقد قرر الفريق اللنبي الانسحاب لأنه لم تتيسر لديه مقادير كافية من مواد الادامة الضرورية لفرق الخيالة التي وصلت الى السلط وتعرضت فيها الى هجمات قواتنا المتعاقبة.

اصبح اللقاء بالقطعات وقادتها من الامور المحببة الى نفسي بعد تلك الايام العصيبة من القتال المرير الذي لمست فيه قدراتها الرائعة. اما الانكليز فقد عللوا انفسهم بعد الفشل الذريع الذي اصابهم بأن هجومهم كان مجرد حركة لجس النبض. ولكننا كنا نعلم طبيعة ذلك الهجوم الفاشل.

رفض القائد ليمان فون ساندرس طلبي للانتقال من منصبي وازداد بي تمسكا . ثم ما لبث ان زارنا والي دمشق في مقرنا وغمرنا بهداياه الكبيرة والصغيرة كل حسب بلائه. وكانت هداياه من المجوهرات التي تيسرت في اسواق دمشق. كما اتحفني شيخ عنزة بهدية رائعة هي برنس مصنوع من الحرير الابيض ومطرز بخيوط الذهب.

لم يستطع لورنس ممارسة نشاط جدي ضدنا لأنه دأب على توجيه فعاليات مفارز هندسته لتخريب سكة حديد الحجاز طوال اشهر الصيف لكننا كنا قادرين على تصليح التخريبات بسرعة تامة لادامة الاتصال بالفرقة التركية المرابطة في المدينة المنورة . ثم تصدينا لقوات لورنس بتشكيل قوة مرتبة جعلنا مقرها في الطفيلة وكان آمرها العالم الالماني المتخصص بالآثار الآسيوية نيدرماير الذي حقق لنا راحة تامة عندما حدد نشاط لورنس بفعاليات رمزية لم تعد تشغل بالنا حتى عاود اللنبي هجومه.

مع ان الحرب العالمية الاولى اتخذت صفة الحرب الشاملة الا انني

لاحظت حصول تناقض غير معقول في جبهتنا . فالطائرات التي تقوم باستطلاع المنطقة يمكنها تمييز وجود لورنس في اية مضارب عربية يقوم بزيارتها بسهولة تامة لأن اقامته تكون عادة في خيمة بيضاء يسهل اكتشافها بين خيام البدو السوداء. ولكن كان هناك اتفاق ضمني على عدم مهاجمة تلك الخيام بالطائرات .. كما ان الرسائل كان يتم تبادلها بين الامير فيصل والقائد العثماني جمال باشا بصورة منتظمة وتسود بينهما روح المودة الظاهرة وواضح ان الامير فيصل لم يشأ قطع كل الجسور مع العثمانيين. وكان من المعلوم اننا لا يمكن ان نجاري الانكليز لا في سخائهم ببذل المعونات المالية ولا في اعطائهم الوعود المعسولة للعرب. كما ان انور باشا ورفاقه لم يكونوا على استعداد للتخلي عن المدن الاسلامية المقدسة بسهولة . وقد ادركت آنذاك خطل تلك السياسة العثمانية. فالعشائر العربية والزعماء العرب كانوا على اتم استعداد للتعاون مع العثمانيين لقاء حصولهم على وعد من الجانب التركي بمنح البلاد العربية استقلالها التام.

قلقت كثيرا بشأن تأمين حماية مؤخرة جيشنا فتحدثت بهذا الشأن مع القائد ليمان فون ساندرس وكذلك حررت رسالة بهذا المآل الى غراف بيرنستورف رجوته فيها بذل مساعيه من أجل التوصل الى تفاهم مع العرب. ولما ايقنت بأن المحاولات مع اسطنبول لن تتمخض الا عن اجابات سلبية فقد فضلت التحدث مع الشخصيات المهمة بصورة شخصية . ولذا تقدمت بطلب اجازة لزيارة المقر الاعلى للقوات الالمانية في الجبهة الغربية قبل ان يشن الفريق اللنبي تعرض الخريف.

استقللت في مطلع آب ١٩١٨ طائرة من عمان الى دمشق ثم قمت بدوران فوق اليونان ومن هناك الى فرنسا.

لاحظت حصول تغيرات جذرية على الموقف السائد في الجبهة الغربية خلال الفترة التي تركتها فيها قبل اكثر من سنة. فقد زال الامل في قيامنا بهجوم حاسم في ربيع ١٩١٨ ولم يعد أحد في المانيا كلها يفكر بأمكانية تنفيذه . ووصلت الى الجبهة الغربية الفرق الامريكية المتكاملة والمجهزة

بتجهيزات وفيرة ـ والتي طالما تحدثت لحكومتي بشأنها آنفا ـ فاحتلت موضعا متميزا في شاتو ثيري وغيرت مجرى الحركات لصالح الحلفاء. ولاحظت ان الشعور السائد في المقر الاعلى للقوات الالمانية في الجبهة الغربية يشير الى عدم احتمال كسب المانيا للحرب.

استقبلني الفريق الاول فون لودندورف بالساعة الثانية بعدمنتصف الليل. وكانت لهذا الرجل المجهد بأعبائه الجسام طاقة غير طبيعية على العمل الدؤوب. وبعد ان اوجزت له حالة الموقف السائدة في جبهة فلسطين والاحتمالات المتوقعة بقيام اللنبي بهجوم وشيك على جبهتنا قال فون لودندورف بأننا لا يمكننا انقاذ جبهة فلسطين ما لم يقدم الاتراك على التضحية بتنازلات سياسية لصالح العرب. ثم أمر بأرسال برقية الى انور باشا بهذا المعنى. وبعد دقائق قليلة وقع برقيته المتضمنة رجاء القيادة السياسية العثمانية منح العرب حقهم في الاستقلال خدمة للمجهود الحربي المشترك وبذلك كنا قد ادينا واجبنا الانساني ازاء حلفائنا وازاء العرب مع توخينا ازالة الخطر المحدق بجبهة فلسطين.

ما ان وصلت الى المانيا في زيارة قصيرة لأسرتي المقيمة فيها الا وواتتني الاخبار بشروع الفريق اللنبي بهجومه المنتظر على جبهة فلسطين بوقت مبكر. وكانت فرق الخيالة الانكليزية قد اجتاحت مقرنا في الناصرة واخذت القائد ليمان فون ساندرس أسيرا . واستولى المهاجمون ـ ضمن الغنائم التي حصلوا عليها من مقرنا ـ على احدى حقائبي التي لم آخذها معي الى السلط. ووجدوا في تلك الحقيبة بعض رسائلي الشخصية المتضمنة تقديراتي للموقف العام والنهاية المحتملة للحرب من وجهة نظري. ولم تنطو تلك التقديرات على أية اهمية سياسية ولكنها كانت بطبيعة الحال مادة دسمة للدعاية الانكليزية الماكرة التي تذكر مدبروها فعالياتي السابقة في واشنطن وربطوا بينها وبين نشاطي الوظيفي في جبهة فلسطين وحبكوا قصة مرتبة قابلة للتصديق.

عجلت بالعودة الى جبهة فلسطين بأول قطار يتوجه الى الشرق على

الرغم من تأخري اصلا عن الاحداث المهمة. وتضمنت التفاصيل التي علمت بها عن ذلك التعرض قيام اللنبي بعد القصف المدفعي التمهيدي الكثيف المعتاد بالهجوم على جبهتي الجيشين السابع والثامن العثمانيين بينما بقيت جبهة الجيش الرابع سالمة ولربما يعود السبب في ذلك الى عدم نسيان اللنبي للصعوبات التي صادفها عندما سبق له ان هاجم الجيش الرابع في شرق الاردن. والمؤسف ان قيادة الجيش الرابع بقيت بمقرها في السلط حتى بعد انسحاب الجيشين السابع والثامن التام.

ويبدو ان الوقت لم يتسع للقائد ليمان فون ساندرس كي يصدر أوامره بالتعجيل بمسك درعا قبل ان يسيطر عليها لورنس لأن تقاطع الطرق هذا يعتبر حيويا للمحافظة على طرق مواصلات الجيوش العثمانية المقاتلة في جبهة فلسطين.

لم تكن القيادة الالمانية بموقف يتيح لها تكرار ما فعله فون فالكنهاين في تشرين الثاني ١٩١٧ ذلك لأن بقايا الجيشين العثمانيين لم تكن صالحة لانشاء قوة منظمة قادرة على مقاومة العدو نظرا لأن الهجوم الانكليزي كان قاصما للتشكيلات الرئيسة على الرغم من ان بعض التشكيلات التركية قاتلت بشجاعة لا سبيل لانكارها. اما قطعات جيشي ـ الجيش الرابع ـ فقد ذكرها لورنس في كتابه الموسوم ـ اعمدة الحكمة السبعة ـ قائلا:

« كانت الحالة الاستثنائية لانهيار المقاومة التركية هي ثبات الوحدات الالمانية وأجدني هنا للمرة الاولى فخورا بالأعداء الذين قتلوا أخي. فقد كانوا على بعد الفي ميل عن بلادهم وليس لديهم أي أمل وهم في بلادغريبة ويعيشون بموقف تكتنفه الشكوك لدرجة تنهار معها اقوى الأعصاب. اذ تماسكت الوحدات الالمانية فيما بينها وصمدت بوجه السيل الدافق من قواتنا الذي اجتاح القوات التركية وكأن قواتهم سفينة مدرعة لا يهمها تيار البحر. واذا ما تعرضوا للهجوم فانهم يصمدون ويثبتون في مواضعهم ويصبون في الوقت نفسه نيرانا مصوبة ولا يلاحظ المرء عليهم اي اضطراب او صراخ أو أي شعور بالقلق. لقد كانوا في منتهى الروعة».

ما ان وصلت الى اسطنبول الا وكلفني الفريق الاول فون زيكت (الذي عمل لفترة محدودة رئيسا لهيئة الاركان العامة التركية) بمهمة انشاء جبهة دفاعية جديدة على نهر ماريتسا في بلغاريا.

وكانت جبهة بلغاريا قد انهارت هي الأخرى وظهر امامنا خطر جديد يتمثل باحتمال اندفاع قوات الحلفاء من ذلك الاتجاه الى العاصمة اسطنبول. وقد نقلت احدى فرق الاحتياط الالمانية من أوديسا وخصصت قطعات تركية اخرى من اوزون كوپرو وارسلت الى الجبهة الجديدة. وكانت هذه بداية الاجراءات لعملية ميئوس من نجاحها لأن القوات التركية ظهرت عليها امارات انهيار قابليتها على المقاومة . لاسيما وان الشعب التركي قاتل بكل طاقته حتى آخر رمق كما انه برهن على شرف تحالفه معنا بكل وسيلة . ولم تكن غلطتنا عندما لم يكن بمقدورنا اسداء المساعدة الضرورية للشعب التركي الصديق عندما حانت ساعة المحنة التي كتب له ان يشهدها كما شهدناها.

وجثت امبراطورية النمسا والمجر على ركبتيها هي الأخرى بينما كانت كل فرقة المانية متيسرة ضرورية للمحافظة على الجبهة الغربية من الانهيار.

لذلك اضطرت الدولة العثمانية على طلب الهدنة . وسرعان ما عقدت في موندروس وتضمن احد شروطها سحب القوات الالمانية من الجبهات العثمانية مع المحافظة التامة على شرفها باحتفاظها براياتها واسلحتها الخفيفة ريثما يصبح بالامكان ايصالها الى وطنها ولم يعترض الحلفاء على هذه المبادرة التركية الكريمة التي تدل على الوفاء بالعهد.

عندئذ طلب مني الفريق الاول فون زيكت بذل جهودي لنقل بقايا فيلق آسيا الالماني المتحشدة في جبال طوروس بأفضل وسيلة ممكنة الى الوطن. فكان ان سافرت في أواخر تشرين الاول ١٩١٨ بقطار بغداد الى الجنوب والتقيت في قره پونار الواقعة في جبال طوروس بقسم من القوات الالمانية المقصودة.

وتمر بخاطري بهذه المناسبة عبارة لابد منها:

لقد كانت الخدمة العسكرية الحافلة بالنسبة لي مجالا جيدا لمراعاة الجانب الانساني في مختلف الظروف التي صادفتني. فعلى الرغم من اتسامها بالتغير السريع وتميزها بالسرعة في الحركة والحاجة الدائمة للقوة النارية والقوة البشرية معا وعلى الرغم من الألم الناتج عن التعرض للخسائر بالارواح العزيزة على نفوسنا من اصدقائنا ورفاقنا واحبائنا الذين تربطنا بهم وشائج عدة. فان الخدمة العسكرية تتيح للمرء مجالا رائعا لتكوين الصداقات الوطيدة . اما بالنسبة لي في تلك الفترة فقد تحول مرافقي الثمين في اغلب المعارك بالجبهة الغربية هانس ڤيدماير من العمل في الاركان الى الطيران واصبح طيارا مرموقا. اما صديقي النقيب غيورتنر فقد ساعدني في العمل السياسي بعد الحرب مساعدة مشكورة مما حدى بي لاختياره وزيرا للعدل في الوزارة التي الفتها فيما بعد.

حل الفريق مصطفى كمال باشا بمحل المشير ليمان فون ساندرس قائدا عاما للقوات التركية. وقد تحريت عنه في اطنه فلما قابلته لآخر مرة وعدني باسداء معونته لتسهيل مهمتي في نقل فيلق آسيا الالماني. وتقرر نقل قطعات ذلك الفيلق الى معسكر مودا القريب من اسطنبول لكي يسهل نقلها من هناك الى المانيا بحرا . وقد ذكر لي مصطفى كمال آنذاك بأنه ينظر الى مصير بلاده بمنظار قاتم. وقال انه يرى بأن انقاذ بلاده يتطلب جهدا يفوق طاقة البشر . وكان ان قام مصطفى كمال نفسه بهذا الجهد بجدارة.

في تلك الايام التي قضيتها في قره پونار سرت موجة من الاشاعات المؤسفة بيننا وكان مفادها انتهاء الحرب لغير صالح المانيا. وهكذا انتكست دولة الامبراطور الفخور. ثم تتابعت الاخبار المؤلمة. فقد تنازل الامبراطور غليوم الثاني عن عرشه واختار هولندا منفى له ولأسرته. كما نشبت اضطرابات في طول البلاد وعرضها وظهرت رايات حمراء تنذر بوجود فئات شيوعية تصدى لها خصوم اشداء. وكان لهذه الانباء ما يدعو كل فرد منا لتحديد موقفه للحفاظ على الوطن الذي تعصف به الاحداث. لاسيما واننا كنا نحرص على التمسك بما آمنا به طوال اجيال عديدة وما قاتلنا من اجله

ونخشى على وطننا من الدمار المحدق به من كل جانب[١٤].

ظهرت اول بوادر الشقاق بين رجالنا خلال وجودنا بمعسكر مودا. وكان المشير ليمان فون ساندرس قد اتخذ لنفسه مسكنا في جزيرة پرينكيپو ودأب على زيارة معسكر مودا في كل يوم بصورة منتظمة. ولما تواترت الينا الاخبار بأن بعض الثوار في المانيا اخذوا يقتفون آثار ثورة موسكو وصاروا يدعون العمال والجنود للالتحاق بهم وجد ليمان فون ساندرس ان من الملائم له جعل نفسه داعية لهذه الافكار في معسكرنا. لكن فعلته هذه المنافية للضبط لابد ان تعطي للحلفاء ذريعة للتنصل من معاملتنا وفق شروط الهدنة التي كسبها الاتراك لصالحنا والقاء القبض علينا جميعا واعتبارنا اسرى حرب. وعليه فقد تحادثنا (نحن الضباط الاقدمين في المعسكر) بهذا الشأن وكان أن كلفني رفاقي بمواجهة المشير واخباره بوجوب التخلي عن ممارسة القيادة والعودة الى المانيا.

كانت محادثتي مع ليمان فون ساندرس حامية الى ابعد الحدود. ثم اجبرته على الخضوع لفحص طبيب الجيش الذي قرر ان حالته الصحية تستدعي اقالته من منصبه الرفيع. ومع ذلك فقد وجدت ان من الواجب مصارحته بصورة مباشرة فقلت له:

« اذا رغبت في البقاء. فأنني سأجد نفسي مضطرا ــ بصفتي اقدم ضابط ركن في هذا المعسكر ــ على عرض تفاصيل هذه القضية على المشير فون هندنبورغ وحيث ان الاتصال معه يخضع لرقابة الحلفاء فسيعلمون بتفاصيل الواقعة بكل تأكيد».

عندئذ طلب مني ليمان منحه فرصة ساعة واحدة للتفكير بموقفه واتخاذ القرار المناسب . وبعد قليل وصل رئيس المحكمة العسكرية لفيلق آسيا الى

(١٤) عاشت المانيا بعد الحرب العالمية الاولى فترة من الفوضى نتيجة لضعف حكومة (ڤايمار) التي اعقبت العهد الامبراطوري ولعدم استقرار حدودها مع بولندا ونشوب قتالات متواصلة بين مختلف المجموعات السياسية المسلحة . ــ المترجم ــ

معسكر مودا واخبرني بأنه تلقى أمرا من المشير بتوقيفي ومحاكمتي بجريرة الاهمال في مقاتلة العدو بالميدان وقال انه سيتخذ تدابيره لتأليف محكمة الميدان لمحاكمتي بموجب تلك التهمة. وهكذا طفح الكيل. فقلت للحاكم العسكري:

« قل للمشير بأنني جاهز للمثول امام أية محكمة عسكرية ولكن في الوطن وليس هنا. ولما لم يستفد من الساعة المحددة بناء على طلبه ولأنه تجاوز مفاهيم الضبط وشرف القيادة ازاء القطعات ونحن لا نزال تحت رحمة العدو فأجدني مضطرا للكتابة بهذا الشأن للمشير فون هندنبورغ بصورة شخصية».

في ليلة ١ كانون الثاني ١٩١٩ كان ميناء اسطنبول مكتظاً بسفن الحلفاء الحربية وكانت سفينة المستشفى (جيروزاليم) على وشك الاقلاع الى احد الموانيء الايطالية وعلى ظهرها عدد من جرحى الحلفاء تمكنت من التسلل اليها مع مرافقي المريض بالملاريا آنذاك الملازم الاول غراف شپي مستترين بظلمة الليل وانزوينا في احدى قاعات العفش . وبعد ايام قلائل نزلنا في ميناء سپيزيا. وقد بدت ايطاليا في حالة من الفوضى رغم انها تعتبر من الدول المنتصرة علينا. وتمكنا من السفر الى الحدود السويسرية دون ان نفصح لأحد عن هويتنا ثم انتقلنا من سويسرا الى ميونيخ فوصلناها في ٦ كانون الثاني ١٩١٩ .

شهدت معالم الفوضى بأجلى معانيها في ميونيخ التي انتشرت فيها زمر من الفوضويين الذين كانوا يدعون الجنود للتمرد على كل المفاهيم السائدة. وقد تعرضت انا هناك لمحاولة وقحة لتمزيق كتافية سترتي العسكرية فشعرت بامتعاض وخيبة امل تفوق الوصف. لكنني ادركت بأن بلادي برمتها تتعرض لما هو أسوأ. ولما كان المشير فون هندنبورغ قد نقل مقره الى كولبيرغ فقد اسرعت بالذهاب الى هناك. وفي صباح يوم بارد من ايام كانون الثاني ١٩١٩ مثلت أمام المشير .

ظهر امامي ذلك الرجل الكبير الجرم والجامد الملامح وكأنه لم يتغير ابدا منذ ان رأيته آخر مرة في فرنسا. لكنني لاحظت ان وجه الرجل تكسوه مسحة خفيفة من الشحوب لم اكن قد لاحظتها عليه من قبل.

اخبرت المشير بتفاصيل انهيار الامبراطورية العثمانية وآخر فعالياتنافي تركيا وبالواقعة التي حصلت لي مع المشير ليمان فون ساندرس عندما قلت له:

« سيدي المشير . انني حاضر للمثول امام أية محكمة عسكرية ولهذا السبب جئت الى هنا. فأنا حريص على المحافظة على نظافة السلاح الالماني حتى في تلك البلاد البعيدة. الا انني لم إقبل بأتيان اعمال فوضوية يقوم بها عسكريون المان خارج الوطن. وانني أرجوكم اجراء التحقيق بهذه القضية».

أجابني المشير وعلى وجهه ابتسامة ممضة:

« انني اعرف انتهازية المشير ليمان فون ساندرس وقد اعطيتني الحلقة المفقودة بالنسبة لموقفه المذبذب. ولا ارى ما يوجب التحقيق ولن تحال لأية محكمة وارجو ان تعتبر القضية منتهية».

ثم اردف قائلا بنبرة ملؤها الألم:

« من المؤسف انني لن استطيع استقدام المشير ليمان فون ساندرس. وآمل ان يجد ذلك العجوز لنفسه وطناً آخر».

اختتمنا محادثتنا على هذه الصورة المؤلمة التي طبعت في ذاكرتي آثارا عميقة من الأسى بسبب حالة بلادي المؤسفة التي تنذر بالخطر بعد ان خسرت الحرب الضروس .

تفاقمت نشاطات اللجان الثورية التي ألفها الشيوعيون ببرلين وفي المدن الالمانية الاخرى وبرزت فعاليات ليبكنشت وروزا لوكسمبورغ وآيسنر وغيرهم عندما توصلوا الى تضامن مع الحزب الاشتراكي الديموقراطي الذي



كان يتزعمه ايبرت ونوسكه[١٥] فأوشكوا على الوصول للسلطة • وقد انطوى ظهور البحارة الالمان الحمر وقيامهم بمقاتلة الحرس الملكي من أجل الاستيلاء على القصر الامبراطوري على معنى عميق مفاده محاكاة الثوار الالمـان للثوار البولشفيك الذين قام بحارتهم بدور رائد في ثورة عام ١٩١٧ التي شب أوارها من سان بطرسبورغ[١٦] •

لا أود انهاء حديثي عن هذه الفترة دون القـاء نظرة خاطفة على الموقف الدولي السائد في الوقت الذي كانت تجري به مباحثـات اقرار السلام • والمؤسف هو ان الكثير من القرارات الحاسمة كانت قد اتخذت منذ زمن الحرب وتمسك بها المنتصرون رغم انها لم تثبت اهميتها او الضرورة الملحة للتمسك بها •

ان اقامة السلام باهمال مشاعر طرف من اطرافـه لصالح الطرف الآخر لابد أن ينطوي على وضع بذرة نشوب حرب جديدة • ولذا فان وضع الاسس الرصينة للسلام يتطلب مشاركة رجال منصفين يتميزون بدرجة عالية من حب الانصاف • اما تجاهل معاناة الشعوب فلن يكون حصاده الا الرغبة المتزايدة في الثأر والانتقام لكي تزال آثار الانتصار العسكري وتعاد الاجزاء المقتطعة من الوطن قسرا في حالة فشل الوسائل السياسية في استعادتها • وأنا لا القي هذا القول جزافا وانما هو الحقيقة بعينها فهذه الاجراءات هي ردود الفعل الطبيعية لمن ينال وطنه الحيف ويجد نفسه في موقع رجل الدولة •

وقد يكون الغرض من شن حرب ما تحقيق سـلام افضـل • الا ان ما تمخضت عنه الحرب العالمية الاولى هو فقدان فرص اقامة سـلام حقيقي • ولربما تنطبق هذه الحقيقة الى حد بعيد على الحرب العالميـة الثانيـة أيضا •

---

(١٥) صار ايبرت أول رئيس للجمهورية الالمانية بعد انهيار حكم آل هوهنتسولرن وتنازل الامبراطور غليوم الثاني عن العرش كما صار نوسكه وزيرا للدفاع في عهد حكومة ڤايمار التي سبقت تولي المشير هندنبورغ لرئاسـة الجمهورية الالمانية .

(١٦) هي لينينغراد الحالية التي كانت عاصمة القياصرة الروس.

ـ المترجم ـ

ولكننا على الاقل يمكننا التأكيد بأن هـذه الغلطة الفاحشة قد تم تشخيصها وبالتالي فقد أصبح من الممكن اتخاذ القرارات المؤدية لكسب السلام الحقيقي.

تحاول جميع الاطراف (في الحروب التي تتحالف بهـا عدة دول ضد مجموعة أخرى) كسب حلفاء جدد من أجل تحسين موقعها وادراك أهدافها النهائية في الحرب . وهذا معناه ان على رجل الدولة المشتركة بالحرب ان يجعل هدف بلاده من الحرب نصب عينه دون ان يفرط به . وفي حرب ١٩١٤ دخلت جميع الدول الكبرى للحرب من أجل الحصول على ثقل اكبر في توازن القوى في قارة أوربا . ولكن لا دول المعاهدة المركزية ولا دول الحلفاء بقيت حريصة على تحقيق هذا الهدف . وهكذا رفض الطرفان أية محاولة لانهـاء الحرب بالتوصل الى شروط سهلة لاقرار السلام .

كانت اجابة دول المعاهدة المركزية لنداء الرئيس الامريكي ودرو ويلسون في ١٢ كانون الاول ١٩١٦ الموجهة لكلا الطرفين قد اعتبرت من قبل الحلفاء وسيلة دعائية مارسها الالمان بقصد التشهير بنواياهم . وكانت غلطة الساسة الالمان هي انهم لم يتجاوبوا مع نداءات السلام التي اطلقها الرئيس الامريكي ودرو ويلسون والبابا بينيدكت الخامس عشر بصورة علنية لكي يوضحوا للعالم أجمع مراحل سير الحوادث دون ان تنالهم المؤسسات الدعائية المعادية بالتشهير. وتكمن مأساة المانيا آنذاك في عدم توفر قيادة سياسية حكيمة تدير دفه الدولة الالمانية وكانت حصيلة ذلك ان اضطرت القيادة العسكرية الالمانية على التدخل بتحديد الخطوط العامة للسياسة . الا ان القيادة العسكرية الالمانية لم تحاول ابدا ايجاد أي حل لاقرار السلام لانها اعتبرت القيـام بهذه المحاولة دليلا على الوهن . لكنها كانت تظهر الكثير من الحماس بعد كل نجاح تحققه في الميدان.

وتعتبر معاهدة السلام المعقودة في برست ليتوفسك[17] مثالا جيدا لانهاء

(١٧) هي المعاهدة التي عقدت بين المانيا وروسيا بعد نشوب الثورة الشيوعية في عام ١٩١٧ وانهيت بموجبهـا الحرب بين الدولتين وبذلك تفرغ الجيش الالماني لمقاتلة الحلفاء الغربيين . ـ المترجم ـ

الحرب حتى عندما يلاحظ المرء ان تلك المعاهدة لم تحقق سوى اختتام جزئي للحرب •

والذي يعرف التأريخ الالماني جيدا لابد أن يذكر الصراع الذي خاضه بسمارك ضد القيادة العسكرية الالمانية • وكان لشخصيته المسيطرة أبعد الاثر في اعطاء الصدارة للقيادة السياسية على القيادة العسكرية على الرغم من انتصار الجيش البروسي في الحروب التي خاضتها الدولة الالمانية[18] •

وعندما اجرى مجلس النواب الالماني تحقيقا لمعرفة أسباب اندحار المانيا في الحرب العالمية الاولى قال الفريق الاول غروينر الذي صار فيما بعد وزيرا للحربية في عهد جمهورية ڤايمار :

« ان العبقرية العسكرية قاتلت ضد العبقرية السياسية•او بعبارة اخرى، قاتلت هيئة الاركان الالمانية ضد البرلمان الانكليزي • وما ذلك لان الروح العسكرية تسود على المانيا ــ وبِبساطة تامة ــ لان المانيا ينقصها وجود نظام سياسي متقن كالنظام السياسي الانكليزي » •

ولربما يعاني الحلفاء من أزمة معكوسة • ذلك لان نظامهم السياسي لابد أن يؤثر على حرية العمل العسكري او يقلل من ابراز القدرات العسكرية في الميدان •

عندما طرح الرئيس الامريكي ودرو ويلسون على مجلس الشيوخ الامريكي في ١١ شباط ١٩١٨ أسس انهاء الصراع الناشب في العالم آنذاك لم يكن على علم بالاتفاقيات السرية التي كان الحلفاء قد ابرموها فيما بينهم • وكان ما قاله ويلسون :

(١٨) انتصر الجيش البروسي على الدانمرك فاستعاد مقاطعتي شلزويك وهولشتاين وانتصر على النمسا في سبيل تحقيق وحدة الولايات الالمانية الجنوبية ثم انتصر على فرنسا في حرب السبعين فاستعاد مقاطعتي الالزاس واللورين وكان قائده فون مولتكه الكبير •

ــ المترجم ــ

« ينبغي ألا تتمخض هذه الحرب عن ضم أية أقاليم او فرض الغرامات أو أية اجراءات عقابية اخرى • كما يقتضي الا تتعرض الشعوب نتيجة لقرارات مؤتمر دولي أو اتفاقيات معقودة بين الدول المنتصرة للانتقاص من سيادتها أو تحميلها أية مسؤوليات قسرية • ويجب احترام الآمال الوطنية للشعوب • وان اختيار رؤساء الدول والحكومات ينبغي ان يتم نتيجة لقرارات شعوب تلك الاقطار وحدها » •

كانت الحكومة البريطانية قد اشعرت الحكومة الروسية منذ تشرين الثاني ١٩١٤ بأنها لا تعترض أبدا على تقدم الروس نحو اسطنبول واحتلالهم لمضيق الدردنيل •

كما عقدت اتفاقية سرية بين بريطانيا واليابان بقصد اطلاق يد الاخيرة للاستحواذ على ممتلكات المانيا في المحيط الهادي وفي قارة آسيا • ولعل الامبراطورية البريطانية أرادت حماية ظهرها من حيث اتاحت لليابان فرصة ازاحة النفوذ الاوربي عن بعض الاقطار الآسيوية •

ومنذ عام ١٩١٥ تم اقتسام اقاليم الدولة العثمانية • فاعطيت لروسيا أقاليم الشمال الشرقي وهي ولايات ارضروم وطرابزون ووان وبتليس • واعطيت لفرنسا أقاليم سوريا وولاية أطنة وجنوب شرق الاناضول • وحصلت بريطانيا على جنوب العراق ومعه مدينة بغداد وميناءي حيفا وعكا السوريين • ثم عدلت هذه الاتفاقية في مايس ١٩١٦ عندما عقدت معاهدة سايكس بيكو باعطاء فرنسا اقليم سوريا برمته • ولما انضمت ايطاليا الى معسكر الحلفاء ودخلت الحرب في ٢٦ نيسان ١٩١٥ اعطيت وعودا بمنحها اقاليم ترتينو وايتشتال وتريست وايسترين ودالماسيا وفالونا وساسينو وجزائر الدوديكانيز التركية• ولما أبدت ايطاليا عدم قناعتها بهذه الغنائم عقدت بعدئذ اتفاقية سانت جين دي موران التي اعطيت بموجبها وعدا بمنحها سميرنا أيضا • وفي تشرين الثاني من العام نفسه اصدرت بريطانيا وعد بلفور الذي منح فلسطين لليهود بجعلها وطنا قوميا لهم • وقد صرح لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا امام لجنة فلسطين الملكية فيما بعد بأن اصدار هذا الوعد قد تم « لأسباب دعائية » لان الحلفاء

وجدوا ان من الواجب عليهم الحصول على اسناد اليهودية العالمية لانهم شعروا بتهديد موقفهم العسكري آنذاك • وكانت حصيلة ذلك الوعد الغادر ان أصاب العرب سكان فلسطين الاصليين حيف رهيب فعانوا من نتائجه المفجعة واصبحت عملية تهجير اليهود الى فلسطين عمليـــة مفعمـــة بالقسوة والعنف على حساب العرب •

وكانت حصيلة السياسة الاوربية الداعية للتوازن الدولي بالقضاء على نفوذ دول المعاهدة المركزية ان قام في اوربا سلام قلق ما لبث ان عصف باوربا بعد فترة وجيزة • فقد أدت مثالية ويلسون وعدم معرفتـه لطبيعة الاوربيين واتفاقياتهم السرية الى القضاء على امبراطورية النمسا والمجر[١٩] •

وظهرت عدة قوميات صغيرة متحمسة خاضت صراعات لا نهاية لها في طول اوربا وعرضها • كما جردت المانيا من السلاح • وجرت ممارســـة سياســة اقتصادية ظاهرها الاصلاح لكنها أدت الى تدمير الاقتصاد وافلاس الشركات وتفشي البطالة• وامعن الحلفاء في اذلال المانيا بفرض التعويضات الباهظة عليها• وتعالت اصوات بعض المؤرخين من بلدان الحلفاء يطالبون بتفتيت الوحــدة الالمانية التي أقامها بسمارك • ولما خسرت المانيا الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥ عاود الحلفاء فكرتهم القديمة لتمزيق المانيا وتمثلوا ما قاله تاليران عندما سمع بنبأ وفاة نابليون :

« انها ليست حادثة تأريخية وانما هي حادثة عابرة » •

لكننا لا يمكننا مقارنة السياسة الهزيلة التي سار عليها ساسة اوربا بعــد الحرب العالمية الاولى بالسياسة الحكيمة التي وضع بها زعماء اوربا قبل مائة عام أسس السلام المكين في مؤتمر ڤينا • ولو مارس المنتصرون آنذاك سياسة قسرية ضد فرنسا بعد اندحار نابليون باحتلال الاراضي الفرنسية والاستحواذ على بعض غنائم الحرب لما أقرت بنود معاهدة آخن الموقعة في ٨ تشرين الاول

---

(١٩) قسمت امبراطورية النمسا والمجر بعد الحرب العالمية الاولى الى عدة دول فتشكلت منها جمهورية النمسا وجمهورية تشيكوسلوفاكيا ومملكــة المجــر ومملكة يوغسلافيا . — المترجم —

١٨١٨ ـ التي تم توقيعها بعد انتهاء الحرب بثلاث سنوات ـ ولجعلت فرنسا مقسمة تحت سيطرة الدول الاربع المنتصرة وهي روســـيا والنمسا والمجر وبريطانيا وبروسيا •

ان النتائج المعنوية والاقتصادية التي ترتبت على معاهدة فرساي المجحفة عصفت بحكومة ڤايمار الالمانية الهزيلة التي بقيت معتمدة على معاونة الدول الكبرى • وفي عام ١٩٣٢ جعلني القدر بمنصب يتيح لي امكانية التوصل الى تفاهم اوربي يكون أساسا لعهد جديد من الوئام • الا ان النير المحكم التطويق على اعناقنا كان السبب المباشر في ظهور ادولف هتلر ووصوله الى سدة الحكم•

الفصل الثامن

عَودَةُ جُنديٍّ للحَيَاةِ المَدَنيَّة



الجانب الجديد للحياة . مشكلات اجتماعيـــة . السلام المفروض . سنين الثورة . انهيار السلطة . الحياة البرلمانية. دستور ڤايمار. الديموقراطية الشكلية . هندنبورغ رئيسا للجمهورية .

يعود العالم الذي عرفته واحببته للماضي . فجميع المفاهيم التي خدمناها وآمنا بها وقاتلنا في سبيلها أصبحت الآن عديمـــة المعنى . فالملكية والعرش البروسي اللذين علقا بأذهاننا لدرجة لا سبيل لنسيانهما معها انقرضا وحلت محلهما الجمهورية التي لم ندرك مفاهيمها . ووجدنا بلادنا التي تلقت ضربة في الصميم وأصابها الخراب وقد تناوشتها الأوضار من كل جانب . ونظرا لعاطفتي المشدودة للنظام الملكي وولائي المطلق له فقد تحيرت في تلك الفترة واخذت اتسائل مع نفسي . ما الذي ينبغي عليّ القيام به ؟ وما الذي يمكن ان افعله؟ لقد بذلنا قصارى جهودنا لخدمة وطننا . وكانت هذه المهمة الاولى قد صادفها سوء الحظ وهي اجدر المهمات بالخدمة .

وقد توفرت لدينا امكانات كثيرة آنذاك وكان من الواضح بالنسبة لي بأن بمقدور كل فرد منا ـ نحن الضباط الاقدمين ـ اسداء خدمات جليلة للوطن • وبعد ان امعنت النظر بموقفي وامكاناتي وجدت ان المجال السياسي هو المجال المناسب لفعالياتي المقبلة• ولكي اشرع بنشاطي السياسي فقد مهدت لذلك باستعراض افكاري المتعلقة بالسياسة العالمية واخذت اوضح لنفسي المعالم المحددة للنهج السياسي المناسب•

وكنا قد تعلمنا خلال تلقيننا المفاهيم العسكرية كيفية الانصات لوجهات نظر الآخرين ولكننا لم يسمح لنا بممارسة النشاط السياسي• ذلك لأن معلمينا حرصوا على اقامة علاقة ولاء وطيدة للعرش تنامت مع مرور السنين حتى جعلت افكارنا مبنية على اسس محافظة • وفجأة تغير كل شيء•

فالجمهورية ليس لديها اي بديل لتقاليدنا لأن الجميع احرار ولهم الحق باختيار الافكار المناسبة لهم•

وكان ان اخترت ما يناسبني وهو ما سآتي الى وصفه باسهاب• وكان من الاختيارات الصعبة بسبب خواء تعليمي الاساسي من هذه الناحية بينما وجب على خوض ميدان السياسة معتمدا على تصوراتي واجتهادي لكي احدد بموجب ذلك معالم نشاطي لبقية حياتي• فأنا محافظ بحكم الوراثة وطبيعة المهنة ولكنني لم اكن ميال لحزب المحافظين الذي تم تأسيسه قبل نشوب الحرب لأنني وجدت بأن من الخطأ مساهمة المحافظين الرجعيين مع التقدميين في حكومة محافظة• فالانسان المحافظ لابد ان يكون تقدميا على الدوام• ذلك لأن التقاليد والمباديء تعتبر على الدوام من الأمور الرائعة• ولكن يقتضي الا تكون حائلا في سبيل التقدم الضروري والا يكون معوقا للتطور المستمر نحو الافضل• فمنذ بدء الثورة الصناعية نشب صراع رهيب تجلت معالمه باضطراد وتفاقم شره بسرعة متزايدة خلال النصف الاول من هذا القرن نتيجة للتقدم التقني المضطرد الذي ادى الى التخلي عن اعداد متزايدة من العمال لتحل الآلة محلهم• وكان ان ظهرت مع الثورة الصناعية تجمعات العمال ونقاباتهم ثم برزت التناقضات الشديدة بين اصحاب رؤوس الاموال

وعمالهم وظهرت في تلك الفترة الحركات الماركسية المثيرة للعمال والتي تعهدت بتنظيم الصراع الجماعي باطلاق الشعار المشهور:

(يا عمال العالم ، اتحدوا)

ثم برزت فعاليات ثورية منظمة لتقويض النظام الرأسمالي في العالم. وكان ان ارتبطت طريقة التفكير الآلي المشترك بالنظرة المجردة للمادية التي حاولت اعادة النظر بالأسس التأريخية للعقيدة المسيحية ذات المبادىء الوطيدة التي يمتد عمرها الى الفي سنة بقصد ازاحتها عن اوربا. ولما استتب الامر للنظام الشيوعي في موسكو احتفل الشيوعيون بانتصارهم على الجزء الشرقي من العالم. ومما لا شك فيه ان ظهور اول دولة ملحدة في العصر الحديث هدد بقية اجزاء العالم بالعدوى. بينما استمرت هذه الدولة على اتخاذ الكثير من الصنائع بدعوى «النضال من أجل الطبقة العاملة». وتساءلت مع نفسي آنذاك:

« هل سنلجأ لاستخدام القوة من اجل انهاء هذه القضية ؟»

لقد آمنا طوال الف سنة بالولاء للدولة الملكية معتقدين انها تستمد حقها في الحكم من الله سبحانه وتعالى. وكنا ندين بالولاء للاباطرة وللملوك بصورة مطلقة وكنا نعتقد بأن الثورة عليهم لا تبرر خيانة الوطن. ذلك لأن عبارة (خيانة الوطن) لم تكن موجودة في قواميسنا . ولعل أجلى تدليل على ما اقوله هو ما حدث في ٢٠ تموز ١٩٤٤[١]. وعليه فقد وجب علينا محاولة الربط بين مفاهيم المحافظين والتمسك بالمبادىء المسيحية من اجل التوصل الى دورهم في الجمهورية التي ولدت حديثا والتوفيق بين آرائهم الراسخه والأسس الموضوعة لسياسة الدولة.

---

(١) اشترك في محاولة اغتيال هتلر الفاشلة في ٢٠ تموز ١٩٤٤ عدد من المحافظين والاشتراكيين والشيوعيين وكان المدبر الاول والمنفذ للمحاولة العقيد الركن غراف شتاوفنبرغ ولكن أولئك المتآمرين لم يثبت تعاونهم مع اية دولة ولما فشلت المحاولة القي القبض على اغلبهم واعدموا بينما انتحر بعض المتآمرين الكبار كالمشير روميل ـ الذي انتحر قسراً ـ والمشير فون كلوغة واعدم المشير فون ڤيتزليبن والفريق الاول بيك والعقيد الركن غراف شتاوفنبرغ وغيرهم.
ـ المترجم ـ

ويبدو ان الجمهورية الالمانية التي تم انشاؤها في ڤايمـار عام ١٩١٩ يمكن ان تعتبر نموذجا مثاليا للديموقراطية الغربيـة. فالتفكير المحـافظ يتناقض مع البند الاول من وثيقة قيام تلك الجمهورية . ذلك لأن جان جاك روسو[٢] سبق ان قال مأثورته المعروفة:

« تنبثق جميع سلطات الدولة من الشعب»

وهذه العبارة مناقضة لتعاليم الكنيسة الرومية ـ الكاثوليكية . ولو كانت كل القوى والسلطات العائدة للدولة ولممثليها لكان كل مفهوم من مفاهيمها القانونية سهل الانحراف من اجل تحقيق المصالح الذاتية لأى فرد في ذلك المجتمع. وهذا غير صحيح لأن حقوق الدولة تنبثق من الحق الطبيعي الذي قال عنه الشاعر انه يولد معنا.

وقد سبق ان قال دنيس وليام بروغان العالم المختص بقوانين الدولة والاستاذ في جامعة كيمبرج:

« ان التسامح والشك هما علامتا الديموقراطية الحرة للشعب».

وانني لأجـد ان اشتراكيينـا المتزمتين السابقين لا هم بالمتشككين ولا هم بالمتسامحين خصوصا عندما يتعلق الامر بالمسائل الثقافية للقسـم الكاثوليكي من المانيا.

ومنذ صدور كتاب «العقد الاجتماعي» الذي اعتمدته الثورة الفرنسية دليلا لها والكتاب الآخر الذي يعتبر حفيدا له واعني به «البيان الشيوعي» تحول مفهوم (الوقف) الى مفهوم (الهبة) وتم تنفيـذ هذه البدعة بمنتهى السرعة.

---

(٢) مفكر فرنسي عاش قبل عهد الثورة الفرنسية وقد تأثرت بأفكاره السياسية وجعلت كتابه (العقد الاجتماعي) كتابها الاول رغم انه لم يشهد عهد الثورة.
ـ المترجم ـ

وفي خضم هذه العلاقة المتوترة الى درجة رهيبة بين السلطة والاستقلال وبين الاحترام والتبجيل والسطوة تظهر فلسفة الحقيقة المجردة كما وصفها نيتشه[٣] بقوله:

« ان الجماهير او بالأحرى كل الجماهير تسعى في اول الامر لاقامة اودها ثم تسعى بعدئذ بكل حماس نحو الثروة والسلطة».

أفليست هذه الرغبة اذا من اشد الحوافز تأثيرا على الناس؟

ان الشيوعية تعمل بكل جهودها لتقويض سلطة الدولة غير الماركسية من اجل الاستحواذ على السلطة وتحويلها الى سلطة جماعية تتوائم مع نظمها لكنها تحرم الفرد من استقلاليته في ظل النظام الشيوعي. بينما يؤدي أي تقليص لاستقلالية الفرد الى تقليل شعوره بالمسؤولية وهذه نتيجة طبيعية مؤكدة. وعليه فان تمتع الفرد باستقلاليته في ظل النظام يعتبر من الامور البالغة الاهمية. وهذه القضية يمكن تبسيطها عندما يتم اللجوء للمبادىء المسيحية في سبيل معالجة المشكلات الاشتراكية القائمة في المجتمع.

وعندما قدر لي ان تكون زوجتي من اسرة صناعية معروفة اصبح من الواضح لي بمرور الزمن حجم وطبيعة المشكلات الاشتراكية التي تتعرض لها الصناعة في عصرنا. فقد اصبحت ميتلاخ من المدن الصناعية الكبرى في منطقة السار. وكانت عدة اجيال من الأسرة التي ناسبتها قد اقامت مشاريع لانتاج الخزف في منطقة اقامتها الأصلية ــ اقليم السار ــ وفي اجزاء المانيا الاخرى وكذلك في بلجيكا وفرنسا.

ولقد ادرك جد زوجتي وأبوها فون بوخ غالهاو (الذي عمل مستشارا خاصا في الدولة) بمقدرتهما وسبق نظرهما ما ستؤول اليه المشكلات الرأسمالية والاقتصادية من شر ازداد تفاقمه بمرور الزمن . كما انهما ادركا منذ ذلك الحين بأن القضاء على الحركات الاشتراكية المتطرفة لا يتم الا بعدم الاكتفاء بمنح العمال اجور العمل وحدها وانما باشراكهم في أرباح المشاريع

(٣) مفكر الماني كان يعتقد ان حافز الرغبة في السيطرة والحكم هو الحافز الانساني الاساسي . ــ المترجم ـ

التي يعملون فيها وكذلك بتقديم الخدمات الانسانية الضرورية لهم من أجل ارضائهم. وقد وضعا افكارهما هذه موضع التنفيذ بتوسيع الخدمات الاجتماعية للعمال فأسسا ـ بالاضافة للاجور السخية التي كانا يدفعانها للعمال ـ محلات جيدة لسكناهم ومستشفيات خاصة للعمال وصناديق للتقاعد والضمان بحيث تطمئن لاجراءاتهما نفوس العمال الذين تأكدوا من تدابير الاهتمام بهم وبعوائلهم عند بلوغهم سن التقاعد وتجاوزت تلك الاهتمامات عمال المشاريع التي تديرها الأسرة الى الاهتمام بعوائلهم لدرجة ملحوظة بحيث يمكن اعتبار ذلك الاهتمام نموذجيا وحسبما جاء بوصايا البابا ليو الثالث عشر الذي دعى للسلام الاجتماعي ووضع اسسه القويمة.

وغالبا ما كنت اسمع صهري يتذمر من قيام علاقة واهية بين العمال وارباب العمل بسبب جشع اصحاب رؤوس الاموال واهمالهم للعمال الى حد التسيب. ولربما يعود ذلك الاهمال في المؤسسات الصناعية الكبرى المشتركة الى عدم تميز رب العمل الذي يشعر بالمسؤولية المباشرة بسبب كثرة عدد المساهمين في الملكية. ولكن الواضح الآن هو ان اهم المشكلات القائمة بين ارباب الاعمال وعمالهم هي عدم شعور ارباب الاعمال بمسؤولياتهم الكاملة ازاء العمال ووجوب رعايتهم لهم من جميع الوجوه. وكانت حصيلة ملحوظاتي هذه ان اعتبرت نموذج المشاريع الصناعية لأسرة زوجتي في ميتلاخ الوسيلة المناسبة لمعالجة مشكلات العمال عند ممارستي للنشاط السياسي. وكان ان طبقت الافكار التي نفذها انسبائي في مشاريعهم باعتبارها نبراسا للعمل الذي قمت به خلال معالجتي لقضايا العمال بعد الحرب مباشرة والى ان تسنمت منصب المستشارية[٤] في المانيا حيث لم احاول تجنب اتخاذ القرارات الحاسمة وانما وضعت الافكار التي اعتقدت انها صائبة موضع التنفيذ باستحصال موافقات البرلمان على اقرارها.

---

(٤) يقابل منصب المستشار في المانيا والنمسا منصب رئيس الوزراء .
ـ المترجم ـ

لقد كان السبب في لجوئي الى هذه الوسيلة مدعاة للأسف، ذلك لأن ارضاء الناس كلهم غاية لا تدرك . فكيف اذا كان الامر متعلقا برضى الشعب الالماني كله وهو الشعب الذي تعلم الطاعة المطلقة للملوك طوال اكثر من الف عام ووجد نفسه بين عشية وضحاها وقد اخذت الدولة ـ ممثلة بالحكومة ـ تعود لرأيه في كل صغيرة وكبيرة لكن هذا الاسلوب هو ما تفرضه الديموقراطية، وتحضرني بهذه المناسبة عبارة طريفة اطلقها امريكي رشح نفسه عن برودواي في عام ١٩٤٥ مفادها:

« اجعل العالم مناسبا لنهجك الديموقراطي»

ولما قضى المنتصرون على النظام الالماني وخصائصه المتميزة بلا رحمة حاولوا ايجاد مفاهيم جديدة تضمن لهم هدوء الشعب الالماني وتوقفه عن مسايرة ركب التطور والركون الى السكينة لكي يحكموا سيطرتهم على اوربا، عندئذ برزت للمرة الاولى في التأريخ الحديث مفاهيم اوجدها المنتصرون لاقرار اسس السلام الذي ارادوه واتخذت الصفة (الشاملة) ففرضوا العقوبات والغرامات المالية لرفع المستوى الاقتصادي لاقطارهم وتحطيم الاقتصاد الالماني بالوقت نفسه، واباحوا لأنفسهم حق الاستحواذ على الممتلكات الشخصية لافراد الدول الخاسرة في البلدان المحايدة ثم انشأوا عصبة الامم التي جعلوا حق الانتماء لها مقتصرا على الشعوب المحبة للسلام لكنهم في الواقع كانوا المسيطرين على هذه المنظمة الدولية بصورة مطلقة،

ولكن الم تسفر هذه الاجراءات القسرية التي اتخذت باسم الديموقراطية عن ايجاد بذرة الشقاق في صفوف العالم الغربي لدرجة اتاحت الفرصة للعالم الآسيوي[٥] المنظم بصورة شاملة لكي يتغلب على اوربا؟ الا ان المؤكد هو تمخض تلك الاجراءات عن نتائج سيئة بالنسبة لعملية ممارسة الديموقراطية في المانيا التي جانبها النجاح،

---

(٥) المقصودة هي روسيا . ـ المترجم ـ

ان الخطأ الفاحش والظلم اللذين انطوت عنهما اتفاقيات باريس المجحفة يمكن ارجاعهما تأريخيا للكره المتبادل طوال سنين عديدة بين المانيا وفرنسا والذي زادت الدعايات المغرضة من حدته باستمرار لم يكن بمقدور شروط ويلسون الاربعةعشر لاقرار السلام محوهما بجرة قلم رغم ترحيب الشعب الالماني بتلك النقاط المنطوية على حسن الطوية • ولكننا لم نكن لنتخلص من ربقة فرساي ما لم نخضع لسلطة هتلر المستبد • وسوف لن انسى ما حييت حالة العزلة التي عشناها بعد تألب العالم على المانيا عندما تم تجميعنا في قرية قره پونار التركية الواقعة على مشارف جبال طوروس ولم يبق امامنا لانقاذ الوطن سوى التعلق ببنود ويلسون الاربعة عشر وكم كنا متشوقين للعمل باخلاص لارساء قواعد السلم فيما لو قبل الآخرون باعتبارنا شركاء لهم تتمتع بنفس حقوقهم وتؤدي نفس واجباتهم • لاسيما واننا جميعا كنا نعتقد بأن المهمة التأريخية لالمانيا هي ان تكون عامل التوازن لاوربا الوسطى•

فالتنافس بين المانيا والامبراطورية البريطانية أصبح من الامور التي تعود للماضي لان المانيا لم تعد تشكل أي خطر على بريطانيا • لأن مهمتنا عادت لما كانت عليه في القرون الوسطى وأعني بها حماية الاقاليم الشرقية واقطار البلطيق من عدوان الاقوام السلافية وغزوات الآسيويين دفاعا عن العقيدة•

ولكن لم لم يدرك الحلفاء زوال خطر المانيا وظهور خطر جديد أجدر بالتصدي له.عندما اطاحت ثورة لينين بسادة الكرملين وأصبحت الخطر الاول المحيق بأوربا والمؤسف انهم لم يدركوا بأن عهد الدولة القومية قد انتهى وجاء دور الاضطرار على توحيد اوربا بوجه الاخطار الجديدة •

أدى تقويض امبراطورية الدانوب(٦) الى بلقنة جنوب شرق أوربا•وكان ان ادى هذا الموقف الجديد الى ظهور خطر شديد يهدد وجود القومية الالمانية في كل يوم•وأخذ البولنديون يحاولون الاستحواذ على مناجم الفحم في سيليزيا

(٦) هي امبراطورية النمسا والمجر.
— المترجم —

مع المراكز الصناعية الموجودة فيها ٠ وفصلت بروسيا الشرقية عن الوطن الأم برا باقتطاع الممر المؤدي الى ميناء دانزك ويعتبر اقتطاع هذا الممر استلاب لاقليم الماني عزيز من الارض الالمانية ٠ كما احتل الفرنسيون اقليم السار لمدة خمسة عشر عاما ولم يكن لدينا أي ضمان لاستعادة ذلك الاقليم ٠ ثم طلب بوانكاريه احتلال اقليم الروهر مما جعل مستقبل هذا الاقليم مظلما ٠ واخيرا رفض الحلفاء توحيد النمسا مع المانيا متذرعين بأن الوحدة ينبغي ان تتم نتيجة للاستفتاء وفقا لمبدأ تقرير المصير ٠

اهتزت في المانيا مفاهيم القانون والنظام نتيجة لاندحار المانيا وتعرضها لثورة عامة كادت تعصف بالمثل السائدة لدرجة خشي معها الموظفون من متابعة النهج القديم في الحكومة الجديدة ٠ وفي تلك الاثناء جد الشيوعيون الذين دفعتهم موسكو دفعا حثيثا لتأليف حكومة اشتراكية تسير على النهج السوفيتي وبشكل يتخذ من حكومة موسكو قدوة له ٠ وظهرت في باڤاريا التي هي أشد المقاطعات الالمانية محافظة اول حكومة سوفيتية محلية برئاسة السيد آيسنر ورفرفت الرايات الحمراء في الحرب الاهلية التي اشتد اوارها في الروهر وفي سكسونيا وفي المناطق الصناعية الاخرى وأصبحت حكومة ايبرت الشرعية مجرد كيان همه الاول اثبات وجوده ٠ ورغم هذا الطوفان الرهيب فان المواطن الالماني اثبت اصالته لأنه لم يتقبل الشيوعية ٠ وقد تجمعت بقايا الوحدات الالمانية المنحلة تحت قيادة نخبة من الضباط الغيورين الذين شكلوا تنظيما عسكريا مرتجلا سموه (الفيلق الحر) وقد اعجبت بهذا التشكيل رغم انني لم انتم اليه ٠ ولكنني سرعان ما وجدت سبيلي الى ميونيخ وقدمت نفسي لقائد الفيلق الحر (فاوپل) — الذي صار فيما بعد سفير المانيا في مدريد خلال الحرب الاهلية الاسبانية — حيث قمت بفعاليات الاشتباك بحراس آيسنر الحمر عندما التحقت بالقطعة المكلفة بالسيطرة على المحطة الرئيسة القريبة من معسكر الترك وهكذا ساهمت في تلك الحرب الاهلية التي دارت رحاها في اقليم باڤاريا ٠

في هذه الاثناء تعالت نداءات مخلصة لانقاذ اقليم السار بعمل عسكري حاسم لان مستقبل الاقليم أصبح في كفة القدر ٠ ولم يكن من السهل علي تجاهل تلك النداءات لانني شعرت آنذاك بأن اقليم السار ينـاديني أنا الذي

شهدت صباي في ربوعه وترعرعت على ارضه والذي اعتقد بأنه كان وسيبقى أقوى منابع شعبنا الاصيل لاسيما وان نشوء المانيا الجديدة بات مهددا بالهجوم من ذلك الاقليم . ثم ان اقليم السار يقطنه اناس عاشوا طوال أجيال عديدة وهم متمسكين بالتربية وحب النظام واستمروا على التمسك بخلالهم الحميدة هذه حتى في عهد التقنية . واذا كان مؤسسو الجمهورية الالمانية الوليدة يرغبون باقامتها على اسس علمانية فانني سأجد لنفسي في مجتمع السار مكانا مناسبا أناضل به من أجل العقيدة مهما كانت المعوقات .

أجرت لنفسي بيتاً في ويستفاليا كان موقعه على نهر وتحيط به اشجار السنديان الباسقة وله اصطبل وساحة ارض صغيرة مجاورة . الا انه كان خاليا من معالم الحضارة الحديثة فهو بلا منظومة للماء الصافي وبلا تأسيسات كهربائية وهو ليس بالقريب من محطة للسكة الحديد ولا بالقريب من طريق معبد. الا ان ساكنه يحظى بجوار اناس جبلوا على الكرم وطيب السجايا مما جعل الاقامة فيه متعة لا تنسى.

والمؤسف كثيرا ان المرء لا يمكنه التوصل بسهولة الى القضايا الصغيرة من شؤونهم الذاتية التي يحرصون على كتمانها عن الناس اجمعين ولكنني عندما افلحت اخيرا في كسب ثقتهم اصبحت كمن عثر فجأة على كنز يغنيه بالفرح والسعادة.

كان ذلك البيت واقعا على حافة منطقة الروهر . وعليه فان قعقعة السلاح في منطقة برج الماء لمدينة ايسن واشتباكات عصابات (سپارتاكوز)[٧] التي كانت تحاول الاستيلاء على منطقة الروهر كثيرا ما كانت تكدر علينا صفونا في ذلك المنزل النائي. وقد قمت بتنظيم الفلاحين الساكنين في تلك الانحاء للدفاع عن انفسنا ازاء تجاوزات الشيوعيين المحتملة كما اخفينا عنهم الحاصلات الزراعية في مخازن امينة لا تنالها أيديهم. ثم سافرت الى مونستر واخبرت آمر قطعات الفيلق الحر في المدينة باجراءاتي الوقائية

(٧) منظمة شيوعية شبه عسكرية اسمها ليبكنشت واتخذ لها هذا الاسم التاريخي كناية عن مقاتلة العبيد للرومان . — المترجم —

ورجوته تقديم المساعدة لنا عند الاقتضاء. ولما رجعت الى البيت شهدت ثانية اسوأ ما سبق ان حصلت عليه من انطباع خلال وجودي في ميدان القتال بفرنسا: انهيار الروح المعنوية بسبب نشوب الحرب الاهلية.

في هذه الايام المتميزة بالحركة الدائبة زارني في منزلي عدد من الاصدقاء كان احدهم زعيم اتحاد فلاحي ويستفاليا البارون فون كيركرنك ورجوني الانضمام اليهم في نشاطهم السياسي حيث ارادوا ترشيحي عنهم للبرلمان البروسي. لم ارفض طلبهم ولكن الذي حيرني هو قرار الانتماء للحزب المناسب لآرائي. ولقد سبق ان تحدثت آنفا عن مبررات عدم انتمائي للاحزاب المحافظة. ثم انني وجدت ان افكار الحزب البروسي المحافظ رجعية وبالية لدرجة لا يمكن ان اطيقها. وعليه فقد وجدت ان الانتماء لحزب الوسط يحقق توجهاتي السياسية بصورة افضل. وهو الحزب الذي تم تأسيسه في عهد بسمارك (الذي اوجد حركة مناهضة الكنيسة الرومية ـ الكاثوليكية) من اجل تمثيل المصالح الكاثوليكية . وقد ناضل تحت زعامة ڤيندت هورست عدد كبير من الرجال المحافظين من اقاليم الراين وويستڤاليا وباڤاريا وسيليزيا وكان حزب الوسط يمثل الاعتدال السياسي ويسير على النهج الاشتراكي الذي سبق ان نادى به البابا ليو الثالث عشر. ولما كانت القضية الاشتراكية من اكثر المسائل المطروحة للمناقشة والتي تتطلب معالجة دقيقة فقد عكفت على دراستها بأمعان لكي يمكنني طرح آرائي بشأن مختلف جوانبها وفق معلوماتي الرصينة وبالتالي تقديم افضل ما لدي في هذا المجال . ولكن الا يجب على اعضاء الحزب المبني على اسس دينية مراعاة افضل المفاهيم المسيحية على الرغم من عدم تطرق القانون الاساسي لحكومة ڤايمار الى تلك المفاهيم؟ وكان جيراني من الويستفاليين يمثلون هذا الرأي بصورة عامة وهكذا تبين لي ان بمقدوري من خلال انتمائي لحزب الوسط خدمة مصالح اولئك الناس ايضا على افضل ما استطيعه.

ولعل بمقدوري هنا التطرق الى بعض النقاط الواردة في دستور حكومة ڤايمار التي اثيرت بشأنها مختلف الآراء خلال الاثني عشر عاما التالية . فقد انجرت الحكومة الالمانية وحكومات الولايات وخصوصا حكومة ولاية

بروسيا الى نفس الاخطاء المركزة. فالسلطة التشريعية كانت مقتصرة على لجنة معينة ولا توجد هناك سلطة اعلى منها على مستوى الدولة يمكنها اصلاح الاخطاء او الهفوات القانونية. اما مستشار الدولة اومستشار حكومة بروسيا فليس لهما الصلاحية الكاملة لممارسة التغلب على مثل هذا الخلل. بالاضافة الى ذلك هناك مشكلة حق الانتخاب في مستوى الدولة الالمانية وفي الولايات الالمانية والتنسيق بين الحكومة المركزية وحكومة بروسيا التي تفوق جميع الولايات الاخرى من حيث الاهمية. ويتم القرار على تعديل الدستور بمجرد الحصول على اغلبية ثلثي الاعضاء. ونظرا لتعدد الاحزاب واختلاف وجهات نظرها فان الحصول على هذه النسبة يعتبر من الامور المتعذرة تماما. وهكذا وجدت ازمات دستورية دائمية يتعذر حلها لدرجة اصبحت معها مصدرا للنزاع المستمر بين احزاب اليسار واحزاب اليمين.

كان حق الانتخاب المعتمد لدينا يمارس وفق ما يسمى بنظام القوائم. وهو نظام يحظى بكثير من الاطراء باعتباره افضل وسيلة ديموقراطيةلممارسة حق الانتخاب على وجه البسيطة لأنه يحقق الاستفادة التامة من جميع اصوات الناخبين. والواقع هو ان اللجوء لهذه الوسيلة في ممارسة حق الانتخاب ينطوي على الاخلال بمباديء الديموقراطية السليمة. ثم ان القرار على انتخاب ممثل واحد يتطلب حصوله على ٥٠٠٠٠ صوت ـ كما كان متبعافي بروسيا ـ يجعل من المتعذر ايجاد دائرة انتخابية واحدة تضم مثل هذا العدد. وعليه فقد كانت دائرتي الانتخابية مقتصرة على النصف الجنوبي من منطقة صناعية مزدحمة بالسكان في مقاطعة ويستفاليا . ويقوم الحزب باعداد قوائم الترشيح وفقا لتقديراته لنسبة احتمال انتخاب اولئك المرشحين في المنطقة. واذا لم يحصل احد المرشحين على ٥٠٠٠٠ صوت فيجري حساب جميع الاصوات الباقية في الانتخابات التكميلية للمنطقة بغية اتمام الاصوات المطلوبة لصالحه. وكانت حصيلة هذه الفوضى الديموقراطية ان وجد في المانيا ثلاثون حزبا. ولو شاء أي فرد تأليف حزب جديد لغرض معين فانه لا يحتاج الى تقديم مرشح انتخابي واحد في احدى الدوائر الانتخابية

الكبيرة، وانما يكفيه التقاط الاصوات المتناثرة هنا وهنـاك من قوائـم الانتخاب المطروحة في عدة دوائر انتخابية متفرقة لكي يتوصل الى انتخاب رجل واحد على الاقل يمكّن ان يمثل حزبه في البرلمان.

ثم ان نظام القوائم يحرم الناخبين من مجال الانتخاب لأن القائمة التي يعدها أي حزب تكون محددة من حيث اسمـاء المرشحين ولا يمكن تغييرها بينما ينطوي اقرار أية قائمة على اختيار اسماء المرشحين فيها للسنوات الأربع القادمة . كما انني أعلم من تجاربي الخاصة بأن أعضـاء المجلس الذين انتخبهم ابناء الدوائر الانتخابية يكونون مسؤولين ازاء احزابهم عن فعالياتهم البرلمانية وليس ازاء ناخبيهم . والمؤسف ان دستور حكومة بون اقتبس نفس اخطاء دستور ڤايمار رغـم ان الحزب الديموقراطي المسيحي نبه الى هذا الخلل لكن الحزب الاشتراكي الديموقراطي تمسك بضرورة اتباع نظـام القوائم بدعوى انه نظام ديموقراطي فتم اقرار اتباعه بسبب موافقة الاغلبية على اعتماد هذا النهج. وهكذا فان من المؤسف اننا لم نتعلم من تجارب حكومة ڤايمار.

اتخذت علاقة الدولة الالمانية بالولايات منذ عهـد الولايات الالمانية الصغيرة صفة الامومة. وعليه فلا يمكن اعتبارها ببساطة علاقة مركزيـة او اتحادية. ذلك لأنه ليس من السهل ايجاد الحدود الفـاصلة لمناطق الحكم الذاتي او المناطق التي تسري بها قوانين الولايات دون الالتفات للحكومة الاتحادية لالمانيا برمتها والتي تتمتع بمكانتها المرموقة في المجتمع الاوربي. فقد وضع المستشار النابه بسمارك دستورا اتاح للولايات مجالات واسعـة لممارسة ادوارها دون ان تهدد تلك الحقوق قيادة الدولة المركزية. وكانت بروسيا اكبر الولايات رقعة واقواها ماديا . بينما كانت المراكز الصناعية في اقاليم الراين والروهر والسار وسيليزيا العليا ضمن حدودها. ولكن كانت لبروسيا ميزة اخرى مهمة ولها تأثير كبير على التوازن السيـاسي وتتمثل

بوجود العرش البروسي الذي اصبح عاهله امبراطورا على المانيا برمتها[8].
ولما نهض رئيس وزراء بروسيا العبقري بسمارك بمهمة مستشار الامبراطورية الالمانية بالوقت نفسه فانه كبح الجماح البروسي ولم يسمح ابدا برجحان كفة بروسيا على الولايات الاخرى. وبلغ من حرصه على المحافظة على وجود الوحدة الالمانية انه كان كثير الاهتمام برغبات اضعف المشاركين الصغار المنتسبين للوحدة والعمل على تحقيق تلك الرغبات بتقديم اقصى درجات الاسناد لطلباتها لدى الحكومة المركزية.

اما الآن فقد تهاوى عرش القيصر الذي كان الاساس الرصين لقيام الوحدة ودمج الولايات كما انحسر دور الاقطاع في الولايات الالمانية. واصبحت اقامة الاتحاد الالماني على اسس التقاليد وحدها مدعاة للشك في مدى قدرة الاتحاد الوليد على البقاء. ذلك لأنه ولد ضعيف المقومات. وعليه فقد اصبحت الصراعات بين الدولة الجمهورية الوليدة واكبرولاياتها -بروسيا- من المشكلات الجدية المقلقة لها. والمؤسف ان حكومة ڤايمار لم تتمكن من ايجاد الحل المناسب لهذه المعضلة كما لم يشأ كبار الساسة الذين خدموا تلك الدولة طوال سنين عديدة التدخل بحزم لاستئصال جذور الخلافات المتفاقمة. وسوف أأتي على بحث فعالياتي في هذا السبيل خلال تلك الحقبة لاسيما واني جعلت من بسمارك قدوة لي وليس على المتتبع لهذا الموضوع سوى ان يعقب ممارسات ذلك الرجل العظيم ليتفهم المعضلة والاسلوب المثالي لمعالجتها. ولقد ادركت طبيعة المشكلة المذكورة منذ اليوم الاول لقيام الجمهورية الالمانية.

في هذه الفترة قامت الاحزاب السياسية في الولايات الالمانية الاخرى بردود فعلها دون الالتفات لموقف الحكومة المركزية ومتطلباتها. فقد حلت الدولة الالمانية ضيفا على برلين عاصمة بروسيا وجعلتها عاصمة لها دون ان تتوفر لديها عناصرها الادارية الخاصة ولا جهاز شرطة مركزي. وهكذا بقيت

---

(8) توج ملك بروسيا غليوم الاول امبراطورا على المانيا بعد انتصاره على فرنسا في حرب السبعين في عام ١٨٧١ بقاعة المرايا في قصر فرساي بباريس.
- المترجم -

الحكومة الالمانية المركزية وحكومة بروسيا يقودهما الحزب الاشتراكي الديموقراطي (مارس ذلك الحزب حكم ولاية بروسيا خلال الفترة ١٩١٨ـ ١٩٣٢ بدون انقطاع) ولم يشأ هذا الحزب بطبيعة الحال التصدي لأية صعوبات قد تعتور تنفيذ القوانين الاتحادية . ولكن عندما يحدث في حالات استثنائية ان تقوم عدة احزاب متآلفة بطرح مقترح لاقرار قانون معين يتعلق بالتجارة او بالامور الثقافية او حرية الصحافة او حماية الممتلكات الخاصة فغالبا ما تقوم الوزارة البروسية المختصة باستعادة دورها القيادي لتوجيه اللائحة القانونية وفق رأيها.

والواقع ان بروسيا اصبحت دولة داخل الدولة. ولذا فقد اصبحت هذه الازدواجية بؤرة للضعف الذي اعترى نظامنا السياسي. وكانت حصيلة ذلك ان اصبح التأثير السياسي للنواب البروسيين في كثير من الاحوال يفوق تأثير النواب الاتحاديين .

يبدو انني اخترت الوقت غير المناسب لخوض غمار السياسة. فقد كان موقف البلاد غامضا ولكنني شرعت مع ذلك بممارسة فعالياتي السياسية الجديدة بكل حماس يحدوني بذل الهمة والسير وفق النهج الحزبي المقرر باتقان مع ادراك شامل لمعضلات الوطن الداخلية والخارجية مع تميزي بالمرونة المتناهية في معالجة المشكلات العامة لأنني ادركت بأن من الضروري حتى عند ممارسة الحياة الديموقراطية اتخاذ القرارات المناسبة وفق اجتهادي دون التمسك الجامد بالآراء المقررة في الكراسات.

لاحظت وجود جهل معيب بالمعلومات المتعلقة بالاقطار الاجنبية في صفوف ابناء منطقتي الانتخابية وهذه ربما تؤدي الى عدم تفهم المشكلات التي ادت الى اشتراك المانيا بالحرب وبالتالي اندحارها. وعليه فقد حاولت ايجاد شيء من التفهم لطبيعة ابناء الشعوب المجاورة بين ابناء الشعب الالماني لكي اوقظ في نفوسهم الوعي الكافي لاستيعاب التأريخ. لكن محاولاتي هذه ذهبت ادراج الرياح لأن أحد نواب المجلس الاتحادي لا يمكنه لوحده

النهوض بهذه المهمة في الوقت الذي تعاني به المانيا من مأساة الانحدار. ثم تعاقبت علينا النكبات عندما اضمحلت قيمة المارك الالماني نتيجة للتضخم الذي استشرى اذاه مثل سريان النار في الهشيم. ثم اقدم الفرنسيون على احتلال اقليم الروهر[٩]. وقد ذكر كليمانصو[١٠] في مذكراته بهذا الصدد:

« ونحن نعلم ان الفريق فوش[١١] حاول ضم هذا الاقليم الالماني الغني الى فرنسا لأسباب اقتصادية».

في هذه الاثناء انحطت قيمة المارك الالماني الى أدنى الدرجات ولم تعد المعونات المالية تكفي ليقيم القرويون أودهم. عندئذ تعالت في اقليم الراين اصوات منكرة تنادي بالانفصال وتكوين جمهورية الراين وجعل كولن عاصمة لها.

في هذه الايام الحرجة دعى حزب الوسط اعضائه في البرلمان الاتحادي وفي البرلمان البروسي لاتخاذ قرار حاسم لانقاذ المانيا . وكان عمدة مدينة كولن رئيسا لمجلس النواب البروسي في الوقت نفسه الا انه فضل الانحياز لمدينته على حساب مقامه الرفيع في بروسيا متذرعا بأنه من المتعذر على المرء خدمة سيدين على طرفي نقيض.

الا ان ممثلي نقابات العمال واتحاد العمال الكاثوليك كانوا مناهضين لتلك الآراء الانفصالية وكانوا متحمسين لابقاء الروهر والراين ضمن الاتحاد الالماني.

(٩) تذرع الفرنسيون بتأخر المانيا في تسديد التعويضات المفروضة عليها لفرنسا واحتلوا اقليم الروهر فأثاروا عليهم حفيظة الشعب الالماني .

ـ المترجم ـ

(١٠) كان جورج كليمانصو (الملقب بالنمر) رئيسا لوزراء فرنسا ١٩١٧ـ١٩١٩ وهو معروف بالتعنت ازاء المانيا .

ـ المترجم ـ

(١١) كان الفريق فوش القائد العام للقوات المسلحة الفرنسية عند انتهاء الحرب العالمية الاولى .

ـ المترجم ـ

أما أنا فكنت أرى ان المناداة بانشاء جمهورية الراين تنطوي على الخيانة السافرة للوطن وعليه فقد اصبحت خصما عنيدا لممثلي الراين من الانفصاليين وتمكنت من استمالة عدد من المؤيدين ورفعت شعار ستبقى الروهر والراين مخلصتين لالمانيا حتى في هذه الساعة.

لم ينس لي الدكتور اديناور[١٢] هذا الموقف، فبعد اخلاء سبيلي اثر برائتي في محاكمات نورمبرغ[١٣] اخذ يروج اشاعة مغرضة ضدي بقصد الايقاع بي قانونيا عندما لاحظ ميلي لترشيح نفسي لرئاسة الاتحاد الديموقراطي المسيحي في القطاع الانكليزي من المانيا المحتلة بعد الحرب العالمية الثانية، حيث ادلى بتصريح شخصي لصحيفه «ويستفاليا بوست» الصادرة في دائرة آنسبرك الحكومية بعددها المرقم ٤٨ الصادر في ٨ تشرين الاول ١٩٤٦ قال فيه:

« ان فون پاپن خائن كبير ولعله هو الذي دبر حادثة اغتيال دولفوس»[١٤].

ولقد غضب عدد كبير من الاصدقاء لهذا الاتهام المجحف ومنهم الاميرة فيورستنبرغ هيردرنغن ابنة نائب حزب الوسط لسنين طويلة الامير پراشما فطالبت زعيم الحزب الديموقراطي المسيحي بسحب هذا الاتهام الباطل.

---

(١٢) تزعم الدكتور كونراد اديناور جمهورية المانيا الاتحادية عند قيامها بعد الحرب العالمية الثانية وهو من قرية اديناو القريبة من بون اي انه من سكان اقليم الراين وكان زعيما للحزب الديموقراطي المسيحي . وهو المشهور بعقد اتفاقية التعويضات مع اسرائيل .

ـ المترجم ـ

(١٣) يذكر الوزير البرت شپير في كتابه ـ مذكرات سجن شپانداو ـ ان فون پاپن عندما اطلق سراحه اثر برائته في محاكمات نورمبرغ لم يصافح سوى العسكريين من رفاقه المحكومين .

ـ المترجم ـ

(١٤) كان دولفوس رئيسا لوزراء النمسا قبيل اندماجها بالمانيا ولما سار على سياسة مناهضة للوحدة مع المانيا اغتاله النازيون النمسويون واعقبه كورت فون شوشنيغ الذي انهار نظامه نتيجة لضغط النازيين والوحدويين النمسويين وكان فون پاپن سفيرا لالمانيا في ڤينا خلال تلك الفترة الحرجة من تاريخ النمسا . ـ المترجم ـ

ثم انه ليس جدير بتوجيه الاتهامات لأنه كان خاضعا لكفالة شرطة ولاية باقاريا. الا ان المؤسف هو تجاهل الدكتور اديناور لتلك الدعوة الكريمة. ولابد لمن يمارس السياسة ان يتعلم كيف يتناسى وكيف يغفر. وعليه فانني لم احقد على اول مستشار لالمانيا الاتحادية بسبب الاتهام الظالم الذي وجهه لي وانما انا سعيد لأن ذلك المستشار نجح في توحيد الاحزاب الالمانية وتوصل الى تفاهم وطيد مع فرنسا ومع الاسرة الاوربية وهو ما بذلت جهودي لتحقيقه في بدء حياتي السياسية.

ويبدو ان الناس قد نسوا انه في الوقت الذي دأبت به فرنسا على الانعزال عن اوربا وحرصت على تمزيق وحدة المانيا وعزلها عن بقية اجزاء العالم فان المانيا كانت من ضمن اربع عشرة دولة ـ منها بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ـ تصدت لخطر انتشار البلشفية بقوة السلاح . وكان ان حافظت دول البلطيق على وجودها بقوة السلاح الالماني وانفصلت عن روسيا(١٥) . وقامت حكومة بلسودسكي البولندية بتشكيل حاجز يفصل بين المانيا وروسيا. كما قام قادة الروس البيض والمشير الفنلندي مانرهايم بمقاتلة الشيوعيين في مختلف مناطق شمال روسيا . اما تشرشل فقد اطلق نداء موجها للمسيحيين « للمساعدة في تقويض العش الاحمر قبل ان تتمكن الدجاجة الشيوعية من وضع بيضها فيه » . بينما كانت المانيا تخوض بحرا من الدماء لاثبات وجودها ازاء حركات الانفصال وتقاتل عصابات سبارتاكوس والمجالس الثورية التي قامت في مختلف المدن الالمانية في الوقت الذي كانت تعاني به المانيا من غطرسة المنتصرين الذين جعلوا الديموقراطية نظاما مفروضا على حكومة المانية واهية وجردوها من قوتها العسكرية . ولابد للمرء في هذا المقام تذكر الهمة القعساء لوزير خارجية المانيا آنذاك الدكتور شتريزه مان الذي لم تنقصه الشجاعة

---

(١٥) هي استونيا وليتوانيا ولاتفيا وقد اقر هتلر بموجب معاهدة ريبنتروب ـ مولوتوف المعقودة بين المانيا والاتحاد السوفيتي في آب ١٩٣٩ استيلاء الاتحاد السوفيتي عليها وهي الآن جمهوريات سوفيتية .
ـ المترجم ـ

لمواجهة المواقف الحرجة واستطاع التحكم بالموقف دون التفريط بحقوق المانيا او السماح بأية حركة انفصالية .

لقد وقفت المانيا لوحدها آنذاك بوجه سريان الحركة الشيوعية من الشرق واستطاعت حماية اوربا من ذلك الخطر الجديد بينما كان موقف الدول الغربية متسماً بالوهن والتردد، واستطاعت المانيا في هذه الفترة الصمود امام محنة انهيار القوة الشرائية لعملتها لأن تأثير التضخم لم يقتصر على النتائج المهمة المترتبة على السياسة المالية الاقتصادية وافلاس الكثير من المشاريع الصناعية وانما ادى الى التأثير على الطبقتين الفقيرة والمتوسطة وأدى الى سريان موجة متفاقمة من البطالة التي جعلت الملايين من العمال الالمان الماهرين والنشيطين بلا عمل مما جعلهم على أتم الاستعداد لخوض القتال من أجل الحصول على الطعام . وواضح ان الملابسات المعقدة التي حصلت في تلك الفترة والنشاط الذي مارسته الاحزاب السياسية الالمانية ومدى مسؤوليتها عن التضخم وتدهور قيمة النقد الالماني لم يكتب تأريخها بعد . ومما لا شك فيه ان الناس فيخارج المانيا لا يمكن ان يتصوروا الحالة التي كانت عليها المانيا خلال فترة التضخم ومدى المعاناة التي كابدها ابناء الشعب الالماني . فمن الذي يتصور اليوم بأن الناس في أواخر فترة التضخم التي عاشتها المانيا كانوا يستلمون رواتبهم او أجورهم يوما بيوم لان تلك الاجور لا تحافظ على قيمتها الشرائية في مساء اليوم ذاته ؟

وقد أعلن المصرف المركزي الالماني بأنه غير قادر على طبع مقادير اخرى من الاوراق النقدية ولجأت اغلب المدن الى اصدار نقود خاصة بها مما اضطرت معه المؤسسات المالية على التوقف عن ممارسة نشاطاتها . وأصبح ما يكلف سعره ماركا واحدا في الماضي بسعر يبلغ مليار مارك . وهذا معناه ان الاموال المدخرة ورواتب التقاعد والرهون والموارد المالية الاخرى أصبحت كلها مجردة من القيمة تماما وان الناس الذين ليست لديهم مواد عينية سيكونون كلهمفقراء بحكم اضمحلال القوة الشرائية للنقود . وكانت هذه الحالة المضطربة التي صاحبت التدهور الاقتصادي مدعاة لتأمل النازيين الذين لم ينتقدونها فقط وانما وجدوا لها الحلول المناسبة .

كنا في فترة التضخم مرشحين لنكون فريسة سهلة للشيوعية المتربصة بألمانيا • وقد تجلت هذه الحقيقة عندما قابل لينين صديقي القديم الفريق علي فؤاد باشا الذي اوفده مصطفى اتاتورك الى موسكو ليكون اول سفراء بلاده لدى الكرملين • وقد قال لينين للسفير التركي في عام ١٩٢١ :

« ان الالمان هم شعب متمسك بالمبادىء وانهم لو تقبلوا فكرة معينة فأنهم سيتمسكون بها بكل قوة • وعليه فانهم أفضل من الروس لتشكيل ملاكات الثورة العالمية المقبلة • لكن استمالتهم تتطلب وقتا طويلا • وحالما يتقبل الالمان العقيدة الشيوعية فانني سأنقل عاصمتي من موسكو الى برلين » •

ادت سياسة القروض المالية التي وضعتها الحكومة الالمانية في تشرين الثاني ١٩٢٣ الى انقاذ اقتصادنا من التدهور الشامل • والمؤسف ان الحكومة الالمانية ارتكبت غلطة فاحشة عندما اغفلت السيطرة على الانتاج الصناعي وسمحت للمؤسسات المالية الاجنبية بالاستيلاء على المشاريع الصناعية الكبرى عن طريق القروض او المساهمة في رؤوس اموالها •

وعلى الرغم من الازدهار الصناعي الذي شهدته المانيا في تلك الفترة الا ان سوء السياسة الاقتصادية التي انتهجتها واضطرارها على دفع تعويضات الحرب الباهظة لدول الحلفاء تسببا في تعرضها للتدهور الاقتصادي ثانية في أواخر عقد العشرينات من هذا القرن وقد ادى التضخم هذه المرة الى فقدان اغلب دائني المانيا الاجانب لرؤوس الاموال التي وظفوها في المشاريع الالمانية الا ان المانيا فقدت سمعتها التجارية الدولية •

وكنت قد قدرت في مرحلة مبكرة بأن البرلمان الاتحادي ومجالس الولايات عاجزة عن ايجاد الحل المناسب للمشكلة الاقتصادية التي تتعرض لها المانيا وكانت حصيلة ذلك العجز نجاح هتلر في الوصول الى الحكم، وقد استشرفت ما سيحدث لالمانيا في رسالة كتبتها بتأريخ ٧ أيلول ١٩٢٣ بعنوان « حكم استبدادي أم حياة برلمانية ؟ » وقلت فيها للمرة الاولى بأننا على حافة الهاوية وحياتنا لا يمكن ان تجد الاستقرار اللازم في ظل حياة برلمانية رتيبة تتصارع

فيها مبادىء الاحزاب الالمانية الكثيرة • وطالبت بتأليف حكومة مستقلةمسؤولة ازاء الشعب ويمكنها تنفيذ مناهجها السليمة لصالح الوطن دون الاضطرار على خوض جدال عقيم طوال اشهر عديدة مع احزاب المعارضة •

وكما يحدث بعد كل اندحار تشهده الامة فان الاحزاب المتطرفة لابد ان تحقق التفوق السياسي وهكذا اتيحت للشيوعيين فرصة ذهبية لتحقيق النجاح الباهر في الانتخابات • فنشطنا للتصدي لهم بتقوية الحزب الاشتراكي الديموقراطي الذي ضم شخصيات قديرة امثال ايبرت ونوسكه[١٦] •

وعلى الرغم من الصراع المصيري الذي خاضه الشيوعيون آنذاك من أجل اثبات وجودهم فأنهم ظلوا ينادون بمبادىء الصراع الطبقي ومناوأة الدين • اما المناداة بسلطة الطبقة العاملة فلم تجدهم فتيلا • وعندما يعتبر الحزب الاشتراكي الديموقراطي في البلدان الغربية من الاحزاب الديموقراطية الى ابعد الحدود (وهذا اكثر من الواقع) فان السبب في ذلك يعود لان ليون بلوم[١٧] ورفاقه كانوا اكثر تطرفا في ممارسة الاشتراكية • ولان حزب العمال لا يعرف ابدا معنى الصراع الطبقي او معاداة الكنيسة • كما ان عبارة (الاشتراكية) كانت غريبة تماما على المنظمات العمالية الامريكية •

ومن جهة اخرى نشط اعضاء الاحزاب المحافظة والاحرار الذين يعتبر وجودهم في البرلمان امتداد للعهد الامبراطوري فأفاقوا من غفلتهم وهم الذين كانوا أقل انتاجا ونشاطا في الفترة التي سبقت نشوب الحرب العالمية الاولى • ويبدو ان سبب مجانبة الحظ لاحزاب اليمين يعودلعدم وجود قائد تقدمي في صفوفهم بحيث يمكنه اثبات وجودهم بعد اندحار المانيا • فقد كان هندنبورغ

---

(١٦) كان ايبرت اول رئيس للجمهوريةالالمانية اما نوسكة فقدكانوزيرا للحربية. ــ المترجم ــ

(١٧) سياسي اشتراكي فرنسي قاد الجبهة الشعبية الفرنسية وجميع اعداء النازية وقد صار رئيسا للوزارة الفرنسية عام ١٩٣٦ فطبق الاصلاحات الاشتراكية وامم الصناعات العسكرية ومصرف فرنسا • وقد اعتقلته حكومة ڤيشي خلال الحرب العالمية الثانية ثم تولى رئاسة الوزارة ثانية في عام ١٩٤٦ وقد توفي عام ١٩٥٠ • ــ المترجم ــ

اداريا حازما وله قابليات جيدة على معالجة المشكلات المالية ولكنه لم يكن زعيما محافظا . وهكذا لاح الامل الوحيد بايجاد الزعيم المنشود من صفوف احزاب الوسط وهي الحزب الديموقراطي ـ المتشكل حديثا ـ وحزب الوسط وحزب الشعب الالماني .

وقد زعم الحزب الاول انه قلص مرشحيه في عام ١٩٣١ الى اربعة فقط على الرغم من تضحيته بالكثير من انصاره في سبيل الحفاظ على الجوهر الديموقراطي للحزب مما جعله (حزبا حكوميا) بكل ما لهذه العبارة من معنى . أما حزب الشعب الالماني فانه كان قد أعد شخصية شتريزەمان الذي مارس قيادة السياسة الخارجية لالمانيا طوال سنين عديدة ونجح في التوصل الى عقد معاهدة لوكارنو ذات المحتوى الجديد التي استعادت لالمانيا بعض الحقوق . ولذا فأنه رجل الدولة الوحيد الذي عاصر حقبة حكم نظام ڤايمار وساهم من موقعه بنشاطاتها وهو بالتالي يتحمل جزءا من اوزارها . ولما كان حزبنا هو الحزب الوحيد الذي بقي صحيح البدن وبمنجاة من حميات السياسة الداخلية فاننا اذا ما تمكنا من ايجاد أهداف واضحة للسياسة الخارجية التي تؤدي باعدائنا القدماء للوصول الى سياسة اوربية موحدة بحيث تجبرهم على نبذ الكره والانتقام والثأر وراء ظهورهم . وقد ادت وفاة شتريزەمان المبكرة الى خسارة لا تعوض .

وكان وضع الاسس القويمة لايجاد النظام الديموقراطي الوليد لالمانيا بمحتواه الجديد المناسب للحياة السياسية الالمانية من أهم الواجبات التأريخية التي نهض بها حزب الوسط .

ولا يمكنني بهذه المناسبة تبرئة حزبي من الاتهام الموجه اليه لأنه لم يشخص مدى اهمية هذه المهمة. فالديموقراطية تتطلب التبديل السليم بين الحكومة والمعارضة. والمعارضة يجب أن تكون على استعداد دائم لتحمل المسؤولية في أية لحظة. وهذا سيمنعها من ممارسة سياسة مطلقة ذات خطط هوجاء. وهي معارضة تساهم في تكامل فن الحكم وتعصم الحكومة من الاخطاء.

تحركت احزاب الوسط في تلك السنين العجاف التي هبت بها المانيا من كبوة الخذلان بزعامة الحزب الاشتراكي الديموقراطي القوي الذيحقق اكبر المكاسب ومنع التطـرف ولم يسمح بجعل المانيـا ميدانا للتجـارب الاشتراكية . الا ان التحالف الحكومي بقي محافظا على قوته في ادارة دفة الحكم من ڤايمار عندما تعرضت المانيا لأول صدمة مفاجئة. وقد حكم هذا التحالف ولاية بروسيا ايضا بصورة متواصلة منذ عام ١٩١٩ حتى وصولي الى منصب المستشار[١٨]. ووجد حزب الوسط نفسه على غير استعداد لحل تآلفه مع الحزب الاشتراكي الديموقراطي من اجل الحصول على مكانة غير مضمونة ضمن المعارضة وعلى الرغم من افلاس حكومة ڤايمار في ممارسة الديموقراطية فاننا لم تتقبل هذه الحقيقة.

انني ممتن للظروف التي لم تجعـل طريقي السياسي يمر عبر مدرسة البرلمان لأنها مدرسة تجبر المرء على التأمل قبل اتخاذ القرار . فالمرء يمكنه ان يحيا حياة برلمانية هانئة جدا ويتمتع بامتيازات العضوية ويسافر بالقطارات مجانا ويسكن في دار مريحة ويتبوأ الصدارة في كل مجلس دون ان يتكلف بأية التزامات جدية. ويمكن للحريص على كرسي العضوية ان يصوت مع الاغلبية دوما مدعيا بأنه يخدم اقليمه وبلاده بمنتهى الحرص. اما انا فقد ربأت بنفسي من الانحدار الى هذا المستوى لأن هيئة الاركان الالمانية ـ المنبوذة حاليا ـ علمتنا وجوب المجاهرة بآرائنا حتى ولو كانت مخالفة لآراء الآخرين وعلى الرغم من كون هذه المجاهرة غير مريحة لنا بالمرة.

وسرعان ما تعلمت تجربة مفادها ان من المحزن لعضو البرلمان الا يتقن كيفية المراوغة والالتفاف حول الأسس المرعية. فبعد الانتخابات الجديدة لعام ١٩٢٤ لم يحصل تآلف حكومة ڤايمار الا على اغلبية صوتين او ثلاثة اصوات. وقد اوصيـت آنذاك باقـامة تآلف بين حزب الوسط واحزاب اليمين. فأدى ذلك التآلف الى ترشيحي لمنصب رئيس الوزراء وحصلت على وعد من عشرين زميلا لاسنادي في ذلك الترشيح ولما تم الاقتراع لم يصوت

---

(١٨) تولى المؤلف منصب مستشار المانيا في عام ١٩٣٢ .

ـ المترجم ـ

لصالحي سوى خمسة منهم اما الآخرين فيبدو انهم تأثروا بمحاولات الاحباط التي مارسها ضدي تآلف حكومة ڤايمار.

وهكذا لم يكن لاصواتنا نحن الستة سوى تأثير ضئيل لأننا وجدنا اصواتنا مثل هشيم تذروه الرياح. وليس للمرء ان يتجاهل بكل بساطة ما يناله من جراء الاحباط.

وكنت قد حصلت في الانتخابات على فكرة بأنني حصلت على الكثير من اصوات المحافظين. لكنني ما لبثت ان علمت بأنني استبعدت من قبل جميع المحافظين لأنني اصبحت في نظرهم ـ منذ واقعة الترشيح التي جانبني بها النجاح ـ العضو غير المحبوب في حزب الوسط.

بعد سنة واحدة توفي فجأة رئيس الجمهورية الالمانية ايبرت . وكان هذا الرجل قد اثبت جدارته الرائعة رغم الظروف المعاكسة التي صادفت عهده فأدار دفة الدولة بمهارة يحمد عليها ومع ذلك فان حزبه ـ الحزب الاشتراكي الديموقراطي ـ لم تتيسر لديه عدا ذلك الرجل المتميز شخصيات كفوءة تقف الى جانبه.

ما ان خلى منصب رئيس الجمهورية الا وتشوقت الاحزاب لايجاد شخصية من صفوفها لاشغال ذلك المنصب الرفيع ليكون رمزاً للسلطة ورئيسا للدولة الالمانية . وفي مثل هذه الظروف الثورية فلابد ان تتيقظ المشاعر القومية وينبعث التراث الوطني من اجل الحفاظ على التماسك الداخلي للبلاد وتستبعد الاسماء الضعيفة خشية امتهان الوطن في الاوساط الدولية وكان من الواضح ان زعماء الاحزاب الالمانية القائمة آنذاك لم يكن بينهم أية شخصية جديرة بحيازة مقام الرئاسة المرموق.

وبينما كانت احزاب اليسار قليلة الاكتراث لهذه الضرورة النفسية مما حدى بها لترشيح الدكتور ماركس وهو من زعماء حزب الوسط القدماء تقدمت احزاب اليمين بترشيح المشير فون هندنبورغ.

اظهر المشير فون هندنبورغ خلال الحرب العالمية الاولى منتهى الاخلاص

للشعب الالماني فحظي بتقديره رغم النهاية المريرة لتلك الحرب. ولما هرب فون لودندورف الى السويد جمع فون هندنبورغ بقايا الجيوش الالمانية المندحرة بكل نظام وشعور بالمسؤولية واعادها الى الوطن[١٩]. الا ان اليساريين الالمان والشيوعيين في البلدان الاجنبية استنكروا ترشيح فون هندنبورغ لرئاسة الجمهورية الالمانية . وندد الفرنسيون بترشيحه للرئاسة واعتبروه داعية للحرب بينما لم يكن أي شخص في المانيا يحب السلام بنفس الدرجة التي يحبه بها ذلك الشيخ العسكري لأنه كان يدرك الاخطار المترتبة على الحروب اكثر من غيره. وكثيرا ما تحدثت معه فيما بعد بهذا الموضوع. ويمكنني الجزم ـ بناء على ما لمسته من الرجل ـ بأنه عندما مارس رئاسة الدولة الالمانية لم يكن رئيسا (عسكريا) كما انه لم يكن أبان حياته العسكرية (قائدا سياسيا).

وبغياب رمز الدولة المتمثل بالعرش وانهيار التقاليد المرتبطة به فانني لم اتعرض للحيرة ابدا في ايلاء الولاء للدولة التي تربع فون هندنبورغ على قمتها ولو للحظة واحدة.

ولكي نضمن انتخاب فون هندنبورغ فقد حرصنا على كسب اصوات احزاب الوسط. وقد توليت انا هذه المهمة بالنسبة لحزبنا ـ حزب الوسط ـ على الرغم من اضطراري على مناقضة السياسة العامة لحزبي لأنني اقدمت على الدعوة لترشيح رئيس لا يمثل اي اتجاه حزبي. وفي ١٥ نيسان ١٩٢٥ دعيت لحضور اعلان نتائج الجولة الثانية من انتخابات الرئاسة. وكانت مهمتي الاولى التصدي لمرشح حكومة ڤايمار الدكتور ماركس الدي فقد انصاره نتيجة للحملة المناهضة لترشيحه. وعلى الرغم من صفة الدكتور

---

(١٩) كان فون هندنبورغ قد استدعي من التقاعد ليقود الجيوش الالمانية ونسب الفريق فون لودندورف رئيسا لاركانه فحقق الانتصار الساحق على الروس في معركة تاننبرغ ثم تحول لقيادة الجبهة الغربية واقام مقره في فرنسا وكانت قواته عند عقد الهدنة منتشرة في فرنسا وبلجيكا فأعادها الى المانيا بعد ان وضعت الحرب اوزارها .

ـ المترجم ـ

ماركس الاشتراكية فان حزبنا ــ المحسوب من الاحزاب الاشتراكية ــ وقف باصواته التي تعد بضعة ملايين الى جانب المرشح الآخر الذي يعتبر من خصوم الاشتراكية . ولما سئلنا عن دواعي هذا التناقض أجبنا بأننا نريد رئيسا يخدم شعبنا ودولتنا دون تمييز بسبب العقيدة ويرعى الجميع على قدم المساواة.

وأخيرا تمخضت الانتخابات النهائية عن فوز المشير فون هندنبورغ برئاسة الجمهورية في عام ١٩٢٥ بعد مشاكسات ومعارضة لم تخل من العنف . ولما حان موعد الانتخاب الثاني بعد سبع سنوات اجمعت الاحزاب على تجديد ولايته دون الحاجة لتزكيته او اطرائه.

تلقيت من الرئيس فون هندنبورغ رسالة شكر تحريرية عن الجهود التي بذلتها لاسناده في المعركة الانتخابية وكانت رائعة لدرجة تستحق معها التأطير بأطار من ذهب.

ادى نشاطي في معركة الرئاسة الى ضعف مركزي في حزب الوسط بطبيعة الحال. فقد اعتبرني رفاقي (منشقا) عليهم ثم انهم لم يتورعوا عن اتهامي بالتحول نحو اليسار عندما علموا بتكليفي ــ بصورة غير متوقعة ــ بتشكيل الوزارة في عام ١٩٣٢ ولكنني كنت خلال تلك الفترة قد لجأت الى استخدام امكانات اخرى لكي اتمكن من متابعة الخط السياسي الذي اخترته خارج نطاق حزب الوسط. فعندما بات من الضروري اختيار زعيم جديد للحزب في عام ١٩٣٠ بذلت جهودي من اجل انتخاب الدكتور كاس لفضله الذي لا يجارى ولاعتماده تقاليد المحافظين وعملت في الوقت نفسه على احباط الجهود المبذولة لترشيح غريمه الدكتور شتيغر ڤالد.

تقرر في هذه الفترة ايضا اعادة انتخاب زعماء البرلمان الالماني. وقد نجحت في انتخاب ممثل الكتلة المسيحية الدكتور بريونينغ الذي حاز بذكائه المفرط وحسن شمائله اصوات الاغلبية فتم اختياره مستشارا لالمانيا.

شهدت المانيا في عام ١٩٣٠ ازمة اقتصادية اخرى امتدادا لها من اقطار

العالم الاخرى فأنهارت المصارف واغلقت اسواق التجارة الخارجية وأدى كساد البضائع الالمانية الى مضاعفة اعداد العمال العاطلين . واصبح ملايين الرجال بلا عمل ولا مجال لهم لايجاد عمل يمتاشون منه. وهكذا قامت بوجه الحكومة مشكلة جدية تهددها بالاستقالة بينما ضاعفت الاحزاب المتطرفة نشاطاتها المناوئة للحكومة . وقد حاولت من موقعي المتواضع اسناد موقف الدكتور بريونينغ جهد استطاعتي في مهمته العسيرة هذه وقد لقيت المحاضرة التي القيتها في ديولمن بتاريخ ٤ تشرين الاول ١٩٣١ صدى استحسان من الجميع.

وانني لا أفهم لماذا لم تقم (المعارضة الوطنية) آنذاك بمساعدة الحكومة في التغلب على ازمة البطالة التي كانت محدقة بالملايين من ابناء الشعب واداء دورها التأريخي وراء المستشار بريونينغ. وأنا لا اشك قيد انملة بكفاية قادة الاحزاب او بوطنيتهم ولكنني اعتقد ان السبب الوحيد يكمن في شك احزاب المعارضة في سياسة المستشار الشديد الولاء للاحزاب الاشتراكية المؤتلفة مع حزبه. وعليه فقد اقترحت آنذاك على المستشار بريونينغ العمل على ازالة هذه التصورات باعادة تشكيل حكومته من اعضاء مستقلين . ومع تنامي الازمة الاقتصادية في تلك الفترة يجب علينا اتخاذ قرار بتجنب اللجوء لتطبيق النظريات الاشتراكية الشاملة واللجوء لاتخاذ اجراءات مستقلة تتسم بتحمل المسؤولية وتعتمد القواعد القانونية والمباديء الاخلاقية للدين المسيحي. وقلت ان المستشار اذا ما اتبع هذه السياسة فسيحقق الانتصار في المجالين الداخلي والخارجي.

ولقد دأبت على اسناد المستشار بريونينغ حتى انتهاء عهد رئاسته للحكومة وفعلت كل ما بوسعي لمعاونته في ضمان تعاون احزاب اليمين معه. واستمرت فترة عضويتي في البرلمان حتى عام ١٩٣٢ عندما تقرر اجراء انتخابات جديدة لبرلمان بروسيا في ٢٤ نيسان ١٩٣٢ وفي تلك الفترة تمت اعادة انتخاب فون هندنبورغ لرئاسة الجمهورية لسبع سنوات اخرى[٢٠] كما ان أحزاب اليمين وخصوصا الحزب النازي حازت زيادة ملحوظة في المقاعد البرلمانية.

(٢٠) توفي فون هندنبورغ في عام ١٩٣٤ . — المترجم —

وهكذا خشيت احزاب الوسط والاحزاب الاشتراكيـة من فقدانهـا لاغلبيتها في بروسيـاه ولكي تبقى تلك الاحـزاب بمواقعهـا في حكومة براون ــ سيفرنغ فقد لجأت الى خدعة عندما قررت تغيير نسبة النصـاب المطلوب في مجالس الولايات وجعلت انتخـاب رؤساء وزراء الولايات يتم خلال الاقتراع الاول. اما الاقتراع الثاني فيكـون مقتصرا على الاغلبيـة النسبية فقط عندما يتعذر تحقيق الاغلبية المطلقة . بينما المبدأ المتبع في جميع برلمانات العالم هو ان الاقتراع الثاني يجب ان يتمخض عن الاكتفاء بأغلبية نسبية في حالة عدم حصول اغلبية مطلقـة. والآن قـررت احزاب الوسط والاحزاب الاشتراكية بالتعاون مع الشيوعيين كسب اغلبية مطلقة في الاقتراع الثـاني للبرلمان لكي يجعلوا انتخـاب أي رئيس وزراء من غير احزابهـم متعذرا . وهكذا خسرت الاحزاب الاخرى في الانتخابات الجديدة لبرلمانات الولايات مائة مقعد حصلت عليها الاحزاب المؤتلفة المذكورة التي افلحت في منع انتخاب أي رئيس وزراء من غير احزابها حتى ٢٠ تموز ١٩٣٢ ثم مضت الاحزاب المؤتلفة المذكورة في لعبتها ضد حكومة ڤايمار الى مدى أبعد.

وكان هذا الاحتيال غير الديموقراطي فعلة منافية لروح الحياة البرلمانية بكل ما لهذه العبارة من معنى لأنه يمكن ان يؤدي الى توسيع الهوة بين احزاب اليمين ومستشار الحكومة المركزيـة . وكانت تنبيهاتي لهذا الخلل صيحة في واد . واخيرا وجدت نفسي صاحب الصوت الوحيد الذي يستنكر هذا الاجراء.

وعندما تمت انتخابات ٢٤ نيسان ١٩٣٢ خسرت مقعدي في البرلمان. وعندئذ وجب على هجر ولاية ويستفاليا لكي اسهل على زوجتي ممـارسة نشاطها الاقتصادي في اقليم السار. وهكذا اختتمت احـد عشر عـاما من النشاط البرلماني في برلمان بروسيا ناضلت فيها بحماس معترضا بشكل سافر ضد السياسة التي اسفت على تبنيها وضد السياسة التي قاومتهـا منذ عام ١٩٢٣ .



الفصل التاسع

المانيا في حالة انهيار

اصبحت صاحب جريدة . نادي السادة . الجيش . فون هندنبورغ وفون زيكت وفون شلايخر . مصالح زراعية . نونتيوس پاتشيلي ومصالح الكاثوليك الالمان . العلاقات الالمانيـــة الفرنسية . الدفاع ضد الانهيار المعنوي وضد التهديد البلشفي.

في خضم الاضطرابات التي اصابت المانيا نتيجة لتضخم سنة ١٩٢٣ ظهرت صحيفة معتدلة تدعى (جرمانيا) ولما عرضت للبيع قررت شرائها لجعل مواردها مصدرا للرزق. وكانت اسباب الخلاف بيني وبين حزب الوسط تكمن في حقيقة ممارستي لتأثير شديد على العناصر الرئيسة في قيادته . وقد ادت الحرب والتضخم الى تحديد مصادرنا المالية الى حد كبير. اما الاعتماد في العيش على المورد المحتمل من صحيفة فيعتبر قرارا صعبا لعدم ضمـــان حصول المرء على ما يقيم اوده. ولما كنت قد انهمكت بالكتابات السياسية آنذاك فقد اردت توسيع نطاق كتاباتي لطرح آرائي وافكاري في مختلف المجالات.

كانت الصحيفة التي تم تأسيسها ببرلين في عام ١٨٧٠ تقتصر فعالياتها على الطبع والتوزيع ولم تكن لها أية نشاطات اخرى في مجال الطباعة. وكانت اهمية الصحيفة تكمن في كونها الصحيفة الوحيدة الناطقة بلسان حزب الوسط. وكانت اخبار الحصول على ربح للصحيفة وهو ربح قد تصل نسبته الى ٤٧٪ من رأس المال تسري بيننا بشيء من الهم لأن الربح لم يكن مضمونا قط.

اخبرت العاملين في الصحيفة حال ملكيتي لها برغبتي في تغيير نهجها بشكل ما. وان هدفي هو ممارسة النقد وفتح مجال المناقشات حتى ولو كانت موجهة ضد الخط العام لسياسة الحزب سيرا على النهج الديموقراطي للصحيفة .

آتفقت مع الدكتور فلوريان كليوكنر الذي يشترك معي في اصدار الجريدة على ان اتولى انا رئاسة مجلس ادارتها. وجعلته رئيسا للتحرير يعاونه الكاردينال ــ فيما بعد ــ غراف غالن الذي كان ممثلا لاسقف برلين وممثل آخر للاتحاد المسيحي.

وعندما اعود بذاكرتي الآن للاعوام الثمانية التي قضيتها في هذا المجال فلابد لي من الاعتراف بأن تلك الفترة كانت حافلة بالمجهود المتواصل الى درجة الارهاق لأنني وجب علي التدخل في ادق التفاصيل المتعلقة بكل خطوة من اجل تحقيق ما اعتقد بصوابه ومن اجل فرض تأثيري التام على الصحيفة. وقد تصدى لي مجلس الادارة ورئيس التحرير في اول الامر بكل شدة ثم بكل لطف ولكن بالحاح متواصل لم يثمر عن اية نتيجة.

وكانت وجهة نظرهم تتلخص بكونهم المسؤولين المباشرين عن الخط السياسي للصحيفة. وعليه فانهم يرفضون مناقشة أية افكار تتناقض مع هذا النهج. وهكذا لم أجد مناصا من الانفصال عنهم .

واصلت الصحيفة في السنين التالية تمثيل السياسة الرسمية لحزب الوسط . ولم يكن لي مع قيادة الحزب أي شأن بالنهج العام للحزب. واذا

عنت لي بعض الآراء او الاجراءات السياسية فانني كنت اعرضها على اعضاء الجناح المحافظ من الحزب بصفة شخصية ويتم نشرها في منبر الآراء الحرة للصحيفة.

اصبح النشر يتم وفق اسس حديثة وصار الطبع بأحدث المكائن ولكنني اصبحت أنعت في اوساط الصحافة (بالمستبد) تنديدا بطريقتي في ادارة الصحيفة . واعتقد ان هذا النعت مجانبا للانصاف. وعندما اصبحت مستشارا اخبرت رئيس مجلس ادارتها وهيئة التحرير بأن الصحيفة حرة في توجيه أي نقد لي وللحكومة حسبما يرونه صوابا وذلك رغبة مني في استمرارها على نهجها الحر.

واخيرا فانني لا اود اغفال اهمية التجارب الفنية التي حصلت عليها بحكم اشتغالي بالصحافة فقد كسبت بحكم عملي الصحفي عددا كبيرا من الاصدقاء في المانيا وفي الاقطار الاجنبية. وانني لشديد الفخر بالجهود المضنية التي قام بها العاملون معي لدرجة تستحق كل احترام. لأنهم اتسموا بالشعور بالمسؤولية والفضول في متابعة الاحداث في شتى اصقاع العالم. ولا يمكنني الانكار بأن هذه التجارب اكسبتني مهارة في ممارسة مهمتي عندما اصبحت مستشارا لالمانيا وعندما صرت سفيرا لبلادي فأستفدت من تجربتي الصحفية القيمة الى ابعد الحدود.

استمرت صحيفة جرمانيا على الصدور لمدة طويلة في عهد هتلر مع محافظتها على نهجها المستقل المتوجه وفق مفاهيم الكنيسة الكاثوليكية حتى بعد حل جميع الاحزاب ولم يجيء دورها للتحول الى صحيفة نازية الا في اواخر عام ١٩٣٨ وفقا لتوجيهات الدكتور غوبلز[١] وفي ٣١ كانون الاول ١٩٣٨ كتبت مقالا وداعيا في الصحيفة التي احببتها جاء فيه:

---

(١) كان الدكتور يوسف غوبلز وزير دعاية المانيا خلال فترة حكم هتلر كما انه عمدة مدينة برلين بالوقت نفسه وقد تميز بالحماس الى حد التطرف ولما خسرت المانيا الحرب انتحر معاسرته المؤلفة منه ومن زوجته واطفاله الستة.
ـ المترجم ـ

« كنا قد جعلنا من صحيفة جرمانيا بعد وصول الحزب الوطني الاشتراكي[٢] للحكم وقيام حزب الوسط الالماني بحل نفسه وسيلة لخدمة التوافق بين المفاهيم المسيحية والعهد الجديد • اعتقادا منا بأنها يمكن ان تساهم في هذه المرحلة الدقيقة التي تتطلع بها المانيا نحو المستقبل المشرق مستفيدة من جميع الطاقات بما في ذلك الطاقة الروحية المتنامية التي تسير جنبا الى جنب مع ازدهار الاشتراكية ولابد ان تؤدي بفضل الغيرة الوطنية الى تحقيق نتائج ايجابية في ايضاح افكارنا للعالم • ولا نزال ننهض بهذا العمل حتى في الحال الحاضر••»

وعندما قرأ الدكتور غوبلز هذه الكلمة الوداعية رد عليها بغضب عارم لأنه لم يتقبل تجاسر أحد على وصف المفاهيم المسيحية بأنها تنطوي على جانب ايجابي يتوافق مع مباديء الوطنية الاشتراكية• لكن هتلر طلب منه التغاضي عما كتبت• ولربما كان لديه ما يبرر لادخار طاقة غوبلز وتكريسها لمهاجمة اليهودية العالمية وشيكاه

كانت ملكية صحيفة والمساهمة في اصدارها بالنسبة لسياسي محافظ شاب مثلي مدعاة لتأمل الافكار اليسارية وهكذا وجب علي الانتماء الى (نادي السادة) ولكن ما الذي يعنيه (نادي السادة) هذا؟

توجد في اغلب بلدان العالم نواد سياسية ولم تتجاوز فعالياتها التثقيف والترفيه ولكن لم يحدث ما حدث في المانيا عندما سخرت تلك النوادي لاغراض اخرى وجعلت «اعشاشا للدس والتضليل» ولم يشهد التأريخ الالماني مهازل كالروايات الخرافية التي رويت في ذلك العهد واعتبرت في نوادي السادة حقائق ثابتة•

وعندما تأسس «نادي السادة» في عام ١٩٢٣ حاول رئيسنا المباشر آنذاك غراف آلفنس ليبن تحديد المقصود من كلمة (السادة) وقال ان عبارة (سيد)

---

(٢) ان الاسم الرسمي للحزب النازي هو (الحزب الوطني الاشتراكي ، وماعبارة (النازي) الا مختصر لفظي لعبارة (National sozialismus) التي تعني (الوطنية الاشتراكية) • — المترجم —

تطلق في بلادنا على الرجل متبوعة بأسمه او بما يملكه او بمنصبه واطلاق هذه التسمية ينطوي على العموميات والتضليل لأنه لا يحدد صفة اولئك السادة ولا اسمائهم.

كان الغرض من تأسيس ذلك النادي جمع الرجال السياسيين من مختلف الاتجاهات بقصد ايجاد جو ودي يجمعهم لمناقشة مختلف القضايا التي تهمهم. ويتمتع كل فرد بكامل الحرية للاعراب عن وجهة نظره وانطباعاته. فكان بمقدور المرء مقابلة الكثير من المثقفين من مختلف الاختصاصات كالعلماء والفنانين والصناعيين واصحاب الأملاك والموظفين واعضاء من جميع الاحزاب. وكانت تطرح مختلف القضايا السياسية للمناقشة فيبحثها الاشتراكيون والاحرار والمحافظون وكثيرا ما كان اعضاء الاحزاب يقتنعون بوجهة نظر احد اعضاء النادي من حزب آخر.

وكثيرا ما كنت اطلب الكلام لاعرب عن وجهة نظري وخصوصا عندما يكون الموضوع متعلقا بالقضية التي تكمن في اعماق قلبي وأعني بها قضية التفاهم الالماني ـ الفرنسي. وقد دعيت للوليمة السنوية التي تقام مرة في كل سنة بالنادي شخصيات قيادية من جميع الاتجاهات وقد استغللت هذا المنبر في كانون الاول ١٩٣٢ متمنيا لحكومة شلايخر بداية جيدة.

وليس لادعاء بعض اليساريين بأن (نادي السادة) كان اداة بيد المستشار في عهد بريونينغ وفي عهدي أي نصيب من الصحة. فأنا لم اكتب اية مقالة في صحيفة النادي (دير رنغ) كما ان الادعاء بأن النادي كان خاضعا لتوجيهات الرئيس فون هندنبورغ يعتبر اتهاما مضحكا ويفضح العقلية الضحلة التي تطلق أمثال هذه المزاعم جزافا.

ويمكنني التأكيد بأن استخدام النازيين (لنادي السادة) استخداما سياسيا بعيدا عن الغرض الذي انشيء من اجله جعله مشابها للنوادي الشيوعية امثال «منزل العصبة الفنية لتجديد الديموقراطية في المانيا» وهذه النوادي لا يمكن مقارنتها بالنوادي الانكليزية المجردة من الاستخدام لاغراض

أخرى مما حدى بالحكومة العسكرية الانكليزية في القطاع الانكليزي من المانيا اصدار قرارها المرقم ٣١ بتاريخ ٣٠ مايس ١٩٤٦ الذي يلغي « نادي السادة» ويعتبره منظمة مشبوهة مما ادى الى اغلاقه بالمرة.

وكثيرا ما سألني اناس لم يشهدوا الملابسات السياسية التي عشناها ابان عقد العشرينات عن كيفية تسنمي لارفع منصب في الحكومة الالمانية بينما لم اكن على وفاق تام مع الحزب الذي كنت انتمي اليه ولم اتسنم فيالحكومة أي منصب آخر بعد الحرب.

انقسمت التيارات السياسية خلال عقد العشرينات الى قطبين متنافرين هما جماعة جمهورية ڤايمار ومعهم الاشتراكيون الذين يمارسون القيادة المطلقة وكانوا يرفضون كل ما يذكرهم بالعهد الامبراطوري البائد في المانيا وقد انضوى تحت لوائهم مليونا الماني من مختلف الاتجاهات السياسيةوكان من رأي هؤلاء ان على المانيا ان تنفذ جميع طلبات المنتصرين. وان اية مقاومة ستؤدي الى انهيار آخر يحرم المانيا من نظام الحكم الجديد ويهدد المانيا بخطر يعصف بها ويقوض نظامها تماما. اما القطب الآخر فكان يجمع اليمينيين الذين اعتقدوا خلاف ذلك بأن مستقبل المانيا وشرف شعبها يتطلب تمسكا اشد بالتقاليد والتصدي لطلبات الدول الاجنبية وتحقيق تضامن اوطد بين ابناء الشعب الالماني وكان هناك عامل نفسي مؤثر لصالح اصحاب هذا الرأي هو الاهانة التي تشعر بها الامة الالمانية نتيجة للاجحاف الذي اصابها لأنها وجدت نفسها مجبرة على تحمل اوزار الحرب لوحدها بعد الاندحار الذي تعرضت له.

بذلت همتي في هذه الفترة لتحويل حزب الوسط من المجموعة الاشتراكية وتوجيهه للتعاون مع الاحزاب اليمينية وقد حصلت على تأييد عدد من الاصدقاء الذين شجعوني في هذا المسعى. وقد تقدمت بانتقادات لنظامنا البرلماني مشيرا الى نقاط الضعف التي ينبغي تلافيها الا انني تلقيت نقدا شديدا من تآلف احزاب حكومة ڤايمار. بينما حظيت بالتقدير من اوساط الاصلاح البرلماني.

حصلت على تقدير خاص للخط السياسي الذي اتهجته من رفاقي القدماء في القوات المسلحة الذين وصلوا في تلك الفترة الى مواقع قيادية مرموقة في الجيش الالماني لأنهم كانوا مجبرين بحكم التقاليد والتثقيف العسكري على الابتعاد تماما عن ممارسة السياسة بحيث يكون الجيش اداة غير سياسية . ولكن ينبغي الا ننسى بأن العسكريين الالمان انهمكوا خلال عقد العشرينات في خوض قتالات حاسمة ضد الجماعات المتطرفة سياسيا. ولما حل السياسيون الحزبيون بمحل صاحب العرش على رأس الدولة لم يعد من المنطق ابقاء الاداة العسكرية بمنأى عن النشاط السياسي.

ادى انتخاب فون هندنبورغ لرئاسة الجمهورية الى توازن الموقف الداخلي في المانيا. وسرعان ما عاد الموقف الى حالته الطبيعية خلال الفترةبين عامي ١٩٢٥ و١٩٣٠ وعلى الرغم من الازمات الاقتصادية التي احاقت بالبلاد في عام ١٩٣٠ فان الجيش الالماني بقى بمنأى عن التدخل بأمور الدولة ولم يصدر عنه أي تكدير للامن الا ان شخصية الفريق فون شلايخر كانت ذات طبيعة ميالة للتدخل وفرض التأثير على رئيس الجمهورية . وقد بقى الجيش الالماني يراقب عن كثب التوتر المتزايد بين الاحزاب اليمينية وخصوصا الحزب النازي وبين الحكومة بقلق شديد. وقد حاول فون شلايخر في هذا الموقف بالذات التحري عن رجل على علاقة وطيدة مع احزاب الوسط ويحظى بتعاطف احزاب اليمين وان يكون ذا صفة محافظة ولكنه متحالف مع احزاب الوسط لأنها كانت الخصم اللدود لحكومة ڤايمار.

وقد يبدو الامر مبسطا للغاية ولكن الحقيقة جديرة بأن تذكر. فاللواء فون شلايخر هو صاحب فكرة تكليفي بتشكيل الوزارة. ويبدو انه عزز رأيه هذا بالزعم بأنه يمثل رأي الجيش بدرجة قلت ام كثرت. ويجب علينا ان نلقي نظرة على الشخصيات الثلاث المتنفذة والتي يمكنها اتخاذ قرارات حاسمة بالنسبة للجيش آنذاك وهؤلاء الثلاثة هم فون هندنبورغ وفون زيكت وفون شلايخر.

لم اكن على معرفة شخصية بالمشير فون هندنبورغ قبل نشوب الحرب

العالمية الاولى . لكنني بطبيعة الحال كانت لي علاقات جيـدة مع مختلف الشخصيات القيادية في الجيش الالماني بحكم كوني ضابط ركن في المقرالعام وبخاصة مع الفريق فون لودندورف. وقد سبق ان ذكرت آنفا بأنني عندما كنت اتعرض الى موقف حرج كنت الجأ الى المقر العام طلبا للمساعدة. وعندما فشل تعرض الربيع الذي قمنا به في جبهة فلسطين عام ١٩١٨ راجعت المقر العام في شهر آب من تلك السنة لتوضيح دقائق موقف تشكيلي على الجبهة المذكورة حيث اتيحت لي فرصة مقابلة المشير فون هندنبورغ ايضا. ولا ازال اتذكر سيماء المشير الوقور المتميز برباطة الجأش رغم تدهورموقفنا العسكري على تلك الجبهة. وقد حدث ان قابلته مرة اخرى في كولبيرغ عندما انتهت الحرب وتعرضت للموقف الدقيق مع القـائد ليمان فون ساندرس فازداد اعجابي بشخصيته وتفانيه في خدمة الشعب الالماني في تلك الفترة السوداء من تأريخ المانيا. وفي عام ١٩٢٥ القيت بثقلي المتواضع في الميزان السياسي من اجل انتخاب المشير فون هندنبورغ لرئاسة الجمهورية الالمانية . ولم اكن بتماس مع المشير خلال الفترة الممتـدة الى عام ١٩٣٢ ما عدا المناسبـات الرسمية التي اذكر منها حفلات الاستقبال الشتوية التي كنت ادعى اليهـا بصورة رسمية وكانت لقاءاتي مع ذلك القائد مفعمة بالذكريات التي لا تنسى.

كان فون هندنبورغ يتمتع بذاكرة عجيبة. فهو يتذكر تفاصيل الحديث في أية مقابلة ويحفظ الكثير من تفـاصيل التأريخ البروسي. ولم يكن من العسير ان اشعر بتأييد مختلف الاحزاب لترشيحي واجماع زعمـاء الكتل البرلمانية على الاعتراف بسياستي الوطنية . وعندما طرح اسمي الفريق فون شلايخر على الرئيس لم اكن بالنسبة له شخصا غريبا. وعندما الفت معايشة الرئيس في كل يوم تقريبا خلال فترة عملي بمنصب المستشار كنت اصحبه في التمشي بالحديقة القريبة من مكتبه واتلقى توجيهـاته كنت اشعر بدفء مشاعره الودية نحو كل الناس لأنه يتميز بعاطفة تنطوي على السماح والمحبة حتى عندما كان يتحدث عن خصومه.

وعندما حدث ان زرته في منزله الريفي بمزرعة نوي‌دك[٣] تأبط ذراعي وقادني الى ايوان صغير وكانت صورة الفريق فون لودندورف[٤] معلقة على الجدار . وكان الجدل محتدما في تلك الفترة بين طائفة تظن ان النصر الذي حققه الجيش الالماني على روسيا يعود الفضل فيه لقيـادة المشير فون هندنبورغ بينما تظن طائفة اخرى بأن فضل الانتصار يرجع لحنكة رئيس اركانه اللامع الفريق فون لودندورف. فتطلع الرئيس نحو صـورة رئيس اركانه وقال:

« يؤسفني كثيرا ان صداقتنا اصابهـا شيء من الفتور . فأنا اقدر الرجل حق قدره دوما ». وعندما تحدثنا بشأن معركة تاننبرغ لخص الرئيس وجهة نظره بشأن الواقعة المذكورة قائلا:

« لقد نسب فون لودندورف ذلك الانتصـار لنفسه. ولكن لو ان المناورة التي قام بها الجيش جانبها الحظ وأدت الى اندحارنا في المعركة فان وزر الاندحار كان سيقع على كاهلي وحدي. وانا اعلم هذه الحقيقة حق المعرفة لأنني سبق أن خدمت معلما للتعبية في الاكاديمية الحربية طوال ست سنوات».

---

(٣) تقع مزرعة نوي دك في بروسيا الشرقية .

(٤) الفريق اريش فون لودندورف ضابط ركن الماني لامع كان رئيسا لاركـان الجيش الثامن الالماني ابان الحرب العالمية الاولى وقد تمكن هذا الجيش من تحقيـق انتصـارين مؤزرين على الروس في آب وايلول ١٩١٤ بمعركة (تاننبرغ) التي قضى فيها على الجيشين الروسيين الاول والثاني بالتعاقب فاستقر الموقف على الجبهة الشرقية . وفي نهاية آب ١٩١٦ اعفى الامبراطور غليوم الثاني رئيس هيئة الاركان العامة الفريق فون فالكنهاين من منصبه وعين بدله المشير فون هندنبورغ الذي اختـار الفريق فون لودندورف معاونا له فعملا سوية منذ ذلك التأريخ حتى نهاية الحرب حيث ذهب فون لودندورف الى السويد وكتب مذكراته ثم عاد الى المانيـا في عام ١٩١٩ فساهم في حركة دينية ثم تحول للتعاون مع هتلر في محاولة الثورة الفاشلة التي تمت بميونيخ في ٨ تشرين الثاني عام ١٩٢٣ ولم ينقذه من عقوبة الاعدام سوى ماضيه العسكري المشرف . وفي عام ١٩٢٤ اصبح عضوا في البرلمان عن الحـزب النـازي ثم اعتكف في مقاطعـة توتزنك حتى وفـاته في ٢٠ كانون الاول ١٩٣٧ .
ـالمترجمـ

ولعل الميزة الاكثر وضوحا في سجايا المشير المبجل هي حرصه على المبادرة لتحمل المسؤولية ، ثم ان هالة الوقار التي يراها رجال الجيش الالماني محيطة بشخصيته كانت كفيلة بحلوله محل شخصية الملك والنأي بالجيش عن دوامة الفوضى السياسية التي كانت تعيشها المانيا بسبب حرصه على منع الاحزاب من تشتيت قوة الجيش بتوزيع رجاله الى مجموعات متناحرة.

خدم الجيش الالماني في تلك الفترة الى جانب المشير فون هندنبورغ قائد الجيش البارز الفريق فون زيكت.

كان الفريق فون زيكت من رجال المدرســة القديمة ولم يتأثر بالآراء الحرة التي ظهرت في الاقطار الاجنبية الا بمقدار ضئيل. وانما ســار على خطى اسلافه العظام امثــال فون مولتكه وفون شليفن. وكان ان طبق في ممارسته لقيادة الجيش الالماني معظم الآراء التي نادى بها هذان القائدان.

وهو يتميز بالوضوح والتفهم التام لمعضلات العمل العسكري وطبيعة القضايا التي ينتظر مصادفتها في ظروف الحرب. كما انه متمكن من مهنته لدرجة المهارة في ايجاد الحلول المناسبة لمختلف المشكلات السوقية والتعبوية ومستوعب لمتطلبات ادارة الحرب الحديثة. وكانت شخصيته من الشخصيات البنائة المتميزة التي برعت في القيام بفعاليات رائعة خلال العقد الاول من عمر الجمهورية الالمانية ، ولعل السر في بقائه بمنصبه المهم في تلك الفترة الحرجة يكمن في صعوبة ايجاد من يفضله في اداء مهمته العسيرة وهي بناء الجيش الالماني الذي فرضت معاهدة فرساي تقييده بقيود كثيرة[٥].

وكنت قد التقيت بالفريق فون زيكت في وقت مبكر من حياتي العسكرية عندما خدمت في كتيبة ديوسلدورف برتبة ملازم حيث كان بمنصب آمرسرية

---

(٥) تضمنت معاهدة فرساي تحديد حمولة الاسطول الحربي المسموح لالمانيا الاحتفاظ به ومنعها من الاحتفاظ بأية قوة جوية ومن وجود هيئة اركان وتحديد قواتها البرية بمائة الف رجل منهم اربعة آلاف ضابط ومنعها من الانتاج الحربي . لكنها بدأت بالتجاوز على هذه القيود والالتفاف عليها قبل نقضها من قبل هتلر بصورة علنية بمدة طويلة .

ــ المترجم ــ

في اللواء ٣٩ ۰ وفي عام ١٩١٨ وصل فون زيكت الى منصب رئيس اركان في تركيا وقد وضع خططه في صيف ١٩١٨ لاحتلال القفقاس والاستيلاء على باكو والاندفاع منها لاستعادة بغداده وقد بدت لي هذه الخطة مغرقة في الخيال، وواضح انه لم يكن قد استوعب تماما مدى تأثير الاراضي الآسيوية على الحركات مع عدم توفر القطعات الكافية لتنفيذ تلك الخطط.

حافظنا انا والفريق فون زيكت على علاقاتنا الودية واتصالاتناالمستمرة طوال فترة اشتغالي في المجال السياسي بعد الحرب. ولما اصبح الجيش الالماني السلطة الوحيدة لحفظ النظام في فترة الفوضى السياسية التيشهدتها المانيا صار فون زيكت من اقوى شخصيات البلاد بحكم مركزه القيادي.

وقد حدث ان ناقشنا أنا ومجموعة من ضباط هيئة الاركان العامة الذين كانوا يعملون في المقر العام الخط السياسي الذي يسير به فون زيكت وركزنا على علاقاته مع روسيا أيضاء فتبين لنا انه لم يساهم قط في اتفاقية راپاليو (واذكر من المشتركين في تلك المناقشة فون شلايخر وفون هامرشتاين اكوورد وبوشه وهاربو وغيرهم) وقد احيط فون زيكت علما بالاتفاقية المذكورة بعد توقيعها ۰ الا انه كانت له علاقة حميمة مع روسيا بحكم اقتدائه بسياسة فون بسمارك، لأنه وجد في روسيا الملاذ الوحيد للاستعاضة عن الاسلحة الرديئة المجهز بها جيشه المقيد بمعاهدة فرساي بأسلحة حديثةولكي لا يبقى الجيش الالماني محروما من القوة الحقيقية الكفيلة بتهيئة اسباب النصر ۰ وقد افصح لي الرجل عن رأيه هذا بصراحة تامة وأعرب عن تأييده لاتفاقية راپاليو السرية التي ابرمها المستشار ڤيرت الذي كان وزيرا للمالية بالوقت نفسه وبذل الاموال اللازمة لتغطية نفقات التسلح السري بسخاء متحملا كامل المسؤولية في سبيل الوطن ۰

ولقد قيل الكثير عن العلاقات السرية التي نشأت بين فون زيكت واصحاب المراكز القيادية في الدولة السوڤيتية ۰ فهو بصفته القائد العام لجيش محرم عليه اقتناء أية اسلحة حديثة لابد أن يحاول بطبيعة الحال ادامة الاتصال بواسطة عدد من الضباط الاكفاء مع مصادر التطوير التقني ومتابعة التحسينات

والابتكارات والمخترعات المتعلقة بالتسليح اينما وجدت . وقد جاءت المفاتحة الاولى من روسيا برسالة كتبها القائد العثماني السابق انور باشا عندما كان مقيما في موسكو بتاريخ ٢٦ آب ١٩٢٠ الى الفريق فون زيكت يخبره برغبة تروتسكي باستقدام بعض المدربين الالمان للجيش الروسي . وفي أيلول ١٩٢١ تم الاتفاق بمسكن الفريق فون شلايخر على انشاء صناعة عسكرية روسية بمعاونة المانيا لقاء شروط معينة .

الا ان الروس رغبوا باجراء محادثات شخصية مع الفريق فون زيكت وقد أجرى السفير الروسي ببرلين محادثات عديدة معه. الا ان أغلب المحادثات التفصيلية قام بها معاونو فون زيكت وهم هاسه ونيدرماير وتومسون . وتقرر ارسال مجموعة صغيرة من الضباط الالمان الى روسيا لكي تقوم بتأسيس معامل صناعة الطائرات والدبابات والمدفعية الحديثة. وقد وافق المستشار ڤيرت على عقد اتفاقية سرية للتعاون العسكري يكون غطائها العلني ممثل بشركة وهمية تدعى «شركة التطوير الصناعي المشتركة» كما وافق على منح روسيا قرضا ماليا سريا لهذا الغرض وقد قامت هذه الشركة بتأسيس ميادين رمي عديدة داخل الاراضي الروسية كما قامت شركة (يونكرز) بتأسيس معمل لصنع الطائرات قرب مدينة موسكو.

استندت اتفاقية راپاليو على المادة ١١٦ من معاهدة ڤرساي حيث منحت تلك المادة الاتحاد السوفيتي حق استئناف العلاقات الاعتيادية مع المانيا وحق التعاون معها على قدم المساواة مع دول الحلفاء الاخرى. وفي أواخر عام ١٩٢٢ اخبرنا السفير السوفيتي ببرلين راديك بأن فرنسا طلبت من الاتحاد السوفيتي استغلال هذا الحق وممارسة الضغط على المانيا. ثم ان فرنسا تجاوزت تلك المساعي الى محاولة ارباك العلاقات الالمانية ــ البولندية .

في ايلول ١٩٢٥ قام تشيتشيرين بزيارة فون زيكت فأشارت الصحف الالمانية لتلك الزيارة خصوصا عندما استقال الفريق فون زيكت بعد الزيارة المذكورة بأيام قلائل . ثم تحدث زعيم الحزب الاشتراكي الديموقراطي شايدەمان في البرلمان باسهاب عن «الاتصالات السرية» التي يجريها الجيش

الالماني مع موسكو لكن احدا لم يأبه لأقواله ولم تؤخذ على محمل الجد.

تحمل الجيش الالماني لوما شديدا عندما قام الفرنسيون باحتلال منطقة الروهر ولجأ بعض اعضاء البرلمان من المحاربين القدماء الى استدعاء منظوماتهم العسكرية المقاتلة امثال «الفيلق الحر» و «الخوذة الفولاذية» و«حماة المانيا» بقصد التصدي للفرنسيين وطردهم من الاقليم الالماني المحتل. ومع ان استدعاء الاحتياط كان مخالفا لمعاهدة فرساي الا ان الالمان لابد ان يدافعوا عن اوطانهم مهما كان الثمن (لم تكن بريطانيا مشتركة بذلك الاحتلال) وقد هدد پوانكاريه بالتقدم بالجيش الفرنسي نحو برلين كما تأيد عزم البولنديون على مهاجمة المانيا بالوقت نفسه وعندئذ وجدت المانيا ان من الحكمة التريث لحين تقوية جيش المائة الف المتواضع بانشاء قوة حرس الحدود من بضعة آلاف رجل لحماية حدودها الشرقية ازاء الطمع البولندي بالتخوم الشرقية من الوطن.

وعلى المرء الا يتناسى حقيقة الموقف الداخلي الذي كان سائدا في المانيا آنذاك فالعملة متدهورة القيمة واستطاعت زمرة من الشيوعيين الاستحواذ على السلطة وتأسيس حكومة محلية في ولاية سكسونيا(٦). وكان الاشتراكيون يديرون حربا أهلية ضد الجيش الالماني النظامي بينما يهدد الشيوعيون بالاستيلاء على السلطة في المانيا كلها باتباعهم شتى الوسائل.

لذلك وجدت ان من المهم مفاتحة قادة حزب الوسط الذي كنت انتمي اليه لاتخاذ التدابير الكفيلة بتقوية موقفنا الدفاعي لمجرد اثبات وجودنا. الا انني وجدت من هؤلاء كل رفض لمقترحي لانهم كانوا مناهضين للتطوير العسكري لاسيما بعد ان قام افراد من منظمة الخوذة الفولاذية باعتقال زعيم حزب الوسط الدكتور هيس في مدينة كوبلنز. وعندما نشبت الاعمال العدوانية ضد الفرنسيين في اواخر ايلول ١٩٢٣ واتخذت شكل المقاومة

---

(٦) عاصمتها مدينة فرانكفورت / مين بالمانيا الغربية حاليا.
ـ المترجم ـ

المنظمة بمنطقة الروهر حاول سكان اقليم (بفالز)[٧] القيام بحركة انفصال عن الدولة الالمانية وتأسيس جمهورية الراين • بينما اضطر رئيس جمهورية المانيا الاشتراكي ايبرت على استخدام الجيش الالماني لاستعادة السيطرة على النظام في اقليمي سكسونيا وتورنغن ووصلت الازمة الى أوجها في اواخر شهر تشرين الاول ١٩٢٣ عندما طلبت حكومة اقليم باڤاريا من الفرقة السابعة المرابطة في ذلك الاقليم ان يقسم رجالها يمين الولاء لحكومة باڤاريا بدلا من الولاء لالمانيا• وقد أصدر الفريق فون زيكت أمراً للواء فون لوسوف قائد منطقة باڤاريا بالامتناع عن تنفيذ طلب حكومة باڤاريا الذي ينطوي على خطوة انفصالية الغرض منها تقويض الوحدة الالمانية •

وقد تقدمت انا في تلك الفترة برجاء للفريق فون زيكت ان يبذل قصارى جهوده للحفاظ على الوحدة الالمانية • فكتبت له قائلا بأن أبسط خطوة في هذا السبيل أن يتولى هو شخصيا رئاسة حكومة جديدة لأنه في الواقع يعتبر الرجل الوحيد الذي يمكنه انقاذ الموقف• الا ان فون زيكت لم يكن راغبا في ان يصبح مستبدا عسكريا ولا ان يكون مستشارا لالمانيا بعد ان منحه الرئيس ايبرت كامل ثقته واعطاه جميع الصلاحيات لأحكام السيطرة على جميع اجزاء المانيا• وقد كان فون زيكت عند حسن ظن لرئيس ايبرت عندما سيطر الجيش الالماني على الاحداث التي وقعت في اقليم اقاريا وقضى على محاولة هتلر الانقلابية • ولما قابلت فون زيكت بعد تلك نفترة وتحدثنا بشأن توليه منصب المستشار اكد لي ثانية مدى امانته في حمل المسؤولية ازاء الرئيس ايبرت قائلا:

« هناك في المانيا رجل واحد يمكنه تدبير انقلاب وهو انا • الا ان جيش الالماني لا ينقلب !»

هو الاقليم المتاخم لامارة لوكسمبورغ وعاصمته مدينة ماينز بالمانيا الغربية حاليا •
— المترجم —

كانت هناك دوائر فرنسية كثيرة تعتقد بأن الفريق فون زيكت يمثل المانيا القديمة وتزعم انه قائد الماني متعطش للانتقام وعليه فقد بذلت قصارى جهودها لتعقيد مهمته.

ولعل تلك الدوائر تشاركني الأسف الشديد الآن لأن فون زيكت لم يستطع السيطرة على الموقف في ذلك الوقت الحرج من تأريخ المانيا . اذ لو تولى رئاسة الحكومة في المانيا رجل مثله يكره الاستبداد ويتجنب الحرب لشهدت المانيا ازدهارا صناعيا وحافظت على كيانها المتماسك.

كان سقوط فون زيكت مهزلة سياسية. فقد دعى اكبر ابناء ولي عهد المانيا السابق لحضور مناورات الجيش. وكانت هذه الدعوة كافية لاستثارة الاحزاب اليسارية التي حذرت من خطر العودة للنظام الملكي وخشيت من مغبة التمادي بالاعمال المناهضة للجمهورية . وقد تضامن الاشتراكيون والنازيون ايضا في اثارة حملة الانتقاد الشديدة الموجهة للفريق فون زيكت واعربوا عن خشيتهم من اعادة ولاء الشعب الالماني للبيت المالك السابق. واذكر هنا ان هتلر اصدر اوامره في عام ١٩٤٣ بمنع ابناء الاسرة المالكة السابقة والامراء الالمان من الخدمة في الجيش والمساهمة بالدفاع عن الوطن. ومع ان فون زيكت بقى محافظا على وفائه لرجال الاسرة المالكة السابقة الا انه لم يحاول ابدا اعادة تلك الاسرة للحكم بالقوة. وكانت حصيلة الضجة السياسية التي اثيرت ضد القائد فون زيكت بسبب دعوته للامير لحضور مناورات الجيش الالماني ان اضطر وزير الدفاع الدكتور غيسلر على اقصاء الفريق فون زيكت من منصبه.

ويمكننا التعرف على آراء فون زيكت من خلال قراءة مذكرات الفريق فون رابيناو. فهو يعتبر الاطاحة بفون زيكت نتيجة لدسيسة من دسائس فون شلايخر. فقد حدث في مطلع سنة ١٩٢٦ ان تمكن اللواء فون شلايخر من اقناع وزير الدفاع الدكتور غيسلر بتشكيل لجنة وزارية يشرف عليها الوزير شخصيا وتكون برئاسة فون شلايخر نفسه. وقد لجأ فون شلايخر لهذا الاجراء لكي يبعد الجيش الالماني عن التأثيرات السياسية التي

اخذت تتناوشه. اما فون زيكت فكان من رأيه ان فون شلايخر كان يبغي بإجرائه هذا ابعاد فون زيكت نفسه عن أي نشاط سياسي وابقائه محايداً. وقال فون زيكت ان اتهامه بقضية الجيش الأسود[8] لم يكن السبب الأساسي لاقالته لأن وزير الدفاع ساهم بها شخصياً.

وعلى اية حال فان اقالة فون زيكت لم يكن اللواء فون شلايخر براء منها لأنه اعتقد باحتمال وقوف الفريق فون زيكت حجر عثرة في سبيل وصوله الى منصب مستشار المانيا فكانت عملية الاطاحة به جزء من مخططه المتقن للوصول الى المنصب الذي كان يصبو اليه.

في ٥ حزيران ١٩٣٢ كتب فون زيكت في يومياته وكان فون شلايخر قد رشح نفسه لعضوية البرلمان في الانتخابات التي كانت حكومتي تشرف عليها:

« وأخيرا وجب انتخاب فون شلايخر ايضاً. وهذا في الواقع اكثر من الكثير».

في ايام العهد الملكي بالمانيا لم يكن هناك ضابط واحد ولا شخص واحد يمكن ان يعتبر الجيش الالماني اداة للسياسة الداخلية. ولم يحدث قط ان استخدمت اية قطعة عسكرية بمهمة تتعلق بالسياسة الداخلية . وحتى في عهد ثورة ١٨٤٨ لم تستخدم القطعات العسكرية الا بمهمة حماية شخصية الملك. وقد اعتدنا حتى عام ١٩١٨ على العيش في بلد يسوده النظام وتمارس الحكومة سياسة الدولة وتقتصر مهمة المحافظة على النظام والامن على الشرطة وحدها. اما حكومة ايبرت ــ شايدمان الثورية فلم يكن لها أي سند شعبي ولم تتمكن من المحافظة على وجودها الا بفضل القتال الذي خاضه الفيلق الحر وجيش المائة الف رجل. ومع ان فون زيكت شهد كل الاضطرابات التي تعرضت لها المانيا فانه بقي يواصل مهمته الاساسية وهي

---

(8) الجيش الاسود منظمة من المتطوعين الالمان خصصت لمهمات حماية الامن الداخلي . ــ المترجم ــ

انشاء الجيش الجديد وفق احدث الأسس والعمل على تسليحه بأفضل المعدات والابقاء على تماسكه. وواضح ان اغلبية ضباط الجيش كانوا من المحافظين وهؤلاء اكثر ميلا للمفاهيم اليمينية منهم للمفاهيم اليسارية. ولما تنامت الحركة النازية بقي المحافظون وضباط الجيش بمنأى عن تقبلها.

ألا ان الافكار النازية وجدت قبولا وعلى نطاق واسع في صفوف الضباط الشباب بحكم تميزها بالعنفوان ولكن هذا الميل لم يكن خطرا طالما بقي المشير فون هندنبورغ على رأس الدولة لأنه كان الضامن للنأي بالجيش عن خضم المشاكل الداخلية واساءة استخدامه بسبب اعتماده الكلي على شرطة بروسيا في التصدي لأية اضطرابات.

وقد تعرضت انا لهذا المأزق عندما كنت مستشارا لالمانيا حيث حصلت حالة حرجة في ٢٠ تموز ١٩٣٢ لكننا عالجناها بالحكمة دون أي تدخل قسري . ولما دعت الحاجة الى تحويل رجال الجيش الاسود لاملاء ملاكات قوة حرس الحدود واكمال نواقص القوة المذكورة من المنظمات الحزبية شبه العسكرية التي سبق لها ان قاتلت على الحدود دفاعا عن الوطن اجرينا اتصالات مباشرة مع مختلف الاحزاب ومنها الحزب النازي ـ في تلك المرحلة الحرجة ـ وكانت اتصالاتنا متسمة بشيء من الجفاء.

ويرجع تمسك الجيش الالماني بالنأي عن المساهمة بالامور المتعلقة بالسياسة الداخلية واقتصار مهمته على الدفاع عن الوطن ازاء أي خطر خارجي للتقاليد التي جبل عليها رجاله والتزموا بها منذ مئات السنين. ولقد حاول بعدئذ بعض القادة الضعفاء في مهنة الجندية التذرع بالنشاط السياسي لتسلق قمة المجد وكان الفريق فون شلايخر نموذجا بارزا لهذه الزمرة وقد مارس نشاطه في عقد العشرينات وتميز بتسلله الهادىء.

كان فون شلايخر جنديا ابن جندي وصولا الى جده الرابع وقد بلغ سن الخمسين في عام ١٩٣٢ وقد حالفه الحظ عندما خدم في كتيبة الحرس الثالثة التي سبق ان خدم في صفوفها المشير فون هندنبورغ وولده اوسكار. وهكذا وجدت رابطة تقليدية يشترك بها اولئك السادة الثلاثة. اما في

الاركان العامة فقد خدم فون شلايخر قبل الحرب بأمرة الفريق غرونير الذي صار فيما بعد وزيرا للدفاع.

وفي فترة الحرب خدم فون شلايخر بمكتب الفريق فون لودندورف أي انه ساهم بصورة مباشرة في اصدار جميع القرارات المهمة. وباستثناء مرحلة قصيرة جدا فانه لم يخدم في جبهة القتال وعليه فانه لم يكتسب خبرة القتال وانما اكتسب لقب « قائد المكتب » الذي عرف به في الجيش الالماني على سبيل الانتقاص.

أدرك اللواء فون شلايخر المرحلة الحاسمة من حياته في كانون الاول ١٩١٨ عندما اوفده المشير فون هندنبورغ الى برلين لاخبار الرئيس ايبرت باعتراف الجيش الالماني بالجمهورية الوليدة واستعداده لأسناد الحزب الاشتراكي الديموقراطي في حالة تعهده بالنضال ضد الشيوعيين والمحافظة على النظام. وفي أواخر كانون الاول ١٩١٨ قامت فرقة بحرية شيوعية بتطويق مقر الحكومة والقاء القبض على الدكتور ايبرت والوزراء فأستطاع اللواء فون شلايخر بمعاونة الرائد پابست تحريرهم من الاعتقال ثم ساهم بصورة فعالة في القضاء على القلاقل التي أثارها الشيوعيون في ولايتي سكسونيا وتورنغن. وهكذا ارتبط اسمه بانقاذ الجمهورية الالمانية الوليدة وباعادة تنظيم الجيش الالماني الحديث.

لقد ساهم فون شلايخر آنذاك في جميع الفعاليات مثل عقد الاتفاقية السرية (الملمع عنها آنفا) مع روسيا . وقد حاول بعد تحقيق هذه العملية كسب استقلال اوسع في حرية العمل . وكان من الطبيعي ان يتقدم لوزير الدفاع بمقترح لتأليف لجنة برئاسته وتكون باشراف الوزير نفسه تكون مهمتها معالجة المواضيع المتعلقة بالسياسة العسكرية. ومن هذا الموقع الحساس باشر فون شلايخر ممارسة التأثير على المشير فون هندنبورغ. ولم يخضع الا للقليل من السيطرة التي حاول احكامها عليه وزيرا الدفاع غيسلر وغرونير بالتعاقب وكذلك قائد الجيش الفريق فون زيكت.

سبق ان تعرفت على الفريق فون شلايخر منذ عهد الاشتغال في هيئة

الاركان العامة كما انني رأيته خـلال الحرب في المقر العـام مرات عديدة. وقد تمكن من كسب عدد كبير من الاصدقاء بفضل تقديراته الذكية ونكتته الحاضرة وتفاؤله الدائم ووجهه الطلق. ولا يمكنني الزعم بأننا كنا اصدقاء ولكنني كنت أميل اليه لحسن شمائله. وفي خلال اشتغـالي السيـاسي في البرلمان كنت اقابله كثيرا كمقابلتي لرفاقي العسكريين الذين سبق ان عملوا معي في هيئة الاركان العامة.

وقد قال لي آنذاك بأنه يرى وجوب اصدار أمر بمنع العسكريين من ممارسة العمل السياسي. وان جميع القضايا السياسية التي تخص الجيش يجب ان تتم معالجتها من قبل اللجنة الوزارية التي يرأسها هو ويشرف عليها وزير الدفاع. بينما ستكون قيادة الجيش متفرغة للعمل العسكري وحده. لكننا سمعنا آنذاك من فون زيكت بأن اللواء فون شلايخر يستغل منصبه المقرب من المشير فون هندنبورغ والوزير غرونر لابعاد قـائد الجيش فون زيكت والشخصيات القيادية الاخرى عن المجـال السيـاسي لكي ينفرد بالسيطرة على الجيش ثم على المانيا والوصول الى ارفع مقام.

عندما حان موعد اعادة انتخاب الرئيس فون هندنبورغ في ربيع ١٩٣٢ واضطرب الموقف الداخلي نتيجة لتفاقم نشاط النازيين ناقشت الحالة القائمة في المانيا مع فون شلايخر عدة مرات وتباحثنا في الاحتمـالات المختلفة . ولم يكن لدي أي انطباع أو تصور باحتمال ترشيحي لمنصب المستشار . وكان لصداقة فون شلايخر مع اوسكار فون هندنبورغ ودرجة الثقة التي يتمتع بها لدى الرئيس ابعد الأثر في كسبه لاحترام قادة الجيش الالماني وسأحاول التحدث عن تفاصيل تحول افكار فون شلايخر في الفصل الخـاص بتوليه منصب المستشار.

كثيرا ما قيل لي بأن ظهور امثال فون شلايخر يعتبر متعذرا في الجيش البريطاني او في الجيش الامريكي. وانا اؤيد هذا الرأي. وأظن انه ما كان ليظهر في الجيش الالماني ايضا لو لم يصر الحلفاء المنتصرون على الاطـاحة بالنظام الامبراطوري دون مبرر معقول.. ذلك لأنه لم يكن هناك أي مجـال للانتهازية في عهد المانيا البروسية.

دأبت طوال فترة اشتغالي بالمجال السياسي على ادامة الاتصال الوثيق مع ابناء الشعب وتتبعت مصالحهم الاقتصادية كما كنت دائم التحري عن مجالات التعاون الأوربي الضرورية وهذا التحري جعلني استمر على الاتصال بالشخصيات القيادية الفرنسية.

قضيت فترة في ممارسة اعمال الزراعة في المنطقة المحيطة بمنزلي في ميرفيلد[٩] وساعدت على مد الطرق وايصال الكهرباء ومد سكة حديد للمنطقة وكان لمساهمتي في تجفيف المستنقعات ابعد الاثر في انجاز هذه المهمة بسرعة تامة. والفت اتحادا للفروسية من شباب المنطقة وجعلتهم اكثر حنوا على خيولهم وسهلت لهم وسائل تداول الخيول وتوفير العلف اللازم لها.

وفي اواسط العشرينات تلقيت من سكان تلك الانحاء منصب «محافظ شرف». فساهمت في وضع ميزانية ادارية متقنة وأطفيت ديونها وتظمت ضرائب الادارة المحلية. وقد اقتضت مني تلك الجهود بذل المساعي المتواصلة في ساعات الفراغ لدرجة الاجهاد لكنني كنت سعيدا بخدماتي للجيران.

وقد أدت خدماتي الكثيرة للمزارعين الويستفاليين في البرلمان الى تحمسهم في انتخابي لعضوية اتحادهم الزراعي وغرفة التجارة الزراعية وقد ادى التعاون الوثيق مع اعضاء المؤسستين المذكورتين الى قيام صداقة متينة بيني وبين رئيسهما البارون فون كيركيرنك تسوربورغ وهو عضو بارزفي حزب الوسط في الفترة التي سبقت الحرب. وقد ساعدني الرجل كثيرا في استمالة احزاب اليمين الى جانبي عندما كنت بحاجة لتأييد مختلف الاحزاب. واجدني ملزما بالاعتراف بالجميل للاتحادات الزراعية الالمانية التي اولتني ثقتها في جميع المناسبات السياسية كلما كانت لها فرصة المساهمة بالاقتراع.

توصلنا في تلك الفترة الى وضع أسس متينة للاقتصاد الشعبي وتثبيت

---

(٩) تقع ميرفيلد شمال منطقة الروهر الصناعية وعلى مقربة من الحدود الالمانية ــ الهولندية . ــ المترجم ــ

اسعار المنتجات الزراعية وكان التفاوت بين اسعار المنتجات الصناعية واسعار المنتجات الزراعيــة قد ادى خلال عقــد العشرينــات الى تهــديد وجود الكثير من المشاريع الزراعية. وقد وجدت ان افضل وسيلة لمعالجة هذه الازمة هي التوصل الى تفاهم مع زعماء التكتلات الصناعية. وقد اثمرت الاتصالات الشخصية التي أجريتها مع رجال معروفون امثال فريتز تيسن وپيتركلويكنر وشپرينغوروم وپوينزغن والبرت فوغلر وأسرة هانيل وأسرة فون كروپ التي سبق ان التقيت بشبابها في عهد شبابي عندما كنــت ملازما في حــامية ديوسلدورف ودعيت الى حفلاتهم. ولابد لي من الاشــارة هنــا ــ كما سأنوه فيما بعد ايضا ــ الى ان بعض الصحفيين المغرضين زعموا بعــد انتهاء الحرب العالمية الثانية بأنني استغللت علاقــات الصداقة مع رجــال الصناعة من اجل تسهيل ارتقاء هتلر ووصوله الى قمة السلطان. و أنا أؤكد بأنني لم انفق فلسا واحدا في هــذا السبيل ولم ينفق أي فرد من اولئك الاصدقاء أي مبلغ لصالح هتلر.

اصطدمت رغبة الكنيسة الكاثوليكية الدائمة في تحقيق حرية كنائسها ومدارسها بمقاومة الاشتراكيين والاحرار. وكان ممثــل الكنيســة في تلك المباحثات المونسنيور العنيد أوجينيو پــاتشيلي ــ الذي صار فيمــا بعد البابا پيوس الثاني عشر ــ ومنذ مئات السنين لم يكن احد زعماء الكنيسة قد تعرف على المانيا وشعبها ومواطن القوة والضعف الكامنة فيه مثل ذلك السيد. وقد اتيحت للكثيرين من رجال المانيا القياديين آنذاك فرصة التعرف على هذه الشخصية الدينية الرائعــة التي عــاصرت احرج مرحلة من تأريخ الانسانية والتي كانت لديها معلومات مستفيضة عن الشعوب واصولها. كما ان الرجل كان بالاضافة الى مقامه الدبلوماسي بصفته القاصد الرسولي لدى المانيا معلما ورجل دولة وقدوة حسنة للآخرين في جميع الظروف الحرجة. وقد بذل جهوده اللامحدودة من اجل سعادة البشر والتقرب الى الله . وكان جديرا بالحظوة التي حازها في المجتمع الالماني والاسناد الذي تلقاه من مختلف الاوساط الالمانية. ولو قيض له النجاح في مساعيه التي بذلها عندما اوفده

البابا بنيدكت الخامس عشر الى ولايـة بافاريا من اجل منع نشوب الحرب العالمية الثانية لتجنبنا الكارثة التي نجمت عنها.

تنامت صداقتنا في تلك الفترة وتعاونا في اقامة كنيسة جميلة اولاهـا الكثير من عطفه ومحبته. كما انه ابدى آنذاك مقاومة شديدة ضد الصبغـة الشاملة التي ارادها البروتستانت لبروسيا الشرقية التي كانت تهدد بانحسار الكاثوليك عن شمال المانيا. وكانت حصيلة ذلك ان توصل الى اتفـاقيـة منصفة مع البروتستانت ومع ذلك فقد اتهم بأنه كان يبغي كثكلة بروسيـا برمتها. ولا ازال أذكر انني عندما اخبرته بذلك الاتهام اجابني بأنه سبق ان كتب مقالا في احدى الصحف دعى فيه لاعادة بناء كنيسة كامين وان هذه الكنيسة القديمة كانت ترعى الكاثوليك في ولايتي پوميرانيا وبراندنبورغ وأعقب كلامه ضاحكا:

« هذا كل ما في الأمر »

ألا انه قال بأن الصعوبات الحقيقية التي صادفها تكمن في المحادثـات التي اجراها من اجل تعيين اسس اشتغال اسقفية العاصمة الالمانية.

كانت رغبتي في تلك الفترة شديدة لاقامة اتصالات وطيدة مع قـادة الكنيسة الكاثوليكية من نبلاء شمال المانيا . وقد لقيت هذه الرغبة تأييدا حماسيا من القاصد الرسولي. وكان ان زارني القاصد في احد تلك الايام في النادي الذي لم يسبق ان احتوت قاعاته احد زعماء الكنيسة الكبار ابداً. فأقمت على شرفه وليمة دعوت اليها نخبة من الاصدقاء المقربين اذكر منهم الكاردينال ـ فيما بعد ـ غراف غالن ورئيس الجمعيـة الزراعيـة غراف بالستريم واعضائها ماغنيس وبراشماو دروستـه فشهرنغ والبـارون فون كيركيرنك تسوربورغ وتفيكل وهيرهمان وغيرهم وكانت الدعوة في نـادي فرقة خيالة الحرس. وقد رانت على تلك القاعات الخاوية بعد حل تشكيلات الجيش الالماني القديم مسحة من الاسى لأننـا لاحظنا ان جدران القاعات كانت مزينة بصور ناطقة للملاحم التي خاضتها كتائب الخيالة البروسية في العهود الغابرة كما شاهدنا الكثير من الهدايا النفيسة التي منحها ملوك وزعماء

بعض الدول الاجنبية ومنهم قيصر روسيا الذي كان آمر شرف لاحدى تلك الكتائب. وقد ظهر الانشراح على ملامح المونسنيور پاتشيلي عندما تطلع نحو رموز الامجاد الحربية بذلك التشكيل. ولما عرضت عليه صورة معـركة «مارس لاتور» وبجانبها حطام البوق الذي اصابته رصاصة وتم ربطه كيفما اتفق لكي ينفخ به البوقي لآخر مرة نداء الهجوم قال بلهجة ملؤها الشفقة:

« كم من دماء نبيلة سالت على هذه الارض بلا موجب. اننا لنسأل المولى القدير أن نستعمل البوق من إجل السلام لأن العالم يحتاجه لافراحه ايضا».

وسوف لن انسى التوديع المؤثر لذلك الدبلوماسي البارع لبرلين حيث احتشد آلاف البرلينيين لتوديع الرجل الكبير لعاصمة المانيا الى الابد لأنه نقل الى منصب امين سر دولة الفاتيكان. وقد اتيحت لي فرصة الالتقاء به في روما يوم عيد الفصح لعام ١٩٣٣ لكي اتفق معه بصفته امين سر الدولة للپاپا پيوس الحادي عشر على تفاصيل الاتفـاقية الپاپاوية مع المانيا. وكان التحفظ الناتج عن وصول هتلر الى السلطة وتسنمه منصب مستشار المانيا مبررا للتمسك بحقوق الكنيسة.

وقد بذلنا جهودنا لتحقيق التفاهم المنشود بقصد التغلب على حالات الضعف البشري والتمسك بالمثل العليا لمقاومة الكره والافتراء والعـادات الذميمة الاخرى المستشرية بين الناس.

لعل اوسع مجالات اهتمامي ـ وقد لاحظت مدى حراجة موقف المانيا بحكم موقعها الحساس في قلب اوربا ـ كان منصباً على تحسين العلاقـات القائمة مع فرنسا. وقد قدرت ان الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام لألمانيا ولأوربا تكمن بمحاولة ازالة جدار الكره والشك والخوف التي اقامها كلا البلدان الواحد ازاء الآخر. ويجب علينا محاولة تغيير الروحية المؤدية الى ممارسة سياسة عدوانية متبادلة بين المانيا وفرنسا . لاسيما وان الكنيسة الكاثوليكية مقام محترم في كلا البلدين وتربطهمـا علاقـات جوار أبدية تستوجب توفر حسن النوايا.

ولم تقتصر علاقاتي الشخصية مع فرنسا على وجود قرابة بين اسرتي المقيمة في اقليم السار الحدودي والكثير من الاسر الفرنسية مما يجعل هذه القرابة جسرا متينا بين شعبينا وانما تعدتها الى اهتمامي منذ سنين طويلة بالأدب الفرنسي ومتابعتي للصحافة اليومية الفرنسية وظللت مؤمنا بمجيء اليوم الذي سيحل به الوئام بين الشعبين العريقين. وفي عام ١٩٢٧ ساهمت لأول مرة في صحيفة (مجتمع الاحد) الصادرة عن المعهد الكاثوليكي بباريس ولا ازال احتفظ بذكريات جميلة عن تلك المحاولة الاولى. ولما دخلت الى القاعة الكبرى لذلك المعهد لاحظت وجود عدد من اعلام الدول تمثل المشتركين في ذلك الاجتماع ولما امعنت النظر لم أجد بينها علم المانيا وقد سألني امين سر حزب الوسط الذي كان معي بشيء من الغضب عما اذا كان اغفال وجود علمنا دليل على عدم الرغبة بوجودنا ولربما يستحسن انسحابنا من ذلك الاجتماع. فأجبته بأنني اعتقد عكس ما يزعم تماما لأن منظم الحفلة المونسنيور بوردريللا الذي صار فيما بعد كاردينالا تقدم بأحر اعتذاراته منا راجيا عدم اعتبار قضية وجود العلم مشكلة سياسية لكونها مجرد هفوة تنظيمية ولا علاقة لها بالسياسة.

أظهرت الزيارة المقابلة التي قام بها اصدقاؤنا الفرنسيون مدى التوتر والجفوة الواسعة بين الطرفين مما يجعل تحسين علاقات البلدين من الامور العسيرة وكان الوفد الزائر مؤلفا من رئيس الوزراء السابق فرانسوا مارسال والسيد كومت فيلكس دوفوغو والاساتذة جين برونيه ولويس رولاند ورئيس الحزب الكاثوليكي شامپيتيه دي ريبز. ورافق الوفد السيد غويو من اكاديمية فرنسا والسيد رينيه پينو مؤسس صحيفة (دوموند) والرهبان دولاتر ودولابريه ودانسيه ودولاسير وبوپان. واخيرا وليس آخرا ممثل اتحاد البيطرة الفرنسي العقيد پيكو.

وقد كتب السيد بواسار في صحيفة (اوربا الجديدة) بعددها الصادر في ٨ آذار ١٩٣١ مقالا مستفيضا عن آخر مؤتمر الماني ــ فرنسي عقد ببرلين في كانون الاول ١٩٣٠ منتقدا عدم جدية المشتركين بذلك المؤتمر وتكهن بعدم

امكانية تلافي الكارثة المحدقة بالعلاقات الالمانيـة ـ الفرنسية ومن حسن الحظ ان مهندسي حركة وحدة اوربا الحالية توصلوا للمشاكل السياسية التي عانت الاجيال السابقة من عقابيلها وتغلبوا عليها وقد جاء في ذلك المقال:

« كانت محادثات برلين مفعمة بالجديـة وتهدف للتغلب على الازمة الوخيمة العواقب •• وينتظر ان تتفـاقم الازمة القـائمة حالياء وقد اراد المؤتمر ان يبرهن على اهمية الثقة المتبـادلة • وعندمـا ابدى العقيد پيكو تخوفه من الرعب المتأتي عن الحرب مستعملا ادق العبارات للتنديد بالحرب التي تهدد العالم كله لأنه يدرك ما تنطوي عليه من نتائج مفجعة بصفتـه جنديا محترفا قديما وضابط في القوات المسلحة الفرنسية سبق ان ادى واجبه ازاء شعبه ووطنه بكل ما اوتي من قوة تلقى يده جندي الماني محترف وضابط في القوات المسلحة الالمانية وفي هذه اللحظة اشار المؤتمرون للمساواة التي تفرضها الكنيسة الكاثوليكية على اتباعهـا بينما تؤدي التفرقة الى المعاناة والظلم واخيرا اجمع المؤتمرون على ان العالم يحتاج الى الكثير من المساعي الخيرة لتحقيق العدالة بين البشر وتجنب العدوان الذي لا زالت بعض الدول تهدد الآخرين به»•

« واخيرا فان الجانبين توصلا الى اعتماد الجانب الروحي في توجيه نداء لكلتا الدولتين من اجل اقامة علاقات طبيعية بينهمـا واحترام حقوق الاوطان في كل منهما مع العمل على اقامة سلم اوربي وطيد»•

وسوف لا انسى ابدا تلك البادرة التي تنطوي على روح الفروسيـة الأصيلة عندما مددت يدي لمصافحة خصم قديم هو جندي فرنسي شجاع سبق ان أصيب بجرح بليغ وكنت امثل بذلك العمل ارواح الملايين من رفاقي الشهداء واخلاقية رفاقي الاحياء•

لقد أظهرت الدروس التي تعلمناها من السنين الماضية بأننا يجب أن نجدد السعي في الطريق الوحيد المؤدي الى السلامة باقامة الوحدة الاوربية• أما بشأن التقاليد التي تفرضها القومية في كلا بلدينا فهناك الكثير من التقاليد المنسية والتي ينبغي الاستعاضة عنها بالتمسك بالتقاليد الكاثوليكية المشتركة

التي تربط بلاد الغرب ببعضها البعض وتقربها من عبادة الله.

شمل نشاطنا المجال السياسي ايضا لتقريب وجهات النظر الفرنسية والالمانية ففي مايس ١٩٢٦ قام اميل مايريش الصناعي البارز من امارة لوكسمبورغ بتوجيه نداء لبعث «لجنة الدراسات الالمانية ــ الفرنسية» وقد لبى نداءه بعض الدبلوماسيين الفرنسيين المعروفين امثال السفير السابق شارل لورين ودي مارغري وعدد من الاقتصاديين الكبار امثال دي پيريمهوف وسومير وتيودور لورين ومارليو وميرسييه وپييرلوتيه وعدد آخر من العلماء والمثقفين امثال الدوق دي بورغلي وهنري لشتنبرغ وجين شلومبيرغر ولوسيان روميه واندريه زيغفريد وفلاديمير دورميزون الذين صاروا اعضاء في اللجنة المذكورة عن الجانب الفرنسي. اما عن الجانب الالماني فقد لبى ذلك النداء اسقف برلين المونسنيور الدكتور شرايبر والسادة بيوشر وپونزغن وفروهڤاين ودوتيش والمصرفيين المعروفين ڤاربورغ وميندل زوهن والاساتذة الدكتور كورتيوس وهاس وبيرغ شتراسر ومن دبلوماسي للمدرسة القديمة غراف أوبرندورف والامير هاتسفيلد ووزير الدولة السكسوني السيد فون نوستيز ڤالڤيتز.

لقد سردت على القاريء كل هذه الاسماء اللامعة للتدليل على مدى جدية عمل اللجنة التي صادفها احباط مدبر عندما جعل الوزير فون ريبنتروب رئاستها لصديقه السيد دي برينون.

شرعت اللجنة بنشاطها في عام ١٩٢٨ وهو نشاط متميز بالحماس والاخلاص وقد ذكر تفاصيله غراف فلاديمير دي اورميزون ــ الذي صار بعدئذ سفيرا لفرنسا في الفاتيكان ــ في كتابه الموسوم «لجنة في المانيا» وقد نشرت ترجمة ذلك الكتاب الى الالمانية في دار نشر (جرمانيا) واذكر ان الفصل المتعلق بجلسة يوم ٣٠ كانون الاول ١٩٢٨ يشير الى رغبة الشعبين الاوربيين في تحقيق التعاون الوثيق بينهما.

انفصل عن اللجنة صديقنا القديم السيد اندريه زيغفريد. وقد كتب ذلك الالمعي المثقف في كتابه «اهداف الشعب» بأننا نملك من الناحية الجغرافية

مفتاح اوربا، ولكنه تشكك في مدى امكانية اعتبارنا من شعوب بلاد الغرب، حيث يبدو انه تأثر برأي الكاتبة «مدام دي ستايل» التي زعمت ان هناك المانيتين بدلا من المانيا واحدة وقالت ان احداهما تنتمي للحضارة الغربية والاخرى تنتمي للهمجية البروسية وحددت الحد الفاصل بينهما بالاراضي الممتدة شرق نهر البه اما سيغفريد فجعلها تبدأ من غابات توتوبورغ ونسي اننا تنصرنا منذ الف سنة وتمسكنا بالاخلاق الفاضلة واننا نحن الذين نذود عن حياض اوربا ولم يحدث أن قامت فرنسا بهذه المهمة. واذكر من اجتماعات اللجنة المتعددة ذلك الاجتماع المهم الذي عالجنا به المشكلات الالمانية الفرنسية بكل صراحة تحت شعار «المستقبل المشرق» يوم ١٩ تموز ١٩٣١ وتوجهت فيه بنداء لرجال الدولة الفرنسية للتعاون على اسس مسيحية مع المستشار الالماني الدكتور بريونينغ من اجل وضع مباديء راسخة لتسهيل التعاون الاوربي. واظن أن الصورة ستكون ناقصة ــ طالما انا بصدد احداث العشرينيات ــ اذا لم اتطرق للهيئة الثقافية في تلك الفترة . فبعد عملية الفصد الرهيبة التي تعرضت لها المانيا نتيجة لاندحارها في الحرب العالمية الاولى ظهرت بعض علائم الانهيار المعنوي على اولئك الذين لم يقتنعوا بقوة المانيا الدفاعية. ثم سرت موجة عارمة من الدعاية شنتها بعض الصحف والاذاعة وافلام السينما ضد المفاهيم السائدة باعتبارها مفاهيم (رجعية) وهاجمت القوانين والانظمة المرعية والتقاليد والعادات الاجتماعية زاعمة انها (اعباء ينوء بها الشعب) وان حماية الشعب تتطلب تخليصه من كل هذه العقبات. ودعت تلك الموجة الفوضوية للتخلص من نظام الزواج والنظام العائلي لأنها تعتبرهما من النظم التي لا تتوائم مع العصر. وقد ظهرت امارات هذه الموجة على مختلف فروع الفن كالرسم والنحت والمسرح. وكان ان نشبت مشاحنات كثيرة في مختلف الاوساط حتى بين الاذكياء عندما التقى المتمسكون بالقيم الروحية مع دعاة الفوضوية من البلاشفة.

لم تكترث حكومات المانيا التي كانت من الحزب الاشتراكي لهذه الموجة المضادة للقيم الروحية ولم تقاومها ولذا فقد قمت في عام ١٩٢٩ مع عدد من الاصدقاء بتشكيل «جمعية الحفاظ على الثقافة الغربية» وهي تحمل اسماً

رنانا وغير متواضع نسبيا . ولكنها كانت مجرد محاولة لمنع الضرر المحدق بالمجتمع الالماني اعتمادا على قوتنا الذاتية المحدودة. وقد قدرت بأن الاعتماد على قوة الدين سيؤدي للحصول على افضل النتائج لاحباط هذه الموجة الهمجية المنكرة. وما لبثت جمعيتنا ان اتخذت القرار باستطلاع آراء رجال الدين للمساهمة في حملتنا الوقائية. فتلقينا ترحيبا بالفكرة من زعيم الكنيسة الكاثوليكية في المانيا آنذاك الامير لويفنشتاين الذي تعهد بأسناد الكنيسة لجمعيتنا .كما انضم للجمعية غراف كيسرلنك ممثلا لمصالح الكنيسة البروتستانتية فيها. ولست ادري بالضبط مدى النجاح الذي حققناه رغم ان الصحافة التي كانت تدعو للفوضوية وجهت الينا اشد الانتقادات ونعتتنا الصحف الشيوعية بالطليعة الهجومية المضادة للديموقراطية وبمعاداة حقوق الانسان.

تجلت هذه الواقعة في ارجاء العالم الاخرى خلال عقد الثلاثينيات لتبرهن للعالم على ما تهدف اليه الشيوعية الاممية من تغيير للمفاهيم المعتبرة وتؤكد بأن اول تصد منظم لاحباطها حدث في المانيا قبل غيرها. والآن بعد الحرب العالمية الثانية ـ عادت هذه الموجة لتجتاح اوربا التي لم تعد مركز القوة في العالم ـ شأنها شأن روما القديمة بعد اضمحلالها ـ وستبقى القيم الروحية العامل الحاسم في الحفاظ على الحضارة لأنها اشد مقاومة من القوة المادية والسلاح بأنواعه.



الفصل العاشر

سقوط حكومة ڤايمار وأخطاء بريونينغ

مشكلات التصحيح . بريونينغ مستشارا لالمانيا . ممارسة الحكم وفق المادة ٤٨ . انتخابات مجلس الامة . نجاح الوطنيين الاشتراكيين . نداء للرئيس هوفر . بريونينغ في لندن وباريس وجنيف . تسلط فون شلايخر . انهيار الاقتصاد . لماذا بعون اليمين ؟ اعادة انتخاب هندنبرغ . مفتاح سياسة بريونينغ .

ان المرحلة التي سآتي على وصف احداثها قد اخطأ المؤرخون كثيرا في سرد وقائعها لعدم تفهمهم لدقائق تلك الوقائع. كما قام الحلفاء الغربيون بعد انهيار المانيا في عام ١٩٤٥ بالعمل على تحطيم معنوية خصمهم المندحر معتبرين اوزار النازية من مسؤولية الشعب الالماني برمته بينما تقتصر تلك المسؤولية على الخوف الذي تعرض له الشعب الالماني خلال عشرة اعوام فقط. في الوقت الذي اعتبروا به مرحلة قيامي بمسؤولية المستشار تمهيد لارتقاء هتلر ووصوله الى سدة الحكم وهذه من الاخطاء الفاحشة التي القيت بها التهم جزافاً دون روية او اعتبار لضرورة ذكر الحقيقة المجردة خدمة للتأريخ. واني

لآمل ان يجيء من يعيد النظر في تأريخ المانيا خلال الفترة المحصورة بين ١٩١٨ و١٩٣٢ لما اكتنفتها من احداث كانت مثارا للنقد الشديد على مر السنين. كما انني سأضع هنا الخطوط العامة للاحداث التي جرت في الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٠ و١٩٣٢ لما لها من اهمية مباشرة على نشاطي السياسي ووصولي الى منصب المستشار.

في ١٧ مايس ١٩٣٠ اعلنت الحكومة عزمها على تطبيق خطة يونغ التي حلت محل خطة داويس التي سبق ان اعلنت في عام ١٩٢٤ وهي خطة اقتصادية كنا نحذر من تطبيقها لأنها تتضمن اتخاذ اجراءات استبدادية لا تحمد عواقبها بالاضافة الى تدابير اقتصادية أخرى تعتبر أخطاء رأسمالية . أما الغرض الأساس من هذه الخطة فهو اصلاح النظام الاقتصادي دون أي تبديل في نظام التعويضات الا انها تتضمن تحويل ثقل التعويضات من كاهل الدولة الالمانية الى المشاريع الاقتصادية والصناعية الخاصة. وواضح ان الغرض الحقيقي الكامن وراء تلك الخطة هو تقويض النظام الاقتصادي الالماني بتعريضه الى ازمة اخرى تجعله غير قادر على معالجتها .

لقد حاولت في تلك الفترة اقناع وزير الخارجية الدكتور شتريزةمان باللجوء الى اجراءات مالية جديدة تستعيد بموجبها المانيا اقليم السار على الاقل اذ مما لا شك فيه ان عودة هذا الاقليم الصناعي سيجعل موقف المانيا المالي اكثر رصانة. الا ان الدكتور شتريزةمان كان يتوقع القليل من الامل في هذا الاجراء ولذا بقي كل شيء على ما هو عليه.

لم تكن احزاب اليمين وحدها هي المعارضة لتنفيذ خطة يونغ وانما انضم لها الدكتور بريونينغ ـ الذي كان على وشك تسنم منصب مستشار المانيا ـ وأوصى باصدار لائحة مالية للمحافظة على اقتصاد البلاد واكد بأن خطة يونغ ليست خطة معقودة بين طرفين متكافئين وانما هي خطة مفروضة فرضا من خصم متسلط.

جعلت هذه الخطة حكومة ڤايمار في موقف شديد الحرج. وطلبت من

الاشتراكيين التحري عن وسائل حماية امن الدولة لانها تحسبت من عقابيل تنفيذ الخطة لاسيما وان الاضطرابات التمهيدية قد استشرت في مختلف ارجاء البلاد وكانت حصيلتها ان اصيب خلال العام المنصرم في اقليم بروسيا الشرقية وحده ثلاثمائة شرطي بجراح بليغة مات منهم أربعة عشر. وسرعان ما أدت تلك الازمة الى سقوط حكومة المستشار ميوللر الذي كان من الحزب الاشتراكي الديموقراطي. وكان الاشتراكيون قد رفضوا التصويت على لائحة الاصلاح المالي المطروحة على البرلمان لمعالجة قضية الضمان الاجتماعي للعاطلين عن العمل.

عندئذ قام رئيس الجمهورية بتكليف الدكتور بريونينغ بتشكيل الحكومة الجديدة.

وكان تشكيل الحكومات يتم منذ قيام الجمهورية الالمانية وفقا لقاعدة توفر الاغلبية البرلمانية . ولما تخلت اغلبية الاشتراكيين الديموقراطيين عن تولي السلطة فقد صار لزاما على المستشار الجديد التحري عن الاغلبية المنشودة بتآلف احزاب اليمين . اما اذا لم تتآلف تلك الاحزاب فلابد ان تشكل مجموعة المعارضة. الا ان الدكتور بريونينغ لم يشأ التعاون مع احزاب اليمين لأنه خشي من التعرض لأزمة اقتصادية يدبرها له الاشتراكيون . وعليه فقد آثر ابقاء حكومته بلا اغلبية برلمانية تسندها مؤملا ان يحصل على ثقة اصدقائه القدماء من التحالف الاشتراكي عندما يحقق لهم ما يرضيهم ولذلك فقد استبعد اليمينيين من الحكومة التي شكلها. وكان بالامكان تنفيذ هذه التجربة فيما لو اقرت بعض القوانين وفقا للمادة ٤٨ من الدستور. وهذه المادة تعطي لرئيس الجمهورية الحق بممارسة بعض الصلاحيات في الظروف الاضطرارية دون الرجوع للبرلمان.

لكن هذه الاجراءات تستوجب استحصال موافقة البرلمان حال زوال تلك الظروف الاضطرارية. ولربما يمكن استغلال الظروف الاضطرارية لحل البرلمان. الا ان حل البرلمان واجراء انتخابات جديدة كان يخيف الاشتراكيين من احتمالات فقدان بعض المقاعد.

سميت حكومة بريونينغ الجديدة «حكومة الرئيس» لأنه تلقى التكليف بتشكيلها من الرئيس شخصيا وليس اعتمادا على اغلبية برلمانية.

ولما تعرضت انا شخصيا للتجربة نفسها بعد سنتين مع فرق واحد هو انني كنت آمل الحصول على تأييد احزاب اليمين لحكومتي وصفتني احزاب اليسار «دفان الديموقراطية». وكانت هناك بطبيعة الحال فروق كثيرة بين حكومتي وحكومة بريونينغ . فقد صبر بريونينغ على الاشتراكيين من اجل الحصول على الاسناد اللازم لحكومته في البرلمان. اما انا فقد تبنت احزاب اليمين اسناد حكومتي في البرلمان حال وصولها للسلطة وحرمتني من أية فرصة للتوصل الى تفاهم مع الاحزاب الاخرى من أجل الحصول على الاغلبية الضرورية في البرلمان. كما حرمتني من محاولة تحقيق أي تعاون مع تلك الاحزاب.

استقبلت اغلبية ابناء الشعب الالماني المستشار الجديد بريونينغ بالترحيب الحار. لأنه معروف بجديته واستقامته . وكان قد عمل مستشارا قانونيا للاتحاد المسيحي ولذا فانه ظهر في تلك الفترة كأفضل شخص ملائم لوضع اسس السلام الاجتماعي دون التأثير على الحالة الاقتصادية . وكان ان بذلت جهودي المخلصة لدى جميع الاصدقاء والمعارف لاسناد الدكتور بريونينغ وحكومته المحافظة أما النقد الذي اتعرض له الآن بسبب ذلك الاسناد للدكتور بريونينغ في عهد توليه المسؤولية فانه يرجع لاسباب تأريخية. ولا علاقة لما قمت به من جهود بالتقدير الفائق لشخصية الدكتور بريونينغ.

لم يشترك الحزب الاشتراكي الديموقراطي في حكومة الدكتور بريونينغ وعليه فان من الطبيعي قيام هذا الحزب الكبير بدور المعارضة ومتابعة نشاط الحكومة وتسقط هفواتها. الا ان الحزب الاشتراكي الديموقراطي لم يسلك السبيل الديموقراطي وانما قام بحماية بريونينغ وتأييد مطالبته بالسلطات الاستثنائية ــ ولكن دون ان يتحمل مسؤولية ذلك التأييد ــ ولو مارس حقه في ابداء المعارضة لألجأ الدكتور بريونينغ الى الاعتماد على أغلبية مؤتلفة من احزاب اليمين. وعندئذ كانت احزاب اليمين قد حصلت على فرصة

بعد اجراء انتخابات جديدة. وفي هذه الاثناء تفاقمت الازمة الاقتصاديةالتي نشبت في مايس ١٩٣٠ وتدهور الموقف في المانيا بصورة حادة عندما تزايد عدد العاطلين عن العمل فأربى على المليون وتطلبت معونة هؤلاء وعوائلهم مبلغ ١٦ر٦ مليار مارك. ومع ذلك فان هذا الاجراء لم يكن كافيا واقتضى اعلان حالة الطواريء للسيطرة على الموقف. بينما اقترحت الحكومة الاقدام على تضحية جديدة لتلافي هذا الموقف الحرج. وعند اجراء الاقتراع الثاني على طلب المستشار الموافقة على تغطية النفقات المالية المقترحة تقدم الحزب الاشتراكي الديموقراطي بطلب اقالة الحكومة. وقال زعيم ذلك الحزب:

« ان حكومة الدكتور بريونينغ تجري الآن محاولة للقضاء على الروح الديموقراطية للدستور».

بينما ادعى الشيوعيون في تعليقهم على خطاب بريونينغ بأنه يريد التحول الى مستبد فاشي. وعلى الرغم من ان الاشتراكيين لم يكن امامهم أي اختيار

آخر لتسوية النفقات المالية الباهظة التي تتطلبها اعاشة تلك الاعداد الغفيرة من العمال العاطلين . الا انهم اعتقدوا بأن الانتخابات الجديدة ستعرضهم للمغامرة لاسيما وان البرنامج المالي الذي اعده الدكتور بريونينغ يتضمن ايضا تقديم الاسناد المالي للعمال العاطلين . وعليه فانهم كانوا يأملون ايضا تسديد ضربة شديدة للرأسمالية في الانتخابات الجديدة . وهكذا اجبر المستشار بريونينغ على حل البرلمان واجراء انتخابات جديدة.

تعتبر الانتخابات التي تمت في المانيا بتاريخ ١٤ أيلول ١٩٣٠ نقطة تحول في تأريخ المانيا . اذ اشترك في خوض معركتها خمسة عشر حزبا سياسيا في عهد سادت به الفوضى السياسية بشكل لم تشهده البلاد من قبل. وقد تمخضت عن فوز ساحق للمتطرفين والاحرار. فحصل الشيوعيون على ٢٣ مقعد جديد بينما قفز رصيد النازيين من ١٢ مقعد الى ١٠٧ مقاعد. وخسر حزب الوطنيين الالمان نصف مقاعده تقريبا لأن احدا لم يتفهم دور المحافظين في عدم منح حكومة بريونينغ أية فرصة لتحقيق خططها. والملحوظة البارزة التي تمخضت عنها الانتخابات هي ان الحزب النازي اصبح ثاني اقوى حزب في البرلمان الالماني.

أما الملحوظة الأخرى التي تمخضت عنها تلك الانتخابات فهي ما أصاب الحزب الاشتراكي الديموقراطي الذي كان من اقوى احزاب المانيا وهوالذي تمهد دستور ڤايمار بالرعاية التامة وكان يضم بين اعضائه عددا كبيرا من الاذكياء والاحرار وكبار المفكرين . اذ افلس هذا الحزب من الناحية السياسية ولم يبق من اعضائه في البرلمان الالماني الا عدد متواضع من ممثليه. وقد تذرع الحزب باختلال المفاهيم الديموقراطية وعليه فقد ابدل اسمه الى «حزب الدولة الالماني» وكأنه يعتبر الدولة تصحيح للديموقراطية المختلة. ويمكن اعتبار هذا الحزب مثالا ناصعا لتراكم الاخطاء على ديموقراطية حكومة ڤايمار لدرجة ادت الى الاطاحة بها. وعندما جرى التصويت على قانون منح هتلر الصلاحيات الاستثنائية تدنى عدد ممثلي حزب الدولة الالماني الى اربعة ممثلين فقط.

في ١٦ تشرين الاول ١٩٣٠ القى الدكتور بريونينغ خطاب افتتاح البرلمان الجديد قائلا: « ان الازمة العالمية عصفت بالشعب الالماني بصورة خاصة واثرت الى حد كبير على قيمه الروحية النابعة من آلامه ومعاناته التي شهدها في السنين المنصرمة ، وان المرحلة التي وصلنا اليها بالغة الحرج».

وقد ساهم الدكتور بريونينغ نفسه مع اعضاء وزارته في اجراء اتصالات متعددة مع الدول الاجنبية بغية التغلب على الازمة الناتجة عن قلة الموارد المالية الضرورية لتصريف امور الدولة الالمانية بعد ان برزت للعيان كارثة زراعية في شرق المانيا في ذلك العام، وكان الهدف الاول الذي جعلته الحكومة نصب عينها هو الحفاظ على الحرية القومية في السياستين الداخلية والخارجية دون ان يداخل الشك ابناء الجيل الجديد بشأن مستقبلهم، ولقد مضت في هذه الفترة كثير من الدول قدما في تنفيذ خطط تسلحها دون اعارة أي اهتمام للمواثيق الدولية فأدى ذلك الى خلل بالغ بأمن العالم وسلامه، وكان من الطبيعي ان تقوم الحكومة الالمانية بدورها باتخاذ التدابير الحمايوية اللازمة للدفاع عن الوطن وحماية الشعب الالماني،

ولربما يقوم البعض بانتقاد بريونينغ على هذا الاجراء واعتباره«قومياً متطرفاً» ولكن ما هو البديل الذي يمكن ان يلجأ اليه وقد وجد نفسه بموقف تسلح فيه جيرانه بشكل محموم؟

وعلى الرغم من تحذير الحزب الديموقراطي الاشتراكي من انسياق الدكتور بريونينغ نحو الاستبداد فانه ايده في خطواته التي اتخذها لتعزيز قوة الدفاع عن الوطن، وقد تطلبت الازمة الاقتصادية التي ازدادت شدة في مطلع كانون الاول ١٩٣٠ وضع برنامج تطهير مالي جديد، فجرى تقليص جديد للمصروفات والمشاريع كما رفعت نسبة الضرائب بالمقدار الضروري، ولما طرحت الحكومة اجراءاتها الاضطرارية وطلبت الموافقة عليها في ١ كانون الاول ١٩٣٠ وفقا للمادة ٤٨ من الدستور وافق عليها البرلمان بعد ايام قلائل وايدها ممثلو الحزب الاشتراكي الديموقراطي أيضا، الا ان آمال حكومة بريونينغ باتخاذ التدابير السلبية المذكورة للتغلب على الازمة الاقتصادية

العالمية مع ممارسة سياسة الايفاء بالالتزامات الدولية اعتمادا على قوتها الذاتية وحدها تبخرت نتيجة لتفاقم الازمة خلال مطلع سنة ١٩٣١. فقد اطاحت تلك الازمة باقتصاد الكثير من الدول لدرجة اضطرتها على زيادة الضرائب وتقليص النفقات مما الجأ روزفلت ـ قبل وصوله الى رئاسة الولايات المتحدة ـ الى وضع (خطة الولايات المتحدة لانقاذ الاقتصادالعالمي من التدهور) وكان ان توصل الدكتور بريونينغ الى اتفاق مع حكومة النمسا لتأسيس اتحاد كمركي الماني ـ نمسوي الا ان تنفيذ هذا الاتفاق اصطدم بمعارضةدول الحلفاء المنتصرة في الحرب العالمية الاولى التي لم ترض بقيام الدولتين الناطقتين بالالمانية بأية خطوة وحدوية.

ادى انهيار مؤسسة القروض النمسوية في حزيران ١٩٣١ الى جعل النمسا أول ضحية للازمة المالية العالمية فأصبحت الدولة النمسوية على حافة الانهيار الاقتصادي التام وفي ١٥ حزيران ١٩٣١ طالبت فرنسا بقسطها المستحق من التعويضات المفروضة على النمسا وكان معنى هذا افلاس النمسا تماما. واصبح على المانيا ان تنتظر نفس المصير. وعليه فقد قام المستشار ووزير الخارجية ثم اعقبهما رئيس الجمهورية نفسه باجراء اتصالات شخصية كثيرة مع حكومات الدول المنتصرة وبذلوا منتهى الاساليب الودية المهذبة من أجل مساعدة المانيا في التغلب على الازمة المالية المحيقة بها ولكنهم لم يحققوا أي نجاح في تلك المساعي. افليس من العجب ان يشهد المرء تضامنا قوميا تاما مع الحكومة في هذا الظرف الحرج؟ فعندما طار الدكتور بريونينغ ومعه كورتيوس الى لندن ابدى رئيس الوزارة البريطانية مكدونالد تفهما لموقفهما ولكنه اسدى لهما نصيحة مفادها وجوب الاعتماد بالدرجة الاولى على قوة المانيا. الا ان مقياس تفاقم الازمة ازداد ارتفاعا فقامت الحكومة باستدعاء السفراء والمبعوثين الدبلوماسيين الى برلين لاجراء محادثات شفوية معهم.

واعلن مصرف المانيا تعرضه لمضايقات شديدة من اصحاب رؤوس الاموال الاجانب.

في ٢٠ حزيران ١٩٣١ تقدم الرئيس فون هندنبورغ برجاء شخصي لرئيس جمهورية الولايات المتحدة الامريكية السيد هوفر طالبا مساعدة بلاده لالمانيا فأقترح الرئيس هوفر على جميع الدول ارجاء المطالبة بديونها لالمانيا في ذلك العام فقط فرفضت الحكومة الفرنسية ذلك المقترح فوراه وكان تبريرها انها لم تأخذ في حساباتها المالية لذلك العام اقتطاع الموارد المذكورة وتأجيل دفعها. فطلب المستشار الالماني اجراء حوار الماني ـ فرنسي بهذا الصدد الا ان فرنسا اهملت الاجابة على هذا الرجاء ايضاه وفي هذه الاثناء ظهرت اول بوادر الانهيار على الاقتصاد الالماني خلال النصف الاول من شهر حزيران ١٩٣١ فأسرع مدير مصرف المانيا المركزي بالسفر جوا الى جميع مراكز المال الاوربية محاولا ايجاد أي مخرج للازمة والحصول على اسناد أي من تلك المراكز وفي ١٣ حزيران ١٩٣١ اصبحت الكارثة وشيكة الوقوع فأغلق احد مصارف المانيا الكبرى أبوابه. وبعد اربعة ايام تلقى الدكتور بريونينغ ووزير خارجيته دعوة لزيارة باريس. ولربما يرجع السبب في توجيه هذه الدعوة المفاجئة الى تحسن العلاقات الالمانية ـ الانكليزية نتيجة لزيارة الدكتور بريونينغ للندن.

في تلك الاثناء تلقى المستشار بريونينغ احدى الضربات القاصمة التي وجب عليه قبولها على مضض وهي نقض الحلفاء الغربيين للاتحاد الكمركي المعقود بين المانيا والنمسا . وكان السيد فرانسوا پونسيه ـ الذي صار فيما بعد سفيراً لفرنسا ببرلين لسنين طويلة ثم صار بعد الحرب العالمية الثانية حاكما عاما للقطاع الذي تحتله فرنسا من المانيا الغربية ـ يعمل بمنصب نائب امين سر الدولة في وزارة الاقتصاد الفرنسية . وواضح ان پونسيه ساهم الى حد كبير في الاطاحة ببريونينغ «حيث ترتب على المانيا والنمسا ان تقفا موقف المدان في جنيف وامام محكمة العدل الدولية في لاهاي. ولم تكن الأضرار التي لحقت بالمانيا ذات طبيعة معنوية فقط. وجددت المانيا الخطر الماثل للقضاء على السلام في قارة اوربا بسبب مضيها في وضع اسس الاتحاد الكمركي مع النمسا والتملص من الديون الاجنبية بقصد تحسين موقفها

الاقتصادي[1]».

بناء على هذا الاساس يجب على المرء ان يوازن مدى تقدير المجتمع الفرنسي للمستشار الالماني وهذا ما حدى بهتلر ان يستعيد قدر المانيا بجر اوربا نحو الكارثة لكي تعترف اوربا كلها ـ وليس فرنسا وحدها ـ بمكانة المانيا . ومما يثلج الصدر ان الدول تجردت الآن من الانانية واخذت تسلك سبل التفاهم الودي من اجل تحقيق التعاون الاقتصادي فيما بينها.

تمخضت زيارة المستشار لباريس عن أخبار الاقتصاديين الفرنسيين له بأن الحكومة الفرنسية وافقت على مساعدة المانيا فأشتركت مع بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية بمنح المانيا قرضا مقداره (٥٠٠) مليون دولار يتم تسديده ببضائع ومواد مختلفة يتفق عليها مع التوقيع على اتفاقية ملزمة بالتسديد خلال عشر سنوات والتعهد بعدم زيادة القوة العسكرية الالمانية والامتناع عن اية محاولات لتحسين العلاقات الالمانية ـ النمسوية . ومن النادر أن يتم اجبار شعب كبير على الخضوع بهذا الشكل المهين نتيجة لنصيحة تقدمها له الشعوب الاوربية الاخرى. ولذا فان بريونينغ لم يجانب الصواب عندما اجاب مضيفيه بأن شروط هذا القرض الاقتصادي معناها موت المانيا . الا ان ما لم يقله لمضيفيه هو ان تشددهم في فرض الشروط المجحفة سيؤدي الى خلق التطرف الالماني وسيادة الاحزاب القومية على السياسة الخارجية الالمانية . ولقد حافظ الدكتور بريونينغ على صمته بناء على رجاء الحكومة الفرنسية لكي تبقي باب الاقتراحات المقابلة مفتوحا. الا أنه أعلن بأن المانيا بعد ان قبلت بشروط الرئيس الامريكي هوفر التي فرضها لتأجيل دفع القروض والتعويضات المالية فاننا تعرضنا لنكوص الدول المعنية في تنفيذ خطة يونغ. أي اننا تعرضنا للابتزاز وهذا ما سيدعونا لاعادة مراجعة موقفنا من معاهدة فرساي لاسباب قومية. ولكنه لم يقل بالضبط ما طلبه فرانسوا پونسيه خشية اثارة حفيظة الرأي العام الفرنسي ضد المانيا. ولما وجد المستشار

---

(۱) مذكرات اندريه فرانسوا پونسيه الموسومة (مذكرات سفارة ببرلين) . ـ المؤلف ـ

ان النتائج المترتبة على زيارته لباريس كانت ضئيلة جدا بسبب غلو المقترحات الفرنسية فانه علل النفس بتحقيق مكسب مهم لأنه تفهم تماما طبيعة نوايا فرنسا ازاء المانيا والتي عبرت عنها بوضوح مما جعل المانيا بموقف افضل لكي تعتمد على نفسها فقط في حل قضاياها.

ولما حللت بعد سنة واحدة بمحل بريونينغ واشتركت بالمؤتمر العالمي المنعقد في لوزان حاولت تسوية هذه الاخطاء. فتباحثت هناك مع السيدين هريو وماكدونالد مليا وقلت لهما ان حكومتي قد تكون آخر حكومة المانية معتدلة واذا لم احصل من حكومتيهما على التأييد الذي يحقق لي النجاح المعنوي فان ذلك سيؤدي الى وصول حكومة وطنية متطرفة الى سدة الحكم في المانيا وقد تقدمت بطلباتي لهما دون الالتفات للفشل الذي اصاب بريونينغ قبلي.

قام المستشار بريونينغ بعد عودته من باريس بتوجيه دعوة مقابلة سيدين بريان ولافال لزيارة برلين الا ان هذه الزيارة الدبلوماسية أسفرت عن الفشل الذريع ايضا ولم يحصل المستشار على المكاسب التي اراد تحقيقها. الرغبة بالحصول على السيادة القومية لالمانيا كانت تصطدم بمعارضة الفرنسيين الذين بوا على تحميل المانيا وحدها وزر الحرب العالمية ومنعها من حق التسلح للدفاع عن نفسها بينما كان هذا الحق مباحا للشعوب الاخرى. وبناء على ذلك فقد اخبر المستشار بريونينغ ضيفيه الفرنسيين بأنه سيتعرض من جراء موقفه هذا الى الاختلاف مع المعارضة البرلمانية الى حد التقاتل. وكان فون بسمارك قد تعرض من قبل الى موقف مشابه مع الفرنسيين فقال لهم بأنه سيضطر في حالة تعنتهم الى الاتفاق مع احزاب المعارضة من اجل التوصل الى ما هو ضروري لصالح المانيا من أجل وضع اسس السلام الاوربي العادل. اما الآن فقد افلتت فرصة عظيمة.

اقتصرت فائدة تأجيل دفع الاقساط المستحقة بموجب خطة الرئيس الامريكي هوفر على تسهيل الموقف الاقتصادي الذي تعرضت له المانيا لمدة

محدودة فحسب. ولذا فقد حاول المستشار بريونينغ اللجوء الى وسائل اخرى تكميلية لتحسين الموقف المالي فأجرى تخفيضا على رواتب الموظفين والمتقاعدين . وكان الفلاحون يكرهون بريونينغ بسبب تخفيضه لاسعار منتجاتهم لدرجة باتت تهدد وجودهم. كما ان الصناعيين تعرضوا ايضا الى اجراءات مضادة لمصالحهم بصورة مستمرة بعد ان فرض اسعارا مخفضة لأسعار المنتجات الصناعية. فأرتفع عدد العاطلين عن العمل الى عدة ملايين. واصبح بريونينغ بموقف يقتضي ازاحته عن رئاسة الحكومة. وقد شاع في كانون الثاني ١٩٣٢ انه قال للسفير الانكليزي ببرلين بأن المانيا عازمة على عدم تسديد التعويضات حتى بعد انقضاء الاجل الذي حدده الرئيس الامريكي هوفر. فتعالت صيحات الصحافة الفرنسية لنزع سلاح المانيا . واستقال بيير لافال فقيل ان سبب استقالته يعود الى تساهله مع بريونينغ. والحقيقة هي أن اقالته كانت تنطوي على محاولة فرنسا التنصل من اية التزامات ووصلت الحالة بين البلدين الى التحدث عن النوايا بصراحة تامة سواء في باريس او في برلين.

الا ان الحكومة الفرنسية الجديدة شكلها لافال ايضا وعاد للتحدث عن المانيا هذه المرة بعنف شديد قائلا :

« سوف لن تتنازل فرنسا ابدا عن حقوقها في الحصول على التعويضات»

وفي هذا الجو المشحون تقرر ارجاء انعقاد مؤتمر لوزان لاعادة النظر بالتعويضات من ١٨ كانون الثاني الى ٤ شباط ١٩٣٢ الى موعد جديد بعيد نسبيا في شهر حزيران من ذلك العام فبقيت المانيا تقرض الأرم لهذا التبديد بالوقت الذي ينذر باشتداد الازمة التي كانت تشهدها. فعلا وتعاني من عقابيلها.

في هذه الفترة كان هناك مؤتمر آخر في جنيف لنزع السلاح وكان رئيس الوفد الفرنسي فيه اندريه تاردو قد فاجأ المؤتمرين بخطة لانشاء قوة مسلحة دولية. ولربما كان يبغي من وراء تلك الخطة التوصل الى الغرض الاصلي الذي جعلته فرنسا نصب عينها الا وهو نزع سلاح المانيا وجعلها بلا حول

ولا قوة. الا ان الدكتور بريونينغ اهتبل تلك الفرصة وقابل اندريه تاردو في ٢١ نيسان ١٩٣٢ واتفقا على الالتقاء بمنزل ستيمون وكيل حكومة الولايات المتحدة الامريكية الكائن في قرية بيسنغس القريبة من جنيف يوم ٢٩ نيسان ١٩٣٢. وزعم المستشار بعدئذ بأنه كان يرمي من ذلك الاجتماع الى اقرار ملحق باتفاقية نزع السلاح تتفق عليه كل من الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وايطاليا وفرنسا الا ان اجتماع يوم ٢٩ نيسان ١٩٣٢ خلى من تاردو ممثل فرنسا الذي تخلف عن الحضور مدعيا المرض الا ان الدكتور بريونينغ شخص مرضه تماما عندما قال بأن مرضه كان دبلوماسيا. لاسيما وان السفير الفرنسي الجديد ببرلين فرانسوا پونسيه اسمع كل ذي اذنين بأن ايام بريونينغ في الحكم اصبحت معدودة وان خلفه سيكون فون پاپن. وواضح ان اللواء فون شلايخر كان قد افضى لصديقه السفير فرانسوا پونسيه بخطة الاطاحة بحكومة بريونينغ. وللمرء ان يتصور مدى الضرر الذي الحقه هذا الرجل ببلاده لأن اول عمل يقوم به السفير في هذه الحالة هو الكتابة لحكومته بهذا المآل فيجعلها تتعامل مع المستشار الالماني على هذا الاساس. وقد كتب السفير المذكور بعدئذ بمذكراته بأنه سبق ان حصل على انطباع منذ كانون الثاني ١٩٣٢ بأن المستشار بريونينغ سيستقيل في الوقت الذي لم يتكهن المستشار نفسه بذلك. وعلى كل حال فان من الواضح ان اللواء فون شلايخر لم يكن راغبا برؤية المستشار بريونينغ عائدا من جنيف وقد حقق النجاح المنشود وعليه فقد رأى ان افضل وسيلة لاحباط فعالياته هناك تتم باخبار السفير الفرنسي بعدم احتمال بقاء بريونينغ بالسلطة.

كم عجيبة هي تلك اللعبة التي مارسها مدير ادارة الجيش الالماني بافشاء اخطر أسرار الدولة الالمانية المتعلقة بشخصياتها القيادية للسفير الفرنسي من اجل تحقيق غرض تافه مع تأثير تلك الفعلة على مستقبل الجيش الالماني نفسه. وقد زعم بريونينغ بأنه سبق ان علم في ٣١ مايس ١٩٣٢ بموافقة الحكومة الفرنسية على مقترحاته بشأن نزع السلاح. ولو صحت هذه المزاعم فمعنى ذلك ان دسيسة فون شلايخر كلفتنا خسارة ستة اشهر ثمينة.

لأن موافقة الدول المنتصرة على مساواة المانيا في التسلح لم تحصل الا في ١١ كانون الاول ١٩٣٢ . والواقع ان الوثائق البريطانية السرية التي كشف عنها فيما بعد تشير الى ان الوعود التي عرضت على المستشار بريونينغ لم تترجم بصورة صحيحة. اما المناكفات التي صادفتها انا عندما توليت مهمة المستشار فسأتحدث عنها باسهاب في الفصل القادم.

ولنعد الآن الى محاولات بريونينغ للتغلب على الكارثة التي اخذت بخناق ألمانيا في صيف ١٩٣١. فقد وافق مؤتمر لندن على خطة ارجاء ديون المانيا التي سبق ان اقترحها الرئيس الامريكي هوفر الا ان احدا لم يقرر كيفية التغلب على الازمة المالية التي شكى منها مستشار المانيا. وفي هذه الاثناء تدهور موقف حكومة بريونينغ في البرلمان الالماني نتيجة لتآلف الوطنيين الالمان مع النازيين الذين بلغ عدد اصواتهم مجتمعين ١٥١ صوتا فشكلا اغلبية معارضة ضمن الاقلية البرلمانية. عندئذ اصبح هؤلاء قطبا لتجمع الفئات الاخرى الحانقة على الحكومة لاسيما بعد ان لجأت الى تطبيق خطط التقشف الاصلاحية التي أضرت بمصالح مختلف الفئات. وكان الدكتور شاخت[٢] ــ الذي كان يشرف على تنفيذ خطة يونغ ــ قد ناشد الدكتور بريونينغ اشراك النازيين بالحكم بعد ان زاد نفوذ هذا الحزب في تورنغن وبراون شفايغ واولدنبورغ منذ شهر كانون الثاني ١٩٣٢ وحقق نجاحا باهرا في التضامن مع الاحرار وحزب الشعب الالماني والعصبة الوطنية. وقد برز دور النازيين في ادارة الحكومات المحلية وبرر مناشدته بقوله:

« اذا كان النازيون قد حصلوا على حق المشاركة بالحكم في الولايات لماذا لا يحصلون على هذا الحق في الحكومة المركزية؟»

لم يتقبل الدكتور بريونينغ هذا الرأي على الرغم من وهن موقف

---

(٢) الدكتور هيالمار شاخت عالم اقتصادي بارع عمل مديرا لمصرف المانيا ثم وزيرا للاقتصاد في عهد هتلر الذي سجنه في أواخر الحرب العالمية الثانية ولما احيل الى محاكمات نورمبرغ بعد الحرب برئت ساحته فاشرف على تنظيم ميزانيات الكثير من دول العالم . ــ المترجم ــ

حكومته وتعلق بقائها على تأييد الحزب الاشتراكي الديموقراطي. وكان وزير داخليته الدكتور ڤيرت فقد أوضح في ٥ آذار ١٩٣١ :

« ان الاعمال الاصلاحية العظيمة التي نقوم بتنفيذها بصورة قانونية لا يمكن مهاجمتها الآن من احد . وانما على الجميع المساهمة في التنفيذ. وعلى الذين يريدون ممارسة النضال في سبيل الوطن ان يتحملوا الاخطار المتأتية عن الموقف الداخلي الذي نعيشه حاليا. وعلينا جميعا ان نعمل ضمن الاسس القانونية المرعية من اجل تنفيذ الخطط الاصلاحية للدولة والخطط الاصلاحية للانتخابات».

الا ان المانيا كانت مهددة آنذاك بتفاقم الخطر الشيوعي ايضا. فقد صرح النائب اولبرخت[٣] قائلا بايجاز:

« لا يمكن تحقيق انتصار الطبقة العاملة الا بالثورة المنظمة وبتأليف حكومة المانيا السوفيتية».

لقد اظهرت لنا الديموقراطيتين الكبيرتين الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا امكانيتهما على تحقيق تعاون الاحزاب في اوقات اشتداد الازمات الكبيرة. وليس ادل على ذلك من تعاون المحافظين الانكليز ذوي الاغلبية الساحقة مع حزب الاحرار. كما ان روزفلت[٤] دعى الجمهوريين للاشتراك بحكومته لكي يتفادى محاولات حزب المعارضة لاعاقة مسيرة حزبه الديموقراطي في المرحلة الصعبة التي كانت الولايات المتحدة الامريكية تحاول اجتيازها.

وعليه فان النازيين لم يكونوا اول حزب كون قوته اعتمادا على الصحافة . ولما طلبت منظمة (الخوذة الفولاذية) وهي منظمة شبه عسكرية

---

(٣) هو ڤالتر اولبرخت الذي كان مؤسس اللجنة الوطنية الالمانية الحرة في روسيا في مطلع سنة ١٩٤٥ وقد اصبح امين السر الاول للجنة المركزية للحزب الشيوعي في المانيا الديموقراطية عام ١٩٥٠ ثم رئيسا لمجلس الدولة في عام ١٩٦٠ حتى وفاته في عام ١٩٧٣ . — المترجم —

(٤) هو الرئيس تيودور روزفلت .

— المترجم —

قوية خاضت قتالات شديدة ضد أعداء المانيا وتتمتع بسمعة عطرة في أوساط الشعب الالماني في عام ١٩٣١ الاشتراك بالانتخابات الجديدة في ولاية پروسيا قابلتها حكومة پروسيا المحلية ـ النازية ـ بالرفض واظهرت المقاومة ازاء هذا الحق الدستوري وانبرت جميع صحف الاحزاب لاستنكار طلب منظمة الخوذة الفولاذية مما اضطر المنظمة على تقديم شكوى لرئيس الجمهورية لكي يحقق لكل مواطن حقه في الاعراب عن رأيه بكل حرية واخباره بأن الشرطة البروسية منعت اعضاء المنظمة من ممارسة هذا الحق باستعمال القوة . وان سلوك حكومة پروسيا هذا المسلك بتشجيع من حكومة ڤايمار يعطينا انطباع عن مدى التحريف الذي مارسه غوبلز عندما وجه دعايته ضد حكومتي بعدئذ وسماها (حكومة البارونات) بينما حرم حرية الرأي على خصومه.

كانت الرابطة الوحيدة بين احزاب المانيا ـ عدا الشيوعيين ـ هي الاجماع على الالتفاف وراء شخصية الرئيس مما دعى للاهتمام كثيرا بانتخابات الرئاسة القادمة رغم تشابك الموقف البرلماني السائد.

في ايلول ١٩٣١ اجريت انا والدكتور كلويكنر اتصالا مع المستشار وجلبنا انتباهه حول هذه النقطة بالذات . وعرضت عليه بأننا من اجل تجديد انتخاب الرئيس فون هندنبورغ فلابد من تحقيق اقصى التأييد الممكن من الاحزاب طبعا واستغلال هذا التأييد من اجل التوصل الى تفاهم سياسي بين الاحزاب في شتى المجالات وخصوصا مع الحزب النازي. واكدت له بأننا يجب ان نولي اهتمامنا للتعاون مع هذا الحزب من اجل ايجاد قاعدة رصينة لممارسة الحكم. واننا يجب ان نستغل هذه المناسبة لاجراء المصالحة الوطنية بين الأحزاب لاسيما وان قضية تجديد انتخاب الرئيس تعتبر بحكم المؤكدة بعد ان اثبت جدارته وحكمته خلال ممارسته لرئاسة الدولة بعد ان تشكك البعض في عام ١٩٢٥ بمدى قدرة ذلك الجندي العجوز على القيام بأعباء الرئاسة. لكن الحال تغيرت الآن ويمكن للجميع تقدير الثقة التي يتمتع بها بعد أن التزم باليمين التي أقسمها للحفاظ على الدستور. اما اذا تمخضت

انتخابات الرئاسة عن اختيار شخص آخر بصـورة غير متوقعة فانني اتوقع سوء العاقبة. وكان ان عقب الدكتور بريونينغ على قولي بأنه لا يوجد أي سبب يدعو لزج شخصية الرئيس بموضوع المصالحة بين الاحزاب التي وصل الخلاف فيما بينها الى حد خطير لكنه قال بأنه سيعمل على تحسين الموقف بكل جدية واهتمام.

وقد علمت فيمـا بعد عند اذاعة حلقة تاريخيـة من (أخبار المانيا) في تموز ١٩٤٧ بأن الدكتور بريونينغ عكف على كتابة رسائل عديدة طوال يوم كامل في خريف ١٩٣١ من اجل الاطاحة بالرئيس فون هندنبورغ بعدم تجديد ولايته متذرعا بعدم مساعدة حـالته الصحيـة لأن سنه العالية لم تعد تسمح له بممارسة مهماته . وعندئذ فقط تفهمت موقف المستشار الفاتر الذي شهدت منه لمحة قبل ستة عشر عاما. ولم يدر بخلدي بطبيعة الحال انه كان يبيت امرا آنذاك.

في تلك الفترة توسعت هوة الاختلاف بين مختلف الاحزاب بحيث تجاسر اتحاد الصناعة الالمانية على اصدار التصريح التالي:

« ان الموقف الاقتصادي وصل الى اقصى درجات التحمل وبات ينذر بتدمير الاقتصاد الالماني ويعود سبب هـذا الموقف الى اضطراب الوضع الداخلي وسوف لن تجد حكومة المانيا مخرجا من هذه الازمة ما لم تحقق الاستقلال التام من الانقياد لرغبات الاحزاب المتضاربة وايجاد الطريق الصحيح للعمل على تلافي الازمة الراهنة فورا ».

وفي ٦ تشرين الاول ١٩٣١ تم الاجتمـاع الثالث للجنة تنظيم الأمن الاقتصادي والمالي. وفي اليوم نفسه اعـاد بريونينغ تشكيل وزارته فغير وزيرين مهمين هما وزيرا الخارجية والداخلية كورتيوس وفرت اللذين دل خروجهما من الوزارة على مدى صعوبة حصول المستشار على من يشاركه

مسؤولية وزارته. فقد رفض البارون فون نويرات[٥] تولي منصب وزير الخارجية. واعتــذر الدكتور غيسلر والدكتور شولتز تولي منصب وزير الداخلية ورفض كل من سيلفربيرغ وفويغلر وشميتز ودروپ ميولو تولي منصب وزير المواصلات الشاغر. واخيرا آمن المستشار بأنه يجب ان يتولى وزارة الخارجية وكالة وكلف وزير الدفــاع الفريق غروينر بوكالة وزارة الداخلية اضافة لمنصبه.

بعد ان وصلت حالة حكومة بريونينغ الى هذا الحد عقد اجتمــاع واسع في بادهارتسبورغ يوم ١١ تشرين الأول ١٩٣١ حضره ممثلون عن الحزب النازي وحزب الشعب الالماني ومنظمة الخــوذة الفولاذية وعصبة الوطن الالماني واقتصاديون من جميع الاتجاهات والدكتور شاخت والفريق فون زيكت فأتفق الحضور بعد القاء عدة كلمات حماسية على توحيد جهودهم وتشكيل معارضة قوية . وقد برز في ذلك الاجتماع دور الدكتور شاخت الذي قال:

« ان وجود المانيا سليمة هو ما نصبو اليه جميعا وهــذه ليست مسألة نقاط مسطرة في برنامج وليســت مسألة ذكاء وانما هي مسألة شخصية. فالاقتراض والاستجداء يورثان الهوان ويجعــلان الأمة غير قادرة على التصرف بحرية وغير كفوئة عند التحالف. والاعتماد على الذات فقط يمكن ان يؤدي الى التمتع بالحرية في العمل بمختلف المجــالات. ولقد تتبعت في حياتي وسائل الكفاح التي قامت بها الدول الاجنبية من اجل مصالحهــا ولاحظت مدى ضعف موقف المفاوض الذي لا يستند الى حكومة وطيدة الاركان في بلادها».

وقــد انتفض المستشــار بريونينــغ لاجتمــاع بادهــارتسبــورغ

---

(٥) تولى البارون فون نويرات منصب وزير الخارجية في حكومة هتلر من عام ١٩٣٣ حتى ١٩٣٩ وقد احيل بعد الحرب العالمية الثانيــة الى محاكمات نورمبرغ لكنه توفي بالسجن قبل صدور الحكم بحقه .

ـ المترجم ـ

واخبر رئيس الجمهورية بأن خصومه السياسيين شكلوا جبهة مناهضة للحكومة . وكان الرئيس قد استقبل هتلر في اليوم السابق وحاول التنديد بهتلر الذي اظهر ولائه للرئيس وحاز على رضاه. وكانت حصيلة اجتماع بادهارتسبورغ القرار على اسقاط حكومة بريونينغ وحل البرلمان.

كما ان تحديد احزاب اليسار لهجماتها على حكومة بريونينغ جعل موقفها لا يطاق. وما لبث ان قام احد احزاب الوسط وهو الحزب الذي يرأسه شتريزەمان بسحب ثقته من الحكومة. حيث وجه رئيس الحزب المذكور اتهاما للمستشار مفاده انه لم يستخدم جميع طاقات الحكومة لخدمة الصالح العام والتغلب على الأزمات.

وقد اعلن الدكتور بريونينغ في خطاب القاه في اجتماع لحزب الوسط يوم ٥ تشرين الثاني ١٩٣١ عن آرائه قائلا:

« في هذا الشتاء سيتم حسم الموقف. ولابد من وضع حد لسياسة الاحزاب المتعددة التي اوشكت ان تؤدي الى انفجار الموقف. وستكون سنة ١٩٣٢ اصعب السنوات بالنسبة لألمانيا وللولايات الالمانية والاتحادات من الناحية المالية لأن الضرائب تستوفى على اساس الايرادات الحقيقية لسنة ١٩٣١ ذات الازمة الاقتصادية الرهيبة. وعليه فاننا سنعمل (حتى بدون تكاليف التعويضات) على عدم اللجوء الى اية اجراءات مالية اخرى صارمة لتصريف الامور خلال سنة ١٩٣٢».

ومن المؤكد ان المستشار بريونينغ لم يكن واهما في تقدير مدى جدية الموقف. ولكنه وصل الى الحالة التي يتعذر عليه معها معالجة الموقف. وذلك لأنه لم يرغب باتباع المسلك الوحيد المتيسر لديه لانقاذ حكومته وهومشاركة المعارضة في حكومته. وقد اعطى وزير العمل باليوم نفسه الجواب المناسب على هذه الحالة بقوله:

« قد يبدو تشكيل أي تآلف سياسي او جبهة غير ممكن لأن هذا الاجراء لن يؤدي للحصول على اغلبية».

وكان هذا الجواب مفتاحا لسياسة بريونينغ. فالمعارضة تعتبر وجوده عقبة في سبيل التوصل الى تفاهم مع الدول المنتصرة. ولما اشتركت حكومتي بعد ستة اشهر في مؤتمر لوزان وكانت حائزة على اسناد المعارضة الوطنية فاننا لم تتعرض للصعوبات التي صادفت حكومة بريونينغ.

في ٨ كانون الاول ١٩٣١ عرضت الحكومة تدابير اضطرارية جديدة لتوقيعها من قبل رئيس الجمهورية وكان الغرض منها تحقيق الأمن الاقتصادي والمالي للبلاد. وقد عرض الدكتور بريونينغ بمنتهى الصراحة مدى حراجة الموقف وقال في معرض تبرير تدهور الحالة ووصولها الى هذا الحد:

« ان حكومة المانيا سوف لن تصبر على اية قوة اخرى عندما تحاول تلك القوة المساس بالدستور. ولن يمارس السلطة في المانيا سوى رئيس الجمهورية والحكومة ولابد من اللجوء لجميع الوسائل الدستورية الكفيلة باستعادة السلطة وممارستها بكل اقتدار».

ولم يشر بريونينغ في كلامه هذا للبرلمان او للديموقراطية. وانما خلص الى حقيقة مهمة هي ان لفون هندنبورغ ولحكومته فقط الحق كل الحق في ممارسة السلطة. وبصراحة تامة فانني وجدت هذا التصريح ينطوي على قصر النظر واعتبرته من خصائص دستور ڤايمار الذي اباح القضاء على الديموقراطية وبعد مدة وجيزة وجدت نفسي بموقع المسؤولية.

الفصل الحادي عشر

أنا المستشار



انتخابات رئاسة الجمهورية . مفاوضات عقيمة . نتائج الانتخاب . خلاف مع بريونينغ . منع وحدات العاصفة . استقالة بريونينغ . فضيحة المساعدات الشرقية . الديموقراطية الفاشلة . نداء فون شلايخر . رجاء عجيب . حزمت امري بالقبول . معارضة احزاب الوسط . قابلت هتلر . الخطوات الاولى .

بدأ عام ١٩٣٢ بمحاولة الدكتور بريونينغ جعل اعادة انتخاب الرئيس فون هندنبورغ وفق الطرق البرلمانية. فقد تداول بهذا الشأن في ٧ كانون الثاني ١٩٣٢ مع ادولف هتلر ومع الحزب الاشتراكي الديموقراطي. وجعل هتلر موافقته رهينة بمحادثات اخرى ينبغي عليه اجراؤها مع هوغنبرغ وعرض شروطه المتضمنة الاعتراف بشرعية الحزب الوطني الاشتراكي (النازي) في جميع المناسبات والانتخابات في المانيا كلها وفي پروسيا[1].

(١) كانت پروسيا منفصلة برا عن الاراضي الالمانية لوجود الممر البولندي المؤدي الى دانزك . — المترجم —

اما الحزب الاشتراكي الديموقراطي فقد طالب بعدم قيام الاحزاب الاخرى الالمانية باتخاذ اية فعاليات مضادة لنشاطه في هـذا السبيل. فالانتخابات الجديدة يفترض ان تحقق اغراض المعارضة وتسهل لها الوصول للحكم.

واذا كان بريونينغ يبغي تحقيق هذا الغرض بنفسه فليس ثمة سبب يدعو لاعادة الانتخابات. الا ان الانتخابات تمخضت عن مزايا واضحة الى ابعد الحدود. اذ حاز بريونينغ ثقـة الرئيس التامة . واخيرا وليس آخراً سيحصل الحزب النازي على مسؤوليـة الحكومة كاملة ولكن المـداولات تعثرت في ١٢ كانون الثاني ١٩٣٢.

فقد كتب هوغنبرغ رسالة الى المستشار تتضمن عدم تأييده لتجديد انتخـاب الرئيس فون هندنبورغ لأنه لم يعـد يمثل آمـال الشعب ولأن الانتخابات البرلمانية تمخضت عن ارتفاع نسبة مقاعد المعارضة الى درجة تستوجب تكليفها بمسؤولية الحكم. اما هتلر فقد كتب مذكرة الى المستشار قال فيها ان اضطراب السياسة الداخلية سيجعل ممارسة السياسة الخارجية اكثر صعوبة.

ثم قال انه لا يمكن ان يعتقد بأن الحكومة الالمانية التي تخشى من مواجهة خصومها في خضم السياسة الداخلية يمكنها ان تمارس سيـاسة خارجية مؤثرة تمثل بها ضمير الأمة الالمانية . وكانت هـذه وجهـة نظر منطقية بكل تأكيد.

لم يحاول المستشـار بريونينغ اجراء أي اتصـال آخر بالمعارضـة وخصوصا بالحزب النازي مما جعل التوتر السياسي يزداد شدة في البلاد. وصارت المانيا تعطي للدول الاجنبية صورة محزنة للغاية عن انتخاب الرئيس الالماني للمرة الثـانية لأن تلك الانتخـابات دلت على تشتت آراء الشعب الالماني لاسيما وانه خبر خدمـة الرئيس خلال السنوات السبع المنصرمة وهذه الانتخابات تقدم الدليل الساطع على مدى الصعوبات التي توشك ان تعصف بالمانيا . وواضح ان المستشار بريونينغ لم يفكر آنذاك بالتدخل لمنع التمزق الذي ساد الانتخابات لتجديد ولاية الرئيس.

الا ان المستشار بريونينغ بذل قصارى جهوده ــ في تلك الظروف ــ من اجل تأمين اعــادة انتخــاب الرئيس فون هندنبورغ ۰ لكن انتخابات الرئاسة ليوم ١٣ آذار ١٩٢٣ لم تتمخض عن حصول الرئيس فون هندنبورغ على الاغلبية المطلوبة حيث حاز الرئيس على نسبة ٤٩ر٦٪ من الاصوات فقط وحاز هتلر ٣٠ر١٪ من الاصوات وحاز تيلمان الشيوعي على ١٣ر٢٪ وحاز دويستربرغ (وهو مقدم مغمور كان ينتمي لمنظمة الخوذة الفولاذية) على ٦ر٨٪ من الاصوات۰

وبعد شهر من ذلك التأريخ جرت في خلاله دعايات محمومة وصراعات حزبية عنيفة أعيدت الانتخابات للمرة الثانية فقال الدكتور بريونينغ فيمعرض تأييده للرئيس فون هندنبورغ بأن هذا الرجل ستكون له اهميته التأريخية دوما لأنه يعتبر رمزاً للوحدة الالمانية وللقوة الالمانية في العالم اجمع۰

وقد تمخضت نتائج الانتخابات في دورتها الثانية عن حصول الرئيس فون هندنبورغ على نسبة ٥٣٪ من اصوات الناخبين الالمان بينما حصل ادولف هتلر على ٣٦ر٨٪ ومع ان الرئيس فون هندنبورغ حقق الحصول على اغلبية ضئيلة تضمن اعادة انتخابه لرئاسة الجمهورية الا ان تلك الانتخابات دلت بوضوح تام على ان ادولف هتلر يتمتع بثقــة اكثر من ثلث الناخبين الالمان۰

فمن الذي يتشكك بمدى التأثير النفسي المتزايد الذي ينتظر ان يحققه حزب هتلر في انتخابات مجلس النواب الوشيكة؟ فانتخابات الرئاسة دلتعلى ان مرحلة ارتقاء هتلر وتعاظم قوته السياسية قد بدأت ولم يكن هتلر (كما يزعم البعض بعد الحرب العالمية الثانية) قد حصل على النجاح الساحق في الانتخابات التي جرت في عهد وزارتي بعد بضعة اشهر من ذلك التأريخبفضل مساعداتي له۰ وانما كانت مخاوفي التي سبق ان عرضتها على المستشار في عام ١٩٣١ من مغبة تدهور الموقف الداخلي في محلها لكن المؤسف هو ان المستشار بريونينغ لم يصغ لتلك النصيحة المخلصة۰

ثم ان نتائج انتخابات الرئاسة تمخضت عن حقيقــة اخرى مهمة هي توسع الجفوة القائمة بين رئيس الجمهورية والمستشار لأن الرئيس اكتشف الحقيقة المرة المتمثلة بعدم جدارة مستشاره لأن هذا لم يفلح في توحيد آراء جميع الاحزاب لاعادة انتخاب الرئيس . فهو على الرغم من بذل كل مساعيه لم يستطع استمالة نسبة جيدة تشير الى مدى التفاف الشعب حول الرئيس وكان كل ما حققه هو حصول الرئيس على ادنى نسبة تضمن بقائه في منصبه.

ولعل اشد ما حز في نفس الرئيس ان رفاقه القدماء الذين قاتلوا معه في الحرب العالمية الاولى لم يجددوا ولايته. وكانت حصيلة ذلك ان اتجهت نية الرئيس الى اعادة تشكيل الوزارة ـ بناء على وصية المستشار بريونينغ ـ من عناصر غير حزبية وكان ان كلفني الرئيس بتشكيل الوزارة الجديدة على هذا الأساس.

في ١٣ نيسان ١٩٢٣ اعلنت الحكومة حالة الطوارئ. ومنعت الحزب النازي من الاحتفاظ بتشكيلات حرس الحماية[٢] ووحدات العاصفة[٣] وهي التشكيلات شبه العسكرية التي الفها الحزب النازي لاغراضه الأمنية. وبعد يومين من ذلك التأريخ كتب الرئيس فون هندنبورغ رسالة الى وزير الداخلية الفريق غرويتر طلب فيها اصدار اوامره بمنع جميع التنظيمات شبه العسكرية المسلحة للاحزاب الاخرى وقد اوضح غرويتر للرئيس انه لا يرى ما يبرر منع منظومتي (الجبهة الحمراء) و(حماة المانيا) الشيوعيتين والمنظمــات الاخرى المشابهة لهما. وبعد شهر واحد اقيل الفريق غرويتر.

ولكن كيف لنا ان نتصور وجــود بلد يحرص على النظام بينما تحتفظ جميع الاحزاب السياسية فيه لنفسها بقوات شبه عسكرية مسلحة من اجل الدفاع عن نفسها؟ والجواب بكل بساطة هو ان الاقطار الديموقراطية الاخرى

---

(٢) يرمز لهذه القوة بالحرفين SS وهما مختصر عبارة Schützstaffeln ـ المترجم ـ

(٣) يرمز لهــذه القوة بالحـرفين SA وهمـا مختصـر عبــارة Strumabteilungen ـ المترجم ـ

امثال بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية لديها قوات من الشرطة مسؤولة عن حفظ النظام وضمان حرية جميع الاحزاب. اما في جمهورية ڤايمار فكان هناك ترتيب آخر اذ ان المشاحنات والمماحكات الحزبية بين تجمعات احزاب اليمين واحزاب اليسار لم تكن لتهم وزراء داخلية النظام الذين كانوا المشرفين المباشرين على ادارة الشرطة لالمانية . ولذا فان من البديهي قيام كل حزب باتخاذ التدابير الوقائية الذاتية لحماية اعضائه من العدوان. وعليه فقد قام الحزب الاشتراكي الديموقراطي بتنظيم قوة (حماة المانيا) لحماية نفسه ازاء (اعداء الجمهورية) وكانت للحزب الشيوعي منظمة شبه عسكرية للغرض نفسه كما اسس الحزب النازي قوة مشابهة. ولقد كانت جميع هذه المنظمات حتى ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣[٤] غير مسلحة رسميا . ولكن النازيين شرعوا بعد هذا التأريخ بتسليح حرس الحماية وقطعات العاصفة بأسلحة قياسية.

ولقد ذكر بريونينغ في عام ١٩٤٧ لوكالة الانباء الالمانية بأنه سبق ان حاول في عام ١٩٣١ منع منظمة (ذوي القمصان البنية) النازية الا ان فون هندنبورغ لم يوافق على هذا المنع لأن الشيوعيين كانت لديهم منظمة مشابهة. ثم ان بريونينغ سمع اثناء حملة انتخاب الرئيس من قادة الجيش ووزراء داخلية الولايات مقترحات تقضي بضرورة حل منظمة وحدات العاصفة النازية لكن الرئيس فون هندنبورغ رفض التوقيع على أي امر ينص على حل تلك المنظمة شبه العسكرية ولما تأكد بريونينغ من ان هذه المسألة ستكون سبباً لأثارة الخلاف بينه وبين الرئيس فضل التغاضي عن وجود منظمة وحدات العاصفة.

وقد أظهر اللواء فون شلايخر عدائه الشديد للحزب النازي عندما اجتمع هو ورئيس اركان الجيش الفريق فون هامرشتاين اكوورد مع المستشار بريونينغ في (ڤلدباد) في خريف عام ١٩٣١ واكدا له ما يلي:

« في حالة تبدل الحكومة فانهما يخشيان على نفسيهما من خطر جدي

---

(٤) هذا هو تاريخ وصول هتلر الى السلطة . — المترجم —

لأنهما غير راغبين في تحمل مسؤولية الجيش الذي سيصبح خاضعا لحكومة نازية».

وهكذا يتبين ان المستشار بريونينغ لم يعد يهتم للرئيس فون هندنبورغ بعد ان اخذ يقيم علاقات سرية مع المغامر فون شلايخر الذي صار يشعره بالخطر الذي يتهددهما معاً. فتوطدت علاقاتهما على سبيل تبادل الاسناد .

الا ان الاجراء السديد الذي اصر عليه الرئيس فون هندنبورغ هو القرار على منع جميع المنظمات شبه العسكرية لجميع الاحزاب.

والسؤال الذي يلح على فرض نفسه هو . من الذي كان مسؤولا عن تقويض دولة ڤايمار؟

والجواب هو ان الذي قام بهذا العمل ضابط شاب برتبة لواء يشغل منصب مدير مكتب وزير الدفاع وليست له اية مسؤولية مباشرة لكنه كان ذو تأثير على كل من وزير الدفاع والمستشار وهذا الضابط هو كورت فون شلايخر.وكانت وجهة نظر فون شلايخر صحيحة من ناحية واحدة هي ان الجيش الالماني بقي المؤسسة السالمة الوحيدة التي يعتمد عليها في المحافظة على النظام العام بعد ان اثبتت دولة ڤايمار فشلها الذريع في ممارسة الديموقراطية.

وتقع مسؤولية انهيار النظام البرلماني الذي وضعته الجمهورية الالمانية على كواهل عدد كبير من الرجال. وعندما اصبحت مستشارا لالمانيا بعد شهرين وظهرت للوجود قضية منع قطعات العاصفة مرة اخرى كان فون شلايخر قدمهد لذلك قبيل تسنمي للسلطة مؤكدا بأن رغبة الرئيس فون هندنبورغ والجيش الالماني تتجه نحو حل قطعات العاصفة بينما ارسل لي هتلر من يقول لي بأنه سيتعهد بعدم انضمام الحزب النازي للمعارضة في حالة عدم اصراري على حل قطعات العاصفة.

ولقد علل سير رومبولد في ٩ حزيران ١٩٣٢ أسباب استقالة بريونينغ بارجاعها الى عدة اسباب منها عدم نجاحه في تسديد التعويضات الكبيرة التي

فرضها المنتصرون على المانيا وتزايد عدد العاطلين عن العمل وافلاس اغلب المؤسسات المالية في پروسيا الشرقية • وقد ايد الدكتور بريونينغ فيما بعد هذا الرأي بزعمه ان افلاس تلك المؤسسات المالية ادى الى هجرة ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة من پروسيا أي عشر عدد العمال العاطلين آنذاك•

والمؤسف ان كارثة اندحار المانيا في الحرب العالمية الثانية تمخضت عن ظهور ما يسمى (بأدب ما بعد الحرب) والذي تميز بالقاء التهم جزافا على كل مسؤول الماني بحيث لم ينج أي مسؤول من تهمة ظالمة الصقت به فظهرت صحيفة «برلين اليومية» وهي ذات نهج ديموقراطي وعلى صفحاتها مقال كتبه رودولف اولدن ذكر فيه «سر تسليم السلطة في المانيا لنائب العريف البوهيمي[٥]» كما تضمن اتهاما موجها ضد الشيخ فون هندنبورغ بزعم انه تلقى مزرعة (نوي‌دك) هدية من ارباب الصناعة بمناسبة عيد ميلاده الثمانين بينما كانت المزرعة المذكورة من املاك اسرته التليدة•

وسرعان ما جائت تبرئة المشير الشيخ فون هندنبورغ ـ وهو في‌مثواه ـ من وزير الاقتصاد الالماني الاسبق الذي كان احد اعضاء حكومتي وهو البارون براون الذي أقام اواخر ايام حياته في الولايات المتحدة عندما كتب وثيقة يؤكد بها عدم تسلم الرئيس فون هندنبورغ وولده اوسكار أية هدية مالية أو عينية من أحد•

والمؤسف ان بريطانيا اخطأت خطأ فاحشا باعتقادها بأن كبار الصناعيين الألمان يتحملون النصيب الاكبر من جريرة وصول هتلر الى السلطة• والحق هو ان حكومة ڤايمار حازت ـ رغم محاولتها الجادة لاعادة انشاء المانيا الجديدة ـ عداء احزاب اليمين واحزاب اليسار على حد سواء ولذا فأحزاب المانيا كلها تتقاسم بدون استثناء مسؤولية وصول هتلر الى السلطة• ذلك لأن السعي لاستعادة سيادة المانيا المفقودة نتيجة لخسارتها الحرب العالمية

(٥) المقصود ادولف هتلر • ـ المترجم ـ

لاولى ادى الى ارتفاع مستوى الحماس الوطني ولكن ذلك الحماس الوطني لم يتجه نحو تحقيق التعاون الاوربي ولم يجد مع الأسف عددا كافيامن السياسيين اللامعين الذين يؤمنون بفكرة التضامن الأوربي وكانت حصيلة التطرف الوطني ايجاد المناخ المناسب لازدهار فكرة الاشتراكية الوطنيــة التي وضع هتلر اسسها وطبقها في سبيل رفعة المانيا وعظمتها في العالم.

أما المحافظون الالمان من الوطنيين المتحمسين واصدقائهم فقد بقوا سادرين بمنأى عن الافكار الجديدة وصار همهم منصرفا لمكافحة الشيوعية والتصدي بالوقت نفسه للحزب الاشتراكي الديموقراطي القوي. وكانوا قد منحوا ثقتهم للزعيم اليميني (هوغنبرغ) الذي اعتبر تضامنه مع الاحرار خطوة تقدمية واسعة نحو اخراج المحافظين من تزمتهم.

بدأ الحزب الاشتراكي الديموقراطي نشاطه السياسي في عــام ١٩١٩ وصار اقوى احزاب المانيا عندما حاز ١٣ر٨ مليون صوت في الانتخابات. وكان هذا الحزب اقوى من هتلر وانصاره لأنه لم يحصل في اوج انتصاراته في انتخابات ٣١ تموز ١٩٣٢ على اكثر من ١٣ر٧ مليون صوت.

وقد حكم الحزب الاشتراكي الديموقراطي المانيا كلها واقليم بروسيا طوال احد عشر عاما بصورة مستمرة. ولكنه لم يتمكن من المحافظة طوال هذه الفترة لا على الاستقرار في البلاد ولا على وجــود حكومــة ڤايمــار لجمهورية الوليــدة ولم يتمكن من تحقيق التعــاون الأوربي وكان ان ادت سياسته الداخلية الى زيادة الانقسامات بين ابناء الشعب وتزايد عدد لاحزاب وعدم قدرته على السيطرة على الازمة الاقتصــادية العالمية التي سرت الى المانيا وسببت تفاقم مشكلة البطــالة . ثم ان الدول المنتصرة في الحرب العالمية الاولى لا يمكن تبرئتها من جرم الاستمرار على اذلال المانيا واعاقة استقرارها.

ولما تدهور الموقف الداخلي في المانيا خــلال عام ١٩٣٠ تخلى حزب لاحرار البريطاني الحاكم والاشتراكيون الفرنسيون الذين كانوا يتولــون

مسؤولية السلطة في بلادهم عن اسناد الحزب الاشتراكي الديموقراطي الالماني الحاكم آنذاك.

ولابد لي بهذه المناسبة من الاعتراف بأن حزب الوسط الذي كنت انتمي اليه يتحمل هو الآخر قسطا من تلك المسؤولية لأنه تلقى الكثير من الاتهام بسبب اخفاقه في مساعيه التي بذلها طوال سنين عديدة من اجل وضع الاسس القويمة لاقرار الديموقراطية في البلاد. كما أن المساعي التي بذلتها شخصيا لتحقيق التعاون الوثيق مع الحزب الاشتراكي الديموقراطي الحاكم ــ وخصوصا في بروسيا الشرقية ــ من اجل تنفيذ الاصلاحات الكبيرة اصابها احباط تام. لكن الاصلاحات البرلمانية والحكومية كانت ضرورية لازدهار البلاد.

ومع ان الدكتور بريونينغ لم يتمكن من التغلب على المشكلات التي صادفت حكومته ولا التغلب على الانتكاسة التي اصابت الحزب الاشتراكي الديموقراطي في انتخابات حزيران ١٩٣٢ فانه بذل قصارى جهوده لتأليب جميع الاحزاب للعمل وفق توجيهاته ضد حكومتي .

وانني لا ازال متعجبا من تصرفه هـذا ولا ادري لماذا لم يحاول اسنادي بينما ادت كل فعالياته المناهضة لاجراءاتي الى نتيجة واحدة هي ارتقاء الحزب النازي ووصوله الى السلطة.

وتتوفر لدى الدولة الديموقراطية احتمالين فقط لمعالجة مثل هـذا الموقف . احدهما وضع برنامج مشترك مع المعارضة والتوصل لتشكيل حكومة ائتلافية . وبذا تتحمل احزاب اليمين المعارضة نصيبها من المسؤولية وعندئذ سيعلم ناخبوها بأن هناك ما يبرر ائتلافها مع الحزب الحاكم لمعالجة اوضاع البلاد. والمؤسف ان احدا لم يفكر في عام ١٩٣٠ــ١٩٣١ باللجوء الى هذا المسلك.

أما الاحتمال الآخر فيتمثل بازالة المسببات التي تعتمدها المعارضة في مناهضتها للحكومة . فالحزب النازي وصل الى السلطة بسبب وجود الملايين

من العمال العاطلين وبسبب ضعف الحكومة في السيطرة على نشاط الاحزاب والجماعات المتطرفة . وهكذا كان على حكومة بريونينغ بذل كل جهودها لمكافحة البطالة بشتى الوسائل المتاحة لها والتعامل مع جميع الاحزاب والفئات المتطرفة بحزم يجبر تلك الفئات على احترامها.

ألا ان الدكتور بريونينغ لم يحاول القيام بأي من هذين الاجراءين. كما ان سياسته الضيقة الافق ادت الى تدهور الحالة الاقتصادية لدرجة اشد مما حفز احزاب المعارضة على مضاعفة نشاطها للاطاحة بحكومته.

حاولت طوال هذه الفترة في محاضراتي وفي مقالاتي التي كتبتها في الصحف المطالبة بتبديل سياسة بريونينغ وفي نيسان ١٩٣٢ دعوت لمعارضة التغييرات البرلمانية التي عزمت حكومة بريونينغ تطبيقها على البرلمان البروسي وبعد ذلك بقليل دعوت للتمسك بحق مطالبة المستشار بوضع خطط ادارية جديدة. لكنني لم اكن في تلك الفترة على بينة من وجود اختلافات حادة بين المستشار والرئيس فون هندنبورغ. لأن قضية منع منظمة وحدات العاصفة لم تكن قد ظهرت بشكل علني بعد. وفي ٢٦ مايس ١٩٣٢ تلقيت دعوة من اللواء فون شلايخر. اذ وجه لي الرجل دعوة عاجلة لاجراء محادثة معه ببرلين. وقد زرته بمكتبه في ٢٨ مايس ١٩٣٢ دون ان تكون لدي اية فكرة عن سبب تلك الدعوة.

أوضح لي فون شلايخر باسهاب حالة الموقف السياسي وطبيعة الازمة المحدقة بالحكومة مع رغبة الرئيس بتكليف شخصية لا انتماء لها في الحال الراهن آنذاك لأي حزب سياسي بتولي منصب المستشار بغية تشكيل حكومة من الاختصاصيين . ويبدو انه من المتعذر — من الناحية الفنية — تشكيل حكومة برلمانية في تلك الظروف وذلك لعدم وجود اغلبية متميزة. وهكذا لم يبق امام الرئيس أي اختيار سوى اللجوء لانتخاب رجل يقع اختياره عليه لتشكيل الحكومة الرئاسية.

اوضح لي فون شلايخر بمنتهى الحماس اسباب عدم اعتماد الرئيس على

المستشار بريونينغ للنهوض بهذه المهمة فقال ان دعوة المستشار لحل منظمة وحدات العاصفة اثارت عليه حفيظة الحزب النازي الذي ناصبه العداء وحمل عليه لواء المعارضة التي تزداد عنفا باضطراد . كما ان المشير فون هندنبورغ متحامل على بقية الاحزاب لأنها خذلته في انتخابات تجديد ولايته. ثم انه من غير الممكن مقاومة حزب قوي مثل الحزب النازي باللجوء لاجراءات سلبية بينما يثبت هذا الحزب قوته المتنامية بشتى الوسائل لدرجة اصبحت تزداد خطورة.

وحيث ان الحزب النازي يتوخى تحقيق الكثير من الآمال الوطنية التي يتعاطف مع تحقيقها كل وطني الماني فسيكون من الصعب ـ ان لم يكن من المتعذر ـ اجبار الضباط الشباب المتقدين حماسة على القيام باجراءات قسرية مضادة للحزب المذكور او منعهم من التعاطف مع افكاره الوطنية.

وكان الدكتور بريونينغ قد صرح اكثر من مرة بأنه سوف لن يجلس يوما على منضدة واحدة مع الحزب النازي. وهكذا ظهرت القطيعة بين المستشار والحزب النازي الذي بادله عداء بعداء. وفي هذه الاثناء اظهر اتحاد فلاحي شرق المانيا عدم ثقته بالمستشار بريونينغ واتهمه بالحاق الضرر بالاقتصاد الشعبي . وثمة احتجاجات اخرى تعرضت لها حكومة بريونينغ واثارت امتعاض الرئيس فون هندنبورغ عندما اقدمت على تخفيض رواتب الموظفين والمتقاعدين لدرجة اثرت على المستويات المعاشية لملايين المواطنين الالمان بدلا عن التحري عن مسببات الازمة الاقتصادية والعمل على ازالتها بوسائل ايجابية فعالة. وكان ان خشي الرئيس فون هندنبورغ على شعبيته وثبت له بأن مستشاره سيؤدي بتصرفاته الى تقويض الكيان الاقتصادي وانه يسير بألمانيا نحو الهاوية.

ادركت من حديث فون شلايخر بأنه يتحدث بأسم الجيش الالماني من موقع الشعور بالمسؤولية وان الجيش هو الأداة الوحيدة لحفظ النظام ويبدو انه يحاول السيطرة على الموقف المتدهور لوضع حد للفوضى السياسية التي تشهدها المانيا وهذا ما كنا قد تحدثنا بشأنه مليا في مختلف المناسبات.

ثم خلص فون شلايخر الى ان مناهضتي لحكومة بريونينغ كان لها ما يبررها وقال انه يرى وجوب تشكيل حكومة المانية على غرار حكومة فون بسمارك يدين اعضاؤها بالولاء لألمانيا وتحافظ على التوازن في مجال السياسة الداخلية . وعندئذ ايدت رأي فون شلايخر من حيث المبدأ مؤكدا على ضرورة قيام الحكومة الجديدة باصلاحات برلمانية وان يتم انتخاب شخصيات الحكومة المنتخبة من خارج الاحزاب الثلاثين التي كانت تمارس نشاطاتها السياسية في المانيا مع منحها صلاحيات العمل دون التعرض للتحديات التي يفرضها البرلمان . الا ان فون شلايخر نحى هذه الافكار جانبا مفضلا ممارسة اتخاذ القرارات الحازمة وراء الكواليس بمنأى عن نشاطات الاحزاب وعن الحكومة القائمة وعن الرئيس فون هندنبورغ. ثم ان فون شلايخر حاول انهاء حديثه معي متسائلا عن الشخصية الملائمة لرئاسة الحكومة الجديدة وقال ان عدة اسماء معروفة تم استعراضها وطلب رأيي بتلك الشخصيات تباعا . والى هنا كانت محادثته معي طبيعية جدا ولم تخرج عن المألوف. الا انه اعقب ذلك بمفاجأتي الى ابعد الحدود عندما سألني بصورة مباشرة عما اذا كنت على استعداد لتولي هذه المهمة.

وقد بدى لي انه قابل شعوري بالفخر والتعجب ازاء هذا العرض بطيف ابتسامة ودودة لكنها تحمل في معالمها شيء من التهكم فأجبته:

« انني لم اتهيأ لتولي مثل هذه المسؤولية الصعبة. كما انني اشك كثيرا بكوني الرجل المناسب لهذه المهمة. وطالما نحن بصدد تقدير الموقف الراهن لوحدنا فانني اتعهد بمساعدتك في ابداء المشورة قدر استطاعتي على ألا اكون انا المستشار».

فأجابني فون شلايخر قائلا:

« لكنني سبق ان اقترحت اسمك على الشيخ الجليل[٦] فرحب بتكليفك بالمهمة» .

---

(٦) المقصود الرئيس فون هندنبورغ . — المترجم —

فرددت عليه قائلا:

« لقد استعجلت باللجوء الى هذا الاجراء قبل استشارتي• فأنا لا يمكن ان اتخذ قرارا بمثل هذه الخطورة بسهولة تـامة واضع نفسي بين طـاقي الوحي»•

عندئذ تحولت نبرة فون شلايخر نحو التودد والتأكيد على علاقاتنـا الحميمة القديمة واحتضنني بذراعيه قائلا بأنني يجب ان اقدم على هـذه التضحية من اجله ومن اجل المشير فون هندنبورغ وقال انهمـا استعرضا كل رجالات المانيا فلم يجدا من هو انسب مني لتحمل هذه المسؤولية وابعاد البلاد عن خطر التسلط الاستبدادي وقال انه اتتقى نخبة من الاختصاصيين لتشكيل الحكومة وان تلك الاسماء لابد ان تحوز اعجابي ورضاي•

قاطعت فون شلايخر لاضع حدا لاسترساله في اقناعي فقلت له:

« اعطني بعض الوقت يا شلايخر لكي اتمعن بهذا الامر واقلبـه على وجوهه• فلربما سأتوصل لما هو افضل من اجلك• اذ يجب ان يكون من الواضح لدينا تماما ما يجب ان نعمله من اجل التوصـل للغرض الرئيسي بتشكيل حكومة جديدة مع مراعاة التوتر المحتمل من جراء معارضة الحزب النازي لقيام حكومة رئاسية»•

فأجابني فون شلايخر:

« لقد تمعنت مليا بهذه المعضلة • كمـا سبق ان ناقشتهـا مع هتلر ووعدته بالغاء المنع المزمع اصداره ضد منظمة وحـدات العاصفة في حالة محافظتها على النظام العام وكذلك حل البرلمان فتعهد بدوره بعدم التعرض للحكومة الجديدة على الرغم من عدم اشتراك الحزب النازي فيها»•

ولما قرأ فون شلايخر على وجهي امارات التفاجؤ عندما سمعت بعزمه على حل البرلمان طفق يبرر لي هذا الاجراء قائلا:

« انني أمثل في هذا المقام رأي المشير فون هندنبورغ• وقـد يكون اجراء حل البرلمان سديداً لأنه يخلص الحكومة من معارضة الأحزاب بينما

تتم ممارسة الحكم بنخبة من الاختصاصيين . كما ان شعبنا قاسى الكثير بسبب تناحر الاحزاب وسيكون الرئيس فون هندنبورغ ممتنا فيما لو تم التغلب على الازمة الاقتصادية الخانقة وفيما لو وضع حد للاشتباكات المستمرة في الشوارع بين انصار مختلف الاحزاب وستجري مراعاة العدالة ووضع الامور في نصابها على أية حال».

لم نمض في اختلافنا بالرأي الى ابعد من ذلك وهببت من مجلسي مصافحا فون شلايخر على امل اللقاء به ثانية في صباح يوم الاثنين (وكنا في صباح السبت) لكي اواصل معه حديثي. ولما تركت شارع بندلر[7] ساورني شعور ملح.

فأنا امارس السياسة الداخلية والخارجية بمنتهى الحماس منذ اكثر من عشرة اعوام مساهمة مني في اعادة نهوض بلادي من كبوتها بعد الحرب الضروس . بينما كان اكثر السياسيين سادرين في هدوء حياتهم البرلمانية المريحة. وقد تحملت كامل مسؤولياتي دون خشية او تردد لكنني الآن ازاء قرار خطير لا يخصني لوحدي بصورة شخصية وانما ينطوي على اقدامي او احجامي عن قبول مسؤولية كبيرة.

ولم يتوقف قبولي لهذا المنصب الرفيع او رفضي له على اللواء فون شلايخر ولا على تقديري للموقف السياسي وانما كان يتوقف ايضا على مدى كفايتي الشخصية ومدى تحملي للمسؤولية الكاملة وقدرتي على النهوض بهذه المهمة بنجاح تام. وكان شعوري بمحدودية قدرتي كافيا لرفض الطلب الذي عرضه على فون شلايخر.

لذلك عزمت على محاولة مراجعة نفسي بهذا الشأن ومشاورة من اعتمد عليهم وسماع آرائهم. وكان ان عزمت على عرض القضية على صديقي الحميم هانس هومان وهو رجل اثق كثيرا برأيه واعتز باخلاصه فحثثت الخطى نحو

---

(٧) كان شارع بندلر ببرلين شارع مقرات وزارات الدولة ومنها وزارة الدفاع. — لمترجم —

مقامه في (نوي بابلزبرغ) فدعاني الرجل الى نزهة في زورق شراعي تبادلنا على متنه الآراء بمنأى عن الناس اجمعين ونحن نتهادى على صفحة الماء في بحيرة (ڤانزي) وكانت حصيلة ذلك اللقاء ان اتحفني هومـان برأيه السديد لتميزه بالصراحة الشرقية ووضوح التقييم لمختلف الشخصيات وكانت خلاصة رأيه ان خفف كثيرا من اعجابي بمناورات فون شلايخر قائلا:

« من الطبيعي انهم يحتاجون لرجل يحمل افكار احزاب الوسط وينحدر من اسرة محافظة ولا يؤمن بالاساليب الديموقراطية التي اثبتت فشلها، وهو غير مستهدف من الاحزاب المتطرفة وهذه الصفات تجتمع كلها في شخصك. ولكن هل يمكن للمرء الاعتماد على اقوالهم؟ انني اشك في ذلك كثيرا، ثم انك ستلاقي اشد معارضة من حزبك السابق ـ حزب الوسط ـ الذي كان يدين لبريونينغ بالولاء وعليه فهو لن يسامحك على تسنم منصبه والحلول محله حتى ولو كنت بريئا من هذه الجريرة. وأنا لا ابغي من هذا القول تجريعك المنغصات ولكنني اعرض عليك حقيقة مهمة هي ان رئاسة الحكومة تتطلب تفهما سديدا لطبائع الناس وادراكا واسعا لحـاجاتهـم وتصورا شـاملا للسياستين الداخلية والخارجية مع التسلح بالشجاعة الادبية . وطالما سبق ان اثبت اهليتك في شتى المواقف فلابد ان فون شلايخر والمشير فون هندنبورغ كونا فكرة بأنك انت الشخص المناسب لهذا الظرف. لكن اشد ما اخشاه هو الا تدرك الاحزاب بأن حكومة ڤايمار سوف تلاقي حتفهـا ما لم تنل الاصلاحات العاجلة . وانني ادعوك لقبول العرض فورا فيما لو كانت لدينا معارضة تقدمية واعية تساعد حكومتك على تنفيذ خططها البناءة».

وهكذا استوعبت تقديرات هومان التي محضني بهـا نصيحته ببضع جمل موجزة .

عدت في صباح يوم الاثنين الموافق ٣٠ مايس ١٩٣٢ الى شارع بندلر وكنت قد عقدت العزم على اخبـار فون شلايخر بقراري المتضمن رفض القيام بمهمة مستشار المانيا . فلما قابلته تلقاني بوجه طافح بالبشر الذي يبدو على محيا كل من تتحقق آماله وتسير خططه حسبما رسمه لها وابتدرني

قائلا:

« والآن اخبرني عما عقدت العزم عليه يا عزيزي بابن، اذ لا ينبغي لرجل فعال مثلك ان يترك مثل هذه الفرصة الذهبية تفلت من يديه دون ان يبرهن على صدق خدمته لبلاده ».

فأجبته :

« الا يمكنني ان اثبت لبلادي صدق خدمتي؟ لقد سألت نفسي هذا السؤال مرارا منذ يوم السبت الفائت . وقد تمخض الامتحان الذي خضته مع نفسي عن نتيجة سلبية، فالموقف الذي نعيشه يتطلب الاستفادة من جميع الجهود المخلصة وحشد القوى الوطنية كلها ـ ضمن الاحزاب وخارجها ـ وقد وجدت انني لست بالرجل المناسب، اذ انني اذا صرت خلفاً لبريونينغ فعلي ان آخذ في حساباتي الاستعداد لمواجهة العداء السافر من احزاب الوسط، ثم ان الاشتراكيين يراقبون أي محافظ بعين الريبة لأنهم يعتبرونه مناهضا لمبادئهم وعدوا للدولة الجمهورية الحديثة الولادة.

أما الصناعيون فانهم يتصدون بصورة تلقائية لكل من يعارض الحزب الديموقراطي الاشتراكي حتى ولو نجحت الحكومة الجديدة في القضاء على الكارثة الاقتصادية المحيقة بالبلاد وتمكنت من التغلب على مشكلة البطالة.

ثم اننا يجب ان نحاول اصلاح الاحزاب ولكن دون ان نتجاهل وجودها وليس هناك أي معنى للشروع بالتعامل معها انطلاقا من ازمة برلمانية مصطنعة».

عندئذ اجابني فون شلايخر ضاحكا:

« لقد فكرنا بجميع هذه الأمور . ويبدو انك تعالج القضايا بجدية اكثر مما تستحق وتتصور وجود صعوبات . فمن الطبيعي انك ستصادف من يتعرض لك ويتعرض لي ايضا، لكننا اذا ما نجحنا في تطبيق برنامج واسع للقضاء على البطالة فسيكون الشعب كله شاكرا لنا . واريد ان أرى عندئذ الحزب الذي يمكنه ان يمارس معارضة جدية ضد حكومتك . اما

الصناعيين ذوي الخزانات الخاوية فسينفض عنهم انصارهم وقد ضمنا لك حياد هتلر بعد تخلصه من تزمت بريونينغ • وينتظر تحسن موقف احزاب الوسط اذا ما تولى زعامتها رجل ذكي مثل كاس وسنجد ان الحرب الاهلية القائمة ستختفي تدريجيا »•

ولا يمكنني الانكار هنا فقد اقنعني فون شلايخر بقوة حجته عندما قال لي اخيرا:

« ان هذه المهمة تتطلب رجلا مستعدا للتصدي للهجمات السياسية المتوقعة رغم انه لا يتمتع بأي اسناد من الاحزاب • والحكم على مدى نجاح هذا الرجل سيصدره الشعب الالماني وحده • وان الرئيس فون هندنبورغ يتطلع لولائك بكل ثقة وهو متأكد من انك سوف لن تخذله• لأنه يريد التغلب على الازمة الراهنة بأسرع ما يمكن وينتظر مقابلتك له هذا اليوم»•

وهكذا اصبح من الواضح لدي بأن فون شلايخر ادرك هدفه بكل تاكيد • اذ يبدو انه وضع خطته بالإتفاق مع الرئيس فون هندنبورغ باقالة حكومة بريونينغ وترشيحي خلفا له ــ دون وجود أي مرشح بديل عني ــ ويبدو انهما اعدا قائمة بوزراء الحكومة الجديدة واتفقا على تعيين بعض الاسماء لمناصب وزارية معينة• وكان ان استشففت من الاسماء التي اخبرني بها فون شلايخر بأن الحكومة الجديدة تضم عددا من المحافظين غير الحزبيين وكلهم من الاختصاصيين•

لكنني لم اكن قد اعطيت أي وعد بقبول العرض بعده• فقلت للواء فون شلايخر بأنني ارغب باجراء محادثة مع زعيم حزب الوسط الأب كاس اولا•

ثم انني يجب أن اتمعن بردود فعل الدول الاجنبية ازاء قيامي بمهمة المستشار • اذ ان من المؤكد احياء البعض للاقاصيص القديمة التي تشير الى فعالياتي خلال الحرب في الولايات المتحدة الامريكية بصورة مبالغ بها وبشكل يسيء الى سمعتي السياسية•

فعلق فون شلايخر على طلبي قائلا:

« سيان عندك اذا تخرص البعض او لـم يتخرص فالناس يعيشون حاضرهم وما فعلته في زمن الحرب بحكم الواجب تبرره الحرب ولا تثريب عليك » .

ألا ان المهم هو انك تحظى بسمعة جيدة في فرنسا. ذلك لأن الفرنسيين يقدرون تماما مدى حرصك على تحسين العلاقات الالمانية الفرنسية بدأب حاز اعجابهم. وهذه السياسة ستلقى منهم كل ترحيب».

وقد ايدت اقواله هذه وقلت له بأنني سأوافيه في صباح الغد لكي اتخذ قراري بهذا الشأن وربما سأقوم بمقابلة الرئيس فون هندنبورغ.

في الساعة الثالثة من بعد ظهر الثلاثاء الموافق ٣١ مايس ١٩٣٢ ذهبت الى مستشفى (هيدفيك) لمقابلة الأب الدكتور كاس . وكانت تربطني بـه علاقة حميمة منذ ان قدمـت له الكثير من الاسنـاد في مرحلة وصوله الى زعامة حزب الوسط. ولم يكن من الضروري اخباره بالقصد من زيارتي له. حيث سبق ان قام اللواء فون شلايخر (كما سبق ان ذكرت آنفا) باخبـار السفير الفرنسي ببرلين فرانسوا بونسيه بأسرار سقوط الوزارة الوشيك وعرف العالم اجمع بأن الكرسي كان يترنح تحت المستشار بريونينغ . كما كان من غير الضروري ايضا اخبار كاس بعدم مساهمتي الشخصية في الاطاحة بالمستشار بريونينغ لأن كاس كان يعلم جيدا بمدى اخلاصي في اسناد المستشار بريونينغ. وقد قال لي كاس في ذلك اللقاء دون ان يتوغل بالتفاصيل بأن اشد ما يخشـاه هو ان يحل احـد المغمورين بمحـل بريونينغ ومن الذين يناصبون حزب الوسط العداء وقد اقسم بأنه سيعمل ـ اذا مـا حصل ما يخشاه ـ على الاطاحة بالرئيس فون هندنبورغ.

وكان هذا الموقف متوقعـا من الأب كاس لكنني مع ذلك اخبرتـه بمحادثاتي مع فون شلايخر ومدى اتساع شقـة الخلاف بين الرئيس فون هندنبورغ والمستشار بريونينغ الى حد القطيعة لدرجة دعت الرئيس لاتخاذ قراره باقالة المستشار . وقلت للأب كاس بأنني عازم على مواجهة الرئيس والاعتذار له عن قبول التكليف لأنني لا يمكن ان اقبل بمنصب المستشار

بينما انا لا اتمتع بثقة احزاب الوسط.

وبعد تلك المقابلة بربع ساعة كنت احظى بمقابلة الرئيس الجليل فون هندنبورغ الذي تلقاني كعهده بابتسامته الأبوية الحانية وابتدرني قائلا بصوته الجهوري المجلجل:

« ايه يا عزيزي پاپن. هل ستساعدني في هذا الموقف العسير؟»

فأجبته:

« اخشى أنني لا استطيع النهوض بالمهمة يا سيدي الرئيس »

وأعقبت تلك المحاورة محادثة مطولة قلت في ختامها للرئيس:

« ولكن ربما بالامكان التمسك ببريونينغ»

فأجاب الرئيس:

« كلا . فهو لا يريد مواصلة مهمته . وهو يلح على منحه صلاحيات استثنائية . ثم انه لا يفهم بأنني لوحدي غير قادر على حل تلك المنظمات النازية المسلحة. اضف الى ذلك انه جعلني بموقف بالغ الحرج عندما جعل الاحزاب اليسارية تجدد انتخابي بينما جعل احزاب اليمين ــ وهم اقرب المقربين الى نفسي ــ تندفع للارتماء في احضان نائب العريف وتنحاز اليه ضدي».

وأكد اخيرا بأنه يريد تأليف حكومة من رجال يعرفهم هو بصورة شخصية ويمارسون الحكم دون أية تأثيرات من احزابهم تصل الى حد استمزاج آرائها حتى في ادق التفاصيل. فقلت له:

« ان كل هذا واضح يا سيدي الرئيس. ولكنك ارسلت في طلبي لأنك اعتبرتني عضواً في حزب الوسط ولأنني اتمتع باسناد الوسط. ومما لا شك فيه ان بمقدورك ايضا تكليف احد اعضاء الحزب الوطني بهذه المهمة. ولذلك فانني لا اود ان اضللكم يا سيدي. فأنا في حالة قيامي بمهمة المستشار سوف اجلب لنفسي الكره والمناوأة الشديدة من حزب الوسط».

ولم يخرج الأب كاس في محاورته معي عما هو متوقع سواء من قبلي

أو من قبل الرئيس فون هندنبورغ في تقديرنا لموقف حـزب الوسط من الحكومة الجديدة.

واختتم مشهد لقائي مع الرئيس فون هندنبورغ عندما هب من مقعده وتناول كلتا يدي قائلا وهو يحملق في عيني:

« كيف يمكنك خذلان الشيخ الذي ربطتك به روابط الاخوة طوال سنين عديدة وهو متحمل مسؤولية المانيا برمتها عندما وجد نفسه بموقف صعب وهو يطالبك بمساعدته في قضية حاسمة تتعلق بمستقبل المانيا؟

انني انتظر من حميتك الوطنية ان تستجيب لندائي في سبيل المانيا».
وشعرت في تلك اللحظة الحاسمة بصعوبة في التنفس وتسمرت مذهولا وأنا اصغي لعبارته المؤثرة الدافئة بينما استأنف كلامه قائلا:

« سيان عندي سواء حظيت بمودة حزبك او تعرضت لعداوته . فأنا أريد حولي رجالا بلا انتماء ولكنهم يعرفون دقائق عملهم بأفضل ما يمكن لكي اتغلب على الازمة».

ثم تهدج صوته عندما اختتم كلامه قائلا:
« لقـد كنت جنديا وأديـت واجبك في الحرب . ونحن في بروسيا لا نعرف غير الطاعة عندما يدعونا داعي الوطن».

عندئذ لم اتمكن من الاستمرار على العناد بعد ان تحول الرئيس للربط بين التكليف ومفاهيم الطاعة والاخلاص. ولم البث ان شـددت على يد الرئيس مؤكدا طاعتي له وقبولي لتكليفه.

وسرعان ما جاء فون شلايخر ــ الذي كان ينتظر في غرفة مجاورة ــ ليشد على يدي مهنئاً برئاسة الوزارة. لكنني لم اشعر بفرحـة تبرر قبولي للتهنئة وانما شعرت في تلك اللحظة بوطأة الحمل الذي تقبلته توا.

في تلك الاثناء اصابني الحظ بلطمة شديدة لدرجة اثرت على مستقبلي السياسي بصورة حاسمة فيما بعد . اذ بينما استقر بنـا المقام انا والرئيس

فون هندنبورغ واللواء فون شلايخر لوضع تفاصيل تشكيل الحكومة الجديدة. قام احدهم ــ ولم اعلم ابدا من هو ذلك الشخص ــ بافشاء نبأ اجتماعنا بنداء هاتفي فأنتشر خبر اجتماعنا في طول البلاد وعرضها بسرعة مذهلة ووصل الى البرلمان ايضا بطبيعة الحال وهناك تحدث الأب الدكتور كاس عن مقابلتي له وسرد كل ما قلته له وتأكيدي له برفض طلب الرئيس فون هندنبورغ. وللمرء ان يتصور مدى شعور اعضاء البرلمان عندما يؤكد لهم ذلك الأب المحترم بأنني قلت له امرا وأقدمت على اجراء معاكس له تماما ولابد ان الأب كاس شعر بعدئذ بتأنيب الضمير لأنه فضح حديثاً شخصياً ائتمنته فيه اسراري.

لقد كانت تلك الواقعة من الاحداث التي لا جدوى من التعمق في عقابيلها. وكان ان اجتمع عدد من السياسيين حول المستشار بريونينغ مستنكرين خطوتي التي اقدمت عليها بكل ما لديهم من قوة . ولو علمت فيما جرى في حينه لتكلمت مع الدكتور كاس هاتفيا واخبرته بتفاصيل عرض الرئيس والحاحه علي مما اضطرني على الاذعان لطلبه ــ لأسباب تتعلق بالاخلاق القويمة التي جبلت عليها ــ ومع اني كتبت للرجل بتفاصيل ذلك العرض وملابسات القبول بعد بضع ساعات الا ان كتابتي هذه كانت متأخرة واعتبرت من المبررات الحاذقة بدلا من كونها الحقيقة الناصعة.

ولربما كانت حملة التشهير هذه التي افتتح بها خصومي عهدي السياسي هبة نزلت من السماء على المستشار الذي حللت محله فأراد الانتقام مني بمنتهى القسوة. وكان كل ما استطعت القيام به كرد فعل على هذه الحملة هو تقديم استقالتي من عضوية حزب الوسط. وقد اعطت رسالتي انطباعا بأن استقالتي تتيح لي حرية العمل بالتعاون مع جميع الاحزاب في سبيل خدمة الوطن. حيث قلت في تلك الرسالة بأن رغبتنا المشتركة يجب ان تنصب على توطيد علاقاتنا مع العالم وفق الأسس المسيحية الراسخة.

والمؤسف ان احداث تلك الواقعة اظهرت مدى تسميم «القضية» للجو وارباكها لجميع احتمالات العمل المشترك لدرجة اودت بكل ما عزمنا عليه

قبل الشروع به.

القينا نظرة فاحصة على مصادر الخلل في النظام البرلماني الذي كان السبب في اثارة المشكلات الشخصية والحزبية المقلقة للحكومة بصورة مستمرة. وقد حدث في عام ١٩٤٨ ان اقمنا حفلا تذكاريا بمناسبة مرور مائة عام على ثورة ١٨٤٨ المجيدة في مدينة فرانكفورت وذكرنا انفسنا فيه بأن الحرية والوحدة كانتا وستبقيان اهم مبادئنا التي اتخذناها نبراسا في حياتنا. ولكننا لم ترسم خطى المباديء التي وضعتها كنيسة پولص والمعروفة لدى الاوساط الانكلوسكسونية الديموقراطية بقبول نظام حزبين فقط احدهما الحاكم والآخر المعارض. وقد تمخضت الحربين العالميتين عن وجود ثمانية احزاب مختلفة البرامج في المانيا الغربية. والمعروف عن برامج الاحزاب الالمانية انها جامدة الى حد الصرامة لدرجة مشابهة لنظام الأديان ويعتبر الاخلال بالبرنامج ـ المقدس ـ خطيئة لا تغتفر ولذا فان الاحزاب تدافع عن برامجها بكل ما اوتيت من قوة دون اية محاولة للتغيير . وتعطي فرنسا والمانيا اسوأ مثل عن الضرر الذي يلحق بهما نتيجة لقبولهما بنظام تعدد الاحزاب الى حد غير محدود. وكانت حصيلة هذا النظام ان تسلط المستبدون على الحكم في فرنسا لمرتين واصبحت حكوماتها قصيرة الاعمار حتى في ايامنا هذه بسبب صعوبة الحياة البرلمانية المفرطة بالديموقراطية . اما المانيا فتنتظرها ازمات سياسية داخلية غير قليلة بسبب تعدد احزابها التي تعتبر من اهم مسببات الوهن. والمؤسف اننا لم نتعلم من اخطائنا السابقة فالحل الامثل يكمن في اعتماد الحكم على حزب قوي تأتلف معه كل القوى الخيرة المحبة للوطن وتستهدي كلها بالمفاهيم الدينية القويمة.

والمؤسف ان انتهازيي حزب الوسط الذين عايشتهم في تلك الفترة لا يزال امثالهم يسرحون في المجال السياسي دون ان يدركوا متطلبات المرحلة الراهنة.

والآن لنرجع الى المشاكل التي صادفتنا في عام ١٩٣٢ . فقد انهينا في اليوم التالي مباحثاتنا بشأن تشكيل الوزارة الجديدة . وكان لفون شلايخر

القدح المعلى في اقتراح الشخصيات للمناصب الوزاريـة بينما كنت اؤيد مقترحاته من اجل ادراك اهدافنا المشتركة . والواقع هو ان فون شلايخر اختار نخبة من الرجال الاختصاصيين ذوي السمعة العطرة . فأصبح البارون فون نويرات ــ وهو الرجل الذي رفض التعاون مع بريونينغ رغم تكليفه بأشغال وزارة الخارجيـة مرارا ــ وزيرا للخارجيـة والبارون فون غاول الاداري المتمرس وزيرا للداخلية وهو رجل عمل لفترة طويلة عضوا في مجلس ادارة الدولة ويمتاز بحصافته وخبرته الرائعة في مجال الاصلاح البرلماني. واصبح الدكتور غيورتنر وزير العدل الباڤاري والذي سبق ان تعرفت عليه شخصيا ابان خدمتنا معاً في الحملة على فلسطين وزيرا للعدل. وكنت قد عزمت على تسمية الدكتور شيتسل وزيرا للبريد والمواصلات الا ان حزب الشعب الباڤاري الذي كان شيتسل ينتمي اليه منعه من الاشتراك بحكومتي.وعليه فقد كلفت صديقي البارون فون ايلتس بتسنم هـذا المنصب وهـو من خبراء سكك الحديد المعدودين في ولاية بادن وكان قد خدم في الولايات المتحدة الامريكية لسنين طويلة في هذا المجال. واخترت البارون فون براون الخبير القدير في الشؤون الزراعية وزيرا للزراعة . اما اللواء فون شلايخر فقد تولى وزارة الدفاع التي خدم في مقرها سنين طويلة واكتسب خبرة جيدة في ادارتها وبذا اصبح فو شلايخر من اقوى وزراء الحكومة الجديدة بعد ان ساهم في انتخاب اعضائها.

وقد صادفتنا صعوبة في اشغال منصبي وزير الاقتصاد ووزير العمل. وكان اختيار فون شلايخر قد وقع على محـافظ لايبزك !! كتور غويردلر الذي سبق ان رشحه الدكتور بريونينغ لدى الرئيس فون هنـدنبورغ ليكون المستشار الذي يخلفه. ولما اشترط علينا غويردلر توليه كلتا الوزارتين في وقت معاً فقد عهدت وزارة الاقتصاد للمفكر الاقتصادي الاستاذ الدكتور فارمبولد صاحب النظريات الاقتصادية الرائعة وعهدت بوزارة العمل للخبير الماهر والمدير العام فيها الدكتور سيروپ.

في خلال ٢٤ ساعة اصبحت على استعداد لتقديم اعضاء وزارتي الجديدة

للرئيس لكي يقسموا يمين الولاء قبل توليهم مناصبهم الجديدة، ولم يتم تشكيل اية وزارة المانية بمثل هذه السرعة منذ العهد القيصري الغابر . وهكذا لم يكن الانطباع الأولي عن الوزارة سيئاً، ولابد من الاعتراف بفضل اللواء كورت فون شلايخر للهمة التي بذلها في هذا المضمار.

كانت المشاكل التي تنتظرنا بالغة الخطورة لدرجة لا يستهان بها أبداً، وعليه فقد بذلت جهدي لأكون ـ كألماني مخلص ـ عند حسن ظن الرئيس فون هندنبورغ . وكان الموقف المادي والمعنوي الذي تعيشه المانيا يتطلب حشد جميع طاقات البلاد من اجل تحسين ذلك الموقف الحرج. ولعل اعوص المشاكل التي صادفت حكومتنا في اول عهدها هي اضطراب الموقف المالي للحكومة المركزية ولكثير من الولايات الالمانية لدرجة تستوجب المعالجة الفورية . ولم تكن الاصلاحات الضرورية الاساسية التي ضمن طاقاتنا لمعالجة التدهور الشديد الذي اصاب الحالة المالية. كما ان ازدياد عدد العاطلين عن العمل اثر على الملايين من ابناء الشعب الالماني. اما مشاريع الضمان الاجتماعي فقد اصابها الافلاس.

وكانت الحكومات الالمانية المتعاقبة في فترة ما بعد الحرب قد اعتقدت بأن في مقدورها التوفيق بين متطلبات العمال وارباب العمل ولكنها لم تفلح في ذلك.

وهكذا فشلت الدولة الالمانية في تحقيق الرخاء المنشود لابناء الشعب وكانت حصيلة ذلك ان طرأ الوهن على قوة الشعب المعنوية.

تفاقم هذا الشر بنشوب صراع الطبقات الذي اججه الشيوعيون لدرجة وجب علينا معها التصدي بكل ما اوتينا من قوة للخطر الماثل وكانت العقيدة المسيحية من اولى الوسائل المتاحة لمناهضة هذا الخطر.

وترتب على الحكومة الجديدة في مجال السياسة الخارجية التعاون مع الأمم الأخرى من اجل تحقيق المساواة مع القوى الاوربية الاخرى والنضال من اجل ضمان حرية السياسة الخارجية الالمانية . وكانت المشكلات الخارجية

التي تقف بوجه المانيا هي تحديد قواتها المسلحة وتعويضات الحرب المفروضة عليها والازمة الاقتصادية المحدقة بها.

ولا يمكن القضاء على هذه المشكلات ما لم يتم وضع اسس واضحة للسياسة الداخلية وضمان التفاف الشعب الالماني كله حول الحكومة . ولهذه الاسباب طلب الرئيس فون هندنبورغ من الحكومة الجديدة حل البرلمان.

في ١ حزيران ١٩٣٢ اصدر تجمع احزاب الوسط في البرلمان الالماني بيانا جاء فيه:

« ان احداث الايام القلائل الماضية التي تمخضت عن استقالة حكومة بريونينغ تتطلب التسلح بالشجاعة والتصدي للتدابير المتخذة بأشد ما تستطيعه قوى التجمع الوطني استحضارا لاجراء المفاوضات الدولية انطلاقا من قاعدة دستورية رصينة.

وان اقدام عدد من الاشخاص غير المسؤولين على اتباع نهج مجرد من أي امل في تحسين الاوضاع السائدة لابد أن يؤدي الى تدهور الموقف الاقتصادي واضطراب الحالة الاجتماعية السائدة مما سيجر الشعب الالماني الى صعوبات جديدة تؤثر على وجوده...

وفي هذه المرحلة الدقيقة التي تشهدها البلاد يجد حزب الوسط ان من واجبة التصدي لهذه الاعمال والعمل على توحيد الجهود السياسية من اجل تحقيق الحرية الوطنية والعدالة بغية التصدي للشكلة الاساسية القائمة مشكلة البطالة .. ولذا فقد عزم حزب الوسط على ايجاد الحل المناسب للمشكلة المذكورة.»

وفي مساء يوم ١ حزيران ١٩٣٢ نفسه صدر عن حزب الوسط بيانا لاحقا جاء فيه:

« ان اللجنة التنفيذية للحزب قررت بالاجماع رفض الاعتراف بحكومة فون باپن من حيث المبدأ. وان حزب الوسط يرى ان تشكيل هذه الحكومة

يعتبر حلاً غير كامل ويرى وجوب تكليف الحزب الوطني الاشتراكي (النازي) بمسؤولية تأليف الحكومة الجديدة».

وهذا الاعتراف الصريح لابد ان يستأثر باهتمام المؤرخين الذين دأبوا على تصديق مزاعم جميع الأحزاب الالمانية والدكتور بريونينغ حيث اجمع هؤلاء على ترديد العبارة التالية:

« هتلر ؟ كلا لقد دأبنا على رفضه من حيث المبدأ وباستمرار، ان اسمه لم يكن واردا بالنسبة لنا».

لم تكن صحافة حزب الوسط متفقة مع روح البيان المغرض ـ لأسباب شخصية ـ والصادر عن الحزب المذكور ، حيث نادت بعض صحف الوسط بضرورة تكليف هتلر بتشكيل الوزارة الجديدة وسرعان ما تبادلت صحف اليمين وصحف اليسار الاتهامات التي وصلت الى حد الاتهام بالخيانة.

في ٤ حزيران ١٩٣٢ تم حل البرلمان، وكنت قد بينت في محاورتي مع فون شلايخر بأن حل البرلمان والتوقف عن حل منظمة وحدات العاصفة هما الاجراءين اللذين اضمن بهما عدم معارضة هتلر لحكومتي تمهيدا لاشراك حزبه في الحكم، وعندما اجتمعت الحكومة لأول مرة وجدت ان من الضروري اخبار الوزراء بهذين الاجراءين وتبريرهما وقلت لزملائي بأنني اردت من حل البرلمان اتاحة الفرصة ايضا لابناء الشعب الالماني لمراجعة ارائهم بشأن ممثليهم على ضوء سياستنا الجديدة.

تعرضت لاتهامات مفادها انني اتخذت قرارا فرديا بحل البرلمان لكي اتيح للحزب النازي فرصة الحصول على نسبة اعلى من الاصوات، وقد زعم الدكتور بريونينغ في رسالته المعنونة لوكالة الانباء الالمانية بعد الحرب العالمية الثانية بأن فون پاپن لم يتخذ قرار حل البرلمان ولم يوقف حل وحدات العاصفة آنذاك لأن فون شلايخر هو الذي اقدم على اتخاذ هذين الاجرائين بالاتفاق مع الحزب النازي قبل تكليف المستشار فون پاپن بتشكيل وزارته، كما اكد بأن المشير فون هندنبورغ اخبره في ٣٠ مايس ١٩٣٢ بعزمه على حل البرلمان واجراء انتخابات جديدة، وهذا معناه ان فون شلايخر كان قد

اخبر الرئيس فون هندنبورغ بشروط الحزب النازي قبل تكليفي بتشكيل الوزارة. وقد قال لي فون شلايخر آنذاك بأن الانتخابات الجديدة ربما ستتمخض عن انتصار الحزب النازي بصورة ساحقة وهذا معناه وجوب اشراكي لبعض الوزراء النازيين في حكومتي بعد الانتخابات. ولو كنا قد تسامحنا مع النازيين واشركناهم بالوزارة لما كان هناك من داع لحل البرلمان واجراء انتخابات جديدة. والسبب الحقيقي الذي دعانا للجوء الى هذا الاجراء هو اننا كنا على وشك الاشتراك بمؤتمر لوزان مع الدول المنتصرة في الحرب العالمية الاولى وأردنا التفاوض في المؤتمر معتمدين على قاعدة داخلية رصينة.

قابلت هتلر وتحدثت اليه لأول مرة في حياتي يوم ٩ حزيران ١٩٣٢ وقد تم لقائنا بناء على طلبي لأنني اردت التأكد شخصيا من مزاعم فون شلايخر. وقد التقينا بمنزل السيد فون الفينس ليبن صديق الوزير فون شلايخر والذي كان مكلفا بمهمة الاتصال مع الحزب النازي.

كان انطباعي الأول عن شخصية هتلر ينطوي على الاعجاب. فقد بدى لي بمظهره الريفي وميل جرمه نحو القصر وبشاربه المبتور وبخصلة الشعر المشهورة التي كثيرا ما كانت تنفر على جبينه اكثر بوهيمية من اعتباره رجلا سياسيا مرموقا حاز اكثر من ثلاثة عشر مليون صوت في انتخابات رئاسة الجمهورية الالمانية . أما سحر عينيه الذي تحدث عنه الكثيرون بأسهاب فيما بعد فانني لم ألمس منه الا القليل.

كان سلوك هتلر مهذباً ولمست فيه ميلا للتواضع. وفي خلال المناقشة التي اجريتها معه أثار هتلر الشكوى المعتادة من عدم كفاية رجال الدولة الالمانية. وان حزبه الكبير لا يمكن ان يسند حكومة لا يشترك فيها ما لم يلمس منها مُنتهى الحرص على استعادة سيادة الشعب الالماني.

وقد اكدت له بأنني سأبذل قصارى جهودي في هذا السبيل بينما تعهد لي بتقديم اسناد حزبه والوقوف من حكومتي موقفا ايجابيا خلال انعقاد مؤتمر لوزان.

اما بصدد مساهمة الحزب النازي في الحكومة فقد ابقى هتلر هذا الموضوع غامضا فهو لم يشأ الالتزام بوعد معين ما لم تظهر نتائج الانتخابات الجديدة ، ولكنه قال بصراحة انه يعتبر حكومتي حكومة وقتية للمحافظة على الحالة العامة وانه سيواصل النضال من اجل جعل حزبه اقوى احزاب المانيا قاطبة تمهيدا لتوليه منصب المستشار .

وعندما افترقت عن هتلر في ذلك اللقاء اصبح من الواضح لدي تماما بأن مهمتي المقبلة في مؤتمر لوزان ينبغي ان تتمخض عن النجاح التام مع تحقيق الاستقرار الداخلي في المانيا نفسها لكي نحظى بثقة الدول الاخرى ونكسب الشعب الالماني قبل اندفاعه وراء الحزب النازي.

شرعنا ببذل جهودنا في ظروف مفعمة بالمعوقات ، فقد كانت خزانة الدولة خاوية لدرجة لا يمكن معها دفع رواتب الموظفين لشهر حزيران ١٩٣٢. وهكذا حز في نفوسنا الاضطرار على اللجوء للمسلك الذي عزم بريونينغ على اتباعه بتقليص الرواتب مع ما تترتب على ذلك الاجراء من نتائج. وقد شرع وزير الداخلية الجديد باتخاذ خطواته التمهيدية للاصلاح البرلماني. بينما اوضحت للمجلس الزراعي الالماني بأنني على اتم استعداد لاسناد النشاط الزراعي من جميع الوجوه وتمكنا من تشغيل ٦ـ٧ ملايين عامل عاطل تشغيلا كاملا وتشغيل ١٢ـ١٣ مليون عامل عاطل بنصف عمل ريثما تتوسع مشاريعنا بحيث تستوعب كل العاطلين بتشغيل كامل ، وبذلك تغلبنا على ازمة البطالة التي كانت تؤثر على الحياة الاجتماعية الى ابعد الحدود ومع ذلك فقد بقي لدينا زهاء مليون ونصف شاب متسكع على قارعة الطريق بانتظار الحصول على فرصة العمل.

وهكذا كانت الاربعة عشر يوما الاولى من عهدي حافلة بالعمل الدؤوب قبل اشتراكي بمؤتمر لوزان ، اذ ترتب على الشعب الالماني وعلى العالم كله ان يعرف تماما مدى قوة الحكومة الجديدة واهليتها قبل ان تقدم على تمثيل الشعب الالماني في تلك المدينة السويسرية الواقعة على بحيرة جنيف بمؤتمر دولي تحرص فيه على اسماع صوت المانيا وكسب ثقة المؤتمرين من ممثلي

الدول المنتصرة في الحرب العظمى.

ثم ترتب علينا ايجاد حل للوعد الذي قطعه الوزير فون شلايخر بعدم حل منظمة وحدات العاصفة لاسيما بعد ان وجه رئيس الجمهورية مذكرة طارئة للحكومة بتاريخ ١٦ حزيران ١٩٣٢ واعطى نسخة منها الى وزير الداخلية وقد جاء فيها.

« اطلعت على مقترح الحكومة المتضمن اتخاذ تدابير معينة لتهدئة الاوضاع الداخلية في المانيا وعدم لجوء الفئات المتناحرة سياسيا للاجراءات القسرية ضد بعضها البعض. ولما لم تكف تلك الفئات عن التناحر باستعمال العنف فقد قررت منع المنظمات والقوات شبه العسكرية لجميع الفئات واللجوء لكل الوسائل المتاحة لدى الدولة لتنفيذ هذا المنع».

وكثيرا ما ادعت الاحزاب اليسارية بعدئذ بأنني كنت حريصا على عدم حل وحدات العاصفة لأنني كنت مؤيدا للنازية وهذا الادعاء ملائم لادعاءاتها لأنها لابد ان تتحرى عن كبش للفداء ولكنني اثبت الوقائع التأريخية هنا كما حصلت خدمة مني للحقيقة. فالمنع الذي صدر عن الرئيس شمل القوات شبه العسكرية لجميع الاحزاب بدون استثناء.

وفي ١٨ تموز ١٩٣٢ وجد وزير الداخلية نفسه مضطرا على منع المظاهرات في جميع اجزاء المانيا وتنفيذ المنع الصادر بشأن المنظمات شبه العسكرية لجميع الاحزاب السياسية . لكن هذا المنع لم ينفذ مطلقا على وحدات العاصفة النازية في بعض الولايات — مثل باڤاريا وبادن — لأن حكومات تلك الولايات اخبرت العاصمة بأن قوات الشرطة النظامية المتيسرة لديها غير كافية للمحافظة على الامن الداخلي وبالتالي فهي مضطرة على الاستعانة بوحدات العاصفة القوية المتيسرة لديها بدلا من مناوأتها وحلها قسرا.

ولو زعم البعض بأن الانتخابات البرلمانية التي جرت في ٣١ تموز ١٩٣٢ تمت في ظروف مواتية للحزب النازي بسبب تأثير الاجراءات الحكومية

نصالحه فان هذه المزاعم لا اساس لها من الصحـة لأن الحكومة اصدرت اوامرها بمنع المظاهرات في جميع ارجاء المانيا قبـل موعـد الانتخابـات بأسبوعين•

عندما شرعت بعملي الجديد بكل همة ودأب لم يكن لي مسكن شخصي ببرلين • وذلك لأن قصر رئيس الجمهورية كان قيد التجديد وقد رجـاني الرئيس فون هندنبورغ اعارته مسكن المستشار للاقامة به لمدة ستة اشهر ريثما تنجز اصلاحات قصره وقد لبيت طلبه بطبيعة الحال • وكان ان وجدت لي سكنا في بيت متواضع بشارع ڤيلهلم رقم ٧٤ كان مخصصا لسكنى امين سر المستشارية سابقا• واتخذت من احدى قاعاته مكتبا وقد انفقت لاصلاح الدار ـ على ما اذكر ـ مبلغ ٤٢ مارك ونصف ولما سكن الدار بعد ذلك وزير الداخلية ڤيلهلم فريك انفق على تجديدها آلاف الماركات وبصرف النظر عن الموقف المالي الذي كنا نعيشه فانني رأيت بأن كبار الموظفين يجب ان يجعلوا من أنفسهم قدوة حسنة في جميع المجالات ومنها مجال المصروفات•

الفصل الثاني عشر

لوزان



الآمال الكبيرة . محادثة مع هريو. مصالحة المانية ـ فرنسية. مقترحاتي . اعتراض ماكدونالد . مقاومة هريو العنيدة . تفاهم بشأن مشكلة التعويضات. مباغتة انكليزية . جني الثمار المتساقطة. حلف مشترك على حساب المانيا .

كان ايجاد حل لمشكلة التعويضات في خضم الازمة الاقتصادية العالمية ضرورة ملحة لم تجد لها المانيا مخرجا لسنين عديدة. وقد استحضر الدكتور بريونينغ لمساهمة المانيا في مؤتمر لوزان باجراء سلسلة طويلة من المحادثات. وعليه فلابد للمرء ان يقدر جيداً مدى حرصه على عدم اتاحة الفرصة لغيره كي يجني ثمار مجهوداته هذه. لكنه اذا ما ادعى (بأنه ابعد عن موقعه قبل وصوله الى هدفه النهائي بمائة متر فقط) فلابد ان ارد على هذا الادعاء بالقول انه لا اساس له من الصحة. لاسيما وان المعارضة لم تأل جهدا في الترديد بأن نتائج المؤتمر كانت ستكون افضل بكثير فيما لو كان بريونينغ هو الذي مثل المانيا بدلا عني.

لقد جاء في الجزء الثالث من «الوثائق البريطانية في السياسة الخارجية» نص اقوال رامزي مكدونالد في ٢٣ نيسان ١٩٣٢ حيث قال اذ الدكتور بريونينغ اخبره باستعداده لقبول اية تسويـة تتضمن ارجـاء دفع المانيا للتعويضات واعتبار تلك التعويضات ديوناً واجبة التسديد وان مقادير الديون يجب ان تحدد ايضاء وليس هناك ما يدعو الدكتور بريونينغ للجوء الى كسب النجاح الوهمي بارجاء تسديد مبلغ خمسة مليارات مارك للدول المنتصرة في الحرب العظمى مع الاستمرار على نزع سلاح المانيا. بينما تمكنت انا من تخفيض المبلغ المذكور الى ثلاثة مليارات مارك فقط مع الحصول على اقرار من الدول المذكورة بعدم اللجوء الى مطالبة المانيا بأية مبالغ اخرى. وبينما كان بريونينغ قانعا بتحديد تسلح المانيا خرجت انا من مؤتمر لوزان وكلي امل باعادة تسلح المانيا اسوة بالدول الاخرى.

وأنا لم اكتف بانهاء مشكلة التعويضات وحدها تلك المشكلة التي جعلها كل رجال الدولة الالمانية نصب اعينهم. وانما انصبت رغبتي الملحـة على الحصول على مكاسب كثيرة يمكن تسمية الغرض الاصلي منها بالمصطلحات السائدة حاليا «استعادة التسلح المعنوي لألمانيا» فاذا اردنا لالمانيا ان تواكب الركب الاوربي في التقدم الحضاري السلمي وتلعب دورهـا التأريخي في الحضارة الاوربية فلابد لنا ان نجنبها عقدة النقص قبل كل شيء. فقد عوملنا بفرساي معاملة شعب من الدرجة الثانية وانتقصت سيـادتنا بشكل مهين وحرمنا من حقوق طبيعية مهمة. ولم يعد بمقدورنا اتخاذ التدابير الدفاعية المحضة لحماية وطننا وجردت منطقة الراين من وسائل الدفاع واقتطعت أرض المانية وأعطيت الى پولندا ففصلت اقليم بروسيا الشرقية عن بقية الاراضي الالمانية (بالممر الپولندي) وجعلت منطقة السار تحت سيطرة دولية. ثم جاء في الفقرة ١٣١ من اتفاقية فرساي نص يقول اننا وحدنا نتحمل وزر الحرب العظمى.

ولابد لمن شهد فترة ارتقاء الحزب النازي ان يعرف النتائج التي ترتبت على تكرار الضرب على نغمة الشعور بالنقص ومدى معاناة الحكومـات

الالمانية المتعاقبة من التأثيرات النفسية التي اصابت الشعب الالماني في تلك الفترة. ولم يكن التخلص من التعويضات سوى جزء يسير من تدابيرنا العديدة لانقاذ موقف المانيا الحرج. اما الانقاذ الشامل للشعب الالماني من المحنة التي كان يحياها فيتم باستعادة المعنويات وشحذ الهمم في نفوس المواطنين الالمان.

ما ان وصل الوفد الالماني الى لوزان في ١٥ حزيران ١٩٢٣ الا وحرصت على المبادرة باجراء اتصال مباشر مع الصحافة العالمية . ولم انتظر تقدم الصحفيين برجاء لمقابلتي وانما استقللت سيارتي وقدتها بنفسي متوجها الى مقر الصحافة العالمية هناك. ولم يكن مثل هذا الاجراء مألوفا من أي مستشار الماني قبل ذلك التأريخ. وقد سبب هذا الفعل حصول بعض الحساسية. وكان ان تحدثت الى ممثلي مختلف الصحف العالمية عن آمال المانيا من هذا المؤتمر العالمي ورجوتهم ان يسندوا المانيا بعرض الجوانب الايجابية للوفد الالماني على الرأي العام في مختلف ارجاء العالم.

قدمت نفسي في اليوم التالي لرئيس وزراء فرنسا هريو في فندق قصر لوزان . وقد حياني السيد هريو بكل حرارة ولم اجد بدوري اية صعوبة في اقامة علاقة ودية حميمة مع الرجل . وقد تحدثت اليه طوال ساعة ونصف ببساطة وعفوية تامة عارضا عليه آمالي الكبيرة التي عقدتها على ذلك المؤتمر الدولي. وقد اوضحت له بطبيعة الحال ظروف وملابسات تبديل الحكومة الالمانية وتحدثت عن المزايا التي حققتها بضمان التفاف المعارضة حول الحكومة في هذه المرحلة بالذات. وفي ختام تلك المقابلة ساورني الامل بحصول تقارب وطيد بين وجهتي النظر الالمانية والفرنسية بحيث يمكننا التغلب على اختلافاتنا العديدة.

جرى الاجتماع الاول للمؤتمر في ١٧ حزيران ١٩٣٢ وراء ابواب مغلقة في قاعة الاحتفالات بفندق بوريفاج — ولم يسبق لي الاجتماع بمثل هذه النخبة من رجال السياسة الذين يمثلون دهاة اغلب الاقطار لاوربية.

وكانت أغلب النقاط التي طرحتها على المؤتمر من القضايا التي أعدت لها حكومة بريونينغ دراسة مستفيضة منذ ١٩ تشرين الثاني ١٩٣١ وبعد مناقشة مع اعضاء الوفد قررت التكلم في المؤتمر باللغة الفرنسية • وكانت العادة قد جرت بأن يتحدث كل رئيس وفد بلغته القومية • لكننا قدرنا بأن اغلب الحضور يجهلون اللغة الالمانية او يعرفون منها عبارات معدودة بينما اردت أن احقق من خطابي تأثيرا مباشرا على القوم لأنني قدرت بأن اغلب الحضور يتقنون اللغة الفرنسية بدرجة قلت أم كثرت• والمعروف من التجارب السالفة ان الترجمة مهما كانت جيدة فانها لا يمكن ان تؤدي نفس التأثير الجيد الذي تحدثه الخطابة الشخصية • وقد انتقدت الصحافة الالمانية هذه البدعة التي قمت بها مما حدى بي ان القي خطابي الختامي في ذلك المؤتمر باللغة الالمانية• وقد حققت النجاح المأمول من تحدثي بالفرنسية بصورة لمست نتائجها بصورة فورية•

اوضحت للحضور في خطابي الافتتاحي بصورة لا ابهام فيها بأننا لسنا عازمين ابدا على التخلص من مشكلة الاتاوة المفروضة علينا باللجوء للوسائل القانونية او بالانتقاص من قيمة التواقيع التي امضاها الممثلون الالمان في المعاهدات الدولية المعقودة آنفاً مهما كانت ظروف تلك المعاهدات• والأمر الوحيد الذي سنلجأ اليه هو مناقشة الحالة العالمية الراهنة وكيفية التعاون على تغيير هذه الحالة • وبعد ان القيت نظرة شاملة على الأزمة العالمية التي كنا نعيشها ثم وصفت مدى مساهمة مشكلة التعويضات في تفاقم تلك الأزمة• ثم قارنت بين الحالة العالمية السائدة والموقف الدولي الذي عشناه جميعا في عام ١٩٢٩ ابان أزمة التضخم الماحقة وهو الموقف الذي نتجت عنه بطالة ملايين العمال في جميع الاقطار الصناعية مما ترتبت عليه مشكلات اجتماعية عويصة•

ثم انني تطرقت في ذلك الخطاب الى قضية اخرى تكاد تكون مجهولة خارج المانيا وهي تأريخ التضخم والنتائج المترتبة عليه في المانيا نفسها• اذ ربما يعتقد بعض الاجانب بأن للتضخم مزايا جمة بالنسبة لنا حيث يمكننا

تسوية ديوننا الداخلية الا ان الحقيقة هي ان التضخم تمخض عن نتائج مدمرة للاقتصاد الوطني الالماني، فهو قد استنفذ جميع احتياطات البلاد المالية وأودى بالمؤسسات الصناعية وأدى بملايين العمال الى التعطل عن العمل، ولذا فلابد لنا من التأكيد بأن التضخم يؤدي الى نتائج ليست بصالح المجتمع ولا يمكن ان يحقق أي هدف جيد، وخلصت الى مطالبة القوى العالمية بالاعتراف بأن المرض لا يمكن معالجته بمنح المريض فرصة قصيرة للتنفس أو اية حلول وقتية مشابهة، ولا يمكن تخليص الأقطار الاوربية من الكارثة المحيقة بها ما لم يتم التعاون الوثيق بين الدول الاوربية كلها، وان الحكومة الالمانية الجديدة على اتم استعداد للتعاون مع الاقطار الاوربية الاخرى الى أبعد الحدود وستقدم كل ما لديها من طاقات في هذا السبيل ، ويقتضي ان تنشيء المانيا قوتها الذاتية بحيث تكون على قدم المساواة مع الدول الاوربية الاخرى من اجل تحقيق السلام الاوربي وهذا هو اقصى ما تصبو اليه حكومتي، وقد قوطع خطابي مرات عديدة بعبارات الاستحسان ولما فرغت منه تأكدت من انه نال ما يستحقه من ترحيب،

وليس ادل على النجاح الذي حققته في محادثاتي خلال تلك الايام الحرجة من مدة انعقاد المؤتمر من التفاصيل الواردة في الوثائق البريطانية التي اعلنت للملأ فيما بعد وتعطينا هذه الصورة الصادقة انطباعا مؤسيا عن محاولاتي الدائبة يوما بعد آخر من اجل تحقيق التوازن الاوربي — وترجع أسباب عدم نجاحي في تلك المساعي الى الشكوك التي قوبلت بها آنذاك — لكنني مع ذلك وضعت اساسا راسخا لمفهوم التعاون الاوربي المنشود، وكانت المرحلة الاولى من ذلك التعاون تتضمن اقامة علاقة المانية — فرنسية مبنية على أسس جديدة راسخة،

ألا ان التعاون الالماني — الفرنسي لم يرق بطبيعة الحال لبريطانيا ولذا فقد وقف منه السيد ماكدونالد رئيس وزراء بريطانيا موقفه المناهض العنيد، وقد تجلى موقف هريو عندما تصدى لمحاولات تخفيض تعويضات الحرب واعتبر هذه المحاولات نقضاً سياسياً لاتفاقية الهدنة ، الا ان هذا الموقف

تبدل بصورة جذرية عندما تحول المفاوض البريطاني من وسيط متحيز الى انكليزي اناني.

أظهر السيد هريو تجاوباً واضحا معي ولو أنه رفض تخفيض التعويضات المفروضة غلى المانيا بمقدار سبعة مليارات مارك وأظهر مقاومة شديدة للمقترحات الانكليزية التي دعت الى شطب جميع المبالغ المتبقية من التعويضات الا انني – والحق يقال – لمست من السيد هريو تأييدا لالمانيا في القضايا السياسية الاخرى المطروحة وكانت آرائه قريبة من مقترحاتي. وكانت حكومة هريو احدث من حكومتي سناً بثلاثة ايام فقط. لكنه كان يخشى كثيرا من العودة الى بلاده دون الحصول على نتيجة باهرة. وعليه فان السياسة الداخلية كانت مؤثرة على سياسة فرنسا الخارجية الى ابعد الحدود. وهكذا تأرجحت كفة ميزان الفرصة الاخيرة والكبيرة معاً من اجل بداية اوربية جادة على طريق التعاون في سبيل الحصول على بضعة ملايين من الماركات التي حرصت فرنسا على ابتزازها من المانيا وسرعان ما انحاز هريو الى بريطانيا ليقتسم معها مبلغ سبعة مليارات مارك من التعويضات المفروضة على المانيا ولكنه فرط بفرصة السلام العادل التي افلتت من الجميع.

وحالما اصبح من الواضح للجميع بأنني اطالب بتصفية كل الحسابات طالبت الوفود بفترة وجيزة للاستراحة ولكي تتصل الوفود خلالها بحكوماتها وترجع اليها في طلب المشورة. وكان ان لقي هريو بباريس موقفا صعبا لأن حكومته كانت قد خفضت بعض الضرائب بعد حساب مواردها من التعويضات المفروضة علينا بطبيعة الحال. وقدر الخبراء الماليون الفرنسيون شكل التعويضات التي ينبغي ان نسددها لهم وكان اغلب ما تضمنته تلك المطالب قطارات ومستلزمات لمد سكك الحديد الا ان وزير المالية الالماني اعتبر هذا الطلب متعذر التنفيذ وغير مقبول.

زارني وزير خارجية ايطاليا غراف غراندي في محل اقامتي بفندق سافوي وناقشنا مع وزير خارجية المانيا البارون فون نويرات مدى الاسناد الذي يمكن ان نحصل عليه من الوفد الايطالي. وبعد رجوع رئيس الوفد

الايطالي مباشرة حاولت الاتصال بالسيدين هريو وماكدونالد لكي اوضح لهما بجلاء ان حكومتي قد تكون آخر حكومة (معتدلة) المانية اذا ما اجبرت على الرجوع الى بلادي بخفي حنين حيث ستتمخض اقالة حكومتي عن وصول حكومة يسارية او يمينية متطرفة • وقد اعتبر السيد هريو ملاحظتي هذه محاولة لممارسة الضغط ولو انه ابدى بعض التفهم لموقفي ولفكرتي التي عرضتها عليه. فأجبته بأن المؤتمر سيبقى بلا نتيجة حاسمة ما لم تحقق تقارباً وطيدا معي من اجل تعاون شعبينا بوضع الحجر الاساس لهذا التعاون.

لقد حرصت على ممارسة هذه السياسة منذ امد بعيد وحاولت وضع مقترحات عملية لتنفيذها. الا ان امين سر الدولة فون بيلوف حذر من مغبة السير بهذا الاتجاه اعتمادا على تجاربه الخاصة قائلا بأنه يخشى علي من الاصابة بخيبة الامل وقد ثبت لي بعدئذ بأنه كان على صواب.

عرضت على السيد هريو لائحة اتفاقية للتعاون الالماني ـ الفرنسي تتضمن تعهدنا المشترك بعدم الاقدام على معالجة اية قضية اوربية ما لم يتم التشاور المسبق بين حكومتينا بشأنه لكي نصل دوما الى آراء متقاربة او موحدة. ولكن الاقتصار على هذا الاجراء لا يمكن ان يضمن لنا تبادل الثقة التامة وعليه فقد اردت العمل على ازالة مخاوف فرنسا من المانيا.

فلو ان فرنسا بادرت الى شطب الفقرات المهينة لالمانيا والمخلة بسيادتها من معاهدة ڤرساي فلابد انها ستجني لقاء ذلك الكثير من مودة المانيا اعترافا منها بهذا الجميل.

لقد غبرت مئات السنين كانت فيها بريطانيا وفرنسا عدوتين لدودتين لبعضهما البعض ونجدهما الآن حليفتين حميمتين تتبادلان الآراء بروح الثقة والتعاون وهذا دليل ساطع على امكانية تبدل الموقف العدائي حتى ولو استمر لبضعة قرون اذا توفرت النوايا الحسنة. ولو منحتنا فرنسا حقوقنا المهضومة واعتبرتنا امة ذات سيادة وأعادت لنا حقنا بالتسلح أسوة بالدول الاخرى فستكون المانيا على اتم استعداد لتقديم اخلاصها للشعب الفرنسي

من اجل كسب السلام الذي يصبو اليه. وان افضل واقصر طريقة لتحقيق هذا الأمل هي اقامة اتحـاد. لكنني يجب ان اعترف بأن آراء رجـال كلا البلدين لم تكن متقاربة الى هذا الحد. ويمكن للمرء أن يستعد لاقـامة الاتحاد المنشود بايجاد صيغة من التعاون بين هيئتي الاركان في كلا البلدين وعليه فقد اقترحت الحاق عدد من ضباط الركن الفرنسيين في جميع المواقع المهمة من شعب هيئة الاركان الكبرى الالمانية فبهذه الوسيلة ستكون فرنسا على بينة مما تعمله هيئة الاركان الالمانية مع المامها بجميع تفاصيل فعاليات القوات المسلحة الالمانية . ثم ان هؤلاء الضباط الفرنسيين المثقفين سيعكسون ما يرونه لابناء وطنهم فيشيعوا الطمأنينة في نفوس مواطنيهم الذين سيتأكدون من نوايا المانيا تجاه جارتها فرنسا وبشكل يفوق كل وسائل الاقناع السياسية الاخرى. واخيرا اردت ان تشهد جميع الوفود الاخرى على المقترح المطروح على فرنسا وان يتمخض مؤتمر لوزان عن شطـب المادة ٢٣١ من معـاهدة فرساي وهي المادة التي تدين المانيا باعتبارها الدولة المسؤولة لوحدها عن نشوب الحرب العظمى.

قلت لماكدونالد في ٢٠ حزيران ١٩٣٢:

« يجب ان يتمخض هذا المؤتمـر عن شعور فرنسا بأمـان اكثر ازاء المانيا . وهذا يتم بتقارب الاراء السياسية بيننا وبين فرنسا ايضا.. وأنا ارغب بوضع حد لجميع الاختلافات القائمة بين البلدين الآن وهنا وهذا امر يعتبر في غاية الاهمية بالنسبة لاوربا. ويقتضي أن تكون لهريو نفس الرغبة» في اليوم التالي كتبت رسالة الى السيد مكدونالد اوضحت له فيها لماذا لم توافق المانيا على تحمل عبء جديد بتجهيز فرنسا بمعدات لسكك الحـديد وقلت له انني على اتم استعداد لاتخاذ اجـراءات أخـرى لصالح بريطانيا وفرنسا مثل:

« مساهمة المانيا في جميع التدابير المالية والاقتصادية المقررة لاعـادة بناء اوربا. وستكون المانيا على استعداد للالتزام باتفاقيـة ايقاف التسلح المقررة لمدة خمس سنوات والمحافظة على النسب المقررة لها قياسا على تسلح الدول الاوربية الأخرى.

ولكي نسند عملية ازالة التوتر السياسي السائد في اوربا فاننا سنكون أخيراً على استعداد لعقد ميثاق بهذا الشأن مع كل من فرنسا وبريطانيا وايطاليا. وسيكون هذا الميثاق مطمناً للدول الثلاث ازاء أية مفاجأة تخشى من اقدام المانيا عليها».

وعلى الرغم من الصعوبات التي لاقيتها من هريو في مجال تخفيض التعويضات فانني لمست منه ميلا واضحا لتفهم محاولاتي لتحسين العلاقات الالمانية ــ الفرنسية وعليه فقد كلف امين سر الدولة الفرنسية الموافق للوفد السيد دي لابولاي بصياغة مقترحاتي بشكل مسودة اتفاقيات عديدة. وكان دي لابولاي قد اشتغل بمنصب مستشار السفارة الفرنسية ببرلين لعدة سنوات وانا اقدره باعتباره من الدبلوماسيين اللامعين الاكفاء. ولكن مفاوضاتنا الشفوية اعتورتها عقبات كأداء عندما اردنا وضع مسودات الاتفاقيات المقترحة . فقد بدى ان هريو يرى ان من واجبه عرض خططنا على زميله الانكليزي لكي يحصل منه على موافقة مبدئية. ولا يمكن ان أوافق على مثل هذا العمل بطبيعة الحال لأن بريطانيا ليست طرفاً في تلك الاتفاقيات.

عندئذ برزت حالة غير متوقعة عندما اخبر هريو زميله الانكليزي بتفاصيل ما طرحته عليه. فقد تجمعت كل الغيوم السوداء على رأس ماكدونالد ووجد بلاده بمواجهة خطر وهمي يتمثل بحصول تقارب الماني فرنسي وهذا أمر ظن ماكدونالد ان من شأنه عزل بريطانيا تماما والاخلال بالتوازن الاوربي العتيد. وسرعان ما خوّف هريو من مغبة الاقدام على عقد أي تقارب الماني فرنسي لأنه سينطوي على تفريط فرنسا بحقوقها من التعويضات وشيكاً.

أردنا مواصلة السعي لتحقيق رغبتنا هذه فأستعنا بصحفي معروف هو السيد لوزان من صحيفة (ماتان) الفرنسية باجراء حوار لأحد رجال الدولة الالمان معه ووضحنا في ذلك الحوار الخطوط الرئيسة للمشروع الالماني المقترح وقد رجوته انا بهذه المناسبة ان يقوم بمساعدتنا في طرح وجهة نظرنا وشرح تفاصيل خطتي للرأي العام الفرنسي. وقد بينت في محادثتي مع

الرجل بأن الوقت لم يحن بعد لعقد حلف عسكري بين الدولتين • ولكن هذا يمكن ان يكون الهدف النهائي لفكرة السياسة الاوربية التي نحرص على التوصل اليها في مؤتمر لوزان•

أسرع السيد لوزان في انذار العالم اجمع بنشر الخبر وزعم انني اوجه المؤتمر نحو اقامة حلف الماني ـ فرنسي• وبذا تم القضاء المبرم على المحادثات التي شرعنا بها مع هريو• والآن لنستمر في القاء نظرة على سير الاحداث•

في ٢٧ حزيران ١٩٣٢ اتصل السيد هريو بماكدونالد واخبره بما يلي:

« اذا طولبت فرنسا بتخفيض التعويضات فستتعرض الى ازمات سياسية واقتصادية لا تحمد عقباها • وكان السيد فون پاپن قد عرض علينا مقترحات عديدة اعطتنا انطباعا بأن المانيا على استعداد للتعاون في التغلب على تلك الازمات• وانه (أي السيد هريو) قد سمع من السيد فون پاپن مقترحا يتعلق باقامة حلف عسكري بين فرنسا والمانيا مع اقامة اتصال وثيق بين هيئتي الاركان العامة للبلدين••• وتساءل هريو عن مدى تأثير مثل هذه الاجراءات على تسديد المانيا للتعويضات المالية المفروضة عليها• لاسيما وان الحكومة الفرنسية ترى ان التوصل الى وفاق الماني ـ فرنسي يفوق في قيمته اية مبالغ من المال• وعليه فان الحكومة الفرنسية تميل لتأييد المقترح الالماني»•

ولا تتضمن مجموعة الوثائق البريطانية التي كشف عنها فيما بعد ردود ماكدونالد على تلك المحادثة التي اجراها هريو معه • ولكنها اشارت الى وجهة نظر الصحفي لوزان الذي قال عني انني احاول التوصل الى عقد حلف مع فرنسا•

وواضح ان رد فعل ماكدونالد كان شديدا لدرجة جعلت هريو يتراجع عن الفكرة ويزعم لرئيس وزراء بريطانيا بأن فكرة الحلف كانت مجرد هدف بعيد المدى وان الصحفي لوزان قال انها غير ممكنة التنفيذ• ثم اشترك رئيسا الوزراء في ايجاد مخرج من هذه المبادرة وما لبث هريو ان تمسك بمؤتمر لوزان الذي كنا بصدده ثم ادعيا بعدئذ بأنني غيرت آرائي الى حد كبير بعد عودتي الى برلين•

والحقيقة هي انني ادركت اسباب رفض خطتي لعقد معاهدة المانية فرنسية عندما قمت بزيارة السيد ماكدونالد في عصر يوم ٢٧ حزيران ١٩٣٢ نفسه فقال لي ماكدونالد:

« يا سيد فون پاپن، انك اوضحت موقف المانيا بالنسبة لمشكلة التعويضات التي لم تتم تسويتها . ولكنك حاولت بشتى الوسائل اجراء فعاليات متميزة في مجالات أخرى، ولقد اجهدت فرنسا في محاولة ايجاد مجال للتعاون الوثيق بينها وبين المانيا بعد مرور اثنى عشر عاما من الزمن المشحون بالشكوك المتبادلة رغبة منك في فتح صفحة جديدة خلال الحقبة المقبلة، ولقد بذلت قصارى جهودك لازالة العوائق القائمة بين المانيا وفرنسا ــ على الرغم من الانتقاد الشديد الذي ستتعرض له من داخل المانيا ــ ومما لا شك فيه انك تحاول ايجاد حل لمشكلة التعويضات من اجل مستقبل اوربا».

ثم ان السيد ماكدونالد زودني بفكرة شاملة ــ بصورة مكتومة ــ عن وجهة النظر الفرنسية:

ان فرنسا سوف لن تتخلى عن التعويضات مهما كانت الظروف، كما ان الولايات المتحدة الامريكية تحذو حذو فرنسا في هذا المضمار لأنها لا تؤيد شطب التعويضات كليا . ثم قال بالنص:

« ان الصحافة تؤكد على عزمكم على اقامة حلف عسكري، وان مثل هذه الفكرة ستجلب لكم الكثير من المشاكل مما يقوض جميع فرص التعاون المشترك، اما الولايات المتحدة الامريكية فانها تقدر بروح ودية أي اتفاق اقتصادي يتم التوصل اليه في مؤتمر لوزان».

وقد جاء في الوثائق البريطانية ما يلي:

« اعتذر السيد فون پاپن عن مقاطعته لرئيس الوزراء عندما وصل الى هذه النقطة قائلا انه تقدم بهذا المقترح رغبة منه في ازالة شعور فرنسا بفقدانها الأمن... وان فرنسا سبق ان استفادت من مزايا اتفاقية لوكارنو التي

تعتمد فيها على الضمان البريطاني • ثم ان فرنسا استفادت من ميثاق (كيلوغ) الذي اتاح لها امكانية تحصين حدودها الشرقيـة الى حـد كبير واخيراً فأنها تعتمد على جيشها القوي• عندئذ سأل فون پاپن عما اذا كانت فرنسا ستحوز على شعور اقوى بالأمن فيما لو توصلت الى عقد حلف مع المانيا• وانه من المتعذر بطبيعة الحال مناقشة مثل هذه الفكرة بالوقت الحاضر في فرنسا أو في المانيا»•

وخلص رئيس وزراء بريطانيا الى القول:

« انه يخشى من تمخض المؤتمر عن نتيجة سيئة ربما ستؤدي الى زيادة حدة الخطر الذي تتعرض له المانيا خصوصا اذا خرجنا من مؤتمر لوزان دون التوصل الى اتفاق بآرائنا•»

وفي اليوم التالي اجريت انا ووزير خارجيتي فون نويرات محادثات اخرى مع السيدين ماكدونالد وهريو• وجاء في التقرير السري البريطاني المذكور ما يلي:

« وقد قال السيد ماكدونالد بأنه اعتراه قلق شديد بسبب المحادثات التي اجراها السيدان فون پاپن وهريو في اليوم السابق •••»

فهو يخشى من توصلنا الى تفاهم نضع به حداً للنزاع الذي يريد لنا خوضه الواحد ضد الآخر خلال الايام التاليـة وعليه فقد اوضحت له انا والسيد هريو بأننا قد توصلنا الى تفاهم تام ولما قلت له بأنني لم اغيرفكرتي الاساسية قال له السيد هريو: «بأنه يريد الحصول على مكسب مادي من المانيا لقاء الثقة التي يحاول المستشار الالماني تحقيقها • ثم اعاد القول بأنه يرجو للوفد الالماني حظاً سعيدا في مساعيه»•

عندئذ اعدت على مسامعهما مقترحاتي كلها نقطة بعد اخرى• والتي تضمنت اعادة الرفاه الاقتصادي لاوربا• والتخلي عن تحديد نسبة التسلح المفروضة على المانيا واعتبارها كالدول الأوربية الاخرى• الا التي اتفقت مع السيد ماكدونالد على ابقاء الحظر المفروض على هيئة الاركان العامة

الالمانية لكي لا اسبب لرئيس وزراء بريطانيا الكثير من الحرج الذي قد يضايقه عند عودته الى بلاده. ولكن من الواضح ان التعامل السياسي يتقبل التغيير بين عشية وضحاها. فقد اوضحت الحكومة البريطانية للحكومة الفرنسية بأنها لم تعد كشأنها السابق دائما راغبة في حصول أي تقارب وطيد بين فرنسا والمانيا . وانها تتوقع من الحكومة الفرنسية رفضا لجميع مقترحاتي. وعندئذ اعلن السيد هريو:

« ان محاولات تخفيض التعويضات المفروضة على بعض دول وسط وجنوب شرق اوربا تعتبر محاولات مضادة لمصالح فرنسا. وان مسألة تحديد التسلح لتلك الدول لا علاقة لها بقضية التعويضات. وانه مستعد للتثبت من مدى امكانية عقد معاهدة مشتركة معها ولكن...»

في ٢٨ حزيران ١٩٣٢ تحولنا للمناقشة على جبهة ثالثة عندما تقدمت بطلب أساسي لمساواة المانيا مع الدول الأخرى في مجال التسلح كما تقدمت بالوقت نفسه بطلب آخر لاعادة النظر في جميع بنود معاهدة فرساي المجحفة وبعد مجادلة طويلة خضتها مع السيد هريو سألته عن ضمانات الأمن التي يريدها لبلاده من المانيا . فتملص هريو من الاجابة على هذا السؤال فهو لم يشأ التفاوض بشأن الضمانات السياسية وانما كان حريصا على كسب التعويضات المفروضة لفرنسا من المانيا.

وأجد لزاما علي ان اعترف هنا بأنني لمست من فرنسا رغبة صميمة في المصالحة مع المانيا على حساب صداقتها مع بريطانيا . لكن سياسة بريطانيا كانت تنطوي على قصر النظر في هذا المجال. ذلك لأنها دأبت على ممارسة سياستها القديمة المعروفة (فرق تسد) وهي السياسة التي نجحت في تطبيقها على اوربا. الا ان اوربا اصبحت صغيرة بفضل المواصلات الحديثة بينما فات رئيس وزراء بريطانيا ادراك مدى الخطر القادم نحو المانيا قلب القارة الاوربية من بلادروسيا.

حاولت اعادة فتح الحوار مع اولئك الناس مرارا ومع ذلك فان فصاحتي

وقوة حجتي لم تكن مجدية في اقناعهم لأن بريطانيا احبطت جميع محاولات التقارب بين المانيا وفرنسا.

لقد كانت ضربة شديدة لآمالي لأنني لم احقق ما كنت اصبو اليه بتصفية قضية التعويضات التي طالما عانت منها بلادي. واصبح من الواضح ان بريطانيا اخذت تقاوم رغبة هريو في التوصل الى تفاهم معنا. وعليه فقد عزمت على تكرار المحاولة مع فرنسا على أمل الحصول على اسناد من باريس لمقترحاتي. ثم حاولت على الأقل تخليص المانيا من اوضار المادة ٢٣١ من معاهدة فرساي لاسيما وان تحسن الجو السياسي بين المانيا وفرنسا يمكن ان يجعل هذا الامر اكثر سهولة . الا ان تملص المانيا من معاهدة فرساي برمتها كان من الامور البالغة الصعوبة. وانني لأذكر بأن ممثل بلجيكا رفض محاولتي لازالة العقود المفروضة على تسلح المانيا بقوله:

« كيف يمكن للمرء تصحيح وقائع تأريخية ساطعة مثل تقدم القوات الالمانية نحو الاراضي البلجيكية وهذا دليل على عدم ارتياحنا لتسلح المانيا».

وأجد لزاما علي ان استدرك هنا بأن الرئيس الامريكي هوفر اجرى في ٢٣ حزيران ١٩٢٣ للمرة الثانية محاولة تنطوي على الشجاعة بالتدخل لنزع السلاح على نطاق دولي كما انه ابدى في السنوات الاخيرة من ولايته مساعدة كبيرة لألمانيا في مجال اعادة تسليحها على عجل. وبينما استقبلنا نحن وايطاليا مقترحاته بالتشجيع والاسناد لاحظنا ان فرنسا ـ عدا ليون بلوم ـ تصدت لتلك المقترحات واعتبرتها مجرد مزايدة اعلانية رخيصة كان يبغي من ورائها ضمان اعادة انتخابه.

في ذلك اليوم بالذات انقطعت المباحثات الانكليزية ـ الفرنسية بصورة مفاجئة عندما اخفق ماكدونالد في اجبار الحكومة الفرنسية على الغلو في المطالبة بالتعويضات.

تحرج موقف حكومة هريو واصبح في غاية الدقة لدرجة بات بها الجميع يتوقعون استقالتها وشيكاً. ثم ما لبثت ان علمت بأن وزير خارجية بلجيكا السيد هومانس والمستشار المالي البلجيكي السيد فرانكي

يحثان عني، ولكنهما لم يفصحا عن الاسباب التي تدعوهما للاتصال بي، ويبدو ان المقترحات الفرنسية تحولت لقبول تأجيل المانيا دفع اقساط التعويضات لمدة ثلاث سنوات على ان يتم خلال هذه الفترة التوصل الى اتفاق دولي تتعهد المانيا بموجبه بتسديد مبلغ سبعة مليارات مارك ذهب للدول للدول المنتصرة، لكننا رفضنا هذا المقترح بطبيعة الحال.

ولما سافر هريو الى باريس في ٢٤ حزيران ١٩٣٢ اجتمعت في مساء ذلك اليوم بأعضاء الوفد الالماني وجميع ابناء الجالية الالمانية في لوزان وكان اغلب هؤلاء من الطلبة الالمان الذين يدرسون في سويسراء والغريب ان ذلك الاجتماع حضره مستشار النمسا الدكتور دولفوس وجميع الطلبة النمسويين المقيمين في لوزان ايضاء

وكان الدكتور دولفوس يبدي نشاطا ملموسا في حركة الفلاحين النمسويين وطالما التقيت معه بالآراء بصدد هذا المجال، وقد وصل المستشار النمسوي الى لوزان من أجل الالتقاء برؤساء الدول المؤتمرة في سبيل الحصول على قرض عاجل وضروري لحكومته المتشكلة حديثا ، وقد قال لي الرجل ان محاولاته مع فرنسا قد فشلت لأن فرنسا ـ كعادتها دائما ـ ربطت بين المساعدة المالية المطلوبة ومصالحها السياسية فأشترطت على النمسا التوقف عن اجراء أي تقارب مع المانيا بينما لبينا طلب النمسا دون اية شروط بمنحها قرضا متواضعا من صندوق الاتحاد الكمركي، لكن دولفوس كان يبغي الحصول على قرض كبير وعليه فقد اضطررت لمصارحته بقولي:

« سأوجزك عن سياسة المانيا الأساسية يا صديقي العزيز حتى ولو كان ذلك افشاء لأسرار وزارة الخارجية، وسأتحمل لومها لأنني اؤمن بممارسة السياسة من خلال العلاقات الانسانية، فأنت تريد المال ولابد لك من الحصول عليه، وانني اجد ان حصولك على اكبر مبلغ ممكن من الدول المنتصرة هو افضل ما يمكن ان تعمله حتى ولو اجبرتك تلك الدول على قطع علاقات بلادك مع المانيا، وسوف لن اعاتبك على ذلك ابدا، فأنا أعلم علم اليقين بأنه سيأتي اليوم الذي تتوحد به معكم، وعندئذ سنتعاون سوية على تسديد

كل ديونكم لتلك الدول».

فأنفرجت اسارير الدكتور دولفوس ولاحت على وجهه ابتسامة عريضة وشكرني على هذه المصارحة.

خضنا في الاسبوع الاخير من ايام مؤتمر لوزان صراعا مريرا من اجل الحصول على بعض المكاسب فيما يخص قضية التعويضات على أقل تقدير . وكانت بريطانيا متمسكة بالتوقيتات المحددة سابقا . وقد هدد ماكدونالد بترك المؤتمر في حالة الحاحنا بالرجاء لا سيما وانه ملتزم بحضور مؤتمر آخر في اوتاوا ولديه العذر في الاستعداد لحضوره . كما انني كنت مستعجلا بالعودة الى المانيا لأنني اعلم بوجود اكداس من المعاملات الرسمية التي تنتظر عودتي واتخاذ قراراتي بشأنها. وعليه فقد وجد الوفد الالماني نفسه بموقف حرج لأنه خشي من قطع المحادثات الجارية في المؤتمر والعودة للوطن دون الحصول على نتيجة مرضية. ذلك لأن فشلنا في ذلك المؤتمر من شأنه التأثير على جميع الخطط الواسعة التي كنا ننوي تنفيذها ان لم يؤد الى احباط تلك الخطط ونسفها كليا . ثم ان المعارضة النشيطة سوف لن تألو جهدا في الادعاء بأن بريونينغ لو مثل المانيا في المؤتمر لحقق النجاح المنشود الذي لم تحققه الحكومة الجديدة لسبب واحد هو عدم جدارتها. ولهذه المزاعم او غيرها تأثير كبير على مصير حكومتنا في الانتخابات التي ستتم في ٣١ تموز ١٩٣٢ . وعليه فقد كان من رأي اغلبية اعضاء الوفد الالماني ان من الافضل الرجوع الى المانيا بعد تحقيق نتيجة هزيلة بدلا من العودة للوطن دون تحقيق اية نتيجة. اذ لابد للمرء من اقامة جسر من الآمال التي يمكن تطويرها في المستقبل.

انه لمن المتعذر علي هذا اعطاء وصف دقيق لطبيعة النضال الذي خضناه في تلك الايام من اجل التوصل الى اتفاق مقنع بشأن التعويضات ووضع حد نهائي لها. وكنت قد دأبت على الترديد آنذاك بأننا ما لم نتوصل الى حل مرض فاننا سنعرض العالم لأزمة جديدة.

بعد محاورة جرت بين الانكليز والفرنسيين يوم ٥ تموز ١٩٣٢ كرر

السيد هريو انه يسعى لتحقيق تعاون بين بلاده وهيئة الاركان الالمانية بصورة سرية وانه اخفى هذه الحقيقة عن السيد ماكدونالد • لكنه لا يبغى ربط ذلك الاتفاق بأي اتفاق سياسي• الا ان ماكدونالد كان على علم بتلك المحاولة لأن هريو لم يكن يعرف كيف يخفي اسراره•

كنت قد اجريت محاورة مع السيد ماكدونالد في عصر ذلك اليوم• وقد جاء في الوثائق الرسمية البريطانية التي عرضت فيما بعد التقرير التالي عن تلك المقابلة:

« قام السيد ماكدونالد باخبار السيد فون پاپن بقبول مقترحاته التي سبق للالمان عرضها على الفرنسيين• وابدى له مدى مفاجأته هو والسيد تشامبرلن عندما ابلغهما السيد هريو بفحوى تلك المقترحات»•

وفي ٦ تموز ١٩٣٢ قال تشامبرلن لوزير ماليتنا غراف شڤيرين كروسيك: «الواقع هو اننا استغربنا كثيرا لتغيير الفرنسيين لآرائهم بصورة مفاجئة»

فما الذي يمكن للمرء قوله ازاء مثل هذا التناقض؟

ولكي اوضح هذه الملابسات بعض الشيء فانني اذكر هنا بأن الذي حصل في ٥ تموز ١٩٣٢ هو ان الوفد الانكليزي اتهم الفرنسيين صراحة بأنهم بمحاولتهم الاتفاق مع المانيا على عقد اتفاقية للتعاون سيسببون تملص الالمان من بنود معاهدة ڤرساي وذكروا لهم بأن حكومة صاحب الجلالة ستحتفظ لنفسها بحقوقها ولن تتنازل للحكومة الالمانية عن أي جزء من التعويضات المفروضة.• ثم خلصوا للقول:

« ان ما نسعى اليه هو ضمان امن البلدين ازاء الخطر الالماني• وقد حذرناكم لأن الصراحة هي اساس السياسة البريطانية »•

وكانت هذه الخطوة تنطوي على النفي المباشر لمحاولاتي الجدية لانقاذ بلادي من وهدتها وتخليص اوربا من الخطر الذي ستتعرض له• ولما اراد الحلفاء استخدام خطتي المقترحة كأداة للنيل من المانيا ادت حساباتهم الخاطئة لوصول هتلر الى السلطة في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣•

وكان اسوأ ما صادفته في مؤتمر لوزان هو ما حصل في المحادثات التي تمت يوم ٨ تموز ١٩٣٢ بين الرئيسين ماكدونالد وهريو حيث قال الأول للثاني « بأنه ليس من الحكمة اشراك الالمان بالاتفاقية الانكلوفرنسية الآن، ذلك لأن الالمان تمكنوا في لوزان من تحقيق عـدة مكاسب وعليه يجب الا نشرك المانيا باتفاقيتنـا لكي لا نعطي للعـالم انطباعا بأن الحكومتين الفرنسية والانكليزية توصلتا الى حلف جديد موجه ضد اوربا ».

بعد مفاوضات شاقة مع الفرنسيين توصلنا معهم الى اتفاق بتقليص المبلغ المتبقي من التعويضات المفروضة علينا لهم وجعلها ثلاثة مليارات مارك فقط وجعلنا تسديد هذا المبلغ رهيناً بتحسن الميزان المالي المقبل لالمانيا، وكان من الواضح لدينا ان سلفي ترك لنا تركة ثقيلة من الديون الاجنبية وان الاقتصاد الالماني لم يكن رصيناً لدرجة تسوغ لنا تسديد التعويضـات لفرنسا او لغيرها، وعليه فاننا سوف لن نتمكن من تسديد التعويضات الا بعد ان نحصل على قروض اجنبية جديدة، ومع ان مفاوضاتي مع هريو سادها شيء من التكتم فقد كان الوعد الجميل الذي اعطيته لفرنسا من الاغلاط الكبيرة التي ارتكبتها لأن ذلك الوعد تسبب في تحطيم جميع خططي المقبلة.

القيت في مساء يوم اختتام مؤتمر لوزان خطاباً على الشعب الالماني من محطة الاذاعة، ولم اتطرق في ذلك الخطـاب لمأساة اندحار المانيا والمناطق المحتلة منها وانما تحدثت عن مفاوضاتي بشأن تقليص التعويضات المتبقية بذمة المانيا بكثير من التفاؤل، والواقع هو انني كنت متحرجا من التحدث بشأن وصولنا الى هذه المرحلة الدقيقة لأن كل ما اعطيتـه للفرنسيين كان وعداً بدفع مبلغ معين مستقبلا ولذا فقد حاولت ايضاح هذه الحقيقة للشعب الالماني مع بيان مدى الاهمية النفسية لايجـاد مخرج من هذه القضية في المفاوضات التي اجريناها مع خصومنا .

ومع ذلك فقد بقيت مشكلة الحاجز الكمركي قائمة بيننا لأن المشكلة المذكورة لم تكن ضمن منهج اعمال المؤتمر، وقـد ازدادت هذه المشكلة تعقيدا في مؤتمر اوتاوا الذي عقد بعد مؤتمر لوزان مباشرة.

وكان على الدول الغربية ان تتحمل مسؤولياتها المترتبة على نتائج المؤتمر . ذلك لأن موقفها المتشدد ازاء المانيا في مؤتمر لوزان كان من العوامل التي ساهمت في ارتقاء هتلر ووصوله الى السلطة.

وعندما وصل هتلر الى السلطة فانه أفلح في تخليص المانيا من ذل معاهدة فرساي باللجوء الى اساليب فظة حقق بها نجاحا ازاء الحلفاء بينما فشلت في استمالة ممثليهم بالحسنى في محادثات مؤتمر لوزان.

في ١٢ تموز ١٩٣٢ عقدت مؤتمرا صحفيا لممثلي الصحافة الالمانية فحاولت تبسيط الموقف لأولئك السادة واوضحت لهم بأن حكومتي هي اول حكومة المانية تحاول تخليص المانيا من قيود معاهدة فرساي منذ ايام توقيع تلك المعاهدة حتى ذلك التأريخ وقد صارحت رجال الصحافة الالمانية في المؤتمر الذي عقدته لهم وقلت لهم بأنني ملتزم اخلاقيا وقانونيا بالمعاهدة الجائرة التي وقعها ممثلو المانيا اما هتلر فقد تجرد من ذلك الإلتزام ولم يأبه له مطلقاً.

انتهى مؤتمر لوزان في ٩ تموز ١٩٣٢ وتم التسويف بالاتفاق بشأن تأجيل الاقساط المستحقة على المانيا من التعويضات الى اليوم الاخير من المؤتمر الذي جرى التوقيع فيه على وثائق المؤتمر. وقد تطرق السيد ماكدونالد في خطابه الختامي الى الصعوبات الشديدة التي صادفت المؤتمرين وصعوبة توصلهم الى قرار موحد متفق عليه وقد أرجع الصعوبات المذكورة الى كون الأمم والشعوب أسيرة لذكرياتها القومية المريرة. وهكذا اصبح مؤتمر لوزان آخر فصل من كتاب قديم وأول فصل من كتاب جديد. لأن نظام تسديد التعويضات كان مفيداً لجميع الشعوب ذات العلاقة وهو كفيل بالتغلب على الصعوبات المتوقعة. فالحل البسيط والحكيم الذي تم التوصل اليه بعد الحرب العالمية الثانية[1] والذي جنب المانيا دفع التعويضات اتاح

---

(١) رغم ان المانيا فرحت لعدم اجبارها على دفع تعويضات للحلفاء المنتصرين الا ان اديناور اعترف للعدو الصهيوني بدفع تعويضات باهظة لليهود وكبد دولته مليارات الدولارات اعطيت للصهاينة نقدا أو كسلع ومعدات بموجب اتفاقيات عديدة.

ـ المترجم ـ

لها فرصة اعادة بناء البلاد بسرعة بحيث استعادت دورها في المجتمع الاوربي وثبت بذلك ان تحديد التسلح لم يكن ضمانا للأمن أو السلام.

وقد تطرقت في خطابي الختامي بالمؤتمر الى استعداد المانيا للتعاون مع الاقطار الاوربيــة الاخرى في مختلف المجالات وليس بالضرورة ان يقتصر التعاون على المجالات ذات الطبيعة المالية. وأشرت بهذه المناسبــة للعلاقات العريقــة التي تربط لوزان وبرن السويسريتين بمدينة فرايبورغ الالمانية حيث سبق ان عقد حلف ثلاثي بين تلك المدن الثلاث في عام ١٥٢٥ وأكدت توثيق هذه الاواصر بمناسبة انعقاد مؤتمرنا بمدينة لوزان.

تناولت الصحافة الالمانية نتائج المؤتمر باختلاف واضح في آرائها. فقد هاجمتنا صحافة الاحزاب اليسارية واعتبرت المؤتمر كارثة وطنية . وقــالت لو ان بريونينغ مثل المانيا في المؤتمر لما وقع على ما وقعت عليه . كما غضبت صحف الأحزاب اليمينية هي الاخرى وأثارت عاصفة من الغضب وقال الزعيم اليميني هوغنبرغ في اجتماع حزبي عقد في مدينة بريمن بأن النتائج التي تمخض عنها مؤتمر لوزان هي دون الآمال الوطنية للشعب الالماني. اما صحف احزاب الوسط فقد ثارت مني لأنني حللت محل الدكتور بريونينغ وزعمت انني احبطت كل المساعي المثمرة التي انجزها الرجل في سبيل تحقيق المكاسب الملحة لمصلحة المانيا. ووصفت صحيفتي السابقة (جرمانيا) نشاطي في المؤتمر بأنه صفر وقالت انني كنت نموذجا رديئا للسياسي الذي فشل في ترسم خطى بريونينغ ولما وصلنا ــ انا واعضاء الوفد الالماني لآخرين ــ الى محطــة آنهالت ببرلين استقبلنا المتظاهرون برجمنا بالبيض الفاسد والتفاح التالف.

ولعل اغرب ما صادفني بعد المؤتمر هو ان السيد هريو لم يقبل بمقترحي المتضمن عقد اتفاقية للتعاون بين المانيا وفرنسا زاعماً بأن مثل هذه الاتفاقية تتناقض مع نص المادة ١٩ من ميثــاق عصبــة الأمم التي تعطي لكل أمة الحق بتمثيل مصالحها بنفسها.

ويطيب لي الآن ان اسأل السيد هريو:

« لماذا تنطبق المادة ١٩ من ميثاق عصبة الامم على اتفاقية التعــاون المعقودة بين بريطانيا وفرنسا ولا تنطبق على اتفاقيــة للتعــاون بين المانيا

وفرنسا؟»

ولما حدث ان حضرت دعوة للعشاء مساء ١٨ تموز ١٩٣٢ وجلس الى جانبي السفير البريطاني ببرلين سير هوراس رومبولد اعربت له عن تصوري بأن عهدي في الحكم سيكون قصيرا واستفهمت منه عن مدى ترحيب حكومته للتعاون مع حكومة يرأسها هتلر، فلم يحر جواباً.

ان الموقف الذي عشناه بعد مؤتمر لوزان يشبه تماما ما تنبأ به وزير الخارجية الراحل شتريزه مان عندما القى خطاباً قبيل وفاته بأيام قلائل في عام ١٩٢٩ وقال فيه:

« لقد بذلت قصارى جهدي من اجل تحقيق السلام والتآخي فكان ان كسبت الى جانبي نسبة ٨٠٪ من ابناء الشعب الالماني، وقد وقعت على معاهدة لوكارنو فأعطيت واعطيت ثم أعطيت حتى تحول عني ابنـاء شعبي واصبحوا ضدي، والآن وقـد مضت خمس سنوات على توقيع معاهدة لوكارنو ، ولو تحقق لي بعض ما وعدني به الحلفاء في لوكارنو لكنت قد كسبت ابناء وطني، وهذا ما يمكنني تحقيقه اليوم ايضاً، ولكنهم لم يمنحوا المانيا أي شيء وكل ما اعطوه لها من النزر اليسير كانوا يمنحونه في وقت متأخر جداً وعليه فان حصيلة ذلك ان خسرنا ثقة الشباب الالمان بامكانية تحقيق التعاون الاوربي، هذه هي مأساتي وهذه هي جريرتهم».



الفصل الثالث عشر
فون هندنبورغ يطلب الى هتلر الاشتراك بالحكومة



اضطراب في پروسيا . انتخابات جديدة لمجلس النواب . الحزب النازي يحصل على ٢٣٠ مقعدا . محادثة مع هتلر . هتلر يرفض . قضية پوتمپا . مشكلة نزع السلاح .

قمت بعد وصولي الى المانيا بزيارة للرئيس فون هندنبورغ في ضيعته بنوي دك لكي اعرض له نتائج مؤتمر لوزان فوجدت الرئيس الجليل يتمتع بصحة رائعة وقد تفهم تماما مدى الصعوبات التي تعرضنا لها في المؤتمر المذكور. ولما جرى التطرق في تلك المقابلة الى قضايا اخرى مهمة فقد تعرضنا لموضوع الانتخابات الجديدة واحتمالات حصول اشتباكات بين انصار الاحزاب المتطرفة. وتجدد طرح موضوع منع نشاط منظمة وحدات العاصفة الذي يعتبر اجراء مناهضا للحزب النازي. لاسيما وان الجريدة الرسمية لذلك الحزب «فولكشر بيوباختر[1]» كتبت في تعليقها على نتائج

(١) معنى اسم الصحيفة المذكورة هو (الراصد الشعبي) وكان رئيس تحريرها الدكتور يوسف غوبلز الذي صار فيما بعد وزيرا للدعاية .
ـ المترجم ـ

مؤتمر لوزان قائلة:

« لقد انتصرت روح معاهدة ڤرساي عندما وقع المستشار فون پاپن على وثيقة ديون جديدة ».

أما الرئيس فون هندنبورغ فقد حذر من مغبة تزايد الصراع بين الشيوعيين والنازيين وعندئذ اقترحت على الرئيس منع نشاطات المنظمات السياسية المسلحة التي يرتدي افرادها قيافة موحدة.

قلقت كثيرا لتدهور الموقف الامني في اقليم بروسيا لأن المراقبين الاجانب لم يفهموا أسباب تراخي سلطة الدولة الالمانية في ذلك الاقليم لدرجة اضطرت معها الحكومة الالمانية على تخصيص حراسة خاصة لوزاراتها وشخصياتها وحتى لشخصية رئيس الجمهورية نفسه لأنها لم تعد تعتمد على ولاء الشرطة المحلية لاقليم پروسيا. كما ان حكومة پروسيا نفسها كانت تعاني من نفس الصعوبات التي كانت تعاني منها حكومة المانيا المركزية. كما أن وضعية الاحزاب جعلت تأليف حكومة تتمتع بأغلبية برلمانية أمرا متعذراً.

عرض لي وزير الدفاع فون شلايخر بعد عودتي من مؤتمر لوزان بأن أحد موظفي وزارة داخلية بروسيا اخبره بحصول اتفاق بين أمين سر الدولة الدكتور آبيغ والنائب الشيوعي كاسپار يتضمن توحيد جهود الحزبين الشيوعي والاشتراكي الديموقراطي في المعركة الانتخابية. كما سرت اشاعات مفادها حصول اتفاق بين الحزب الشيوعي ووزارة الشرطة البروسية بشأن المعركة الانتخابية ايضا. وقد تبين بعد الحرب العالمية الثانية وفي جميع الاقطار الاوربية التي ساد فيها النظام الشيوعي بأن الشيوعيين يهدفون في التمهيد للوصول الى السلطة بالسيطرة على جهاز الشرطة. أما الامور الاخرى فتكون اكثر بساطة بالنسبة لهم فيما بعد. ولم يراودني الشك ولا للحظة واحدة بأن تطورات الموقف السائد في بروسيا يتطلب المتابعة والاهتمام للسيطرة عليه. لاسيما وان التطورات المحتملة تشير الى قرب وصول حكومة جديدة يشارك بها النازيون بنسبة عالية في ذلك الاقليم ولابد انهم

سيستحوذون على وزارتي الداخلية والشرطة مما يجعل مهمتي ومهمة فون شلايخر اكثر صعوبة.

لذلك قررت كتابة مذكرة بهـذا المآل الى الرئيس فون هندنبورغ استندت بما جاء فيها الى المـادة ٤٨ من الدسـتور ورفعتها الى مقـامه في ٢٠ تموز ١٩٣٢ وجعلت عنوانها :

« من اجل اعادة الأمن والنظام في بروسيا»

وطلبت فيها تسمية مستشار المانيا حاكماً عاماً لبروسيا وتوليه منصب رئيس وزراء بروسيا في الوقت نفسه ومنحه صلاحية اقصاء أي وزير بروسي عند الاقتضاء. وكان تبرير هذا الطلب هو عـدم السمـاح لذلك الاقليم بالاستقلال التدريجي عن سلطة الحكومة المركزية لدرجة ربما تؤدي الى افلات زمام الحكم هناك من ايدينا والسماح باضطراب حبل الأمن. الا انني جعلت طلبي هذا محدودا الى ان تعود الحالة الى الوضع الطبيعي في اقليم بروسيا.

وأذكر ان التدخل في شؤون الاقاليم بهذه الصورة لم يكن البـادرة الاولى من نوعهـا حيث سبق للرئيس الالماني السـابق ايبرت ان خـول المستشار في عام ١٩٢٣ صلاحيات استثنائية وجعله حاكما عاما على اقليم سكسونيا وأقاليم أخرى من اجل اعادة الأمن والنظام في تلك الاقاليم.

استدعيت الى دار المستشـارية ثلاثـة وزراء بروسيين هم سيفرنك وهرتسيفر وكليبر على ان يصلوا يوم ٢٠ تموز ١٩٣٢. وكان رئيس وزراء بروسيا السيد براون مريضا ويتعذر استدعائه. ولما حضر اولئك السـادة اخبرتهم بأن حكومة المانيا تشعر بالأسف لاضطرارها على التدخل لاعـادة السيطرة على اقليم بروسيا وعليه فقـد صدر مرسـوم جمهوري يخولني صلاحيات كاملة للقيام بمهمتي رئيس وزراء بروسيا ووزير داخليتها اضافة لواجبـاتي وانني ارجو وزراء بروسيا أن يسكثوا في مكاتبهم. ثم سألت الوزير سيفرنك عما اذا كانت لديه اية اعتراضات على هذا الاجراء فأجاب بأنه بصفته وزيرا جمهوريا يمتثل لأوامر السيد الرئيس لأن قراره هـذا

يعتبر قررا دستوريا. الا أنه يرى ان القرار المذكور سيضعف سلطة الحكومة على الاقليم. وقد سميت بدوري محافظ مدينة أيسن الدكتور براخت ليكون ممثلي في ممارسة ادارة شؤون الحكومة البروسية . وقد اخبرت الوزراء الثلاثة بقراري هذا وقلت لهم انني اخترت هذا السياسي النابه ـ وهو من رجال حزب الوسط ـ لأنني لم اشأ تعقيد الحالة السائدة في بروسيا. لكن السيد سيفرنك لم يعجبه قراري بتسمية الدكتور براخت ممثلا لي في ادارة حكومة بروسيا فأعاد على مسامعي عبارته السابقة قائلا ان هذا القرار من شأنه اضعاف سلطة الحكومة على الاقليم. ولم البث ان انهيت المقابلة القصيرة للوزراء البروسيين الثلاثة.

اجتمعت بوزير الدفاع الفريق كورت فون شلايخر وتدبرنا أمر السيطرة على بروسيا لكي نقطع على الوزير سيفرنك سبل تحريك قوة الشرطة البروسية التي بأمرته ضد الحكومة المركزية. ثم استحصلنا موافقات استثنائية من السيد رئيس الجمهورية لتنفيذ خطة أمن برلين الكبرى بحيث تشمل مقاطعة براندنبورغ ايضا. وقام بعملية تنفيذ الخطة الفريق فون روندشتيدت[٢] الذي صار فيما بعد مشيرا.

وقد كتب وزير مالية بروسيا كليپر عن تلك الواقعة في عام ١٩٤٧ فقال انه عرج قبل سفره الى ايسن بيوم واحد لمقابلة الدكتور براخت على زملائه ببرلين وحذرهم من المصير الذي ستتعرض له مناصبهم. وكان رئيس وزراء جنوب المانيا قد دعى اولئك الوزراء الثلاثة الى وليمة تحدث فيها اليهم مليا قبل استدعائي لهم ببضعة ايام. وقد قام الوزير هرتسيفر بأيجاز رئيس

---

(٢) صار المشير فون روندشتيدت قائدا لمجموعة جيوش الجنوب عند مهاجمة المانيا لپولندا في ايلول ١٩٣٩ ثم قائدا لمجموعة الجيوش (آ) عند مهاجمة المانيا لفرنسا في عام ١٩٤٠ وقد احاله هتلر على التقاعد، ثم ما لبث ان استدعاه ليكون قائدا لمجموعة الجيوش التي دافعت عن فرنسا عام ١٩٤٤ ثم احاله على التقاعد ثانية وقد سجنه الانكليز بعد الحرب العالمية الثانية بضعة أعوام واطلقوا سراحه بعدها حيث مات في المانيا الغربية .
ـ المترجم ـ

وزراء المانيا بشأن تطورات الموقف في اقليم بروسيا والاحتمالات المترتبة عليه وذكر ان تعيين حاكم عام يجب ان يقاوم بالقوة • وكان ان وعدت اقاليم المانيا الجنوبية ـ متمثلة برئيس وزرائها ـ باسناد حكومة بروسيا ضد الحكومة المركزية • وتم الاتفاق على استدعاء قوات الشرطة الاحتياطية وتحشيدها تحت الراية (اسود ــ احمر ــ اصفر) وتسليحها مع ضمان تحييد الرئيس فون هندنبورغ والقاء القبض على اعضاء الحكومة المركزية والاعضاء القياديين في الحزب النازي• وعندئذ يجري تشكيل لجنة قوامها رؤساء وزراء الحكومات المحلية للاقاليم الخمسة ويشترك معهم مستشار الدولة لاقليم بروسيا الدكتور اديناور ووكيل الوزارة الدكتور شبيكر وقد وافق هذان السيدان على الاشتراك باللجنة المذكورة•

كانت جميع هذه النشاطات السرية قد جرت كلها بالخفاء دون ان نحاط بها علماً• الا ان هذه الخطة التي تنطوي على الخيانة المطلقة اصبحت الاساس لما هو مناسب حقاً•

تم تنفيذ المرسوم الجمهوري وفق المنهج المقرر لتنفيذه دون أية معوقات• وقد حاول رئيس وزراء بروسيا المريض التوجه الى مكتبه في شارع ڤيلهلم لكنه قابل على باب البناية من منعه من ولوجها ولما عاد السيد براون الى مسكنه قدم شكوى الى محكمة الدولة• اما سيفرنك فانه توجه الى وزارته ــ وزارة الشرطة ــ ومنع رجال الشرطة البروسيين من تلقي أية اوامر تصدر عن الحكومة المركزية • وعندئذ تلقى الفريق فون روندشتيدت امرا مني بالتوجه الى مقر ادارة الشرطة البروسية وطرد كل من قائد الشرطة غرتسيبنسكي ومعاونه ڤايس ومدير الشرطة السرية العقيد هايمانسبرغ وتأمين ايصال السادة الذين نسبوا للحلول محل هؤلاء الى مكاتبهم• ولما قاوم قادة الشرطة المطرودين قام فون روندشتيدت بالقاء القبض عليهم ولكنني أمرت باطلاق سراحهم بعد ساعة واحدة بعد ان وقع كل منهم على ورقة يوافق بموجبها على تولي أي منصب يعين له• اما وزير الداخلية فقد ذكر فيما بعد في مذكراته بأنه عندما توجه نحوه ملازم ومعه اثنا عشر

جندياً لتنفيذ اقالته قسراً عند الاقتضاء كتب لهم العبارة التأريخية المشهورة :
« انني انزل على حكمكم »

تحدثت للشعب الالماني من محطة الاذاعة في مساء ذلك اليوم • وذكرت في كلمتي اسباب القرار بالغاء التضامن الحزبي المعقود في ڤايمار وتبرير التغييرات الادارية التي الجأتنا الى التعجيل بتنفيذها قبل اجراء الانتخابات لاختيار رئيس الوزراء الجديد وعلى الرغم من ان الحزبين اليمينيين (الحزب النازي وحزب الشعب الوطني الالماني) يمثلان نسبة ٤٧٪ من اصوات المجلس المحلي لاقليم بروسيا فان تعاونهما مع حزب الوسط اصبح ضروريا للحصول على الاغلبية القانونية وهذا امر لم يحصل مما اتاح للشيوعيين الذين لا تزيد نسبة اصواتهم على ١٦٪ فرصة اللعب بالورقة الرابحة في التحكم بالاحداث الجارية في اقليم بروسيا • ولكي اجنب الاقليم عقابيل التطورات المضرة التي قد تؤدي الى لجوء الاحزاب الى ممارسة اعمال العنف ضد بعضها البعض فقد امرت بمنع الحزب الاشتراكي الديموقراطي من اقامة اية جبهة مع الحزب الشيوعي وحددت نشاطهما فوراً•

كان قائد شرطة برلين الجديد الذي وقع اختيارنا عليه هو السيد ميلشر من خيرة ضباط الشرطة الاكفاء وقد نجح الرجل في السيطرة على الموقف بسرعة وجعل الحياة طبيعية في بروسيا برمتها دون اراقة للدماء او اللجوء لأية فعاليات قسرية•

بعد ايام قلائل وجهت حديثا من محطة الاذاعة العالمية الى الاقطار الاجنبية لكي اوضح للعالم بأن الاجراءات التي اضطرت حكومتي على اللجوء اليها كانت لغرض منع الاصطدامات الدموية المحتملة بين متطرفي اليمين ومتطرفي اليسار الالمانيين وعدم السماح بنشوب حرب اهلية تدمر المانيا•

وأنا اجزم الآن وبعد مرور تلك الحقبة الطويلة من الزمن بأنني لم احاول التسلط او ممارسة الحكم الاستبدادي وانما وجدت هذا الاجراء

ضروريا لانقاذ احد اقاليم بلادي من الفوضى التي اوشكت ان تمتد منه الى الاقاليم الاخرى وكانت اجراءاتي من صميم واجباتي بصفتي رئيس الحكومة المسؤول عن ادارة الحكومة المركزية وقد شعرت بالخطر بصورة واضحة عندما لاحظت على الوزراء البروسيين الثلاثة عدم الامتثال لأوامر الحكومة مما جعلني اقدم على اقالة وزراء حكومة بروسيــا كلهم بموجب صلاحياتي الممنوحة لي من قبل رئيس الجمهورية فون هندنبورغ.

تمخضت الانتخابات التي اجريت في ٣١ تموز ١٩٣٢ والتي ساهم فيها ٣٦ر٨ مليون ناخب عن حصول احزاب تآلف ڤايمار على ١٢ر٩ مليون صوت فقط بينما حصل الحزب النازي على ١٣ر٧ مليون صوت فارتفع بذلك عدد مقاعده بالبرلمان من ١١٠ مقاعد الى ٢٣٠ مقعدا. وكانت نسبة الأصوات التي حازها النازيون مقاربة للنسبة التي حازها ادولف هتلر في الانتخابات الثانية لرئاسة الجمهورية اذ حصلوا في انتخابات البرلمان على نسبة ٣٦ر٨٪ من مجموع أصوات الناخبين. الا ان حصولهـم على هذه النسبة جعل مفتاح الموقف السياسي بأيديهم لأن أي ائتلاف برلماني تتحقق به الاغلبية اللازمة لتولي السلطة لا يمكن ان يتم بدونهم.

والآن وقد مضت ثمانية اسابيع على تشكيل حكومتي فأن الانتخابات الجديدة لابد ان تتمخض عن تطورات جديدة تتوائم مع نظرة الاحــزاب الفائزة في الانتخابات للنتائج التي حققتهــا حكومتي ســواء في المجــال الاقتصادي او في مؤتمر لوزان.

قررت بعد الانتخابات قضاء اجازة للاستجمام قبيل افتتاح البرلمان الذي حضر الرئيس فون هندنبورغ من ضيعته الى برلين للمساهمة في افتتــاحه وللمشاركة في المباحثات الضرورية لتشكيل الحكومة الجديدة.

طرحت في ٩ آب ١٩٣٢ مذكرة لايقاف موجة الارهاب السياسي التي تفشت بين مختلف الفئات المتناحرة وطلبت الموافقة على جعل عقوبة الموت رادعاً لكل من يقدم على ممارسة القتل لأسباب سيــاسية وذلك قطعاً لدابر معارك الشوارع. وعندما طلبت مناقشة هذا الطلب مع جميع الاحزاب رفض

الحزب الديموقراطي الاشتراكي المساهمة في اية مباحثات بهذا الشأن.

في صباح ١٢ آب ١٩٣٢ استقبلت كلا من السيد روهم[٣] وغراف هيلدورف وكان اولهما رئيسا لاركان وحدات العاصفة النازية اما ثانيهما فكان قائداً سياسيا لمنطقة برلين من الحزب نفسه. وطلبا مني تحديد موقفي وقالا بكل وضوح ان حزبهما لن يرضى بغير تكليف زعيمه ادولف هتلر بمنصب مستشار المانيا فقلت لهما ان الرئيس فون هندنبورغ ابدى رغبته في اشراك بعض اعضاء الحزب النازي في حكومتي واما مطالب الحزب الاخرى فيمكن تقديمها فيما بعد.

في صباح ذلك اليوم بالذات استقبل وزير الدفاع كورت فون شلايخر بمكتبه ادولف هتلر وجعله على بينة من عدم احتمال ترشيحنا له لرئاسة الحكومة الجديدة. ثم ان هتلر ما لبث ان زارني في عصر اليوم نفسه وكان معه الدكتور فريك[٤]. فأوضحت لهتلر بجلاء خلاصة رأيي قائلا:

« ان السيد الرئيس لا يرغب الآن باسناد منصب المستشار لكم لأن معرفته الشخصية بكم لا تزال قليلة . ثم انكم قدتم حزبكم لحد الآن وهو في موقف المعارضة فقط. كما انكم أعلنتم منهج الحزب الذي نختلف معكم في عدة نقاط وردت فيه. اضف الى ذلك ان منهج حزبكم يتضمن معالجة

---

(٣) نظم ارنست روهم وحدات العاصفة النازية (S.A) وادار معارك الشوارع مع اعداء الحزب النازي ردحا طويلا من الزمن ولما تفاقم شره لدرجة باتت تؤثر على هتلر ونظامه في عام ١٩٣٤ قام هتلر بقتله هو وانصاره في عملية تصفية مشهورة جرت في ذلك العام . — المترجم —

(٤) صار الدكتور فيلهلم فريك وزيرا للداخلية في حكومة هتلر ثم عين في آب ١٩٤٣ حاكما عاما لمورافيا وبوهيميا (تشيكوسلوفاكيا) خلفا لراينهارد هايدريش فبقي بهذا المنصب حتى نهاية الحرب العالمية الثانية وقد احيل بعد ان وضعت الحرب اوزارها الى محاكمات نورمبرغ وحكم عليه بالاعدام شنقا ونفذ فيه يوم ١٦ تشرين الاول ١٩٤٦ متهما بمناوأته للسامية .
— المترجم —

اصعب مشكلة في السياسة الداخلية لبلادنا ـ واعني بها المشكلة الاجتماعية ـ حيث انكم تعرضون لها حلولا ايجابية مقبولة • كما اننا تتفق معكم بشأن السياسة الاقتصادية الا ان الرئيس يجد أن من واجبه ازاء الوطن استغلال طاقاتكم الحماسية في المجال السياسي بالوقت الحاضر الا انه يرى بأن المرحلة الراهنة تتطلب تعاون جميع الالمان المخلصين لخدمة بلادنا.

انصت لي هتلر بصمت مطبق لكنني استرسلت في كلامي لأعطيه انطباعا بأنني لا اعيق وصول حزبه الى الحكم. كما انني لست حريصا على التمسك بمنصب المستشار والاستئثار به دونه. ولكي ابرهن له على سلامة نيتي فقد دعوته في ذلك اليوم لقبول تعييني له بمنصب نائب المستشار وتعيين عدد من انصاره بمناصب وزارية في حكومتي. ثم اخبرته باستعدادي للتنازل له عن منصب المستشار حال حصول حركته على ثقة البرلمان وبعد أن يكتسب هو شخصيا ثقة الرئيس فون هندنبورغ ويتعرف عليه بصورة اوثق. ومع ان هتلر بدى عليه تقبل آرائي الا انه رفض طلبي قائلا انني لابد ان أقدر مدى تعذر اشتغاله (وهو زعيم حركته) نائبا لمستشار آخر. لاسيما وان حزبه يتوقع ان يراه رئيسا للحكومة • ثم كرر القول بأنه لا يشك ابدا بصدق مشاعري لكنه يأسف لعدم استطاعته قبول العرض الذي قدمته له. لكنني ما لبثت ان قدمت له عرضا آخر:

اذ بمقدوره ـ بصفته زعيم حركته السياسية ـ البقاء خارج الحكومة وتكليف احد اعوانه المقربين بتولي منصب نائب المستشار • وبذا ستتاح الفرصة لرئيس الجمهورية كي يتعرف على شخصيات الحزب عن كثب تمهيدا لكسب ثقة الرئيس الشخصية.

الا ان هتلر أصر على رفض هذا المقترح ايضا.

وهكذا استمرت محاورتنا لفترة طويلة ونحن في حلقة مفرغة. وكنت أؤكد له بأن عليه التريث قليلا لأنه ليس من المعقول بقاء مثل هذا الحزب الكبير مجرد قوة للمعارضة. اذ لابد للحزب ان يصل الى ذروة التفوق التي اوشك على ادراكها وعندئذ ستنفسح امامه اوسع ابواب المستقبل.

ولما يئس هتلر من اقناعي بالاستقالة لصالحه سألني عما اذا كنا قد وصلنا الى ختام المناقشة فأجبته بالايجاب فقال لي بأن حزبه سيحمل لواء المعارضة ضد حكومتي. فقلت له ان سبب الفشل في التوصل الى اتفاق يكمن في تمسكه شخصيا بتولي منصب المستشار وانني سوف اخبر الرئيس فون هندنبورغ بتفاصيل محاورتنا اولا بأول. وكنت على ثقة تامة من ان الرئيس سوف لن يذعن لاصرار هتلر على تولي منصب المستشار كما ان وزير الدفاع فون شلايخر أكد بأن هتلر ــ ان شاء التمسك بالوصول الى منصب المستشار ــ لابد ان يحصل على تزكية من حزبه اولا.

وأخيرا اختتمنا المناقشة المطولة بتوديع اتسم بالبرود. وسرعان ما شرعت وسائل اعلام الحزب النازي باظهار ردود فعلها العنيفة ضد الحكومة معلنة عن تحول الحزب الى صفوف المعارضة.

لم يطالب هتلر بمنحه الصلاحيات المطلقة في اول الامر وانما طالب بمجرد تولي رئاسة الحكومة . ولكن هذا الطلب كان تلاعبا بالالفاظ. وقد ادركنا ــ انا وفون شلايخر ــ من الوهلة الاولى خبيئة نفسه على حقيقتها لأن خطواته للسيطرة على مقدرات المانيا كانت على حساب ازاحتنا كلينا من منصبينا الخطيرين.

ثم ان الصحافة النازية تجاوزت حدودها بالاجتراء على مقام رئيس الجمهورية فون هندنبورغ نفسه ونقضت العهد الذي سبق لهتلر انقطعه لفون شلايخر وقد اكد هذا بأن هتلر قال له بصورة جازمة بأنه سيلتزم بالوفاء لشخص الرئيس فون هندنبورغ دون أية حدود زمنية.

أما موقف صحافة احزاب الوسط فكان يتسم بعدم المبالاة مع انها لم تشجع وصول هتلر الى الحكم ولم تتوقع الوصول الى أي تعاون من شأنه مشاركة النازيين بالحكم. وانصبت أغلب تقديراتها للموقف السياسي الداخلي على احتمال حصول أئتلاف احافظ به على بقاء حكومتي بعدكسب اغلبية برلمانية اضمن بها ثقة الاحزاب الكبيرة الحائزة على نسب كبيرة من مقاعد البرلمان الجديد.

وكانت المعضلة الرئيسة التي صادفتني في تلك المرحلة هي كيفية تنفيذ الاصلاح البرلماني • وقد كتب سير هوراس رومبولد السفير البريطاني ببرلين آنذاك تقريرا لحكومته جاء فيه:

« يبدو ان السيد فون پاپن يعتقد بأنه حائز للوصاية على الشعب الالماني وله ان يحكم البلاد ويصلح النظام البرلماني• وهو يظن ان الاحزاب الالمانية لا تمثل الشعب وعليه فانه يحاول اصلاح النظام البرلماني على حساب المؤسسات البرلمانية التي اقامتها حكومة ڤايمار» وهذا تقرير يمكن اعتباره مغاليا في النقد ولكن الذي اثبته نظام هتلر فيما بعد يدل على انني لم اجانب الحق والاصلاح في محاولتي التي لم يكتب لها النور•

كانت الخطوة التالية التي اقدمت حكومتي على معالجتها هي كيفية التغلب على معضلة البطالة المتفشية في المانيا انقاذا لاقتصادها المتدهور•

وقد اعدت حكومتي خطة لمعالجة هذه المسألة وناشدت الشعب ان يسندها في وضع خطتها موضع التنفيذ وبناء على ذلك فقد توجهت الى ضيعة (نوي دك) لمقابلة الرئيس فون هندنبورغ يوم ٢٦ آب ١٩٣٢ وهناك علمت بأن المستشار السابق بريونينغ يسعى للتوصل الى تضامن بين حزبه والحزب النازي•

في تلك الايام فوجئنا بمشكلة جديدة تمثلت بصدور الحكم باعدام خمسة من النازيين لاشتراكهم في قتل شيوعي يوم ٢٢ آب ١٩٣٢ وقد رفعت الصحافة النازية عقيرتها لتخليص اولئك المجرمين الخمسة من عقوبة الاعدام• اما هتلر فقد ارسل برقية للصحف قال فيها:

انه يعبر عن حزنه الذي يفوق الوصف لسفك دم ذلك القتيل وان الهدف الرئيس لحركته هو مناوأة حكومتي بالدرجة الاولى•

القيت خطابا في مونستر يوم ٢٨ آب ١٩٣٢ باجتماع لاتحاد الزراعيين الويستفاليين الذي سبق ان ساهمت في فعالياته لسنين عديدة • فأنتقدت هتلر لبطلان ادعاءاته التحريضية ودافعت عن سياسة حكومتي المتزنة•

لم يكن تمسكي بمنصب المستشار بالسبب الوحيد الذي دعاني لمعارضة وصول هتلر الى السلطة وانما كان المعيار الاخلاقي البروسي المعروف «لكل ما يستحق» والسائد منذ عهد ملوك بروسيا هو الذي دعاني للمعارضة في تكليف هتلر بمنصب المستشار لاسيما وان حزبه لم يكن حائزا للاغلبية التي تؤهله للوصول للسلطة وقيادة الامة الالمانية.

وعليه فقد قررت اطفاء نيران الحرب الاهلية التي لاحظت ان بوادرها لاحت في الافق ووضع حد للاضطراب السائد في الميدان السياسي وانهاء التسيب الذي وصل الى درجة استعمال القوة بين الاحزاب دون اي احترام للسلطة الشرعية القائمة.

وكانت العقوبات القاسية التي وصلت الى احكام الاعدام وتشدد الحكومة في تعاملها مع العناصر المتطرفة من جميع الفئات السبب المباشر في تهدئة الاوضاع . الا ان وزير العدل اصدر امرا ليلة تنفيذ احكام الموت بتخفيضها الى السجن المؤبد. وواضح ان هذا الاجراء كان سياسيا اكثر من كونه قضائيا . ذلك لأنني لم اشأ مطلقا اعطاء أي انطباع بأنني مناهض للنازية . كما انني لم اشأ من الناحية الاخرى اعطاء المتطرفين اسبابا دعائية قد توجه ضد حكومتي بعد الانتخابات الجديدة التي اعلنا عن اجرائها في ٦ تشرين الثاني ١٩٣٢ .

وكان ان اردت الاسترسال في ابداء النوايا الحسنة واتخذت قرارا بالغاء عقوبة الاعدام والاستعاضة عنها بالسجن المؤبد ولما تغيرت الحال ووصل هتلر الى السلطة ادركت بأن ميلي الى الرحمة على حساب العدل كان خطأ سياسيا ما كان لي ان ارتكبه.

في أثناء معالجاتي المضنية للوضع الداخلي السائد في الوطن ظهرت صعوبات اخرى جديدة في الموقف الخارجي. ذلك لأن مؤتمر لوزان لم يتمخض عن أي تحسن تحصل به المانيا على سيادتها المقيدة. ووجب على حكومتي ايجاد الوسائل الكفيلة بتحسين الحالة المعاشية لابناء الوطن .

ولذا فقد اصدرت توجيهاتي لوزير الخارجية البارون فون نويرات للسعي الحثيث في سبيل مساواة المانيا مع بقية الدول وفقاً لمعاهدة جنيف. واصطدمت هذه المحاولة بعقبة كأداء هي وجوب الحصول على موافقة فرنسا المبدئية. وعلى الرغم من التضليل الذي مارسه هريو معي في محادثاتي معه بلندن الا انني كنت على ثقة من انه يرغب في اعماق نفسه الى التوصل للسلام الدائم مع المانيا.

وفي ٢١ آب ١٩٣٢ كتب البارون فون نويرات مذكرة ـ بحضور وزير الدفاع فون شلايخر ـ الى السفير الفرنسي ببرلين فرانسوا پونسيه تضمنت التوجيهات التي زودته بها . وبعد يوم واحد قابلني السفير البريطاني سير هوراس رومبولد متسائلا عن مدى صحة اجراء محادثات وشيكة بين برلين وباريس.

وقد كتب فرانسوا پونسيه فيما بعد بمذكراته تفسيرا لهذه الواقعة تضمن قيام وكيل وزارة الخارجية الفرنسية السيد هرڤيه آلفان ـ الذي وجد إن البرقية الواردة من السفير الفرنسي ببرلين مهمة جدا ـ بالتوجه الى رئيس الورزاء شخصيا (الذي كان متغيبا عن باريس في سفرة بحرية في القنال) فلما وصل وكيل وزارة الخارجية بالطائرة وقابل رئيس الوزراء الذي كان في السفينة وحوله عدد كبير من الصحفيين لم يبق لالمانيا سر مكتوم. وفي صباح اليوم التالي كانت على مكتب رئيس وزراء بريطانيا مذكرة سرية جاء فيها:

« يدرس السيد هريو بكل اهتمام الموقف الجدي الذي ازعجه الى ابعد الحدود » وقد ذكرتني هذه العبارة بالموقف الذي وصلنا اليه فيمحادثات نزع السلاح يوم ٢٣ تموز ١٩٣٢ عندما لم تعترف بريطانيا وفرنسا بمساواتنا معهما من حيث المبدأ. وعليه فان رغبتنا المشروعة في اعادة فتح الحوار معهما بهذا الشأن لابد ان تثير قلقهما لاسيما وان الحكومة الالمانية لم تعد قادرة على البقاء في وضع متخاذل يسيء موقفها في نظر ابناء الشعب الالماني. وعليه فان وزارة الخارجية الفرنسية اهتمت للامر الى اقصى الحدود كما

توجه السفير الانكليزي سير هوراس الى لندن يوم ٣١ آب ١٩٣٢ بعد ان اوجزته بشأن خطورة الموقف وحذرته من مغبة تجاهل طلبات المانيا.

أما سفيرنا بلندن غراف بيرنستورف فقد قابل وزير خارجية بريطانيا سير جون سيمون الذي قال له ان طلبنا لا يزيد عن كونه اعادة للطلبات التي سبق ان عرضها المستشار السابق الدكتور بريونينغ في نيسان ١٩٣٢ .

لكن الدكتور بريونينغ كتب فيما بعد رسالة الى وكالة الانباء الالمانية ذكر فيها الواقعة المذكورة كما يلي:

« في الوقت الذي تقررت استقالة الحكومة كان السفير الامريكي في سويسرا ستيمون قد ناقش رئيس وزراء فرنسا هريو طوال أيام عديدة بشأن مساواة المانيا في ميدان التسلح واشترك في مناقشة الطلب الالماني ممثلون عن الولايات المتحدة الامريكية وبريطانيا وايطاليا في جلسات عديدة عقدت بمنزل السفير ستيمون الواقع في بيسنغس القريبة من جنيف. وكنت انتظر بين ساعة وأخرى تطور الحوادث من السفير الامريكي في سويسرا مؤملا موافقة هريو على مساواة المانيا في مجال التسلح مع الدول الاخرى لكن حكومتي استقالت في ٣١ مايس ١٩٣٢ قبل ان يتوصل المؤتمرون الى اقناع هريو بمنح المانيا حقها في التسلح . وهكذا بقيت هذه المعضلة قائمة كعقبة بارزة تؤثر على سياسة المانيا الخارجية ».

أما المضيف السفير ستيمون فقد كتب عن تلك الواقعة ما يلي:

« أوضحت الحكومة الالمانية للحكومة الفرنسية بأن طلباتها لا تتجاوز الحقوق الطبيعية التي سبق ان عرضها المستشار الالماني (بريونينغ) على رئيس وزراء بريطانيا في بيتي بمدينة بيسنغس . وقد سبق ان حضرت مناقشات الرئيسين الالماني والانكليزي بصفة مراقب دون ان اساهم فيها . ولذا يمكنني التأكيد بأن الطلب الالماني كان معقولا ولكنه لم يلق من الانكليز أي شكل من الموافقة او الاسناد او التأييد ».

وقد علق رئيس وزراء بريطانيا السيد ماكدونالد على كلام ستيمون بالملحوظة التالية:

« ان كل ما ذكره السيد ستيمون صحيح تماما»[٥].

اوضحت جهودي المضنية لاقناع هريو بمنح المانيا حقوقها دون جدوى في محاضرة القيتها بنادي اتحاد الصحافة الاجنبية يوم ٨ تشرين الثاني ١٩٣٢ وحازت التأييد الحار من الحضور لأنني عرضت فيها استعداد المانيا لتوقيع معاهدة سلام مع فرنسا وذكرت مدى أهميتها للبلدين . وأملت ان بقية الدول ستشجعنا في هذا السبيل لأنها لابد ان تتفهم المزايا التي سنجنيها من تجنب الخصام الذي يهدد علاقاتنا بصورة مستمرة وقلت في معرض محاضرتي ما يلي:

« ان طريقنا ينبغي ان يكون باتجاه التفاهم السلمي ولقد خطونا خطواتنا الاولى في هذا السبيل في لوكارنو ثم خطونا لمسافة ابعد في مؤتمر لوزان وسنتابع المسير على نفس الاتجاه مهتدين بالمباديء العظيمة التي اغمدنا بموجبها اسلحتنا في عام ١٩١٨ من اجل ازدهار اوربا».

واخيرا التقى الرئيسان ماكدونالد وهريو في جنيف في مطلع كانون الاول ١٩٣٢ وتوصلا مع البارون فون نويرات الى صيغة سمحت لنا بتجديد المساهمة في مناقشات نزع السلاح. وفي ١١ كانون الاول ١٩٣٢ تم الاعتراف التام بمساواتنا مع الدول الاخرى في هذا المجال بمذكرة جاء فيها:

« تعلن حكومات المملكة المتحدة وفرنسا وايطاليا بأن مساواة المانيا معها في مجال التسلح يعتبر من الأسس الذي يجب ان تعتمدها في كل المؤتمرات وذلك ضمانا لنظام الأمن السائد بين جميع الأمم».

ولما ادركت الهدف الذي سعيت لتحقيقه طويلا لم اكن متحملامسؤولية الحكم في بلادي لأن حكومتي كانت قد استقالت قبل ذلك التأريخ بثمانية ايام واصبح وزير الدفاع فون شلايخر مستشارا لالمانيا . وهكذا ظهرت نتائج الجهود التي بذلتها في مؤتمر لوزان بصورة متأخرة وثبت نجاحي ولكن بعد استقالة حكومتي .

(٥) راجع الوثائق البريطانية للسياسة الخارجية ١٩١٩ - ١٩٣٩ المجلد الرابع التسلسلات ١٣٦ و ٨٨ و ١٠٠ و ١٣٤ (باللغة الانكليزية) .
ـ المؤلف ـ

الفصل الرابع عشر

المستشار فون شلايخر



البرلمان الجديد . حل البرلمان الجديد . الخطة الاقتصادية الكبرى . انتخابات جديدة . اندحار مريع للحزب النازي . تعذر اقامة جبهة ائتلافية برلمانية . استقلت . ساعة حاسمة. الرئيس فون هندنبورغ على استعداد ليحكم ضد الدستور . رد فون شــــلايخر العنيف . مهمة الرائد اوت « انه مسن ولا يصلح لادارة حرب أهلية » . فون شلايخر يتولى منصب المستشار .

افتتح البرلمان الجديد يوم ٣٠ آب ١٩٣٢ بخطاب ملتهب القته النائبة كلارا تستكين العائدة لتوها من موسكو وقاطعها النواب الشيوعيون بتهليل وهتاف تضمن الدعوة لانشاء (الجبهة الحمراء) وهــاجمت الخطيبة العــالم الرأسمالي وحكومة فون پاپن الخادمة لمصالح الرأسمالية ودعت الى ثورة شاملة .

ثم جرت انتخابات رئاسة المجلس فأتفق حزب الوسط والحزب النازي على انتخاب السيد هرمان غورنغ رئيسا للمجلس . وهكذا اثبت المجلس

باتتخابه لغورنغ تفوق التضـــامن القومي على التكتل الشيوعي. وقد قرر الرئيس الجديد للمجلس عقد الجلسة الثانية في ١٢ أيلول ١٩٣٢ .

لاحظت في تلك الأثناء ـ كما هو معتاد في كل برلمان ـ اننـا يجب ان نقدم تقريرنا المتضمن خططنا التي نزمع تنفيذها من أجل التغلب على الأزمـة الاقتصادية وكانت حكومتنا على اتم استعداد لعرض برامجها امام البرلمان وتلقي كل الانتقادات البناءة برحابة صدر.

افتتحت الجلسة الثانية برئاسة السيد هرمان غورنغ وكان المجلس كامل الانتنام ومقصورات الهيئات الدبلوماسية الاجنبية غاصة بالحضور وكان أول المتكلمين النائب الشيوعي تورغلر الذي طالب بالغاء حالة الطواريء المفروضة من قبل الحكومة فوافق المجلس على هذا الطلب دون اية مناقشة وبالاجماع. ثم طالب النائب المذكور بحجب الثقة عن حكومتي.

وجه الرئيس هرمان غورنغ سؤالا لاعضاء البرلمان عما اذا كانوا يؤيدون مقترح النائب أم يعـــارضونه . فنهض النائب النازي الدكتور ڤيلهلم فريك وطالب باستراحة للمجلس امدها نصف ساعة. فتوجســت خيفة من هذا الموقف المفاجيء لأنني لم استعد لالقاء خطبة ادحض فيها الافتراءات التي ينتظر ان تتعرض لها حكومتي وكان الاستحضار للخطبة المذكورة يتطلب عدة ايام على الاقل. لكنني يمكنني استحصال الامر بحل البرلمان الجديد في ذلك اليوم نفسه. وأرسلت ساع على عجل الى دار المستشارية وتدبرت امر حل البرلمان خلال نصف الساعة المقررة للاستراحة ولما استؤنفت الجلسة الثانية دخلت القاعة الكبرى متأبطا الاضبارة الحمراء المعهودة والتي تحوي الامر بحل البرلمان.

علت ضجة القوم عندما رأوا اضبارتي الحمراء التي تنذر بحل مجلسهم وقال رئيس المجلس ان استحصالي لأمر حل المجلس جاء اجابة حاسمة على مقترح النائب تورغلر ألا انني وضعت الاضبارة المتضمنة امر رئيس الجمهورية بحل المجلس امام رئيس المجلس وغادرت قاعة البرلمان انا وأعضاء حكومتي.

تجاهل غورنغ أمر حل البرلمان ووضعه جانبا وشرع بالاقتراع على الثقة بحكومتي وكانت نتيجة الاقتراع التصويت بالغاء حالة الطواريء ثم حجب الثقة عن حكومتي بنسبة ٤١٢ الى ٤٢ صوت. وعندما ظهرت هذه النتيجة أعلن غورنغ حل البرلمان وقال ان وثيقة الامر بحل البرلمان لا يمكن اعتبارها نافذة دستوريا لأنها موقعة من وزير لم تحز حكومته على ثقة ممثلي الشعب وهكذا تسبب الحلف غير المقدس الذي اتفقت به عدة احزاب متنافرة على الاطاحة بحكومتي في ٣٠ آب ١٩٣٢ الى حل البرلمان وانني لفي اشد الاستغراب حتى يوم الناس هذا للاسباب التي حدت برجال امثال الدكتور بريونينغ والدكتور كاس للتضامن مع الشيوعيين والنازيين فيسبيل اسقاط حكومتي قبل ان يتسنى لها طرح منهاجها المزمع تنفيذه على انظار ممثلي الشعب حتى قبل ان يسمع اولئك السادة بالخطط المقترحة لمعالجة الازمة الاقتصادية وازمة البطالة.

وأغلب الظن ان ذينك السيدين كانا يأملان التوصل الى تشكيل حكومة ائتلافية يساهم بها النازيون والشيوعيون الى جانب حزبيهما الاشتراكيين.

ولما حرمت من فرصة الكلام امام البرلمان بصفتي رئيسا للحكومة آثرت التوجه الى ابناء الشعب الالماني قاطبة بالقاء كلمة بجميع محطات الاذاعة الموجودة في المانيا فوصفت تطورات الحوادث في ذلك اليوم تحت قبة البرلمان وأوضحت خطط الحكومة لمعالجة الازمة الاقتصادية وناشدت ابناء الشعب الالماني الوقوف صفاً واحدا وراء حكومتهم لكي يحبطوا كافة الالاعيب التي شرع النازيون بممارستها من البرلمان.

كنا قد حاولنا في تلك الفترة معالجة ازمة البطالة بتقليص ساعات العمل الأسبوعية من ٤٠ ساعة الى ٣٠ ساعة واقتصار أيام العمل على خمسة أيام في الاسبوع والاستعاضة عن تقليص الساعات العشر واليوم الواحد بتشغيل اعداد أخرى من العمال العاطلين.

أما الموقف المالي فقد كان حرجا لدرجة لا نحسد عليها. اذ كان ما لا يقل عن ٢٣ مليون الماني يعيشون على الموارد العامة للدولة الالمانية أي ما يعادل

٣٦٪ من ابناء الشعب، وهذه الحقيقة تدل على مدى ابتعادنا عن الاقتصاد المتمثل باستغلال رؤوس الاموال بطريقة حرة وهي تدل ايضا على تعذرملافاة هذه الحالة بين عشية وضحاها • وكان رصيـدنا الكلي الذي عضضنا عليه بالنواجذ وحرصنا على عدم التفريط به الا عندمـا تلجئنـا لذلك الظروف لا يتجاوز ٢٢ مليار مارك تدبرناها من مختلف المصادر وجعلناها احتياطنـا النهائي، والمفرح اننا استطعنا ـ بفضل تطبيق خططنا الاقتصادية ـ تقليل عدد العاطلين خلال شهر تشرين الثاني ١٩٣٢ وحده بما يقرب من ١٢٣٠٠٠ عامل،

كان اصلاح النظام البرلماني من الامور التي اشغلت بالي كثيرا وبخاصة مسألة حق الانتخاب التي أوليتها اهمية كبيرة، وكان السؤال الذي رددته آنذاك هو مـدى امكانيـة اجراء الانتخـابات الجديدة التي تقررت في ٦ تشرين الثاني ١٩٣٢ بموجب قانون الانتخاب الجديد •

الا أنني وجدت عدم ملاءمة اقرار قانون جديد للانتخابات لأن حكومتنا كانت تمارس سلطتها في ظل حالة الطوارىء •

لم تكن حكومتنا بوضع افضل من موقفها في الانتخابات الاخيرة • وكنا قد تساءلنا عن امكانية تأسيس حزب جديد للحكومة بحيث يمكن الركون اليه في البرلمان لكنني استبعدت هذه الفكرة لأنني كنت على ثقة من عدم جدواها ولأنها تناقض خططنا المقبلة،

تمخضت الانتخابات الجديدة عن فقدان النازيين لـ ٣٥ مقعدا من مقاعدهم في البرلمـان لكن احتفاظهم بـ ١٩٥ مقعـد أبقـاهم بوضع قوي لدرجة يتعذر معها تشكيل أية حكومة تتمتع بالاكثرية البرلمانية المطلوبة دون مساهمتهم، وهكذا فقدنا الأمل في مواصلة النهج السياسي للحكومـة في ظل دستور فايمار،

وقد حاز الاشتراكيون الديموقراطيون ١٢١ مقعدا في البرلمان الجديد وحاز الشيوعيون ١٠٠ مقعد بينمـا حاز الحزب الوطني الالماني ٥١ مقعدا

فقط. وافلس حزب الدولة والحزب الديموقراطي عندما حاز كل منهما على مقعدين اثنين.

اتجهت بحواسي فور اعلان النتائج النهائية للانتخابات نحو علاقاتنا الخارجية مع اوربا . ولذا فقد عقدت مؤتمرا صحفيا بعد ظهور نتائج الانتخابات بيومين قلت فيه بأنني سبق ان شخصت طبيعة الامراض السياسية التي تنتاب المانيا لزعماء اوربا الذين التقيت بهم في مؤتمر لوزان. وانني أرى ان اعادة سن قانون الانتخابات الالماني ليس مجرد ضرورة حياتية بالنسبة لنا وانما هو مشكلة مركزية تخص اوربا كلها. وقد تجلى صدق توقعي هذا بعد ثلاثة اعوام فقط عندما وصل هتلر الى الحكم واقام نظاما جديدا موافقا لاطماعه واستهان بكل الاتفاقيات الدولية المعقودة بين المانيا ودول اوربا وخلق لأوربا مشاكل جمة وبصورة متتالية ومتواصلة . وعندئذ فقط ادركت الدول الاوربية الكبرى ان من الصعوبة بمكان التوصل الى تفاهم مع المانيا القوية التي ظهرت الى الميدان بصورة مفاجئة تحت زعامة هتلر وكان فهمها لهذه الحقيقة متأخرا.

حاولت في هذه المرحلة – كما هو مألوف – اجراء اتصالات سياسية مع زعماء مختلف الأحزاب بغية التوصل الى تفاهم معهم بشأن الموقف السائد.

ولقد رفض الحزب الاشتراكي الديموقراطي اجراء اية اتصالات معي. كما رفض الدكتور كاس أي تعاون بين حزب الوسط والحكومة .
وظهر ميل اغلب الاحزاب القوية لتشكيل حكومة جديدة يرأسها هتلر وتتمتع بالاغلبية البرلمانية المطلوبة.

وجدت في قرارة نفسي شعورا شديدا بالتنازل عندما اضطررت على الكتابة الى هتلر ما يلي:

« عندما تلقيت رغبة الرئيس فون هندنبورغ في ١ حزيران ١٩٣٢ بتشكيل الحكومة كانت المهمة التي كلفت بها تتضمن قيادة تجمع مؤلف من

جميع القوى الوطنية، وكنتم قد رحبتم برغبة الرئيس هذه وتحمستم لها ووعدتم باسناد مثل هذه الحكومة، ولما طالبتم بعد انتخابات ٣١ تموز ١٩٣٢ بتحقيق ذلك الوعد ذكرتم لي بأن قيادة تلك القوى الوطنية لا يمكن أن تتم الا تحت رئاستكم .. الا أن السيد رئيس الجمهورية رفض تكليفكم بمهمة تشكيل الوزارة للاسباب التي تعلمونها».

وبعد انتخابات ٦ تشرين الثاني ١٩٣٢ حصل موقف جديد واتيحت امكانية جديدة لتحقيق التعاون بين جميع القوى الوطنية .. وعلى الرغم من كتابة الصحافة النازية مقالات عديدة تنال فيها من رئاستي الشخصية وتشكك بقدرتي على تنسيق جهود شخصيات مختلف الاحزاب ومحاولتها نسف المباحثات عندما رفعت شعار (لا مفاوضات مع فون پاپن) وعليه فقد آثرت الاتصال بكم رغم الاحباط الذي تحاول به صحافتكم التأثير على تحملي لمسؤولياتي وعلى الرغم من ثقتي بأنكم تطلبون لنفسكم منصب المستشار..

وعلى الرغم من ذلك ايضا فانني اعتقد بأن زعيم حركة وطنية كبيرة لا ينبغي له أن يحرم رجل الدولة المتحمل مسؤوليات ادارة دفة الحكومة بالوقت الحاضر من تحمل مسؤولياته باتخاذ القرارات المناسبة لصالح الوطن. ويجب علينا ان نحاول نسيان المرارة التي صادفناها في الانتخابات وان نضع مصلحة الوطن نصب اعيننا بصورة مشتركة قبل كل القضايا الاخرى».

ألا ان هتلر ـ المطالب بمنصب المستشار ـ لم يتخذ قراره لفتح حوار مع خصمه السياسي ، وأخل بالتعهد الذي سبق أن قطعه على نفسه في ٣١ آب ١٩٣٢ عندما كتب لي جوابا مسهبا ضمنه طلباته كلها التي تتناقض تماما مع نهجي السياسي وخطتي الاقتصادية.

ومع ان هيئة محكمة نورمبرغ لم تعتبر هذه الرسالة (وثيقة ذات قيمة) لاثبات براءتي فيما بعد الا انني اتساءل هنا:

كيف يمكن لرئيس الحكومة استمالة زعيم المعارضة اذا كان هذا مصراً على التمسك بطلبات معينة وغير راغب في التوصل الى أي نوع من التفاهم كما فعل هتلر معي.

ولما كانت مواقف الاحزاب الاخرى مشابهة لموقف هتلر فقد وجبتعلي مقابلة الرئيس فون هندنبورغ يوم ١٧ تشـرين الثاني ١٩٣٢ لاخباره بتعذر التوصل الى أي اتفاق مع الاحزاب لكسب ثقتها في البرلمان من اجل تطبيق البرنامج الاصلاحي الذي وضعته الحكومة • ثم قلت للرئيس بأن تشكيل حكومة جديدة تضم تجمعاً وطنياً أئتلافيا تحت رئاستي اصبح من الامور المتعذرة • ورجوت الرئيس ان يقوم بالاتصال بالاحزاب بنفسه لكي يتحرى عن المقترحات المناسبة لحل قضية تشكيل الحكومة الجديدة • ولكي ينفسح المجال امام الرئيس في مداولاته اقترحت تقديم استقالة الحكومة • ثم عرضت على الرئيس فون هندنبورغ استقالة حكومتي على ان تقدم الاستقالة حال تشكيل الحكومة الجـديدة الا ان وزير الدفاع فون شلايخر كان من رأيه تقديم استقالة الحكومة فورا لكي تتاح للرئيس حرية عمل أوسع•

تبين من محادثاتي مع الرئيس بأنـه يفكر فيما اذا كانت اتصـالاته مع رؤساء الاحزاب ستؤدي الى نتائج افضل من تشكيل حكومة رئاسية لأنه غير راغب في تشكيل حكومة اغلبية برلمانية والرجوع الى الاسلوب القديم فأيدت وجهة نظره هذه لتعذر تأليف حكومة اغلبية نظراً لتعدد الاحزاب وتنافرها • وعليه فقد قرر الرئيس العودة الى تأليف حكومة رئاسية•

في ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٢ استقبل الرئيس فون هندنبورغ زعمـاء احزاب اليمين والوسط وهم السـادة هوغنبرغ وكاس ودينغلدي وفي ١٩ منه استقبل هتلر وشيفر• ولم يستقبل زعيم الحزب الديموقراطي الاشتراكي لأنه سبق ان اعلن عزمه على عدم المشاركة في أية حكومة ائتلافية • وكما هو مألوف فان الرئيس كلف زعيم حزب الاغلبية ــ النسبية هتلر بالتحري عن امكانية تأليف حكومة ائتلافية بحيث تساهم بها احزاب الوسط واليمين بعد ان ابدى زعمـاء تلك الاحزاب استعدادهم للمسـاهمة في الحكومة الجديدة • وانه سيعهد له بمنصب المستشار دون أدنى شك بشـرط تشكيل مثل هذه الحكومة•

في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٢ قدم هرمان غورنغ للرئيس فون هندنبورغ

الاجابة التحريرية التي كتبها له ادولف هتلر واعتذر بها عن تكليف الرئيس له لأنه ــ كما زعم ــ يشعر بتعذر تأليف الحكومة الائتلافية . عندئذ تحول الرئيس لمفاتحة الدكتور كاس فأكد هذا للرئيس في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٣٢ بأن هتلر لم يباحثه قط في مسألة تشكيل حكومة ائتلافية . لكنه اعتذر في اليوم التالي واعتذر معه هوغنبرغ عن تشكيل الحكومة الجديدة . وكان النازيون قد رفضوا المشاركة في اية حكومة ائتلافية معهما.

وهكذا ثبت للرئيس فون هندنبورغ تعذر تشكيل حكومة ائتلافية من الاحزاب التي تشكل اغلبية برلمانية . وفي مساء يوم ١ كانون الاول ١٩٣٢ استدعاني الرئيس انا ووزير الدفاع فون شلايخر لاجراء مباحثات بشأن تشكيل الحكومة الجديدة . وتوجه لي الرئيس بالسؤال اولا عما يمكن عمله في الموقف الذي وصلنا اليه فأجبته:

« يجب ان نحاول استبعاد النازيين عن تحمل مسؤولية الحكم لأنهم رفضوا التعاون في هذا السبيل للمرة الثانية . كما أن هتلر سبق أن رفض أي ائتلاف مع الاحزاب الاخرى. ولو فرضنا بعد استبعاد هذين الاحتمالين اللجوء الى تكليف هتلر بتولي رئاسة وزارة رئاسية دون الزامه بأي تعاون مع الاحزاب الاخرى فسيبرز امامنا سؤال مهم هو ــ هل تغير الموقف منذ انتخابات ١٣ آب ١٩٣٢؟ فالثابت لدينا ان دجل هتلر واسفافه قد وضحا لابناء الشعب الالماني في الاشهر الاخيرة بكل جلاء لدرجة اثرت على حركته السياسية فهبطت نسبة مؤيديها وصارت تبعده عن احتمالات تولي السلطة. وعليه فانني والسيد فون شلايخر نعرض لمقام الرئيس بأن الاستمرار على اعلان حالة الطوارىء يعتبر من الامور المهمة جدا للبلاد في هذه الظروف. ذلك لأن دستور فايمار لا يتيح امكانية السيطرة على الموقف الراهن».

ثم انني اقترحت على الرئيس ابقاء حكومتي في سدة الحكم لكي تتاح لنا فرصة تنفيذ خطط الاصلاح الاقتصادي ومتابعة الخطوات التالية في مجال الاصلاح البرلماني لأن البرلمان الجديد لا يختلف من حيث الاساس عن التركيب الذي كان عليه البرلمان السابق . واذا كان هذا الاجراء غيرمقبول

فيجب حل البرلمان بعد فترة وجيزة لأن الحاجة للاصلاح البرلماني ملحة ولابد من اعادة النظر في اسس الانتخاب الشعبي. وهذا الاقتراح ينطوي على الغاء دستور فايمار.

ثم ان حراجة الموقف الداخلي تتطلب الابقاء على فرض حالة الطوارئ رغم ان هذه الحالة من شأنها اضعاف قوة الدستور. وان الذي الجأني الى اتباع هذا المسلك هو الشعور بالمسؤولية العظمى وفاء بقدسية اليمين الذي اقسمته. ولكن الذي يحدوني لسلوك فرض حالة الطوارئ هو السابقة التي أقدم عليها فون بسمارك عندما نشب نزاع بينه وبين برلمان بروسيا فلجأ للملك راجيا منح حكومته صلاحيات استثنائية لكي تمارس الحكم متجاوزة تحديدات الدستور . واكدت للرئيس فون هندنبورغ امكانية العودة للحياة البرلمانية الطبيعية بعد تنفيذ الاصلاحات الدستورية المقترحة.

ثم تكلم وزير الدفاع كورت فون شلايخر مؤكدا تعذر المضي في ممارسة الحكم في ظل الدستور مع وجود اغلبية برلمانية معارضة للحكومة وقال انه على استعداد لاحداث انشقاق في صفوف الحزب النازي لأنه متأكد من وجود ما لا يقل عن ٦٠ نائب نازي يتجمعون تحت زعامة غريغور شتراسر وان من السهل على فون شلايخر شق هذه المجموعة عن زعامة هتلر اذا ما استطعنا استمالة شتراسر وجماعته للمساهمة في الحكم مع الحزب الاشتراكي الديموقراطي والاحزاب الصغيرة الاخرى.

قاطعت كلام فون شلايخر قائلا انني اشك بامكانية شق الحزب النازي الذي يؤمن اعضاؤه بزعامة هتلر لحزبهم ولو ان فون شلايخر اكثر اتصالا مني بأوساط ذلك الحزب ولربما تتوفر لديه رؤية اوضح لعلاقة اعضائه فيما بينهم من الرؤية المتوفرة لدي.

ومع ان المرء قد يلجأ لتجربة مختلف الوسائل لمعالجة المعضلات التي تصادفه ألا ان اقتراح فون شلايخر كان ـ من حيث الاساس ـ منافيا لطبيعتي.

ولربما كان هذا الاقتراح وغيره من الخطط من الاسباب التي جعلت فون شلايخر يتولى المسؤولية ويكون على المحك بصورة مباشرة لكنني بقيت متشككا بامكانية نجاح فون شلايخر في خططه التي يميل فيها للخيال، كان الرئيس فون هندنبورغ ينصت الى اقوالنا بهدوئه المعهود بكل اهتمام وقد حدست بأنه في موقف دقيق لأنه يوشك على اتخاذ اصعب قرار في حياته الطويلة الحافلة ، ولذا فقد نهض من مجلسه دون ان يعلق بشيء على أي من مقترحينا واكتفى بالقول:

« لقد قررت قبول الحل الذي تقدم به السيد فون پاپن»

ثم التفت نحوي قائلا:

« ارجوك يا حضرة المستشار اجراء الاتصالات اللازمة فورا من اجل تشكيل حكومة جديدة، وارجو ان تستعجل بتقديم اسماء زملائك وفقا للمقترح الذي طرحته مع مراعاة المهمة التي كلفتك بها عند تشكيلك للحكومة الحالية» ،

ونهضنا مستئذنين بالانصراف فقرأت على ملامح الفريق فون شلايخر أمارات الذهول لأن المشير العجوز لم يقبل بالمقترح الذي قدمه له والذي ينطوي — في نظره — على الكثير من التضحية ، وعندما اوشكنا على مغادرة موئل المشير التفت نحو فون شلايخر وقلت له:

« انني متفهم تماما لرغبتك يا عزيزي شلايخر في تشكيل حكومة جديدة الآن لاسيما وانك بذلت جهودا كبيرة لتحقيق هذا الغرض في سعيك العلني ونشاطك المكتوم من وراء الستار لكنني كنت دائم التشكك بامكانية نجاح خططك ، ألم يكن من الافضل لنا بكثير لو حاولنا حل المعضلة القائمة بالتوصل الى اصلاح النظام البرلماني بدلا عن اجراء مناورات سياسية عديمة الجدوى؟ فقد سبق لي أن وعدت الشعب الالماني قبل ستة أشهر بايجاد حل جذري لهذه المعضلة ، بينما قمنا نحن الاثنين باستغلال هيبة المشير فون هندنبورغ ، والآن الا يمكننا استغلال هيبة المشير —التي تمثل آخر

الاوراق الرابحة لهذه الدولة ــ من أجل ايجاد حل جذري للمعضلة المحيرة لنا .

انني على أتم استعداد حتى في يومنا هذا للتخلي لك عن منصب المستشار اذا تعهدت لرئيس الجمهورية بتنفيذ الغرض الذي سبق ان حدده لي. وأرى أن من الافضل اتصالك به شخصيا لاسيما وانك عرضت له آنفا استعدادك لتشكيل حكومة جديدة. ثم انني اجد من الجهة الاخرى ان من المفيد تماما بقائي في سدة الحكم لبضعة اشهر أخرى اتمكن خلالها من تنفيذ خطة الاصلاح البرلماني. وعندما استقيل بعدئذ ستتولى انت الحكم دون أن تصادفك المشاكل التي تعرض لها من سبقك ويمكنك الانطلاق من بداية افضل بكثير. وأؤكد لك قبل كل شيء ان معالجتنا لهذا الموضوع ينبغي ألا تتخذ الصفة الشخصية. فالوطن باق والاشخاص زائلون وما علينا ألا ان نشرع باجراء مشاوراتنا».

أصغى لي فون شلايخر بجماع فؤاده وهو لا يكاد يصدق ما اعرضه عليه. فالمصارحة التي درجنا على التحلي بها في علاقاتنا تلاشت من جانبه في الاسابيع الاخيرة وحل محلها البرود التام لدرجة وصلت بنا الى القطيعة التامة عندما اضطرني على تحذيره من مغبة اللعب بالنار فقلت له العبارة التأريخية المشهورة:

«لقد سلكت طريقا وعرا ايها الراهب الصغير[1]»

وكانت هذه العبارة الاعلان السافر للقطيعة بيننا.

رجعت بعد هذه المحاورة الجادة الى دار المستشارية . ولما استعرضت الاحداث في خاطري خيل الي ان فون شلايخر وجد نفسه بموقف جديد لم يتوقعه لاسيما وانه سبق ان ذكر لي في ١٠ أيلول ١٩٣٢ بأنه لم يسبق ان عرض على المشير فون هندنبورغ وجود أي خطر يحيق بحكومتنا. وتساءلت مع نفسي:

---

(١) قيلت هذه العبارة للراهب مارتن لوثر الذي اسس الكنيسة البروتستانتية وتعرض لمعارضة الكنيسة الكاثوليكية .

ــ المترجم ــ

« لماذا لم يصارحني ؟ »

لقد كانت علاقاتنا الشخصية متينة لدرجة لم يساورني معها أي شك تجاهه. ثم توصلت الى نتيجة مهمة هي انه كان يقصد جعل حكومتي بموقف دقيق.

وقررت اجراء مباحثات شاملة مع زملائي اعضاء الحكومة فوراً وبخاصة الذين لي معهم علاقات شخصية وطيدة منهم . وسرعان ما طلبت السيد غيورتنر والبارون فون التس وعرضت عليهما مباحثاتي مع السيد الرئيس والمهمة التي كلفني بها. ولما سألتهما عن مدى امكانية تعاونهما معي في النهوض بهذه المهمة العسيرة ومشاركتهما في تحمل المسؤولية أبديا استعدادهما للتعاون الى اقصى الحدود بنفس روح الصداقة الحميمة التي تربطني بهما . وكان من رأيهما ادارة دفة الحكم في أول الأمر في ظل حالة الطوارئ وكان البارون فون التس - وهو رجل القانون الحصيف ذي التجارب الغنية - اشد الاثنين تحمسا لصحة رأيي وتأييدا له.

ألا انهما صارحاني بأن الوزير فون شلايخر اكثر من اتصالاته مع بقية اعضاء الوزارة ولدرجة ملحوظة خلال الاسبوعين الماضيين. وقالا ان رأيه يتضمن احتمال نشوب حرب اهلية في حالة تمسك الرئيس فون هندنبورغ ببقائي في الحكم رغم توتر الموقف الداخلي وانه يرى والحالة هذه اضطرار الجيش الالماني على التدخل للدفاع عن استقلال البلاد. وبذا سيستخدم الجيش الالماني لغير المهمة التي وجد من أجلها. ومما لا شك فيه ان عددا كبيرا من قادة الجيش الالماني يولون الحزب النازي عواطفهم بشكل سافر وهذا هو اشد ما يخشاه فون شلايخر لأنه لا يريد ان يجعل الجيش الالماني بموقف حرج كهذا.

وأكد لي صديقاي بهذه المناسبة ان زميلهما في حكومتي كورت فون شلايخر يرنو بكل ما اوتي من قوة لتولي رئاسة الحكومة الجديدة . الا انني خالفتهما بهذا الرأي وقلت لهما انه ابدى استعداده للتعاون معي امام الرئيس فون هندنبورغ ولم يذكر ادنى تحفظ او اعتراض على محافظة الجيش

الالماني ــ عند الحاجة ــ على الامن والنظام في حالة اعلان حالة الطواريء. ولما ودعتهما طلبت عقد اجتماع لاعضاء الحكومة في دار المستشارية بالساعة التاسعة من صباح يوم ٢ كانون الاول ١٩٣٢.

عرضت في الاجتماع تقريرا عن محادثاتي مع الرئيس في الليلة الماضية والمهمة الجديدة التي كلفني بها وقلت لأعضاء الحكومة ان مهمتي تنطوي على النضال ضد الحزب النازي وليس لأحد منهم أن يتنصل من دوره في تنفيذ هذه المهمة على الرغم من ان السيدان غورتنر وفون التس اخبراني في الليلة الماضية بأن السيد فون شلايخر أجرى اتصالات متعددة مع بعض الزملاء دون ان يخبرني بتلك الاتصالات . ولكي تتوضح هذه المسألة لنا جميعا فانني ارجو السيد فون شلايخر ان يبين لنا الان مدى استعداده لتحمل مسؤولياته بصفته وزير الدفاع.

نهض السيد فون شلايخر وأخذ يوضح كيفية تكليفي من قبل السيد الرئيس بمهمة تشكيل الحكومة الجديدة وقال ان هذه المهمة يتعذر تنفيذها لأن ذلك ينطوي على دمار سيحيق بالمانيا لا سيما وان قوات الشرطة والجيش ليست بقادرة في الحال الراهن على حماية خطوط المواصلات الحيوية لالمانيا في حالة حصول اضراب عام او السيطرة على الموقف فيما لو نشبت حرب أهلية . وكانت هيئة الاركان العامة قد كلفت الرائد الركن أوت باجراء لعبة حرب تمخضت عن الحقيقة المذكورة ويمكن استدعاء الضابط المذكور أمام اعضاء الحكومة لشرح التفاصيل التي توصل لها . ثم اضاف فون شلايخر قائلا بأنه بصفته وزير الدفاع يرى ان من واجبه ابعاد الجيش الالماني عن الانغماس بالمشاكل الداخلية وابقاء هذه الأداة بمنأى عن الحروب الاهلية لأنها لم توجد اصلا لهذا الغرض.

خالفت فون شلايخر برأيه هذا وقلت له على الرغم من ان الواضح لنا جميعا بأن مهمة الجيش الاساسية هي الدفاع عن الوطن ازاء أي عدوان خارجي الا انني اخالف السيد فون شلايخر برأيه المتضمن ابقاء الجيش الالماني بمنأى عن الصراعات الداخلية اذا ما تهدد النظام بحرب أهلية ماحقة

في الوقت الذي أيد به عدم كفاية الشرطة للسيطرة على الموقف وحفظ النظام. وعليه فانني أرجو السيد فون شلايخر استقدام الرائد الركن اوت لكي يقدم تقريره عن نتائج لعبة الحرب التي أجرتها هيئة الاركان العامة فيسمعه اعضاء مجلس الوزراء.

لقد كتب الرائد الركن اوت (الذي صار فيما بعد سفير المانيا لدى اليابان) فيما بعد تقريرا عن مهمته التي استدعيناه فيها الى دار المستشارية ونشره بالصحف يوم ١٥ كانون الاول ١٩٤٧ وقال فيه:

« نتيجة لتدهور الموقف الداخلي في المانيا فقد رأت هيئة الاركان العامة مدى امكانية تدخل الجيش الالماني لوضع حد للارهاب المتزايد مما يوجب قمع المتطرفين اليمينيين واليساريين على حد سواء.

وقد كلفت بصفتي مدير القسم السياسي بوزارة الدفاع بمهمة اجراء دراسة تتخذ شكل لعبة الحرب للتأكد من مدى قدرة الجيش الالماني في المساهمة بالقضاء على أية فعاليات ارهابية قد تسود البلاد . وأجريت لعبة الحرب المذكورة في تشرين الثاني ١٩٣٢ .

ساهم في لعبة الحرب المذكورة ممثلون من جميع مؤسسات الدولة المهمة. واستمرت الدراسة ثلاثة ايام متواصلة وتم التحري عن المرافق الحيوية في جميع ارجاء المانيا والاجراءات الضرورية لحمايتها فتوصلنا الى نتيجة واضحة هي عدم كفاية القوات المتيسرة لحماية تلك المرافق.

وكان طول خط الحدود الالمانية الجديدة في بروسيا الشرقية ـ التي فصلت عن الوطن الأم بممر دانزك ـ وتوتر الموقف مع بولندا الى درجة خطيرة من الأسباب الأولى التي أدت الى عدم كفاية القوات الالمانية المتيسرة. حيث لم تتيسر لنا في بروسيا الشرقية كلها سوى فرقة واحدة مطلوب منها حماية جزء من السكان الى جانب قيامها بالدفاع عن الحدود الطويلة التي تحيط بذلك الاقليم من ثلاث جهات. واذا اردنا ارسال اية تعزيزات قوية لهذه الفرقة فلابد ان تكون من صفوف الحزب النازي المنظم بشكل

جيد في اوساط شباب بروسيا الشرقية، وهذا معناه تعذر استخدام تلك القوة في مقاومة الحزب النازي، فالفرقة مكلفة بواجبين أولهما حماية الحدود ازاء التجاوزات البولندية وثانيهما الحفاظ على الامن الداخلي مع التأكيد بعدم امكانية ارسال أية تعزيزات اضافية للقوة المدافعة عن بروسيا الشرقية من الوطن الأم.

أما في منطقة هامبورغ فكان علينا ان نأخذ في حساباتنا امكانية حصول اضراب عام يشل العمل في الميناء، وهذا من الامور الخطيرة التي تؤثر على ارتباط المانيا البحري بالعالم وحاجتها للمواد الغذائية الضرورية بينما كانت قوات الشرطة والجيش والاسطول غير كافية ابدا للتصدي لهذا الاضراب، وقد ذكر مدير شرطة المدينة انه يفتقر للمعدات الحديثة الضرورية لمكافحة الاضراب كما ان اغلب المتطوعين لمقاومة الاضراب هم من انصار الحزب النازي وهذه الحقيقة تفقده الشعور بالاطمئنان.

وفي اقليم الراين – الروهر كانت امامنا ثلاث معضلات تتعلق بصناعة المناجم والصناعات الثقيلة وترتيبات النقل النهري . وكان الموقف السائد في ذلك الاقليم في غاية الحراجة لأن أي استخدام للقوات المسلحة لم يكن مسموحا في المنطقة المنزوعة السلاح حتى ولو كان ذلك في حالات طارئة وتقتصر معالجة الشغب على استخدام قوات الشرطة التي سبق ان أثبتت عجزها في اكثر من مناسبة عندما استخدمت لمقاومة بعض النشاطات الارهابية السياسية التي نشبت في تلك المنطقة .

لقد توصلنا الى نفس النتائج عند مناقشة امكانية السيطرة على الموقف في بقية ارجاء المانيا باستخدام القوة واصبح من الثابت لدينا عدم توفر أية قوات احتياطية لمعالجة المواقف الطارئة في اية منطقة من المانيا.

بعد تكامل هذه الدراسة قمت بعرضها شخصيا على وزير الدفاع حيث اوضحت له نتائج الدراسة واخبرته بأننا توصلنا الى حقيقة واضحة تتلخص

بتعذر تصدي القوات المسلحة الالمانية للعناصر المسلحة من الحزبين النازي والشيوعي والحفاظ على امن الحدود في الوقت نفسه. وخلصت الى الاقتراح على الوزير بتقديم النصح للحكومة كي تتجنب فرض حالة الطواريء العسكرية».

ومن مطالعة هذه الحقيقة يتبين مدى الحيف الذي اصاب المانيا نتيجة لتطبيق معاهدة فرساي بحيث بات من المتعذر حفظ الامن والنظام داخل الوطن لعدم توفر القوات الكافية.

أصيب اعضاء الحكومة بخيبة امل لدى سماعهم لتقرير الرائد الركن اوت. فنهضت من مجلسي وقلت لهم ان هذه الدراسة قد جعلت الموقف بصورة جديدة وأجد ان من واجبي اخبار السيد رئيس الجمهورية بحقيقة الموقف الراهن. لاسيما وان السيد فون شلايخر لم يتطرق امام الرئيس ليلة البارحة الى هذه الحقيقة المهمة.

قمت بزيارة السيد الرئيس واخبرته بكل ما جرى في الليلة الماضية وفي اجتماع مجلس الوزراء. وسألته عما اذا كان لا يزال مصرا على تكليفي بمهمة تشكيل الحكومة الجديدة أم لا وذلك على ضوء تطورات الموقف . لاسيما وانني لا ازال أرى ضرورة استخدام القوات العسكرية للتصدي للنازيين والشيوعيين على الرغم من اعتقادي بعدم امتثال نسبة كبيرة من العمال لنداءات الاضراب العام التي يمكن ان تكون مجرد وسيلة ضغط على الحكومة ليس الا . حيث ثبت لنا في احداث ٢٠ تموز ١٩٣٢ عدم لجوء نقابات العمال لممارسة الاضراب. ولا ارى ابدا وجود أسباب تدعو لنشوب حرب أهلية لأننا وفرنا الخبز والعمل لملايين العمال العاطلين.

وعليه فانني ارى ــ بعد تنصل السيد فون شلايخر من مسؤولياته وتعذره بعدم كفاية الجيش لحماية الوضع السائد في المانيا ــ ان على الرئيس فون هندنبورغ اتخاذ قراره باتباع احد مسلكين فاما ان يسمح باقالة الوزير فون شلايخر ويمنحني صلاحية انتخاب قائد آخر يتمتع بثقة الرئيس ويلتزم بالحفاظ على الامن والنظام. أو ان يقبل استقالتي ويعين السيد فون شلايخر

بمنصب المستشار.

انصت الرئيس فون هندنبورغ لما قلته بكل هدوء ولم يعلق على كلامي أو يتطرق لما سبق ان قاله في اليوم السابق وانما نهض من مجلسه وقال لي بصوته المتميز الأجش :

« انك ستضطرني على تغيير رأيي يا عزيزي پاپن . ولكنني اصبحت شيخا كبيرا بحيث يتعذر علي تحمل مسؤولية حرب اهلية في آخر ايامي. ولذا يتحتم علينا ان نسأل الله القدير ان يسدد خطى السيد فون شلايخر عندما يحاول تجربة حظه في هذا المضمار ».

قال هذا وانهمرت من عينيه دمعتان كبيرتان على وجنتيه. ولما صافحني الرجل الكبير مودعا كان عملي معه قد وصل الى نهايته. وايقنت مدى التقدير الذي اولانيه بعد ان توثقت علاقاتنا بشكل رصين خلال الاشهر الستة الاخيرة من عهد وزارتي عندما وصلتني منه بعد ساعات قلائل صورته موشحة باهداء رائع قال فيه:

« كان لي رفيق [٢]... »

وفي ٣ كانون الأول ١٩٣٢ وصلتني رسالة من الرئيس مكتوبة بخط يده جاء فيها :

« كان لطلبكم التنحي عن منصب مستشار المانيا والحاكم العام لاقليم بروسيا أثرا ممضا في نفسي.

وعلى الرغم من وطأة طلبكم على قلبي فانني أقدر الاسباب الشخصية التي حدت بكم للتنحي عن مهمتكم. ويطيب لي في هذا المقام ان أعرب لشخصكم عن ثقتي واحتراماتي وسأبقى محافظا على تقديري لجهودكم ولابد لي من الاشادة بفعالياتكم التي استمرت مع الأسف لمدة ستة أشهر فقط كمستشار لالمانيا والحاكم العام لاقليم بروسيا لانني لمست فيكم حبا لتحمل

---

(٢) هذا مطلع نشيد عسكري الماني مشهور بمجد الشهداء .
ـ المترجم ـ

المسؤولية المنطوي على التفاني في حب الوطن وسوف لن انسى أيام اشتغالنا معا قط • ويطيب لي أن أشكركم باسم المانيا وبأسمي شخصيا الشكر الجزيل على مجهوداتكم الثمينة خلال الاشهر العسيرة التي مر بها الوطن •

وأخيرا ارجو لكم احلى الاماني واحتفظ لكم بأعمق مشاعر الزمالة وتقبلوا تحياتي•

فون هندنبورغ »

ولكنني لا استطيع هنا وصف الفرحة التي عمت اوساط النازيين واحزاب الوسط واليسار بسبب استقالة حكومتي• الا ان صحافة احزاب المحافظين والاحرار اشادت بفعاليات وزارتي في مختلف المجالات•

ولما اجتمع مجلس الوزراء للوداع شكرت افراد الحكومة فردا فردا على تعاونهم الرائع ورجوتهم ايلاء خلفي السيد فون شلايخر نفس الاخلاص الذي لمسته منهم ابان اشتغالنا سوية في سبيل رفعة الوطن وارتقائه• ثم تكلم المستشار الجديد فون شلايخر ورجاني قبول منصب سفير المانيا بباريس• وكان لهذا القرار مسبباته لأنني طالما سعيت لتحسين العلاقات الالمانية الفرنسية• ولما عرضت الموضوع على رئيس الجمهورية اعرب عن ترحيبه برؤيتي سفيرا لبلادي لدى فرنسا لكنه آثر ابقائي على مقربة منه في هذه المرحلة السياسية الحرجة• لأنه كان شديد الرغبة في سماع مشورتي بين آونة وأخرى وبخاصة عند تأزم الموقف•

وهكذا لم يكن بمقدوري تجاهل رغبة الرئيس الجليل فأضطررت على رفض العرض الذي تقدم به المستشار الجديد مع ادراكي لمدى تأثير هذا الرفض على مستقبلي السياسي•

والآن عندما اعود بذاكرتي للحظات الحاسمة من حياتي اتهيب من مدى الخطورة التي تعرضت لها بحكم بقائي بالميدان السياسي في فترة انقلاب

روهم واشتغالي بمنصب سفير المانيا لدى النمسا في الفترة التي سبقت اندماجها بألمانيا ثم اشتغالي بمنصب السفير لدى تركيا ابان الحرب العالمية الثانية فأحمد الله على توفيقي في خدمة وطني وعدم تفريطي بالكلمة التي اعطيتها للرئيس فون هندنبورغ يوم ٢ كانون الاول ١٩٣٢ وتمسكي بحب تحمل المسؤولية حتى بعد وفاة الرئيس فون هندنبورغ.

الفصل الخامس عشر

أهتلر أم فون شلايخر



حكومة فون شلايخر . الافطار مع السيد فون شرويغر . الانتخاب الشفوي . تمويل الحزب النازي . اضطراب فون شلايخر . فشل خطة الاعتماد على شتراسر . آخر مناورة لفون شلايخر . قرار يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٢ . خواطر عن فون شلايخر .

تضمن بيان تأليف حكومة فون شلايخر الاشـارة الى تشغيل العمال العاطلين وتوفير الخبز وصار من الواضح تمـاما انه كان يبغي من بيـانه احداث صدع جديد في علاقات الاحزاب ولم يشر بيان الحكومة الجديدة الى أي اصلاح. كما انه اشار لي بكلمات ودية قليلة للتدليل على حسن علاقاتنا ولم يحاول ابدا القاء أي ضوء على حقيقة الصراع المكتوم والملابسات التي اوصلته الى منصب المستشار.

وقد لامني الكثيرون من اصدقائي المقربين واتهموني بالتخلي عن عجلة قيادة الحكومة طواعية في تلك المرحلة الحرجة. ولربما كان لهم الحق فيذلك

اللوم. ذلك لأن علاقاتي الشخصية مع فون شلايخر اعتراها شيء من البرود الا أنها لم تتبدل . فقد قدرت حرصه الشديد على تولي مسؤولية الحكم بنفسه وتجربة قدراته بعد ان سعى لهذا الهدف سنوات طويلة.

في ١٦ كانون الاول ١٩٣٢ دعيت ضيف شرف في «نادي السادة» بمناسبة الاجتماع السنوي لاعضاء ذلك النادي البالغ عددهم زهاء ثلاثمائة عضو بالاضافة لضيوفهم. وقد تحدثت في النادي عن فعاليات حكومتي خلال الاشهر الستة التي مارست بها مسؤولياتها والموقف السياسي العام وضرورة اجراء الاصلاحات الدستورية المقترحة . كما بينت مدى اهمية التفاهم الالماني الفرنسي من اجل اقرار السلام المنشود في اوربا.

حياني في تلك الامسية عدد كبير من الحضور وتحدثوا الي في شتى المسائل السياسية احاديث موجزة وكان بين الذين تحدثوا معي المصرفي الكولوني[1] المشهور البارون فون شرويدر. حيث وقفنا بضع دقائق على انفراد وتناقشنا بأمور ذات طبيعة عامة . ويحضرني مما قاله الرجل ان من الضروري بل من الواجب والممكن جدا التوصل الى تفاهم مع النازيين.

وزعم تعذر ممارسة اية حكومة لمسؤولياتها ما لم تتعاون مع تلك الحركة. ثم اقترح علي اجراء محادثات ذات صفة شخصية مع هتلر . فأكدت لشرويدر بأنني والمستشار فون شلايخر جعلنا الاتصال مع هتلر من الاهداف التي سعينا كثيرا لتحقيقها في سبيل التوصل الى تعاون مع حركته واذا يعتقد بأن ذلك الاتصال مجديا فلماذا لا نجرب هذه المحاولة مرة أخرى ؟

وبذلك انتهت محادثتي مع فون شرويدر . ولو كان الرجل قد طرح علي أمرا جديدا يستحق الاهتمام لكنت اخبرت به المستشار فون شلايخر قبل مغادرتي لبرلين . الا انني سافرت الى السار لمشاركة أسرتي في اعياد الميلاد دون ان اكترث للمحادثات الكثيرة التي أجريتها في امسية «نادي السادة» الا انني لم البث ان تلقيت نداء هاتفيا من السيد فون شرويدر في

---

(١) نسبة الى مدينة كولن . ـ المترجم ـ

٢٨ كانون الاول ١٩٣٢ يرجوني اخباره عن مدى امكانية اجراء مباحثات مع هتلر، فأجبته بأنني عازم على السفر الى برلين يوم ٤ كانون الثاني ١٩٣٣ وسأمر بكولن لكي اجري معه اتصالا عاجلا قبل اللقاء مع هتلر.

ولم يدر بخلدي بطبيعة الحال ان هذا اللقاء العابر صار فيما بعد من دلائل الاتهام الخطيرة التي عرضت حياتي للخطر في محاكمات نورمبرغ عندما زعمت هيئة الادعاء العام بأنني ساعدت هتلر في ذلك اللقاء على التسلط وهددت أمن العالم . وكان هذا الزعم باطلا وركيكاً لأننا نعلم جميعا بأن هتلر أصر منذ عام ١٩٣٢ على تولي منصب المستشار ولم يقبل بما دون ذلك.

كان للنازيين ١٩٥ مقعدا في البرلمان وقد حافظوا في عهد فون شلايخر على قوتهم السياسية المتنامية . وكنت على ثقة بأن أمل المستشار فون شلايخر في شق ذلك الحزب على نفسه كان مجرد اوهام. وحتى لو نجح في تحقيق تلك الامنية لما حصل في أحسن الاحوال الا على اغلبية ضئيلة لا تكفي لتحقيق الاصلاحات المنشودة.

وقد انصبت جهودي ومن بعدي جهود فون شلايخر للتعاون مع النازيين من أجل منع تنامي قوة الشيوعيين . وفي أواخر كانون الأول ١٩٣٢ تمكن فون شلايخر من احداث فتنة في صفوف الحزب النازي عندما انفصل الاخوان شتراسر عن هتلر ولكن الاخوين شتراسر اقدما على فعلتهما لوحدهما ولم ينضم اليهما أي عضو آخر من اعضاء الحزب واثبت هتلر قدرته المعروفة على التنظيم وسيطرته على اتباعه فأعاد تنظيم صفوف حركته المتسمة بالضبط الصارم. وكانت الحالة المالية للحزب النازي مضطربة ويمكن اعتبارها سيئة بسبب التكاليف الباهظة لانتخابات تشرين الثاني ١٩٣٢ ولم يثبت بالتحديد مصدر المعونات المالية التي تسلمها ذلك الحزب رغم الادعاءات الكثيرة المتضاربة بهذا الشأن. والآن لنعد للمقابلة التي هددت حياتي بالخطر.

فقد وصلت الى دار السيد فون شرويدر وقت الظهيرة واعترتني الدهشة عندما نزلت من سيارة الاجرة ووجدت غريبا يتسكع قرب باب الدار ــ واضح انه كان من رجال الشرطة السرية ــ والتقط لي صورة يثبت بها دخولي بيت السيد فون شرويدر . ولما دخلت الى هناك حييت هتلر وكان معه كل من هيس وهملر وكيبلر. وكانت بداية المناقشة عاصفة بعض الشيء لأن هتلر استهل حديثه معي بالعتاب المرير وتدرج به للغضب مدعيا بأنني كنت مناوئا لحركته ابان عهدي بالحكم. فأجبته بأن ما مضى مضى واننا بشأن المستقبل. وانني لم اكن لاجيء الى الاجتماع به لولا ان اكد لي السيد فون شرويدر بأن لهتلر الرغبة للمناقشة معي بشأن الحكومة المزمع تشكيلهاء وبعد ان اسهب هتلر في وصف معاناته من مناوأة حكومتي لحركته حاولت ان اوضح له بأن الواضح لدي ان حركته وصلت لتوها الى اوج الارتقاء الذي بدت عليه بوادر فتور الشعب الالماني الذي لا يمكن أن يستمر على تأييد اية حركة لديها آمال عريضة ولكنها تحجم عن تنفيذها ويعزف زعمائها عن تحمل مسؤولية السلطة . وان بمقدوره الآن ــ قبل فوات الاوان ــ المساهمة بالحكم وتولي منصب نائب المستشار مع فون شلايخر . ثم تعهدت له باستعدادي لاسناده والتوسط لدى فون شلايخر لتحقيق هذه الخطة . وكانت فكرتي تتضمن عرضا آخر ــ في حالة رفض هتلر لقبول أي منصب دون منصب المستشار ــ بترشيح أحد اعوانه ليحل محله بقبول منصب نائب المستشار لكي يمهد له تولي منصب المستشار وهذا هو نفس المقترح الذي سبق ان عرضته عليه في مناسبة سابقة.

عندما وصلت الى هذه النقطة رجاني المضيف السيد فون شرويدر الاكتفاء بالحديث الى هذا الحد ودعانا أنا وهتلر لتناول طعام الفطور في منزله صباح اليوم التالي حيث ستتاح لكلينا فرصة التكلم مع صاحبه على انفراد بكل صراحة. وحصلت على انطباع بأن هتلر سره هذا الاقتراح لأنه كان على ثقة من انني احمل فكرة وجوب اشتراكه في الحكم.

وقد زعم الكثيرون فيما بعد بأنني ساهمت في ذلك الاجتماع بتخليص

الحزب النازي من ازمته المالية واقول هنا للحقيقة انني لم أساهم بالتبرع ولم احض أحداً على التبرع بفلس واحد لهتلر او للحزب النازي او لأيةمنظمة من منظماته.

لم أعد بعد اجتماعي مع هتلر في بيت فون شرويدر الى برلين رأساً وانما آثرت البقاء بضعة أيام أخرى في ديوسلدورف أزور فيها أمي . وحللت في تلك الفترة بفندق (اكسلسيور) حيث كتبت رسالة شخصية للمستشار فون شلايخر ضمنتها كل تفاصيل مقابلتي لهتلر . وكان يفترض وصول تلك الرسالة للمستشار صباح يوم ٥ كانون الثاني ١٩٣٣ الا انني اعترتني الدهشة عندما طلعت صحف الصباح في اليوم المذكور تحمل عناوين كبيرة تتضمن الوصف الشامل للقائي السري مع هتلر في منزل فون شرويدر معززة بصورتي وانا الج باب الدار وتتهمني بخيانة فون شلايخر والتآمر على حكومته . فأستشطت غضبا واردت ايضاح الحقيقة واتصلت بهتلر لكي يوضح الواقعة من جانبه ايضاء

تبين فيما بعد ان السبب الذي ادى الى هذه القضية كان مؤسفاً جداً. إذ لم يخطر على بالي مطلقاً في تلك الفترة ان فون شلايخر كان يتشكك في تصرفاتي ويسيء بي الظنون . فهو يعلم حق العلم بمدى العلاقة الوطيدة التي كانت تربطني برئيس الجمهورية. وهو يعلم ايضا مدى الغم الذي يصيب الرئيس فون هندنبورغ فيما لو انفصلت عنه. ويبدو ان فون شلايخر لم يرتح ابدا لبقائي قرب الرئيس . ولكي يكون على بينة من تحركاتي كلها فقد وضع هاتفي تحت المراقبة وهكذا علم بمحادثتي يوم ٤ كانون الثاني ١٩٣٣ وأرسل وكيلا سريا يلتقط صورتي على باب دار فون شرويدر .

ولعل لفون شلايخر بعض الحق في مراقبتي لو انه بقي في جهل بشأن تصرفاتي . لكن الظاهر انه تسرع بعض الشيء ولو تريث بضع ساعات فقط قبل ان يوجه لي سهامه المسمومة لوصلته رسالتي التي ضمنتها كل التفاصيل التي كان يتعطش لسماعها . ثم انني لا أزال غير مدرك للاسباب التي حدت بفون شلايخر للتنكر لعلاقاتنا الشخصية الحميمة التي استمرت اعواما طويلة.

ولو وجد مني ما يستنكره ويعتبره مخلا بصداقتنا فكيف ينتظر مني أن ازيح هتلر عن طريقه ؟

ما ان وصلت الى برلين يوم ٩ كانون الثاني ١٩٣٣ الا وتوجهت لمقابلة المستشار فون شلايخر حيث حاولت خلال الساعة والنصف التي ناقشته فيها محاولا ازالة سوء فهمه لحقيقة موقفي. وتحضرني عبارة كان قد فاه بها في تلك المناقشة وأثبتتها زوجتي في مذكراتها حيث قال لي آنذاك :

« سيكون اليوم الذي افقد به صداقتك من اسوأ الايام السوداء في حياتي كلها ».

وعلى الرغم من كل المزاعم التي ادعتها الصحافة فأنني اجزم هنا بأن اجتماع يوم ٤ كانون الثاني ١٩٣٣ لا علاقة له مطلقا بالوزارة التي تم تشكيلها في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣.

والآن وقد غبرت سنين طويلة على تلك الاسابيع الحافلة من شهر كانون الثاني ١٩٣٣ التي تمخضت عن تشكيل الحكومة التي حددت مصير المانيا فانني عندما استعرض مفكرتي اليومية الاحظ للوهلة الاولى مدى حرص فون شلايخر على النيل من سمعتي والتعريض بشخصي في محاولة سافرة لاساءة علاقاتي مع الرئيس فون هندنبورغ باللجوء الى مختلف الوسائل التي تظهرني بمظهر الدساس المتآمر على الحكومة الشرعية القائمة آنذاك لكي يعزف الرئيس عن استقبالي ومشاورتي .

لقد تبينت لي هذه الحقيقة بعد أن كتبت رسالتي المؤرخة ٤ كانون الثاني ١٩٣٣ للمستشار من مدينة كولن . ولما صارحت الرئيس بأول مقابلة معه بهذا الهاجس أجابني قائلا :

« لقد اتجه فكري الى هذا التصور ايضا. حيث انني لا اتصور ابدا صدق هذه المزاعم ومن الطبيعي ان الوقيعة لا يمكن أن تؤثر أدنى تأثير على علاقاتنا».

١١ كانون الثاني ١٩٣٣ — وصل هتلر الى برلين الا انه لم يقابلني ولم

يقابل السيد هوغنبرغ زعيم الحزب الوطني كما انه لم يقـابل المستشار فون شلايخر . أدعت الصحافة ترشـيح غريغور شتراسـر نائب للمستشار تفسيرا لمقابلته للرئيس فون هندنبورغ. ويبدو ان التفاهم بين المستشار فون شلايخر وغريغور شتراسر بات من الامور العسيرة . ويرى قادة الحزب الوطني الالماني ضرورة منح فون شلايخر فرصة كافية لتجربة حظه في ممارسة الحكم. وهم يرشحون زعيمهم هوغنبرغ لتولي منصب وزير الاقتصاد في حكومة فون شلايخر لكي يسيطر على الصناعة.

١٢ كانون الثاني ١٩٣٣ ـ أصبحت علاقات فون شلايخر مهددة بعـد ان اتهم (عصبة الدولة) يوم أمس بمناوأتها للحكومة مما اغضب الرئيس فون هندنبورغ وجعل الحكومة معرضة للاستقالة . والعجيب ان المستشار لم يكن لديه أي مبرر لاثارة هذه العصبة المسيطرة على الزراعة في المانيا ضد حكومته. حيث لم توجه لحكومتي مثل هذه الكلمات العنيفة التي وجهت لحكومة فون شلايخر.

١٣ كانون الثاني ١٩٣٣ ـ ربما يكون بامكان الحكومة التوصل الى تسوية مع هوغنبرغ بشأن المسائل الزراعيــة. فقد حــاول المستشار فون شلايخر اجراء تعديل وزاري يدخل به هوغنبرغ وزيرا للاقتصاد.

(لم تعلن الحكومة هذه المحــاولة الا في ٢٥ كانون الثــاني ١٩٣٣) ويحتمل ان يقوم فون شلايخر بمحاولة اخرى لاستمالة غريغور شتراسر وزمرته.

١٤ كانون الثاني ١٩٣٣ ـ استقبل رئيس الجمهورية الدكتور هوغنبرغ وواضح انه يبغي بذلك اجراء تعديل وزاري لكي تضم الوزارة اعضاء من احزاب الوسط واليمين.

كتبت صحيفة حزب الوسط هذا اليوم متنبئة حصول تعديل وزاري ليكون غريغور شتراسر نائبا للمستشار واحتمال استيزار الدكتور هوغنبرغ وأحد اعضاء حزب الوسط.

١٥ كانون الثاني ١٩٣٣ ــ تشير الدلائل الى ارتفاع أسهم الحزب النازي بصورة مضطردة فبعد الاندحار الذي شهده الحزب في انتخابات تشرين الثاني ١٩٣٢ تتزايد نقمة مختلف اوساط الحزب المذكور على شعار هتلر الذي رفعه والذي مفاده (كل شيء أو لا شيء) الا ان هتلر تمكن من التغلب على الانشقاق الذي حاول شتراسر احداثه في صفوف الحزب النازي.

ولكن يبدو ان اعوان شتراسر أصيبوا بخيبة امل وهذا سيتجلى بكل وضوح في الانتخابات المقبلة . ومن البديهي ان هتلر استخدم اقصى طاقاته للتغلب على هذه الازمة بينما لم يكن خصومه بمستوى جديته.

تمخضت الانتخابات الاولية عن نتائج مذهلة . فقد فاز النازيون بنسبة عالية بينما اندحرت احزاب اليمين وفقدت ثلث الاصوات التي سبق انحصلت عليها. وقد سبق لي في ١ كانون الاول ١٩٣٢ ان حذرت فون شلايخر من عدم تعليق آماله كلها على محاولة شق الحزب النازي . ــ والمؤسف ان صح ما توقعته ــ واما الآن فأتوقع ان تؤثر نتائج هذه الانتخابات على اقتصاد المانيا الى درجة ملحوظة لأنها ستزيد من التوتر في جميع ارجاء المانيا.

والآن فقد استفاق السيد فون شلايخر من أحلامه فحاول انقاذ حكومته من التهديد الجدي الذي صارت تتعرض له فصرح قائلا بأنه ربما سيلجأ ــ في حالة الضرورة ــ الى اعلان الاحكام العرفية.

١٦ كانون الثاني ١٩٣٣ ــ استقبل المستشار فون شلايخر صباح اليوم زعيم حزب الوسط القس الدكتور كاس . وواضح انه يبغي من هذه المقابلة تحسين علاقات الحكومة مع الاتحاد الزراعي. اما الصحافة فتشير الى احتمالات تشكيل جبهة تضم شتراسر وهوغنبرغ وشتيغرفالد . الا ان المؤكد هو فشل المستشار فون شلايخر في احداث الانشقاق الذي أراده للحزب النازي بانفصال شتراسر عنه.

١٧ كانون الثاني ١٩٣٣ ــ بعد ان حصلت قطيعة لا رجعة بعدها بين

هتلر وشتراسر يوم أمس فان هتلر أجرى محادثات مع هوغنبرغ وكانت الغاية من تلك المحادثات اجراء محاولة لاقامة جبهة معارضة او تشكيل حكومة مشتركة.

٢٠ كانون الثاني ١٩٣٣ ـ أجل المجلس اجتماعه المقرر في ٢٤كانون الثاني ١٩٣٣ الى ٣١ كانون الثاني ١٩٣٣ حيث يأمل البعض امكانية التوصل الى تسوية سياسية في ٢٧كانون الثاني١٩٣٣ أما النازيون فيأملون تأجيل النزاع في الوقت الحاضر. ولم تعد للحكومة تلك القوة التي تفرض بها وجودها. وترى الحكومة ان مناقشة القضايا السياسية ينبغي ان تتم بعد بحث موضوع الميزانية ويؤيدها في هذا الرأي الحزب الوطني الالماني بينما يرى حزب الوسط امكانية التأجيل لمدة اسبوع واحد فحسب.

والحالة السياسية السائدة باتت واضحة المعالم. فقد اعطى فون شلايخر جميع الفرص الممكنة لانشاء حكومة اغلبية الا انه راغب في ممارسة الحكم بخرق احكام الدستور.

كان الاحتفال الوحيد الذي حضرته في شهر كانون الثاني ١٩٣٣ هو الاحتفال بوضع الحجر الاساس لنصب (الخوذة الفولاذية) ببرلين ولم يشارك به هتلر لأنه كان مشغولا بتحشيد الالآف من اتباعه في ميدان الرياضة للتظاهر ضد غريمه غريغور شتراسر.

٢١ كانون الثاني ١٩٣٣ ـ تألبت الاحزاب اليوم على حكومة فون شلايخر بصورة سافرة وطالبت باستقالتها ولم يبق الى جانب الحكومة سوى حزب الوسط. (أعلن فون شلايخر بعدئذ في ١ شباط ١٩٣٣ بأنه توصل الى اتفاق مع الرئيس فون هندنبورغ على عدم تكليفي بتشكيل حكومة رئاسية ثانية لأنها لا يمكن ان تحوز على ثقة اكثر من ١٠٪ من ابناء الشعب) وهو يحاول الآن اللجوء لنفس الحل الذي اقدمت عليه آنفا بحل البرلمان.

٢٢ كانون الثاني ١٩٣٣ ـ صرح هرمان غورنغ اليوم في دريسدن بأن هتلر سوف لن يشترك بالحكومة مهما كانت الظروف. وان الحزب النازي يتابع منذ مدة طويلة تدهور موقف حكومة فون شلايخر وهو يدرك مواطن

ضعفها ولذا فهو يوجه اليها أشد النقد في مساء الأحد الماضي (١٨ كانون الثاني) ظهرت أولى نتائج التقائي مع هتلر يوم ٤ كانون الثاني ١٩٣٣ .

اذ اوفد لي هتلر رسولا سبق ان خدم معي ابان الحرب العالمية الاولى في تركيا هو السيد يواكيم فون ريبنتروب، راجيا اجراء محادثات مع هتلر في منزل فون ريبنتروب.

وقد سألت الرئيس فون هندنبورغ عما اذا كان يرى ثمة جدوى من الالتقاء بهتلر. وكان من رأي الرئيس فون هندنبورغ ان استمع في جميع الاحوال الى وجهات نظر هتلر لاسيما بعد ان ثبت عجز فون شلايخر. ولما كنت مدركا لمدى حراجة الموقف فقد رجوت الرئيس اصدار موافقته على قيامي بمقابلة هتلر وطلبت سماحه بمرافقة ولده الرائد اوسكار وامين سر الدولة الدكتور مايزنر لي في هذه المقابلة ابعادا للشبهات التي قد تثار ضدي نتيجة لهذا اللقاء. ومن البديهي أن لقائنا مع هتلر لابد ان يكون مخططا له في جميع مراحله.

التقيت في منزل فون ريبنتروب بمحلة داهلم ببرلين بكل من هتلر وفريك ثم التحق بهما في ساعة متأخرة من المساء هرمان غورنغ الذي وصل خصيصا من دريسدن . ولما سألني هتلر عن كيفية تصور الرئيس للموقف السياسي اجبته بأن رأيه بخصوص تولي هتلر منصب المستشار لم يتغير ابداء ولكنه قد يكون من رأيه ان الحزب النازي يمكن ان يساهم في هذه الحكومة او الحكومة الجديدة.

رفض هتلر المشاركة في حكومة فون شلايخر واكد بأن اشتراك حزبه في الحكومة لن يكون الا بوزارة يكون فيها المستشار . وكنا على ثقة منذ ١٣ آب ١٩٣٢ بأنه اصبح اقوى شخصية في حزبه دون منازع. وقد قال في هذا الاجتماع انه لا يؤيد قيام اية حكومة رئاسية على غرار حكومتي التي شكلتها في ١ حزيران ١٩٣٢ ثم اعاد هذا الرأي على مسامع كل من الرائد اوسكار فون هندنبورغ والدكتور مايزنر. ولما عاد نجل الرئيس في الهزيع الاخير من الليل الى منزله اعرب عن تأثره البالغ بشخصية هتلر.

ولقد اوضحت في ذلك الاجتماع عدم التزامي بترشيح هتلر لمنصب المستشار وأيدني في هذا الايضـاح كل من الدكتور مايزنر واوسكار فون هندنبورغ.

٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣ ـ حصل اليوم تغير حاسم في الموقف حيث قام المستشار فون شلايخر باخبار الرئيس فون هندنبورغ بعجزه عن الايفاء بتعهده للرئيس لأنه غير قادر على احداث انشقاق في صفوف الحزب النازي. وصارحه بتعذر تشكيل حكومة اغلبية ما لم يكلف هتلر بمهمة تأليف الحكومة ويصبح مستشارا لالمانيا . وهكذا لم يبق امام حكومة فون شلايخر سوى اعلان الاحكام العرفية وحل البرلمان وعليه فقد طـالب فون شلايخر منحه الصلاحيات الكاملة لممارسة الحكم بمنأى عن القيود التي يفرضها الدستور.

وهكذا صح مع الاسف كل ما سبق ان توقعته في كانون الاول ١٩٣٢ لأن البرنامج الذي قدمه فون شلايخر هو نفس البرنامج الذي سبق لي ان طرحته. وعليه فقد اوضح له الرئيس فون هندنبورغ ما يلي:

« سبق لك في ٢ كانون الاول ١٩٣٢ ان استبعدت احتمال نشوب حرب أهلية فهل لي الآن ان اتبع المقترحات التي تقدم بها فون پاپن آنذاك؟ ثم انك زعمت بأن الجيش والشرطة غير قـادرين على السيطرة على الموقف والحفاظ على الأمن والنظام في المانيا . ومنذ سـبعة أسابيع والحالة السائدة في تدهور مستمر . وقـد نشطت الأحـزاب مجـددا في التصـدي السافر للحكومة . فاذا كنا نتوقع آنذاك نشوب حرب اهلية وكان الجيش عاجزا عن المحافظة على الامن والنظام فلا يمكنني والحالة هذه اتخاذ القرار الملائم لرغبتك بحل البرلمان ومنحك صكا موقعا على بياض ».

ولكن هذه المناقشة لم تعلن لا لأبناء الشعب ولا لزعماء الأحزاب .

٢٥ كانون الثاني ١٩٣٣ ـ حاولت الاحزاب ايجاد شيء من التضامن لكي تتجنب انهيار الحياة البرلمانية وقد تصدى لها المستشار فون شلايخر بتصـريح مفاده « واضح ان هـذه المحاولة ما هي الا تسديد لحسابات السيد هوغنبرغ الذي سـبق أن رفض تولي وزارة الاقتصـاد عنـدما عرضت عليـه في

١٣ كانون الثاني ١٩٣٣ » .

٢٦ كانون الثاني ١٩٣٣ ـ سرت موجة عارمة من الاشاعات مع ذعر عـام استشرى في اوساط الاحزاب السياسية . وتنذر الايام المقبلة بالخطر نتيجـة لتحشد (جبهة هارتسبورغ) المؤلفة من الحزب النازي وحزب الشعب الالماني ضد المستشار فون شلايخر . ولا تزال ردود فعل الحكومة مجرد تخمينـات وينتظر ان يحصل الصدام المتوقع في البرلمان حال اجتماعه .

٢٧ كانون الثاني ١٩٣٣ ـ أصبح موقف الحكومة مهددا باقتراب موعد اجتماع البرلمان في ٣١ كانون الثاني ١٩٣٣ . وتدور في الاوساط همسات عن احتمال حصول المستشار على صلاحيات مطلقة من الرئيس فون هندنبورغ لان مناقشة الرئيس للمستشار لم تعلن للملأ ويبـدو اللجوء الى حل تكليف هتلر بمنصب المستشار من الاحتمالات الصعبة التنفيذ . وعليه فانني اتوقع ان يكلفني الرئيس بتشكيل حكومة جديدة . الا ان الحزب النازي اعلن بكل صراحة بأنه سوف لن يساهم بالحكومة التي سأشكلها وسيتصدى لها بكل ما أوتي من قوة .

بعـد المحـادثة التي أجريتهـا مع هتلر في منـزل فون ريبنتروپ يوم ٢٢كانون الثاني ١٩٣٣ قدمت للرئيس فون هندنبورغ تقريرا ضافيا عن كل ما حصل فيها بطبيعة الحال . أما أنا فقد آثرت الترقب لحين انجلاء الموقف بعد اصطدام فون شلايخر بمعارضة البرلمان شبه الجماعية . فربما ستؤدي به مداولاته الى تسوية مرضية للطرفين . ثم عاودتني فكرة احتمال تكليفي بتشكيل حكومة جديدة . لكنني أظن بأن فرصتي لتشكيل حكومة جديدة اقل نصيبا من موقفي قبل ثمانية أسابيع .

ونظرا لكثرة الاشاعات المتواترة والمتناقضة فقد قابلت الرئيس وقلت له بأنني لست على استعداد لتولي المسؤولية مجددا ما لم ازود بالصلاحيات التي أرادها فون شلايخر لنفسه في ١٢ كانون الثاني ١٩٣٣ ورجوته احاطة المستشار فون شلايخر علما بأنه ينبغي ان يطمئن من جانبي لأنني سوف لن اكون مصدر تهديد لمنصبه .

٢٨ كانون الثاني ١٩٣٣ ـ لعب فون شلايخر آخر اوراقه حيث زعمت الصحافة التي يسيطر عليها في مقالاتها الافتتاحية بأن الرئيس رفض تشكيل حكومة برئاسة فون پاپن تتمتع بصلاحيات مطلقة ثم زعمت بأن المستشار فون شلايخر سوف يقابل الرئيس خلال هذا اليوم لكي يحصل منه على الصلاحيات التامة ويحل البرلمان • واذا لم يقبل الرئيس بمنح المستشار الصلاحيات المطلوبة فسيستقيل المستشار فون شلايخر وعندئذ سيتحمل الرئيس وحده كامل المسؤولية عن كل ما سيترتب على استقالة الوزارة• وقالت تلك الصحف ان امامنا الآن ثلاثة احتمالات هي:

حصول تحالف بين الحزب النازي وحزب الشعب الالماني وحزب الوسط بحيث يصبح هتلر مستشارا • الا ان حزب الوسط انسحب من التحالف لأن هتلر اصر على حصول حزبه بالاضافة الى المستشارية ورئاسة وزارة بروسيا على وزارات الدفاع والداخلية والمواصلات•

أو تأليف وزارة من جبهة هارتسبورغ ربما يكون المستشار فيها السيد فون پاپن بينما يحصل الحزب النازي على بعض المقاعد الوزارية وربما منصب نائب المستشار ايضا•

والاحتمال الاشد توقعا هو الثالث ويتضمن تأليف حكومة مستبدة برئاسة السيد فون پاپن ومنحه كامل الصلاحيات من الرئيس فون هندنبورغ وستضم هذه الوزارة عددا من اصدقاء الرئيس القدماء الذين لا تزال اسمائهم قيد التمحيص• وقد جرى تحذير الرئيس فون هندنبورغ من مغبة الاطاحة بحكومة المستشار فون شلايخر لاسيما بعد اثارة فضيحة (معونة الشرق) التي لم يكن ليتدبر تسويتها وتجنب النتائج المترتبة عليها غير المستشار فون شلايخر رغم انها كانت مصدرا خطيرا للنيل من النظام•

وبعد هذه المطالبة الصريحة قام المستشار فون شلايخر بمقابلة الرئيس وعاود مطالبته بالصلاحيات الاستثنائية الا انه تلقى نفس الاعتراضات التي سبق ان قابله بها الرئيس في ٢٣ كانون الثاني ١٩٣٣ ثم ان الرئيس اعلن اقالته لوزارة المستشار فون شلايخر•

كان فون شلايخر متعلقا ولفترة طويلة بأمل ايجاد اغلبية برلمانية تعتمد عليها حكومته. وكان من الواضح لديه أن اية حكومة يشكلها هتلر ستكون حكومة أقلية تسندها بعض احزاب اليمين . وقد بذلت في لقائي مع هتلر بكولن كل جهودي لاحتواء هتلر ولكنني جوبهت بصلابته.

تم استدعائي لمقابلة الرئيس في ظهيرة يوم ٢٨ كانون الثاني ١٩٣٣ ولما مثلت امامه اوجزني بشأن مقابلته الاخيرة مع المستشار فون شلايخر ثم اقالته له ثم اعرب عن امتعاضه من الاساليب الملتوية التي دأب فون شلايخر على ممارستها لتحقيق مآربه. وهو مدرك لتعذر تكليفي بتشكيل الوزارة الجديدة ويقدر مدى المرارة التي سيضطر على تجرعها بتكليف هتلر بتشكيل الوزارة.

وبعد ان صارحني الرئيس بكل خواطره بالتفصيل رجاني للمساعدة في تشكيل الوزارة الجديدة برئاسة هتلر مع مراعاة الدستور واستحصال موافقة البرلمان. فهل كان بمقدوري التملص من تنفيذ المهمة التي كلفني بها الرئيس؟

ولو اقترحت على الرئيس تكليف شخص آخر غير هتلر فمن هو الشخص المناسب من زعماء الاحزاب لتولي منصب المستشار ؟

اجريت في عصر ذلك اليوم اتصالاتي بقادة الاحزاب وبدأت بالاتصال مع هوغنبرغ وكان تقديره للموقف مطابقا لتقديري. ذلك ان الحل الممكن الوحيد هو تشكيل حكومة برئاسة هتلر تحل محل حكومة فون شلايخر على ان يشترك اليمينيون وحزب الوسط. وقال اننا يجب علينا والحالة هذه تحقيق طموحات هتلر مع كبح جماحه قدر المستطاع . وطالب هوغنبرغ لنفسه بكرسي وزارة الاقتصاد الالمانية ووزارة الاقتصاد لاقليم بروسيا . وقال ان كلتا الوزارتين ينبغي ان تكونا بيده لكي يمارس السياسة الاقتصادية الموحدة التي يراها ضرورية لازدهار الاقتصاد الالماني.

ثم استقبلت هتلر في نفس ذلك اليوم حيث رفض كما هو متوقع

تشكيل حكومة تمثل فيها الاغلبية البرلمانية ، وقال بأنه في حالة رغبة الرئيس بتكليفه بتشكيل الوزارة الجديدة والتعاون مع حركته فانه يطالب الرئيس، بمنحه نفس الصلاحيات الاستثنائية التي سبق ان منحها لفون پاپن وفون شلايخر باعتبار حكومته حكومة رئاسية ايضا وليست له اية طلبات اخرى، كما انه يبدي استعداده لاشراك السادة الذين سيسميهم السيد الرئيس في وزارته.

ولما أخبرته بأن الرئيس قد يقبل بهذا الطلب ويعهد اليه بتشكيل الوزارة الا ان الرئيس قد يعين له الوزراء لجميع الوزارات وفق رأيه لأنه يريدهم كلهم من غير الملتزمين بالانتماء لأي حزب. طالب هتلر باعطاء منصب وزير الداخلية لأحد اعضاء حزبه وكذلك تعيين عضو آخر بمنصب حاكم بروسيا العام.

وفي المساء قابلت زعيم حزب الشعب الباڤاري الدكتور شيفر الذي اخبرني بأنه والدكتور بريونينغ ــ المستشار الاسبق ــ على استعداد لتولي منصب وزاري في حكومة أئتلافية يرأسها هتلر لكنني اكدت له أسفي لتعذر تحقيق هذه الأمنية ، ذلك لأن هتلر لم يرغب ابدا في تشكيل حكومة أئتلافية وانما هو عازم على تشكيل حكومة تضم اغلبية من المستقلين ، وقد أسفت كثيرا لأن الدكتور بريونينغ اتخذ قراره بالتعاون مع هتلر في وقت متأخر جدا. ذلك لأنه كان ينبغي ان يكون اكثر واقعية. ألا ان الدكتور شيفر وجه لي عبارة عدوانية بقوله بأنه والدكتور بريونينغ ليسا على استعداد لقبول أي منصب وزاري في حكومة اكون انا مستشارها ، والمؤسف ان الدكتور شيفر اقسم اليمين في كانون الثاني ١٩٤٧ امام محكمة نورمبرغ الدولية وشهد ضدي مدعيا خلاف الحقيقة بأنه سبق ان اكد لي في تلك المقابلة عدم استعداده او أي عضو من حزب الوسط للاشتراك في حكومة يؤلفها هتلر وقال امام تلك المحكمة بأنه كان وديا معي في تلك المقابلة ، وهكذا شهد ضدي لأنه اعتبرني مذنبا.

فمن منا كان على حق؟

وفي ساعة متأخرة من الليل قـدمت لرئيس الجمهورية تقريرا بشأن محادثاتي مع اولئك السادة خلال اليوم المذكور • وقد فرح الرئيس لاعتدال هتلر ووافق على طلبه فورا لأنه قبل بضم السـادة الذين اقترح الرئيس اشراكهم في الوزارة امثال البارون فون نويرات وغراف شڤيرين كروسيك وغيورتنر والبارون فون التس ريوبيناخ وذلك لكي يضمن بقاء الوزارات المهمة تحت ادارة رجال يعتمد عليهم وبخاصة وزارتي الخارجية والدفاع • وقد اتفقنا على احتفاظ البارون فون نويرات بمنصب وزير الخارجية ثم صرنـا نتحرى عن الشخصية المنـاسبة لتولي منصب وزير الدفاع فأقترحت على الرئيس صديقي القديم منذ عهد الكلية العسكرية والقائد النابه الذي اكن له كل تقدير الفريق فون فريتش • ولم يرفضه المشير فون هندنبورغ الا أنـه قال بأنه لم يتعرف عليه شخصيا بعد وشعرت انا من جانبي بأن الرئيس تهمه معرفة الاشخاص عن كثب الى حد كبير وعليه فقد ذكر لي الرئيس الفريق فون بلومبرغ• لأنه تعرف عليه عندما كان المشير متقاعدا في ضيعته وكان فون بلومبرغ قائدا للقوات المرابطة في بروسيا الشـرقية كما انه عرفه عندما اشتغل رئيسا للبعثـة العسكرية الالمانية في مؤتمر نزع السلاح وهو برأي الرئيس يتمتع بالمرونة التي تؤهله لتولي منصب وزير الدفاع• اما انا فأعرف فون بلومبرغ معرفة سـطحية وليست لدي فكرة واضحة عن كفايته • فهو مجرد رجل عسكري ليس له اي انتماء سياسي وهذا ما اعتبره الرئيس فون هندنبورغ كافيا لترشيحه لأنه يضمن بذلك عدم انتمائه للحزب النازي •

ثم ان الرئيس طلب الي الاتصال بالدكتور هوغنبرغ والاستفسار منه عن مدى استعداده للاشتراك بالوزارة بتولي منصب وزير الاقتصاد ــ كما سبق ان أبدى استعداده لتوليه في اواسط كانون الثاني ــ مع التقدم برجاء خاص لهتلر كي يقبل بتوليه الوزارة المذكورة استثناء للتحديد الذي سبق ان فرضه هتلر • كما ان الرئيس طلب الي شخصيا تولي منصب نائب المستشار ــ وكان هذا الطلب في ختام المقابلة ــ مع تأكيده علي بوجوب قبول هـذا المنصب ضمانا لبقائي الى جانب الرئيس • وكنت أتوقع بعض الشيء مثل هذا التكليف• ولكنني ارجو ان يصدقني الجميع بأنني لم تكن لي رغبة خالصة

في قبول هذا المنصب او السعي لتوليه. ويبدو ان الرئيس فون هندنبورغ كان متحسباً من تشكيل هتلر لوزارته ولذا فقد حشد فيها عددا من اصدقائه وجعلني ممثله البارز في تلك الوزارة. وحيث انه اتخذ قراره هذا فليس لي الا الامتثال لأمره.

٢٩ كانون الثاني ١٩٣٣ — يوم آخر حافل بالمباحثات. كان فيه اول زواري هتلر وغورنغ وقالا لي انهما يطرحان اسم الدكتور ڤيلهلم فريك مرشحا عن الحزب النازي ليكون وزيرا للداخليـة والسيد غورنغ ليكون وزيرا لداخلية بروسيا. وقد كان الدكتور ڤيلهلم فريك معروفا لنا بكونه موظفا قديرا عمل بكفاية في اقليم تيورنغن لمدة طويلة . وكان تبرير ذانك السيدان لاشغال منصب وزير داخلية بروسيا هو حرصهما على السيطرة التامة على جهاز الشرطة في ذلك الاقليم بعد ان تفاقم شر الشيوعيين هناك خلال الاشهر الاخيرة بينما لم تستطع الشرطة (التي كانت تحت ادارة تمثل الحزب الديموقراطي الاشتراكي طوال اكثر من عشر سنوات) اتخـاذ اية اجراءات رادعة لاعمال العنف المتفاقمة في الاقليم. وكان لأثارة هذه النقطـة معنى خاص بالنسبة لتجربتي التي سبق ان لمستهـا في تموز ١٩٣٢ فقلت للسيد هتلر بأن الرئيس فون هندنبورغ لم يمنحه صلاحيات حاكم بروسيا العام وانما جعلني أنا حاكما عاما لبروسيا اضافة لتعييني نائبـا للمستشار فابتلع هتلر الايمائة بخيبة أمل ظهرت على أساريره ثم أضمر في نفسه شيئا من الحقد. أما ترشيح غورنغ لمنصب وزير داخلية بروسـيا فقد وعدتهما بالتفكير بقبوله بصفتي حاكما عاما للاقليم.

وفي المناقشات التي أجريتها مع السيد هوغنبرغ وبعض السادة من (جبهة هارتسبورغ) بحثنا مشكلة التصدي لأي تسلط قـد يحـاول هتلر ممارسته . كما تحادثت بهذا الشأن مع قادة منظمة الخوذة الفولاذية وهي منظمة شبه عسكرية محافظة كنا نعتمد عليها كثيرا في السياسة الداخلية لأنها لم تكن منظمة ارهابية على غرار (وحدات العاصفة) النـازية او (الجبهـة الحمراء) الشيوعية .

شملت موجة الزوار الذين تقاطروا علي في ذلك اليوم عدد من اصدقائي المحافظين والذين اقسموا لي بأنهم يرفضون تشكيل هتلر للوزارة مهما كانت الظروف . لكنني اكدت لهم بأن الدستور يسمح باستيزاره ولم يبق أي مجال لتكليف غيره بتشكيل الوزارة الجديدة لاسيما بعد ان حجبت الاحزاب ثقتها عن حكومة فون شلايخر وبخاصة الحزب الاشتراكي الديموقراطي. وان أي شخص آخر غير هتلر يكلف بتشكيل الوزارة سيكون اختياره منطويا على اخلال واضح بأحكام الدستور.

وصل التوتر الى اشده في يوم الاحد هذا عندما اخبرني هرمان غورنغ بعد الظهر بأن فون شلايخر يلعب الآن آخر اوراقه. فقد ارسل اليه ڤيرنر فون الفينسلِبن الذي اوضح لغورنغ ما يلي:

« ان فون پاپن يريد غش النازيين وعليه فان من الافضل للنازيين ان يتحدوا مع فون شلايخر الذي ليست له أية رغبة سوى الاحتفاظ بمنصب وزير الدفاع».

وقد قال فون الفينسلِبن لغورنغ خلال مناقشته له بأن بالامكان تنحية الرئيس فون هندنبورغ عن منصبه بكل سهولة في حالة احتمال تسببه بأثارة بعض العقبات في هذا السبيل. وقد ابدى فون شلايخر استعداده للبرهنة على صدق مزاعمه باستنفار حامية پوتسدام[٢].

ثم اخبرني غورنغ بأنه وهتلر قد استمهلا فون شلايخر بعض الوقت وهما يرجواني اخبار امين سر الدولة الدكتور مايزنر والرائد اوسكار فون هندنبورغ بنوايا فون شلايخر دون ابطاء.

اتصلت فوراً بالمشير فون هندنبورغ وأخبرته بتطورات الموقف فوجدت ان ولده اوسكار كان قد احاطه علما بتلك التفصيلات اولا بأول . وقد بدى لي ان ذلك الشيخ الجليل لم يتأثر كثيرا بالانباء التي تواترت اليه عن نوايا مستشاره فهو لم يتصور ان قائدا في جيشه ويتبوأ أعلى منصب في حكومته

(٢) تعتبر بوتسدام احدى ضواحي برلين وفيها حامية برلين العسكرية ومثوى الملك الجندي فردريك الكبير . — المترجم —

يمكن ان تمتد يده بسوء لقائده الأعلى • ورغم ذلك كله فقد اقنعاه بعد لأي ــ تجنباً لما لا تحمد عقباه ــ اشغال منصب وزير الدفاع بأسرع ما يمكن• وحصلت موافقة الرئيس على الاتصال هاتفيا بالفريق فون بلومبرغ الذي كان بمهمة في جنيف لموافاتنا فورا الى برلين وتقديم نفسه للمثول امام الرئيس في صباح يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ •

سرت في هذه الاثناء اشاعة مفادها ان المستشار فون شلايخر يخطط للقيام بانقلاب يزيح به الرئيس فون هندنبورغ• وسرعان ما تحققت الاشاعة عندما اجتمع المستشار فون شلايخر برئيس الاركان العامة الفريق فون هامرشتاين اكوورد وارڤين پلانك والفريق فون بريدوف في مكتب رئيس الاركان العامة وقال لهم فون هامرشتاين اكوورد صاحب الفكرة الأصلي:

« يجب ان يتدخل الجيش الالماني الآن قبل ان يجانب الحظ المانيا كلها» وكان من رأي اولئك المتآمرين كلهم ان من الواجب اعتقال هتلر واعلان حالة الطوارىء • الا ان فون شلايخر قال ان تنفيذ هذه الخطة يبدو متعذرا لأن تنفيذها لا يمكن ان يتم بدون استحصال موافقة الرئيس فون هندنبورغ عليها مسبقا • فأجابه الفريق فون هامرشتاين:

« لهذا يجب عزل المشير فون هندنبورغ واعتقاله»•

الا ان فون شلايخر لم يتخذ قراره وانما بقي يتأمل ايجاد مخرج ما من الازمة• ويبدو لي ان صاحب الفكرة باعتقال هتلر وعزل الرئيس فون هندنبورغ هو الفريق فون هامرشتاين اكوورد وانها لم تلق استجابة لا من المستشار فون شلايخر ولا من كبار القادة الالمان•

ولقد كذب كلا من المستشار فون شلايخر والسيد فون الفينس ليبين فيما بعد وجود اية محاولة انقلابية • وقد يكون من المحتمل ان ثانيهما حصل على معلوماته من مصدر آخر غير المستشار فون شلايخر من اجل ممارسة الضغط على هتلر وغورنغ•

والطريف ان الفريق فون بلومبرغ عندما وصل الى محطة قطار برلين وجد باستقباله مرافق رئيس الاركان فون هامرشتاين اكوورد الذي حاول كسب

الوزير الجديد لكن الرائد اوسكار فون هندنبورغ افسد هذه المحاولة عندما رافق الوزير لمقابلة والده دون أي تأخير • وفي هذا الجو المنذر بالخطر وجب علي التعجيل بايقاف الوزارة الجديدة على اقدامها•

٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ – قابل الفريق فون بلومبرغ الرئيس زهاء الساعة التاسعة حيث اخبره الرئيس بتفاصيل الموقف • وابلغه بوجوب السيطرة على الموقف فورا والدفاع عن حكومة هتلر الجديدة • وفي الساعة العاشرة والنصف اجتمع ببيتي جميع السادة الذين وقع عليهم الاختيار لتشكيل الوزارة الجديدة • ثم ذهبنا سوية الى مكتب امين سر الدولة الدكتور مايزنر في القصر الجمهوري انتظارا للمثول امام الرئيس فون هندنبورغ• • وقد جدد هتلر طلبه بتولي صلاحيات حاكم بروسيا • وفي هذا تجاوز تام على صلاحياته كمستشار فقلت له ان طلبه هذا سابق لأوانه ويمكن بحث هذا الطلب بعد ان نعمل سوية لفترة كافية نكسب بها ثقة الرئيس • ثم انه اردف طلبه (بعد ان سبقت مطالبته بأدنى نسبة للمشاركة بالحكم) بطلب مفاجيء باعادة انتخابات مجلس الامة • وقد برر مقترحه الجديد هذا بادعائه بأن حركته لا تتوفر لديها الاغلبية البرلمانية اللازمة لكسب ثقة المجلس حتى لو تضامنت مع الاحزاب اليمينية الاخرى• كما ان الحكومة الجديدة اذا ما حازت ثقة ابناء الشعب الالماني فستحصل على الاسناد اللازم من اجل اجراء انتخابات ذات نتائج جيدة•

ما ان ازفت الساعة الحادية عشرة الا ودخل علينا الدكتور مايزنر راجيا انهاء احاديثنا ومرافقته الى مكتب الرئيس فلما وصلنا قدمت المستشار الجديد هتلر واعضاء الحكومة للرئيس وبعد ان اقسمنا يمين الولاء للشعب الالماني تزودنا بنصائح الرئيس الثمينة• وبذا ولدت حكومة هتلر•

لكننا سرعان ما وجب علينا ان نتعلم مدى تأثير هذه الحكومة التي تم تشكيلها وفق الأسس الديموقراطية على مستقبل المانيا وسأحاول هنا التحدث بكل صراحة عن كل الملابسات التي أدت الى تسمية هتلر مستشارا لألمانيا.

وأول الأسباب الواضحة هو ان حكومة هتلر تم تشكيلها وفق السياق البرلماني المتبع بموجب دستور ڤايمار النافذ المفعول آنذاك.

وكان هذا هو الاجراء الوحيد الممكن (وهذا أمر ذكرته مرات عديدة) لأن أي تجاوز للدستور يتطلب ضمان فرض السيطرة على البلاد بالقوة وهو ما صرح به وزير الدفاع فون شلايخر للرئيس بحضوري بعدم تمكن الجيش الالماني من ضمان تنفيذه.

وحيث ان فون شلايخر قد مات فانني أرى من الشهامة الا أنال من رفيقي القديم بعد مقتله. وبالتالي فانني استميح القارىء عذرا اذا ما ضربت صفحا عن التوغل بهذه الواقعة اكثر مما ذكرت. وتكفي آراء الآخرين من الأحياء بتلك الشخصية أمثال المستشار الاسبق الدكتور بريونينغ والسفير الفرنسي آنذاك فرانسوا پونسيه.

أما بشأن ترشيح الشخصيات المناسبة لتولي منصب المستشار فقد سبق ان فكر المستشار السابق فون شلايخر بهذا الأمر مليا منذ مطلع سنة ١٩٣٢ ثم توصل الى اقتراح اسمي فعرضه على الرئيس فون هندنبورغ. وقد اتفقنا آنذاك على ضرورة اعادة تشكيل الوزارة خلال فترة وجيزة.

اذ كان الرجل مدركا للصعوبات التي صادفتني بحكم كوني عضوا سابقا في حزب الوسط لأنني أوضحت له بكل جلاء ما يترتب على حلولي بمحل الدكتور بريونينغ وعليه ألا يفاجأ بتنكر حزب الوسط لي. والأمر الوحيد الذي لم يعرفه عني هو سعة اتصالاتي بالأوساط المحافظة وعلى نطاق دولي.

ويبدو انه كان متصورا امكانية جعلي واجهة لنشاطه الذي يبغي به الوصول الى رئاسة الحكومة لكنه وجد نفسه متوهما لأنني لم أكن ذلك الشخص الذي أراده وقد ناقشت هذه الحقيقة مع الرئيس فون هندنبورغ في

١ كانون الاول ١٩٣٢ فقد فات فون شلايخر اننا استطعنا خلال فترة الحكم التي استمرت ستة أشهر فقط اثبات جدارة حكومتنا ومعالجتها لمختلف المعضلات الداخلية والخارجية وكسبنا ثقة جميع الاحزاب لأنها أدركت بأن حكومتنا لم تكن كالحكومات التي سبقتها مجرد العوبة تتقاذفها مصالح الاحزاب ذات النسب البرلمانية القوية .

وحتى قيامنا انا وفون شلايخر بالمثول امام الرئيس في تلك المقابلة المصيرية التي ناقشنا معه فيها امكانية تشكيل حكومة جديدة فان فون شلايخر لم يفاتحني ولا بكلمة واحدة منتقدا سياستنا الداخلية .

فقد كنت أنا واياه من المحافظين وكنا في سرائرنا ملكيين بحكم التقاليد والثقافة على الرغم من وضوح الحقيقة التي مفادها ان تقوض النظام الملكي قد تم في ميدان القتال وان هذا النظام يمكن أن يعود الى المانيا في ظروف معينة . وكنا انا وفون شلايخر نأمل بعودة الملكية في حالة وفاة الرئيس فون هندنبورغ واحداث الظروف الممهدة لكسب آراء أغلبية أبناء الشعب الالماني لا سيما وان انصار الملكية كانوا أقوياء جدا في اقليم باڤاريا .

ولقد أخطأ السفير الفرنسي فرانسوا پونسيه في زعمه بمذكراته بأن فون شلايخر كان بالغ النشاط في العمل وراء الكواليس . وان خطتي للانتقام منه تضمنت وضعه على المحك وجعله تحت وطأة المسؤولية الكاملة بتولي منصب المستشار .

والواقع انني كنت على علم تام بتحركات فون شلايخر حتى عندما ارسل من وراء ظهري أمين سر الدولة السيد پلانك الى فرنسا في النصف الثاني من تشرين الثاني ١٩٣٢ بصورة مكتومة ليجس نبض الفرنسيين في مدى قبولهم بتولي قائد عسكري لمنصب المستشار بالاضافة الى وزارة الدفاع وزعم لهم ان تشكيل الوزارة الجديدة من قبلي أيضا معناه نشوب حرب أهلية في المانيا مع ان الجيش الألماني غير قادر على التحكم بالموقف الداخلي . وقال للفرنسيين انه ليس هناك أي شخص آخر يتمكن من تولي منصب المستشار في تلك الظروف غير فون شلايخر .

ثم ان فون شلايخر أرسل صديقه الرائد الركن أوت الى هتلر بصورة سرية في تشرين الثاني ١٩٣٢ لكي يرتب مساهمته في الوزارة • ولما فشلت جميع تلك الخطط تعهد للرئيس فون هندنبورغ باحداث انشقاق في صفوف الحزب النازي لكي يضمن قيام وزارته التي أمل اعتمادها على أغلبية ضعيفة في البرلمان•

وبعد أن عملنا سوية في حكومتي طوال ستة أشهر في مختلف القضايا بتفاهم تام قال للرئيس امام اعواني :

« ليس لفون پاپن في أحسن الأحوال أكثر من ١٠٪ من ابناء الشعب ولذا فان برامجه معناها نشوب حرب أهلية » •

فمن أين جاء بهذا التصور الجازم بصورة مفاجئة ؟ اذ من المؤسف عدم وجود (معهد غالوب) للاحصاء في تلك الأيام كما لم تتوفر وسائل الاحصاء الحديثة المعتمدة حاليا لتحديد نسب أصحاب الرأي في كل مجال •

وأود هنا أن أنوه قليلا عن علاقاتنا أنا وفون شلايخر خلال المدة المحصورة بين استقالة وزارتي في ٢ كانون الاول ١٩٣٢ واستقالة وزارته • اذ اعتبرت اقتراحه بتعييني سفيرا لبلادي بباريس في كانون الاول ١٩٣٢ ايمائة ودية مشكورة •

ولكن سرعان ما تبين أن مقصده من ذلك التعيين ابعادي عن الرئيس فون هندنبورغ • وكان الرئيس نفسه أول من ادرك ذلك وابدى لي رغبته بقائي الى جانبه • ولم أتمكن من تقويم موقف فون شلايخر مني رغم قراري بمعاونته بكل ما اوتيت من قوة لكي اسهل له مهمته خدمة مني لبلادي •

وقد تقدم فون شلايخر في أول خطاب القاه بصفته مستشارا بالشكر الجزيل للمستشار السابق وكانت عباراته المفعمة بالتأدب مدعاة لخجلي • ولم يخطر ببالي آنذاك انه كان يعتبرني من أهم العناصر غير المريحة له والتي تهتبل كل فرصة مناسبة للنيل منه •

كان هذا شعوره تجاهي في الوقت الذي تحدثت به أمام مئات من علية القوم القادمين من جميع ارجاء المانيا في الحفلة السنوية الكبرى التي اقامها

(نادي السادة) فأثنيت على المستشار الجديد فون شـلايخر • بينمـا كان فون شلايخر قد وضع هاتفي تحت التنصت المستمر ثم أخذ يراقب تحركاتي كلها وهذه حالة بدأها فون شـلايخر واستمرت عليها حكومة هتلر معي ومع غيري طوال عهدها •

عرضني لقائي مع هتلر يوم ٤ كانون الثاني ١٩٣٣ في كولن الى توجيـه جميع اسلحة الخصوم نحوي ولا حاجة لي ان ابرر ذلك اللقاء بعد ان ادلى فيرنر فون الفينس ليبن بتصريح للصحافة في مساء يوم ٤ كانون الثاني ١٩٣٣ نفسه وأعرب فيه عن مدى اخلاصي • ولو فرضنا ان هذا الدليل لا يكفي فان المستشار فون شلايخر بعد ان تسلم رسالتي التي ارسـلتها له من كولن فأنه سلمها للرئيس فون هندنبورغ لكي ينـدد بتصـرفي ذاك لكن الرئيس اعتبر مبادرتي دليلا على الاخلاص وانكشفت للرئيس محاولة فون شلايخر للايقاع بيني وبين الرئيس فصارحه بخطأه بشأني •

أدت ثقة الرئيس بشخصي وتمسكه بي الى تقويض العلاقات القائمة بيني وبين المستشار فون شلايخر • فمنذ ذلك اليوم لم أحاول التحدث للمستشار فون شلايخر • وادركت آنذاك انه كان قد سعى حثيثا طوال شهر تشرين الثاني ١٩٣٢ لاسقاط الحكومة التي كان أحد اعضائها • ولم اتصور خلال تلك الفترة انه كان يمارس لعبة قذرة موجهة ضدي شخصيا وهذا ما لا يمكن ان أنساه • وعلى الرغم من تجلي هذه الحقيقة الساطعة الا انني لم أخط خطوة عدوانيـة واحدة ضد المستشار الجديد الذي يتحمل مسؤولية السلطة في بلادي •

لكن الاشخاص المقربين من فون شلايخر لم يحافظوا على اخلاصهم له • وكان ان قام فيرنر فون الفينس ليبن بدور غير مشرف لانه كان يحتفظ بصورة شخصية لهتلر وقد كتب عليها عبارة :

« لأثمن اصدقائي » •

وكذلك كان اصدقائه اوت وپلانك وماركس وسواهم يلاحظون مدى مجانبة فون شلايخر للمصلحة العامة في خطواته السياسية التي اقدم عليها في المرحلة الاخيرة من عهده مما أفقده البقية الباقية من اسناد الاحزاب السياسية

لحكومته •

كما ان صديقه الحميم اوت وجه له مذكرة انتقادية في ١ كانون الثاني ١٩٣٣ • وأخيرا فانه عندما عرض نفسه على هتلر ليكون وزير الدفاع في حكومته زعم لهتلر بأنه الرجل الوحيد الذي يحكم السيطرة على الجيش الالماني• ولم يدر آنذاك بأنه حفر بذلك الادعاء قبره بنفسه • فلما حصلت مؤامرة أرنست روهم فيما بعد تحسب النازيون من فون شلايخر وتصوروه أكثر من حقيقته فشملته التصفية الواسعة عام ١٩٣٤ •

والغريب أيضا ان غلطة فون شلايخر المميتة كان دافعه النفسي للاقدام عليها في محاولته اسناد هتلر وتقديم نفسه ليعمل وزيرا للدفاع في حكومته كان هذا مجرد محاولة مبتسرة منه للايقاع بي والانتقام من الرئيس فون هندنبورغ • وكانت حصيلة ذلك نشوء قطيعة بين المستشار فون شلايخر والرئيس فون هندنبورغ • ولما تسنم الفريق فون بلومبرغ منصب وزير الدفاع وبقي فيه حتى مطلع ١٩٣٨ لعب دورا مجردا عن روح الاصالة البروسية المعروفة •

لقد اختتمت حياة فون شلايخر بمأساة مزدوجة عندما قبرت معه عقيلته فالمعروف انه من العزاب المشهورين لكنه تزوج في خريف ١٩٣٢ وليس للمرء الا ان يقدر اخلاص تلك المرأة ويرثي للظروف التي اوردتها حتفها•

ولقد احسن المؤرخ النابه غورليتز عندما قال عبارته المأثورة عن فون شلايخر•

« على الرغم من ذكائه الوقاد فانه ارتكب الغلطة التي ارتكبها جميع الدساسين الا وهي الخلط في السياسة بين الاشخاص والقوى والافكار»•



الفصل السادس عشر

هتلر يتولى السلطة



صار هتلر مستشارا . المسؤوليات . الاشاعات . لا تآمر ولا ثورة . المشكلة الاجتماعية. قوة هتلر . منهاجه الحزبي . مشكلة الائتلاف . غلطتي الاساسية . شخصية هتلر : الجوانب الجيـــدة والجوانب الرديئة . فون هندنبورغ وهتلر . نقد تأريخي بحت .

تمخضت الملابسات السياسية المعقدة عن تسمية ادولف هتلر مستشارا لألمانيا في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ واصبحت انا نائب المستشار معه.

لم يكن هتلر في ذلك اليوم هتلر الذي عرفناه فيما بعد خلال الاثنى عشر عاما التي مارس بها دوره التأريخي. اذ كانت اغلب سجاياه التي عرف بها بعدئذ كامنة في نفسه. وأغلب الظن ان الاحداث والملابسات التي صادفته كانت هي المحك الذي أجج في نفسه الوســائل الكفيلة بنظره بحــل تلك المعضلات. كما ان التطور الذي شهدته المانيا في السياسة الداخلية خــلال التسعة عشر شهرا الأولى من عهده فرضت عليه حل الأحزاب الأخرى وممارسة

الحكم المطلق.

وسأحاول بحث الاسباب المؤدية لتلك التطورات اعتمادا على تجربتي الخاصة ومساهمتي في ادارة الحكومة من منصبي الرفيع. لكنني أؤكد هنا تعذر اجراء تحليل شامل دون اغفال الاشارة الى جانب او لآخر من القضية المعقدة التي نحن بصددها نظرا لتشعب جوانبها بشكل يفوق طاقة فرد بعينه وبالتالي فان تسلسل الافكار لاستجلاء شخصية هتلر وايضاح كل خصائصها يعتبر من الامور العسيرة.

وثمة صعوبة اخرى بهذا الصدد الا وهي ان الامور والمسببات الكامنة ورائها كانت غير معروفة في ايامنا الاولى من ممارسة الحكومة لمسؤولياتها.

اذ كان الناس يتعاملون مع هتلر وفقا لطبائعهم وسجاياهم وهم بين ايجابي وسلبي وبين متحمس وفاتر الهمة وبين شديد الاحترام له وكاره لرؤيته والسماع به. ولكنني اذا ما زعمت بأن كل ما سأقوله كان معروفا آنذاك فسأكون مجانبا للحقيقة. اذ أن اغلب المسائل التي حصلت خلال السنة والنصف الاولى لم تكن تفاصيلها معروفة للناس.

لم يكن ذلك اليوم الممطر من كانون الثاني ١٩٣٣ مهما بالنسبة لي او للرئيس فون هندنبورغ لأننا لم نكن متحمسين لتولية هتلر مهمة المستشار. فقد أدى تدهور الحالة الداخلية في المانيا منذ عام ١٩٣٠ في عهد وزارة بريونينغ الى تعاقب حكومتي ثم حكومة فون شلايخر واخيرا حكومة هتلر وكلها تتمتع بسلطات استثنائية تتجاوز بها تحديدات الدستور والمعوقات التي برعت الاحزاب السياسية في اختلاقها لتعجيز الحكومات عن انجاز مهماتها. واود ان أؤكد هنا بأنني رغم حرصي على ايضاح الحقيقة فانني لا اريد ان اجرد الاحزاب من مسؤولياتها كما انني لا احاول ابدا الانتقاص من دورها . فأنا احرر هذا الكتاب مستعرضا به اخطائي التي ارتكبتها ايضا ومشيرا الى تصرفاتي التي ندمت عليها فيما بعد.

كما انه من الواضح تماما ان وصول حركة سياسية الى السلطة وورائها

نسبة تناهز الـ ٤٠٪ من اصوات الناخبين الالمان لا يمكن اعتبارها حركة مجردة من الجذور الشعبية. اذ سبق ان وصفت مدى حرصي على اشراكهـا في تولي مسؤولية السلطة قبل توليها لها فعلا بمدة طويلة.

أضف الى ذلك ان من شهد ارتقاء هتلر التدريجي في تلك الفترة لابد ان يتذكر بأن رجالا مشهود لهم بالفطنة والذكاء امثال الدكتور بريونينغ وغراف باليستريم والأب الدكتور كاس والدكتور ماير ورتر فون ليكس قد تصوروا بأن هتلر وقد وضع على المحك فسوف لن يلبث ان يشهـد مصير حركته في خضم الاضطراب السياسي الذي كانت تعيشه المانيا . ثم ان فون شلايخر نفسه ــ والذي ربما يمكن اعتباره من اكثر الناس معرفـة بالنازيين كان يظن بأن هتلر سينقلب على المحافظين بأسرع ما يمكن وعندئذ سيتم تشكيل حكومة جديدة تضمه هو (فون شلايخر) وهتلر وبريونينغ[1].

وثمة عامل مهم آخر لا سبيل لاغفاله هو تشجيع الصناعيين الكبـار امثال تويسين وكيردورف وغيرهما من الذين وجدوا في حركة هتلر المناهضة للشيوعية ملاذا لهم ازاء الموجة العارمة التي دهمت المانيا من الشرق. وقد اجتمع هتلر بأولئك الرأسماليين لأول مرة في (نادي الصناعة) بديوسلدورف وتحدث اليهم مطمنا فكسب ثقتهم وضمن انحيازهم الى جانبه.

والعامل الآخر الذي تجدر الاشارة اليه هو الجيش الالمـاني المتشبع بالروح البروسية والمتمسك بالتقاليد وليس غريبا ان نلاحظ عطف عدد من الضباط الشباب على الحركة الاشتراكية الوطنية . وقد اثيرت هذه القضية عند محاكمة بعض اولئك الضباط في حامية لايبزك. وكان من رأي الكثيرمن ضباط الجيش الالماني الكبار ومنهم مساعد فون شلايخر الرائد الركن اوت ان الجيش لم يكن بموقف يؤهله للدفاع عن الحدود الشرقية دون الاعتماد على (وحدات العاصفة) التي نظمها هتلر.

أما المراقبون الاجانب فكانوا معتادين على اعتماد الاساليب البرلمانية

---

(١) من تقرير رفعه السفير البريطاني لحكومته بتاريخ ٩ شباط ١٩٣٣ .
ــ المؤلف ــ

ولذا فانهم يعتبرون طاعة الشعب الألماني بهتلر جريرة مبررة لأدانة الأمة الالمانيه برمتها دون ادراكهم لطبيعة الشعب الالماني أو تحليلهم لخصائصه الاصيلة بعد ان انتابته سلسلة من الازمات كالاندحار في الحرب العالمية الاولى وما ترتب عليه من نتائج والتضخم النقدي والانهيار الاقتصادي خلال عقد الثلاثينات وتفاقم مشكلة البطالة وتضعضع التماسك الاجتماعي بين الشباب . واستشراء الخطر الشيوعي الذي صار ينذر بخطر اكتساح المانيا برمتها . كما ظهرت في هذه الفترة بوادر الحركات المتطرفة وانتشر الارهاب بحيث أخذ يعصف بالقيم التراثية . كما أن الجيل الجديد صار يبتعد عن الايمان بالدين المسيحي.

لهذه الاسباب كلها فان حركة هتلر وجدت استجابة من مختلف الاوساط التي رأت فيها ملاذا يجعلها بمنجاة من الأوضار المبهمة التي كانت تتحسب من شرورها. اضف الى ذلك ان الحماس الذي اتصفت به الحركةالاشتراكية الوطنية أدى الى استمالة الشباب الالمان فتقاطروا على الالتحاق بها بمجموعات كبيرة.

وقد ينحي بعض الاجانب باللائمة اليوم على الشعب الالماني لأنه لم يدرك المصير الذي ساقه هتلر اليه. ولكن فات هؤلاء ان الخطر الحقيقي الذي كنا نخشاه آنذاك هو الشيوعية . وعليه فان أغلب الالمان الذين انضووا تحت لواء النازية كانوا يعتبرونها افضل وسيلة لمكافحة الشيوعية ان لم تكن الوسيلة الوحيدة.

لقد كنا نعيش هذه الازمة في الوقت الذي تتفاقم به ازمة البطالة التي تركت ملايين العمال الالمان وعوائلهم يكافحون من اجل الحصول على خبز يومهم.

والغريب ان نسبة عالية من ابناء الشعب الالماني ـ وهي بالتأكيد ليست الفئة الرديئة منه ـ اعتبرت سنة ١٩٣٣ (عام اليقظة القومية) واذا اردت التحري عن الاسباب فلا يسعني الا ان اكرر ما سبق ان قلته في مؤتمر لوزان من ان الشعب العظيم لابد ان يحصل على حقوقه اما رضاء او عنوة.

ولكن لا هريو ولا ماكدونالد ولا أي رجل دولة من رجال الدول الأخرى المفاوضة لنا آنذاك اراد ان يفهم ما انطوى عليه كلامي وما ترتب عليه.

كان هتلر قد دبج منهاج حركته منذ عام ١٩٢٠ ولخصه بخمس وعشرين نقطة . وفي عام ١٩٢٦ اعتمدها حزبه واعتبرها غير قابلة للمساومة أو الانتقاص . ولم يخطر ببالي ان هتلر عندما يتسلم السلطة سيصر على تلك النقاط لأنني خبرت احزابا اخرى تخلت عن بعض اهدافها عندما وجدت عقبات كأداء حالت بين النظرية والتطبيق. وعليه فقد تصورت ان الحزب النازي سوف لن يكافح اليهود بمثل تلك الشدة حيث أن هتلر اعتبرهم ضيوفا يمكن لهم العيش في المانيا ولكنه لم يعتبرهم المانا قط[٢]. كما ان معاهدة فرساي المجحفة يمكن اعتبارها من اهم الاسباب التي حدت بهتلر الى شن حرب هجومية.

وعندما شكلنا حكومة هتلر كان من الواضح لدينا بأن هتلر ومن ورائه حزبه لا يمكن استبعاده عن تولي مسؤولية السلطة. لكننا كنا نأمل احداث تطور لاجباره على الاعتدال بتأثير من الجماعات المحافظة والدينية. ولما تحدث معي الرئيس فون هندنبورغ بهذا الشأن في ٢٩ كانون الثاني ١٩٣٣ فانه حاول القاء ثقل المسؤولية على كاهلي بقوله :

« انني لا ادري ما الذي سيحدث فعلا . فأنت نائب المستشار وانت رئيس وزراء بروسيا . ولو استثنينا وزيرين نازيين فقط فان جميع اعضاء الوزارة هم من رجالنا . ثم انك ستشهد كل اجراء يقوم به هتلر».

فكيف تسنى لهتلر رغم كل هذه التحوطات التي اتخذناها لكبح جماح الحزب النازي بعد ان وضعنا ثمانية وزراء ازاء وزيرين نازيين فقط تقوية حزبه باضطراد بحيث تمكن من الاستحواذ على جميع المقاعد الوزارية وجعل وزارته خالية ممن لا ينتمون لحزبه؟

---

(٢) هذه ادانة واضحة للنظام النازي الذي شجع اليهود الالمان على الهجرة من بلادهم المانيا والتوجه الى فلسطين في المرحلة الاولى من عهد هتلر حيث أعقبت تلك المرحلة اتباع الوسائل القسرية لطرد اليهود من بلدانهم في جميع أقطار اوربا التي احتلها الالمان وتشجيعهم على الهجرة الى فلسطين بتعاون مباشر وغير معلن بين النازيين والصهاينة . — المترجم —

ان هذا يعود لنا كما يعود لهتلر نفسه. وسأحاول توضيح هذه الحقيقة وليس تبريرها على سبيل التنصل. وكل ما يجب ان اعترف به هو الخطأ الفاحش الذي ارتكبته بإسنادي (للفكرة الجديدة) التي جاء بها هتلر ومرد ذلك هو حرصي على استعادة المانيا للانضباط وحب النظام اللذين كانا سائدين في العهد الأمبراطوري واللذين افتقدناهما بصورة مريعة بعد أن ضربت الفوضى أطنابها في طول المانيا وعرضها منذ تأسيس الجمهورية في عام ١٩١٨ وحتى عام ١٩٢٣ وظهور التشكيلات السياسية شبه العسكرية التي كانت تخوض معارك الشوارع مع خصومها وكأن المانيا خالية من حكومة مسؤولة عن النظام . وقد ادركت في تلك الفترة ـ بصفتي عسكري سابق ـ ان الفيلق الحر الذي شكله المخلصون من ابناء المانيا لم يعد قوة قادرة على حماية الشعب من الاوضار الداخلية التي استشرت في البلاد وقد قدرت بأن التصدي للفعاليات الحماسية المتطرفة التي يمارسها خصوم النظام لا يمكن ان يتم الا بوجود قوة وطنية متحمسة مثلها.

وثمة غلطة أخرى فاحشة ارتكبها جهاز الدولة الالمانية آنذاك بالتخلي للنازيين عن وسائل الدعاية التي كانت مستقلة وتسخيرها لصالحهم. اضف الى ذلك ان هتلر سعى خلال السنة والنصف الاولى من عهده لازاحتنا تدريجيا ـ ونحن الذين لم نخبر التعامل مع نظامه ـ حتى وجدنا انفسنا بصورة غير ملحوظة في آخر المطاف بمنتهى الضعف على الرغم من عدم احكام النازيين سلطتهم آنذاك على عاملين مهمين آنذاك هما الرئيس فون هندنبورغ والجيش الالماني. ولكن سرعان ما تبين لنا انهما وان كانا غير منحازين للنازيين الا انهما لم يكونا ضدهم ابداه كما ثبت فيما بعد ان اختيار وزراء من الخبراء المستقلين كان لصالح النازيين تماما . وأود أن أؤكد بهذه المناسبة بأنني لم أحاول مطلقا اعاقة هتلر عن فعالياته وانما انصب حرصي كله على التوفيق بين هتلر والرئيس فون هندنبورغ كما أؤكد هنا ايضا ان هتلر كان يتمتع بكامل ثقة الرئيس بدءا من توليه السلطة وحتى حصوله على الصلاحيات استثنائية.

اما وزير الدفاع فون بلومبرغ فقد كان متعاطفا مع هتلر منذ بداية

عهده وذلك امر طبيعي جدا بالنسبة للتقاليد البروسية القديمة التي تفرض على الجندي طاعة شديدة للنظام القائم وكان هذا ما قام به الفريق فون بلومبرغ وقادة الجيش الآخرين • اضف الى ذلك ان الرئيس فون هندنبورغ لم يكن قادرا او بالاحرى لم يشأ ان يجعل شخصيته في كفة يريد لها الترجيح على مستشاره الجديد باثارة صراع شخصي لا موجب له • ثم ان المعضلات التي تبينت معالمها فيما بعد لم تكن قد ظهرت بشكل متبلور آنذاك• ولما أصر هتلر على اقالة الوزراء المحسوبين على احزاب لها قوة برلمانية في صيف ١٩٣٣ فأننا لم نعتبر اجرائه هذا مؤسفا بشكل ما• ذلك لأننا اكثر اهتماما بمعالجة المشاكل الاجتماعية والاقتصادية من الانهماك بأثارة مشاكل جديدة بسبب تبديل بعض اعضاء الحكومة • ولقد كانت الكنيسة الكاثوليكية من العوامل المؤثرة في المجتمعات الأوربيـــة لدرجة تفوق الأحزاب السياسية المعروفة وهي تتبع نظاما دقيقا ومتقنا وتسير وفق نهج البابأوات ورجالهم الاكفاء• وهي تحظى بتقدير جميع الاحزاب السياسية واحترامها•

والعامل المهم الثاني الذي أثر في تطور الأوضاع الى ما آلت اليه هو شخصيه هتلر • فقد كانت الآراء بشأن شخصية هتلر تنقسم قبل وصوله للحكم الى فئتين تصورت اولاهما (وهي الفئـــة الغالبـــة عددياً) انه مجرد واجهة لقيادة حركته وانه دعي مهذار وكان هذا التصور ــ كما تبين فيمـــا بعد بجلاء ــ مجانبا للصواب اما الفئة الثانية وكنت انا منها فقد تصورت ان شخصية هتلر لم تظهر ابعادها بعد وانها لابد ان تتجلى خصائصها على مر السنين • وان هتلر هو الطاقة المحركة لحزبه وهو العامل القيادي المنفرد لحركته•

وانه لمن الصعوبة بمكان استجلاء الخصائص الحقيقية لتلك الشخصية اعتمادا على المميزات الظاهرية وحدها• فهو لم تظهر عليـــه علائـــم النبوغ لا بتصرفاته الاعتيادية ولا بمظهره الخارجي كما لم تظهر عليـــه علائم حب السيادة الا انه مما لا سبيـــل لانكاره انه كان يتمتع بقدرة خـــارقة للتأثير بشخصيته على الآخرين وانه كان يسحر مجموعات كبيرة من الناس فيجعلهم مأخوذين بقدراته غير الاعتيادية • وكانت هذه الخاصية من الامور التي تبدو

مبهمة لأنه كان يمارس فرض آرائه على الناس فيتقبلون وجهة نظره ويقتنعون بها وقد كنت انا من ضمن ضحاياه الذين اثر عليهم فآمنت بأهدافه ووسائله التي عرضها علي، ولم ادرك نفاقه وادعائه غير ما يضمر الا بعد ان تجلت قسوته الرهيبة على خصومه في ٣٠ حزيران ١٩٣٤[٣].

وعندما كنا نعرض عليه التجاوزات التي مارسها قادة وحدات العاصفة كان يطلب منا التذرع بالصبر ريثما «يستعيد السيطرة على زمام الامور التي أفلتت منه ضمن حركته» وكثيرا ما كنت اناقش هـذه المسـائل مع زميلي الحميمين غيورتنر وأيليتس وكنا نجد الفرق الشاسع بين تطمينـات هتلر الشفوية والتطورات الفعلية المناقضة لها . وكنا نأمل بأنه لابد ان يضع حدا لهذا الفرق في الأيام القابلة . وسرعان ما تبين بأنه لم يكن على استعداد لطرح آرائه امام مجلس الوزراء لمناقشتها وانما كان يؤثر عرض الفكرة على ذوي العلاقة فردا فردا فيحصل على الاذعـان الذي يريده دون التعرض لنقض أغلبية أعضاء مجلس الوزراء لأي رأي من آرائه .

وبعد ان تمعنت بالخصائص الشخصية التي كان هتلر يتميز بها حددت علاقاتي معه منذ البداية باقامة علاقات شخصية حميمة معه مبنية على التفاهم مع اعطائه شعورا بأنه ازاء ند له . ولربما كنت اكثر فرد ـــ من غير اعضاء الحزب النازي ـــ قرباً منه . وقد نجحت في اقامة هذه العلاقة فكسبت ثقة الرجل واحترامه حتى انني لم اشهد ولا مقاطعة واحدة لاحاديثي معه . لقد كان يصغي لاقوالي لدرجة تصورت معها قدرتي على التأثير عليه . وكان هذا مجرد تصور.

لم تقتصر محاولات هتلر للتأثير على اعوانه والعاملين معه وانما تجاوزها لمحاولة التأثير على الرئيس فون هندنبورغ ايضا. اذ استدعاني الرئيس في نيسان ١٩٣٣ طالبا مني تعديل المهمة التي كلف بها هتلر عندما تولى رئاسة الحكومة في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ لأن لهتلر شعور بأن صيغة تلك المهمة تنطوي على الشك بشخصه وان الرئيس لا يرغب بتكدير مستشاره الجديد.

---

(٣) قام هتلر بهذا التاريخ بتصفية خصومـه الرئيسيين ومنهم روهم وفون شلايخر وكان اولهما القائد العام لوحدات العاصفة (SA) .

ـ المترجم ـ

وكان ان وافق الرئيس على منح هتلر الصلاحيات الاستثنائية المطلوبة (حيث حمل الدكتور مايسنر امين سر رئاسة الجمهورية رغبة الرئيس الى مجلس الوزراء بنفسه) وتجاوز هتلر بذلك التحديدات التي فرضها الدستور.

لم تتغير شخصية هتلر خلال أسابيع قليلة وانما تغيرت بصورة تدريجية خلال سنوات وكانت التسعة عشر شهرا الاولى من عهده التي انتهت بواقعة ٣٠ حزيران ١٩٣٤ فترة تجريبية انتهت بذلك الحد الفاصل وبحلول عام ١٩٣٧ لم يجتمع مجلس الوزراء ولا مرة حتى انتهاء فترة حكمه وصار يتخذ القرارات الحاسمة كالحرب والسلام لوحده دون معرفة اغلب الوزراء وكان هذا بعد تشكيله للوزارة بأربع سنوات. وأغرب ما بالامر ان هتلر لم يأت للسلطة نتيجة لثورة معلنة وانما وصل الى السلطة من خلال الاضطراب البرلماني الذي شهدته المانيا قبل توليه منصب المستشار .

ان التطور التأريخي الذي أدى الى مجيء هتلر للحكم اعقبه تطور آخر ربما يمكننا بالقاء الضوء عليه بيان السبب الذي جعلنا نرضخ وبصورة تدريجية لتقبل حكمه المطلق لألمانيا.

ألا انني اشك بوجود خطة مدبرة سار هتلر بموجبها حتى ادرك حالة الاستبداد التي اشتهر بها. وأظن بأن طبيعته القلقة استهوتها مغريات كثيرة كالتأييد الشعبي الذي ابدته اغلبية ابناء الشعب الالماني دون التزامه بشروط معينة لتلك الجماهير وعدم وجود مقاومة عمالية والتزلف الذي لقيه من بطانته. وعدم وجود أية مقاومة لنظامه من القوى الشعبية وافتقار العناصر المحافظة في حكومته للقدرة على مقاومة اهوائه. والانتصارات الباهرة التي حققها في ميدان السياسة الخارجية والتي فشل اسلافه في تحقيقها واخيرا وليس آخرا حبه الشديد للسطوة الذي أدى به الى عدم التورع عن زج المانيا بحرب عالمية.

لقد اوجزت كل هذه العوامل لكي ابين الاسباب التي لمستها عندما عملت نائبا له خلال الفترة من ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ حتى استقالتي في تموز ١٩٣٤.



الفصل السابع عشر
قانون الصلاحيات الاستثنائية



منهج الائتلاف . كتلة الانتخابات اسود ـ ابيض ـ احمر[1] . عرضت وجهة نظري . حريق مبنى مجلس النواب . يوم ٥ آذار . قانون الصلاحيات الاستثنائية . نيابة المستشار .

كانت ليلة ٣٠/٣١ كانون الثاني ١٩٣٣ ليلة قاتمة الظلمة وقد نائت فوق برلين بطبقة كثيفة من الغيوم الزرقاء عندما مرت مواكب الاحتفالات التي بدت بأرتال لا نهاية لها من حملة المشاعل ذوي الصفة شبه العسكرية الذين كانوا اعضاء في منظمات الخوذة الفولاذية ووحدات العاصفة وقطعات الحماية[2]. بينما اصطف الآلاف من سكان برلين وهم يشهدون هذا المنظر غير المألوف . وكان انطلاق المواكب من بوابة براندنبورغ[3] ومرورها على

(١) هذه هي الوان العلم الالماني في العهد الامبراطوري . ـ المترجم ـ
(٢) المعروفة بالمختصر المشهور (SS) .
(٣) تعتبر بوابة براندنبورغ من اشهر معالم برلين واصبحت الآن في برلين الشرقية ولو انها تطل على برلين الغربية أيضا .

ـ المترجم ـ

امتداد شارع فيلهلم. ولما اقتربت طلائع تلك المواكب من الجناح الشمالي لمبنى دار المستشارية هب الرئيس فون هندنبورغ واقفا وقفة اجلال لاولئك الشباب المتحمسين . وعلى بعد مائة متر عنه وقف هتلر في شرفة من الشرفات الصغيرة وقد تراجعت قليلا عن الشرفة وبقيت بنفس الغرفة لكي اتيح لهتلر وغورنغ فرصة الوقوف في الواجهة.

لقد كان فون هندنبورغ يولي منظمة الخوذة الفولاذية الكثير من عطفه لأنه خبرها قوة مقاتلة منضبطة تطوع افرادها للدفاع عن الوطن ازاء البولنديين طوال سنة ١٩٢٠.

ولم نعتبر القوات شبه العسكرية التي كانت تدفق امامنا قوات ذات صفة ثورية . وانما اعتبرناها قوة احتفالية تقدم تحية للرئيس الذي يمثل الجيل القديم.

أما هتلر فقد بدى في احسن حالاته بعد ان حقق حلمه الذي انتظره طويلا وقد فاض شعوره بالسرور على لسانه فأنطلق يحدثني قائلا:

« اية مهمة عظيمة تنتظرنا يا سيد فون پاپن»

فأجبته بصورة عفوية تلقائية:،

« سنحاول ايجاد الحلول المناسبة لها سوية يا سيد هتلر».

ولم يخطر على بالي ان المتحدث معي بهذه البساطة سيكون أشهر مستبد في العالم.

بدى لي هتلر واعوانه المقربون مأخوذين بسحر الاحتفال الذي لم ارغب انا وزوجتي بالبقاء حتى انتهائه وانما تسللنا عائدين الى منزلنا بينما استمر مرور المواكب الى ساعة متأخرة بعد منتصف الليل.

واجتمعنا في صباح اليوم التالي لكي نضع منهج العمل الذي ننفذ به اهداف الأئتلاف الوزاري. وقد استهل هتلر حديثه بجعل الوحدة الوطنية للشعب الألماني واستعادة ثقته بنفسه واحياء القيم الروحية السائدة فيه الهدف الأول لحكومته . اما اعادة انشاء الاقتصاد فقد قال انه سيحاول

تنفيذه باعداد خطتين متعاقبتين امد كل منهما اربع سنوات. وقد تطرق بهذه المناسبة لاول مرة الى ضرورة حصول الحكومة على صلاحيات استثنائية. وسرعان ما خطرت في ذهني مقارنة سريعة بلجوئه للأساليب السوفيتية في وضع خطط تنفذ على مدى سنوات عديدة لكنني وجدت حله صائبا في معالجة هذه القضية فأيدته فيما اقترح.

وأردت من جانبي ايجاد تكتل يضم العناصر المحافظة في الوزارة لكي اضمن التعاون المشترك لمواجهة النازيين فأعتمدت القيم المسيحية لأجعل من الدين رابطة أحافظ بها على معنويات اصدقائي المحافظين والتأكيد على اعتبار الأسرة الخلية الاساسية لتكوين شعبنا وبنية الدولة وعليه فقد جعلت الأسرة الوحدة الاجتماعية الاكثر جدارة برعاية الدولة وحمايتها. أما بصدد السياسة الخارجية فقد أردت ان تكون دولتنا حريصة على حفظ السلام مع الاحتفاظ بمكانة مشابهة لمكانة الدول الاوربية الاخرى فيالمجتمع الدولي والتأكيد على تجنب الاشتراك بأي تكتل دولي عدواني من شأنه اثارة المشاكل وتعريض المانيا للخطر.

وقد ابدى هتلر ترحيبا بهذه الآراء وأشار الى اننا سنكون محظوظين اذا ما استجاب العالم الى النداءات المخلصة لنزع السلاح.

ثم تحول حديثنا الى الانتخاباتالجديدةالتي تقرر اجراؤها في ٥ آذار١٩٣٣ فأوضحت لهتلر بأنني سأحاول تأليف كتلة من جميع أعضاء الحكومة الذين لا ينتمون لحركته واستقطاب مؤيديهم لاسناد الحكومة . لكنه ظهرت عليه امارات المفاجأة وقال لي انه يفضل عدم تأليف مثل هذا التكتل.

فأجبته بتعذر ذلك بعد ان تقرر تأليفه وانه يمثل حركته بينما نمثل نحن وجهة نظرنا . ولكنني مع ذلك شديد الرغبة في مواصلة التعاون معه لانجاز مهماتنا الوطنية . فلم يظهر على وجهه ما يشير الى رضاه عن مقترحي وهكذا لم يعد يتطرق لبحث هذا الموضوع.

قدرت آنذاك بأنني اذا ما أردت التصدي للحركة النازية بصورة جدية

فلابد لي من تحشيد جهود جميع الاحزاب الأخرى التي أصبحت بموقف ضعيف بعض الشيء نظراً لأن عددها يبلغ الثلاثين حزبا وهذا اسـطع دليل على مدى تشتت الافكار السياسية في المانيا آنذاك وتعذر تطبيق المباديء التي كنا نؤمن بها. ومع ذلك فقد شرعت بالاتصال مع زعمـاء تلك الاحزاب بدئا بهوغنبرغ لكي نتوصل لاعداد قائمة مرشحين موحدة ننافس بها النازيين في الانتخابات. وكانت حصيلة ذلك ان اعددنا رجالا مجربين اكفاء من الشيوخ ازاء النازيين الشباب المتدفقين حماسة. كما أحجم بعض زعماء الاحزاب عن منافسة الحزب النازي لأنهم لم يشاؤوا ان يكونوا ضحايا لغضب هتلر.

وكان النجاح الوحيد الذي تمكنت من تحقيقه هو توطيد التعاون في المستقبل مع العناصر المناهضة للنازية. وكان ان انشأنا الكتلة الانتخابية اسود ابيض احمر التي خضنا بها انتخابات ٥ آذار ١٩٣٣ والتي تمخضت عن فشلنا الذريع. وكنت قد ذكرت آنفا الأسباب التي حدت بالشعب الالماني لتفضيل الحركة النازية على التكتل الديني المحافظ .

وابرز دليل على ذلك ما حصل لمنظمة (الخوذة الفولاذية) شبه العسكرية التي كانت تحظى باعجاب ورعاية الاوساط الدينية والمحافظة الا ان أغلب رجالها ادلوا بأصواتهم في انتخابات ٥ آذار ١٩٣٣ لصالح القوائم النازية. وأظن اننا كان علينا ان لا نتوقع تصويت رجال (الخوذة الفولاذية) لصالحنا بعد أن ساروا في مواكب الاحتفالات لحملة المشاعل ابتهاجا بوصول هتلر الى

وكنت قد عرضت برنامجي الانتخابي في سلسلة من الخطب التي القيتها في طول المانيا وعرضها حيث افتتحت مساهمتي بالمعركة الانتخابية بلقاء نظمته في جامعة برلين يوم ٢١ شباط ١٩٣٣ ودعوت له الطلبة من جميع الميـول والاتجاهات السياسية وحاولت توضيح اهمية التمسك بالقيم الروحية من اجل خدمة مجموع الشعب الالماني والمناداة بالحق والحرية.

وقد يتهمني البعض بالترويج للرجعية والعودة الى القرون الوسطى لكنني وجدت في الاهتمام بالقضايا الروحية مصدرا جيدا لمناهضة المادية

التي طغت على القيم الاخلاقية والتي لم تتورع عن تزييف مفـاهيم الحق والحرية.

والآن وبعـد أن وضعت الحرب العالميـة الثانية أوزارها يمكنني تأكيد ما سبق ان قلته امام طلبة جامعة برلين آنذاك:

« في القضايا التأريخية الكبرى لا توجد خطيئة روحية ولكن توجد خطيئة تأريخية ».

وكنت اعني بذلك خطيئة الماركسية التي سعت لتحويل حياتنا الى حياة آلية .

والمؤسف ان التصدي للشيوعية في المانيا لم يكن ممكنا بغير الاعتماد على النازية.

ثم اني تطرقت في حملتي الانتخابية الى قضيـة تصنيف البشر وفقا لعروقهم وهي القضية التي لوثت سمعة الشعب الالماني في المجتمع الانساني فقلت في خطابي الذي ألقيته بمدينة غلايفتز :

« نحن نقف ضد البحوث المتعلقة بالاجناس وضـد فكرة خصائص الأقوام المبنية على أســاس عرقي . ولا نريد لشعبنا أن يكون بدعوى النقاء بعيدا عن العلاقات الطبيعية مع الشعوب الاخرى. ثم ان حبنا لشعبنا ينبغي ألا يكون حافزا لكره الشعوب الاخرى أو الاجناس الاخرى . فهذه قضية حاسمة لأن التفرقة العرقية تتناقض مع المفاهيم المسيحية وهي بالتالي ستجرنا الى نزاع مع الدين المسيحي ذلك لأن الدين لا يفرق بين الناس على أســاس عرقي وليس لنا أن تتخلى عن الديانة المسيحية لكي نستعيض عنها بديـانة جديدة تؤمن بالشعب النوردي الألماني».

أما سياستنا الخارجية فكان هدفها الاول تحقيق سيـادتنا في جميع المجالات الدولية . وقد كررت ما سبق ان ذكرته في مؤتمر لوزان بوجوب محاولة التوصل الى تفاهم وعدم الاعتراف بالتواقيع التي وقعها ممثلو المانيا تحت ظروف الاكراه وقلت ان سياستنا يجب ان تبنى على أسس المحافظة

على السلام، ولكي تكون سياسة المانيا الخارجية موحدة قوية فلابد انتمثل المانيا برمتها دون ان تؤثر على الحكم الذاتي لأي من الاقاليم الالمانية.

ان هذا العرض الموجز للخطوط العامة لسياستنا لا يمكن أن يوضح الصورة المطلوبة للنهج السياسي الذي اتبعته، ألا انه يعطي للقاريء فكرة عن مدى رصانة الافكار المتعارضة مع المفاهيم التي طبقها الحزب النازي ابان عهد هتلر . وكانت نقطة ضعفي تكمن في عدم استطاعتي ممارسة النقد المباشر للحكومة التي كنت مشتركا معها بتحمل مسؤولية الحكم.

وكل ما كنت قادرا على محاولة تنفيذه هو استمالة الناخبين بعرض الجوانب الايجابية من برنامجي الانتخابي، ولربما اعرض عنا الناخبون لأنهم استهوتهم النواحي المغرية من البرامج النازية او انهم قارنوا بين الجوانب السلبية من دعايتنا الانتخابية والجوانب الايجابية للدعايات المنافسة لنا. أو اننا لم تتصرف بذكاء يلفت انظارهم الينا . ولقد تصور الكثيرون ان هتلر تصنع الميل للاتجاه المحافظ فأستمال بذلك كل الاصوات التي كنت آمل الحصول عليها.

في مساء ٢٧ شباط ١٩٣٣ اقمت دعوة عشاء على شرف الرئيس فون هندنبورغ وفجأة شاهدنا من شباك النادي المطل على ركن شارع فوس السنة اللهب تشب ببناية مجلس النواب . فهب المشير من مجلسه وصرنا نراقب النيران والدخان المنبعث من الحريق الرهيب، ثم رجوت المشير ان اصحبه الى داره لكي أسرع بعدئذ للذهاب الى مجلس النواب فأحيط بجوانب القضية في موقع الحادث . ألا انه ابدى قلة اكتراث لما حدث ولكنه عاد فأبدى رغبته في الحصول على تفاصيل القضية.

عندما وصلت الى بناية البرلمان وجدت ان الشرطة طوقتها ولما وصلت الى مدخل نصف محترق صادفت هرمان غورنغ الذي كان يشغل منصبي وزير الداخلية ورئيس مجلس النواب وكان يشرف على فعاليات السيطرة الضرورية على الموقف، وقد قال لي آنذاك:

« ان هذا العمل لا يمكن أن يكون الا محاولة اغتيال شيوعية ضد حكومتنا الجديدة »•

ولما سيطرت قوة اطفاء الحريق على النيران تماما غادرت المكان وقلت لغورنغ ان هذا الحريق اذا لم يكن مجرد حادث فأنه لابد أن تكون له أسباب سياسية•

وقد علمت ان الشرطة القت القبض في مكان الحادث على شيوعي أجنبي، ولم اتردد ابدا في تأييد وجوب اتخاذ اجراءات صارمة ضد العناصر التي تثبت اداتتها في القيام بهذا العمل• وقد أخبرنا هرمان غورنغ في جلسة مجلس الوزراء باكتشاف مبرزات جرمية كثيرة بمنزل ليبكنشت عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الالماني من بينها قوائم بأسماء الزعماء السياسيين المقرر تصفيتهم في حالة نشوب ثورة شيوعية وكان اسمي بطبيعة الحال من ضمن الاسماء المذكورة في تلك القوائم•

كان القاء القبض على الشيوعي الهولندي فان دير لوبه مثار جدل استمر فترة طويلة كما ان البعض اشار الى احتمال تدبير النازيين لتمثيلية احراق البرلمان الالماني من أجل ايجاد مبرر لتصفية خصومهم والآن وبعد ان انقضى ذلك العهد فانني لا اتصور اقدام الحكومة على زج نفسها في صراع مصيري مع حزب قوي كالحزب الشيوعي وهي لا تزال في اول عهدها بالحكم وتعريض الدولة كلها للخطر•

ولحد يوم الناس هذا لم يثبت بشكل قاطع تدبير الحريق المذكور من قبل جهة معينة• وعندما اعتقلت بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة وارسلت الى معسكر الاعتقال في ريغنسبرغ كان معي في زنزانتي المدير السابق لمكافحة الاجرام بوزارة داخلية بروسيا ويدعى هايسيغ• وقد قال لي الرجل بأنه كان أول من وصل من المسؤولين الى البرلمان بعد الحريق• فتأكد له من التحقيقات التي أجراها ان فان دير لوبه قام بنفسه بجميع الاستحضارات الضرورية للقيام باحراق بناية البرلمان وانه جلب من هولندا كل ما يحتاجه من المواد الحارقة ويرى هايسيغ ان فان دير لوبه كان شيوعيا متطرفا يحب الشهرة

وشغوف باشعال النيران وقد سجلت له الشرطة الالمانية سوابق عديدة منها محاولة احراق دار البلدية في شونبيرغ ومحاولة احراق مؤسسة العمل ببرلين ومحاولة احراق قصر برلين • وعليه فانه يرى ان فان دير لوبه قام باحراق بناية البرلمان بتدبير ذاتي انفرد به وحده دون أي ايحاء من الحزب الشيوعي او من الحزب النازي•

ويبدو وفقا لهذه التحقيقات الجنائية المحضة ان النازيين استغلوا الحادث الى ابعد الحدود وركزوا دعاياتهم على توجيه التهم للحزب الشيوعي بغية الايقاع بأعضائه والقضاء على وجوده في المانيا • وتشير التحقيقات الجنائية المستفيضة الى استغلال هذه القضية سياسيا من قبل كل من هرمان غورنغ ويوسف غوبلز• ويبدو ان المستشار العدلي للدولة الالمانية فوغت ـ وهو وصولي معروف ـ أراد أن يثبت جدارته في الأوساط النازية فتطرف في اتخاذ الاجراءات الشديدة ضد الشيوعيين الألمان •

وبعد نشوب الحريق المذكور مباشرة سرت اشاعات واسعة في جميع ارجاء العالم وكلها تشير الى ان الحريق لم يقم به فان دير لوبه وانما تم بتدبير من هرمان غورنغ وقد ساعده في تنفيذه بضعة افراد من وحدات العاصفة وقائد وحدات العاصفة لمنطقة برلين أرنست[٤]• ولم يكن بالامكان خلال عهد هتلر التحري عن مدى صحة هذه المزاعم بطبيعة الحال• الا ان الشهود في محاكمات نورمبرغ حاولوا بذل قصارى جهودهم لألقاء التبعة على هرمان غورنغ[٥]• وبعد ان انتهى الجميع من اقوالهم قال غورنغ للفريق دونوفان رئيس الخدمات السوقية الامريكية:

« ينبغي أن تصدقوا وتتيقنوا بأنني وانا مشرف على الموت سوف لن اكذب للتنصل من مسؤولياتي • وعليه فانني اؤكد لكم بأنني لم أقم بأدنى

---

(٤) قتل كارل ارنست ضمن من شملتهم تصفية هتلر لزمرة روهم في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ •

ـ المترجم ـ

(٥) حكم على مشير الدولة هرمان غورنغ بالاعدام الا انه انتحر قبيل تنفيذ الحكم •

ـ المترجم ـ

فعالية فيما يخص حريق دار البرلمان»[٦].

وعلى أية حال فان الحزب النازي استطاع ارهاب شركائه المحافظين وتحقيق التفوق الساحق عليهم بعد ان سدد ضربة قاصمة مضادة للحزب الشيوعي قبل ان تتاح للشيوعيين فرصة التعرض عليه. ولربما كان حريق المجلس تمثيلية متقنة أو استغلال بارع استفاد منه رجل الدعاية النازي الماهر يوسف غوبلز الذي اتقن العمل من وراء الستار فحقق نجاحا مذهلا ظلل به مشاهديه من ابناء الشعب الالماني الذين غابت عنهم الحقيقة.

خاض الناخبون الالمان الانتخابات الجديدة في ٥ آذار ١٩٣٣ وهي انتخابات فريدة في تأريخ الشعب الالماني من حيث النتائج التي تمخضت عنها . إذ بينما كان عدد المصوتين الى جانب هتلر في ٦ تشرين الثاني ١٩٣٢ مجرد ١١ر٧ مليون ناخب اصبح هؤلاء في الانتخابات الجديدة ١٧ر٢ مليون ناخب فأرتفع عدد المقاعد البرلمانية التي كسبها النازيون من ١٩٥ مقعد الى ٢٨٨ مقعد . ولم تحصل اية تغييرات تذكر على المقاعد التي كسبتها احزاب اليسار والوسط حيث حصل الاشتراكيون الديموقراطيون على ١١٩ مقعد أي بخسارة مقعدين وحصل الحزب الشيوعي على ٨١ مقعد أي بخسارة ٨ مقاعد بينما كسب حزب الوسط ثلاثة مقاعد فقط.

ولقد ثار فيما بعد كثير من اللغط فزعم الزاعمون ان النازيين لم يحققوا تلك النتائج الانتخابية الا بتأثير الارهاب وبتزييف الانتخابات. وهذا خطأ لا شك فيه. فلربما تأثر الناخبون بفرض حالة الطواريء في اقليم بروسيا اعتبارا من ٢ شباط ١٩٣٣ مما حدد نشاط احزاب المعارضة في ذلك الاقليم فقط الا ان الاقاليم الالمانية الاخرى كانت خاضعة لوزير داخلية نظام ڤايمار.

---

(٦) اكدت عقيلة هرمان غورنغ الثانية السيدة ايمي غورنغ في كتابها (وقفت الى جانب زوجي) بأن زوجها كان شديد الوفاء لزوجته الاولى البارونة كارين فون فوك التي توفيت بالسرطان عام ١٩٣١ وانه كان يحتفظ بمقتنياته الخاصة ومنها مجموعة صورها العزيزة على قلبه في مكتبه ببناية البرلمان وكان لاحتراقها مع ما احترق في الحادث المذكور رنة اسى ظل يذكرها بحسرة وتقول انه ليس من المعقول ان يقوم بتدبير احراق البرلمان ويغفل نقل تلك الصور الاثيرة . — المترجم —

وثمة دليل آخر على نظافة تلك الانتخابات وأعني به حصول الحزب الاشتراكي الديموقراطي وحزب الوسط على نفس العدد الذي كسباه تقريبا من مقاعد البرلمان منذ ثلاثة عشر عاما من ذلك التأريخ.

حصلت كتلتي السياسية في تلك الانتخابات على ١ر٣ مليون صوت أي اننا كسبنا ٢٥ مقعدا في البرلمان الجديد بينما قفزت نسبة النازيين الى ٤٧٪ من جميع مقاعد البرلمان فحققوا بذلك اغلبية واضحة وتفوقوا على جميع الاحزاب.

ولست ادري من الذي اوحى لهتلر بفكرة الاحتفال بافتتاح المجلس الجديد في كنيسة حامية پوتسدام. اذ مما لا شك فيه انه حاول اضفاء مسحة من التقاليد الاحتفالية على ذلك الافتتاح لاسباب دعايوية محضة. ولعل مصدر الفكرة هو ما درج عليه ملوك بروسيا ثم امبراطوري المانيا بعدهم عندما كانوا يفتتحون مجالسهم النيابية باحتفالات ذات صبغة دينية.

ولشد ما استغربت من تصرف هتلر بتسلله من القاعة التي اقيم بها القداس لرغبته في البقاء بعيدا عن سماع الطقوس الكنسية فخففت ورائه محذرا من تعريضه نفسه وبالتالي حركته للنقد اللاذع بسبب هذا التصرف لأنه يمثل الامة برمتها في الاحتفال المذكور . وكان تصرفه قد نم عن اول حادث من نوعه أثرته عنه وتكرر فيما بعد في مناسبات مشابهة.

وتسائلت مع نفسي آنذاك . أهو التهيب من المجتمع أم الامتهان للكنائس ؟ ولو قرأنا الآن (أحاديث هتلر على المائدة) لوجدنا انه طالما استهزأ بالكنيسة مما يفسر لنا سر نفوره من حضور القداس في كنيسة حامية پوتسدام. وعلى ذكر (أحاديث هتلر على المائدة) فان المتمعن بدراستها يجدها حافلة بالمغالطات التأريخية . وواضح انه كان يمقت الكنيسة لكن خشيته من التعرض للنقد كان السبب في احجامه عن ذكر ذلك جهراً.

بدى هتلر اكثر غطرسة بعد ظهور نتائج الانتخابات وكان سروره قد فاق الحدود لذلك النصر الانتخابي. الا ان الذي كدره هو عدم تضامن كتلتنا

السياسية في منهاجها السياسي مع حزبه. وقد أظهر لي دقة معلوماته بشأن فحوى خطاباتي الانتخابية مع تحفظه بصدد بعض الآراء التي اوردتها . اذ قال لي بهذه المناسبة:

« انك جندي قديم يا سيد فون پاپن . وانت تعرف القواعد القديمة التي تنص على وجوب الهجوم بأقوى كتيبة متيسرة. فاذا ما هجمنا سوية عندئذ سوف لن يتمكن احد من منازعتنا حول النجاح الذي سنحققه».

ثم ان هتلر ما لبث ان طالب بمنحه صلاحيات استثنائية تتيح له امكانية تطبيق الاصلاحات الاقتصادية التي اقترحها.ولم يحاول أبدا اخفاء نواياه بصدد الحصول على صلاحيات استثنائية. اذ كان على الاحزاب الاخرى ان تأخذ في حساباتها ان هتلر كان يسعى لاستصدار قانون الصلاحيات الاستثنائية منذ تشرين الثاني ١٩٣٢ أي قبل وصوله للحكم . وقد أدركنا أنا وأصدقائي من المحافظين ورجال الكنيسة بأنه اذا ما حصل على تلك الصلاحيات فسيحصل على ميزة اضافية جديدة بعد ان حاز اكثر من ثلثي مقاعد البرلمان.

ولقد طالب هتلر بالصلاحيات بكل وضوح في خطابه الذي القاه امام البرلمان يوم ٢١ آذار ١٩٣٣ ولما اقترع البرلمان على هذا الطلب ايده الأب كاس ممثل حزب الوسط ورتر فون ليكس ممثل حزب الشعب الباقاري والسيد ماير ممثل حزب الدولة والسيد زميفن دويرفر ممثل الحزب المسيحي الاجتماعي وبعد التلاوة الثالثة للمقترح أعلن رئيس المجلس هرمان غورنغ اقرار الطلب بتصويت ٤٤١ نائب لصالح هتلر مقابل ٩٤ نائب أي انه حصل على نسبة ثلثي الاصوات اللازمة . ثم اعلن غورنغ عن تأجيل التئام المجلس الى أجل غير مسمى.

ومما لا شك فيه ان حصول هتلر على الصلاحيات الاستثنائية المتتالية اوصله الى الحكم المطلق والغى دور الدستور وانهى دور البرلمان . ويتحمل وزر هذه الخطيئة جميع النواب الذين صوتوا لصالح هتلر شأنهم في ذلك شأن الوزراء الذين اعدوا لوائح الصلاحيات الاستثنائية.

تبين لي ان منصب نائب المستشار كان منصباً عديم الاهمية . فقد أوجد هذا المنصب خصيصا لي وقبلت تسنمه لكي أتمكن من خلاله قدر المستطاع من السيطرة على تأثير هتلر المتوقع على الحكومة وتحديد فعالياته . الا ان هذا المنصب لم يتح لي أية فرصة للتأثير على الوزراء بدرجة قلت ام كثرت. اما العاملين معي في مكتبي فكانوا رجالا قلائل ولكنهم تميزوا بالكفاية الى ابعد الحدود اذ كان الدكتور زابات مديرا لمكتبي بدرجة وكيل وزارة وهو موظف كفوء يتمتع بخبرة ممتازة. وكان مستشاري القانوني السيد فون سافيغني رجلا حصيفا متمكنا من مهنته لدرجة كانت تعتمد معها الوزارات الأخرى على مشورته القانونية في مختلف اللوائح فيبدي بها آرائه السديدة التي لا ترد. وكان مدير ادارة الصحافة في مكتبي السيد فون بوسه الذي اورده موقفه المعارض لهتلر حتفه فقتل في تصفية يوم ٣٠ حزيران ١٩٣٤وكان معاونه البارون ڤيلهلم فون كيتيلر وهو عدو لدود للنازية وسأتحدث عنه في فصل لاحق باسهاب عندما اتطرق لواقعة وفاته في آذار ١٩٣٨ .

وكان معاوناي الشخصيان السيد فون تشيرشكي الذي فر الى بريطانيا عام ١٩٣٥ بعد ان شعر بتهديد حياته نتيجة لمضايقة شرطة الدولة السرية له .. وغراف كاغينيك الذي ادى به اخلاصه الى الاصطدام بالنظام النازي فلقي مصيره المحزن وسأتفصل في بحث واقعته في فصل لاحق.

لقد كان اخلاص تلك الزمرة العاملة في مقر نائب المستشار للوطن مدعاة لجعلها الملاذ الوحيد للتدخل في كثير من القضايا ومناقشة هتلر او غورنغ او فريك او غيرهم بغية التوصل الى تسوية بشأن التجاوزات القانونية او الانسانية . وكانت حصيلة ذلك ان افلحنا في ايجاد الحلول لكثير من المشاكل كما أننا أخفقنا أيضا في التوصل الى حل أو تسوية لكثير من القضايا .

لقد كان بودي ان استرسل في بحث الكثير من الامثلة على ما ذكرت

لكن المؤسف هو ان اوراقي اصاب بعضها الحريق او الفقدان كما انني نسيت التفاصيل الدقيقة لتلك الوقائع . لكنني اؤكد ان أغلب التدخلات التي اثمرت كانت اما لتخليص اناس من معسكرات الاعتقال او لكف الاذى عن منظمات ثقافية أو علمية أو سياسية أو دينية. ونظرا لتسلط النازيين على الصحافة آنذاك بصورة مطلقة فقد كنا نستعين بالصحافة الاجنبية لعرض وجهات نظرنا المناهضة لهتلر ونظامه.

لقد كنا نشكل نواة مقاومة هتلر بصورة فعلية ولم نكن من اولئك الذين يخشون من الافصاح عن آرائهم حتى لأقرب الناس اليهم ويكنون حقدهم على هتلر في قلوبهم ولكنهم لا يسمعون صوتهم حتى لأقرب الناس اليهم[٧] .

(٧) هذه ايمائة تنديد بالدكتور اديناور الذي ناصب المؤلف العداء . — المترجم —



الفصل الثامن عشر

مُعَاهَدَة مَعَ البَابَا



زيارتي لروما . محادثة مع البـابا بيوس الحادي عشر . معارضـة المتزمتين.مشاكل اجتماعية . الغاء صراع الطبقات.مشكلة اليهود. علم الصليب المعقوف . لون بلومبرغ المعروف . غوبلـز يدخـل في الحكومة . المشكلة البروسية . استقالتي من منصب حاكم بروسيا العام . معسكر الاعتقال . السياسة الخارجية . انسحاب المانيا من عصبة الامم . قضية النمسا . مشكلة السار .

بذلت قصارى جهودي لأرساء الحكومة الجديدة على أسس مسيحية . وفكرت آنذاك بأنني اذا ما نجحت في هذا السبيل فستسهـل علي بقيـة الأمور. ووجدت عند شروعي بمحاولتي هذه ان من المناسب عدم الاكتفـاء بالتطمينات التي يقوم بها هتلر وانما الاعتماد على ضمانات قانونية جازمة لتأكيد حقوق الكنيسة المسيحية لاسيما بعد ان تفاقمت موجة الألحاد التي قام بها جناح متطرف من الحزب النازي. وعليه فقد قررت قضـاء عطلة عيد الفصح في روما للتحري بصورة شخصية عن مدى امكانيـة التوصل لاتفاقية بين الفاتيكان والمانيا.

لم تكن هناك اية معاهدة بين الفاتيكان والمانيا منذ عهد الاصلاح الديني الذي قام به مارتن لوثر. وكانت بعض الاقاليم الالمانية ذات الاغلبية الكاثوليكية قد عقدت معاهدات مع الفاتيكان امثال اقليم باقاريا. كما ان اقليم بروسيا ذو الاغلبية البروتستانتية كانت له اتفاقية مشابهة مع الكرسي البابوي. وكان حزب الوسط قد حاول في عهد حكومة ڤايمار اكثر من مرة التوصل الى تفاهم مشابه مع الكنيسة الكاثوليكية.

استقبلني موسوليني الذي عرفته بتلك المناسبة لأول مرة بحفاوة واضحة بدئا من وصولي للحدود الايطالية رغم الصفة الشخصية لزيارتي وأبدى استعداده لتسهيل اقامة علاقات جديدة بين المانيا والفاتيكان. وكان موسوليني قد أقام هو الآخر علاقات طيبة بين حكومته والكرسي البابوي .

وقد بدى لي موسوليني من عيار آخر يختلف تمام الاختلاف عن هتلر. فجرمه الأميل للربعة وسلاطة لسانه ونظراته المتعالية تجعل منه شخصية متسلطة بشكل واضح. بينما تعطيك شخصية هتلر شعورا بعدم اطمئنان واضطرار على التوجس . لقد كان موسوليني فظاً يحاول فرض شخصيته على الآخرين من أنداده .

كان أمين سر دولة الفاتيكان الكاردينال اويغينيو پاتشيلي (الذي صار فيما بعد البابا بيوس الثاني عشر) قد مثل دولة الفاتيكان لدى المانيا طوال أحد عشر عاما . اذ اشتغل في أول الأمر في اقليم باڤاريا ثم في المانيا برمتها . وقد خدم الى جانبه بعد الحرب العالمية الثانية الأب الدكتور كاس الذي استقال من زعامة حزب الوسط في المانيا وآثر العمل لدى مقر دولة الفاتيكان في كنيسة بطرس.

بعد ان اجريت محادثاتي التمهيدية مع الكاردينال پاتشيلي استقبلني البابا پيوس الحادي عشر وحظيت انا وزوجتي بعطف قداسته وحنانه الأبوي واسبغ علينا فيض من بركاته وتمنياته لنا بالسعادة والحظ واعرب عن سروره بوصول هتلر الى الحكم لأنه وجد في ذلك الدليل على انتصار القوى المناهضة للشيوعية في المانيا. وسرعان ما اعد الفاتيكان الخطوط العامة للمعاهدة

المقترحة فأخذت مسودتها ورجعت بها الى برلين ثم خول الفاتيكان رئيس اساقفة فرايبورغ الدكتور غرويبر فتعاونا أنا واياه بأفضل ما يمكن انيكون التعاون في هذا السبيل •

تقبل هتلر مقترحي بموافقة فورية أذهلتني • وكان أفضل ما في الاتفاقية هو منح الحرية التامة لمدارس الكنيسة الكاثوليكية وللمرة الأولى في المانيا كلها •

ولكي يدلل هتلر آنذاك على صدق نواياه تجاه الكنيسة رجاني ان أمثله رسميا في احتفال افتتاح مقر القاصد الرسولي بمدينة ترير وقد شارك معي في ذلك الافتتاح الرسمي عدد كبير من قادة الحزب النازي وقام رجال وحدات العاصفة بتنظيم الاحتفال واستقبال المدعوين•

وعلى اية حال فان الكاردينال پاتشيلي امين سر دولة الفاتيكان ومساعده الدكتور كاس اعتبرا الاتفاقية المعقودة مع المانيا مكسبا كبيرا لأنها وحدت جهود الكنيسة الكاثوليكية مع جهود المانيا ضد موجة الالحاد التي كانت تهدد اوربا من الشرق•

ثم ان هتلر ابدى موافقته على التعجيل باتخاذ الاجراءات اللازمة لاقامة علاقات دبلوماسية طبيعية مع الفاتيكان وكلف وزارة الخارجية باتخاذ ما يقتضي لتنفيذ ذلك • وكان ان مثل وزارة الداخلية في المحادثات التمهيدية التي اجريت في تموز ١٩٣٣ مستشار وزارة الداخلية الدكتور بوتمان • وكان هذا الموظف القدير قد قدم لي افضل اسناد ممكن في هذا السبيل•

عندما سافرت الى روما ثانية في مطلع تموز ١٩٣٣ لوضع تفاصيل الاتفاقية المعقودة مع الفاتيكان بدأت محاولات الاحباط الجدية من بعض العناصر المهمة في الحزب النازي• وكانت حصيلة تلك المحاولات ان اراد هتلر اجراء بعض التغييرات على المسودة المقترحة الا انني افلحت في اقناعه بقبولها كما وضعت•

كنت أشاهد موسوليني كثيرا خلال وجودي في روما • وقد شجعني على التعجيل بابرام المعاهدة المقترحة مع الفاتيكان • وقال ان عقد الاتفاقية مع

الفاتيكان من شأنه ان يعزز مكانة المانيا في الاوساط الدولية • فرجوته بدوري ان يوعز لسفيره ببرلين كي يقول لهتلر كلاما بهذا المعنى• وقد وضح لي ان الدكتور يوسف غوبلز وزميله السيء الصيت راينهارد هايدريش[1] هما اللذين كانا وراء محاولات الاحباط المتعمدة لهذه الاتفاقية • فأضطررت على التحدث هاتفيا الى هتلر وقلت له ان الفاتيكان سوف لا يعترف به ندا في الاتفاقية المقترحة ما لم يتخذ الاجراءات الفورية لوضع حد للمحاولات السرية التي يقوم بها بعض كبار النازيين من أجل احباط مشروع الاتفاقية • فطلب الي التأكيد للكاردينال امين سر دولة الفاتيكان بأنه سيمنع جميع محاولات التدخل غير المسؤولة•

في ٨ تموز ١٩٣٣ تم التوقيع بالاحرف الاولى على الاتفاقية المقترحة وفي ٢٠ تموز ١٩٣٣ تم التوقيع الرسمي على الاتفاقية باحتفال اقيم في مقر أمانة سر دولة الفاتيكان • ولم اكن سعيدا بعقد الاتفاقية المذكورة فحسب وانما كنت وطيد الامل بأنني نجحت في وضع الاسس القويمة لانشاء علاقات جديدة مع الفاتيكان • وكان شعور البابا وأمين سر الفاتيكان مشابها لشعوري• لأنهما فرحا كثيرا معي في تحقيق امنية عزيزة علينا هي اتاحة الفرصة للشبيبة الالمانية لتلقي العلوم الدينية في المدارس الخاصة بالكنائس لاسيما وان المنع الذي فرضته الدولة الالمانية كان مؤلما لنفوسنا بعد ان درج الالمان على تلقي العلوم الدينية في تلك المدارس منذ مئات السنين ولأننا كنا نرى مدى أهمية هذه الدراسة لشعوب وسط اورباه

علمت فيما بعد بعض تفاصيل المحاولات المضادة لتوقيع الاتفاقية ومنها ان الدكتور غوبلز راجع هتلر وقال له انه يجب ان يبذل قصارى جهوده لتفادي التوقيع على هذه الاتفاقية (الشيطانية) ولكنه لم يدرك ان هتلر كان بحاجة ملحة لكسب ود الاوساط الدينية وانه كان حريصا على عدم اثارة

---

(١) كان راينهارد هايدريش نائبا لمدير الشرطة السرية ثم عين حاكما عاما لبوهيميا ومورافيا (تشيكوسلوفاكيا بعد ضمها لالمانيا) ولما اغتاله تشيكيان انتقم لمقتله النازيون بابادة سكان قرية ليديس عن بكرة أبيهم • — المترجم —

الشعب الالماني لأسباب دينية وتأليب المتدينين منهم ضده • ثم انني حاولت عقد اتفاقية مشابهة مع الكنيسة البروتستانتية الا ان المؤسف هو ان البعض حاول اتهامي بجعل الكنيسة مرتبطة بالحزب النازي • ولعل ما قاله البابا پيوس الثاني عشر (وهو الكاردينال پاتشيلي الذي حاز منصب البابا بعدئذ) اصدق دليل على برائتي من تلك التهمة الظالمة•

« ان الاتفاقية التي عقدتها المانيا مع الفاتيكان في عام ١٩٣٣ كانت محاولة لتحديد الحقوق القانونية للكنيسة قد حققت الغرض المنشود منها رغم المحاولات المتعددة التي جرت لاعاقة تنفيذها• ومع ان الكثير من بنود تلك الاتفاقية قد أهملت أو تم التجاوز عليها الا أن البنود الأخرى التي لم تنقض كانت كافية لتسيير مصالح الكنيسة في المانيا آنذاك »•

اضف الى ذلك كله انني مارست طوال فترة وجودي في الحكومة أي لغاية ٣٠ حزيران ١٩٣٤ تأثيرا كافيا على هتلر لكي احقق تطبيق اكبر عدد ممكن من بنود الاتفاقية الموقعة مع الفاتيكان وضمان احترامها•

ولكي اقاوم فعاليات الاحباط المتوقعة فانني كنت قد انشأت « اتحاد العمال الكاثوليك الالمان » منذ سنة ١٩٣٣ وجعلت مقره ببرلين وحددت مهمته بالتصدي لأية نشاطات مناهضة لمصالح الكنيسة الكاثوليكية وانتدبت لرئاسة الاتحاد غراف تون • وبعد ان حصل انقلاب روهم الفاشل احتلت شرطة الدولة السرية مقر الاتحاد والقي القبض على غراف تون ونقلت اضبارات الاتحاد الى مكان مجهول بحيث اصبحت مواصلة فعاليات الاتحاد أمرا متعذرا فأعلنت بدوري حل الاتحاد المذكور •

الا انني استمررت على معالجة بعض القضايا بين آونة وأخرى بعد خروجي من الحكومة ولكن فعالياتي هذه اصبحت غير ممكنة بعد وصول مارتن بورمان الى منصب مدير مكتب مستشارية الحزب النازي وبعد أن تجلى استبداد هتلر يوما بعد يوم وأظهر خبيئة امره بمناهضة الدين المسيحي بشكل سافر• وأصبحت انا بلا حول ولا قوة•

وكنت قد نجحت في عقد اتفاقية مشابهة بين حكومة المانيا والكنيسة البروتستانتية ولكن هذه الاتفاقية لم تحقق ما يستحق الذكر لأن تدخل النازيين لتعويق تنفيذها كان اشد من تدخلهم لتعويق تنفيذ الاتفاقية المعقودة مع الفاتيكان.

كانت المشكلة الاولى التي عالجتها الدولة الالمانية في عام ١٩٣٣ هي المشكلة الاجتماعية . اذ كان في المانيا ملايين العمال العاطلين الذين يبحثون عن عمل يقيمون به أودهم. وكنت قد وضعت ابان عهد حكومتي في عام ١٩٣٢ نظاما للتطوع للعمل يعمل بموجبه كل شاب وشابة لمدة سنة واحدة في أحد المشاريع الحكومية فتم تهافت الشباب على تسجيل اسمائهم في مكاتب العمل مما خفف الى حد كبير من أزمة البطالة المستشرية في البلاد من جهة ورفع من معنويات اولئك الشباب من جهة أخرى واتاح للدولة الالمانية فرصة تنفيذ مشروع طرق السيارات الواسعة[٢] مما حسن ارتباط اجزاء البلاد بمواصلات ممتازة. كما ان اجتماع الشباب بالشابات في هذا المجال اتاح فرص الزواج بنسبة أعلى وكانت حصيلة هذه الفعاليات اجتثاث معضلة البطالة من عروقها مما صرف الشعب الالماني عن توجيه الانتقادات للنظام النازي بسبب انشغاله بشتى الفعاليات الانتاجية.

وقد لاقت معالجة المشاكل الاجتماعية ورفع مستويات الطبقة العاملة ومنحها نفس حقوق الطبقات الاخرى في المجتمع استحسانا قويا بطبيعةالحال سواء في الوطن أو في البلدان الاجنبية .

وأرادت الحكومة الالمانية جعل يوم الاول من مايس «يوم العمل» ولم تقتصر الاحتفالات على العمال وحدهم وانما جعلته عيداً عاما للشعب العامل وأرادت أن تقيم احتفالا يسير به العامل الى جانب الموظف ورجل الاعمال والفلاح والتاجر لكن الحكومة اقدمت على اجراء مفاجيء في ذلك

---

(٢) تعتبر طرق السيارات الخارجية ذات الممر الواحد المسماة Autobahn من أفضل طرق السيارات في العالم وقد حذت كثير من الدول حذو المانيا في مد هذه الشبكة المتكاملة ولا تزال المانيا تنشيء طرق السيارات هذه باتجاهات جديدة . — المترجم —

اليوم بالذات عندما أعلنت حل نقابات العمال ولم تدرك الحكومة الالمانية آنذاك مدى النتائج المترتبة على ذلك الاجراء المغلوط.

لاحظت في تلك الفترة ان عداء الحزب النازي لليهود اصبح سافرا وعنيفا بصورة متفاقمة لدرجة صرنا نحن المحافظين نخشى من الانفجار المضاد للضغط المتواصل الذي تعرض له اليهود على الرغم من وضوح صورة التعامل الجشع لأرباب المهن الحرة من اليهود كالمحامين والاطباء والصحفيين وتسلطهم المقرف على الكثير من المرافق الثقافية الحيوية كالمسرح والسينما والصحافة حيث كان المجتمع الالماني دائم الشكوى من نشاطاتهم غيرالمشروعة ومهارتهم في طمس الحقائق. وقد اعترف اليهود انفسهم بجرائم الكثيرين منهم الذين خانوا الوطن الالماني وساهموا في نكبة عام ١٩١٨ في محاولة منهم لاستعادة مكانة اليهود بالمجتمع الالماني وتصحيح النظرة التي تجلت عنهم بوضوح[٣].

وقد عملت خلال فترة وجودي بمنصبي نائبا للمستشار التي امتدت لغاية ٣٠ حزيران ١٩٣٤ على اعاقة اقرار أية قوانين او نظم من شأنها الحاق الاذى باليهود حيث صدر ما يسمى(قانون نورمبرغ) والمناهض لليهود بصورة سافرة في ايلول ١٩٣٥ وهو قانون يندي له الجبين وكان فاتحة عهد اضطهاد اليهود في المانيا بصورة رسمية.

في ١١ آذار ١٩٣٣ صارحني هتلر بأنه تقدم برجاء للرئيس فون هندنبورغ لكي يسمح برفع العلم النازي في جميع ارجاء المانيا بمناسبة يوم الابطال الذي يصادف يوم الاحد التالي. فأعترضت قائلا ان معنى هذا ان يحل

---

(٣) من الحقائق المذهلة التي تكشفت بعد الحرب العالمية الثانية ان الصهيونية العالمية تعاونت مع النازية واستفادت من المبالغة في عرض مآسي اليهود وابادتهم بصورة منظمة استدرارا لعطف الحلفاء المنتصرين مما ساعد كثيرا في العزف على اسطوانة الظلم الذي اصاب اليهود الى يوم الناس هذا بقصد الحصول على المكاسب تلو المكاسب على حساب الشعب العربي الفلسطيني حتى أقاموا دولة العدوان في فلسطين ثم حصلوا على التعويضات المالية من حكومة المانيا الاتحادية واستمروا على التظلم وممارسة ظلم العرب بالوقت نفسه.
ـ المترجم ـ

العلم الموسوم بالصليب المعكوف بدلا عن علم المانيا ذي الالوان الاسود والابيض والاحمر وقلت له ان حكومة ڤايمار كانت قد ارتكبت نفس الخطيئة عندما ابدلت علم المانيا الذي هتف له ابناء الشعب وسقط في سبيله مليونا جندي شجاع في الحرب العالمية الأولى لأنها أرادت الاستعاضة عنه بعلم ثورة ١٨٤٨ .

والمؤسف انني لم احظ بتأييد أي عضو من اعضاء الحكومة . فتوجهت نحو فون بلومبرغ[٤] لأنني توسمت أن يولي الموضوع اهتمامه بسبب العلاقة الوطيدة التى تربط الجيش بالعلم. لكنني اكتشفت ـ والمفاجأة تأخذ مني كل مأخذ ـ ان فون بلومبرغ لا يولي العلم الوطني ادنى اهتمام. وقد فاجأني بأنه يعتبر علم الصليب المعكوف رمزاً للدولة الالمانية . فلم يبق أمامي والحالة هذه سوى اللجوء للرئيس فون هندنبورغ الذي كان رأيه بطبيعة الحال مطابقا لرأيي . ولكنه عندما فوتح بالموضوع من قبل هتلر وفون بلومبرغ وافق على رفع العلمين معا جنبا الى جنب . الا انني رغم ذلك عدت الى طرح الموضوع على مجلس الوزراء وطلبت استحصال موافقة البرلمان ولكن هذه الجهود لم تثمر هي الاخرى.

كانت تجربتي الفاشلة مع فون بلومبرغ الاولى من تجارب اخرى اعقبتها بعدئذ. فقد كانت الشائعات التي ترددت في ٢٩ كانون الثاني ١٩٣٣ باحتمال وقوع انقلاب عسكري مدعاة لزيادة شك هتلر بولاء رئيس اركان الجيش الفريق الاول فون هامرشتاين اكوورد مما عزز موقف الوزير فون بلومبرغ في نظر هتلر . ولم يتحدث معي هتلر مطلقا بهذا الشأن لأنه خشي من وصول القضية الى اسماع الرئيس فون هندنبورغ طالما هو غير متأكد تماما من اسناد فون بلومبرغ له. ثم ما لبث هتلر ان تقدم للرئيس باقتراح اقالة فون هامرشتاين اكوورد ورشح الفريق فون رايخناو بديلا له وكان الاخير يشغل

---

(٤) كان فون بلومبرغ وزيرا للدفاع . ـ المترجم ـ

منصب رئيس اركان حامية كونيغسبرغ[٥] وهو معروف بميوله النازية منذ أمد بعيد لكن الرئيس لم يعطه اجابة فورية لأنه آثر استشارتي فيما بعد وقد قلبت معه الموضوع على كل الاوجه في مناقشة مستفيضة خلاصتها ان الرئيس فون هندنبورغ كان يحب الفريق الاول فون هامرشتاين اكوورد ويحنو عليه حنو الوالد المشفق ويقدره كجندي باسل الا أن فكرته عنه اعتراها الكثير من التغير بعد أن انساق فون هامرشتاين اكوورد وراء فون شلايخر خلال شهري كانون الاول ١٩٣٢ وكانون الثاني ١٩٣٣! ولكن الرئيس لم يشأ استبدال فون هامرشتاين اكوورد بفون رايخناو وقال لي في تلك المناقشة بكل صراحة:

« كلا ان فون رايخناو غير مقبول بالنسبة لي أبدا . فهو لم يتعلم اسلوب قيادة الضباط بعد ـ ولم يكن فون رايخناو قد تسنم منصب آمر لواء بعد ـ فكيف يمكنني أن أعهد له بادارة الجيش الالماني برمته ؟ » .

ثم استعرضنا مختلف اسماء قادة الجيش الالماني الكبار حيث كنت على معرفة وطيدة بجميع اولئك السادة الذين خدمت معهم في السلم والحرب طوال عشرين عاما ولمست سجايا كل منهم عن كثب فوقع اختياري منهم على الفريق البارون فون فريتش الذي اقترحت اسمه على الرئيس فون هندنبورغ وكان فون فريتش وفون هامرشتاين اكوورد زميلاي في أكاديمية الحرب طوال ثلاثة أعوام . وقد ألفت فون فريتش رجلا جديا ذي خصال حميـدة اضافة لكونه جنديا باسلا .

أما وزير الدفاع فون بلومبرغ فكان قد اتخذ قرارا آخر عندما قال لي :
« اخبر الرئيس فون هندنبورغ بأنني سـأستقيل في حالة عدم تعيين فون رايخناو رئيسا للاركان » .

فأجبته على التو بأن منصب الوزارة منصب سـياسي وله ان يتقـدم باستقالته متى شاء ولأي سبب .

---

(٥) كانت كونيغسبرغ عاصمة لبروسيا الشرقية وقد أصبحت الآن ضمن الجزء الذي استولى عليه الروس من هذه المقاطعة اثر الحرب الثانية حيث ابدلوا تسميتها الي (كالينينغراد) .

ـ المترجم ـ

وانني لشديد الأسف لأن الرئيس فون هندنبورغ لم يقبل استقالة فون بلومبرغ آنذاك • وقد اتخذ الرئيس قراره بتعيين البارون فون فريتش رئيسا لاركان الجيش الألماني خلفا للفريق فون هامرشتاين اكوورد •

وقد اثبت الرجل جدارة تدل على حسن اختياره للمنصب وخدم الجيش الالماني بمنتهى الاخلاص رغم انه تعرض لدسيسة قذرة دبرها له هملر في كانون الثاني ١٩٣٨ فازيح عن منصبه[٦] ولو بقي الرجل بمنصبه فترة أطول فلربما تعاون مع بيك من أجل تفادي كارثة الحرب العالمية الثانية[٧] •

شرع هتلر بتحطيم الأغلبية الوزارية المناهضة للنازية في ٣١ آذار ١٩٣٣ عندما دعا لرفع مستوى الدعاية لألمانيا في الخارج ورشح صديقه الدكتور يوسف غوبلز لتولي منصب وزير الدعاية• ولم يدرك أي منا آنذاك مدى اللعبة التي شرع بها لجعل أعضاء الوزارة جميعهم من النازيين • وعليه فما ان تسنم غوبلز هذا المنصب الا وباشر بتسخير الفن والصناعة والاقتصاد لأغراض الدعاية المحضة •

وسرعان ما أدركنا ــ نحن أعضاء الحكومة ــ ان زميلنا الجديد يتمتع بخبرة ومهارة وقدرة تنظيمية جيدة •

وقد لمست في هذه الفترة ان هتلر كان ذكيا لدرجة تمكن معها من كسب تأييد الأعضاء المحافظين في حكومته في مناسبات عديدة لأنه يتمتع بقابليةممتازة

---

(٦) اتهم الفريق الاول البارون فون فريتش بقضية اخلاقية اثبت التحقيق الذي جرى بعدئذ بطلانها ولما نشبت الحرب العالمية الثانية كتب فون فريتش رسالة الى القائد الاعلى للقوات المسلحة يطلب فيها الاشتراك بالحرب فاعيد برتبته السابقة قبل توليه رئاسة اركان الجيش فحصلت الموافقة وعاد الى الخدمة بمنصب آمر مدفعية الفرقة ١٢ وقد قتل بصلية رشاش عند اجتياح وارشو في ١٧ ايلول ١٩٣٩ وأبنه رئيس الاركان ڤيلهلم كايتل في الامر اليومي مشيدا بأفضاله •

ــ المترجم ــ

(٧) يشير المؤلف هنا الى احتمال تعاون بيك مع البارون فون فريتش للقضاء على هتلر حيث اشترك الاول في المحاولة الفاشلة لاغتيال هتلر في ٢٠ تموز ١٩٤٤ واعدم مع الكثيرين من شركائه •

ــ المترجم ــ

للاقناع كما انه دأب على قطع المناقشات التي لا يحقق بها مقاصده والتوصل بعدئذ الى تسوية ترضيه نتيجة لمناقشة لاحقة يجريها مع الوزير المختص .

ولما كنت أنا بدون ديوان فلم يكن بمقدوري سوى عرض المسائل المهمة مبينا وجهة نظري بشأنها . ولم يكن بمقدوري أيضا القيام بأية فعالية بصفتي الرسمية (نائب المستشار) لأنه لم يكلفني قط بتمثيله في أية مناسبة .

كما ان الدستور لم يشر الى وجود نائب المستشار ولم يحدد صلاحياته وعليه فقد كنت بموقف اوهن من مواقف زملائي الوزراء . وقد تقوقع هؤلاء ضمن اختصاصاتهم بصورة جامدة الى أبعد الحدود فوزير الدفاع فون بلومبرغ كان مقتصر النشاط على كل ما يتعلق بالقضايا العسكرية البحتة ولم يعرض أي رأي أو يشترك بأية مناقشة تخص موضوعا غير عسكري .

وكان هذا أيضا حال البارون فون نويرات وزير الخارجية[8] الذي برع في بحث الأمور المتعلقة بالسياسة الخارجية اما ما يتعداها فلا . ولم يخرج عن هذه القاعدة سوى البارون فون ايلتس روبيناخ[9] وزير البريد وسكك الحديد الذي دأب على بحث مختلف جوانب كل قضية قبل اقرارها . كما ان وزير العمل فرانز زيلدته كان يفتقر للتجربة السياسية الكافية للخوض بأي موضوع يخرج عن اختصاص وزارته وكان افتقاره لأي تصور سياسي مدعاة احتواء هتلر له واستمالته الى جانبه كليا .

والحق يقال ان وزير العدل الدكتور غويرتنر كان شديد الحرص على تطبيق العدالة والتمسك بالنصوص القانونية الا ان هتلر لم يأبه له وكان يتجاهل محاولاته اليائسة للتشبث بآرائه في مختلف المسائل وقد خاض الرجل

---

(٨) اقيل البارون فون نويرات من الوزارة عام ١٩٣٩ وحل محله فون ريبنتروب الذي كان سفيرا لبلاده بلندن .
ولما خسرت المانيا الحرب أحيل الاول الى محاكمات نورمبرغ لمجرمي الحرب وتوفي بالسجن متأثرا بمرض عضال .
ـ المترجم ـ

(٩) كان وزيرا للمواصلات في وزارة فون پاپن .
ـ المترجم ـ

صراعات مريرة في سبيل الحفاظ على الحرية الفردية للمواطن الألماني ووضع حد لتجاوزات رجال وحدات العاصفة •

ومع ان وزير المالية غراف شفيرين كروسيك[١٠] قد حـاز اعجاب هتلر لاحاطته الواسعة بشؤون بريطانيا مع كونه واجهـة جيـدة لتحسين علاقات حكومتنا الجديدة بحكومتها الا أنـه لم يكن بنظري ذلك الرجل الذي يمثل المحافظين الالمان باتخاذ القرارات الحاسمة او التصدي لهتلر • ولذلك فقد بقي في حكومة هتلر من يومها الاول الى يومها الأخير حيث تولى بعدسقوطهاوزارة الخارجية في حكومة أمير البحر دونيتز التي حكمت اسميا بضعة أيام وشهدت انهيار المانيا التام • وكنت قد سألته ـ بصفته صديقي المخلص ـ في عام ١٩٤١ عن رأيه بمستقبل الحرب فأجابني آنذاك :

« لقد كان هتلـر على حق في كل ما فعل آنفـا فلم لا يكون كذلك مستقبلا ؟ »

في هذه المرحلة من تأريخ المانيـا كان اكثر اصدقائي يولون النازية كل عواطفهم حتى صديقي البارون فون ايلتس ـ وهو كاثوليكي متحمس ـ كان من المعجبين بهتلر الى اقصى الحدود •

ويذكر فرانسوا پونسيه[١١] ان غراف شفيرين كروسيك عنـدما سمع بحادث حرق البرلمان هتف بسرور :

« الحمد لله الذي أحرق ذلك الكوخ » •

لاحظت في مطلع اشتغالنا بعد تشكيل حكومة هتلر ان جميع أعضـاء الحكومة كانوا حريصين على التقرب من رئيس الحكومة الجديد والتزلف اليه وعدم توجيه اي نقد للحكومة لتهيبهم من شـدة بأسه وعنفـه مع خصومه السياسيين ولبراعته في عزل خصومه السياسيين وتقييدهم من الناحيةالانسانية

---

(١٠) كان غراف شفيرين كروسيك وزيرا للمالية ايضا في وزارة فون پاپن •
ـ المترجم ـ

(١١) كان فرانسوا پونسيه سفيرا لفرنسا ببرلين وهو من الذين عاصـروا فترة حكم هتلر حتى نشوب الحرب العالمية الثانية وتميز بتقديراته السياسية الصائبة •
ـ المترجم ـ

على الاقل • وسرعان ما وجدنا أنفسنا بصورة تدريجية خصوما الداء لخصومه السياسيين الذين صاروا يشعرون من جانبهم نحونا نفس الشعور •

أما الوزراء النازيون فكان منهم فيلهلم فريك وهو رجل بلا وزن لأنه كان موظفا من موظفي الدولة القدماء المجبولين على الطاعة والنظام ولم يكن يتكلم الا اجابة عن سؤال يوجه اليه • الا أن الوزراء المحافظين الثمانية كانوا حذرين جدا من التعامل مع الوزيرين النازيين الآخرين هرمان غورنغ ويوسف غوبلز فهما ثائران من طراز رجال الثورة الفرنسية ولهم الحق في هذا الحذر لأن هذين السيدين كانا يعالجان كل قضية بوسائل ثورية لم نكن نألفها وكانا يتدفقان حماسا وشدة •

ولست أنسى يوم اختلاف أولهما معي بوجهات النظر حيث استدعيته وقلت له انه في حالة عدم انسجام آرائنا يمكنه تقديم استقالته فاستشاط غضبا وضرب المنضدة بقبضته قائلا :

« لن أخرج من هذا المنصب الا محمولا » •

الا ان غوبلز كان يختلف مع غورنغ من حيث طريقته في ادراك أهدافه فهو يحقق مقاصده بالاقناع والتروي ويتبع سياسة النفس الطويل وقد نجح في استمالة الكثيرين من زملائه بوسائله الودية مع تمسكه الشديد بآرائه وايمانه بها •

في ٢٧ نيسان ١٩٣٣ أعلن الوزير فرانز زيلدته عن انضمامه للحزب النازي فتحول بذلك وزير محافظ الى وزير نازي مما غير حالة التوازن السابق لصالح النازيين • وفي ٢٩ حزيران ١٩٣٣ استقال وزير الزراعة هوغنبرغ رغم محاولاتي المتعددة لاثنائه عن رغبته فحل محله في الوزارة ڤالتر داريه وكان هذا عضوا قديما في الحزب النازي •

وهكذا تحولت الموازنة كليا لصالح النازيين على حساب المحافظين • وفي هذه المرحلة تحول عدد كبير من المحافظين وغيرهم الى صفوف النازية • والآن ربما يتسائل البعض عن أسباب هـذا التحول فاجيبهم قائلا بأن العهد

الذي عاشه هؤلاء كان عهد الافكار السياسية المتضاربة ولكل امرىء الحق في اتباع النهج السياسي الذي يؤمن بصوابه •

وبينما كان موقفنا نحن المحافظين في تدهور مستمر وجـدت ان العبء الذي تفاقم بعد ٥ آذار ١٩٣٣ لادارة النضال ضد النازية قد وقع على كاهلي لا سيما بعد ان استطار شر عصابات وحدات العاصفة وشرطة بروسيا التي كانت بقيادة هرمـان غورنغ حيث سـيطرت هاتان القوتان على الشارع واخـذتا تقضيان على خصوم النازية وتشيعان الذعر في نفوس المواطنين الالمان في كل مكان من بلادنا •

وكنت لا أزال في الفترة بين ٥ آذار و ٧ نيسان ١٩٣٣ قومسيرا عاما لولاية بروسيا ورئيسا لوزرائها بصورة رسمية • وبعد حرق البرلمان الالماني شـرعت الشرطة الالمانية بتعقيب الشيوعيين واستئصال شأفتهم بمعاونة حرس الحماية• وكثيرا ما اصطدمت بغورنغ بعد ٥ آذار ١٩٣٣ عنـدما افهمته مرارا بأنني لن اسمح بأي تعيين في المناصب المهمة للشرطة البروسية ما لم احصل على قنـاعة تامة بضرورة تسمية الشخص المرشح للمنصب المقترح الا ان غورنغ كان دائم التمرد على أوامري وكانت حصيلة هذا التناقض بيني وبينه ان ضعف مركز مدير شرطة برلين أمير البحر فون ليفتسوف ومدير شرطة منطقة الروهر العقيد فون هايده كامبف • وفي هذه المرحلة أفلح غورنغ بتسديد ضربة قوية لي عندما تمكن من استمالة مدير مكتبي غريتسباخ الذي تحول للعمل بمكتب غورنغ فبقي معه سنين طويلة •

وكنت قد اقترحت على الرئيس في ٦ شباط ١٩٣٣ اعادة اجراء الانتخابات من أجل تحسين موقفنا السياسي في اقليم بروسيا الشـرقية وقد جرت هـذه الانتخابات في ٥ آذار ١٩٣٣ وتمخضت عن حصول النازيين على ٢١١ مقعدا بينما حصلت كتلتي السياسية على ٤٣ مقعدا فكونا معا الائتلاف الحكومي •

ولو كنت قد جمعت كل الفئات السياسية ـ عدا الشيوعيين ـ مع كتلتي لما تجاوز مجموعنا ٢٠٠ مقعد فقط ولبقي النازيون متفوقين علينا بـ ١١ مقعدا وهكذا لم أجد أمامي أي مسلك آخر سوى الاستمرار على الائتلاف السابق•

لم تنشأ في عهدي أية معسكرات للاعتقال في ولاية بروسيا ولما صدر قانون انشاء شرطة الدولة السرية[١٢] في ٢٦ نيسان ١٩٣٣ عين رودولف ديلز مديرا لتلك المنظومة وقد كتب الرجل في مذكراته بأن جهازه حرص على التمسك بالقوانين المرعية طوال فترة اشتغاله وقال ان غورنغ اختاره لهذا المنصب بسبب خبرته السابقة في الاشتغال بالشرطة لمدة طويلة • وقال انه بذل قصارى جهوده لاقناع غورنغ بالالتزام بالقوانين ولكن دون جدوى •

وعلى الرغم من كثرة اللغط الذي انتشر بعد الحرب العالمية الثانية عن معسكرات الاعتقال فانني أعتقد بأن الممارسات اللا قانونية لم تحصل قبل عام ١٩٣٤ ولم أعلم بتفاصيل الافعال التي قام بها رجال شرطة الدولة السرية أو ما حدث في معسكرات الاعتقال من أعمال منافية للقوانين الا في محاكمات نورمبرغ بعد عام ١٩٤٥ • والمؤسف ان موجة العنف التي مارسها رجال شرطة الدولة السرية في معسكرات الاعتقال شملت البعض من أخلص اصدقائي امثال الجراح النطاسي زاوربروخ والشاعر يوهست وعالم الاقتصاد المشهور هيالمار شاخت •

وفي مطلع سنة ١٩٣٤ عزل مدير الشرطة رودولف ديلز وحل محله هاينريش هملر يعاونه راينهارد هايدريش[١٣] •

---

(١٢) هي المنظومة التي اشتهرت بعدئذ باسم Gestapo وهذا مختصر لعبارة (Geheim Staats Polizei) وقد رأسها هاينريش هملر فطارت شهرتها بعد ان أصبحت جهاز قمعي من الطراز الاول سيطر على اوربا المحتلة بقبضة من حديد . ـ المترجم ـ

(١٣) عين هايدريش بعدئذ حاكما عاما لبوهيميا ومورافيا (وهما اقليما تشيكوسلوفاكيا بعد ضمها لالمانيا) وقد اغتاله التشيكيون يوم ١٩ مايس ١٩٤٢ بالقاء رمانة انكليزية الصنع على سيارته المكشوفة ببراغ فانتقم الالمان لمقتله بأبادة آلاف من ابناء تشيكوسلوفاكيا المناهضين لالمانيا ومنهم القاتلان اللذان اغتالا هايدريش ثم قتلوا سكان قرية ليديس يوم ٩ حزيران ١٩٤٢ عن بكرة ابيهم انتقاما لاغتيال هايدريش .

ـ المترجم ـ

وكان نهج السياسة الخارجية لحكومة هتلر ابان فترة الأئتلاف واضحا تمام الوضوح ويتلخص برغبتنا في استعادة سيادة المانيا الكاملة والمساواة في التسلح مع الدول الاخرى وكسب حقنا في وضع الاسس الدفاعية لبلادناوازالة جميع التحديدات المفروضة على المانيا نتيجة لخسرانها الحرب العالمية الاولى والتعاون مع الاقطار الاوربية الاخرى لتحقيق السلام في اوربا .

وكانت تصريحات هتلر الرسمية لا تتجاوز هذا الاطار . وقد عرض هذا النهج على البرلمان الالماني في مايس ١٩٣٣ فأيدته جميع الاحزاب ومنها الحزب الأشتراكي الديموقراطي والزعيم السياسي سيفرينغ الذي أعلن فيما بعد (وبالتحديد في عام ١٩٤٧) بأنه توقع منذ ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ بأن هتلر سائر بالمانيا نحو الحرب . والمؤسف انه لم يكن السياسي الوحيد الذي صحح موقفه وصرح خلاف ما كان يعتقده صوابا في عام ١٩٣٣ .

والى جانب المعضلات الرئيسية التي كنا بصددها آنذاك صادفتنا ازمة استأثرت بالكثير من اهتمامنا ألا وهي مشكلة الاقليات القومية . فقد أعلن الرئيس الامريكي وودرو ويلسون مبدأه المشهور ذي النقاط الاربع عشر الا أن النظرية لا تنطبق على كل أقلية قومية . فهذه بادرة تؤثر على نهوض الأمم التي تنشد الارتقاء وتشتت جهودها . ثم ان بعض هذه الاقليات القومية ابدت شططا في المطالبة بحقوقها وأدت مغالاتها الى بروز خطر كبير أحدق بالسلام في وسط اوربا . ولم يكن هتلر هو الذي اوجد هذه المشكلة ولكنه تصدى لاعتراضات التشيك ومطامع البولنديين وهم السعاة الحقيقيون لاثارة الحرب العالمية الثانية .

وجدت لزاما علي في تلك الفترة ان اوضح لهتلر اسس المنهج الواجب اتباعه وكانت حصيلة محادثتي معه ان أعلن امام مجلس النوّاب في مايس ١٩٣٣ احترام حكومته لحقوق الاقليات القومية سواء في المانيا أو خارج المانيا . ولو التزم هتلر بكلامه هذا لما اخل بالعهد الذي قطعه لتشامبرلن رئيس وزراء بريطانيا في ١٥ آذار ١٩٣٩ ولما حاول القضاء على وجود تشيكوسلوفاكيا .

وفي ٢٥ مايس ١٩٣٣ تحدثت الى ممثلي اربعين الفاً من الاقليات القومية الالمانية محاولا ايجاد السبيل للتفاهم والتعاون مع ابناء جلدتهم تجنبا لأي خطر يهدد السلام في اوربا.

وكان على السيد ويلسون ان يدرك بأن الحق الذي اعطاه للاقليات ينطبق على جميع الشعوب واذا أخذنا الشعب الالماني بوضعه الراهن بعد الحرب العالمية الثانية للاحظنا ان هذا الشعب تعيش مجموعات منه فيما لا يقل عن ٢٠ دولة ومعنى هذا ان لكل الاقليات الالمانية حقوقاً أعلنها السيد ويلسون في بيانه المشهور الذي أصدره قبيل انتهاء الحرب العالمية الاولى. كما انثلث الشعب الالماني يعيش الآن خارج حدود الوطن الالماني.

وهذه النسبة الكبيرة تبرر المطالبة بحقوق الملايين الكثيرة من الالمان التي أضطرت على العيش كأقليات في أقطار عديدة . وانني أرى بأن تمزيق المانيا وجعلها مقسمة على غرار دويلات البلقان من شأنه ان يحرم البشرية من المنافع المترتبة على وحدة الامة الالمانية ويحرمها كذلك من المزايا الاقتصادية والصناعية ويعقد العلاقات الانسانية فالوحدة هي الأمل الوحيد لتقدم الامم وازدهار حضارتها.

والآن وبعد حصول كارثة انهيار المانيا في الحرب العالمية الثانية شرع الحلفاء الغربيون بتحقيق الحل الاوربي الذي سبق ان ناديت به مراراً.

في هذه الفترة توصل هتلر الى قرار الكف عن التوسل بعصبة الأمم من اجل استحصال الموافقات على اعادة تسليح المانيا والاعراب عن غضبنا بالامتناع عن المساهمة في أي مؤتمر يعقد للبحث في موضوع التسلح مستقبلا . وقد ايدته في رأيه هذا الا انني ابديت اشد مقاومة في موضوع قطع علاقات المانيا بعصبة الامم وبذلت كل ما املك من طاقة ومن جهدلاقناع هتلر بالتراجع عن قرار انسحاب المانيا من عصبة الامم ولكن محاولاتي ذهبت ادراج الرياح وعلى الرغم من تأييد وزير الخارجية البارون فون نويرات لآرائي وتأكيده للاخطار التي تنطوي على انعزال المانيا عن المجتمع الدولي الا انه لم يتجاسر على عرض آرائه هذه على مسامع هتلر ولما طلبت

الى البارون فون نويرات مرافقتي الى ميونيخ للاشتراك معي في محاولة ثني المستشار هتلر عن قراره بانسحاب المانيا من عصبة الامم اعتذر متهيباً من غضب هتلر • وعليه فقد سافرت وحدي بالقطار فوصلت ميونيخ مساء يوم جمعة وتوجهت مساء السبت الى منزل هتلر الذي كان منزلا ظاهر البساطة الى درجة ملفتة للنظر فتحدثت اليه عن كثب زهاء الساعة فتذرع بعدم قدرته على الاخلال بقرار اتخذه الحزب النازي لأن ذلك من شأنه اضعاف مركزه الشخصي• لكنني الحفت في الطلب وعرضت المسببات لدرجة جعلته يعد بالتمعن بالقرار في هدأة الليل على امل موافاتي بقراره الحاسم في صباح اليوم التالي•

وفي صباح يوم الاحد وافاني هتلر للفندق ـ وكنت اقيم في فندق الفصول الاربعة ـ وتلقاني بنظرات براقة على عتبة غرفتي قائلا:

« الآن يا عزيزي السيد فون پاپن اصبح من الواضح لي تماما بأنني ليس امامي أي خيار سوى ترك عصبة الامم • فهذا انفصال لا رجعة عنه وكل ما سواه هباء »•

فوجدت ان اية محاولة اخرى بهذا الصدد ستكون عديمة المعنى•

ولقد حاول هتلر كسب تأييد الشعب الالماني لهذا القرار الحاسم المتعلق بالسياسة الخارجية•فتقدم باستفتاء شعبي عام في ١٢ تشرين الثاني ١٩٣٣ عن مدى تأييد الامة الالمانية لهذه الخطوة السياسية • ووجدت لزاما علي تأييد هذه الخطوة بعد ان اصبحت امرا واقعا لا مفر منه فأقيم احتفال شعبي كبير حضره الرئيس فون هندنبورغ والمستشار هتلر ووزير الخارجية البارون فون نويرات ودعوا فيه للسلام واعقب ذلك احتفال آخر برعاية المستشار في مدينة ايسن امام ممثلي نقابات العمال القيت به خطابا اوضحت به اهداف حكومتنا السلمية من الانسحاب من عصبة الامم•

وسرعان ما تعاقبت اخطاء هتلر السياسية مما اضطرني الى توجيه نقد مباشر لاعمال الحكومة في اجتماع عقد بمدينة ماربورغ• وكان اشد

ما سائني تدهور العلاقات الالمانية ـ النمسوية بصورة مضطردة لدرجة أعاقت تعاون الدولتين الناطقتين بالالمانية . ووقعت وطأة المعضلة على كاهل وزارة الخارجية الالمانية وكانت فعاليات النازيين النمسويين هي الدافع الاول لتدهور العلاقات الرسمية بين الدولتين.

وكان هتلر قد عين السيد تيو هابشت رئيسا للحزب النازي النمسوي وفتح له مقرا في ميونيخ فجد هذا بالعمل من اجل تحقيق الوحدة المنشودة لا بالاقناع والتنظيم وانما باللجوء للعنف والارهاب.

في ١٠ أيلول ١٩٣٣ اقيم بڤينا احتفال كبير بمناسبة مرور مائتين وخمسين عاما على الانتصار الكبير الذي حققته النمسا على العثمانيين . وقد اقترحت على هتلر استغلال هذه المناسبة وارسالي الى ڤينا بقصد اعادة المياه الى مجاريها واستئناف العلاقات الرسمية الوثيقة مع النمسا . لكنني صادفت القليل من الحماس لهذه الفكرة في اوساط الحكومة وكان ان رفضها هتلر هو الآخر . ثم ما لبث هتلر ان القى خطابا في يوم ١٠ أيلول ١٩٣٣ نفسه في قصر الرياضة قال فيه:

« ان التأريخ المأساوي للامة الالمانية الذي لم يعتبر الساسة الالمان من خصائصه بسبب قصر نظرهم لأنهم لم يتفهموا روح التطور التأريخي او لأنهم يوجهون اهتماماتهم نحو منافع صغيرة رهينة بالوقت الحاضر ومن المؤسف ان الاحتفال المقام اليوم في ڤينا ما هو الا جزء من التضليل الذي يمارسه اولئك الساسة ازاء الامة الالمانية برمتها».

في ايلول ١٩٣٣ حاول الاشتراكيون الديموقراطيون النمسويون اغتيال المستشار النمسوي الدكتور دولفوس. ولكنهم فشلوا في تلك المحاولة. وقد وجدت انا واصدقائي ان هذه مناسبة جيدة لتحسين العلاقات الالمانية النمسوية فتقدمنا الى هتلر باقتراح لارسال برقية للاعراب عن تهانيه الحارة بمناسبة نجاة المستشار النمسوي من محاولة الاغتيال اذ لابد ان تكون هذه البرقية ايماءة كريمة لازالة التوتر القائم بين الدولتين . وكان وزير الخارجية البارون فون نويرات متمتعا باجازته آنذاك ولكي أعطي لمقترحي هذا وزنا

اكثر فقد رجوت وزير الدفاع الفريق الاول فون بلومبرغ اسنادي في هذه الفكرة وكان أن وافق الرجل وطار معي في اليوم التـالي برختسغادن حيث صحبنا مرافق ووزير الدفاع وفريتز فون تشيرشكي. وكان هتلر قد ارجأ الاحتفال بيوم الرياضة المزمع اقامته فيشتوتغارت الىاليوم التالي. ولما وصلنا الى موئل هتلر اقترح علينا مرافقته بالسيارة الى تيوركنهـايم القريبة من شتوتغارت . ثم ما لبث البارون فون نويرات ان قطع اجازته بناء على رغبة هتلر والالتحاق بنا وحضور احتفال يوم الرياضة.

وقد اوضحت انا وفون بلومبرغ خطتنا لهتلر فرحب بالمقترح وقال :

« اذاً أرى ان من الضروري ارسال برقية إلتهنئة حالا. ما رأيك يا سيد فون نويرات ؟».

فقال فون نويرات ان فكرة المقترح جديدة عليه تماما . ثم رحب فون نويرات بكل ما من شأنه اعادة العلاقات الالمانية النمسوية الى حالتها الطبيعية لكنه اردف قائلا :

« لكنك بعملك هـذا ستضرب الحزب النازي النمسوي من الخلف يا سيادة المستشار ».

فأمتقع وجه هتلر والتفت نحوي ونحو فون بلومبرغ قائلا :

« ان لوزير الخارجيـة رأي وجيـه ولابد أنكما تقـدران رأيه أيهـا السيدان ».

ولما حاولنا ايضاح وجهة نظرنا لم تنفع معه حججنا وما لبث ان نهض وغادر المكان غاضبا.

ان العودة الى تطورات السياسة الخارجية الالمانية خلال السنة الاولى من عهد هتلر تجعلنا نشعر بخيبة الامل حتى في معالجة قضية اقليم السار التي كانت بذرة نشوء العلاقات السياسية المبنية علىسوء الظن بين المانيا وفرنسا. وكانت علاقاتي الوطيدة مع اهالي اقليم السار ـ وهو أمر يعرفه هتلر حق المعرفة ـ السبب الذي حدى به لتسميتي المسؤول المباشر عن كل القضـايا المتعلقة بموضوع اقليم السار . وهكذا وجدت لنفسي ما يشغلني بصورة

رسمية لأول مرة في ذلك العهد واصبح بمقدوري معالجة القضايا المذكورة مع الوزراء المعنيين بشكل مباشر . وكانت أول قضية عالجتها بصفتي الجديدة من القضايا العويصة التي اصطدمت بها بالحزب النازي. ذلك لأن الكاثوليك كانوا يشكلون أغلبية السكان هناك وكان الحزب الاشتراكي الديموقراطي قويا بينما كان تمثيل الشيوعيين ضعيفا . وكانت جميع الاحزاب تتمتع بكامل حريتها السياسية . ومن الطبيعي ان المحافظ الالماني ـ وهو نازي متحمس ـ كان منحازا للنازيين الى درجة التطرف المفضوح مما جعلني اتحسب من مغبة نشاطاته خشية ان تؤدي الى نتائج معكوسة لاسيما وان الرجل شرع باللجوء الى الوسائل الارهابية. ولما كنت على ثقة من ان النتائج ستكون لصالحنا فلم اشأ ان يقال عنا بأننا حققنا الحاق اقليم السار بألمانيا نتيجة للتهديدات او الوسائل القسرية الاخرى. وعليه فقد رجوت هتلر تبديل ذلك المحافظ فورا واعطاء الحرية السياسية للاحزاب العاملة في منطقة السار حتى ظهور نتائج التصويت.

وكان من رأيي آنذاك اننا يجب ان نتوصل الى تفاهم بشأن السار مع فرنسا لأننا لابد ان نتودد لجارتنا لكي نخفف من وطأة المرارة التي ستصيبها بعد اعلان نتيجة التصويت المؤكدة لصالحنا .وكان ان اقترحت عدم استثارة فرنسا وعدم اعطائها أية ذريعة لتأجيل التصويت المقرر اجراؤه في عام ١٩٣٥.

ولقد تبين لي آنذاك بأن وزارة الخارجية الفرنسية كانت على بينة من حقيقة الموقف السائد لكنها كانت تأمل الحصول على نسبة عالية من الاصوات بسبب تخوف السكان من هتلر او المطالبة باعلان الاقليم منطقة دولية محايدة بين البلدين . وقد كتب السيد ريجيه دي فيبراي امين سر لجنة مايري المعروفة في كتابه الموسوم (١٩٣٥ـ سلام مع الالمان؟) قائلا:

« لم تعـد للفرنسيين منـذ احتلالهم لاقليم الروهر[١٤] بصيرة تريهم حقيقة الطبائع الالمانية وشكوك الالمان بشأن اقليم السار»

وكان تصورنا في فترة ارتقاء هتلر ووصوله للسلطة ان الالمان سوف يحصلوا على نسبة ٩٥٪ من الاصـوات عند الاقتراع بشأن السار وكان المستشار الألماني الأسبق فون پاپن قـد اقترح في آب ١٩٣٢ عقـد اتفاقيـة المانية ــ فرنسية بشأن السار•

لقد كان يبغي عدم ايجاد أية حساسية بين البلدين بسبب أرض معينة• فهو يعلم ان الأقليم المـاني بأرضه وسكانه وعليه فقد آثر التوصل الى ترضية مع فرنسا• وابدى استعدادا لاعطاء فرنسا نسبة مقنعة من منتجات الاقليم المذكور لقاء اعترافها باعتباره جزءا من الوطن الالماني• ولم يفكر احـد بالطلبات الالمانية السابقة ••» •

ولقد قبل هتلر بالمقترح الذي عرضته عليه للتوصل الى اتفاقية وديةمع فرنسا فكتب مرة:

« لا يمكن للمرء ترك سكان السار يعانون من ضغطين متناقضين يمثل كلا منهما نظام دولة كبرى وهم على ارضية منزلقة يتهددهم الخوف على مصيرهم ولذا فان لسكان السار الكلمة الاخيرة في تقرير مصيرهم »•

وكان السيد ريجيه دي ڤيبراي مدركا لحقيقة الموقف وقد ذكر بأن

---

(١٤) تدهورت قيمة المارك الالماني منذ عام ١٩٢١ نتيجة للتضخم فاصبحت قيمة الدولار ٧٥ ماركا وفي عام ١٩٢٢ صار ٤٠٠ ماركا وفي ١٩٢٣ صـار ٧٠٠٠ ماركا مما حدا بالحكومة الالمانية ــ حكومة ڤايمار ــ استمهال الحلفاء لهـا بارجاء تسديد اقساط التعويضات المفروضة عليها فرفضت فرنسا ذلك ولما تأخر ارسال شحنات الخشب الالماني الى فرنسا امر رئيس الوزراء الفرنسي بوانكاريه (الذي كان رئيسا للجمهورية الفرنسية ابـان الحرب العالمية الاولى) باحتلال اقليم الروهر الصناعي في كانون الثاني ١٩٢٣ الى ان يسدد الالمان اقساط التعويضات المقررة اثمانها من المواد العينية بينما تدهور المارك الالماني بعد احتلال الروهر فبلغت قيمة الدولار الواحد ١٨٠٠٠ مارك وفي تموز ١٩٢٣ صار سعر الدولار الواحد ١٦٠ الف مـارك وفي آب ١٩٢٣ وصل سعر الدولار الواحد مليون مارك الماني• ــ المترجم ــ

موضوع السار كان يمكن ان يكون مجالا جيدا لوضع اسس علاقات المانية فرنسية ودية ولذا فقد ابدى اسفه الشديد لأن الفرنسيين اهملوا كل المقترحات الالمانية في هذا السبيل.

وانني اذ استشهد بآراء هذا الفرنسي الوطني فلابد ان اشير الى خطأ تقديرات السفير الفرنسي ببرلين آنذاك السيد فرانسوا پونسيه والتي ظهرت بمذكراته التي نشرت بعد الحرب العالمية الثانية. واخشى ما أخشاه هو ان يسترسل الرجل بممارسته نفس الاخطاء بعد تعيينه عام ١٩٥٢ بمنصب الحاكم السياسي الفرنسي للقطاع الذي تحتله فرنسا من المانيا المندحرة.

في كانون الثاني ١٩٣٤ زار السيد انطوني ايدن[١٥] برلين وقد حاولت من جانبي كسب تأييده لخططي بشأن اقليم السار فأقترحت مساهمة بريطانيا في ازالة التوتر الفرنسي ــ الالماني وكان معنا السيد جيوفري نوكس ممثل بريطانيا في اللجنة الدولية لادارة اقليم السار لكن الوزير البريطاني أجاب اجابة فاترة بقوله ان القضية لا تهم بريطانيا لأنها من اختصاص عصبة الامم ولم استغرب منه هذا الرد وفي ٢ حزيران ١٩٣٤ قدمنا مذكرة الى اللجنة الثلاثية في عصبة الامم طلبنا فيها منع ممارسة اية ضغوط او تهديدات على الاشخاص بقصد التأثير على نتائج التصويت الشعبي في اقليم السار وحملهم على مناهضة المانيا . والطريف ان السيد جان لويس بارثو وزير خارجية فرنسا آنذاك قدم مذكرة الى عصبة الامم في ٣١ آب ١٩٣٤ يرجوها ارجاء موعد الاقتراع أو التحفظ عليه في حالة تغير الموقف السياسي لالمانيا.

وفي ٢٢ تشرين الثاني ١٩٣٤ قدمت المانيا عرضا ــ بناء على مقترحات اللجنة المالية التي كنت ارأسها ــ الى عصبة الامم تقر بموجبه الحكومة الالمانية بالمحافظة على الحقوق المالية وحقوق الملكية للافراد والشركات وكذلك حقوق التقاعد والالتزامات الاقتصادية الاخرى لسكان اقليم السار . كما وجب علينا دفع مبلغ ٩٠٠ مليون فرنك ذهب الى فرنسا لقاء مناجم الفحم الالمانية التي في اقليم السار.

---

(١٥) كلن ايدن وزيرا لخارجية بريطانيا . ــ المترجم ــ

ولما جرى التصويت في ١٣ كانون الثاني ١٩٣٥ تمخض عن اقتراع ٤٪ فقط لصالح فرنسا.

ولست افهم لماذا يحاول الناس الاستحواذ على بلدان الآخرين . ولقد اثبت التصويت ان السار كانت وستبقى المانية[١٦] وبذلك اختتم فصل مأساوي من التاريخ الالماني استمر خمسة عشر عاما من المعاناة والقلق بشأن هذا الاقليم . وانني لآمل ان نعالج امثال هذه القضايا بنفس الطريقة الحرة احقاقا للحق وضمانا لتوطيد حسن العلاقات بين البلدان المتجاورة.

(١٦) لا يزال اقليم السار من اقاليم المانيا الاتحادية حتى يوم الناس هذا .
ـ المترجم ـ

رقم الايداع ١٤٢١
في المكتبة الوطنية
بغداد لسنة ١٩٨٥

دار افاق عربية للصحافة والنشر


مذكرات
فرانز فون پاپن
ترجمة: فاروق الحريري



مذكرات

فرانز فون پاپن

ترجمة : فاروق الحريري

الطبعة الاولى الجزء الثاني

الثورة تمضي قدما

الفصل التاسع عشر

حل الاحزاب . النازيون يستهينون بالقوانين . اعترضت علنـا . هندنبورغ يغادر برلين . روهم والجيش الالماني . حساب مع هتلر في ماربورغ . غوبلز يمنع الاجتماعات العامة . انقلاب روهم . مقتل بوزه ويونغ وغيرهما . هندنبورغ . مسؤوليتي .

قلت في خطـاب لي بمدينـة دريسدن في يوم ١٣ تموز ١٩٣٣ بأن السلطات الاستثنائية التي حازها المستشار هتلر اتاحت له امكانية الاطاحة بجميع الاحزاب السياسية الاخرى والقضاء على النظام الديموقراطي والحياة الدستورية بشكل لم يسبق له مثيل وخلال فترة لم تتجاوز الاربعة اشهـر وهذا ما اعطاه صلاحيات لم يحزها أي امبراطور من اباطرة المانيا .

ومما لا شك فيه ان حل الاحزاب السياسية كان اشد ضربة وجهها هتلر للنظام البرلماني الديموقراطي . وكنت قد حاولت ابان فترة حكومتي تحسين وضع النظام الديموقراطي وجعل الأحزاب أكثر تقاربا في سبيل رفعة شـأن الوطن.

وكنت انتقد بريونينغ لأنه اهمل شأن الاحزاب وجعلت ديدني اصلاح النظام البرلماني.

ألا ان الحقيقة الدامغة هي ان هذه الاحزاب سرعان ما ذابت في خضم المجتمع واختفت بكل هدوء. ولما ناقشنا هذا الموضوع فيجلسة لمجلس الوزراء لم يبد أي من الوزراء اهتمامه بالاحزاب المنحلة وكان هذا هو موقفالرئيس فون هندنبورغ نفسه من الاحزاب. اما الشخص الوحيد الذي ايدني ووقف الى جانبي فكان وزير مالية بروسيا الدكتور يوهانس پوپيتس الا ان ذكاء هذا الرجل والمعيته وقوة حجته لم تجد فتيلا ازاء عناد هتلر المشهور.

ومع انهيار احزاب المانيا اختلفت تصرفات الاحزاب حيث اعلن حزبا الوسط والشعب الباڤاري انهما يضعان انفسهما تحت التصرف المباشرلزعامة هتلر في سبيل رفعة المانيا الجديدة . واعلن الحزب الديموقراطي الاشتراكي في اجتماعه الختامي في اقليم بادن ڤيرتمبرغ يوم ١٠ مايس ١٩٣٣ بأنه يتمنى الحظ السعيد للقيادة السياسية الالمانية الجديدة ويبدي استعداده لأسناد الخطط التي اقرها الحزب النازي ولطالما سألني الكثيرون فيما بعد. لماذا لم أفضح الاهمال الذي تعرضت له والتجريد السافر من أي اسناد يسهل مهمتي الوظيفية الرفيعة؟

والجواب على هذا السؤال هو انني سبق ان قلت كل ما ينبغي ان يقال في خطابي الذي سبق ان المعت عنه آنفا والذي القيته بمدينة دريسدن ولم ادع أية ملحوظة الا واوضحتها بكل جلاء. وكان من رأيي ان الاطاحة بنظام هتلر كانت ممكنة جدا في تلك الاشهر المبكرة من عهده . لكنني بينما كنت القى العنت والتجاهل كان هتلر يفسح المجال لاتباعه في تسلق مراقي التسلط باعطائهم المزيد من الصلاحيات حتى برز للميدان السياسي رجال امثال غوبلز وهملر وهايدريش. وسواء أوافقني منتقدي ام لم يوافقونني فثمة حقيقة لا سبيل لتجاهلها مطلقا وهي أن منصب نائب المستشار اهمل في عهد هتلر اهمالا بالغا لدرجة اصبح معها عديم القيمة.

ولقد تلقى مكتبي من ايام تسنمي هذه المسؤولية وحتى انقلاب روهم آلاف الشكاوى والتحذيرات والاعتراضات من مختلف طبقات الشعب الالماني اما بصورة رسمية او شخصية عرضت على اعواني ڤيده ماير وزابات وسافغني وبوسه وكيتيلر وتشيرشكي فكنت اتصل بالوزير المختص وبخاصة بالوزير هرمان غورنغ أو اعرض المشكلة على مجلس الوزراء.

في نهاية خريف ١٩٣٣ شرع النازيون بالاعتــداء على حرمة القانون والاعتداء على الحرية الشخصية للافراد والتجاوز على استقلال رجال القضاء.

وفي ١٦ كانون الاول ١٩٣٣ دعيت لحضور احتفال اقيم بنادي مدينة بريمن بمناسبة مرور مائتين وخمسين عاما على تأسيس النادي فألقيت فيه خطابا عن الحرية الشخصية والمساواة في المانيا الحديثة وقلت في ذلك الخطاب ما لم يشأ هتلر سماعه.

وكان الرئيس فون هندنبورغ قد غادر برلين في مايس ١٩٣٣ الى ضيعته الاثيرة (نوي ديك) طلبا للراحــة والهدوء وكان الرجل مريضا ولما ودعته بمناسبة سفره كان ذلك لقائي الاخير معه شد على يدي قائلا بنبرته الحانية:

« تسير الأمور بشكل سيء يا پاپن فحاول ان تصلح الحال »

وقد ذكرتني هـــذه المصافحة بالوعــد الذي ســبق أن قطعتــه له في ٢ كانون الأول ١٩٣٢ عندما رجاني رفض منصب السفير بباريس كي أبقى الى جانبــه .

ولما ظهر للعيان تبادل الشكوك بين الجيش الالماني ونظام هتلر بسبب اسناده لقوات العاصفة ساد التذمر في صفوف ابنــاء الشعب الالماني وصار الكل يتوقع نشوب قتال شديد بين الجيش النظامي وقوات العاصفة التي كان قائدها أرنست روهم . وكان السبب الذي حدى بهتلر لتقوية قطعــات العاصفة هو رغبته في الالتفاف على معاهدة فرساي التي قيدت قوة الجيش

الالماني[1] وجعلتها محدودة لدرجة تضمن ابقائه عاجزا عن حماية الوطن.

ولما وجد هتلر نفسه بين نارين تتمثل اولاهما برفيقه اللدود روهم الذي تعاظمت سطوته بتعاظم قوة وحـدات العاصفة وظهرت بوادر تهديده لوجود هتلر وكثر حوله اللغط لترؤسه زمرة مشبوهة من الموسومين بالفساد وثانيهما الجيش الالماني البروسي النزعة والملكي الاهواء والذي صـار العوبة بيد المغامرين والدساسين امثال فون شلايخر فانه آثر استمالة الجيش الالماني فضمن ولائه وتعهد برعايته واضمر لروهم شرا مستطيرا .

ولما حاولت في تلك الايام جلب نظر هتلر نحو تفاقم خطر أرنست روهم لاحظت انه يحاول التهرب من اعطائي فكرة عن موقفه بهذا الصدد .

وهكذا بقيت في جهل بشأن تفاصيل سير احداث هذه القضية التي أخذت معالمها تتبين للرأي العام الالماني يوما بعد يوم . كما لاحظت فيتلك الفترة ان روهم نفسه وغورنغ وغوبلز وهملر وغيرهم ليست لديهم أية فكرة عن الخطوة التي سيقدم عليها هتلر . لكنني لاحظت انه لم يقطع معهم جسوره لأنه ادرك ان من الخطأ الانحياز الى تكتلات المحافظين على حساب علاقـاته مع اعضاء حزبه. وسرعان ما وجد لنفسه الحل المثالي الامين فوطد علاقـاته بالجيش الالماني وكسب ثقته وضمن ولائه فأصبح بذلك سيد المانيا بلامنازع.

---

(١) نصت معاهدة فرساي ـ التي تعتبر من أسباب نشوب الحرب العالميـة الثانية ـ على جعل قوة الجيش الالماني مائة الف رجل منهم اربعـة آلاف ضابط بمن فيهم الاطباء والبياطرة وحرمت المانيا من هيئـة الركن ومن تأسيس قوة جوية وحددت قوتها البحرية . الا ان المانيا تحايلت على هذه التقييدات منذ عام ١٩٢٦ فعقدت اتفاقا سريا مع الاتحاد السوفيتي تضمن التعاون في مجالات تطوير التسليح وتقديم الخبرات في مجال عمل هيئـة الركن للاتحاد السوفيتي لقاء قيام المانيا بانشاء مدارس للطيران العسكري على الاراضي الروسية ومواصلة تطوير انتاج الاسلحة . كما ان المانيا دابت على تسريح الجنود بعد تدريبهم تدريبا اساسيا واستدعاء وجبات اخرى بدلهم . اما هيئة الركن فقد ابدل منها اسمها فقط وجعل ضـابط الركن (ضابط ادارة) تمويها للحلفاء وفتحت دورات الاركان في مقرات الحاميات تحت ستار (دورات الارتباط) الى أن الغى هتلر معاهدة فرسـاي كما سيأتي ذكره . ـ المترجم ـ

في بداية حزيران ١٩٣٤ شعرت بأن من واجبي تحذير هتلر من مغبة الخطر المتفاقم نتيجة لوقوع البلاد تحت وطأة وحدات العاصفة التي كثرت تجاوزات افرادها وعزمت على تقديم استقالتي في حالة رفضه وضع حد لتلك التجاوزات.

وفي ١٧ حزيران ١٩٣٤ القيت خطابا امام جمع حاشد جاوز المائتين بالقاعة الكبرى لجامعة ماربورغ. وكنت قد استعددت لذلك الخطاب وانتقيت النقاط الحساسة التي عزمت على بحثها بكل اعتناء لأنني كنت على ثقة من ان المانيا كلها ترهف السمع لاقوالي في تلك المرحلة العصيبة من تأريخها. فأستعرضت الموقف السياسي منذ عهد حكومتي حتى قبولي لمنصب نائب المستشار في ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ وناقشت موقف الحكومة (التي كنت احد اعضائها) ازاء القوانين والهيئة القضائية والكنيسة ومختلف طبقات الشعب الالماني ثم تطرقت للوضع السائد بنقد مرير جعل الحضور يديرون رؤوسهم عجبا ولا يصدقون ما تسمعه آذانهم للصراحة غير المألوفة التي عالجت بها موضوع الساعة.

وكنت قد اتفقت مع وزير الدعاية الدكتور يوسف غوبلز على اذاعة نص الخطاب في مساء ذلك اليوم. الا انه ادرك الخطر الذي تنطوي عليه اذاعة خطابي المسهب على الملأ فأسرع في منع اذاعته ونكل عن وعده مستعيضا عن ذلك باشارة عابرة كتبتها صحيفة (فرانكفورتر تسايتونغ) المسائية ذكرت بها في عدد اليوم التالي انني القيت محاضرة في جامعة ماربورغ.

ما ان علمت بتصرف غوبلز هذا الا وقابلت هتلر محتجا وقلت له انني وجدت ان من واجبي مصارحة ابناء الشعب بكل تفاصيل سير الاحداث في هذه المرحلة الدقيقة التي تمر بها المانيا. وانتقدت امامه وزير الدعاية لأنه احجم عن اذاعة خطابي ومنع نشره في الصحف. ثم قلت له بأنني خدمت وطني بكل اخلاص طوال فترة اشتغالي معه التي بلغت سنة ونصف وأرى ان من واجبي الاستقالة من منصبي وسأتقدم بطلب الاستقالة للرئيس فون هندنبورغ.

كان هتلر يصغي لأقوالي بكل اهتمـام ثم أخـذ يهدئني معترفا بالخطـأ الذي ارتكبه غوبلز بحقي. وتعهد لي بعدم السماح بتفاقم الموقف الداخلي وقال انه سيضع حدا لتجاوزات رجال وحدات العاصفة . ثم رجاني ألا أتعجل بتقديم استقالتي للرئيس في ذلك الظرف وارجاء تقديمها الى ما بعد مقابلته للرئيس في ضيعته (نوي ديك) ورجاني ان ارافقه لنذهب سوية لمقابلة الرئيس ثم خلص للقول بأنه يرجو ألا تكون محاضرتي في جامعة ماربورغ السبب الذي يدعوني للاستقالة لا سيما وان الموقف سيتحسن وشيكا .

وقد قبلت بتبريرات هتلر ووجدت ان الاخلاص للوطن يفرض علي مرافقته لمقابلة الرئيس لكي اسمع وجهة نظره بصدد الاحداث .

لكنني لم ابق مكتوف الايدي ازاء هذا التعتيم المدبر على محاضرتي فأوعزت بطبعها في (مطابع جرمانيا) وقام رجال مكتبي بتوزيعها على السفارات الاجنبية والصحف الاجنبية وبين مختلف اوساط الشعب الالماني وقد علمت فيما بعد ان الشرطة السرية للدولة جمعت نسخا كثيرة من المحاضرة باقتناصها من دوائر البريد وعدم ايصالها للمرسلة اليهم. كما ان احد اصدقائي وهو غراف فيليب ڤيستفـالن تعرض للاعتقـال بسبب توزيعه لنسخ من تلك المحاضرة.

دعيت الى هامبورغ بعـد عـودتي من ماربورغ بخمسة ايام لحضور سباق الخيل في المعرض السنوي بصفتي من محبي رياضة الفروسية . ومع انني شاهدت مئات السباقات في مختلف الاقطار لكنني لم احضر أي سباق ذي صفة سياسية. وفي ذلك السباق بالذات تعرضت لمأزق كنت في غنى عن لتعرض له. اذ ما ان عرفني بعض مشاهدي السباق الا وصاروا يهتفون لي وسرعان ما تجمع حولهم عدد آخر من رواد السباق ثم هتف أحـدهم « تحيا ماربورغ» فتعجبت لتغير الطبيعة الرياضية لاهل هامبورغ وتصرفهم بهذا الشكل غير المألوف منهم ولم اجد مفرا من مجاملة تلك المئات من المعجبين الذين استمروا على الهتاف لي ومتابعتي حيثما سرت.

لكنني شعرت بحرج شديد ولو انني تأكدت من ان الحرج الذي تعرض له الدكتور غوبلز كان اكثر شدة من حرجي لأنه كان مدعوا هو الآخر لنفس السباق وقد لحظت وجوده في صالة مجاورة وقد ران عليه صمت عميق وبدى شاحبا وصار يتصرف ببرود وعدم اكتراث. ولما اقيمت وليمة العشاء في ذلك اليوم تخلف الدكتور غوبلز عن الوليمة وكلف نائبه (نائب محافظ برلين) السيد آرتور غورليتزر بالحضور قائلا:

« لهذا الياپن اتباع اكثر مما ينبغي بين ابناء الشعب الالماني فحاول ان تجعله في الصحافة شخصية مضحكة».

وبعد ثمانية أيام من هذه الواقعة انتقم «المستبد الصغير»[٢] من خصمه اللدود روهم اشر انتقام.

وكانت الأزمة الداخلية قد تفاقمت من يوم الى آخر ولكنني لم أتمكن من متابعة ما كان يدور وراء الستار آنذاك. لاسيما وانني لاحظت فتورا في معاملة رجال الحزب النازي وأغلب زملائي الوزراء لي .

وفي ٢٥ حزيران ١٩٣٤ حدثت قضية عائلية خاصة أستوجبت سفري الى اقليم ويستفاليا .

وقد علمت بعد الحرب العالميه الثانيـة وفي سجن نورمبرغ من السيد ڤالترفونك[٣] الذي كان في تلك الاثناء رئيسا للصحافة الالمانية ثم صـار فيما بعـد وزيرا لاقتصـاد المانيا بأن هتلر كلفه في تلك الفترة بالسفر الى (نوي ديك) ومقابلة الرئيس فون هندنبورغ واخباره بأن واقعة ماربورغ هي القشة التي قصمت ظهر البعير وان التعـاون بيني وبين المستشار هتلر أصبح متعذرا . وكان هذا الاعتراف دليلا على كذب هتلر الذي كان قد قال لي آنذاك بأن خطته المحتملة تتضمن التقـدم برجاء للرئيس فون هندنبورغ كي يقبل استقالتي من الحكومة.

---

(٢) المقصود ادولف هتلر .

(٣) حكم على ڤالتر فونك في محاكمات نورمبرغ بالسجن المؤبد في سجن شپانداو ببرلين ومكث في ذلك السجن حتى وفاته .

ـ المترجم ـ

في ٢٦ حزيران ١٩٣٤ اتصل بي تشيرشكي هاتفيا واخبرني بأن الشرطة السرية للدولة القت القبض على ادغار يونغ وهو احد اعواني غير الرسميين وأودعته السجن وقال لي ان عودتي من ويستفاليا أصبحت اكثر من ضرورية. وهكذا عدت في اليوم التالي الى برلين بالطائرة . ولما كان لقائي مع هتلر وغورنغ متعذرا في ذلك اليوم الحافل فقد اتصلت بهاينريش هملر مدير الشرطة السرية للدولة واحتججت بأشد لهجة على اعتقال السيد يونغ الذي قيل لي ان تهمته تتلخص باقامته علاقة غير مسموح بها مع أحد الاجانب ولم اسمع اكثر من ذلك. الا ان هملر وعدني باطلاق سراح الرجل بعد مدة قصيرة.

في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ ترددت انباء محاولة انقلاب روهم الفاشلة وصار كل جانب يلقي ضوءا باهتا على زاوية معينة من الواقعة المذكورة. أما انا فقد وجدت نفسي بلا حول ولا قوة بعد ان تم قبول استقالتي.

ولم يعد سرا ان رئيس اركان قوات العاصفة أرنست روهم طالب هتلر بمنحه منصب وزير الحرب لكي يحوز سلطتي قائد الجيش النظامي وقائد قطعات العاصفة . الا انه فاته بأن هتلر كان قد آلى على نفسه الا يسمح لأية شخصية او منظمة بأن تصبح قوية لدرجة تهدد مقامه الرفيع.

وقد استطار الشر بين الرجلين في ربيع ١٩٣٤ عندما قال روهم لهتلر بأنه عازم على مطالبة الرئيس فون هندنبورغ بمنح عدد كبير من قادة قطعات العاصفة رتب ضباط صف في الجيش الالماني. وبعد ان مارس روهم ضغطا شديدا على هتلر اخبره الاخير بموافقته على تنفيذ رغبته. الا ان الذي حدث هو ما توقعه هتلر بالضبط حيث رفض الرئيس فون هندنبورغ ذلك الطلب . لكن روهم واصل تقديم طلباته غير المشروعة محاولا فرض رغباته مستندا على قوة قطعات العاصفة. وهكذا تواترت الاشاعات خلال الاشهر القليلة التالية وكلها تشير الى عزم قطعات العاصفة على ايصال روهم الى ذروة السلطة في المانيا وازاحة هتلر عن سبيله والقضاء على الجيش الالماني النظامي. كما تأكد في تلك الفترة تزود قطعات العاصفة بمقادير وفيرة من

الاسلحة من خارج المانيا وبخاصة من بلجيكا، وقد ارسل الفريق فونبوك[٤] قائد منطقة شتيتين قوائم بمقادير البنادق والرشاشات البلجيكية الصنع التي وصلت الى المانيا من بلجيكا، وكان ان علم هتلر وغورنغ ومقر الجيش الالماني بتفاصيل الخطة التي يزمع قائد قطعات العاصفة تنفيذها واتخذوا الاجراءات المضادة لاحباطها بالوقت المناسب . الا ان مساعدي البارون فون بوسه اخبرني بوجود اشاعة مفادها ان قطعات العاصفة توشك على القيام بثورة ثانية الا ان النزاع الناشب بين هتلر وروهم ستتم تسويته نهائيا في أواخر حزيران ١٩٣٤ .

ولم تكن قيادة وحدات العاصفة جاهلة بشأن الاجراءات المضادة التي اتخذها الجيش الألماني . ولذا فقد أخبرني البارون فون بوسه في ٢٦ حزيران ١٩٣٤ بأن قيادة قطعات العاصفة ارجأت تنفيذ الانقلاب من ٣٠ حزيران ١٩٣٤ الى اشعار آخر . وأوضح ان هذه الاشاعة كانت مقصودة لتضليل الشرطة الالمانية واقامة الدليل على خطأ كل الاشاعات لكي تكون اجراءات الجيش الألماني موجهة نحو فعل وهمي وهذا من شأنه تقوية مركز قطعات العاصفة واظهار قادتها بمظهر الابرياء.

في ٢٩ حزيران ١٩٣٤ سافر هتلر الى ايسن فتبعه غوبلز باللحظة الاخيرة ليخبره بتجمع افراد قطعات العاصفة بكامل اسلحتهم في مراكز تحشدهم انتظارا لأوامر روهم وقد ساد التصور بأن غوبلز مارس اللعب على الحبلين في تلك الايام الحرجة لكي يضمن لنفسه مكانة لدى الفريق الذي سيفوز في لعبة الحياة والموت.

وفي الصباح الباكر من يوم ٣٠ حزيران ١٩٣٤ طار هتلر الى ميونيخ حيث أطبق بقبضته الفولاذية على غرمائه الذين كانوا يغطون بنوم عميق بعد سهرة شراب حافلة فأستأصل شأفتهم بلا شفقة . وقد توضحت معالم القضية فيما بعد للقاصي والداني.

---

(٤) ذاعت شهرة فون بوك فيما بعد عندما أبلى بلاء حسنا في الحرب العالمية الثانية ومنح رتبة مشير .

ـ المترجم ـ

في صباح يوم ٣٠ حزيران ١٩٣٤ هتف لي تشيرشكي وطلب حضوري الى مكتبي بالسرعة الممكنة. ولما وصلت الى مكتبي بالساعة التاسعة من ذلك اليوم اتصل بي اللواء كارل بودن شاتس امين سر الوزير هرمان غورنغ ورجاني الحضور الى مكتب غورنغ لامر عاجل. فأسرعت بالتوجه الى مقر وزارة النقل الجوي(٥) ولم تكن لدي ادنى فكرة عن ذلك الامر العاجل.حيث زرت غورنغ بمكتبه الكائن بمنزله المشيد في حديقة الوزارة وسرعان ما لاحظت بأن المكان محاط بحراسة مشددة من رجال حرس الحماية المسلحين بالرشاشات.

قابلت غورنغ بمكتبه وكان الى جانبه هاينريش هملر فصارحني الأول بأن هتلر تمكن شخصيا من القضاء على رؤوس مؤامرة روهم في صباح ذلك اليوم وانه عندما طار الى ميونيخ خوّل غورنغ كامل الصلاحيات للقضاءعلى فعاليات المتآمرين بمنطقة برلين فأعترضت فورا على ذلك التخويل وقلت له:

« انني انا نائب المستشار ولابد له ان يكلفني بأية مهمة تتطلب الصلاحيات التامة في حالة غيابه عن برلين».

فأبدى غورنغ استعداده للتخلي عن هذه المهمة ومنحي الصلاحياتالتامة لانجاز المهمة التي كلفه بها هتلر . الا انني ادركت من الوهلة الاولى انمركز غورنغ اقوى من مركزي الرسمي نظرا لكونه القائد الاعلى للشرطة البروسية وقائد القوات الجوية(٦) في وقت معاً. فأقترحت على غورنغ ضرورة عرض

---

(٥) لما لم تسمح معاهدة فرساي لالمانيا بتاليف قوة جوية فقد انشات المانيا وزارة النقل الجوي التي بقيت واجهة تختفي ورائها فعاليات اعداد قوة جوية كبيرة بصورة سرية وتهيأة كل مستلزماتها بدءا من صناعة الطائرات الحربية ووصولا للتدريب الراقي على تعاون القوة الجوية مع قطعات الميدان وبخاصة الدرع . ـ المترجم ـ

(٦) كانت قوات المظليين وقطعات مدفعية مقاومة الطائرات من صنوف القوة الجوية الالمانية التي انشاها وقادها هرمان غورنغ . ـ المترجم ـ

الموقف على الرئيس فون هندنبورغ والتقدم اليه بطلب اعلان حالةالطواريء لكي تتمكن من استخدام الجيش الالماني لاعادة النظام العام للبلاد لكنغورنغ رفض هذا المقترح متذرعا بأنه يسيطر على الموقف بوجوده على رأس قطعات الحماية ومدعيا بعدم وجود ضرورة لاخبار الرئيس بما يحدث في المانيا.

وقد اخبرني تشيرشكي ــ الذي كان ينتظرني في غرفة مجاورة ــ فيما بعد بأنني عندما كنت أتحدث الى غورنغ تحدث هتلر بالهاتف وكان كمن يتلقى الاوامر من الطرف الآخر ولم يتمكن تشيرشكي من التقاط فحوى المكالمة الا انه سمع هملر يقول:

« ان ذلك يتم الآن »

وواضح ان المقصود بقوله هذا انني ينبغي ان اتنحى عن منصب نائب المستشار . وبعد مناقشة قصيرة مع غورنغ تقدم لي بطلب البقاء في مسكني حفظا لحياتي وعدم ترك المسكن الا بعد احاطته علما بذلك. فأحتججت على قوله هذا وقلت له ان هذا الاجراء معناه وضعي سجينا رهن منزلي.

وكان هملر دائم التردد على غورنغ والهمس بأذنه وواضح انه كان يتفق معه على تفاصيل التصرف معي من قبل الشرطة السرية للدولة وقطعات الحماية وتفتيش دائرة نائب المستشـــار ولربما كان هملر يلح على غورنغ بتسليمي له لكي يضمن السيطرة علي تماما ثم تصفيتي على طريقته المعلومة.

اما الذي حدث بمكتبي في تلك الفترة فكان قتل معاوني البارون فون بوســه بزعم مقاومته للشـرطة والقاء القبض على أمينـات الســر البارونة شتوتسنغن وفون سافيغني وهوملسهايم وارسالهن الى معسكرات الاعتقال. وكان القصد من هذه الاجراءات كلها اثارة حفيظتي . والمؤسف ان امينة السر هوملسهايم لم تكن من موظفات مكتبي. كما تم استيلاء الشرطة على الاضابير والوثائق الموجودة بالمكتب وتم تحطيم باب الخزانة الحديد الكبيرة للاستيلاء على محتوياتها وكم كانت خيبة الشرطة السرية شديدة لأنها كانت خاوية بطبيعة الحال.

أما بالنسبة لي فقد حاول رجال قطعات الحماية التعرض لي ولتشيرشكي عندما هممنا بمغادرة بيت غورنغ مما حدى بتشيرشكي الاستعانة بأمين سر غورنغ اللواء بودن شاتس الذي اصدر امره للحراس باخلاء سبيلنا وفتح الباب لنا . والملاحظ في تلك الثواني الحرجة ان اللواء بودن شاتس وجه عبارة تهديدية للحراس بقوله:

« سنرى من الذي يصدر اوامر هنا رئيس الوزراء غورنغ أم قطعات الحماية ».

ولما ركبنا السيارة طلبت من السائق التوجه الى مكتب نائب المستشار اولا لكي احمل معي الاضابير المهمة . ولما وصلنا الى هناك وجدت البناية تحت الحراسة المشددة حيث وقف عند مدخل مكتبي حراس مسلحون بالغدارات. وسرعان ما اخبرني احد موظفي مكتبي بأن البارون فون بوسه قد تم قتله رميا بالرصاص . ثم افترقنا على عجل عندما طلب الي الحراس مغادرة المكتب والرجوع الى سيارتي فأمتثلت للأمر يحيط بي عدد من رجال قطعات الحماية وآخرون من شرطة غورنغ السرية[٧]. ثم تنازعت الفئتان كل تريد فصل تشيرشكي عني والقاء القبض عليه لدرجة حصل معها اطلاق نار متبادل بينهما واخيرا تمكنت الشرطة السرية للدولة من القاء القبض عليه والذهاب به الى مكان مجهول .

أما انا فقد صحبتني جماعة حرس من قطعات الحماية لضمان ايصالي الى منزلي ولما وصلت الدار وجدت ان خطوط الهاتف كانت مقطوعة وان غرفة الضيوف يشغلها نقيب من الشرطة كانت مهمته عزلي تماما عن أي اتصال مع العالم. وقد افضى لي الرجل بعدئذ بأن غورنغ حمّله مسؤولية المحافظة على حياتي وهدده بالموت ان هو فشل في تنفيذ هذه المهمة ومنعه من السماح لأي فرد من وحدات العاصفة او من رجال الشرطة السرية للدولة بالتقرب مني الا بعد اتصال شخصي مباشر معه. وقد شعرت آنذاك بالطمأنينة التامة لكنني

---

(٧) كان هرمان غورنغ هو المؤسس والقائد الاول لتشكيلات الشرطة السرية للدولة عندما كان رئيسا لوزراء بروسيا ثم تخلى عن هذا المنصب لهاينريش هملر لكي يتفرغ لمهماته الاخرى العديدة . ـ المترجم ـ

لسوء الحظ كنت قد ارسلت زوجتي وبنتي لزيارة اسرة احد اصدقائي في بريمن تلبية لدعوة تلقيناها قبل يومين • وكنت متأثرا لانهم لابد وان سمعوا من الاذاعة والصحف بتدهور الموقف الداخلي في المانيا وأصابهم قلق شديد بشأن مصيري•

بقيت خلال الايام الثلاثة التالية في جهل مطبق عما دار ببرلين وفي الاجزاء الاخرى من المانيا لانني بقيت في بيتي الذي جعل سجني• وكنت على ثقة من ان غوبلز وهملر وهايدريش[8] كانوا يتحرقون رغبة في تصفيتي انتقاما للمحاضرة التي سبق ان القيتها في جامعة ماربورغ• لكنني ادركت بعد الحرب العالمية الثانية ان غورنغ حرص على الابقاء على حياتي وجعل نفسه حاميا لي اكراما للرئيس فون هندنبورغ• وكان يرى بأن القضاء علي سيكون وزرا لا موجب له يتحمله النظام•

انصب تفكيري في تلك الاثناء على كيفية اقناع هتلر للرئيس فون هندنبورغ لاصدار قراره باعلان حالة الطوارىء • وقد علمت فيما بعد ان البارون فونكيتيلر وهو من أمناء سري ومن أصدقائي الحميمين حاول الوصول الى ضيعة نوي ديك بطريق ملتوية بقصد تجنب التعرض للأسر ومقابلة الرئيس فون هندنبورغ• والمؤسف انه وصل للضيعة المجاورة لها فقط حيث ضيعة آل فوناولدنبورغ فأستقبله هناك السيد فون دير شولنبيرغ الذي أخبره بأن حالة المشير لا تساعد مع الاسف على قبول اية زيارة له•

وواضح ان الرئيس فون هندنبورغ لم يكن بموقف يساعد على ارسال برقيات التهنئة التي زعمت الاذاعة الالمانية آنذاك بأنه وجهها الى كل من هتلر وغورنغ بمناسبة القضاء على محاولة روهم الأنقلابية أو أنه لم يعط صورة صادقة عما جرى في تلك الفترة• ولست ادري عما اذا قام هتلر وغورنغ

(٨) كان راينهارد هايدريش نائبا لهملر في قيادة الشرطة السريه للدولة ولما استولت المانيا على تشيكوسلوفاكيا أبدلت تسميتها الى بوهيميا ومورافيا وعين هايدريش حاكما عاما لهما واتخذ من قصر (هرادشتين) ببراغ مقر له . ثم انه اغتاله التشيكيون بالقاء رمانة انكليزية الصنع على سيارته المكشوفة فانتقم الالمان لمقتله اشد الانتقام .

ـ المترجم ـ

بعزل الرئيس فون هندنبورغ عن الحقائق ولو تم هـذا فعلا فان الملام على تضليل الرئيس هو أمين سر الدولة الدكتور اوتو مايسنر.

كان الخيط الواهي الذي ربطني بالعالم الخارجي في تلك الايام السود هو مرور بعض أصدقائي المخلصين من تحت شباك بيتي في شارع (لينيه) وكأنهم يتنزهون بينما كانوا يتأكدون من وجودي على قيد الحياة وكان منهم وليام دود السفير الامريكي ببرلين وصديقي الاسـتاذ الدكتور مونك وهو رجل شجاع ونطاسي بارع سأبقى معتزا بوفائه ما حييت. ولم يأبه الدكتور مونك للحرس المشدد على منزلي فكان يرابط قرب البيت ولا يغادر المكان الا بعد ان يؤشر لي بابهامه مشجعا على الصمود . وفي اليوم الرابع لاعتقالي بالدار تمكن بعض المارة من تعبير بعض المعلومات المهمة لي. وكانت تتضمن مقتل البارون فون بوسه واعتقال عدد من اعواني. وان محاولة الانقلاب التي أراد روهم تنفيذها قد احبطت. ثم حصل ولدي المحصور معي في الدار على اذن بمغادرة المنزل لكي يشترك بالامتحان النهـائي حيث كان بقـائه مضطرا على المكوث في الدار خلال تلك الفترة في غير صالحه بطبيعة الحال. كما حصلت زوجتي وابنتاي ـــ اللائي عدن لتوهن من بريمر هافن ـــ على اذن خاص بزيارتي وكانت زيارتهن مدعاة اطمئنانهن على حياتي.

في تلك الفترة بالذات اعيد الاتصال الهاتفي للمنزل وكان اول المتصلين معي هاتفيـاً الوزير هرمان غورنغ الذي سألني بكل بلاهة لماذا لم احضر الاجتماعات الاخيرة لمجلس الوزراء فوجب ان تكون اجابتي جافية ومجردة من أية كياسة . الا أن الرجل أبدى دهشته لبقائي قيد الاقامة الاجبارية واعتذر عن هذه (الهفوة) وأصدر أمره بسحب نقطة الحرس عن منزلي مما أتاح لي الفرصة لمغادرة المنزل والتوجه الى مقر المستشارية .

وقد أيقنت في تلك الليلة بأن هملر جعلني ورجال مكتب نائب المستشار ضمن المشبوهين بالمساهمة في انقلاب روهم وظننت ـــ مدفوعا بسلامة النية ـــ ان هتلر لم يشترك في عملية التنكيل المدبرة ضدي . وقد لاقيته عنـدما كان يوشك على ترؤس جلسة لمجلس الوزراء ورجاني أن اتخذ مقعدي حول مائدة

المناقشة فأخبرته بأن ذلك لم يعد يهمني وانني اريد الاختلاء به لكي أحدثه في مسألة شخصية . ولما استجاب لطلبي سـردت عليه ما حدث لي خلال الأيام القليلة المنصرمة وطالبته بفتح التحقيق بما تعرض له موظفي مكتبي وأخبرته بهذه المناسبة بأنني أعتبر نفسي في حل من الاستمرار على الاشتراك بالحكم وانني اكرر الرجاء بقبول استقالتي التي سبق ان قدمتها يوم ١٨ حزيران ١٩٣٤ واعلان ذلك للملأ .

الا ان هتلر رفض طلبي قائلا :

« لا أريد أن ازيد من توتر الموقف الداخلي السائد باعلان الموافقة على قبول استقالتك رغم انني افكر جديا بالغاء منصب نائب المستشار لكنني ارجوك حضور جلسة مجلس النواب الذي سيلتئم باجتماع خاص بناء على طلبي ».

لكنني أعدت على مسامعه اصراري على الرغبة في الاستقالة من الحكومة. وافترقنا دون ان يتوصل أي منا للنتيجة التي يرجوها من الآخر . واتجهت لتوي من دار المستشارية الى رئاسة أركان الجيش في شارع « بيندلر » لزيارة صديقي الفريق البارون فون فريتش ولما قابلت مرافقه ـ وهو فارس من هواة سباقات الخيل المعروفين ـ ابتدرني قائلا :

« ما الذي حدث يا سيادة نائب المستشار ؟ »

فأجبته على الفور :

« انني ـ كما ترى ـ لا ازال على قيد الحياة ولكنني سوف لن اواصل المباهمة في هذه اللعبة القذرة » .

بدى لي الفريق فون فريتش مسلوب الارادة وقد حدثني عن اعدام الفريق فون شلايخر وعقيلته والفريق فون بريدوف . وان الجيش الالماني جعل في حالة انذار . فسألته لماذا لم يتخذ موقفا مضادا لهتلر بعد ان قتل اثنين من قادة الجيش الالماني ونكل بالمئات من المواطنين فقتل منهم عددا واعتقل عددا آخر فأجابني بأنه لم يكن ليتخذ مثل هذا الموقف ما لم يتلق أمرا بذلك من الوزير فون بلومبرغ أو من القائد الاعلى الرئيس فون هندنبورغ .

ذلك لأن الجيش الالمـاني الذي جُبل على حب النظـام والمحافظة على استقرار البلد لابد أن يرعى سيادة القانون • الا أن فون فريتش فاته بأن الوزير فون بلومبرغ لقي أقسى معاملة وان الرئيس فون هندنبورغ عزل عن العـالم بحيث أصبح الوصول اليه متعذرا بينما أعطي معلومات مغلوطة عن الواقعة • ولكنني سرعان ما عرفت السبب الذي دعا الجيش الالماني للبقاء سـادرا دون تدخل • اذ مما لا شك فيه ان قادة الجيش الكبار أمثـال فون فريتش وبيك وفون هامرشتاين اكوورد وفون بوك وآدم وفون كلوغه وفون كلايست وغيرهم كانوا قد انذروا بالحركة في وقت مبكر • وكانوا على ثقة من ان ازالة المغامر روهم وطغمته ستزيح عن كاهل المانيا كابوسا ثقيلا يتهددها بالمصير القـاتم • ولم يخطر على بالهم أن هتلر سيتخذ من هذه العملية ذريعـة لتصفية خصومه كلهم وانه لن يكتفي بالقضاء على زعماء وحدات العاصفة وحدهم •

والواقع ان هتلر عندما وصل الى السلطة بذل قصارى جهوده لتجهيز الجيش الالماني بأحسن التجهيزات ولم يكن غريباً ان يحصل على ولاء رجال ذلك الجيش لدرجة فـاقت ولائهم لجمهوريـة ڤايمار• لاسيما وان ضباط الجيش الالماني كانوا من اشد الناس تمسكا بالتقاليد وولاء للوطن وللدولة ممثلة بزعيم الامة • كما ان ثقافة الضبـاط الالمان المستمدة من التقـاليد العسكرية البروسية كانت تفرض على كل قائد عسكري ان يتصرف تنفيذا لأمر يتلقاه من مرجعه المباشر • كما ان بعض قادة الجيش الذين كانوا معجبين بالفريق فون بلومبرغ تصوروا ان هذا القائد يستفيد من هتلر لرفع مستوى القوات المسلحة الالمانية من جميع الوجوه• ثم ان الحقيقـة التي لا سبيل لانكارها هي ان الجيش الالماني يعتبر الهيئة التي حققت الانتصار بالقضاء على خصمها اللدود المتمثل بروهم وقادة وحدات العاصفة•

كما ان موقف الجيش الالماني يمكن ان يتوضح بصورة اجلى اذا مـا علمنا بأن لقاء حصل بين روهم ورئيس اركان الجيش الفريق فون فريتش في كوخ صيد يعود للسيد ڤيرنر فون الفينز لبين قبيل قيام روهم بمحاولته الانقلابية وتعهد فون فريتش في ذلك الاجتماع بابقاء الضباط وضباط الصف

المعلمين الذين يدربون وحدات العاصفة تحت امرة روهم بينما يتعهد الاخير بجعل قوته احتياطا للجيش الالماني في حـالة اشتراكه بحرب ما دفاعا عن المانيا • كما تعهد روهم بتجنب اثـارة اية فعاليـات ضد الجيش الالماني او التدخل بشؤونه• ولما علم هتلر بهذا الاجتماع استشاط غضباً واضمرها لكليهما لأنه قدر مدى خطورة تضامن قادة الجيش مع قادة وحدات العاصفة وتصور انهم سيجعلونه بموقف غير مريح•

ولو كان الجيش الالماني قد تحرك ضد هتلر لما لقي الا مقاومة تافهة• ذلك لأن قادة وحدات العاصفة كانوا يبادلون هتلر عداء بعداء لأنهم ادركوا سوء نواياه بعد ان قام بتصفية عدد كبير من قادتهم• اما قطعات الحمـاية فكانت لا تزال ضعيفة لانها كانت في مرحلة التكوين الاساسي•

بعد ذلك التأريخ بمدة طويلة وعندما اعتقلت متهما امام محاكم نورمبرغ سألت غورنغ وكايتل عن تفاصيل مقتل الفريق فون شلايخر• فقال لي المشير كايتل بأنه لا علم له بتفاصيل تلك الواقعة الا ان فون بلومبرغ حدثه آنذاك بأنه تناهى للاسماع اسناد فون شلايخر لخطة روهم الانقلابية•

وان فون شلايخر ارسل صديقه الفريق فون بريدوف سرا للاتصال مع بعض السياسيين الفرنسيين • عندئذ قاطعه غورنغ معقباً بأن الشرطة السرية للدولة تلقت امرا مباشرا من هتلر شخصيا باعتقال فون شلايخر لكن رجال الشرطة ما ان قابلوا فون شلايخر الا وسحب مسدسه مستعدا للمقاومة بينما دخلت عقيلته الغرفة مما اضطرهم على مهاجمتها فأصيبـت بجرح قاتل ولما تبادل فون شلايخر مع مهاجميه اطلاق النار سقط قتيلا• الا ان هذه لم تكن هي الحقيقة وانما ورد في كتاب «فريق بين الشرق والغرب» الذي يروي سيرة الفريق فون شلايخر ان الرجل وعقيلته القى القبض عليهما وقتلا صبرا دون ان تتاح لهما اية فرصة للاعتراض او المقاومة • وعليه فان رواية غورنغ تعتبر نموذجا لتبرير القتل الذي درجت عليه الشرطة السرية للدولة لجرائمها التي شملت اوربا المحتلة فيما بعد•

ثم ان غورنغ استرسل في حديثه بسجن نورمبرغ قائلا:

« في مساء ٣٠ حزيران ١٩٣٤ كنت قد رجوت هتلر منحي الصلاحيات الضرورية لاصدار الاوامر لكي تتـاح لي امكانية التصرف في تلك المرحلة الحرجة • وبعد محادثة طويلة أخبرني هتلر بأن عملية التصفية هذه ستؤدي الى قتل عدد كبير من خصومه »•

الا ان السيد هانز فرانك[٩] الذي كان معنا في السجن ذكر رواية اخرى عندما قال بأنه كان في تلك الفترة وزيرا للعدل في حكومة باڤاريا وان هتلر اراد اعدام مائتين من الذين اعتقلهم في سجن شتادلهايم بميونيخ وان هانز فرانك تمكن من اقناعه بعـد مناقشة مطولة لتقليص عـدد الذين قرر هتلر اعدامهم وجعلهم زهاء ستين فردا من اولئك المنكودين•

ولما سألت غورنغ في السجن عما اذا كان الرئيس فون هندنبورغ قد رأى البرقية التي أرسلت بأسـمه لتهنئة هتلر اثر واقعـة ٣٠ حزيران ١٩٣٤ اجاب بأن البرقيـة ارسلت بتدبير من السيد مايسنر رئيس ديوان رئاسة الجمهورية آنذاك • ولعلني غالبت نفسي كثيرا لكظم غضبي وعانيت الكثير لاخفاء الرعب والخجل اللذين اعترياني نتيجة للطريقة التي قتل بها فون بوسه ويونغ وكلاوسنر وفون شلايخر والكثيرون غيرهم بحيث يتعذر علي سرد التفاصيل المؤلمة التي اقدم القتلة الجبناء على اتيانها • لاسيما وان المرء لم يكن ليتصور في أول سنوات عهد هتلر اقدام النظام على تصفية خصومه بتلك الطريقة الاجرامية التي لم تكن مألوفة والتي اصبحت فيما بعد السيماء المميزة لنظام هتلر في المراحل الاخيرة من عهده• ومع انه من الصعوبة بمكان اعطاء الوصف التأريخي للملابسات التي حصلت في تلك الفترة • الا أنه قتل الناس بالجملة رميا بالرصاص دون محاكمة أو اجراءات قانونية اصولية • وقد ساد التصور آنذاك بأن هتلر افتتح بتلك الفعلة سلسلة من اعمال القتل

---

(٩) كان هانز فرانك محاميا نابها وقد عينه هتلر حاكما عاما لبولندا بعد احتلالها عام ١٩٣٩ ولما خسرت المانيا الحرب العالمية الثانيـة احيل الى محاكمـات نورمبرغ فحكم بالاعدام ونفذ فيه شنقا في تشرين الثاني ١٩٤٦ •
ـ المترجم ـ

المدبر استمرت طوال عهده • ووجدت نفسي اتسائل بالحاح• ما الذي يجب علي ان افعله في تلك الفترة المظلمة؟

فالملابسات التأريخية التي اعتورت قضية روهم لابد ان تدعو المؤرخ المنصف ان يحمل رجال الدولة في ذلك العهد مسؤولية انسانية بدرجة قلت أم كثرت وعلى اولئك الساسة ــ وانا منهم ــ ان يدافعوا عن انفسهم• ومن الطبيعي ان المسؤولية التي يتحملها كل فرد تتناسب مع المنصب الذي كان يتبوأه•

أما انا فكان شغلي الشاغل بذل كل ما بوسعي لانقاذ المسجونين من الرجال الذين كانوا قد عملوا معي واجابة عوائلهم بما يطمنها بعد ان اخذ منها القلق كل مأخذ واصبحت لهم الملاذ الوحيد الذي يمكن ان يمنحهم بصيص الامل بنجاة اولئك المنكودين من براثن الشرطة السرية للدولة • فلم أخيب املهم وواصلت الليل بالنهار سعيا لانقاذ رفاقي من محنتهم•

لقد حصل لدي انطباع مؤكد بأن محاولة روهم الانقلابية كانت خطرا داهما لا شك فيه• الا ان التصفية الجسدية التي شملت قادة وحدات العاصفة وعدد كبير آخر من خصوم هتلر انطوت على فقدان سيادة القانون مما ادى الى تدهور الشعور العام بالطمأنينة واشاع الرعب في نفوس الالمان لدرجة كانت معها عقابيل تلك التصفية وخيمة العواقب•

في الايام القليلة التالية لمقتل روهم وغيره كتبت لهتلر سلسلة من الرسائل الشخصية التي اتخذها الادعاء العام في محاكمات نورمبرغ بعد الحرب العالمية الثانية قرائن مادية ضدي لم اتمكن من تفنيدها الا بشق الانفس• وللمرء ان يقدر طبيعة الظرف الرهيب الذي كتبت به تلك الرسائل • لقد كان الغرض من تلك الرسائل محاولة العمل على اخلاء سبيل العاملين معي ذوي المصير المجهول لقاء تعهدي بالاستقالة من منصب نائب المستشار • فقد كان اربعة منهم قيد الاعتقال وهم معرضون للقتل في اية لحظة على غرار ما حصل لضحايا يوم ٣٠ حزيران ١٩٣٤ • كما انني حاولت تبرئة نفسي بعد ان اقتحم رجال الشرطة السرية للدولة في ذلك اليوم مكتب نائب المستشار وأجروا

تحريات محمومة بحثا عن أية أدلة لاداتني والعاملين معي تمهيــدا لتصفيتنا جسديا • لاسيما وان اضبارات مكاتبنا كانت حافلة بالشكاوي من النظام وحاوية لمعلومات ضد الكثيرين من رجال الحكومة•

ولم يكلف الوزراء انفسهم اية مشقة للمساهمة معي في انقاذ السجناء• كما ان اية مساعدة من خــارج المانيا كانت غير واردة اطلاقا • وعليه فان المسلك الوحيد الذي كان مفتوحا امامي هو استعطاف هتلر والتشفع لديه بالولاء والتأكيد له بعــدم علاقتنا بالمحاولة الانقلابية الفاشلة من قريب أو من بعيد •

احتججت برسالتي المؤرخة ٤ تموز ١٩٣٤ على اعتقال معــاوني الذين اعتقلوا وعلى نهب اضبارات مكتبي وهددت بالاتصال بالنائب العام واعطيت للصحافة تنفا مما جاء في تلك الرسالة لكن هتلر لم يجب عليهــا• فجددت الكتابة اليه في ١٠ تموز ١٩٣٤ وحدثته هذه المرة عن مناقشتي مع غورنغ وأعدت عليه رغبتي بالسفر معه سويــة الى نوي ديك لمقابلة الرئيس فون هندنبورغ واستحصال موافقته على قبول استقالتي• ولما اتصلت بالدكتور اوتو مايسنر هاتفيا ورجوته ترتيب مقابلتي للرئيس اجابني هذا بأن الرئيس في حالة صحية تستدعي ركونه للراحة التامة ورجاني التصبر لبضعة ايام أُخر انتظارا لتحسن حالة الرئيس • وطلبت في رسالتي المذكورة من هتلر موافقتــه على استقالتي واعلان ذلك للرأي العام•

وفي ١١ تموز ١٩٣٤ التقيت بهتلر وعلمت منه بأنه عازم على القاء خطبة في البرلمان يعلن فيها تحمله كامل المسؤولية عما حدث من اعمال نتيجةلاحباط محاولة روهم الانقلابية • كما انــه سيشرح للبرلمان قضيــة منصب نائب المستشار بكل وضوح • الا أنه اعتذر عن تبرير مقتل بوسه واتهمني بالتشهير به بسبب هذه الواقعة مؤكدا بأن المانيا تمر بمرحلة دقيقة من تأريخها تتطلب التضامن ورص الصفوف•

وكتبت رسالة أخرى لهتلر في ١٢ تموز ١٩٣٤ واعقبتها بمذكرة كتبتها له في ١٣ تموز ١٩٣٤ رجوته فيها اعفائي من حضور جلسة البرلمان. وفي هذه الفترة تم اطلاق سراح اعواني تدريجيا ما عدا ادغار يونغ الذي ساورتنا الشكوك ببقائه على قيد الحياة.

وعلى الرغم من الاوامر التي تظاهر هتلر وغورنغ باصدارها لاعادة وثائق مكتب ديوان نائب المستشار الا ان الوثائق المذكورة لم تعد ابدا. وبقيت البناية غير مشغولة على أمل انشاء جناح جديد لنائب المستشار في بناية دار المستشارية الجديدة التي صممها المهندس البرت شپير.

ولم تحتو الاضابير التي غنمها رجال الشرطة السرية على أية وثائق تكون مصدرا لادانة أي فرد منا عدا الشكاوي المرسلة الينا من عدد كبير من المواطنين . لكنني قدرت بأن لهملر وهايدريش مبررات او قرائن استوجبت بنظر احدهما اتخاذ قرار باعدام بوسه.

ثم انني حررت رسائل اخرى لهتلر في ١٤ و١٥ و١٧ تموز ١٩٣٤ قلت له فيها بأن اجراءاته اصبحت واضحة امام التاريخ وقد تبين له بجلاء براءة شخصي من المحاولة الخيانية التي اقدم عليها روهم.

وقد ذكرت له في رسالتي الاخيرة بعدم تنفيذ أي من اوامره المتعلقة باعادة اضبارات مكتبي وقلت له ان عدم ارجاع تلك الاضبارات معناه تعذر مواصلتي لفعالياتي الرسمية.

أما هتلر فقد اجاب على رسائلي بوسائله المعهودة حيث اوفد لي امين سر الدولة الدكتور هانس هاينريش لاميرز يوم ٦ أو ٧ تموز ١٩٣٤ الذي عرض علي منصب سفير المانيا لدى الفاتيكان ومعه عرض آخر بأن المستشار على استعداد لتلبية أي طلب آخر ان لم اوافق على المنصب المعروض . ومع انني رجل مهذب احسن التحكم بأعصابي ونادرا ما تنتابني سورة الغضب. فانني ما ان سمعت ذلك العرض الا وصرخت محتجا بوجه السيد لاميرز:

« هل تظن انت والمستشار بأنني رجل يبيع نفسه ؟ انه لمن قلة الحياء ان يعرض علي مثل هذا العرض • ارجو ان تبلغ اجابتي هذه للمستشار »•

ولما شيعت ضيفي الى باب المنزل وجدت زوجتي وأمينة سري تسترقان السمع من وراء جدار الغرفة المجاورة لكنهما قالتا بعدئذ بأن جملتي الاخيرة كانت بصوت مرتفع غير معهود مني•

استمررت على تكرار محاولات الاتصال مع الرئيس فون هندنبورغ لاخباره بتطورات الاحداث شخصيا ولكن دون جدوى لأن الاجابة الوحيدة التي كنت احصل عليها من المرافق او من الدكتور مايسنر كان فحواها ان صحة الرئيس الجليل لا تساعد على اجراء أي لقاء معه•

في هذه الفترة زارني الفريق فون آيزنهاردت روته وهو رجل مخلص ومستقيم وقال لي ان استمراري على البقاء في حكومة هتلر يعتبر أمرا منافيا لشرفي ثم أقسم لي قائلا بأنني الوحيد الذي يعتبر من المتمسكين بالنظام والقانون•

اقر مجلس الوزراء اجراءات هتلر بجلسته المؤرخة ١٤ تموز ١٩٣٤ ما عدا وزير العدل الذي قاوم اقرار تلك الاجراءات بكل ما اوتي من قوة• وكان من رأيه ان ادانة روهم وحده كان يمكن ان تتم بمحاكمة اصولية لكي ينال جزاءه العادل وان الضحايا الآخرين لم يكن هناك ما يبرر سفك دمائهم•

ثم اننا علمنا فيما بعد بأن ادغار يونغ قد اطلقت عليه النار في احد اقباء الشرطة السرية للدولة بشارع البرشت ببرلين فلقي حتفه • فبادرت بالشكوى الرسمية لدى وزير العدل الذي اخبرني بأن الواقعة مسجلة ضد مجهول•

أما أنا فقد فقدت بوفاة يونغ رجلا شابا نابها وحصيفا من المحافظين الشباب ومعاونا مقربا من أخلص الرجال الذين خدموا معي عن كثب•

وكان صديقي هانس هومان هو الذي عرفني على الدكتور يونغ وجلب انتباهي نحو ذلك الشاب الرائع الذي كان يعمل بالمحاماة في ميونيخ• ولما

عرضت عليه الاشتغـال معي ابدى استعـداده للعمل بمكتبي بكل سرور فطفقنا نعمل بتعاون تام في المجالات السوقية والتعبويـة لخوض المعركة الانتخابية التي كانت قد احتدمت خلال تلك الفترة فأعددنا مواضيع الخطب المقرر القائها بينما كان يونغ يضع ادق تفاصيل الاخراج الكامل لكل خطاب. ثم دأب على مثل هذا النشاط حتى وصل الأوج في الخطبة التي القيتها بجامعة ماربورغ حيث استغرق اخراجها منه عدة اسابيع من العمل المتواصل بالاضافة للمعونة التي لقيتها من الكنيسة الكاثوليكية بهذا الشأن.

وعلى الرغم من كون الدكتور يونغ مسيحيا بروتستانتيا الا انه كان وثيق الصلة بالكنيسة ومتعاونا معها وفق ضرورات المفاهيم السائدة في القرون الوسطى. وقد استفدت من امكاناته وعلاقاته الكنسية في حملة اعادة انتخاب الرئيس فون هندنبورغ. وفي النصف الثاني من عام ١٩٣٣ ــ عندما اصبح بالامكان عودة الحياة الطبيعية ــ كنا لا نرى بعضنا الا لماما . ولما تفاقم خطر هملر وشرطته السرية في اقليم بروسيا الشرقية بصورة خاصة في مايس ١٩٣٤ ولما تدهورت صحة الرئيس فون هندنبورغ بحيث لم يعد بمقدوره التدخل اتفقت مع يونغ على اعداد خطبتي الملمع عنها آنفا والتي القيتها في جامعة ماربورغ وحذرت فيهـا الشعب الالماني من الخطر المتمثل باستبداد هتلر وحركته النازية.

لم يكن بمقدور اعدائي وكارهي من الزعم اكثر من انني كنت غير ذكي لدرجة تكفي لكتابة مثل ذلك الخطاب الرائع او حتى اتيان تلك الافكار المتسلسلة الواردة فيه . الا ان البارون فون بوسه سبق ان قال لي على سبيل المزاح: «الافضل ان تدبج محاضراتك لوحدك يا حضرة نائب المستشار . اذ لابد ان تكون الافكار الواردة فيها هي الافضل».

كما شهد وكيل الوزارة زابات الذي كان احد اعواني السـابقين في مكتب نائب المستشار امام محكمة نورمبرغ بعد اداء اليمين قائلا:

« لم ترد في تلك الخطبة التي القاها السيد فون پاپن بجامعة ماربورغ أية خاطرة او فكرة لم تكن من بنات افكار السيد فون پاپن فنحن في مكتب

نائب المستشار نعلم علم اليقين ما انطوت عليه روحيته بحكم اشتغالنا معه لمدة طويلة » اليس من امتيازات رجل الدولة ان يحف به عدد من افضل المفكرين الذين يمكنه ايجادهم فيتلقى منهم افكارهم الصائبة ولكنه هو الذي يتحمل المسؤولية الكاملة والنهائية وليس اولئك الرجال العاملين من وراء الستار؟ ولابد للناس ان يشيروا بالبنان لرجل السياسة المشهور الذي يطلق الآراء في مختلف المناسبات دون التحري عمن اوحى له بها او حتى حررها له. وليس لأحد ان يحزن مثلي على مصير السيد ادغار يونغ الذي كانت غلطته القاتلة هي ادعائه بمناسبة وبدون مناسبة انه صاحب افكار فون پاپن ومحفزه الاول على مقاومة النظام النازي. ولولا ادعائه هذا لما لقي مصيره المحزن ولاستمتعنا ببقائه بيننا الى يوم الناس هذا .

عند اعتقالي بعد الحرب العالمية الثانية في معسكر الاشغال الشاقة بغارميش أجريت محادثة مع قائد قطعات الحماية السابق هوبر الذي كان يعمل في الشرطة السرية للدولة خلال عام ١٩٣٣ وكان من رأيه ان هتلر كان قد جعل مهمة تصفية أقطاب محاولة روهم الانقلابية من مسؤولية مصلحة الأمن التي يقودها راينهارد هايدريش أكثر من الشرطة السرية للدولة . وان شعبة برلين من مصلحة الأمن كانت تحت ادارة رجل يدعى باهرنز وان هذا الرجل هو الذي أمر بقتل ادغار يونغ عن تهمة وضع خطبة جامعة ماربورغ .

بذلت اهتمامي في تموز ١٩٣٤ للعناية بأسرة البارون فون بوسه حيث اصيبت زوجته ـ التي لديها منه طفلين لم يبلغا سن النطق آنذاك ـ بانهيار عصبي حال سماعها بنبأ مقتله . وقد علمت في اواخر عام ١٩٤٨ (عندما كنت بالسجن اخوض آخر معركة دفاعية عن نفسي امام محكمة نورمبرغ) من احد رجال الشرطة السابقين وهو السيد برونوغ[١٠١] الذي سرد لي تفاصيل اغتيال

---

١٠١) تكتم المؤلف على الاسم الصريح لرجل الشرطة اما بناء على طلب الشاهد نفسه او لحمايته من الملاحقة القانونية التي لا تزال سارية المفعول ضد النازيين السابقين وهي جزء من حملة الابتزاز الصهيونية التي تمارس ضد الالمان بصورة منظمة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية .

ـ المترجم ـ

البارون فون بوسه وقال انه تلقى في مساء ٣٠ حزيران ٩٣٤ امرا بدفن جثة بوسه في حديقة المسرح. وان تقرير وفاته تضمن اصابته بعدة اطلاقات في القلب. ثم قال السيد غ بأنه تحرى في الاضبارات الرسمية لمكتب نائب المستشار طوال اسبوع كامل بحثا عن أية ادلة تشير الى تورطنا في محاولة روهم الانقلابية ولما لم يتمكن من النهوض بهذه المهمة لوحده فقد اودع الاضابير كلها الى ادارة الشرطة السرية للدولة . وكما سبق ان ذكرت آنفا فان بوسه كانت لديه وثائق عن فعاليات كل من هملر وهايدريش . اذ كان له في شعبة الصحافة بمكتبه مساعد يدعى بوخوف عمل بعدئذ وكيلا لمصلحة الأمن ولربما كان يعمل بهذه الصفة من ذلك الحين وانني على ثقة من أن ذلك الرجل هو الذي وشى ببوسه لدى الشرطة السرية للدولة فأخبر بنشاطاته وساهم في تحمل مسؤولية قتل بوسه. ولما اصبحت بعدئذ سفيرا لالمانيا في ڤينا ظهر بوخوف هناك وسأتحدث في فصل لاحق عن مساهمته في مقتل صديقي البارون فون كيتلر .

كانت وسائل الشرطة السرية للدولة مضللة الى أبعد الحدود لطمس معالم الجرائم التي وقعت في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ فلجأت ــ قدر المستطاع ــ الى احراق جثث الضحايا . أما في حالة صديقي البارون فون بوسه فان هملر اصدر امرا استثنائيا بتسليم بقايا جثته لذويه بناء على الحاحي المتواصل . الا انني شعرت بمضايقة هملر من موقفي هذا لدرجة استوجبت مني الحذر الشديد في التعامل معه مستقبلا.

اجتمعت معي زمرة صغيرة من اصدقاء البارون فون بوسه الخلّص لتشييعه الى مثواه الاخير بمقبرة شوينه بيرغ فوصفت في تأبينه حياته عندما كان ضابطا نابها أدى واجبه بكل اخلاص وتفان واسهبت في ذكر مناقبه وسعيه لبعث الامة الالمانية . وتطرقت الى وصف موقفه النبيل الذي دفع حياته ثمنا له. وقلت انه مات ميتة الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل اوطانهم واستحقوا المجد المؤثل بأكاليل الغار. وقد لاحظت خلال القائي لكلمتي التأبينية هذه ان وكلاء الشرطة السرية للدولة الحاضرين في التشييع كانوا

يكتبون كل ما قلتـه دون حيـاء أو خجل . وقد أخبرني السفير فون هاسل فيما بعد بأن موسوليني كلفه باخباري شخصيا باعجابه بشجاعتي الفـائقة المتمثلة بتأبيني للبارون بوسه .

ان المأساة الرهيبة التي وقعت في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ كان يمكن ان تتطور بحيث تؤدي للاطاحة بنظـام الحكم النـازي قبل أن يستطير شـره لو ان الله سبحانه وتعالى اعطى للمشير فون هندنبورغ صحة وعافية تمكنه من ادارة شؤون الدولة الالمانية لمـدة ستـة اشهر اخـرى فقط ولكان ذلك الرجل الحصيف ورجل الدولة العظيم قد استقر ببرلين وما غادرها الى غير رجعة. ولو بقي ببرلين لامكن الوصول اليه بسهولة تامة وادامة التشاور معه . ولو بقي ببرلين لعلم بتأثيرات خطبتي في جامعة ماربورغ التي فضحت النظام النازي ولعلم بمصرع مستشاره السابق فون شلايخر وأخيرا فأنه لو بقي ببرلين لما اقدمت قطعات الحماية على ابادة الاعداد الغفيرة من المواطنين الالمان بدون جريرة.

ومما لا شك فيه لو أن صحة الرئيس فون هنـدنبورغ كانت تساعده على اداء واجباته لاتبع المسلك الوحيد المفتوح امامه باتخاذ قرار التدخل بالقوة للاطاحة بهتلر واعادة النظام والقانون الى نصابهما. ولما حدث ما حدث من تحميل المانيا عبء خسران حرب عالمية ثانية.

ولكن التاريخ يحدثنا بحديث آخر هو انه لا مكان لعبارة (لو) في قاموسه منذ وجدت الخليقة على وجه البسيطة والى ما شاء الله.

الفصل العشرون

وَصِيَّة فونْ هِنْدِنبورْغ

محاولة لعودة الملكية . هتلر يؤيد . فون هندنبورغ يوجه رسالة وصية . لقاء هتلر بموسوليني . وفاة الرئيس فون هندنبورغ . هتلر ينصب نفسه رئيسا للجمهورية . القسَم الجديد لرجال الجيش الالماني .

ازاحت وفاة الرئيس فون هندنبورغ يوم ٢ آب ١٩٣٤ آخر عقبة في وصول هتلر الى السلطة المطلقة . ولقد شعرنا جميعا بالخطر الشديد الذي احاق بنا بعد فقدان الرئيس الجليل الذي بقي طوال عهده صمام الامان لبلادنا والملاذ الوحيد لنا في الشدائد . وهذه حقيقة أدركها المستشار الاسبق بريونينغ الذي جرت انتخابات تجديد رئاسة فون هندنبورغ في عهد حكومته . وقد زعم امين سر رئاسة الجمهورية الدكتور مايسنر ومساعده السيد فون دير شولينبورغ بأن حصول الرئيس على اغلبية ضئيلة لابد ان يفت في عضده ويثبط همته. الا انني قررت منذ حزيران ١٩٣٢ عكس ذلك مؤكدا بأن الرئيس فون هندنبورغ يتميز باحتفاظه بطاقته الروحية التي

لا يمكن ان تتأثر بنتيجة الانتخابات او سواها، ومع ان صحة الرجل تدهورت بشكل ملحوظ عند مطلع سنة ١٩٣٤ الا انه بقي محتفظا بروحيته العاليةوكان من المؤكد في تلك الانتخابات عدم وجود اي شخص يتغلب على هتلر سوى الرئيس فون هندنبورغ ولو امتنع عن تجديد ترشيحه لفاز هتلر بالتزكية.

وواضح لي ولمتتبعي أحداث التأريخ الالماني ان فون هندنبورغ كان شخصية ذات دور فريد في تلك المرحلة الحرجة التي عاشتها بلادنا .

فقد جاء هتلر الى خضم الوسط السياسي ليكون أو لا يكون وعندما يكون فانه يفرض آرائه الثورية الحدّية بلا هوادة .

وكان من الواضح ان فون هندنبورغ عندما يرى منيته قد حانت فانه لن يتخلى عن موقعه الرفيع لشخص مثل هتلر . ثم انه من الخطأ ــ من وجهة النظر القانونية ــ اعطاء السلطتين التنفيذية والتشريعية لشخص واحد . وثمة أمر خطير آخر هو أن القوة المنظمة الوحيدة التي كانت نظيفة من النازية وأعني بها الجيش الالماني أصبحت هي الاخرى أداة بيد هتلر . ومع انني حاولت مع بعض زملائي الوزراء اثارة هذا الموضوع مع هتلر مرارا الا انه كان بارعا في التملص من مناقشة هذه القضية .

كان يبدو ان المنفذ الوحيد للتخلص من نظام هتلر البغيض هو العودة للملكية لا سيما بعد أن تأكد تعذر انتخاب أي الماني غيره لرئاسة الجمهورية.

ولربما كان الشعب الالماني يكن بعض الاحترام لملك يحكم في ظل الدستور .

ولم تخل المانيا آنذاك من شباب الأسرة الامبراطورية السابقة أو بيوتات ملوك الأقاليم كما أن نسبة كبيرة من أبناء الشعب الالماني كانت تولي النظام الملكي عاطفة تجعل هذا الاتجاه واردا . أما أنا فكان من رأيي اعادة الملكية لالمانيا وفق النموذج الانكليزي اذ أنني اؤمن بطريقة الحكم الهادئة ذات الضوابط التقليدية الا أن هذه الفكرة ما كان بالامكان تحقيقها الا بعد اقناع هتلر بصوابها .

في آذار ١٩٣٤ فاتحت هتلر باحتمال موت الرئيس فون هندنبورغ خلال فترة وجيزة مما يدعونا للتفكير المبكر بخلَفه . وقلت له بأن من الصعوبةعليه بمكان أن يحل محل فون هندنبورغ في رئاسة الدولة الالمانية لأنه بانصرافه لهذه المهمة الجديدة لابد وأن يتخلى للاخرين عن زعامـة حركتـه السياسية بدرجة قلت أم كثرت اذا كان من رأيه أن يكون خلفاً للرئيس فونهندنبورغ .

لا سيما وان رئاسة الجمهورية تتطلب منه الابتعاد عن صفته النازية وعليه فقد اقترحت العودة للحكم الملكي المقيدِ بالدستور .

كدت أستغرب لسرعة رد فعل هتلر الايجابي علىٰ مقترحي هذا . حيث أبدى اعجابه الشديد بسيرة عدد من ملوك بروسيا السالفين وخص منهم بالذكر الملك فريدريك ڤيلهلم الأول وهو والد فريدريك الكبير الذي اشتهر بادارته الحازمة في التأريخ الالماني . وقال انه لكي نفكر جديا بعودة الملكية لالمانيـا فلابد من التمعن بسيَر مثل هذه الشخصيات الحاكمة . وكان من رأيه أيضـا تصوير سيرة كل شخصية من ملوك بروسيا بشريط سينمائي على أن يلعب الممثل المشهور اميل يانغس الدور الرئيس في تلك الاشرطة.وكان هتلر يقصد بطبيعة الحال التمهيد للفكرة بتحبيذ نظام الحكم الملكي للشعب الالمـاني بطريقة غير مباشرة قبل طرح الفكرة المقترحة للاستفتاء العام .

ولم تكن لدى هتلر أية ملحوظات مضادة لبيت هوهنزولرن الامبراطوري السابق ولو انه كان يرى ألا يكون امبراطور المانيا المقبل ملكا لبروسـيا في الوقت نفسه . كما ان هتلر كان ضد فكرتي المتضمنة اعطاء الولايات الالمانية حكما ذاتيا . وكان من رأي هتلر استبعاد ولي العهد وكذلك شـقيقه الأمير اوغوست ڤيلهلم لأنه لم يجد أيا منهما جدير بتحمل مسؤولية الحكم. وهكذا اتفقنا أنا وهتلر بالرأي وتوصلنا الى أن بمقدورنا ايجاد المرشح المناسب لعرش المانيا من بين أبناء ولي العهد . الا أنني انصرفت نيتي نحو تولية العرش لأصغر أبناء ولي العهد الأمير فريدريش لأنه رجل جاد لطيف المظهر مهابا .

ثم تطرقنا الى ضرورة تعيين الامير الذي يقع عليه الاختيار للعمل في دار المستشارية لكي يحصل على فكرة شاملة عن تسيير أمور الحكومة الالمانية .

تحدثت مع الرئيس فون هندنبورغ بنفس المعنى وبصراحة تامة تحسبا للموقف الذي سيحصل نتيجة لمرض الرئيس او وفاته مما سيعرض البلاد لخطر شديد . وكان دستور ڤايمار ينص على تولي المستشار مهمة رئيس الجمهورية وكالة في مثل هذه الأحوال ريثما يتم انتخاب الرئيس الجديد . وقلت للرئيس فون هندنبورغ بأنني على ثقة من أن النازيين سيزيفون انتخابات الرئاسة وستتمخض الانتخابات عن اختيار هتلر رئيسا للجمهورية . والمسلك الوحيد لمنع تطبيق هذا الحل هو وضع هتلر والشعب الالماني ازاء وصية سياسية يكتبها فون هندنبورغ ويوصي بها بالعودة الى النظام الملكي الذي كان يوليه شيء من الاعجاب في كثير من المناسبات .

أوضح لي فون هندنبورغ بأنه متفق معي بالرأي ورجاني أن أكتب له الوصية المقترحة . وقد تطرق فون هندنبورغ في الكتاب الذي ضمنه سيرته والموسوم « من حياتي » والذي ذكر فيه خدمته العسكرية المديدة الى مثل هذه الوصية .

وتضمنت الوصية التي أعددتها للرئيس فون هندنبورغ اعادة النظام الملكي الى المانيا بعد وفاة الرئيس فون هندنبورغ لتعذر الجمع بين مهمات رئيس الجمهورية والمستشار .

وبررت ذلك باعتياد الشعب الالماني على العيش في ظل الملكية منذ ما ينيف على الألف سنة وانه اثبت ملاءمته لطبيعة الشعب الالماني في تأريخه الحافل بالأمجاد . ولكي يتقبل هتلر هذا الرأي ويساهم في وضعه موضع التنفيذ فقد اشرت بصورة خاصة الى فعالياته الايجابية مما يتناقض مع قوانين تصنيف الشعب الى طبقات ـ وفقا لنظريات هتلر العرقية ـ ويؤكد جعل ابناء الشعب سواسية أمام القانون .

في نيسان ١٩٣٤ قدمت الوصية المقترحة للرئيس فون هندنبورغ فقرأها ملياً ووضعها امامه قائلا بأنها تحتاج الى بعض الوقت لدراستها بامعان.

ثم استدعاني اليه بعد مدة قصيرة وفاتحني برأيه فيمن يخلفه بعد

موته مؤكدا انه لا يرى ما يستوجب التقدم للشعب الالماني بوصية او نصيحة اخيرة منه تتضمن تحديد الشكل العام لنظام الحكم. ذلك لأن الشعب نفسه هو الذي يقرر نظام الحكم المناسب له. اما بصدد العودة بألمانيا للنظام الملكي فانه سيوجه بذلك رسالة شخصية لهتلر.

وقد شهد السيد فون دير شولنبورغ مرافق الرئيس فون هندنبورغ امام المحكمة الدولية التي اتهمتني بموالاة النازية فيما بعد قائلا بأن الرئيس سلمه في النصف الثاني من نيسان ١٩٣٤ ورقتين مكتوبتين على الآلة الكاتبة تتضمنان وصيته وعليهما شطب واضافات كتبها بخط يده وانه طلب اليه اعادة طبعها وفق التعديلات التي أجراها عليها.

وكانت اولاهما الوصية التي أراد توجيهها للشعب وثانيتهما رسالة شخصية كتبها لهتلر. وتتضمن الوثيقتان عدم الايصاء للشعب الالماني بعودة الملكية ولكنهما تجعلان مستقبل الشعب رهينا بما يقرره المستشار نفسه بعد وفاة الرئيس فون هندنبورغ. ثم ان الرئيس وقع الوثيقتين وجعل كل منهما في مظروف مغلق. وكانت الاولى معنونة (الى الشعب الالماني) والثانية معنونة الى (مستشار المانيا ادولف هتلر).

ثم حفظت الرسالتان في خزانة الرئيس فون هندنبورغ حيث اوصلهما المرافق فون دير شولنبورغ فيما بعد الى الخزانة الفولاذ في ضيعة الرئيس بنوي ديك.

قضيت عطلة عيد الفصح لعام ١٩٣٤ التي مددتها باجازة للاستجمام امدها ثلاثة اسابيع في ايطاليا . الا انني كنت قلقا خلالها بسبب تطورات الاحداث فكتبت رسالة مطولة لصديقي السفير بروما فون هاسل ولما زرت الرجل بمكتبه بعدئذ عاتبني منتقدا طريقتي السافرة في التصدي لنظام هتلر ومحذرا من مغبة السير في هذا الطريق الشائك.

وفي المساء دعانا ــ أنا وزوجتي ــ لحضور حفلة أقيمت في دار الأوبرا بروما وقد اعتراني عجب شديد عندما لمحت موسوليني في المقصورة المجاورة

لمقصورتنا • وكان فون هاسل قد اخبر موسوليني بزيارتي لايطاليا ولذا فقد اتيحت لي الفرصة للتحدث مع موسوليني خلال فترة الاستراحة وبعد اختتام حفلة الاوبرا فتفصلنا في بحث الموقف العام حيث اغرب موسوليني عن عدم ارتياحه لنشاط النازيين النمسويين ولتطورات الموقف السياسي الداخلي في المانيا نفسها• اما انا فأعربت من جانبي عن املي في تحسن علاقات بلدينا وشيكا ووضع حد لتدهور تلك العلاقات • ثم سألت موسوليني عن امكانية توجيه دعوة رسمية لزيارة هتلر لايطاليا وبذلك سيتمكنا من بحث مختلف المسائل بطريقة ودية ويتوصلا الى تفاهم بشأن القضايا التي تخص السياسة الاوربية • لاسيما وان هتلر ـ بتقديري ـ يكن لموسوليني وفعالياته السياسية درجة كبيرة من الاحترام • وكنت على ثقة من ان موسوليني لابد وان يؤثر بآرائه على هتلر بدرجة قلت ام كثرت•

سررت بالغ السرور لأن موسوليني تقبل فكرتي على الفور ورجاني ان اقوم بتبليغ هتلر بالدعوة الرسمية لزيارة ايطاليا•

ما ان اخبرت وزير الخارجية البارون فون نويرات بعد عودتي للوطن بقضية الدعوة الرسمية المذكورة الا واكفهر وجهه لانه اعتبر ذلك تدخلا مني بمجال اختصاصه وقال ان هذه الزيارة ستجيء مبكرة جدا وهي تتطلب التخطيط المسبق تحاشيا لعقابيل النتائج غير المرغوبة والتي قد تتمخض عن الزيارة•

تقرر موعد الزيارة في اواسط حزيران ١٩٣٤ وكانت مثابة اللقاء مدينة البندقية • وكانت مهمة وزير الخارجية ـ وليست مهمتي بطبيعة الحال ـ مرافقه المستشار في زيارته الرسمية • كما ان البارون فون نويرات كان على معرفة شخصية وثيقة بموسوليني لأنه سبق ان عمل سفيرا في روما قبل تسنمه منصب وزير الخارجية • ثم انه يدرك من معرفته الوطيدة لهتلر عادة الاسترسال في الكلام دون اتاحة اية فرصة للآخرين في الاعراب عن آرائهم او وجهات نظرهم ـ وهذا ما الفته انا عنه ايضا ـ لأنه دأب على مفاجأة من يلتقي بهم بسيل جارف من الكلام •

ولعله لم يكن من التأدب في شيء مقاطعة احد اثناء تحدثه الا انه كان من الضروري بذل محاولة في هذا السبيل من اجل تحويل المحاضرة التي دأب هتلر على القائها في كل مناسبة الى محـاورة مجدية لاسيما اذا كان اللقاء مع نظير اجنبي كموسوليني. والمؤسف ان البارون فون نويرات لم يحسن ممارسة هذه اللعبة.

ثم انني حاولت ادامة التمـاس مع موسوليني بهذا الصدد فرجوت صديقي ليرسنر الاتصال معه في مطلع حزيران ١٩٣٤ ولعل القاريء الكريم يتذكر البارون فون ليرسنر الذي سبق ان أشرت لاشتغاله معي في واشنطن وبالمكسيك وكذلك بالحرب العالمية الاولى ولما اصبحت قومسيرا لالمانيا في قضية اقليم السار عمل ليرسنر ممثلا لي في اجتماعات عصبة الامم . والآن كلفته بمهمة توسط موسوليني لدى هتلر لتحبيذ عودة النظام الملكي لالمانيا في حالة وفاة الرئيس فون هندنبورغ. اذ ليس هناك من يفضل موسوليني في اقناع هتلر بهذا الشأن. لاسيمـا وان لديه مثالا يحتذى من قبل المانيا النازية بتنامي الفاشية في ظل النظام الملكي السائد في ايطاليا. وقد اخبرني البارون فون ليرسنر بأن موسوليني وعده ببذل جهوده في هذا السبيل.

والمؤسف ان أول زيارة رسمية قام بها هتلر خارج المانيا ادت الى نتائج سلبية تماما . وأنا أعزي ذلك لمركب النقص المسيطر على هتلر .

فقد حدث ما توقعته سلفا عندما دأب هتلر على القاء خطاب مطول على مسامع موسوليني في كل لقاء له معه بحيث لم يفسح له المجال باجراء أي نقاش او محاورة معه . ولما رجع هتلر لالمانيا ــ واظن انه عاد باليوم الذي القيت به محاضرتي في جامعة مـاربورغ ــ اعرب لمعـاونيه المقربين عن خيبة أمله (بالاقتصاد الملكي) الذي شاهد آثاره في ايطاليا.

ولم يؤد لقاء هتلر بموسوليني الى ادنى تأثير لتحسين التدهور المستمر في علاقات المانيا بايطاليا بسبب تناقض سياستيهما في النمسا وبعد اربعة اسابيع اقدم النازيون على اغتيال المستشار النمسوي انغلبرت دولفوس.

ولكي اوضح قضية وصية الرئيس فون هندنبورغ بصورة اجلى اعود فاكمل موضوعها.

فبعد عودتي من الاحتفال بذكرى انتصار الرئيس فون هندنبورغ في معركة تاننبرغ استدعاني هتلر اليه ببرلين • فلما وافيته سألني عما اذا كانت هناك وصية سيـاسية للرئيس فون هندنبورغ وعما اذا كنت اعلم بمكان وجودها • ولما لم أكن على ثقة من اقرار الرئيس لتلك الوصية وكذلك لم آكن أعلم عما اذا بقيت ببرلين او ارسلت الى نوي‌ديك فقد اجبته بأنني سأتثبت من ذلك فورا من نجل الرئيس اوسكار فون هندنبورغ • فقال لي هتلر :

« ثم انني ارجوك تسليمي الوصية في حالة وجودها بالسرعة الممكنة» فكلفت امين سري الشخصي غراف كاغينيك بالسفر فورا الى نوي ديك والتقدم برجاء لأبن الرئيس فون هندنبورغ لاعطـائي وصيـة أبيـه بقصد تسليمها للمستشار هتلر بناء على طلبه• وحيث انني لم احظ بزيارة الرئيس فون هنـدنبورغ بعـــد مغـادرته لبرلين في أواخر مايس ١٩٣٤ فلربمـا كان قد غيّر من نص الوصية التي سبق ان رأيتها او انه اتلفها خلال تلك الفترة • الا أن غراف كاغينيك سرعان ما عاد من نوي ديك وبحوزته الوثيقتين المعهودتين فسلمهما لي حال وصوله•

وقد يتسائل البعض لِمَ لمْ يسلم ابن الرئيس الوثيقتين اللتين وقعهما ابيه الى هتلر شخصيا • والجواب هو ان اوسكار فون هندنبورغ لابد ان يكون قد تلقى تعليمات من أبيه بتسليمهما لي لكي أعطيهما بدوري لهتلر •

وحيث ان هتلر كان متغيبا عن برلين بينما وجب علي السفر بعد ثلاثة ايام الى ڤينا لاستلام منصب سفير المانيا هناك فقد اقتضى علي الطيران خلال تلك الأيـام الثلاثة الى برختسغادن للاســتئذان بالسفر من هتلر وتسليمه الرسالتين خلال التقائي به•

وقد قمت بهذا في ١٥ آب ١٩٣٤ بحضور احد امناء سري وهو السيد تشيرشكي ولما تسلمهما هتلر قرأهما بامعان ثم ناقشنا بما جاء فيهما • وكان

من الواضح تماما ان هتلر غير راغب ابدا في قبول وصية الرئيس فون هندنبورغ بعودة الملكية الى المانيا عندما قال:

« ان هاتين الرسالتين وجههما الرئيس الفقيد لي شخصيا وسأقرر فيما بعد فيما اذا تعرضان للرأي العام الالماني وفي حالة اتخاذي مثل هذا القرار سأحدد الموعد المناسب لعرضهما».

الا انني رجوت هتلر ان يعرضهما فورا على الشعب الالماني. فقبل هتلر ذلك الرجاء وسلم الوصية الموجهة للشعب الالماني الى مدير الصحافة وطلب اليه اعلانها للشعب فوراً.

ولكن ما الذي حدث في تلك الاثناء؟ اصدر هتلر في ١ آب ١٩٣٤ أي قبيل وفاة الرئيس فون هندنبورغ قانونا يمنحه سلطات مطلقة لحكم المانيا واصبح الموقف القانوني معقدا للغاية . ذلك لأن المادة ٥١ من دستور ڤايمار تنص على تولي المستشار مهمة الرئيس عند وفاته ريثما يتم انتخاب الرئيس الجديد . الا ان البرلمان الالماني كان قد أقر تعديلا على الدستور بتاريخ ١٧ كانون الاول ١٩٣٢ في عهد حكومة المستشار فون شلايخر بأكثرية ثلثي الاصوات اصبح بموجبه رئيس البرلمان الالماني هو الوكيل الرسمي لرئيس الجمهورية بدلا عن المستشار في مثل هذه الحال.

وكان هتلر قد سافر ظهر يوم ١ آب ١٩٣٤ الى نوي ديك وبصحبته الدكتور مايسنر رئيس ديوان رئاسة الجمهورية وكان الرئيس فون هندنبورغ قد وصل الى مرحلة فقدان الوعي تقريبا . وقد وصف اوسكار فون هندنبورغ تلك الزيارة بقوله انه عندما ادخل على ابيه ذينك السيدين كان والده مغمض العينين فهتف اوسكار :

« ابتاه . ان المستشار هنا»

الا ان الشيخ لم يرد على ابنه فكرر اوسكار النداء وعندئذ اجاب الرئيس المحتضر وهو مغمض العينين:

« ولماذا لم يأت قبل الآن؟»

فتوجه هتلر بالسؤال نحو اوسكار:

« ما الذي يقصده ؟»

الا أن اوسكار أجاب والده قائلا :

« لم يستطع المستشار زيارتكم قبل الآن.»

فدمدم العجوز:

« نعم انني افهم مقصدك ».

عندئذ حاول اوسكار القيام بمحاولة جديدة فقال لأبيه:

« ان المستشار يود ان يبحث معك قضية او قضيتين يا ابي.»

ولما سمع فون هندنبورغ تلك العبارة حملق بعينيه نحو هتلر ولم يحر جوابا ثم اغمضهما وبقى سادرا . وعندئذ لم يحاول هتلر ولا اوسكار اجراء محاولة اخرى وغادرا الغرفة.

لقد كنت حريصا في محاولاتي الدائبة لمواجهة الرئيس فون هندنبورغ قبل وفاته لكي ابثه مكنون صدري وأحدثه بما جرى منذ اواخر حزيران ١٩٣٤. ولما تعاقبت الاخبار بتدهور صحة الرئيس يوم ٣١ تموز ١٩٣٤ رجوت هتلر ان يرافقني ونذهب سوية لزيارة الرئيس في نوي ديك.

الا ان هتلر لم يقبل وتعلل بأنه يتعذر عليه التحدث مع رجل يغالب سكرات الموت.

وقد سمعت من السيد هانز لاميرز بأن الرئيس فون هندنبورغ ابدى تألمه عندما سمع باستقالتي من منصب نائب المستشار.

وفي اليوم التالي سافر هتلر لوحده الى نوي ديك ولما رجع وتلقاني اعتذر مني بقوله:

« لقد نفذت فكرة السفر بسرعة لدرجة تعذر معها اصطحابك».

وفي الساعة التاسعة من صباح ٢ آب ١٩٣٤ وافت المشير فون هندنبورغ منيته. ولربما ينتقدني البعض لأنني لم ازر الرئيس قبيل وفاته ولأنني كان علي السفر الى نوي ديك . واظن ان هذا الانتقاد وارد واعترف بأنني سلكت

في تلك الفترة مسلكا مغلوطا•

عجلت في ذلك اليوم بالطيران الى نوي ديك تلبية لدعوة اسرة الفقيد لحضور احتفال تشييعه• وكم حز في نفسي فقدان ذلك البطل العظيم الذي خدمت بأمرته افضل مراحل خدمتي لوطني• ولما توجهت لالقـاء النظرة الاخيرة على الفقيد كان لا يزال مسجياً على فراش الميدان البسيط جالت في خاطري صورة سريعة لسجاياه الحميدة التي تميز بها وأهمها الحكمة وحب الوطن بلا حدود والجرأة في اتخاذ القرارات الحاسمة•

لقد تجسدت بشخصيـة فون هندنبورغ مرحلة مهمة من تأريخ المانيا ومصيرهـا • فهو قد سـاهم في معركة كونيغ غراتس وحضر تتويج ملك بروسيا امبراطورا لألمانيا في قصر ڤرساي بباريس[1] • وكان ان ألقيت نظرتي الاخيرة ــ وفي القلب حسرة ــ على الرجل الذي ايقنت بأنه ظل وفيا لعلاقتي الحميمة معه حتى آخر لحظة من حياته الحافلة•

كان الرئيس فون هندنبورغ قد ابدى رغبته بأن يدفن الى جانب عقيلته التي توفيت قبله بسنين عديدة ودفنت في مقبرة قرية نوي ديك• الا ان هتلر أراد ان يقيم للفقيد ضريحا منيفا في تاننبرغ ولما اعترضت اسرة الرئيس على مخالفة وصية المرحوم انصاع هتلر لرغبة الأسرة•

وباختتام حياة الرئيس فون هندنبورغ طويت صفحة التأسي على خسران الحرب العالمية الاولى والمعاناة من نتائج تلك الخسارة • ولا يمكن لالماني ان ينسى فضله في كسب معركة تاننبرغ وطرد الروس من بروسيا الشرقية الا ان المؤسف هو فقدان المانيا لذلك الاقليم الثمين بعد احد عشر عاما فقط من وفاة

(1) تم هذا بعد سقوط باريس في حرب ١٨٧٠ ــ ١٨٧١ وكان الملك البروسـي غليوم الاول والملك الفرنسي نابليون الثالث .

ــ المترجم ــ

الرئيس فون هندنبورغ[٢].

صادقت الحكومة الالمانية بعد وفاة الرئيس فون هندنبورغ مباشرةعلى قانونين منحا الصلاحيات المطلقة لأدولف هتلر وكان المستشار قد قدم لائحتيهما مساء يوم ١ آب ١٩٣٤ بعد عودته من نوي ديك مباشرة .

والغريب ان القانونين المذكورين عليهما توقيعي أيضا ضمن أعضاء الحكومة آنذاك وهذه حقيقة كنت اجهلها وقد فوجئت بها عند محاكمتي امام محاكم نورمبرغ. وحيث انني متأكد من عدم توقيعي او مصادقتي على أي من القانونين المذكورين فلابد ان أحداً زيف توقيعي على تينك الوثيقتين. ذلك لأنني لم أحضر أي اجتماع لمجلس الوزراء منذ ١٦ حزيران ١٩٣٤ كما ان الرئيس فون هندنبورغ وقع في ٢٨ تموز ١٩٣٤ آخر توقيع له على أمر تعييني سفيرا لبلادي في ڤيناء وعليه فانني اتهم غوبلز بتضليل الشعب الالماني بحشر اسمي في قائمة الوزراء الموقعين على القانون الصادر في ١ آب ١٩٣٤ أي ليلة وفاة الرئيس فون هندنبورغ.

ثم أن هتلر اتفق في ذلك اليوم بالذات مع وزير الدفاع الفريق فون بلومبرغ على تجديد رجال الجيش الالماني لقسم الولاء بعد وفاة الرئيس فون هندنبورغ مباشرة وقدم له صيغة جديدة لقسم الولاء وهكذا أقسم رجال الجيش الالماني يوم وفاة الرئيس ٢ آب ١٩٣٤ يمين الولاء «لزعيم الدولة الالمانية والشعب الالماني أدولف هتلر» ولولا تغيير المادة (١٧٦) من الدستور بموجب قانون الصلاحيات الاستثنائية لما استطاع هتلر تحقيق هذا المكسب وتغيير صيغة القسم لشخصه بالذات.

وبعد ان أقسم رجال الجيش الالماني يمين الولاء فعلا صدر قانون

(٢) فقدت المانيا ـ نتيجة خسارتها الحرب العالمية الثانية ـ اقليم بروسيا الشرقية التي اقتسمتها روسيا مع بولندا كما خسرت أقليم بوميرانيا الذي استحوذت عليه بولندا وجعل نهر الاودر وفرعه نايسه الحد الطبيعي بين المانيا وبولندا وتبلغ مساحة المناطق التي فقدتها المانيا ١١٠ آلاف كيلو متر مربع . ـ المترجم ـ

يتضمن صيغة يمين الولاء الجديد في ٢٠ آب ١٩٣٤ وعندئذ كتب هتلر رسالة شكر للوزير فون بلومبرغ جاء فيها:

« اليوم وبعد تصديق لائحـة القانون التي قدمت في ٢ آب ١٩٣٤ يطيب لي ان اتقدم لكم ولرجـال الجيش الالماني بالشكر الجزيـل على الاخلاص الذي لمسته منكم بصفتي زعيمكم وقائدكم الاعلى. وانني اتعهد لكل جندي وضابط بأنني سأكون عند حسن ظنهم وسأولي بلادي كل اخلاص وسأبذل كل ما بوسعي لرفع مستوى القوات المسلحة الالمانية تنفيذا لوصية المشير الفقيد واتعهد لكم جميعا بأن الجيش الالماني سيبقى القوة المسلحة الوحيدة في هذا البلد ».

ان الفقرات الواردة في الرسالة الآنفة الذكر تفضح نوايا هتلر بصورة سافرة فهي تنطوي على تملق فون بلومبرغ لصرف نظره عن الثأر لرفاقه ضحايا ٣٠ حزيران ١٩٣٤ امثال الفريق فون شلايخر والفريق فون بريدوف.

كما ان التأريخ الالماني لم يحدثنا بتقدم أي زعيم او عاهل بالشكر على قيام رجاله بقسم يمين الولاء لشخصه. وللمرء ان يقدر ما انطوى عليه ذلك اليمين من خطر على الكثير من رجال الجيش الالماني الذين سيقوا للمحاكم وعوقبوا بأقسى العقوبات لاداتنهم بجريرة الحنث بذلك اليمين.

وقد تجلى الآن السبب الذي حدى بهتلر للاشارة الى وصية الرئيس فون هندنبورغ وتجاهله لقضية عودة الملكية الى المانيا. فهو بعد أن فرغ لتوه من تسوية حسابه العسير مع خصمـه اللدود روهم لم يكن من المعقول ان يسلط على رأسه ملك يأتمر الجيش بأمره ويجعل وجوده على رأس الحكومة الالمانية مهددا بخطر دائم. وهكذا افلح في تنفيذ خططه المتعلقة بكسب ولاء رجال الجيش الالماني بفضل همة الفريق فون بلومبرغ. اضف الى ذلك ان التجربة المريرة التي خاضهـا مع روهم جعلته يعزف عن ايجـاد اية ظروف مشابهة يتمخض عنها خطر آخر يهدد زعامته.

وهكذا كان من رأي هتلر ان قانوني ١ و ٢ آب ١٩٣٤ وصيغـة اليمين

الجديد الذي أقسمه رجال الجيش الألماني بالولاء لشخصه الوسيلة المطلوبة لترصين موقعه الرفيع.

لقد حاز هتلر بموجب القانون الصادر في ١٩ آب ١٩٣٤ وبعد ثلاثة ايام من حصوله على وصية الرئيس الفقيد على صلاحيات مطلقة لم يحزها أي عاهل الماني في تاريخ المانيا الطويل. وقد طبلت الدعايات النازية لوصية الرئيس وزعمت بأنها تنص على تمتع هتلر بكامل ثقة الرئيس فون هندنبورغ.

الفصل الواحد والعشرون

مُهِمَّة جَدِيدَة

زيارة للشرطة السرية للدولة . هتلر يرجوني تولي منصب السفير في ڤينا . اتفاقاتنا في بايرويت . النمسا والمانيـــا . فكرة الاندماج في الظروف الجديدة . مواصلة العمل الذي بـداه بسمارك . موقف النمسا الداخلي . وصولي الى ڤينا .

كنت عائدا من ڤـارمبرون الى برلين يوم ٢٦ تموز ١٩٣٤ مع ولدي فسمعنا طرقا شديدا على الباب في الساعة الثانية ليلا فتصورنا للتو بأن مثل هذه الزيارة لن يقوم بها الا رجال الشرطة السرية للدولة . وبينما فتح ولدي الباب ـــ شاهرا مسدسه ـــ كنت ارتدي ملابسي على عجل وتبين ان زوارنا كانوا ثلاثة رجال من قطعات الحماية قالوا انهم ارسلوا من دار المستشارية لكي اقوم بمحادثة هتلر هاتفيا لأنه ينتظر المكالمة من بايرويت[1]. ففكرت

(١) داب هتلر على السفر الى بايرويت مرة في كل عام لحضور مهرجانها الموسيقي الذي تعزف به الحان الموسيقار ڤاغنر . — المترجم —

بأن هؤلاء الثلاثة يريدون قتلي غيلة برصاصة في الرأس اثناء انشغالي بالنداء الوهمي . وهـذا التصور المرعب لا أزال أحس به الآن وللقارىء الكريم أن يقـدر مـدى التوتـر العصـبي الذي أخـذ مني كـل ماخـذ في تلك الفترة الصاخبة من تاريخ المانيا . الا ان تصوري هذا كان مغلوطا لحسن الحظ. اذ اوصلتني بدالة دار المستشارية بهتلر فورا فسمعته يتكلم بصوت يبدو عليه التأثر الشديد:

« يجب ان تذهب سفيرا الى ڤينا فورا يا سيد فون پاپن . فالموقف متدهور فيها الى ابعد الحدود . وارجو الا تعتذر عن اداء هذه الخدمة».

فأجبته :

« انني لا أفهم معنى لهذا الطلب . فما الذي حدث بيننا . ولماذا صـار الموقف متدهورا الى هذا الحد وبصورة مفاجئة ؟ »

فقال لي :

« ذلك لأنك لا تعلم بما حدث »

« لا أعلم ماذا حدث بطبيعـة الحال لانني رجعت لتوي من بلدتي لجمع حوائجي من بيتي ببرلين » .

وعندئذ أوضح لي هتلر بأسهاب تفاصيل ما حـدث مؤخرا حيث اغتيل مستشار النمسا دولفوس وانذر موسوليني فرقه وحركها نحو ممر برينر وقد فر السفير الالماني في ڤينا الدكتور ريت لأن ماحصل هناك جعله عرضة للاستدعاء أمام المحاكم العرفية . وصفوة القول انني قد أكون الرجل الوحيد المناسـب لمعالجة هذا الموقف الحساس والخطر معا وخلص هتلر الى القول :

« اننا بمواجهة سراييڤو أخرى »[٢] .

(٢) اغتيل ارشيدوق النمسا والمجر في مدينة سراييڤو الصربية (يوغسلافيا الحالية) فكان هـذا الحادث السبب المباشـر لنشوب الحرب العظمى عام ١٩١٤ التي سميت فيما بعد الحرب العالمية الاولى .

ـ المترجم ـ

فقلت لهتلر بأن كل هـذه المعلومات جديدة عليّ تماما ولكنها لم تكن مفاجئة لي أبدا حيث انني سبق أن نصحته منذ شهور عديدة بتغيير سياسته ازاء النمسا ويؤسفني كثيرا أن تتعرض المانيا في تلك المرحلة الدقيقة لمثل هذا الموقف الحرج وعليه فانني اعتذر عن قبول منصب جديد في حكومته بعد الذي حصل في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ ٠

عندئذ أصر هتلر على طلبه بحدة قائلا بأنه يتفهم وجهة نظري تماما الا أنه بصدد معالجة موقف جدي وانه يوجه ندائه لي باسم الشعور الوطني ٠ فلما أصررت على الرفض اختتم قوله بانني ينبغي أن اواجهه لكي يشرح لي شفويا ما يتعذر شرحه بالهاتف ثم قال ان طائرة خاصة من سرب الزعيم ستنقلني صباح الغد من برلين الى بايرويت ٠ عندئذ وجدت ان رفض هـذا الطلب يعتبر أمرا مجافيا للكياسة فوعدته بالمجيء ٠

أقلعت طائرة هتلر بي بالساعة الثامنة من صباح اليوم التـالي من مطار تمپلهوف وبصحبتي ولدي وأميني سري ڤيلهلم فون كيتيلر وغراف كاغينيك ولما تصفحت جرائد الصباح وجدتها حافلة بسرد تفاصيل كارثة ڤينا ٠ وواضح ان تلك الصحف كانت تعرض وجهة النظر النازية المضللة ولكن الحصيف المجرب لابد أن يقرأ بين السطور حقيقة المأساة التي أصابت دولفوس المسكين ٠

الا أن الرأي العام في خارج المانيا سرت في اوساطه موجـة تحذيرية من توجه النازية لتوسيع نشاطاتها السياسية للاقطار المجاورة لالمانيا ٠ واعتبر تعيين تيوهابشت محافظا لاقليم النمسا دليلا على تدخل المانيـا الرسمي بالشؤون النمسوية وترددت أصـداء تلك الاستنكارات في البلدان المنتصـرة بالحرب العالمية الأولى وبخاصة في فرنسا ٠ وواضح ان تلك الاقطار بقيت بمنأى عن التدخل في حادثة القضاء على محاولة روهم الانقلابيـة لانها وان رصنت نفوذ هتلر الاستبدادي فانها كانت مسألة داخلية بحتـة أما الآن فهي بصدد عدوان الماني سافر على سيادة دولة مجاورة ووجدت الحكومة الالمانية نفسها بموقف لا تحسد عليه بينما أعطى موسوليني اشارة واضحة للتدخل ٠

وبينما كانت الطائرة محلقة في الجو تساءلت مع نفسي • لماذا الحف هتلر في طلب خدمتي بهذه المرحلة الدقيقة بعد أن فشلت كل وسائل غوبلز الدعايوية في تجميل موقف المانيا الحرج ازاء جارتها النمسا بعد ثبوت القرائن على ادانة نظام هتلر بجريمة اغتيال المستشار النمسوى دولفوس • وهل اراد هتلر بهذا التكليف أن ينتقم مني لانني كنت دائم المعارضة لسياسته ازاء النمسا • أو انه يريد استغلال سمعتي العطرة لانني معروف بكرهي لأساليب الأرهاب • أم أن هتلر يريد تحطيم سمعتي السياسية بتعييني سفيرا بعد أن عين هابشت ملحقا صحفيا بسفارتنا في ڤينا لكي يجعلني مصدا للمشاكل التي سيجبكها هابشت متمتعا بحصاناته الدبلوماسية بينما سأكون ضحيته لأنني رئيسه الرسمي •

ان هتلر يعلم حق العلم بأنني كنت صديقا شخصيا لدولفوس وانني سأكون الشخص المناسب لاعادة ثقة النمسويين بألمانيا • كما انه كان على ثقة من ان لي سمعة دولية عطرة يمكنه الاستفادة منها لانقاذ سمعة المانيا • وعلى أية حال فقد شعرت بأن بمقدوري التقدم بطلبات معقولة قبل اتخاذ قرار القبول بالمنصب •

صحب هتلر في سفرته السنوية لمهرجان بايرويت الموسيقي كلا من غورنغ وغوبلز وهيس وقد وجدته متعضا من فعلة النازيين النمسويين الطائشة التي جعلته بهذا الموقف الحرج • وبعد أن عرض هتلر تفاصيل الواقعة عرضت أنا ردود فعل الدول الاخرى وأبديت مخاوفي من استغلالها لحادثة ڤينا •

لا سيما وان الدول الغربية لم تكن الوحيدة التي حملت المانيا وهتلر شخصيا مسؤولية ما حصل في ڤينا وانما أمر موسوليني بتحشد عسكري بممر برينر ولقي عمله هذا ترحيبا من الدول الاخرى•

والآن أخذت الدول الغربية ـ وبخاصة فرنسا ـ تتسائل عن الاجراءات المضادة الضرورية للحفاظ على استقلال النمسا وكيفية اجبار المانيا على التعهد بعدم التدخل في شؤون النمسا • اذ مما لا شك فيه ان الموقف أصبح في غاية الخطورة • وهذه حقيقة لم يتمكن هتلر من طمسها •

وكان من الواضح بالنسبة لي ان هذا الاختبار الذي تعرضت له يتطلب مني التضحية من أجل منع الانهيار الذي تتعرض له سياسة المانيا الخارجية ٠ وقد تحدثت بهذا الشأن مع أعواني واتخذت قراري بالموافقة على الطلب المعروض ٠

وقد أخبرني كلا من غراف كاغينيك وفون كيتيلر بأن قبولي للعرض سيتيح لي فرصة اسماع هتلر طلباتي المتعلقة بالحصول على ضمان بعدم التدخل في صميم أعمالي لأن هذا الضمان يعتبر ضروريا لانجاز مهمتي على الوجه الاكمل ٠

لقد تمخضت أحداث ٣٠ حزيران ١٩٣٤ عن تأكيد المخاوف التي سبق ان حذرت منها في محاضرتي بجامعة ماربورغ ٠

لقد حرص هتلر على اخفاء معالم التصفية الرهيبة التي أجراها في ذلك اليوم عن الرأي العام العالمي ٠ وكان من رأيي ان الاعتراضات الداخلية غير مجدية وان تخليص الشعب الالماني من تسلط هتلر كان يمكن ان يتم نتيجة لتدخل القوى الأجنبية لاجبار حكومته على الاستقالة ٠ وعندما يصبح تغيير نظام الحكم في بلد ما غير ممكن الا بفضل تدخل اجنبي بدعوى انقاذ شعب ذلك البلد فان التدخل الاجنبي سيكون وبالا على الشعب لاضطراره على التضحية بأبنائه وهذه حقيقة تأريخية معروفة ٠ ثم ان النزاع المسلح يجب ألا يتوسع بحيث يؤدي الى نشوب حرب عالمية ٠ لكنني أنبذ من حيث المبدأ أي تدخل اجنبي من أجل تغيير نظام الحكم في بلد ما لأن ذلك التدخل يثل سيادة البلد ويجعله العوبة بأيدي جيرانه أضف الى ذلك ان أي نقد أو اساءة فهم او عداء شخصي لا يمكن أن يحيل الرجل الشريف الى خائن لبلاده بدعوى مناهضة نظام الحكم ٠

تقدمت لهتلر بالطلبات التالية ومع أن الوثيقة الاصلية فقدت بسبب ظروف الحرب الا أنني أتذكر فحواها بكل دقة وهي :

١ ـ يجب ازاحة هابشت عن المنصب المعين له ـ محافظ النمسا ـ وقطع

علاقته مع النمسا ومع النازيين النمسويين ٠

٢ ـ الكف عن أي تدخل سياسي الماني في الشؤون الداخلية للنمسا ٠

٣ ـ ينبغي ان تتم قضية الوحدة بين النمسا والمانيا دون اللجوء لاستعمال القوة وانما بالتقارب التدريجي وتطوير العلاقات نحو الافضل ٠

٤ ـ يقتضي انهاء مهمتي حال عودة العلاقات الالمانية ـ النمسوية الى حالتها الطبيعية واستئناف العلاقة التأريخية الحميمة بين البلدين ولكي تكون صفتي متميزة فانني ارجو اعتباري (سفيرا فوق العادة) بموجب أمر منصوص به على هذه الصفة ٠

٥ ـ جعل ارتباطي بالمستشار مباشرة وليس بوزارة الخارجية لكي تتاح لي فرصة الاتصال المباشر مع المستشار في أي وقت بصورة شخصية٠وسأزود وزارة الخارجية بطبيعة الحال بنسخ من تقاريري ٠

قابلت هتلر وأنا متسلح بهذه الوثيقة فجبهني بقوله :

« ان الشرط الاول غير ممكن التنفيذ مطلقا٠ذلك لأنني اذا عزلت هابشت الآن على رؤوس الاشهاد فانني سأعطي بذلك اعترافا غير مباشر واكون كالمريب الذي يقول خذوني لأن عملي هذا سيدل بصورة قاطعة على اشتراكي بعملية اغتيال دولفوس » ٠

فقلت له :

« عليك أن تختار بيني وبينه ٠ وليس لي ان ازيد على ذلك » ٠

فأجابني لتوه :

« ولكن ألا تفهم بأن ذلك متعذر عليّ تماما ؟ »

فقلت له باصرار :

« كلا ٠ انني لا افهم ذلك ٠ فسيان ان اقلته ام لم تقله لأن العالم كله يعلم بأن حزبك يتحمل مسؤولية ادبية في هذه القضية » ٠

ثم حاولت التوصل الى تفاهم معه بشأن النقاط الاخرى التي كتبتها في الوثيقة شارحا له الطريقة المثلى التي أتصورها لتحقيق الوحدة بين المانيا والنمسا ٠ فتقبل هتلر وجهة نظري ولم يحاول التصدي لما طلبته منه ٠ حيث

بدا لي انه توضحت له جميع النتائج التي ترتبت على حادثة اغتيال دولفوس • وانه كان من رأيه معالجة هذه المشكلة بكل حكمة لأن سلوك المانيا هذا المسلك من شأنه الحفاظ على سمعتها الدولية • أما أنا فقد أكدت له من جانبي بأنني سوف لن أقبل بتسنم المنصب المعروض عليّ الا بعد موافقته على شروطي •

استمرت محادثاتنا ساعات عديدة • ولكي أثبت لهتلر اصراري على رأيي فقد طالبت هتلر باستقدام هابشت اليه واخبـاره بحضوري بعزله من جميـع المناصب التي لها علاقة بالنمسا • وبالنسبة لطبع حاد مثل طبع هتلر فلربما يبدو من العسير التغلب عليه اذا ما ارتكبت أية غلطة في المحاورة معه بعد ان ارتكب غلطة فاحشة في الجولة الأولى من نشاطه السياسي الخارجي تدل على الغباء •

وبعد ساعات قليلة وصل هابشت الى برختسغادن فتلقـاه هتلر بسيل جارف من الاتهامات بحضوري وطرده بعد ان جرده من كل مناصبه • ثم انه لم يظهر أية صعوبات في قبول شروطي الأخرى ووقع على الوثيقـة التي سبق ان قدمتها له • ثم أعلنت استقالتي من منصب نائب المستشار وقدم التبرير الرسمي للرأي العام وهو تنسيبي للمنصب الجديد وأخيراً أقر هتلر بقبوله لسياستي في ڤينا والتي يمكن تلخيصها بما يلي :

ينبغي تطوير العلاقات القائمة بين المانيا والنمسا وايصالها الى مستوى يحقق الوحدة لكي تنهض دولة الألمان الواحدة القوية بمهمتها الأزلية في وسط اوربا وهي التصدي للسيل الجارف القادم من الشرق • وليس هناك ما يبرر سيل الدماء الالمانية منذ مئات السنين نتيجة لمقاتلة الالمـان لبعضهم البعض • وعلى الأمة الالمانية ان تحرص على منع الاجانب من التدخل في شؤونها واثارة المشاكل الوهمية بين اجزائها•وان اتخاذ القرارات الحاسمة بهذا الشأن سيكون من اختصاص شعبي البلدين وحدهما • وان الطريقة المثلى لاقناع الدول الكبرى بعدم التدخل هي البرهنة لها بأن المانيا لا تريد تحقيق السلام في اوربا باللجوء لاستعمال القوة • وان معالجة قضية وحدة المانيا مع النمسا سـتكون معالجة قضية مصيرية تحدد مستقبلنا معا •

وتثبت تقاريري التي رفعتها خلال اشتغالي بالمنصب مدى نجاحي في التأثير على السياسة الالمانية ازاء النمسا وتحويلها دوما نحو الاتجاه الذي ألمعت عنه توا • ولكن بالقدر الذي كنت استطيع به التأثير • ذلك لأن سياسة وزارة الخارجية الالمانية كانت تسير وفق نهج متغير بين عشية وضحاها ولعل مرد ذلك الى الصعوبات التي واجهها الوزير البارون فون نويرات مما أفقده ميزة التمكن من وضع سياسة بعيدة المدى•ولربما لامني البعض لقبولي هذا المنصب متخليا عن موقعي الرفيع أو لأنني استمررت على خدمة نظام هتلر • وأنا أرفض هـذا اللوم أو ذاك لأنني دأبت مـنذ عقلت على خدمـة بلادي بلا حدود ومن أي موقع كان •

ولكي أهيء لنفسي مقومات النجاح في مهمتي الجديدة بڤينا فقد وضعت مسألتين أساسيتين نصب عيني • اولاهما عدم اعطاء أي انطباع في ڤينا بأنني من المغضوب عليهم اثر تصفية يوم ٣٠ حزيران ١٩٣٤ وانني نقلت لهذا المنصب كاجراء تصفوي لابعادي عن المنصب الخطير الذي كنت اتبوأه •

ويجب أن يفهم الجميع بأنني أتمتع بكامل ثقة المستشار وان السياسةالتي أمارسها في ڤينا هي سياسة الحكومة الالمانية • وعليه فقد رجوت هتلر ان يوجه لي رسالة يوضح بها ما يعطي انطباعا بهذا الشأن •

والمؤسف ان هتلر تسرع في التصريح لوكالة الانباء الالمانية عن عزمه على ارسالي بمهمة السفير في ڤينا وهذا عمل مناف للتقاليد المرعية ذلك لأن ارسال أي سفير الى بلد ما يتطلب استحصال موافقة البلد المعني قبل الاعلان عن تسمية السفير لأن التصريح بتسميتي سفيرا قبل استحصال موافقـة النمسا ينطوي على اعطاء انطباع بعدم اهتمام المانيا برأي النمسا بهذا الشأن ويعطي اشارة اخرى على طبيعة النظام الاستبدادي الذي يتزعمه هتلر• ومن الطبيعي ان هتلر لم تكن لديه اية فكرة عن مدى حساسيـة الاجـراءات الدبلوماسية• وقد تطلبت تسوية هذا الاجـراء غير المهذب مـدة غير قليلة لاقناع المسؤولين النمسويين بالخطأ الذي ارتكبـه هتلر دون ان يدري• وهكذا تأخرت موافقتهم على اعتمادي سفيرا في بلادهم حتى آب ١٩٣٤•

وكان الرئيس فون هندنبورغ قد وقع أمر تعييني سفيرا لدى النمسا في ٢٨ تموز ١٩٣٤ وكان توقيعه آخر توقيع خطته أنامله قبل وفاته .

وقد حدثني فيما بعد الجراح العبقري الدكتور فرديناند زاوربروخ الذي كان يعالج الرئيس الراحل خلال الاسابيع الاخيرة من حياته قائلا بأن فون هندنبورغ كان يسأل عني باستمرار. ولما وصله أمر تعييني في ڤينا تسائل وهو يوقعه:

« هل كانت هذه رغبة فون پاپن ؟»

ويطيب لي هنا قبل ان استرسل بالفعاليات التي قمت بها خلال السنوات الاربع التي خدمتها سفيرا لبلادي في ڤينا وصف المشكلة الاولى التي صادفتني قبل الالتحاق بالمنصب الجديد.

ان مشكلة وحدة المانيا مع النمسا غالبا ما تبدو للمراقب غير الالماني قضية صعبة الفهم. ذلك لأن تأريخ الشعب النمسوي خلال الالف عام الماضية يعتبر بالنسبة لالمانيا كتأريخ سكوتلانده او ايرلندة بالنسبة لبريطانيا خلال تلك الحقبة من الزمن. وعلينا ان تتذكر اولا ما حدث بعد القرون الوسطى مباشرة في عهد قيصر سكسونيا والمراحل النهائية لعهد الأمبراطورية الرومانية المقدسة التي سادت الشعب الالماني واتخذت من ڤينا موئلا لها وكيف ظهرت الامبراطورية النمسوية تحت حكم أسرة آل هابسبورغ ولعبت دورا حاسما ومؤثرا في تأريخ أوربا وفي تأريخ العالم.

وعندما خاضت الامم الاوربية حروبها الطويلة من اجل تحقيق وحدتها القومية حازت المانيا نصيبا ضئيلا من الحظ في هذا السبيل قياسا على ما حازه جيرانها. فقد خسر الالمان مقاطعات ثمينة امثال سويسرا والالزاس واللورين ولوكسمبورغ وهولندا اما لأنها آثرت الاستقلال بكيان صغير وحققت ضمانات مكتسبة لوجودها بالتقادم منذ العصور الوسطى او لأن فرنسا افلحت في الاستيلاء على البعض الآخر وتمكنت من فرنسته بعد صراع مصيري مديد تمسكت في ختامه بالاستحواذ على الالزاس واللورين.

والمؤسف ان الألمان لم يحاولوا تحقيق وحدتهم القومية باللجوء الى التقارب الودي.

وبعد انحسار عهد الامبراطور نابليون الاول ــ الذي قاتله البروسيون والنمسويون في حروب عديدة ــ تكونت كتلة الممالك والامارات الالمانية تحت زعامة بروسيا بينما بقيت امبراطورية النمسا والمجر تحت تاج فرانس الاول من آل هابسبورغ دون محاولة جدية لتحقيق الوحدة المفقودة. وهكذا فقدت الامة الالمانية دورها المتميز في التأريخ الاوربي بعد الف عام من الزمن حافظت خلاله على توازن اوربا السياسي وتحولت الى امـارات ضعيفة متناحرة ثم جاء الامير فون بسمارك فحقق احلام المخلصين الالمان في اقامة الدولة الالمانية الواحدة رغم انه لم يلجأ للحل العملي لكنه لعب دورا بارزا في وضع اسس قويمة يمكن ان تتكامل بها الوحدة الالمانية .

ويمكن توضيح المعالم العامة لهذه المهمة من خلال الاطلاع على الرسالة التي كتبها بسمارك في ٧ كانون الاول ١٨٧٩ للامبراطور ڤيلهلم الاول :

« ان السلام الاوربي منذ سقوط نابليون لن تهـدده اية قوة سوى الموجة السلافية التي تتزعمها روسيا . وستبقى روسيا نقطة سوداء في افق السلام الأوربي لأنها ستحاول الحلول بمقـام امبراطورية نابليون سـائرة تحت غطاء من الدعاية السلافية.وسيبقى أمل النصر يساور الروس بعد أن أثبت جيشهم قدرته في حرب القرم وفي هذا الامل تهديد للسلام الاوربي.

ان تعاظم روسيا الذي لا يشبعها قط قد ازداد لدرجة اشعرت اوربا بالخطر الداهم وجعلها تفكر جديا في حماية نفسها من مغالاة السلاف في رغبتهم الجادة لتوسيع امبراطوريتهم بينما حرصت اوربا على كسب السلام لنفسها. وهذا الخطر الروسي يزداد تفاقما يوما بعد يوم نتيجة لتزايـد اعداد افراد الجيش الروسي باستمرار بينما ليس هناك أي خطر يهدد روسيا».

ان الحل الذي حققه بسمارك في ١٨ كانون الثاني ١٨٧١ لم يشمل سوى الولايات الشمالية من المانيا. بينما كانت في الجنوب امبراطورية النمسا والمجر التي كانت بنفس القوة وتتمتع بنفس الاهمية في ميزان السياسة الاوربية.

ولذا فقد حاول بسمارك ايجاد اتحاد يربط الدولتين الالمانيتين من اجل ضمان السلام الاوربي الذي اشار اليه في رسالته لامبراطور المانيا .

لقد اراد بسمارك ان يوضح للامبراطور بأن ادراك موقف الروس وحده لن يكفي بالركون الى حلف الاباطرة الثلاثة (روسيا والمانيا والنمسا والمجر) وانما اراد اقامة حلف ثنائي بين المانيا والنمسا والمجر لضمان التصدي لأية مطامع روسية.

وهكذا نرى أن مساعي زعماء المانيا والنمسا والمجر قد انصبت منذ عام ١٨٧٩ وحتى بدء الحرب العالمية الاولى على محاولات دائبة لتحقيق أي شكل من الوحدة بين البلدين ولكن دون جدوى.

والآن وبعد ان دارت عجلة الزمن سبعين سنة أخرى نرى ان ما تنبأ به المستشار فون بسمارك قد تحقق بدقة تامة . فقد رأينا ما حدث غب الحرب العالمية الاولى تقوض امبراطورية النمسا والمجر لأنها لم تتمكن من مقاومة العدوان الروسي ولأن المنتصرين الغربيين لم يقدروا ضرورة المحافظة على التوازن الاوربي ولانهم كانوا مأخوذين بمباديء الرئيس الامريكي وودرو ويلسون الاربعة عشرة وكان منها مبدأ تقرير المصير للمجموعات البشرية الصغيرة وهو مبدأ يتركز فيه الحقد الاسود للمنتصرين ضد دول المعاهدة المركزية المندحرة. وقد ظهرت للوجود نتيجة لتطبيق هذا المبدأ دول عديدة انسلخت أقاليمها عن النمسا والمجر وعن المانيا أمثال تشيكوسلوفاكيا وبولندا ويوغسلافيا[٣]. وساد تصور مفاده ان انقراض امبراطورية النمسا والمجر سيؤدي الى مواصلة حمل مشعل الحضارة بدلا عن ڤينا في جنوب شرق اوربا.

ومن المؤكد ان ويلسون وبلاده كانا يعرفان القليل عن السياسة الاوربية. وليس أدل على ذلك من اهتبال فرنسا لفرصة الخروج منتصرة من الحرب العالمية الاولى فأرادت تحقيق التوازن الاوربي بشكل يضمن أمنها. وكان

(٣) كما انفصلت عنها مملكة المجر . — المترجم —

ان بدأ تخلي اوربا عن دورها الاول في تسيير سياسة العالم بتقوض امبراطورية النمسا والمجر واستمرار عملية بلقنة اوربا الوسطى.

ساد التصور في القسم الالماني من امبراطورية النمسا والمجر (النمسا) ان من الطبيعي سريان مبادىء الرئيس ويلسون عليه ايضا وان بمقدور الشعب النمسوي تقرير مصيره بنفسه لكن المؤسف ان هذا التصور كان مجرد اضغاث احلام .

بعد الحرب العالمية الاولى تم انتخاب مجلس تأسيسي نمسوي اقر دستور الدولة الجديدة في ١ آذار ١٩١٩ الذي نص على شكل الدولة واشار الى وحدتها مع المانيا . وكان جواب دول الحلفاء على الشعور الوحدوي السائد بين الشعبين الألماني والنمسوي صدور المادة ٨٨ من اتفاقية سان جيرمان لاقرار السلام والتي تضمنت ما يلي:
« ان استقلال النمسا مضمون من قبل عصبة الامم ولا يسمح بتغيير وضعية النمسا او تهديد استقلالها بصورة مباشرة او غير مباشرة ».

وفي ٦ أيلول ١٩١٩ اعترضت الكتلة الوطنية النمسوية على قرار الحلفاء بمنع اتحاد النمسا مع المانيا. وكذلك على حرمانها من حق تقرير المصير الذي منح لجميع المجموعات القومية الصغيرة في اوربا. وفي اليوم نفسه قدمت الكتلة الوطنية النمسوية مذكرة للدول الغربية المنتصرة اعربت فيها عن رغبة الشعبين الالماني والنمسوي في تحقيق الوحدة الوطنية من النواحي الاقتصادية والثقافية والسياسية وجمع الشعبين تحت راية المانيا الوطن الأم للالمان.

ومن الحقائق التأريخية الثابتة هي ان هذه الرغبة بادر بها الشعب النمسوي وعلى وجه التحديد الحزب الاشتراكي الحاكم آنذاك واشار اليها في اكثر من مناسبة رئيس جمهورية النمسا الاسبق الدكتور كارل رينر الذي توفي عام ١٩٥٠ .

أما في المانيا فلم تصادف الرغبة النمسوية نفس الحماس حيث اعلن التجمع الوطني في ڤايمار يوم ٣١ آذار ١٩١٩ بأن النمسويين الالمان يمكن

قبولهم اعضاء في الاسرة الالمانية لولا ان الدستور الالماني الجديد لم يشر الى امكانية تحقيق هذه الرغبة بسبب اجبار معاهدة فرساي لالمانيا باحترام استقلال النمسا . وعلى الرغم من ذلك كله فان الأحزاب الوطنية النمسوية دأبت على المطالبة بالانضمام الى المانيا خلال العشرين سنة التي أعقبت الحرب العالمية الاولى.

ثم ان رئيس جمهورية النمسا پول لويبه الذي حكم لغاية سنة ١٩٣٢ وهو من زعماء الحزب الاشتراكي الديموقراطي كان قد القى خطابا في ٦ تموز ١٩٢٦ عبر فيه عن آلام شعبه الذي حرم من حق تقرير المصير عندما قال:

« انني لا ازال اتذكر بأن اوربا الديموقراطية اجمعت على الاحتفال في اليوم الذي حققت به ايطاليا وحدتها الوطنية في عام ١٨٧٠ كما ان احرار اوربا شاركوا بولندا في الثلاثينات وفي الستينات من القرن الماضي افراحها بتحقيق استقلالها. واليوم لا نجد في اوربا من يقر بمثل هذا الحق لابناء الامم العظيمة .. اننا نرى ان من الشرف ليس مجرد قبولنا في عضوية عصبة الامم وانما نرى ان الشرف يقضي بمنحنا حق الاعراب عن امانينا القومية بتحقيق الوحدة ».

لقد استمر صراع النمسا من اجل الحصول على حق تقرير المصيرحتى بعد ابرام اتفاقية السلام.فقد قرر التجمع الوطني النمسوي في ٢١ مايس ١٩٢١ اجراء استفتاء شعبي بشأن الوحدة مع المانيا . ولكي يتحاشى التجمع الوطني الاخلال بالمادة ٨٨ من اتفاقية سانت جيرمان فأنه أعلن ما يلي :

« هل لحكومة النمسا محاولة مفاتحة عصبة الامم بشأن قرار وحدة جمهورية النمسا مع المانيا ؟» .

أما الحلفاء المنتصرين فقد كان رد فعلهم فوريا وعنيفا ازاء الحكومة النمسوية ومارسوا عليها ضغطا شديدا لمنعها من اجراء التصويت الشعبي المقترح. ولما كان موقف النمسا الاقتصادي متدهورا وكانت الحكومة في

أمس الحاجة للحصول على المعونة المالية من الدول المنتصرة فقد أثمر تدخل هذه الدول في التأثير على الولايات النمسوية بعد ان هددت بقطع المعونة المالية عنها في ١٤ نيسان ١٩٢١ ما عدا التيرول التي تمخض الاقتراع الذي تم في ٢٤ نيسان ١٩٢١ فيها عن تصويت ١٤٥ ٣٠٢ للوحدة بينما صوت ضدها ١٨٠٥ فقط. وفي ٢٧ نيسان ١٩٢١ اقترع سكان زالتسبورغ وشمال النمسا لصالح الوحدة مع المانيا ايضا. الا ان الحلفاء هددوا سكان اقليم كيرتتن بضم اقليمهم ليوغسلافيا وعدم اعادة اقليم بورغن لاند للنمسا وتقسيمه بين الدول المنسلخة عنها مما اضطر حكومة النمسا الاتحادية على التوقف عن الاقتراع بشأن الوحدة مع المانيا. ومع ذلك فقد جرى استفتاء غير رسمي في اقليم زالتسبورغ تمخض عن تصويت ٥٤٦ ٩٨ لصالح الوحدة مع المانيا ولم يعارض الوحدة سوى ٨٧٧ فقط. كما صوت اقليم شتاين مارك لصالح الوحدة.

وقد ادى ارتباط الاقتصاد النمسوي بالدول المنتصرة الى تقيدها سياسيا وعدم استطاعتها التخلص من الضغوط التي مارستها عليها تلك الدول مما ادى الى ابرام بروتوكول جنيف المؤرخ ٤ تشرين الاول ١٩٢٢ الذي عقد بعد تسليف النمسا قرض دولي كبير على ان تتعهد بالاعلان عن (استقلالها) وعدم القيام بأية محاولة لتحقيق الوحدة.

الا أن الصراع من أجل الوجود الاقتصادي لم يعد له ما يبرره في السنوات التالية لأن النمسا تمكنت من التغلب على ازمتها المالية. ولكن السياسيين النمسويين اصبحوا على ثقة من ان اية محاولة لاثارة قضية تحقيق الوحدة مع المانيا ستؤدي الى خلق المشاكل الكثيرة للنمسا.

ثم تحول منع الحلفاء للنمسا من تحقيق الوحدة مع المانيا الى تخويفها قبيل عام ١٩٣٨ بالادعاء ان النمسا المسكينة الصغيرة التي لا حول لها ولا قوة معرضة للابتلاع من جارتها القوية الكبيرة المانيا المتعطشة للسيادة على الاقطار المجاورة . وانا لا اتحدث هنا عن الاساليب الهتلرية المبتسرة وانما اتحدث عن القيمة التأريخية لتحقيق الوحدة.

أما الذي قام به هتلر فهو محاولة سلمية لتصحيح الاخطاء التي تمخضت عن كارثة اتفاقيات باريس المجحفة واقامة سد الماني قوي بوجه الطوفان السلافي المحدق بوسط اوربا. ولو اعترف الحلفاء الغربيون لنا بهذا الحق. ولو انهم ساهموا معنا في مؤتمر لوزان بوضع أسس سياسة التعاون الأوربي وازالة اسباب الخلافات الالمانية ـ الفرنسية لاعترفوا للنمسا بحق تقرير مصيرها بالتوحد مع المانيا. ولكنهم تعنتوا معنا وحرمونا ـ كما مر معنا في الفصول الاولى من هذا الكتاب ـ حتى من حق اقامة اتحاد كمركي بين المانيا والنمسا. وأرادوا ان يعزلونا عن بعضنا البعض بعد ان عشنا سوية اكثر من الف عام.

عندما توليت مهام منصبي الجديد في أواخر تموز ١٩٣٤ جعلت مهمتي الاولى ازالة التوتر الحاصل بين النمسا والمانيا نتيجة للمحاولة الانقلابية النازية واغتيال المستشار النمسوي دولفوس. وكنت متأكدا بأنه ليس امامي أي مسلك سوى متابعة المسار التأريخي للعلاقات النمسوية الالمانية. ووجدت ان اسلوب الوحدة الذي حققه بسمارك لابد ان يؤدي الى ردود فعل عنيفة ويجعل تحقيق الوحدة اكثر صعوبة. وقدرت ان مهمتي ستكون ذات طابع وحدوي اوربي اكثر من كونها مجرد مساع لتحقيق وحدة بلدين شقيقين.

لقد لاحظت ان الوحدة الاوربية كانت مهددة بنشاطات الاحزاب البلشفية العاملة تحت الارض والتي دأبت على السعي لتحقيق الثورة العالمية من جميع الاقطار التي تنشط فيها تلك الاحزاب وهذا ما اكد ضرورة اقامة السد المانع بوجه هذه الوافدة في وسط اوربا.

قررت في أول الأمر جعل علاقات المانيا طبيعية مع النمسا واعادتها الى الحالة التي كانت سائدة بين البلدين قبل عام ١٩٣٣ مع انني تحسبت كثيرا من التصرفات غير المسؤولة التي يمكن ان يقدم عليها هتلر بحكم طبيعته المعروفة مما يقوض مساعي الحميدة في اية مرحلة من العمل.

ولقد شغلتني هذه الفكرة بحيث صرت اناقشها مع نفسي باستمرار كما انني ناقشتها بصراحة مع اعواني المقربين • وتوصلنا الى حقيقة جازمة هي ان وجود رجل مثل هتلر على رأس السلطة القائمة في المانيا لا يبرر اية محاولة للنيل من وحدة المانيا مع النمسا او اعاقة هذه المسألة المصيرية بأي شكل كان• ولم يخطر على بالنا آنذاك ـ ونحن في عام ١٩٣٨ ـ بأن هتلر سيقدم على المغامرة بخوض حرب اوربية في سبيل تحطيم معاهدة فرساي• وقد تبين فيما بعد عند عرض وثائق الادانة في محاكمات نورمبرغ وجود وثيقة تدعى (بروتوكول هوسباخ) تتضمن قيام هتلر في ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ بالتحدث لاول مرة عن عزمه الاكيد على شن حرب عدوانية امام خمسة اشخاص فقط وقد بقيت نواياه وخططه مجهولة بالنسبة للشعب الالماني ما عدا اولئك الخمسة•

لم يشك أي منا بنوايا هتلر المناهضة للشيوعية وتطرفه بالتصدي لها• الا ان الحلفاء الغربيين لم يستغلوا هذه الحقيقة وانما دأبوا على اعتبار معاهدة فرساي نصا مقدسا واستمروا على المغالاة في تطبيقها الى حد امتهان الكرامة القومية الألمانية • ثم ان انضمام النمسا لألمانيا معناه زيادة تعداد الكاثوليك في المانيا بسبعة ملايين آخرين وهذا معناه تقوية نفوذ الكنيسة الرومانية وجود عامل اضافي للتصدي للشيوعية • وقد اخذنا في حساباتنا بطبيعة الحال زيادة العمق السوقي لالمانيا نتيجة للوحدة مع النمسا وذلك مما يحسن الموقف الجغرافي السوقي الالماني فيحالة نشوب نزاع مسلح مع الاتحاد السوفيتي •

ومن الحقائق الدامغة التي لا مناص من الاشارة اليها هي انه ليس هناك أي رجل دولة الماني لا يؤيد الوحدة مع النمسا وهذه الحقيقة تؤدي بنا الى التساؤل• كيف يمكن للمرء التفريط بهدف قومي جعلته الامة الالمانية نصب عينها لمجرد مناهضة هتلر ؟ لقد عنّت لي فكرة بهذا الصدد دونتها آنذاك ولكنني بعد ان تمعنت بها مليا ادركت الصعوبة الناجمة عن الفرق بين النظرية والتطبيق•

كان الحزب النازي هو الحزب الحاكم في المانيا وكان في النمسا حزب نازي ليس له من زعيم يدين له بالولاء غير هتلر • اضف الى ذلك ان هتلر نمسوي بالولادة•

ولما استقال رؤساء البرلمان النمسوي الثلاثة من مناصبهم في عهد المستشار دولفوس احتجاجا على التمزق السياسي الداخلي لدرجة جعلت الحياة الديموقراطية البرلمانية متعذرة اقدم المستشار المذكور على حل الحزب النازي النمسوي في حزيران ١٩٣٣ الا ان حل ذلك الحزب ادى الى نتيجة معكوسة تماما • فنحن نعرف من تجربتنا مع الاحزاب الشيوعية ان المنع يؤدي الى عطف بعض البسطاء على الحركة السياسية الممنوعة سيرا على مبدأ ــ كل ممنوع مرغوب ــ وكانت حصيلة منع النشاط السياسي للحزب النازي ان تصور الكثيرون من النمسويين بأنه لولا ذلك المنع لما اشترك الحزب المذكور في محاولة الانقلاب الفاشلة في ٥ تموز ١٩٣٤ •

وقد علمت فيما بعد من تقرير اصدره المهندس راينتهالي بأن المستشار دولفوس كان بصدد اجراء مصالحة مع هتلر في اليوم الذي اغتيل به الاول وتتضمن اعادة الحزب النازي النمسوي (بصورة وقتية وليس بصورة مطلقة) ريثما يتحسن الموقف السياسي السائد في اوربا•

وهكذا حم القضاء وسقط دولفوس شهيدا لقضية النمسا • وكان مقتله سببا مبررا لابعاد التدخل الالماني في سياسة النمسا • اما هتلر فكان يأمل وصول رجال دولة نمسويون يتفهمون السياسة الالمانية النمسوية المشتركة من القادرين على اتباع الوسائل السلمية في تحقيق هذه السياسة •

وكنت آمل ان يتجنب خلف دولفوس وهو المستشار فون شوشنيغ ممارسة الوسائل القسرية في التصدي لخصومه السياسيين وكنت اتصور بأنه سيجد سبيلا آخر للتعاون مع الاحزاب المعارضة في سبيل مصلحة النمسا•

لكن المؤسف هو ان المستشار فون شوشنيغ سلك طريقا آخر بأن ألف ما يدعى (الجبهة الوطنية) وهي تنظيم سياسي يمثل الحكومة وحرّم

اشتغال بقية الأحزاب وحاول جمع العمال في منظمة أسماها (منظمـة العمل الاشتراكي) ولكنه حقق بهذه المنظمة قدرا ضئيلا من النجاح لأن الحزب الاشتراكي الديموقراطي قاطع الجبهة الوطنية ومنظمة العمل الاشتراكي. ولأن اغلب العمال الكاثوليك انضووا تحت لواء (عصبة الحرية) التي سنسمع عنها كثيرا فيما بعد .

وكانت هذه المنظمة ممنوعة من العمل لكنها تحولت بقدرة قادر الى منظمة خاضعة للمستشار فون شوشنيغ. وصفوة القول ان المستشار كورت فون شوشنيغ بذل جهودا حثيثة لايجاد حزب حكومي نمسوي يؤكد به استقلال النمسا والنأي بها عن الوحدة الالمانية . وهو بهذا يختلف اختلافا تاما عن سلفه دولفوس الذي سبق ان اظهر حسن نواياه نحو الوحدة في الاحتفال الذي اقامته الكنيسة الكاثوليكية في أيسن عام ١٩٣٢ ولو بقي دولفوس على قيد الحياة لسلك سبيلا آخر غير الذي سلكه فون شوشنيغ.

كان الكثيرون من اسلافي قد كرسوا حياتهم عبر مئات السنين للخدمة في بلاط الاباطرة وعملوا بجد واخلاص من اجل وحدة المانيا تحت ظل العرش البروسي. كما خدم عدد آخر منهم في بلاط اباطرة النمسا والمجر وهناك وشائج متينة تفوق الحصر تدل على اواصر القربى ووحدة التراث والتقاليد بين الاوساط الكاثوليكية النمسوية وبين اقليم الراين وويستفاليا الالماني. حيث يشعر المرء القادم من أي من البلدين كأنه في بلاده عندما يزور البلد الآخر. لكننا سرعان ما لاحظنا في بعض الاوساط النمسوية تنامي مشاعر مناهضة للوحدة مع المانيا خشية الاندماج مع البروسيين البروتستانت تحسبا من تحول الكاثوليك الى اقلية في دولة الوحدة الالمانية ــ النمسوية.

وكنت آمل من حماس هتلر المتوقد نحو تحقيق الوحدة الالمانية السعي نحو تأسيس امبراطورية المانية في وسط اوربا تقتبس جذوة الحضارة العتيدة لامبراطورية الدانوب النمسوية وتصهرها في الدولة الالمانية الحديثة المنطلقة نحو امجاد المستقبل الزاهر .

في ١٥ آب ١٩٣٤ وصلت بالطائرة الى ڤينا وكان الطقس شديد المطر حتى بدت العاصمة النمسوية شبه مقفرة وترتسم على وجوه اهلها عـدم المبالاة.

وقد اتجهت لتوي نحو السفارة الالمانية في شـارع مترنيخ فتذكرت امجاد ذلك البناء العتيق الذي شهدت ابهائه اللقـاءات الحميمة بين اباطرة النمسا والمجر وملوك بروسيا وباڤاريا . وقد ظل الأمل يراودني باستئناف العلاقات الاخوية نفسها بعد ان تحولت المملكتين الى جمهوريتين.

تألفت هيئة العاملين معي في سفارتنا بڤينا من صفوة رائعة من الرجال الاكفاء يرأسهم الامير فيكتور ارباخ ويعاونه السيد فون هاينز وهو رجل حصيف واسع العلم. وكان السيد فون هيفتن رئيسا للقسم الثقافي ولأن الاخير اصبح هدفا للنازيين بادعائهم انه من خصوم النظام فقد ناضلت طويلا في سبيل انقاذ الرجل الذي احببته لحسن شمائله وسأتفصل في ذكر فعالياته يوم ٢٠ تموز ١٩٤٤ المشهود في فصل لاحق.

وكان رئيس القسم السياسي في السفارة السيد فون نوستيتس الذي كان مسؤولا عن اعمال التشريفات وكان متميز النشاط في هذا المجال وقـد أصبح فيما بعد من أعضاء حركة المقاومة البارزين . أما رئيس القسم الصحافي فكان السيد فون دير هاغن.

كانت ڤينا محتفظة بمكانتها المرموقة بصفتها نقطة التقاء التضـارب السياسي الأوربي . وتتجسد هـذه الحقيقة من خلال مراقبة نشاط الهيئـات الدبلوماسية الاجنبية العاملة فيها. وكان خصمي اللدود في تلك اللعبة زميلي السفير الفرنسي السيد پواييه الذي حظي بلقب متميز على سبيل الدعابة هو (الوزير المفوض لدى النمسا) وهو لم يكـن من ذلك النوع الفرنسي المألوف المتميز بالطبع السمح وحب النكتة وانما كان متحفظا شديد التكتم لدرجة احرجت حتى أقرب اصدقائه النمسويين.

اما ممثل بريطانيا فكان السفير سير والفورد سيلبي وهو رجل ودود حلو الشمائل سرعان ما نقل من منصبـه مع الأسف وحل محله سير ميخائيل

پاليريه الذي كانت علاقاتنا معــه ســطحية • وكان زميلي الايطالي وجــاري العزيز السيد پريزيوسي الذي خلفه السيد زالاتا وهو القائد السابق للقطعات الايطالية التي تقدمت من تريست الى ممر برينر وقد نقله موسوليني الى ڤينا لاستئناف مهمته من موقعه الجديد•

كان ممثلو الحلفاء غير منسجمين فيما بينهم كما شهدنا بعدئذ فكان ممثل روسيا السيد فيرلينغر الذي اصبح في عام ١٩٤٥ ممثلا للاتحاد السوڤيتي في تشيكوسلوفاكيا وكان ممثل الولايات المتحدة الامريكية هو السيد ميسر سميث وسأتفصل بالحديث عنه في الفصل الخاص بمحاكمات نورمبرغ من هذا الكتاب•

ساورتني دهشة ما بعدها دهشة عند مقابلتي الاولى للرئيس النمسوي حيث بدى القصــر الجمهوري مكتظا بحشــد من الجنود حملة الغــدارات فشعرت بجو عدواني يحيط بي من كل جانب كما لاحظت في صدر الصالة التي استقبلت فيها تمثالا مأخوذا عن قناع الموت(٤) لانغلبرت دولفوس وهذه ايمائة واضحة لاتهام المانيا بجريمة اغتياله•

ولم تلق الكلمة المفعمة بالاعراب عن النوايا الحسنة أي صدى مشابه• كما لم يقدر القوم مدى حرصي وصدقي في تحقيق الوئام الاوربي واحباط كل مسببات النزاع• وقد صمدت امام الاتهامات والتشنيع الذي لقيته عندما وسمت (بالذئب في رداء كاثوليكي) وكنت على ثقة من انني ازاء مهمة تفوق طاقة البشر•

(٤) قناع الموت قالب للتماثيل الدقيقة التي يراد صنعها بعــد وفاة العظماء وتؤخذ لهم قبل دفنهم فتصبح قوالب قناع الموت مطابقــة لوجه العظيم الذي تؤخذ له لتصنع منها تماثيله بالحجم الطبيعي •
ـ المترجم ـ

الفصل الثاني والعشرون

تحسين العلاقات

النمسا بعد مقتل دولفوس . شتار همبيرغ والجيش النمسوي . قضية آل هابسبورغ . الموقف الأوربي . مؤتمر ستريزا . موسوليني وشتار همبيرغ . خطاب هتلر امام البرلمان . مشروع اتفاقية . المقترح النمسوي المقابل . تضاؤل تأثير شتار همبيرغ . تشيرشكي والشرطة السرية للدولة .

تدهور الموقف السياسي الداخلي في النمسا بعد اغتيال دولفوس الى درجة ملحوظة . ولذلك فقد آثرت بعد اجراء اتصالاتي الأولى مع الحكومة النمسوية أن الوذ بالصمت وأتكتم على طبيعة مهمتي . وعليه فقد بقيت في ڤالرفانغن حتى مطلع تشرين الأول ١٩٣٤ .

على اثر احباط محاولة الانقلاب النازية في تموز ١٩٣٤ فقد قبض على جميع النازيين النمسويين المعروفين للحكومة واودعوا السجون او معسكرات الاعتقال وعندئذ تحولت الحركة النازية للعمل السري واعادت تنظيم نفسها تحت الارض وقد فر عدد كبير من النازيين النمسويين الى المانيا حيث تم

اسكانهم في معسكرات واعيد تنظيمهم سياسيا باسم (الفرقة النمسوية) ولما اخبرت هتلر بأنه برعايته لأولئك النمسويين سيثير اتهام الحكومة النمسوية لألمانيا بالمساهمة في الانقلاب النازي الفاشل فقال انه لم يحاول سوى المحافظة على أرواح النازيين النمسويين وسوف لن يحاول استغلالهم سياسيا .

والواقع هو ان هناك آلاف الدلائل التي تؤكد تورط المانيا في المحاولة الانقلابية الفاشلة . ومما لا شك فيه ان المعتدلين من النازيين الألمان حاولوا استمالة رفاقهم المعتدلين من النازيين النمسويين للاشتراك معهم في مناهضة سياسة هتلر العدوانية ولم تكن تلك السياسة العدوانية قد تجلت للعيان بشكلها السافر في ذلك الوقت المبكر ولكن بوادرها لم تكن خافية عني وعن المتتبع لممارسات هتلر السياسة عن كثب.

وقد قام اولئك النمسويين النازيين بفعالياتهم المضادة لهتلر فيما بعد ولكنني لم اكن على بينة من تفاصيل تلك الفعاليات ولكن الذي برهن لي على وجود الفعاليات المشار اليها هو الردع الصارم الذي تلقوه من هتلر.

والامر الذي لاحظته بعد تصدي الحكومة النمسوية للنازيين واجبارهم على التحول للنشاط السري هو انهم خرجوا من الميدان بشكل جعلني اعمل بحرية تامة على تحسين العلاقات الالمانية ـ النمسوية دون ان يثير النازيون النمسويون أية فعاليات تعيق نشاطي الوظيفي .

ركز الحزب النازي النمسوي فعالياته من مكامنه السرية ضد الجيش الشعبي النمسوي الذي صار اهم ركائز الدولة النمسوية . وكان على رأس هذه القوة الامير الشاب فون شتارهمبيرغ وهو رجل نبيل يتمتع بقدرممتازة على القيادة العسكرية الا انه كان يفتقر مع الاسف للمقدرة السياسية الضرورية لجعله رجل دولة مرموق. وكنت قد تعرفت على شتارهمبيرغ عندما وصل الى برلين عام ١٩٣٢ مع مجموعة من مقاتلي الجبهة النمسوية للمشاركة في احتفالات يوم منظمة الخوذة الفولاذية . ولما كان الرجل قد ساهم بعد الحرب العالمية الاولى في القتال الذي دار في سبيل تحرير اقليم سيليزيا فانه قوبل ببرلين بالحفاوة التي يستحقها .

الاوساط.

أما في الاوساط الارستقراطية النمسوية ذات الامجاد الغـابرة فقد اصطدمت في اغلب الاحيان بمعارضتها العنيفة للوحدة مع المانيا . وكان ابناء

تلك العوائل الحاكمة في العهد البائد قد وجدوا انفسهم مجردين من عطف بريطانيا وفرنسا . الا أنني والحق يقال وجدت استجابة حماسية من عـدد لا يستهان به من أبناء تلك الأسر كأمير ڤندشغراتس زوج حفيدة الأمبراطور فرانز يوسف وغراف ڤيلتسيك ودوبسكي وكويهن والأمير كارل كنسكي وغيرهم من الذين أولوني محبتهم وتعاونهم في سبيل الوحدة .

وبين النساء الفضليات اللائي أدين لهن بالشكر الجزيل لا بد من الاشادة بتعاون الاميرة صوفي اويتنغن شپيلبيرغ وهي احـدى حفيـدات المستشار النمسوي الامير مترنيخ. وكانت بادية النشاط وعالية الهمة وتبذل قصـارى جهودها في سبيل الوحدة رغم سنها العالية وتسعى لمعالجة مختلف القضايا السياسية بفكر مستنير وقاد.

ولربمـا يستنكر المرء مني ــ وانا الدبلومـاسي الحديث العهد بهذه المهمة ــ اقامتي لعلاقـات وطيدة مع طبقة لم تعد لهـا أية اهمية سياسية . وهذا استنكار مغلوط . فمع ان أفراد تلك العوائل لم يكن بينهم من يشغل أي منصب وزاري الا ان لبعضهم ــ كما مر لنا مع الامير فون شتراهمبيرغ ــ نفوذ لا يستهان به على الاحداث السياسية في النمسا.

وكان اصعب جزء من مهمتي هو استمالة رجال الدين بعد ان هـاجم الحزب الكنيسة الكاثوليكية.وأنا لم أرغب برؤية رجال الكنيسة الكاثوليكية النمسويين بنفس الحال التي صار بها رفاقهم الالمان .

لكنني كنت آمل ان يدرك هتلر بأن مناهضته للكنيسة سوف لن تؤثر على المانيا فحسب وانما ستؤدي الى اقامة عقبة كأداء بوجه الوحدة المزمع تحقيقها.

لدرجة لا سبيل لتجاهلها بالتوافق مع منظمة الجيش الشعبي النمسوي• ومع انه يمكن القول بأن المنظمة المذكورة كانت مؤسسة سهلة التحول الى عامل سياسي مؤثر على السياسة الداخلية في النمسا• الا انها عقدت الاسس السلمية لتحقيق الوحدة بسبب شدة تأثير الاسرة الملكية على الاوساط العاملة مع شوشنيغ وجعلت موقفه السياسي الخارجي في غاية الصعوبة لأن الكثيرين صاروا يخشون من العودة الى الملكية • وكانت أوساط النبلاء ومنهم عدد من كبار الضباط الذين سبقت لهم الخدمة في الجيش القديم ترغب بعودة آل هابسبورغ الى الحكم الا ان الضباط الشباب في الجيش النمسوي لم يكتموا اعجابهم بازدهار الحركة الاشتراكية الوطنية في المانيا•

أما في المانيا فكان الناس يمقتون الامبراطور النمسوي السابق كارل الاول ويكرهون عقيلته الامبراطورة تسيتا بسبب الموقف المشين الذي سلكاه ضد بلادهما بعد الحرب العالمية الاولى • الا ان الامير اوتو لم يوجه له أي امتهان لنقاء سيرته •

وكنت قد قلت لشوشنيغ مرات عديدة بأننا نعتبر مسألة عودة الملكية الى النمسا قضية داخلية • ونحن نحترم آل هابسبورغ والبيت المالك الباڤاري •

الا أن المستشار النمسوي لم يعلق على قولي بشيء لأنه كان يدرك بأن محاولات الامير اوتو فون هابسبورغ لاسترداد عرش آبائه ستعصف بها الوحدة•

وكانت الاوساط القومية الاخرى التي تنشد تحقيق الوحدة الالمانية عدا الحزب النازي تلتئم تحت زعامة المطالب بدم ولي عهد النمسا القتيل فرانز فرديناند وهو المشير البارون باردولف وكان في ذلك الوقت رئيسا (للنادي الالماني) والذي كان مؤسسة وحدوية بارزة•ومع انني أقمت علاقات وطيدة مع البارون باردولف الا انني لم ازر ناديه طوال فترة اشتغالي بالنمسا الا مرتين أو ثلاث لأنني آثرت البقاء بمنأى عنه • ذلك لأنني لم أشأ اعطاء الحكومة النمسوية أي دليل على الادعاء ببثي الآراء الوحدوية في تلك

الاوساط .

أما في الاوساط الارستقراطية النمسوية ذات الامجاد الغابرة فقد اصطدمت في اغلب الاحيان بمعارضتها العنيفة للوحدة مع المانيا . وكان ابناء

تلك العوائل الحاكمة في العهد البائد قد وجدوا انفسهم مجردين من عطف بريطانيا وفرنسا . الا أنني والحق يقال وجدت استجابة حماسية من عدد لا يستهان به من أبناء تلك الأسر كأمير ڤندشغراتس زوج حفيدة الأمبراطور فرانز يوسف وغراف ڤيلتسيك ودوبسكي وكويهن والأمير كارل كنسكي وغيرهم من الذين أولوني محبتهم وتعاونهم في سبيل الوحدة .

وبين النساء الفضليات اللائي أدين لهن بالشكر الجزيل لا بد من الاشادة بتعاون الاميرة صوفي اويتنغن شپيلبيرغ وهي احدى حفيدات المستشار النمسوي الامير مترنيخ. وكانت بادية النشاط وعالية الهمة وتبذل قصارى جهودها في سبيل الوحدة رغم سنها العالية وتسعى لمعالجة مختلف القضايا السياسية بفكر مستنير وقاد.

ولربما يستنكر المرء مني ـ وانا الدبلوماسي الحديث العهد بهذه المهمة ـ اقامتي لعلاقات وطيدة مع طبقة لم تعد لها أية اهمية سياسية . وهذا استنكار مغلوط . فمع ان أفراد تلك العوائل لم يكن بينهم من يشغل أي منصب وزاري الا ان لبعضهم ـ كما مر لنا مع الامير فون شتراهمبيرغ ـ نفوذ لا يستهان به على الاحداث السياسية في النمساء

وكان اصعب جزء من مهمتي هو استمالة رجال الدين بعد ان هاجم الحزب الكنيسة الكاثوليكية.وأنا لم أرغب برؤية رجال الكنيسة الكاثوليكية النمسويين بنفس الحال التي صار بها رفاقهم الالمان .

لكنني كنت آمل ان يدرك هتلر بأن مناهضته للكنيسة سوف لن تؤثر على المانيا فحسب وانما ستؤدي الى اقامة عقبة كأداء بوجه الوحدة المزمع تحقيقها.

ولقد حرصت منذ الايـام الاولى لوصولي الى ڤينا على كسب مودة الرأس المدبر للكنيسة الكاثوليكية النمسوية الكاردينال تيودور انستربقصد توضيح طبيعة مهمتي لنيافته، ولم اشأ بطبيعة الحال ان تكون موضع شكوكه في الاعتقاد بأنني اسعى لتحقيق الوحدة على حساب الكنيسة.

ولربما يتهمني البعض بعد تطور الاحداث بأن آمالي لم يكن لها أي اساس وانها كانت تتسم بقصر النظر . الا انني ارد على هذه الاتهامات بأن هتلر سبق ان أعرب لي مرارا عن شكوكه بالآراء السياسية التي جاء بهـا روزنبرغ[٢]. ومن تلك الشكوك انه قال لي مرة:

« ان الكتاب الذي ضمنه روزنبرغ اساطيره لا يساوي قيمة الورق الذي طبع عليه ».

كما أنه لم يسمح لروزنبرغ بنشر كتابه قط لأن كاردينال ميونيخ هاجم نظريات روزنبرغ بصورة علنية. وكان هتلر يعتقد بأن الاستعاضة عن الكنيسة الكاثوليكية بفكرة المانية قومية جديدة مجرد خيال وهمي وكنت لوقت طويل على ثقة من أن هتلر يولي آرائي جل اهتمامه . الا أن ضغوط غوبلز وروزنبرغ وبورمان المستمرة غيرت آرائه بشأن مـا كنت اسديه له من نصائح .

بعد سنتين من الزيارات الشكلية التي قمت بها للكاردينال والمجاملات التي قدمتها له فانه رفض استقبالي او تلبية اية دعوة اوجهها له . وكان هذا الموقف ـ كما قيل لي في حينـه ـ قد اتخذ بموجب قرار لمجلس الاسـاقفة «بريماس جرمانيا» المنعقد برئاسة اسقف زالتسبورغ الامير الدكتور ڤايتز.

---

(٢) كان الفريد روزنبرغ العقل المفكر للحزب النازي وصاحب نظرياته الفلسفية وقد اشتهر بمناوأته للكنيسة . ولما احيل لمحاكمات نورمبرغ بعد الحرب العالمية الثانية حكم عليه بالاعدام شنقا ونفذ فيه.

ـ المترجم ـ

ثم ان الجفوة التي لقيتها في تلك الفترة من المستشار الاتحادي شوشنيغ كانت بتأثير من قرار المقاطعة الذي اتخذه ضدي رجال الدين • ولكنني كلما ازدادت مقاطعة رجال الدين النمسويين لنشاطي كلما ازدادت جفوة المسؤولين الالمان مني ببرلين نفسها.

وثمة مجموعة أخرى كانت ذات أهمية خاصة بالنسبة لاشتغالي في ڤينا وهي الجالية الالمانية المقيمة في النمسا حيث كان عدد الالمان المقيمين بڤينا وحدها أكثر من ٣٠٠٠٠ الماني يتزعمهم الاستاذ الدكتور پاول كريوغر الذي كان يعمل مديرا لمعهد التأريخ الطبيعي بڤينا. وكان للالمان المقيمين بالنمسا اتحاد خاص بهم والامر الذي اقلقني هو تحسبي من قيام ذلك الاتحادبنشاط نازي وهو نشاط لابد ان يسبب لي صعوبات انا في غنى عن معالجتها • وكان السيد ارنست ڤيلهلم بوهله قد انشأ في المانيا «مكتب رعاية الالمان المقيمين بالخارج » وهو مؤسسة لا موجب لوجودها أصلا بينما كانت تحظى برعاية وزارة الخارجية الالمانية الى أبعد الحدود •

وكان السيد ارنست بوهله شابا مثقفا وقد ولد في برادفورد ببريطانيا ولعله أقدم على فتح مكتبه المشار اليه على أمل الحصول على منصب وزير الخارجية او على الاقل منصب وزير المستعمرات وواضح انه اراد بفتحه مكتب رعاية الالمان المقيمين بالخارج جلب نظر هتلر الى كفايته ومقدرته في استمالة الآلاف المؤلفة من اولئك الالمان وتنظيمهم وتكليفهم بمهمة الدعاية لالمانيا والتسبيح بحمد نظامها النازي. وكان الالمان المقيمين في الخارج قد نظموا انفسهم منذ عشرات السنين بنواد او اتحادات بقصد الحفاظ على ارتباطهم الوثيق بالوطن الأم حيث يوجد في الولايات المتحدة الامريكيةوحدها اكثر من الف جمعية غنائية تتبنى التقاليد الموسيقية الالمانية وتنشد الاغاني الالمانية • كما توجد في اقطار اخرى كثيرة مدارس المانية ومستشفيات المانية. وقد بقيت هذه المؤسسات الثقافية والانسانية بعيدة عن السياسة طوال عقود عديدة من الزمن.

ومما لا شك فيه ان البلدان المضيفة للجاليات الاجنبية ــ ومنها الجالية

الألمانيـة ـ لا يمكن أن تسمح لها بممارسـة أي نشاط سياسي يعتبر تدخلا بشؤونها الخاصة او يخل بسياستها العامة •

الا أن الشيوخ المحنكين الذين كانوا على رؤوس تلك المنظمـات لم يعجبهم عمل السيد بوهله فوضعوا العراقيل امامه • الا انه لم يلبث ان أزاحهم تباعا عن مناصبهم ووضع بدلهم عددا من الشباب الذين كانوا مشردين في الخارج بسبب عدم كفايتهم فلا عجب أن جعل هؤلاء التسبيح بحمد المانيـا ديدنهم•

وكان ان صادفت نفس الحـالة في ڤينا حيث تعرضت لمزعجات كادت تعصف بجهودي السياسية•

لكي تتفهم طبيعة العلاقة التي كانت سائدة بين المانيا والنمسا في الفترة الواقعة بين ٢٥ تموز ١٩٣٤ و٢١ مايس ١٩٣٥ فمن الضروري القاء نظرة على التطورات السياسية التي طرأت على اوربا خلال تلك الفترة •

فأنسحاب المانيا من عصبة الامم ومؤتمر نزع السلاح جعلنا عرضـة للنقد الشديد والعزلة وكان من الواضح اننا سنكون محرومين من اقـامة علاقات شخصية مع قادة الدول الكبرى في العالم• واقامة مثل هذه العلاقات يكون افضل من المـذكرات الدبلوماسيـة آلاف المرات • والآن اصبحت الحكومة الالمانية الجديدة مهددة بخطر الانعزال الذي تعرضت له الحكومات الالمانية خلال عقد العشرينات مما يجعل سياستنـا الخارجية في مهب الريح لأننا سنكون في جهل عن مسار العوامل السياسية التي تؤثر على قرارات الدول الكبرى•

وكانت الخطة الجديدة التي قدمها سير جون سيمون في ٩ تشرين الأول ١٩٣٤ الى لجنة نزع السلاح قد جعلت بقائنا في تلك اللجنة متعذرا • وكانت الخطة المذكورة بارعة في احبـاط خططنا التي قدمناها في ١١ كانون الأول ١٩٣٢ على أمل التعـادل مع الدول الأخرى خلال أربع سـنوات • ولو كنـا قد حافظنا على عضويتنا في عصبة الأمم لاستطعنا تقديم مقترحات جديدة عبر

عصبة الامم بشأن قضية نزع السلاح. لقد كان غلق ذينك البابين المطلين على العالم اكثر من طاقة المانيا.

لقد حاولت الدول الاخرى التدخل في شؤون الأمن للدول الثورية ذات النظم الجديدة . والواقع ان المرحلة التي اصفها تميزت بالحماس المحموم لجميع هيئات الحكومة الالمانية في سبيل الحفاظ على الأمن الجماعي.

وكانت الخطوة الاولى المناقضة لسياسة المانيا الخارجية هي قبول روسيا السوفيتية في عصبة الامم في ايلول ١٩٣٤ بعد ان حرمت من القبول في هذه المنظمة الدولية ردحا من الزمن . وقد حصل قبولها بعد فشل المحاولة الانقلابية التي وقعت في ڤينا واثار فشلها فضيحة دولية لاتهام النازيين بالاستهتار بالقيم المعتبرة في المجتمع الدولي. وقد حفزت تحشدات فرق موسوليني بممر برنر واستنكار الفرنسيين اللورد بولدوين رئيس ورزاء بريطانيا للقول:

« ان حدود بريطانيا تمتد الى الراين . ولابد للمرء من وضع برنامج جديد لنزع السلاح لمقاومة تهديدات هتلر » .

في ١٣ كانون الثاني ١٩٣٥ حصلت واقعة كانت لها آثار قوية على المجتمع الاوربي. فقد تمخضت الانتخابات التي اجريت في منطقة السار التي خضعت للاحتلال الفرنسي والادارة الدولية طوال خمسة عشر عاما عن الاقتراع بنسبة ٩٠٫٤٪ لصالح الرجوع بالاقليم الى الوطن الأم ولم يقترح من الـ ١٥٠ ٠٠٠ فرنسي من اقليم السار سوى ٢٠١٤ فقط لصالح ضم الأقليم لفرنسا. وحيث ان ابناء السار المقيمين في كل ارجاء العالم شاركوا في هذا الاقتراع فقد دلت نتيجته على مدى ثقة اولئك الناس بحكومة المانيا وبزعامة هتلر.

وعندما أقيم الأحتفال الكبير بتسلم أقليم السار في عاصمته ساربروكن يوم ١ آذار ١٩٣٥ دعيت لحضور ذلك الاحتفال ووقفت الى جانب هتلر الذي كان يشعر بسعادة غامرة. ولما جاء دوري لألقاء كلمة بالمناسبة قلت فيها:

« نحن نأمل ان تكون عودة اقليم السـار الى المانيا خـاتمة للصراع الطويل الذي امتد بين بلدينا مئات السنين وان نستأنف علاقاتنـا بشكل افضل. فلنمد ايدينا للتعاون من اجل ازدهار اوربا ورفعتها ».

وبعد الاقتراع بشأن السار بثلاثة اسابيع أي في ٣ شباط ١٩٣٥ التقى الوزيران الفرنسيان پيرلاڤال وپير فلاندان بنظيريهما الانكليزيين من اجل كبح جماح المانيا وتحديد نشاطها غير المرغوب به . وباشر الجميع بوضع مشاريع لاقامة حلفين تشترك بهما المانيا لعدم الاعتداء ويسمى أولهما الحلف الشرقي والآخر يسمى حلف الدانوب وتسندهما فرنسا وبريطانيا بكل ما اوتيت من قوة.

ولما عرضت الفكرة على المانيا بصورة رسمية اجابت بأنها على استعداد للدخول بمفاوضات بشأن تحديـد التسلح. ولكن كيف يمكننـا الدخول بالحلفين المقترحين؟ ومع من وضد من؟ فنحن ليست لدينا حدود مشتركة مع روسيا . اما ما يخص حلف الدانوب المقترح فنحن نعتبره سياسة غربية تتميز بقصر النظر لاننا والنمسا لا نحتاج الى أي اسناد ازاء دول حوض الدانوب الصغيرة . واقترحنا من جانبنا فتح حوار مع بريطانيا فأعربت بريطانيا عن استعدادها للحوار المقترح وعينت السير جون سيمون والسيد انطوني ايدن ممثلين لها على ان يصلا الى برلين في ٦ آذار ١٩٣٥ .

وقبل حلول الموعـد المقرر لوصولهما بيومين حـدث ما عصف بكل الجهود المبذولة للتفاهم المباشر بين المانيا وبريطانيا عندما أصدرت الاخيرة في ٤ آذار ١٩٣٥ كتابا ابيض يتضمن الاسائة لألمانيا حيث جاء فيه:

« ان المانيا لا تقتصر نشاطاتها على الجهود العلنية المبذولة على نطاق واسع من اجل اعادة التسلح خلافا للاتفاقيات المبرمة وانما تسعى سعيا حثيثا نحو توجيه الشعب الالماني وبصورة خاصة الشبيبة الالمانية التي يتم تنظيمها لتكون اداة عسكرية رهيبة وهذا امر يجعل الجميع يفكرون بفقدان الامن».

وهكذا اعتبرت برلين الكتـاب الانكليزي الابيض تدخلا سـافرا في

شؤونها لأنه يعتبر تحريضا على تحديد تسلح المانيا • وكان هتلر اشد الناس امتعاضا لصدور هذا الكتاب فأوعز باخبار السفير البريطاني ببرلين بأنه أصيب بنزلة صدرية ويتمــذر عليه مع الأسف مقــابلة الوزيرين الانكليزيين يوم ٦ آذار ١٩٣٥ •

ويبدو ان وزارة الخارجية الفرنسية كانت متعاطفة مع الاساليب الانكليزية حيث قررت الحكومة الفرنسية في ٦ آذار ١٩٣٥ تمديد مدة الخدمة الالزامية الى السنتين • كما قامت في ٧ آذار ١٩٣٥ بتوقيع اتفاقية مع بلجيكا تتضمن تمديد سريان المعاهدة العسكرية المعقودة بينهما في عام ١٩٢١ • وبعد ثلاثة ايام من ذلك التأريخ صرح هرمان غورنغ للصحافة بأن لالمانيا قوة جويــة عسكرية لم يسبق الاعلان عنها وفسر تصريحه هذا بأن دعوة الدول الكبرى لألمانيا للمشاركة في معاهدة جوية معناها المنطقي اننا لدينا فعلا قوة جوية •

في ١٦ آذار ١٩٣٥ أعلن هتلر اعادة التجنيد الالزامي للشعب الالمــاني جوابا على الاجراءات المشابهة لجيران المانيا الغربيين • واؤكد هنا خدمة للحقيقة وكما سبق ان اكدت امام المحكمة الدولية في نورمبرغ بأن احدا لم يتطرق في أوساط الحكومة الألمانيــة لموضوع اعادة تسليح المانيــا طيلة فترة عضويتي للحكومة بل وحتى أواخر عام ١٩٣٤• كما لم تتيسر للجيش الالماني آنذاك اية أسلحة ثقيلة كما ان املاء شواغر الملاكات بعناصر من التشكيلات شبه العسكرية كان مجرد اجراء دفاعي بحت• وقد بقي سؤال ملح يتردد كثيرا ومفاده ألم يكن بمقدور ساسة اوربا التوصل الى تفاهم مع هتلر بشأن تحقيق السلام الاوربي؟

كانت ردود الفعل على اجراءات هتلر شديدة جدا• حيث قال سفير فرنسا ببرلين السيد فرانسوا پونسيه بأن تدابير المانيا كانت استحضارات جادة للحرب الا ان باريس لم تأبه لقــوله وكان من رأي السفير الفرنسي وجوب سحب الدول الكبرى لسفرائها من المانيا وعقــد اتفــاقيتي الشرق والدانوب المقترحتين بدون المانيا وبهدف لتصدي لأطماع المانيا •

وقد كتب السفير المذكور يومياته فيما بعد وقال فيها عن تلك الواقعة:

« لقد قامت الدول الكبرى برد فعل. ولكنه كان مقتصرا على خطط مكتوبة على الورق واعتراضات مجردة».

ظهرت الاعتراضات باختلافات تدريجية حيث أرادت بريطانيا في أول الامر معرفة مدى استعداد هتلر في ذلك الوقت لاجراء حوار مع رجال الدولة البريطانية فأبدى هتلر ترحيبه بالفكرة الا ان الفرنسيين نسفوا المحادثات هذه المرة قبل بدايتها عندما قرروا وجوب جعل الزيارة لبرلين زيارة ذات طبيعة استطلاعية عندما تقرر قيام السيد ايدن بالطيران من برلين الى موسكو ثم الى وارشو ومنها الى براغ. وهكذا تبين لهتلر قبل تنفيذ الزيارة بأن الغرض من اعلان منهجها هو الاستحضار النفسي لتحقيق النجاح في المحادثات. ولكن على الرغم من ذلك كله فقد سارت المحادثات بروح ودية صادقة. ولم تكن الاختلافات الواسعة بين النظريتين الشيوعية والنازية مبررا لقبول هتلر بالاشتراك في الحلف الشرقي الذي اقترحه الانكليز كما انه لم يقبل بالدخول في حلف الدانوب المقترح ما لم يتم اعتراف الحلفاء الغربيين بحق توحيد المانيا مع النمساء وهكذا تمخض هذا المؤتمر عن رفض هتلر للمرة الاولى فكرة الاشتراك بمعاهدة مع بريطانيا . كما انه حقق نجاحا دبلوماسيا عندما استطاع شق الاتفاق الانكليزي ــ الفرنسي.

عاد التوتر لأوربا ثانية عندما عقدت الدول الغربية مؤتمرا في ستريزا[٣] بتاريخ ١١ نيسان ١٩٣٥ حضره رئيسا وزراء بريطانيا وفرنسا السيد رامزي ماكدونالد والسيد پيير لاڤال يصحبهما وزيرا خارجيتهما. وتوجه المؤتمرون في اول الامر الى لاغو ماغيوري لكي يستميلوا موسوليني الى جانبهم في الصراع المنتظر ضد المانيا . والواقع ان تجمع هذه الدول غير المؤتلفة لم يكن له ما يبرره وكان الاجدر بها التعاون مع المانيا في سبيل اقرار الرخاء والسلم لاوربا . الا أن الدول الثلاث المذكورة أعلنت بكل صراحة شجبها لمساعي المانيا في التخلص من قيود معاهدة فرساي وبذلها كل جهودها في هذا السبيل.

---

(٣) تقع في شمال ايطاليا قرب مدينة ميلانو . ــ المترجم ــ

وقد تصدى هتلر لمزاعمهم بقوة قائلا ان معاداة تلك الدول لن تزيد المانيا الا ترابطا ووحدة . وبعد يومين من ذلك التأريخ أثرت فرنسا على عصبة الامم وجعلتها تصدر بيانا تدين به المانيا . وفي ٢ مايس ١٩٣٥ وقعت الحكومة الفرنسية على معاهدة دفاعية للاسناد المتبادل مع الاتحاد السوفيتي.

وهكذا تفتتت وحدة أوربا التأريخية وانهار جدارها الحصين بوجه الموجة السلافية العارمة.

ادت نتائج اقتراع السار التي كانت لصالح المانيا الى سريان روح التفاؤل والاستبشار في نفوس المواطنين النمسويين كما كانت مناوأة دول أوربا الكبرى لألمانيا حافزا اضافيا لاظهار مشاعر التأييد القومية نحوها.

اضف الى ذلك كله شعور النمسويين بالاعتزاز بهتلر واعجابهم به بعد ان حطم قيود معاهدة فرساي. وفي هذه الفترة بالذات قدرت ان مصير النمسا سيتحدد في لعبة سياسية قادمة. ولم يكن غريبا سريان اشاعات متضاربة تنال من الامير فون شتارهمبيرغ. كما ازداد في الفترة نفسها تدخل موسوليني في شؤون الحكومة النمسوية مما اضطرها على طلب تقوية الجيش النمسوي النظامي ومفاتحة البرلمان لجعل الجيش الشعبي النمسوي تشكيلا احتياطيا للجيش العامل.

وأخيرا تبين ان حلف الدانوب لم يكن سوى خيال يراود رؤوس الساسة في دول أوربا الغربية دون أن يكتب له النجاح . وكان الأجدر بهم تقوية موقف النمسا وجعل الامير فون شتارهمبيرغ بمنصب مشابه لمنصب امير البحر هورتي الوصي على عرش المجر.

الا أن فكرة تسليط مستبد عسكري على نظام الحكم القائم بالنمسا لم ترق بطبيعة الحال للمستشار شوشنيغ او لوزير خارجيته البارون فون بيرغر وقد سألني الأخير في محادثة جرت لي معه في تلك الفترة عما اذا كانت المانيا على استعداد للاعتراف بسيادة النمسا باعتبارها دولة المانية ثانية . اذ

لو أعطي مثل هذا الضمان لأصبح بمقدور النمسا ممارســة سياسة خارجية متغيرة تميل فيها لتوحيد نشاطها مع نشاط المانيا الخارجي .

وللاجابة على هذا الاستفسار المهم فقد عجلت بالتوجه الى برلين بقصد مقابلة هتلر وطلبت اليه التدخل لاحباط محــاولات موسوليني في التدخل بشؤون النمسا ونصحته في ١٧ مايس ١٩٣٥ منح شوشنيغ امكانية تشجيع الجيش الشعبي من اجل تحقيق وحدة النمسا مع المانيا . وكذلك مصالحة الحزب النازي النمسوي مع الكنيسة النمسوية لأن هذه الخطوة ستكون تمهيد مناسب لأشراك المانيا في حلف الدانوب المقترح. والتوصل لتوحيد سياسة النمسا الخارجية مع سياسة المانيا بقصد التصدي لمحاولات بريطانيا الجادة للتأثير على سمعة المانيا الدولية.

وكنت قد كتبت لهتلر منذ اواسط مايس ١٩٣٥ بأن المستشار النمسوي قد أكد لي بأن هتلر اذا ما وضح سياسته المقبلة مع النمسا والتزم بها فانهيمكن ان يشترك مع هتلر فورا بمحادثات لتوثيق اواصر التعاون بين البلدين . والآن اصبح هذا الطلب في غاية السهولة بعــد ان اعلن هتلر على رؤوس الاشهاد في خطبته المستفيضة امام البرلمان الالماني يوم ٢١ مايس ١٩٣٥ اعترافه باستقلال النمسا وسيادتها حيث قال:

« ليس من رأي المانيا ولا من رغبتها التدخل بشؤون النمسا الداخلية أو محاولة ضم النمسا أو مضايقتها ».

وكانت هذه هي نفس التأكيدات التيسبق ان وعدني بها في لقــائي معه ببايرويت في تموز ١٩٣٤ قبل ان اقرر قبول منصب السفير بڤينا . والآن وبعد ان اعلن هتلر عن تطميناته للنمسا اصبح الآن بمقدورنا وضع الأسس الراسخة لاقامة صرح التعاون الالماني ــ النمسوي الوثيق.

لم تتأخر استجابة النمسا لتصريحات هتلر المطمنة فبعد اسبوع واحد تحدث المستشار النمسوي أمام برلمان بلاده وكنت حاضرا تلك الجلسة فأثنى على المانيا ثناء عطرا وقال ان النمسا اصبحت معترف بها كدولة المانية وقد سررت لأن جهودي مع هتلر قد اثمرت باعترافه علنا بسيادة النمسا وهو تصريح

يسهل دخول النمسا عضوا في الاتحاد الالماني ويجعل سياستها الخارجية متوائمة مع سياسة المانيا • والآن وجدت ان من المناسب مطالبة شوشنيغ باتخاذ الموقف المناسب على ضوء تصريحات هتلر •

وكان صدى خطاب المستشار شوشنيغ مؤثرا على وزارة الخارجية الفرنسية التي كانت تخشى من أي تقارب الماني ـ نمسوي • الا انني اسرعت بتطمين زميلي السفير الفرنسي السيد پوايو وقلت له ان التعاون الالماني النمسوي موجه لمناوأة البلشفية واذا لم يتم انشاء حلف الدانوب المقترح فان هذا التعاون سيكون بمثابته واعربت له عن ثقتي بأن التعاون الالماني النمسوي لابد ان يكون في صالح فرنسا •

في ١١ تموز ١٩٣٥ أي قبل عقد الاتفاقية التي وضعتها من اجل تحقيق السلام بسنة واحدة بالضبط قابلت وزير الخارجية النمسوي البارون فون بيرغر في ديوان وزارته لكي أقدم له مسودة الاتفاقية المقترحة التي سميتها (دراسة شخصية) ولما سألني عما اذا كنت مخولا من حكومتي للدخول بمثل هذه المفاوضات اجبته بأن حكومتي تعلم بذلك • ولم اشأ اخباره بأنني كنت قلقا لايجاد الوسيلة المناسبة لايصال تلك الوثيقة امامه والتي سبق ان اتفقت مع هتلر على كل ما جاء فيها بينما كنت حريصا على التأكد من قبولها لدى النمسويين قبل ان يعود هتلر فيسحبها او يوعز بالغائها أو تغيير جزء مهم منها • الا ان الوزير النمسوي ادرك بفطنته ما كان يجول بخاطري فحاول بدوره ان يلعب معي فورا لعبة سياسية يكسب بها بعض الوقت عندما قال لي بأنه بصفته وزير خارجية بلاده لا يمكنه التصرف واعطاء أي التزام مسبق وانما سيرفع مقترحي بمذكرة عاجلة للمستشار •

تلبد الجو الرائق الذي تمنيته لمهمتي بغبار كثيف خلال الاشهر التالية ولم تنجل تلك الغمة الا في ٩ أيلول ١٩٣٥ عندما اصطدمت بوزير الخارجية مرة أخرى واحيط الوزير المذكور علما بأن هتلر متفق معي بالرأي بشأن مقترحي المقدم للحكومة النمسوية • عندئذ بمقدور السيد فون بيرغر التلكؤ لمدة اطول فتأخر ثلاثة اسابيع أخرى قدم بعدها مقترحا مضادا بأسم وزارته مع

ملحوظة يتحفظ فيها بقوله ان مقترحه لم يحظ بعد بموافقة حكومته. ولكي اسهل على القاريء الكريم مقارنة مقترحي بالمقترح النمسوي المضاد اجد من المناسب عرض الخطوط الاساسية لكلتا الوثيقتين وكما يلي:

مقترحاتي

ان حكومتا المانيا والنمسا رغبة منهما في اعادة العلاقات القائمة فيما بينهما الى حالتهما الطبيعية والحفاظ على روح الصداقة من اجل تطوير التعاون الاوربي المشترك وتحقيق السلام وبناء على ذلك فقد توصلتا الى التفاهم التام بشأن ما يلي:

١ــ ان تصريح الزعيم ومستشار المانيا المؤرخ ٢١ مايس ١٩٣٥ والذي نصه « ليس من رأي المانيا ولا من رغبتها التدخل بشؤون النمسا الداخلية أو محاولة ضم النمسا أو مضايقتها » قد لقي ترحيباً من الحكومة النمسوية. حيث يؤكد هذا التصريح بأن الحكومة الالمانية لا تريد التدخل في سياسة النمسا الداخلية تجاه الاحزاب او التجمعات وانها تعتبر المنع الحالي لنشاط الحزب النازي قضية داخلية محضة تخص السياسة الداخلية للنمسا .

المقترح النمسوي

ان حكومتا المانيا والنمسا رغبة منهما في اعادة العلاقات القائمة فيما بينهما الى حالتها الطبيعية ولرغبتهما بتطوير التعاون الاوربي المشترك وتحقيق السلام فقد توصلتا الى التفاهم التام بشأن ما يلي:

١ ـ تعترف الحكومة الالمانية بالنظام السائد في النمسا على ضوء تصريح الزعيم ومستشار المانيا المؤرخ ٢١ مايس ١٩٣٥ والذي نصه « ليس من رأي المانيا ولا من رغبتها التدخل بشؤون النمسا الداخلية او محاولة ضم النمسا او مضايقتها ».

وتتعهد الحكومة الالمانية بعدم التدخل بصورة مباشرة او غير مباشرة في شؤون النمسا التي تخص سياستها الداخلية وهي تعترف بأن الحركة النازية والتنظيمات المنبثقة عنها ممنوعة حاليا في النمسا وهذه مسألة نمسوية داخلية بحتة.

٢ ـ ان الحكومة النمسوية تعتبر تصريح المستشار النمسوي المؤرخ ٢٩ مايس ١٩٣٥ « ان الدولة النمسوية تعتبر دولة المانية » نصا يجعلها تلتزم بممارسة سياسة تبغي من ورائها تحقيق السلام لمجموع الامة الالمانية .

٣ ـ يتم الاتفاق بين الطرفين بشأن الصحافة وايقاف منع الصحف والاذاعة والوسائل الثقافية الاخرى وقضايا الهجرة ورموز التعارف في البحار العالية والنشيد الوطني وترفع ضريبة الالف مارك المعيقة لهجرة الافراد فوراء

٢ ـ تعترف الحكومة النمسوية بالنظام السائد في المانيا . وسوف تلتزم بممارسة سياسة عامة تؤيد بها سياسة المانيا على ضوء تصريح المستشار النمسوي المؤرخ ٢٩ مايس ١٩٣٥ والذي نصه « ان الدولة النمسوية تعتبر دولة المانية»

٣ ـ يتم الاتفاق بين الطرفين بشأن المسائل المشتركة وفقا للعرض الالماني وللطرفين تقديم مقترحاتهما بشأن تشكيل لجنة مختلطة يمكنها بحث القضايا الراهنة ومعالجة اية قضايا قد تستجد ويشكو منها احد الطرفين.

ويتبين للقاريء الكريم من مقارنة كلا الاقتراحين مدى تقاربهما ومقدار اتفاق وزارة خارجية النمسا معي بالرأي.

قدمت تقريرا لهتلر في ٢٧ تموز ١٩٣٥ أي بعد اغتيال المستشار دولفوس بسنة واحدة وازنت به سياسته مع سياسة النمساء

وقلت ان النمسويين يعتبرون دولفوس (شهيد الفكرة النمسوية) وهذا معناه انحرص على استقلال النمسا والابقاء على وجودها التأريخي منفصلة عن المانيا بينما سيكون انفصالها عن اختها المانيا فعل مضاد لحركة التأريخ القومي للامة الالمانية وهذا الرأي يقودنا الى حقيقة مهمة هي ان المشكلة الالمانية النمسوية تتحكم بها مستقبلا كما تحكمت بها في الماضي السياسة الاوربية . ومن حصيلة اغتيال دولفوس ان التبريرات التي قدمناها بسرعة لاعادة المياه الى مجاريها قوبلت بالتكذيب . كما ان محاولة اصلاح الحال بارسالي سفيرا الى ڤينا تطلبت الاخلاص في اثبات حسن النوايا

والقيام باجراءات تؤكد صدق المانيا وجدّها. ذلك لأن الشعب النمسوي لا يثق بوسائل الحزب النازي القسرية وممارسته للارهاب.

وقد ادت خشية الحلفاء الغربيين من تعاظم المانيا الى لجوئهم للتحالف مع روسيا واشراكها في القضايا السياسية الاوربية . وستؤدي اية محاولة المانية للتعرض على أقطار جنوب شرق اوربا سواء من الناحية الاقتصادية او السياسية الى احتمال مواجهتها لاقطار اوربا كلها في جبهة مرصوصة.

ولربما أدى انشغال ايطاليا بمغامرتها في الحبشة الى احداث فجوة صغيرة يمكن النفاذ منها.

وعلينا والحالة هذه ان نحرص عندمعالجة قضية النمسا الا نلجأ الىحل يزيد الموقف سوءا . ويمكن ايجاد الحل المناسب في حالة واحدة هي ان تكون العلاقات الالمانية ـ النمسوية جيدة.

وقد قلت لهتلر ايضا ان من الغريب ممارسة المانيا لسياسة خارجية تتسم بالصرامة المتميزة وهذه الطريقة لن تكون بصالح المانيا وعلينا أن نجد وسائل جديدة للتعامل مع الدول اخرى. كما يجب علينا التصدي للافكار الانفصالية الموجودة لدى حكومة النمسا لكي نجعل مهمتنا التأريخية في اوربا اكثر قوة . وهذا يشتمل على وجوب تلافي الصعوبات السياسية والدينية القائمة حاليا.

لقد كتب نمسوي مخلص هو غراف فون دوبسكي في دراسة مستفيضة اعدها عن المشكلة الالمانية:

« ان المانيا اما أن تكون مع النمسا أو لا تكون بدونها . وستحوز النازية المجد المؤثل بكسب النمسا او انها ستتدهور في حالة عدم تفهمها للطريقة المناسبة لحل هذه المعضلة ».

في صيف وخريف ١٩٣٥ ازداد التعاون المشترك بين الحكومتين النمسوية والايطالية متخذا مرحلة جديدة . وأدت مغامرة موسوليني في الحبشة الى حصول قطيعة بينه وبين الحلفاء الغربيين كما جعلت النمسا بموقف

شديد الحرج. وقد وجب علي تقديم تقرير خاص في ١٨ تشرين الأول ١٩٣٥ بسبب اعادة تشكيل الحكومة النمسوية نتيجة لضغط مارسه فون شتارهمبيرغ والجيش الشعبي. وكان فون شتارهمبيرغ دائم الانتقاد لسياسة النمسا الخارجية وشديد التأييد للوزراء المعارضين . وكان يعتقد ان مصير النمسا متوقف على انتصار موسوليني وليس على تعاونها وارتباطها مع بريطانيا وفرنسا.

وقد سمعت من عضو مجلس الدولة فوندر والمعلق السياسي المعروف لصحيفة (رايشز پوست) بأن مصير وزير الخارجية النمسوي بيرغر قد تحدد لأن الحزب المسيحي الاشتراكي لم يعد يثق بالوزير المذكور بسبب مواقفه السلبية من المانيا . اضف الى ذلك ان بيرغر كان يحظى باعجاب موسوليني. وعندما تباحثت مع فون شتارهمبيرغ تأكد لي ان شعوره المناهض لألمانيا قد فتر بعض الشيء. وكان من رأيه ان حكومات الاقطار المستقلة ينبغي ان تتعاون فيما بينها وسمى ايطاليا والنمسا والمانيا والمجر وقال انها ينبغي ان تشكل جبهة قوية للدفاع عن نفسها. ولما سألت فون شتارهمبيرغ عما اذا كان بالامكان استمالة موسوليني للسير بهذا الاتجاه السياسي اجابني بالايجاب. ولشد ما استغربت من اختلاف رأيه الحصيف هذا مع آراء المستشار النمسوي ووزير خارجيته.

لقد كان فون شتارهمبيرغ لطيف الشمائل ذو شخصية محببة ولو اتيحت له فرصة حظ مواتية للعب دورا تأريخيا بارزا في ذلك العام الحافل.

وقبل ان اختتم هذا الفصل المتضمن تقريري عن هذه المرحلة من فعالياتي بقي لدي ما اقوله بصدد المناكفات التي لقيتها من النازيين ومن رجال الشرطة السرية للدولة . فمنذ كانون الأول ١٩٣٤ أي بعد محاولة روهم الانقلابية الفاشلة واقلاع الحكومة الألمانية عن فكرة تصفيتي جسديا في تلك المذبحة الشاملة توجهت انظار خصومي من النازيين نحو تصفية معاوني المقربين وبخاصة السيدين فون كيتيلر وفون تشيرشكي فتدبروا أمر تصفيتهما بترتيب محكم . ولما لم ارغب باستبعاد ذينك السيدين عن العمل بمعيتي

فقد لجأ النازيون الى وسائل الوقيعة القذرة للقضاء عليهما • وكانت محاولة الوشاية الاولى قد مارستها شرطة الدولة السرية ضد السيد فون تشيرشكي فأتهم بتهمة باطلة شبيهة بتلك التي دبرتها بعد ذلك الحين لتحطيم سمعة الفريق الاول البارون فون فريتش • وتجري المحاكمة عن مثل هذه التهم امام المحاكم الاعتيادية • وعليه فقد رجوت هتلر في ١٣ كانون الاول ١٩٣٤ ان يتأكد من براءة السيد فون تشيرشكي باحالته الى المحاكم الاعتيادية• وكم اسفت على المحنة التي تعرض لها ذلك الرجل الرائع الذي يتدفق ذكاء وحيوية والذي تصدى منذ عام ١٩٣٣ لمحاولات التدخل التي اراد بها النازيون دس انوفهم في فعاليات مكتب نائب المستشار•

في ٣١ كانون الثاني ١٩٣٥ كتبت رسالة شخصية لهتلر قلت له فيها بأن لدي معلومات وثيقة بأن خطة الشرطة السرية للدولة يقصد من ورائها تحييد السيد فون تشيرشكي ولو كلف السيد هايدريش بالتحري في هذه القضية فان الشرطة السرية للدولة لن تحرم من وسيلة للايقاع بالسيد فون تشيرشكي وعليه فان كل ما رجوته هو احالة المظنون الى محكمة عادلة • وفي ٢ شباط ١٩٣٥ اخبرني وزير الخارجية البارون فون نويرات بأن هتلر اعطاه ضمانا شخصيا بالمحافظة على حياة السيد فون تشيرشكي• ولما لم يطمئن السيد فون تشيرشكي لذلك الوعد فقد اضطررت على اعادة مفاتحة هتلر بشأنه في تقرير رفعته له في ١٥ شباط ١٩٣٥ وطلبت اليه اعلان التبرير اللازم لفضائح الاغتيالات التي مارستها شرطته السرية وتضمن ذلك التقرير حقائق بشأن الملابسات التي اعقبت حادث ٣٠ حزيران ١٩٣٤ حيث ذكرت فيه نص تصريح محافظ سيليزيا المدعو بريوكنر الذي قال:

« من العجيب ان اناسا امثال فون پاپن وفون تشيرشكي لم يقتلوا ببرلين ولو انهما كانا في سيليزيا لما بقيا على قيد الحياة الى هذا اليوم • ولابد من استدراك مثل هذا التقصير » •

كما أن تصريحات بعض رجال الشرطة السرية تثبت ان لفون تشيرشكي أسبابا وجيهة للتشكك بوعود الامن التي يقطعها له رجال الشرطة السرية

للدولة .

وعلى الرغم من تطمينات رئيس الدولة الالمانية فان فون تشيرشكي آثر ضمان حياته باللجوء الى بريطانيا رغم التضحية الكبيرة بمفارقة الوطن والزوجة والاطفال والبقاء بقلق دائم طوال فترة فراقهم التي امتدت الى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

في كانون الثاني ١٩٤٧ لم يشأ فون تشيرشكي التخلي عن رئيسه السابق واراد ان يثبت وفائه بالادلاء بشهادته لصالحي في محاكمات نورمبرغ. بينما زعم القضاة السوفيت الذين كان لهم القدح المعلى في تلك المحاكمات قبل سماع اقوالي بشهرين بأن تقصيري - حسب رأيهم - كان السبب في قتل امين سري السابق فون تشيرشكي في معسكرات الاعتقال النازية وانني استحق بناء على ذلك الحكم بالاعدام شنقاء



الفصل الثالث والعشرون

اِتفَاقيّة تموز ونتائجها

اتفاقية تموز • رد فعل هتلر • انه يرجوني قبول منصب السفير بلندن • مكتب فون ربنتروب • هتلر ستقبل ليوبولد • تفكير شوشنيغ • تغييرات في الحكومة النمسوية • غويدو شميت يتوجه الى المانيا • خطاب لشوشنيغ • كتاب ممنوع • التوازن عام ١٩٣٦ •

لم يتحسن الموقف الدولي بالنسبة للنمسا في هذه الفترة أبداء ذلك لأن عدوان ايطاليا على الحبشة ادى الى تقويض الجبهة التي اريد انشائها فيمؤتمر ستريزا • كما ارسل موسوليني من يخبر المستشار النمسوي بأنه سوفيؤيد من الاعماق أي تحسن للعلاقـات بين المانيا والنمسا • أضف الى ذلك ان زيارات المستشار النمسوي لباريس ولندن وجنيف لم تحقق الا نجاحا يسيرا بالنسبة لرغبته في الحصول على ضمان استقلال النمسا • ولذا فانه لميجد مناصا من اللجوء الى تحسين العلاقات الالمانية النمسوية باستغلال اية فرصة تتاح له في هذا السبيل •

في ١ مايس ١٩٣٦ قدم لي الدكتور غويدو شميت رئيس ديوان رئاسة الجمهورية النمسوية تهنئته الحارة بمناسبة العيد الوطني الالماني وتوجه لي بسؤال عما اذا كنت على استعداد لخوض حوار جديـد من اجل تحسين العلاقات الالمانية النمسوية .

ومن الطبيعي انني اجبته بأنني دوما على اتم الاستعداد للتعاون في سبيل ايجاد حل سلمي لهذه القضية ثم رجوته اخبار المستشار النمسوي بأن الضرورة أصبحت ملحة للتوصل الى معالجة سـريعة لتصفية علاقاتنا وجعلها بمستوى الطموح.

وقد حصلت من مناقشتي مع شميت على انطباع بأن المستشار شوشنيغ يشاركه الرأي في أقواله فعجلت بالاتصال مع هتلر لأخبره بأن التوتر الذي ساد مختلف وزارات اوربا نتيجة لاعادة احتلاله لاقليم الراين يمكن ان تخف فورته اذا نجحنا في ايجاد حل سلمي لمشكلة الوحدة الالمانية وبينت له بأن مثل هذه الخطـوة ستؤدي ايضا الى تحسين العلاقـات الالمانية الايطاليـة وستترتب عليها ازاحة الكثير من الاخطار التي تتهدد المانيا والمتمثلة بخطط خصومنا لعقد احلاف الامن لوسط اوربا وهي احلاف مصممة ضد المانيا بالدرجة الاولى.

ولابد للمرء ان يتذكر بأن الحكومة البريطانية تقدمت بمجموعة من الاسئلة المحرجة الى هتلر بعد استعادته لاقليم الراين رجته فيها تحديد نواياه المقبلة . وقد كتبت لهتلر مبينا وجهة نظري فأقترحت عليه الاجابة على تلك الاسئلة بالتظاهر بحسن النوايا ازاء فيناه وكان ان قبل هتلر بمقترحي ووافق على وجوب اعطاء الجانب النمسوي فرصة التعاون مع المانيا من اجل تحقيق الوحدة منطلقا من سياسة داخلية رصينة.

في ١٣ مـايس ١٩٣٦ خرج مـن الوزارة كـلا من فون بيرغر وفون شتارهمبيرغ وحل الدكتور غويدو شميت بمحل الاول وزيرا للخارجية . فكان هذا التعديل الوزاري سببا في تسهيل مهمتي الى حد كبير . وفي

١٨ مايس ١٩٣٦ قابلت المستشار فون شوشنيغ وتحدثت اليه لأول مرة بعد التعديل الوزاري فأخبرته بتأكيد هتلر له بأن الحزب النازي الألماني سيمتنع مستقبلا عن أي تدخل في القضايا النمسوية فأخبرني فون شوشنيغ من جانبه بأنه سيوافق على الاشتراك في الجبهة الوطنية وانه سيقبل في المستقبل ايضا بعضوية المعارضة القومية . الا انه اشترط لقبول التمثيل في المعارضة القومية على المانيا الاعتراف باستقلال النمسا لكي تتاح له فرصة ترصين موقفه السياسي في حالة تحقيق الوحدة التي يمكن ان تتحقق في المستقبل نتيجة لتغير الموقف السياسي العام وكان هذا تحولا جذريا في تفكير المستشار النمسوي لأنه اعترف هذه المرة بامكانية تنفيذ الوحدة باعتبارها هدفا سياسيا ممكن التحقيق .

اجرينا في الايام التالية عدة محادثات لغرض تحديد صيغة الاتفاق المناسب. وكان من رأي فون شوشنيغ ان على كل بلد منا الاعتراف بنظام الحكم السائد في البلد الآخر بصورة رسمية فقلت له بأن وجود التمثيل الدبلوماسي المتبادل بين بلدينا معناه الاعتراف الكامل طوعيا الا ان فون شوشنيغ رفض اقتراحي بمفاتحة المانيا بشأن الاتفاق المزمع عقده بين بلدينا حال الفراغ من قضية العائلة المالكة.

بعد أن توصلنا للاتفاق على جميع التفاصيل المتعلقة بالاتفاقية المقترحة في مطلع تموز ١٩٣٦ طرت الى برلين لكي أخبر هتلر بفعالياتي واحصل على موافقته المبدئية على الخطوط العامة للاتفاقية والتمهيد للقاء فون شوشنيغ مع هتلر ومرافقتي له في المقابلة بقصد اشاعة الطمأنينة في نفسه وحضوري للمناقشات التي ستجري بين المستشارين . وكان فون شوشنيغ قد رجاني ان أطلب الى هتلر الاقتصار على الاعلان عن عقد الاتفاقية بصورة عامة دون الاشارة لتفاصيل فحواها للصحافة والاشارة الى اصدار عفو عام عن النازيين النمسويين وجعل التفاصيل المكتومة بملحق سري بالاتفاقية المعلنة.

ويقتضي أن يتضمن الجزء المعلن من الاتفاقية . اعتراف هتلر بسيادة النمسا وكذلك تعهده بعدم التدخل في الشؤون الداخلية للنمسا . كما

يقتضي على فون شوشنيغ ان يعلـن في الوقت نفسه بأن النمسا هي دولة المانية وان السياسة الخارجية التي ستمارسها الحكومة النمسوية مستقبلا ستكون على ضوء هذه الصفة.

وكان فون شوشنيغ قد كتب لي في ٢٠ حزيران ١٩٣٦ قائلا انه يرغب بكتمان المفاوضات الجارية بيننا الى أبعد الحدود. وكانت هذه الرغبة مطابقة لرغبتي ايضا لأنني كنت أخشى من تدخل الاحزاب الموجودة في كلا البلدين لدرجة قد تؤثر على سير المفاوضات لدرجة تدعو هتلر الى رفض التوقيع على الاتفاقية . وكان هتلر ووزير خارجته البارون فون نويرات الوحيدين في برلين اللذين كانا يعرفان بأمر الاتفاقية بالاضافة للسفير النمسوي ببرلين فون تاوشيتس اما سفراء النمسا في الاقطار الاخرى فقد علموا بأمر الاتفاقية لأول مرة بعد توقيعها. الا ان شخصا فضوليـا واحدا كان على علم بكل تفاصيل الاتفاقية منذ ان كانت مجرد فكرة وحتى توقيعها ذلك هو السفير الايطالي بڤينا السيد زالاتا . وكانت حصيلة الكتمان الشديد لأمر الاتفاقية ان أنباء توقيعهـا من قبلي والمستشار فون شـوشنيغ يوم ١١ تموز ١٩٣٦ أثارت ضجة كبرى في الاوساط السياسية الاوربية .

وثمة ملحوظة جديرة بالاهتمام تلقي الضوء على طبيعة العلاقات التي كانت قائمة بين المستشار فون شوشنيغ والامير اوتو فون هابسبرغ المطالب بعرش النمسا فقد أقدم المستشار النمسوي رغم مطالبته الشديدة بكتمان كل ما يتعلق بأمر الاتفاقية على ارسال مدير مصلحة الاستعلامات السيد ڤير الى بلجيكا لكي يرجو الامير سرا الموافقة على عقد الاتفاقية مع المانيا . وكان ان رفض الامير الموافقة عليها وناشد المستشار عدم التوقيع على مثل تلك الاتفاقية مهما كانت النتائج. وهذه خطوة غريبة يصعب على المستشار القيام بها لأن رئيس الجمهورية النمسوية اطلع على تفاصيل الاتفاقية قبل التوقيع عليها ببضعة ايام وأيد ما جاء فيها.

ولما جيء بڤير شاهدا امام المحكمة في قضية غويدو شميت بعد الحرب العالمية الثانية أفاد بأن المستشار فون شوشنيغ اوفده الى بلجيكا لمقابلة الامير

اوتو واخباره بأن الاتفــاقية سوف لن توقع من قبله الا (تحت الضغوط الالمانية)٠

تم التوقيع على الاتفاقية صباح يوم ١١ تموز ١٩٣٦ فيديوان المستشارية النمسوية باحتفال رسمي ولما رجعت الى السفارة الالمانية اتصلت بهتلر هاتفيا لكي اخبره بتوقيع الاتفاقية الا انني جوبهت برد فعل غريب وغير متوقــع وبدلا من الاعراب عن شكره لانجاز ذلك العمل المضني الذي استغرق مني اكثر من سنتين انفجر بوجهي غاضبا بشكل لم يسبق ان تعرضت له في حياتي وقد حاولت أن أوضح له المكاســب التي حققناها دون أن نمنح النمسويين أي شيء لكنه استمر على القاء سيل اتهاماته الباطلة جزافا٠

وعندئذ لم اتمكن من مواصلة المحادثة بغير اخباره بأنه اذا وجد عملي رديئا الى الحد الذي يصفه فانني على أتم اســتعداد للاســتقالة ٠ الا أنني وجدت نفسي معرضا لسورة من غضبه الجامح المألوف ولكنني لم اتعرض لمثل هذا التقريع بالهاتف٠

ولقد حاولت ان ابحث عن السبب الذي استوجب من هتلر ذلك السلوك المتغير المفاجيء ولم اجد غير وشايات غوبلز الذي اثبت كونه وراء التحــامل علي عندما اهملت أجهزة الاعلام الالمانية كلها أمر الاتفاقية التي أثارت ضجة في الصحافة الاوربية المحايدة والمناوئة لالمانيا بينما لم تشر اليها وسائل الاعلام الالمانية مطلقا ٠ ثم انني امليت على امينة سري كتاب استقــالتي وارجأت ارساله يوما او يومين ريثما اتبين ردود فعل الصحافة والاوساط السياسية الاوربية٠

وقد حدث ما توقعته بالضبط عندمــا اجمعت آراء الصحف علىكون الاتفاقية خطوة كبيرة ومهمة نحو تحقيق السلام المنشود في اوربا ٠ وتهافتت على هتلر وفون شوشنيغ برقيات التهاني من كل حدب وصوب٠ وسرى في الصحافة الفرنسية شيء من الحنق لاعتراف النمسا بأنها قطر الماني وعزمها على ممارسة سياسة خارجية تتفق مع هذه الحقيقة٠ وساد الاعجاب في كل مكان لنجاح الدبلوماسية الالمانية بعد مرور سنتين فقط على اغتيال المستشار

النمسوي السابق دولفوس في الاعتراف بالنمسا المستقلة ذات السيادة باتفاقية عقدتها معها المانيا فيمظهر احتفالي. واعتبرت الاوساط السياسية الاوربية هذه الاتفاقية خطوة مهمة نحو تحقيق الوحدة المنشودة بين النمسا والمانيا لأنها اعتبرتهما عضوين في أسرة واحدة وستكون قضاياهما كلها مسائل داخلية لا يسوغ للغرباء التدخل فيها.

لم تؤيد الاوساط المتطرفة في الحزب النازي عقد الاتفاقية المذكورة الا ان الاوساط المعتدلة منه تفهمت المزايا التي حققتها الاتفاقية ورحبت بها نظرا لأنها تعتبر خطوة وحدوية هامة . كما ان اعضاء حزب الوسط المنحل وبخاصة الجناح الديني من ابناء جنوب المانيا ايدوا عقد الاتفاقية بحرارة.

وكان الحزب النازي قد فتح مكتبا للسياسة الخارجية للاشراف على نشاط الهيئات الدبلوماسية الالمانية في جميع اقطار العالم برئاسة يواكيم فون ريبنتروب. وقد انضم لهذا المكتب عدد من الصحفيين وصغار رجال الاعمال الشباب وبعض النازيين المنصرفين للعمل السياسي فتنامت اعمال هذا المكتب وزاد موظفيه لدرجة ربما اصبح معها عدد هؤلاء يفوق عدد العاملين في وزارة الخارجية الألمانية نفسها . وقد دأب رجال هذا المكتب على الاتصال بزوار برلين من الاجانب سواء أكانوا صحفيين او رجال اعمال أو صيارفة او صناعيين ومفاتحتهم لاجراء مقابلات صحفية مع هتلر وكانت هذهالعروض فرصة ذهبية لهؤلاء وبخاصة للصحفيين منهم. بينما كان رجال المكتب يزعمون لهتلر بأن اولئك الاجانب كانوا يسعون لمقابلته وانهم يمثلون صحفا واسعة الانتشار او انهم من الشخصيات المهمة في بلادهم. ولم تكن وزارة الخارجية لتقدم على تقديم امثال تلك الشخصيات لهتلر وانما كانت تتحفظ كثيرا من تقديمهم خشية تطرقهم لأمور لم يرد ذكرها في المقابلة او اشتطاطهم في النقد او الدس في عرض المقابلة بصحف بلادهم مما يجعل الوزارة في حرج لا موجب له . أما مكتب فون ريبنتروب فكان يعمل بطريقة مغايرة تماما . فهو يلجأ للتضليل وتكذيب الاشخاص ولا يتورع عن تقديم معلومات مغلوطة او غير دقيقة ويقيم علاقات مع المعارضة في كل بلد . وقد كان فون ريبنتروب

مقدرا لمدى حرص هتلر على الدعاية لشخصه في الصحافة الاجنبية. وبكلمة موجزة فانني اعتقد بأن هتلر كان على ثقة بأن الخدمة التي يسديها له مكتب فون ريبنتروپ افضل بكثير والمعلومات التي يقدمها له ادق من تلك التي تقدمها له وزارة الخارجية الالمانية . والحق يقال ان ثقة هتلر كانت بمحلها لأنه كان يتلقى المعلومات من مكتب فون ريبنتروپ بسرعة تفوق وزارة الخارجية التي كانت تتبع الاساليب التقليدية البطيئة فتصل معلوماتها غير دقيقة ومتأخرة. وانني لاتعجب من مسلك البارون فون نويرات الذي بقي سادرا في اتباع النظم الرتيبة ولم يتحفز لتجاوزها واحباط محاولات غريمه فون ريبنتروپ. الا انني لاحظت تدخل مكتب الاخير في شؤون وزارة الخارجية ونبهت هتلر بشأن التضارب الحاصل بين وزارة الخارجية والمكتب المذكور.

في الايام التالية قابلت السيد وزير الخارجية البارون فون نويرات بمدينة بايرويت فأخبرته بمحاورتي مع هتلر بشأن فون ريبنتروپ فقال لي:

« كلا. كنت ارجو ان يعين فون ريبنتروپ سفيرا بلندن فهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني بها التخلص منه ومن مكتبه ».

فأجبته بأنني اتفهم مشكلته مع الرجل ولكن ما الذي يمكن ان يقوم به من هذا المنصب المهم؟

فقال فون نويرات ضاحكا:

« انه سيثبت فشله الذريع خلال مدة اقصاها ثلاثة اشهر وعندئذ سينتهي امره ».

فأجبته بأنني سمعت بتردد فون ريبنتروپ بقبول منصب السفير بلندن لأنه يخشى من فقدانه للاتصال المباشر مع هتلر.

فأجابني فون نويرات :

« ان هذا امر ممكن ولكنه سوف لن يدع فرصة هذا العرض تفلت من يده لأنه يعلم بأن هذه الفرصة سوف لن تتكرر ».

عندئذ انهيت المحادثة القصيرة بقولي:

« لكن هذه ستكون صفقة باهظة ».

وقلت في نفسي ان هذه المسألة تستحق الكثير من التأمل.

لم يعـاود هتلر الالحـاح علي لقبول سفارة لندن لأن الوزير فون نويرات حبـذ له ترشيح فون ريبنتروپ . والمؤسف ان سير الحـوادث التأريخية اثبـت خطل رأي فون نويرات وسطحية تفكيره . فلا قلت قيمة فون ريبنتروپ بنظر هتلر بعد اشتغاله بسفارة لندن ولا تمكن البارون فون نويرات من التخلص من ذلك المكتب المتسلط على وزارة الخارجية حتى بعد ابتعاد فون ريبنتروپ عنه بحكم اشغاله لمنصبه الجديد . وانما على العكس من ذلك اصبح فون ريبنتروپ بنظـر هتلر اكثر خبرة بمعرفـة الشؤون البريطانية.

وليس ادل على ضحـالة تفكير فون ريبنتروپ من المثال التالي (وهو مذكرة ارسلت من قبله آنذاك ووجدت ضمن وثائق وزارة الخارجية الالمانية بعد الحرب العالمية الثانية) الذي نعرضه للقاريء الكريم :

السفارة الالمانية بلندن في ٢ كانون الثاني ١٩٣٨

مذكرة للزعيم :

« نرى ان التعامل مع بريطانيا من الآن فصاعدا لابد ان يتم بانشاء حلف مضاد لبريطانيا بصورة مكتومة والتعامل معها بمنتهى القسوة. وبهذه الوسيلة وحدها يمكننا التصدي لبريطانيا اذ اننا يجب أن نأخذ في حساباتنا بأنه سيأتي اليوم الذي نتوازن معها من حيث القوة او ندخل معها في نزاع ».

والآن ما هو قول وزير الخارجية الالماني ازاء هذه السياسة ؟ ومن هي الدولة المقصودة لتكون حليفة المانيا في مناهضة بريطانيا ؟ ان المؤسف هو ان يكتشف المرء للوهلة الاولى اخطاء كثيرة وادلة على الخواء والاستهتار في هذه الكلمات القليلة.

لقد كان من رأي فون ريبنتروپ ان الامبراطورية البريطانية قد تجاوزت نقطة الارتقاء واصبحت عاجزة عن التدخل بقوة السلاح ضد الترتيب الجديد الذي تبغي المانيا اقامته في اوربا ولذا فانها غير جادة في التصدي لعدوان هتلر على كل من براغ وپولندا • وللمرء ان يقدر مدى الخطأ المثير للسخريه الذي انطوت عليه تلك التقديرات التي قدمها المقربون من هتلر بشكل يتفق مع افكاره فقادنا معه الى الكارثه بايحاء من فون ريبنتروپ واضرابه•

وبعد أيام قليلة من توقيع اتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ استدعى هتلر الى برختسغادن السيد ليوپولد زعيم النازيين النمسويين ومعـه عدد من زعمـاء الحركة واخبرهم جميعا بأنه جـاد تماما في التمسك بالاتفاقية المعقودة مع النمسا وان عليهم من جانبهم مراعاة الضبط وعدم اثارة اية قلاقل في البلاد• وان مهمتهم اعتبار مسالة الوحدة قضية داخلية تخص النمسا وعليهم التصرف على هذا الاساس•

كانت هذه الاوامر مخيبة لآمال اولئك النازيين ومفاجئة لهم بالوقت نفسه • لكنهم صبروا على مضض لأن زعيمهم عودهم على الطاعه وعدم انتقاد قراراته • ووجدوا ان عليهم التمسك بالضبط•

اما فون شوشنيغ فقد اعتبر اتفـاقية ١١ تموز ١٩٣٦ مجرد « فترة لاسترداد الانفاس » وقال انه وجد ان من الضروري اقنـاع المانيا مرحليا بالاعتراف بحقيقة كون النمسا قطر الماني لقاء اعترافها باستقلال بلاده وتمتعها بحق السياده•

لكنه لم يتطلع ابدا نحو الانطلاق من المفاهيم الواردة في تلك الاتفاقية للمضي قدما في الخطوات التكميلية الاخرى لتحقيق الوحدة المنشودة بين البلدين لانه كان يعتبرها وثيقة لدفع البلاء بين نظام حكمه ونظام الحكم النازي المتناقضين من حيث الاساس•

كما ان الجانب الالماني الذي كان يتطلع نحو الوحدة الشاملة لم يقبـل هو الآخر باعتبار تلك الاتفاقية منطلقا للوحدة او محـاولة تمهيدية لوضع

الوحدة موضع التنفيذ.

وعلى الرغم من عدم رغبة النازيين في الخضوع لنظام دستوري. الا انه ونظام فون شوشنيغ اعتبرا هـذه الاتفاقية وثيقة وقتية لاقرار السلام بينهما دون التزام أي منهما باتباع نهج ديموقراطي. ويمكن للمتفائلين بالاتفاقية جعلها مجرد اساس لفتح الحوار بشأن الوحدة المنشودة.

اما بالنسبة لآراء هتلر في تلك الفترة فلا يمكن الزعم بأنه يمكن ان يتنازل ولو جزئيا عن فكرة الوحدة بالاعتراف باستقلال النمسا . لأن موضوع الوحدة لا يمكن ان يفرط به أي رجل من رجال الدولة الالمانية في ذلك العهد. وكل ما في الامر هو انه ظل يتحين سنوح الفرصة في خضم التعقيدات الدولية من اجل تحقيق الوحدة . وهكذا جعل فترة السلام التي اتاحتها له الاتفاقية مع ڤينا دليلا على حسن نواياه . وكان ما قاله لليوپولد هو الحل الامثل لكلا الطرفين في تلك المرحلة . اذ منع تدخل الحزب النازي النمسوي في شؤون الحكومة النمسوية على الرغم من ان ذلك الحزب هو وسيلة التدخل الفعالة الوحيدة لصالحه في القضايا الداخلية للنمسا . وكان فون شوشنيغ سعيدا بفترة الهدنة التي اتاحتها له تلك الاتفاقية مع النازيين النمسويين .

وقد قال فون شوشنيغ فيما بعد انه اعتبر وزير خارجيته غويدو شميت شخصا محسوبا على القوميين الالمان بنظر حكومة المانيا وانه يشغل منصبه وينحاز لالمانيا.

ولربما كان الدكتور شميت في عام ١٩٣٦ ضعيف الشعور القومي كما وصفه رئيسه المباشر ولكنني اعلم بحكم تعاملنا المستمر معه آنذاك بأنه على الرغم من عدم تفكيره تفكير القومي الالماني الغيور الا ان الصورة التأريخية المتكونة لديه كانت مطابقة تماما للصورة المتكونة عندي وتتلخص هذه بأن الوحدة بين البلدين يجب ان تتم وفقا لأسس التعاون الالماني والاوربي.

ولما أحيل الدكتور شميت الى المحاكمة فيما بعد تكلم عني بكره شديد ولعله ظن بأن هذا المسلك سينقذ حياته ولكنني أربأ بنفسي عن مقابلته بالمثل

بدافع الانتقام لأن علاقاتنا بقيت على الدوام ودية الى ابعد الحدود . ولأنني اعلم بأن الدكتور شميت لم يقم خلال وجوده ببرلين بالدور المغلوط الذي أراده شوشنيغ أن يلعبه.

وبعد ان استعرضت هذه الحقائق ارى من المفيد ان تتساءل .

من من طرفي الاتفاقية كان وطيد الامل بأنه سيتمكن من تضليل نظيره؟

بعد ان تمت المصادقة على الاتفاقية اعلنت الحكومة النمسوية العفو العام عن سجنائها السياسيين . وقد بينت الارقام مدى الاساليب القسرية التي مارسها فون شوشنيغ للايقاع بخصومه السياسيين من قوى المعارضة عندما شمل العفو ١٧٠٤٥ شخصا كانت تهم ١٢٦١٨ منهم تافهة لدرجة لا تستوجب الاعتقال . وخففت احكام السجن المؤبد على ١٢ سجينا من ٤٦ محكوم . وبعد بضعة اشهر اعلن المستشار فون شوشنيغ بأنه سيطلق سراح ١٥٥٨٣ شخصا في مدة اقصاها ١ كانون الثاني ١٩٣٧ وقد ذكرت في التقرير الذي رفعته لهتلر بهذه المناسبة ان جميع الاوساط النمسوية رحبت بالعفو واعتبرته دليلا على رغبة الحكومة النمسوية باقرار السلام.

في بداية تشرين الاول ١٩٣٦ نشبت ازمة شديدة بين الحكومة النمسوية والجيش الاقليمي عندما طالب فون شتارهمبيرغ المستشار بأحالة نائب المستشار السابق اميل فاي الى المحاكمة وطلب منه ايضا جعل القوات شبه النظامية الاخرى بأمرته هو . ويبدو ان فون شتارهمبيرغ يحاول منذ اغتيال المستشار السابق دولفوس ان يجعل لنفسه مكانة متميزة .

فبعد حل تشكيلات الحزب الاشتراكي الديموقراطي المسلحة اصبحت قوات الجيش النظامي وقوات الجيش الاقليمي هي التشكيلات المسلحة الوحيدة في النمسا وازداد نفوذ فون شتارهمبيرغ بصورة تدريجية . ثم انه ما لبث ان ازاح منافسه الخطير الرائد اميل فاي من منصب مدير الشرطة العام.

وكان فون شتارهمتيرغ يطمح بالتعاون مع موسوليني الحصول على

منصب الوصي على عرش النمسا • الا ان تقربه من ايطاليا جعله معرضا لخوض نزاع مرير مع المستشار فون شوشنيغ الذي كان وثيق الارتباط بالحلفاء الغربيين لدرجة يخشى بها على بلاده من تكرار التجربة الفاشية وكان موقف الجيش الاقليمي النمسوي كما راقبته عن كثب موقف المناهض والعقبة الكؤود ضد ازدهار علاقات الصداقة مع المانيا • الا انني لاحظت آنذاك بأن المستشار الاتحادي يعامل القائد فون شتارهمبيرغ بكثير من الشك والحذر•

سلك فون شتارهمبيرغ في تلك الفترة سلوكا شرعيا وأراد ان يكسب هذه الازمة لصالحه على الرغم من عدم ثقة الملكيين به وبالمستشار فون شوشنيغ ولما حاول فون شتارهمبيرغ في كانون الاول ١٩٣٥ التقرب من المطالب بعرش النمسا الامير اوتو فون هابسبورغ بقيت محاولاته بلا نتيجة ايجابية • لكنه لم ييأس واستمر على توجيه اعوانه لتدبير مسألة توليه الوصاية على عرش النمسا والسعي لدى آل هابسبورغ لكسب ثقتهم • وقد اراد فون شتارهمبيرغ تقوية مركزه بعد ان تسنم صديقه فون بيرغر وزارة الخارجية• لكن هذه المحاولة لم ترق بطبيعة الحال للمستشار الاتحادي الذي كان يسعى لتحديد قوة الجيش الشعبي وليس الى تقويته• وفي ربيع ١٩٣٦ شرع المستشار النمسوي بتقليص أسلحة تشكيلات الجيش الاقليمي لأنه وجد نفسه قويا لدرجة يمكنه معها التصدي لأية مقاومة يحاولها فون شتارهمبيرغ•

وبعد اختتام الحملة الايطالية على الحبشة شرع موسوليني بالتقرب من المانيا وتقوية علاقاته بها وعندئذ اتيحت الفرصة لشوشنيغ لكي يقلم اظفار غريمه فون شتارهمبيرغ بينما قام الأخير بآخر محاولة لاستعادة كرسيه الوزاري •

الا أن فون شوشنيغ أحبط تلك المحاولة واتخذ قرارا بحل تشكيلات الجيش الاقليمي في تشرين الاول ١٩٣٦ ولم ينجم عن ذلك الاجراء أي رد فعل في البلاد•

لقد استغل المستشار النمسوي الفرصة المناسبة للتخلص من فون

شتارهمبيرغ واميل فاي وغيرهما. فالنمسويون يريدون السلام مع المانيا وهم يؤمنون بزعامة فون شوشنيغ في سبيل تحقيق هذه الأمنية .

وفي ١٩ تشرين الأول ١٩٣٦ أقيم احتفال كبير أقسم به ١٠٠٠٠ مكلف في الجيش النمسوي يمين الولاء بحضور ممثلي الدول الأجنبية وكان بينهم السفير الفرنسي الذي أبدى اقتناع الدول الغربية باعلان النمسا للتجنيد الالزامي .

في ٣ تشرين الثاني اجرى المستشار فون شوشنيغ تعديلا وزاريا مريبا عندما اقصى بعض الوزراء المعروفين بصداقتهم لالمانيا بوزراء من غيرميالين للتعاون مع المانيا . واصبح السيد فون نوي شتيدتر شتورمر الوزيرالجديد للامن وهو رجل سبق ان وصف هتلر بأنه دعي يتكلم بلهجة ريفية . ولم يكن من الواضح لدي عما اذا كان شوشنيغ سينجح في ترتيباته الجديدة الا انني بقيت اتوقع منه التظاهر بحسن النوايا ازاء المانيا . وقد أكد لي المستشار النمسوي بأن وزير الامن الجديد سيقوم بتوجيه جهاز الشرطة نحو التعاون الوثيق مع العناصر القومية لكنه رجاني بالوقت نفسه أن أؤكد لهتلر بأن التقدم في مجال التعاون يتطلب الصبر ويحتاج الى العمل الوئيد . واستلم السيد فون غلايزه هورستيناو منصب وزير الداخلية الجديد ووجب عليه التأثير على وزير الشرطة واستمالته الى جانبه. وعلى الرغم من كون السيد فون غلايزه معروفا بحماسه القومي وميله لتحقيق الوحدة الا انه رفض الانتماء للحزب النازي.

قام وزير الخارجية النمسوي الجديد الدكتور شميت بزيارة رسمية لالمانيا خلال النصف الثاني من شهر تشرين الثاني ١٩٣٦ وكنت قد اقترحت عليه القيام بتلك الزيارة لاجراء اتصالات مباشرة مع كل من هتلر والوزير فون نويرات لكي يتوصل معهما الى الحلول المناسبة للمعضلات الاقتصادية.

فعلى الرغم من وقوع النمسا في قلب اوربا ومفترق الطرق الا انها كانت تفتقر للاموال الضرورية لانشاء شبكة الطرق التي تحقق لها الازدهار .

كما انني اقترحت لتوسيع نطاق التبادل التجاري اللجوء الى اساليب

هيالمار شاخت باصدار قروض داخلية صغيرة ومتعـددة . وقد أخبرت برلين مسبقا برغبة الدكتور شميت في تبادل بيانات ودية بين البلدين من اجل تقوية العلاقات القائمة وانه نفسه يود التحدث بشأن المكاسب التي حققتها الحكومة النازية في المانيا مع الزعيم هتلر ومع اعضاء حكومته اذا ما ضمنا له تقديم المسؤولين الالمان ملحوظات اطراء مشابهة للحكومة النمسوية القائمة . اما بشأن الوحدة فقد ذكرت لبرلين بأن الوزير النمسوي سيتطرق في مباحثاته لجميع المعضلات التي تعتور هذه القضية وانه ينتظر قطع شوط آخر بعد تحسن الموقف الداخلي في النمسا وتحسن الموقف الخارجي وانه سيحمل للزعيم هتلر اطيب اماني المستشار النمسوي.

وانه سيشير الى الايام السالفة الجميلة التي خدم بها صاحب السعادة المستشار الاتحادي كجندي شجاع على نهر الراين ضمن جيش امبراطورية النمسا والمجر الذي كان حليفا للجيش الالماني. وقد كتبت لهتلر بهذه المناسبة:

« انني على ثقة من ان المستشـار الاتحادي ينتظر هو الآخر سنوح فرصة ملائمة ليطرينا قليلا».

أيد هتلر مقترحاتي وحظى الدكتور شميت بزيارة ناجحة قابل خلالها هتلر وغورنغ اللذين استقبلاه بمودة ظاهرة. وقد اتيحت له خلال حفلات الاستقبال والولائم التي اقيمت على شرفه فرصة التحدث الى جميع الوزراء وكبار المسؤولين الرسميين وقادة الحزب النازي تقريبا بحيث تكونت لديه صورة جديدة تماما عن القضية الالمانية ـ النمسوية . ولما سئل بعدئذ عند احالته للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى عما اذا كانت المانيا قد حـافظت على الالتزام باتفاقية تموز ١٩٣٦ أجاب بالايجاب.

عرض البارون فون نويرات في تلك المناسبة على الدكتور شميت ضرورة قيام النمسا بالانسحاب من عصبة الامم هي الاخرى الا ان ممارسة مثل هذه السياسة من قبل دولة صغيرة يعتبر امرا خارجا عن الصدد وعليه فان هـذا الطلب لم يكن له ما يبرره بالاضـافة الى كونه مصدر احراج للمستشـار

النمسوي. ولما عاود فون نويرات علي الطلب لتكرار المحاولة رفضت مفاتحة الحكومة النمسوية بهذا الشأن تجنبا لاحراجها.

والرغبة السياسية الوحيدة التي حققتها بناء على طلب برلين في تلك الفترة توافقا مع الأجماع الاوربي هي مفاتحة فون شوشنيغ والدكتور غويدو شميت بشأن الاعتراف بنظام فرانكو والوقوف منه موقفا ايجابيا في نضاله المصيري ضد الثوار الشيوعيين.

وقد حز في نفسي كثيرا عندما لاحظت ان حكومة النمسا الكاثوليكية غضت النظر عن تجارة الاسلحة المحرمة التي مارسها صاحب مصنع السلاح والعتاد النمسوي فريتزماندل[1] الذي زود اللواء الدولي بحاجته من الاسلحة والاعتدة . وقد لاقت هذه الرغبة ترحيبا من المسؤولين النمسويين.

اما زيارة الدكتور شميت فقد تمخضت عن عقد بروتوكول غير معلن تضمن النقاط التالية :

١ ـ اتفقت الحكومتان على النضال المشترك ضد التهديد الشيوعي من اجل تحقيق امن اوربا وسلامها.
٢ ـ التعاون الاقتصادي الممكن بين البلدين.
٣ ـ تنفيذ اتفاقية تموز ١٩٣٦ والاهتمام بالجالية الالمانية في النمسا وتوسيع التبادل الثقافي بين البلدين . والتوقف عن تبادل الحملات الصحفية وتوسيع العلاقات الاقتصادية وتحسين خطوط المواصلات بين البلدين ومعالجة مشكلة النمسويين اللاجئين الى المانيا.

وقد علق البارون فون نويرات على البروتوكول المذكور بأنه كان يرغب اضافة فقرة تشير الى ضرورة تعجيل الحكومة النمسوية بالتساهل مع النمسويين المتعاطفين مع المانيا لقاء اخلاص النازيين الألمان في تنفيذ اتفاقية

---

(١) هو صاحب مصانع هنتربيرغ للاسلحة خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين وهو ايضا الزوج الاول للفنانة المشهورة هيدي لامار .
ـ المترجم ـ

تموز ١٩٣٦ .

لم تنته زيارة الدكتور شميت لالمانيا بالشكل الايجابي المطلوب دون منغصات جديدة ذلك لأن المستشار النمسوي القى خطابا في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٣٦ بمدينة كلاغنفورت قال فيه ان الجبهة الوطنية تواجه ثلاثة أعداء أولهم الشيوعية وهو لا يخشاها وثانيهم النازية وثالثهم الانهزامية المتفشية في اوساط محدودة. وخلص الى نتيجة مفادها انه سينصرف لمقاومة النازية النمسوية التي قال انه يعتبرها الخصم اللدود للحكومة النمسوية وللوطن.

تلقيت في الايام القليلة التالية برقية من وزير الخارجية الالماني البارون فون نويرات تتضمن استغرابه لسلوك المستشار النمسوي لأن خطابه الاخير ينسف التحسن الذي طرأ على العلاقات القائمة بين البلدين نتيجة لزيارة الوزير النمسوي غويدو شميت. وقال في برقيته متسائلا:

« هل يظن المستشار النمسوي انه قادر حقا على تحسين علاقاته مع المانيا في الوقت الذي يضطهد به النازيين النمسويين ؟»

وقال فيها ايضا ان خطاب المستشار النمسوي جعل الزيارة المقابلة التي ينتظر ان يقوم بها وزير الخارجية الالماني لقينا غير ممكنة في ذلك الوقت.

وقد حاولت في اجابتي لهتلر على تلك البرقية ايجاد المبررات المقنعة التي حدت بالمستشار للجوء الى هذا المسلك فقلت انه اراد تعزيز الجبهة الوطنية واستمالة العناصر الاخرى المناهضة للنازية مرحليا .

اما شوشنيغ نفسه فقد عرض اسفه كثيرا لعدم تفهمنا لمقصده.

اخبرت هتلر بأنني احتججت بشدة على المستشار النمسوي لهذا العمل المنافي لروح الصداقة وبخاصة بعد التقارب الذي شرعنا به بكل اخلاص وقلت له بأننا لا نقبل منه أية محاولة لاتخاذ اتفاقية تموز ١٩٣٦ واجهة لتمرير سياسته الداخلية المعادية لالمانيا . وقلت له ان شوشنيغ اجابني بأنه لن يتجاهل ابدا حقيقة انتساب الشعب النمسوي للامة الالمانية وارتباط مصيره التأريخي بها. الا انني ذكرت لهتلر بهذه المناسبة ايضا ان قيادة الحزب النازي النمسوي

يبدو عليها الاضمحلال الواضح بعد قيام زعيم الحزب ليوپولد بتنحية عدد كبير من اعوانه الاكفاء نتيجة لانتقاداتهم الشديدة له.

في هذا الوقت بالذات نقل من سفارتي مستشار السفارة الامير ارباخ الى منصب قنصل المانيا في اليونان فخسرت بنقله معاونا رائعا ورجلا مخلصا ذكيا مما حز في نفسي كثيرا . ونقل محله مستشار السفارة في براغ البارون فون شتاين وكان هذا انتهازيا تسلق سلم الوظائف الدبلوماسية وثباً فوصل للمنصب المرموق خلال فترة قصيرة . وقد كشف استيلاء الحلفاء على وثائق وزارة الخارجية الالمانية بعد الحرب العالمية الثانية عن حقيقة مؤلمة عندما ظهرت بين الوثائق التي استولت عليها بريطانيا ان البارون فون شتاين كان يرسل تقارير سرية كثيرة الى وزارة الخارجية الالمانية من وراء ظهري يؤيد فيها نشاط ليوپولد ويعتبره بطلا قوميا ووطنياً غيورا وهي تقارير مناقضة تماما لما كنت اكتبه عن ذلك الرجل بالذات في تلك المرحلة وهذه حالة مؤسفة تدعو للرثاء لأنه ما كان ليكتب امثال تلك التقارير دون موافقة او تشجيع من وزارة الخارجية الالمانية اولا ولأن الحقائق اثبتت خطل آرائه وصحة آرائي ثانيا .

كما ان تقاريري كلها كانت تتضمن التحذير من مغبة نشوب أي نزاع او خلاف بين الحزب النازي النمسوي والكنيسة الكاثوليكية .

بينما جائت تقارير البارون فون شتاين مفعمة بالتحريض على رجال الكنيسة والتحامل عليهم . وكانت هذه المشكلة بالغة الاهمية بالنسبة للنمسا لأن الفاتيكان اشفق على النمسويين الكاثوليك من الوقوع تحت وطأة النظام النازي الذي عانى من تعسفه قبلهم اخوانهم الكاثوليك الالمان . ولم تقدّر الكنيسة امكانية تقوية الكاثوليك لبعضهم البعض بفضل الوحدة المنتظرة بين البلدين لأنها كانت تتوجس خيفة من التعامل مع نظام هتلر.

لقد حاولت منذ تسنمي منصبي في ڤينا حل هذه المشكلة فسلكت كل السبل المتاحة وحققت اتصالات واسعة مع زعماء الكنيسة الكاثوليكية في النمسا وبخاصة مع الاسقف الدكتور الواز هودال وجلبت انتباههم جميعا

نحو المزايا التي تحققها الوحدة الالمانية ـ النمسوية لصالح الكنيسة . كما انني توسطت بالوقت نفسه لدى هتلر لاجراء مصالحة مع الكنيسة النمسوية من اجل الاستفادة من الحماس الذي تتميز به في مكافحتها للشيوعية . الا ان مساعي المصالحة ذهبت ادراج الرياح نتيجة لتأثيرات غوبلز وبورمان على هتلر اللذين لم يتركا اية فرصة دون ان ينالا من فعالياتي ويندا بجهودي كلما استطاعا ذلك.

كان رد فعل الكنيسة قويا نتيجة لحادثة معينة مفادها ان الاسقف الدكتور الواز هودال الف كتابا بعنوان «القلب المحترق» واهدى نسخة منه الى هتلر فقدمتها له شخصيا وتقبلها شاكرا وسعيت لتوزيع الفي نسخة من ذلك الكتاب على المسؤولين الالمان فاثار توزيعه عاصفة من الانتقاد ضدي وضد ذلك الاسقف المحترم.

أصيب الاسقف هودال بخيبة أمل شديدة لكنه مع ذلك وجه لي شكرا جزيلا للمساعدة القيمة التي اسديتها له وللخدمة المخلصة التي قدمتها للكنيسة وقد أشار البابا پيوس الحادي عشر في مفكرة عام ١٩٣٧ الى اليأس الشديد من عدم احتمال تحسن العلاقات بين الكنيسة والحكومة الالمانية . والواقع ان هيئة رجال الدين النمسويين اتخذت قرارا جازما لمقاومة أي تقارب مع المانيا آنذاك.

ولقد برزت في تلك الفترة ضرورة اقناع هتلر بأن قضية النمسا تعتبر القضية الاساسية في وسط اوربا وان وسط اوربا لن يستقر بشكل ملائم لصالح المانيا ما لم تعالج هذه القضية بحصافة وحكمة.

في ١٢ كانون الثاني ١٩٣٧ كتبت في تقريري الشامل لمنجزات سنة ١٩٣٦ ما يلي:

يبدو ان من الضروري اعطاء صورة شاملة عن التطور السياسي الذي حصل في وسط اوربا خلال العام المنصرم بقصد التوصل الى القرار الواضح بشأن النهج السياسي المقبل. وتفصلت في اول الامر في تمحيص الحالة

السياسية الداخلية في النمسا وصولا الى فكرة المستشار شوشنيغ في وضع الأسس الراسخة للدولة النمسوية المستقلة الا انه لم يفلح الا في اقامة نظام هزيل لأن فكرته تفتقر لقوة الجاذبية • وقد اعترف لي المستشار في كانون الاول ١٩٣٦ بأن الدور القيادي الذي مارسته فينا عبر التأريخ لابد ان تتخلى عنه الآن لصالح برلين وانه على اتم الاستعداد لتوجيه القوى النمسوية نحو النضال من أجل استعادة أمجاد الأمة الألمانية وتبوءها مكانتها المرموقة بين أمم العالم•

فقلت له ان هذا متوقف على شرطين : فنحن كما اوضح الزعيم هتلر يجب ان نصفي الاختلافات التأريخية القائمة بيننا وبين فرنسا لكي يتسنى لنا القيام بدورنا في المستقبل والذي سيكون في جنوب شرق اوربا • والنمسا بحكم تأريخها المجيد وموقعها الجغرافي وامكاناتها المتاحة مؤهلة تماما للنهوض بهذه المهمة • وعليه ـ شوشنيغ ـ ان يسمح بانطلاق الخصائص النمسوية المتأصلة في نفوس ابناء الشعب منذ آلاف السنين والا يحجم عن توطيد علاقاته مع برلين • ثم انالنمسا من البلدان المسيحية الكاثوليكية وهذه حقيقة لا سبيل لتجاهلها وليس من المعقول ان يحاول هتلر تجريد النمسا من صفتها الدينية • ولكي نحقق الشرطين الآنف ذكرهما فلابد من تعاون وثيق بين النمسا والمانيا •

ويبدو ان اتفاقية جبهة ستريزا التي انشأتها الدول الغربية مع النمسا قد تقوضت بعد ان انحازت ايطاليا بدرجة قلت أم كثرت نحو المانيا بصورة تدريجية • وهذه حقيقة تجعل مسألة الوحدة الألمانية النمسوية تعتورها مصاعب اقل من تلك التي كانت منتظرة في العام المنصرم وعلينا مواصلة تطوير مساعينا السلمية بهذا الاتجاه•

ويجب ان نبذل اقصى درجات الحرص لتوطيد العلاقات الالمانية النمسوية دون السماح بحصول اية انتكاسة في تلك العلاقات بالمستقبل• ويجب ان نوضح لقادة الحزب النازي النمسوي بأن تطوير العلاقات بين النمسا والمانيا ليس من مسؤوليتهم وانما من مسؤوليتنا وعليهم الامتناع عن

ممارسة اية فعاليات من شأنها تكدير العلاقات الالمانية النمسوية • وكررت بهذه المناسبة ما سبق ان ذكرته بالتفصيل بهذا الخصوص مركزا على ضرورة اصدار تعليمات مشددة للحد من اثارة اية تناقضات او صراعات مفتعلة بين الحزب النـازي والكنيسة تجنبـا لاثارة حفيظة المتدينين في العالم المسيحي وتحريضهم على مناهضة النظام القائم في المانيا وبالتالي احبـاط مساعينـا السياسية والدبلوماسية في شتى المناسبات•

التزم النازيون النمسويون بتجميد نشـاطاتهم استجابة لتوجيه هتلر وبموجب اتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ الا انهم استبطأوا الاجراءات الوحدويـة التي سارت بشكل وئيـد لم يقبلوا به ولاحظوا بعين الريبـة المسـاعي المشبوهة التي قام بهـا المستشار فون شـوشنيغ لتركيز سـلطته وكسب الوقت على حساب قضية الوحدة • وهكذا توصلوا الى حل مناسب يتلخص بالتظاهر بالتزام القسم الاكبر من عناصر الحزب وبخاصة العناصر القيـادية المعروفة بروح اتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ والامتنـاع عن ممارسة أية نشاطات علنية لمناهضة النظام القائم في النمسا بينما تستمر مجموعة صغيرة من انصار الحزب ــ توصم بالتطرف ــ بممارسة نشاطات معادية لنظام فون شوشنيغ لدرجة تجعله عرضة للقلق الدائم بينما ينكر الحزب النازي النمسوي علاقته بها او علاقتها به في المناسبات الرسمية•

وأرى من المفيد بهذا العرض الاشارة الى طبيعة الرجل الذي أثارالكثير من القلاقل في النمسا خلال تلك المرحلة واعني به النقيب ليوپولد الذي كان جنديا خلال الحرب العالميـة الاولى ونال ترفيعا استثنائيا الى رتبة ضابط بفضل شجاعته المتميزة الا أن ثقافتـه كانت محدودة وكان معروفا بالعنـاد وشدة المراس حيث كان بتفكيره وممارساته غبيا بشكل ظاهر•

ولما وصل الحزب النازي الى السلطـة في المانيا تحفز ليوپولد بدوره ليلعبدور هتلر فيبلاده• وقد حدثنيأحد كبار موظفيدار المستشارية النمسوية الذي عقدت معه صداقة متينة فيما بعـد بأن ليوپولد كان يستشيره دوما استحضارا لتولي منصب المستشار النمسوي• وكان هذا الموظف يشغـل

وظيفة مدير ادارة مجلسي الاعيـان والنواب في عهد المستشـار السابق دولفوس.

وقد قال لي ان من الواضح لديه بأن المستشار دولفوس كان يحذو حذو المانيا ويسعى لأنشاء نظام مستقل. ولو تمكن ليوپولد من التوصـل الى تفاهم مع دولفوس فلربما كان للعلاقات الألمانية النمسوية مسارا آخر .

ثم ان ليوپولد كان يحظى بتأييد الاغلبيـة من النازيين النمسويين المتطرفين ويسيطر تماما على فعاليات الجناح المعتـدل من الحزب الذي يمثله تافس والدكتور راينر والذي كان يؤمن بضـرورة الاستمرار على تنفيـذ الخطوات السلمية المتتابعة لتوحيد النمسا مع المانيا .

تمكنت في شباط ١٩٣٧ من ايضاح الخطوات المهمة في المجال السياسي لهتلر حيث قلت له بأن فون شـوشنيغ عازم على عقد المؤتمر السابع لرجال المعارضة برئاسة الدكتور يوري وهو نازي معتدل ووطني غيور وقد دعى من النازيين ايضا الدكتور تافس والاستاذ مينغهين العالم المعروف في جامعة ڤيناه وسنسمع وشيكا عن فعاليات هؤلاء السادة.

« اننا نعترف باستقلال النمسا لاسباب تتعلق بالامر الواقع وسنتصرف على هذا الاساس . وهذا أمر اكدته مباديء الجبهة الوطنية وأقره دستور سنة ١٩٣٤ ».

وخلصت في تقريري المذكور الى التأكيد لهتلر الى ان المستشار الاتحادي فون شوشنيغ يتوقع صعوبات شديدة ستأخذ بخناقه وشيكاه



الفصل الرابع والعشرون

آمالٌ وتضليلاتٌ



آمال الربيع . زيارات دولية . زيارة البارون فون نويرات لفينا .
الشرطة النمسوية تستولي على وثائق . هتلر يستدعيني الى برلين.
محادثتان مع الزعيم. قرارات فون شوشنيغ. حادثة آل هابسبورغ.
صعوبات مع المؤتمر السابع . زايس انكوارت اصبح امين السر
العام للدولة . الموقف يزداد حراجة . تاليف لجنة مشتركة . مظاهرة
في ويلز . موسوليني في المانيا . شميت وغورنغ . سفرة الى باريس.

رد فعل شوشنيغ . منعت ليوبولد من دخول السفارة . الشرطة
تتدخل . ازمة في الجيش الالماني .

أطلت تباشير السلام مع مطلع سنة ١٩٣٧ حيث اظهر زعماء الدول الاوربية رغبة حقيقية في معالجة المشكلات القائمة بروح التعاون والاخاء كما تبين من الالعاب الاولمبية التي عقدت ببرلين في سنة ١٩٣٦ ان المانيا نفسها تتطلع نحو اقرار السلام ولا تحاول تعكير صفوه . ألم يقل هتلر في خطابه يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٧:

« لقد ولى عهد المفاجآت واصبح السلام اقصى امانينا».

والواقع اننا لاحظنا خلال النصف الاول من عام ١٩٣٧ مدى حرص المانيا على تقوية أواصر الصداقة مع الدول الاخرى وبخاصة مع فرنسا. وكانت هذه التهدئة مدعاة لضمان تحسن العلاقات الالمانية ـ الفرنسية. وقد حدث للمرة الاولى في تأريخ البلدين ان دعي في مايس ١٩٣٧ عدد من فرسان الجيش الالماني الى باريس للمشاركة في الاحتفالات امام الجمهور الفرنسي. وفي الشهر نفسه افتتح هيالمار شاخت الجناح الالماني في معرض باريس الدولي. وفي حزيران من العام نفسه تم افتتاح معرض الفن الفرنسي ببرلين.

وعندما اقيم في هامبورغ مؤتمر (السعادة والعمل) من قبل جبهة العمل الالمانية دعي اليه ممثلون عن العمال الفرنسيين. وكانت احتفالات تتويج الملك جورج السادس بلندن مناسبة اخرى لامكانات تبادل وجهات النظر على المستوى الدولي. والمؤسف ان معارضة سفيرنا فون ريبنتروب لايفاد وزير الخارجية البارون فون نويرات ادت الى تسمية المشير فون بلومبرغ وزير الدفاع رئيسا للوفد الالماني في تلك الاحتفالات حيث اتخذ ارسال هذا القائد العسكري دليل على تنامي قوة المانيا العسكرية. كما ان فون ريبنتروب كان قد كبا كبوة اخرى في غير صالح بلادنا عندما وطد علاقاته الشخصية مع الملك ادوارد الثامن[1] ووجهت له بعدئذ اهانة لشخصه لتجاوزه قدر نفسه. وكانت فكرة فون ريبنتروب عن بريطانيا انها امبراطورية سائرة نحو الاضمحلال وان بمقدور هتلر تزعم اوربا دون ان يتوقع من بريطانيا مقاومة جادة لمحاولته.

والاسوأ من ذلك كله ان المحيطين بهتلر لم يظهر بينهم فرد واحد يفند

---

(١) كان الملك ادوارد الثامن قد اصر على الزواج من المطلقة الامريكية مسز سمبسون خلافا لتقاليد البلاط الامبراطوري العريقة فثار عليه البرلمان ورئيس أساقفة كنتربري واضطر في ختام القضية للتنازل عن العرش لاخيه الاصغر الملك جورج السادس (والد ملكة بريطانيا اليزابيث الثانية) مكتفيا بلقب (دوق وندسور). ـ المترجم ـ

هذه الاسطورة التي دأب فون ريبنتروپ على ترديدها بتؤدة حتى جعله يؤمن بصحتها.

في نيسان ١٩٣٧ قام هرمان غورنغ بزيارة رسمية لروما ظهر فيها بدور (ولي عهد زعيم الحزب النازي) اذ كان يشغل الى جانب رئاسة مجلس وزراء ولاية بروسيا منصب وزير النقل الجوي ورئيسا لادارتي الغابات والصيد ورئيسا لمجلس النواب بالاضافة لرئاسته لمشروع السنوات الاربع. لكنه لم يقتنع بهذه المناصب كلها وانما دأب على ممارسة هوايته الاثيرة وهي التحدث الى الناس في شتى المواضيع وتدخله بأمور كثيرة تدخل معظمها ضمن اختصاصات وزارة الخارجية . لأن ادعاء المهارة في التفاوض وخوض المباحثات يتيح له فرصة السفر بمهمات معينة للخارج والرجوع للوطن محملا بالهدايا النفيسة التي كان يحبها حبا جما. وسرعان ما تسللت اصابع غورنغ بمرور الزمن الى جميع القدور[٢] فزار وارشو وبلغراد وبودابست تباعا

الا أنه غض النظر عن زيارة النمسا . ومن المؤكد ان السبب الرئيس لزيارة روما هو المناقشة مع موسوليني بشأن الحرب الاهلية الاسبانية[٣] وقد اخبرنا

---

(٢) آثرت الترجمة الحرفية لهذه العبارة لطرافتها . — المترجم —

(٣) شاركت المانيا وايطاليا بالحرب الاهلية الاسبانية الى جانب قوات الرئيس فرانكو بقوات من المتطوعين ظاهريا لكنها استفادت من تلك الحرب بجعلها مجالا لتجربة اسلحتها الحديثة وقد ارسلت المانيا قوة مدرعة وقوة جوية الى اسپانيا سمتها بالاسم الرمزي (وحدة كوندور) وقد ردت اسپانيا هذا الجميل في الحرب العالمية الثانية فارسلت فرقة متطوعين للقتال الى جانب المانيا ضد روسيا سميت (الفرقة الزرقاء) فابلى رجالها بلاء حسنا ثم عادوا الى بلادهم بعد الحرب .

— المترجم —

المترجم شميت[٤] فيما بعد ان محادثات غورنغ مع موسوليني أدت الى تقوية أواصر العلاقات الالمانية الايطالية • وقد ابدى غورنغ ملحوظة لموسوليني مفادها ان الوحدة بين المانيا والنمسا ينبغي الا تكون عائقا في سبيل العلاقات الحسنة القائمة بين المانيا وايطاليا وأكد له بالوقت نفسه التزام المانيا باتفاقية تموز ١٩٣٦ ثم اردف قائلا لموسوليني:

« الا ان الوحدة يجب ان تتحقق ولابد ان تتحقق ••»

ويبدو ان موسوليني فوجيء بهذه الصراحة فأراد ان يتثبت من قول ضيفه وطلب من المترجم شميت ان يعيد له معنى العبارة بالفرنسية على الرغم من اتقان موسوليني للغة الالمانية وتفهمه لها جيداء فلما اعاد شميت ذات العبارة بالفرنسية على مسامع موسوليني كان رده الوحيد ان هز رأسه وكانت قد مضت سنتان ونصف منذ ان حرك فرقه الى ممر برنر مهددا المانيا بالتدخل الى ان هز رأسه في تلك المناسبة• ومما لا شك فيه ان هتلر اخذ في حساباته عدم احتمال تدخل موسوليني عند تحقيق الوحدة بين المانيا والنمسا لأن غورنغ ضمن تقريره لسيده تلك الواقعة بكل تفاصيلها•

ولقد قيل حقا ــ وكما ايقنت انا ايضا ــ ان بريطانيا طالبت في عصبة الامم بجنيف بحجب حصص النفط في الشركات العالمية عن ايطاليا عقابا لها على عدوانها على الحبشة الا ان رئيس وزراء فرنسا بيير لافال عارض مشروع القرار البريطاني• وسرعان ما اهتبل هتلر هذه الفرصة مقدرا وهن الحلفاء نتيجة للانشقاق الذي حصل في صفوفهم وهذه هي الميزة الوحيدة التي ينفرد بها هتلر عن قادة زمانه من السياسيين•

---

(٤) يعد المترجم شميت من اكفا واشهر المترجمين في العالم أجمع لاجادته عدة لغات ولاشتغاله مترجما فوريا لهتلر طيلة فترة عهده وقد الف الرجل كتابا ضمنه ذكرياته ونشره بعد الحرب العالمية الثانية •

ــ المترجم ــ

لكي يقوم الوزير هيالمار شاخت بافتتاح الجناح الالماني بمعرض باريس الدولي فأنه أعد كلمة بالمناسبة قال فيها ان التعاون الاقتصادي بين الأمم هو الضمان الوحيد لشعورها بالامن • وتربطني بشاخت علاقة صداقة حميمة فلما كنت أتردد على برلين بحكم الاستدعاء كنت أعرج على مصرف المانيا المركزي لكي ازوره ولم اقصر قط في تنويره بتطورات الموقف الدولي في كل مرة• لقد كان الفرد الوحيد بين رجال الحكومة الالمانية الذي يتمتع بذهن وقاد ورأي سديد ولم يتورع أبدا عن الادلاء برأيه أمامي بصدد كل معضلة بصراحة تامة • وهكذا فقد تحدثنا مليا بشأن الكلمة التي القاها بمعرض باريس الدولي حيث تطرقت في تعليقي على الخطوط العامة لكلمته الى الشعور بامكانية تحقيق تقارب اكثر مع الوزير الفرنسي ليون بلوم وغيره من السياسيين الفرنسيين واتجهت آرائنا نحو ايجاد وسيلة للاتفاق مع زعماء فرنسا وقال شاخت بهذه المناسبة انه يسعى للتباحث مع هتلر بشأن مشكلة المستعمرات والعمل على اطلاق يد المانيا في اندفاعها نحو الشرق •

وكثيرا ما ردد شاخت مدى اهمية الاقتصاد لتوفير متطلبات برامج التسلح وقال انه جلب نظر هتلر نحو هذه الحقيقة الا ان هذا كان يرد عليه بأنه يعتمد سياسة المحور والحق ان المناقشات المستفيضة التي اجراها شاخت والتي أجريتها أنا أيضا مع قادة الجيش الالماني أمثال الفرقاء فون فريتش وآدم وفون كلوغه والبارون فون غينانت وفون بوك وغيرهم اسفرت عن اقتناعهم بخطورة اللعبة التي يمارسها هتلر • واغلب اولئك السادة كانوا من زملائي ابان عهدي بالخدمة العسكرية•

وبعد تسع سنوات من ذلك التأريخ وقفنا امام محكمة نورمبرغ لنسمع ببروتوكول هوسباخ لأول مرة وهو وثيقة سرية تتضمن المؤتمر الذي عقده هتلر في ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ وحضره كل من البارون فون نويرات وقادة القوات المسلحة الثلاثة وأسر فيه لاولئك السادة ضرورة الاستحضار للحرب وحدد التوقيت المحتمل للتدخل المسلح ضد النمسا وتشيكوسلوفاكيا• وقد سبق ان ذكرت آنفا البواعث التي حدت بهتلر الى تغيير مسلكه

السياسي والتحول السريع نحو الحرب • فقد حرص هتلر على التخلص من القيود التي فرضتها معاهدة فرساي على المانيــا ولكنه كان يخشى من ردود فعل الحلفاء الغربيين الا ان اقدام موسوليني على مغامرته في الحبشة ادى الى انهيار وحدة التعاون الغربي التي تم تحقيقها في مؤتمر ستريزا بينما طفق رئيس الوزراء الايطالي[5] يتودد الى المانيا • وأثبتت عصبــة الامم عجزها التام عن معالجة الازمات الدولية المحدقة بالعالم• وفي هذه الاثنــاء كانت الحرب الاهلية الاسپانية التي تعاونت فيها المانيا مع ايطاليا قد اثبتت ضرورة انشاء جبهة غربية وقوية تتصدى لمطامع هتلر ولكن ردود فعل الحلفــاء الغربيين بقيت واهية•

لا اود الاسترسال اكثر من ذلك مبتعدا عن متابعة قضية النمسا التي نحن بصددها• فقد قرر البارون فون نويرات رد الزيارة لنظيره غويدو شميت والقيام بزيارة ڤينا في شباط ١٩٣٧ • وترتب علي بحكم المنصب الذي أشغله بذل اقصى جهودي لنجاح تلك الزيارة الرسمية بالاضافة للالتزامات الشخصية التي بيني وبين ذلك السيد اللطيف• ولكن المؤسف هو حدوث ما لم يكن بالحسبان اذ قرر الحزب النازي النمسوي القيام بمظاهرات كبرى بمناسبة الزيارة الرسمية التي يقوم بها اعرابا عن رغبة الحزب بتحقيق الوحــدة بين النمسا والمانيا•

ما ان وصلنا الى محطة قطار غرب ڤينا لاستقبال البارون فون نويرات في صباح ٢ شباط ١٩٣٧ الباكر وتحركنا منهــا بموكبنا الى شارع (ماريا هلفه) متوجهين للسفارة الالمانية في زقاق مترنيخ الا ووجدنا انفسنا مطوقين فجأة بآلاف مؤلفة من النساء والرجال شبابا وشيوخا أحاطوا بسيارة فون نويرات ومضيفه شميت احاطة السوار بالمعصم وصاروا يهتفون (تحيا المانيا) و(يعيش هتلر) فنهض اهالي ڤينا من نومهم على اصوات تلك الهتافات المدوية•

---

(٥) بقي موسوليني طوال عهده رئيسا للوزراء في ظل الملكية وكان ملك ايطاليــا آنذاك فكتور عمانوئيل الثاني • — المترجم —

وبدى ان رجال الأمن الكثيرين عاجزون عن القيام بأية فعاليات مضادة لهذه المفاجأة ولم يزيدوا على الاحاطة بسيارتنا وحمايتها عن كثب لأنهم لم يتمكنوا من تعكير مزاج الضيف الكبير باستعمال هراوات المطاط ضد اناس يهتفون لبلاده ولزعيمه.

وكان قد وصل فياللحظات الاخيرة لمحطة القطار المستشار فون شوشنيغ وقرر ان يسلك الموكب طريقا غير المقرر سلوكه لكنه لم يفلت من بعض اولئك المتظاهرين الذين ظهروا في كل مكان على امتداد الطريق المؤدية الى السفارة الالمانية.

كانت مسألة مطالبة آل هابسبورغ بالعودة الى العرش في مقدمة المسائل التي تم بحثها معالوزير الالماني الذي ابدى معارضة عنيفة لعودة الملكية الى النمسا ولو انه اعتبرها مسألة داخلية تخص النمسا ولكنه أخبر المستشار النمسوي بأن بلاده اذا ما أقدمت على اعادة الملكية فان المانيا ستعتبر نفسها في حل من اتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ فأجابه فون شوشنيغ بأن لآل هابسبورغ انصار كثيرين في النمسا وان الحكومة النمسوية تستفيد من حماس اولئكالملكيين لتسوية أية اختلافات داخلية . ومع ان البارون فون نويرات أبدى تفهما لهذا الرأي لكنه قال للمستشار بكل وضوح وصراحة بأن المانيا لا تؤيد مطلقا مثل هذا المسلك لأنه يعني الانتحار السياسيللنمسا. ذلك لأن عودة الملكية للنمسا من شأنها تهديد وجود كلا منتشيكوسلوفاكيا ويوغسلافيا مما سيجر المانيا الى نزاع لا رغبة لها في خوضه ومع ان المستشار النمسوي لم ينه المناقشة برأي جازم الا انه اعطى انطباعا بتقديره لمدى الخطر الذي تتعرض له بلاده بسبب هذه المشكلة مع مراعاته لوجهة النظر الالمانية . وقد افاد غويدو شميت في محاكمته بعد الحرب العالمية الثانية بأنه حرص على تجنب اثارة أي نزاع مع المانيا في ذلك الحين لكن قضية عودة الملكية الى النمسا بقيت المسألة الوحيدة المختلف عليها بين البلدين.

وما أن حانت ساعة توديع البارون فون نويرات الا وحصلت حالة أشد غرابة من الموقف الذي صادفناه عند قدومه.

فقد لاحظنا ان الشوارع التي مر منها موكب الوزير وصولا الى محطة القطار كانت مقطوعة برجال الشرطة وبآلاف عديـدة من رجـال الجيش الاقليمي. وواضح ان فون شوشنيغ أراد ان يثبت لوزير الخارجية الالماني بأن سكان ڤينا ليسو كلهم من النازيين وان فيهـا نسبة كبيرة من الموالين للحكومة النمسوية وعليه فان الرجل أعد تظاهرة منظمة قوامها جميع عناصر الجبهة الوطنية وشدد على عناصر الشرطة والأمن لمنع أي هتاف لصالح المانيا . وكان هذا موقفا شديد الحرج يمكن ان يؤدي الى اسالة الدماء بلا مبرر . وسرعان ما ادركت خطورة اللعبة التي مارسها فون شوشنيغ والتي يمكن ان تخرب جميع المساعي التي حققتها في سياسة التقارب الودية خلال فترة ليست بالقصيرة . وعليه فقد اقترحت على البارون فون نويرات السفر من محطة قطار أخرى غير المقررة لكي تتجنب المرور من الشـوارع المقطوعـة ذات الحراسات المشددة الا ان الوزير لم يقبل بهـذا المقترح لأنه لم يشأ الخروج من ڤينا متسللا تحت جنح الظلام خلسة . وعندئذ حق علي التحير بين مرامي لعبة المضيّف الخطرة وعناد الضيف الثقيل . الا ان السياسة تبرر اللجوء الى مختلف الوسائل وتتطلب من الحصيف ايجاد المخرج المناسب من كل ورطة.

سار الركب بعد ان وصل المستشار وجلس بجانب ضيفه ليودعه الى القطار فتعالى هتاف الحشود التي أعدها المستشار ولكن بنغمة اخرى تضمنت (عاشت النمسا) و (يحيـا شوشنيغ) ثم (يسقط هتلر) ولحسن الحظ فان التناقض السياسي بين مختلف الجماعات الموالية للحكومة والمعادية لهـا لم يسفر الا عن أعمال عنف طفيفـة اقتصرت على الضرب بالهراوات وتفريق التجمعات دون اراقة الدماء وكنت انا في غاية السعـادة عندما وصل وزير خارجية المانيا الى مقصورته بالقطار سليما معافى. كما بدت على شوشنيغ امارات السعادة دون ان يدري بما تخبئه له الايام لقاء فعلته الموجهـة ضد هتلر.

استدعيت بعد اسبوعين الى برلين لكي أقدم لهتلر تقريرا شـفويا عن الموقف السياسي السائد في أوربا من وجهة نظر النمسا . وكذلك بشأن قرار

بريطانيا التهديد الذي تتعرض له مصالحها في حوض البحر الابيض المتوسط نتيجة لتجلي مطامع موسوليني ومدى احتمال مقاومتها للمحور القائم بين المانيا وايطاليا والنمسا ولربما ستحـاول بريطانيا التعرض على المحور بالتخطيط للتدخل في أضعف دولة فيه واعني بها النمسا مع تدبير اقوى معونة داخلية ممكنة من النمسا نفسها. حيث يحتمل ان تعتمد بريطانيا على اعادة تشكيل الحكومة النمسوية برئاسة محافظ ڤينا شميتز وتأليف جبهة وطنيـة جديدة تتمتع باسناد الحكومتين الانكليزية والفرنسية . ولكي نحبط هذه المحاولة فلابد لنا من اسناد نظام فون شوشنيغ سواء شئنا أم كرهنا لأن هذا يعتبر بالنسبة لنا اهون الشرين. وقد قلت لهتلر بهذه المناسبة ان فون شوشنيغ يحاول في هذه المرحلة تقوية علاقاته بأحزاب الجبهة الوطنيـة وان علينـا تسهيل مهمته قدر المستطاع . ويقتضي علينا أيضا الايعاز للصحافة الألمانيـة لتقليل نقدها المستمر لنظام فون شوشنيغ والتوقف عن ممارسـة سيـاسة الوخز بالابر التي دأبنا على اتباعها ضد حكومة النمسا. واخيرا فاننا يجب ان نوضح للنازين النمسوين بأن القرارات التي تتخذ بشأن النمسا ليست من اختصاصهم وانما هي من اختصاص الزعيم لأنه هو الذي يتخذ القرارات المناسبة على ضوء السياسة الاوربية وعليهم الامتناع عن اتيان اية تصرفات قد تحبط خططه السياسية . وان تقوية حكومة فون شوشنيغ في هذه المرحلة معناه تقوية المحور ضد محاولات الحلفاء الجادة لتقويضه.

حققت نجاحا محدودا في مجـال تعاون الحزب النازي النمسوي مع السفارة الالمانية لأن الشرطة النمسوية كانت قد كبست مقر الحزب في ڤينا واستولت على كثير من الوثائق التي تشكل مبرزات جرمية ومنهـا محضر جلسات هتلر مع زعماء الحزب وهي تفضح مدى عزم الحزب المذكور على التدخل بشؤون الحكومة النمسوية بمساعدة المانيا وخطط توجيه الدعـاية المضادة للحكومة النمسوية . وعلى الرغم من عـدم قيام الحكومة المذكورة بتقديم أي احتجاج رسـمي ضد المانيـا الا انني زودت هتلر بتقرير مفصل ضمنته جميع الاتهامات الموجهة لشخصه وللحزب النازي.

وثمة مثال آخر يلقي الضوء على طبيعة سير الاحداث في ذلك الموقف.

اذ ان المانيا درجت على الاحتفال في ١ أيار من كل عام بعيد العمال العالمي وقد نصت اتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ على تمتع الالمان المقيمين في النمسا بحق الاحتفال بالاعياد الرسمية والوطنية الالمانية برفع الاعلام . وحدث في صباح ١ أيار ١٩٣٧ ان شاهد العريف الحارس في ميدان السوق بمدينة پينكافيلد الصغيرة بيرقا كبيرا عليه شارة الصليب المعقوف نشر من احدى نوافذ بيت يطل على الميدان فجلب نظر الملازم للبيرق المنشور وكان ذلك الضابط الشاب قد ابعد الى مدينة پينكا فيلد للاشتباه الحاصل بموالاته للنازية فأراد ان يبعد عن نفسه الظنون وأمر بازالة البيرق من تلك الشرفة فتسلق ثلاثة من رجاله سطح المنزل وانزلوه.

ومن الطبيعي انني تلقيت احتجاج الجالية الالمانية المقيمة في المدينة المذكورة في مساء ذلك اليوم (لأهانة العلم) فتمخضت هذه الواقعة عن تجربة اليمة. فقد اتصلت هاتفيا بهتلر وأخبرته بما حدث مقترحا عليه الاحتجاج على الحكومة النمسوية ومطالبتها بتقديم اعتذار رسمي عن الواقعة . الا ان منظمة السيد ارنست ڤيلهلم بوهله كانت قد سبقتني برفع عقيرتها والجأر بالشكوى لمقام هتلر حيث يبدو انها رفعت له تقريرا مفعما بالمبالغة وضمته تفاصيل القضية.

تلقيت في صباح اليوم التالي استدعاء فوريا لمقابلة هتلر فسافرت الى برلين بنفس اليوم الذي تلقيت به ذلك الاستدعاء ووصلت الى دار المستشارية مساء ذلك اليوم ولكنني لم احظ بمقابلة الزعيم. ولما تشاغل عني هتلر طوال نهار اليوم التالي حاولت ان اوسط صديقي البارون فون نويرات مؤكدا ضرورة مقابلة الزعيم لي قبل ان يتخذ قرارا حاسما. الا ان محاولات ذلك السيد بائت بالفشل ولما لم احظ بمقابلة هتلر في اليوم الثاني ايضا فقد اضطررت على الكتابة لهتلر قائلا:

« كنتم قد استدعيتموني الى هنا منذ ٢ مايس ١٩٣٧ للمقابلة بشأن

الحادث الذي حصل للعلم الالماني في مدينة پينكافيلد. وهأنذا انتظر مقابلتكم منذ يومين لتقديم المقترح المناسب. ولما لم تأذنوا بمقابلتي فانني اعتبر هذا الاجراء دليلا على عدم تمتعي بثقتكم كسفير في ڤينا وعليه فانني ارجوقبولكم لاستقالتي من هذا المنصب».

تلقيت بعد عشرين دقيقة من ارسال تلك الرسالة نداء هاتفيا من دار المستشارية يتضمن رغبة هتلر بمقابلتي فلما دخلت صالون الاستقبال الكبير المعروف منذ عهد الامير فون بسمارك وجدته يتمشى جيئة وذهابا وهومحتقن الوجه فسار نحوي وصرخ بوجهي بمنتهى الصلف:

« بهذه القضية يبدو ان الكيل قد طفح وان المانيا لن تصبر على هذه الاهانة قط وانني لن اسمح لاولئك الناس بتدنيس علمنا».

وهكذا دهمني هتلر بعباراته الجافية دون ان يفسح لي فرصة النطق ولو بكلمة واحـدة. ثم شرع يتهجم على النمسا بكلمات سبق له ترديدها امامي فوجمت منتظرا فراغه من سورة الغضب المألوفة والتي استمرت لمدة نصف ساعة كاملة صب خلالها جام غضبه على حكومة النمسا بينما بقيت سادرا لا أحير جوابا على تلك الموجة العاتية منتظرا عودته لحالته الطبيعية. فلما انتهى من كلامه قلت له:

« كنت قد عقدت معي في تموز ١٩٣٤ اتفاقا تحريريا كلفتني بموجبه بتحسين العلاقات القائمة بين البلدين. وقد وافقـت قبل تسعة أشهر على ابرام اتفاقية مع النمسا بموجب هذا النهج. اما حـادثة العلم التي قام بها ملازم شاب غير مدرك للنتائج المترتبة عليها فيمكنكم انهائها بشكل مشرف لالمانيا في أي وقت تشاؤون. الا انكم اذا رغبتم في اتخاذ هذه الواقعـة ذريعة لاجراء قسري معين ضد النمسا فان الاجراء القسري سيكون محطما لكل المساعي السلمية التي حققناها آنفاً وسيؤدي الى اسالة دماء الأشـقاء وهذا أمر لا سبيل لاصلاحه بعد وقوع الضحايا . اما اذا اردتم استغـلال حادثة العلم لاحتلال فرنسا أو اثارة الاضطرابات فيهـا فيمكنكم التحري عن

أحد الاغبياء ليتولى مهمة سفير المانيا في ڤينا اما أنا فلن اكون ذلك المغفل الذي يبقى بالمنصب وعليه فانني ارجو ان تكون زيارتي هذه لكم الزيارة الوداعية للاستقالة من منصب السفير لدى النمسا».

وسرعان ما دهشت لموقفه الذي تبدل بغتة عندما رددت على غضبه بغضب مقابل ووجدته يصغي لكلامي بكل حواسه ولما فرغت من كلامي الفيته ـ وقد ران عليه الهدوء ـ يناقشني بأسلوب منطقي اخذا وعطاء. ولما حان موعد استئذاني بالانصراف قال لي هتلر:

« انك محق تماما . فأرجو ان تسافر الى ڤينا وترتب الامور وفقا لما تراه ».

وصلت الى ڤينا بقطار الليل وأنا مرتاح البال ولو انني كنت في غاية الاجهاد وفي صباح اليوم التالي زرت المستشار فون شوشنيغ بمكتبه وعرضت عليه مقترحي لتسوية ازمة العلم المهان بتقديم مذكرة اعتذار صادرة عن الحكومة النمسوية الى وزارة الخارجية الالمانية واشعار الصحافة بهذا الاجراء. وهكذا لم تستغرق تسوية هذه القضية اكثر من عشر دقائق.

بعد فترة وجيزة صادفتني حادثة أخرى مشابهة خلاصتها ان مكتبا المانيا للسفر كان موقعه في زاوية بارزة بشارع كيرتنر بڤينا ويعرض في واجهته الى جانب الاعلانات ومناهج السفرات السياحية صورة رائعة لهتلر. وفي احدى الامسيات مر من تلك الزاوية الأخ الأصغر من الاخوين هوهنبرغ وهما ابنا الامير فرانز فردیناند الذي قتل غيلة في سرايفو وكان مقتله السبب المباشر لنشوب الحرب العالمية الأولى .

وقد امتعض الامير الشاب لدى رؤيته لصورة هتلر فضرب الواجهة بعصاه وحطم اللوح الزجاج فأثار بذلك موجة سخط عارمة من أنصار الحزب النازي ضد آل هابسبورغ.

ويبدو ان هتلر اتعظ من واقعة العلم التي حصلت في پينكافيلد والتي مر ذكرها آنفاً فلم يستشط غضبا هذه المرة وعالج القضية بحكمة وروية عندما وافق على مقترحي المتضمن تقديم الامير هوهنبرغ اعتذاره الشخصي

على رؤوس الأشهاد للسفير الألماني بڤينا . وكنت قد أكدت لأصدقاء الامير بأنه اذا ما جاء للسفارة الالمانية فسألقاه بأقصى درجات التوقير واجعل مهمته في غاية السهولة . ولما قبل الأمير بالمقترح وزارني بمكتبي تحدثت واياه بشأن الطقس وبشأن مدينة ڤينـــا وبالمواضيع الأخرى المحببة الى نفسه دون أن نتطرق ولو بكلمة واحدة للقضية التي زارني للاعتـذار عنها . ولما استمررت على التحدث اليه بمختلف المواضيع ادركـت بأن الرجل يوافق على ايـة تبريرات اقدمها لهتلر على لسانه وبادرني القول بأن زيارته هذه التي تتخذ صفة الاعتذار كانت ممضة لدرجة تفوق تحسبه قبل مراجعة طبيب الاسنان.

والمؤسف أن الامير المذكور سدد الحساب القديم لهتلر عندما جرى اعتقاله بمعسكر داخاو خلال الحرب العالمية الثانية الا انني افلحت في التوسط لدى هملر الذي أمر باطلاق سراحه في عام ١٩٤٤ فأنقذته بذلك من التعرض للقتل لأن حراس المعتقلات السياسية اعدموا الكثيرين من المعتقلين المنكودي الطالع في المراحل الاخيرة من الحرب قبيل انهيار المانيا.

لاحظت في تلك الفترة ان المستشار فون شوشنيغ يبني آمالا واسعة على المؤتمر السابع للجبهة الوطنية محاولا اسـتمالة المعارضـة الى صفـه فكلفت مساعدي الهمام وصديقي البارون ڤيلهلم فون كيتيلر بمهمة الاتصال مع قادة المعسكر الوطني فأنشأ علاقات صداقة حميمة مع عدد من الرجال الاذكياء ذوي التقديرات الصائبة. كان من جملتهم الدكتور مينغهين الاستاذ في جامعة ڤينا والسيد زايس انكوارت والدكتور يوري راينر والسيد راينهالر وكان هؤلاء من المناهضين للحزب النازي النمسوي لأنهم لاحظوا عن كثب الأساليب المبتسرة التي دأب زعيم ذلك الحزب النقيب ليوپولد على ممارستها. والمؤسف ان انتخابات المؤتمر السابع للجبهة الوطنية اسفرت عن انتخاب الدكتور مينغهين رئيسا للمؤتمر ولم تسفر عن انتخاب أي من السادة الآخرين الذين أصبحوا خاضعين لقرارات رئيس الحزب النقيب ليوپولد وحده . وفي خلال سنة ١٩٣٧ تحول المؤتمر السابع للجبهة الوطنية بصورة تدريجية من اداة بيد المستشار الى نقطة انطلاق وقاعدة رصينة للحزب النازي النمسوي.

ولاحظت أيضا منذ كانون الثاني ١٩٣٧ ان النقيب ليوپولد كان يتدفق حماسه لدس انفه في الشؤون الداخلية للنمسا ولم ينقصه للشروع بنشاطاته سوى اصدار هتلر للكلمة الرمزية . وكان يأمل ان يقوم فون شوشنيغ بالغاء المنع الصادر ضد حزبه وعندئذ يمكنه اصدار اوامره لاعضاء الحزب كي يمارسوا نشاطاتهم ويسيطروا على الشارع خلال فترة وجيزة. وكنت احرص من جانبي على تسخير جميع القوى المتيسرة لدي لاحباط هذه المحاولات. والمؤسف ان المستشار فون شوشنيغ لم يسيطر على زمام المؤتمر السابع بسبب سوء تصرفاته فقد اخبر اعضاء المؤتمر برغبته في مشاركتهم له بالسلطة ووعدهم بمناصب مرموقة ولكنه اخلف وعوده معهم ولم يحقق أي شيء يذكر سوى تعيين غويدو شميت وزيرا للخارجية وغلايزه هورستيناو وزيرا بلا وزارة.

وكان زعيم الحزب النازي النمسوي ليوپولد من اشد الناس سخطا على الحكومة لأن المستشار تجاهله وتجاهل حزبه تماما . ولما وجد المستشار ان المؤتمر السابع للجبهة الوطنية أخذ يتحول حثيثا لصالح النازية جعل مقر المؤتمر في شارع تاينفالت تحت المراقبة الشديدة لشرطته السرية التي اعتبرته مصدرا جيدا للمعلومات عن مختلف نشاط الهيئات السياسية في البلاد.

في حزيران ١٩٣٧ اراد مينغهين زيارتي ولما استقبلته اعرب لي عن قلقه لسوء تصرفات ليوپولد التي يشجبها رغم كونه نازيا مثله. وقال ان المستشار اعرب عن استعداده لاشراك السيد زايس انكوارت في حكومته لكي يعمل بمهمة الارتباط بين الحكومة والمعارضة الا ان هذا الاجراء لم يعجب السيد ليوپولد الذي كان معاديا للدكتور زايس انكوارت والثابت ان النمسويين عندما خبروا الدكتور انكوارت أحبوه لحسن سجاياه ولذكائه. ومعلوماتي المؤكدة عنه تتضمن كونه رضي الخلق ولم يتورط بأي عمل من شأنه الاساءة

للآخرين[٦].

وهو وان كان من مؤيدي اتحاد بلادينا وتعاونهما الى ابعد الحدود الا أنه كان من أشـــد المدافعين عن استقلال النمسا . ولو أن المستشار فون شوشنيغ أدرك قيمة زايس انكوارت ومنحه ثقتـــه التامة خلال مرحلة الصراع من اجل الوحدة لتغيرت الاحوال في كثير من التفاصيل.

والغريب ان فون شوشنيغ الذي ضايق زايس انكوارت القى الحبل على الغارب للنقيب ليوپولد فصار يتصرف على هواه. وفي هـــذه الفترة ارسل هتلر احد كبار موظفي الدولة الالمانية هو السيد كيپلر بمهمة تنظيم فعاليات الحزب النازي النمسوي فأشتد قلقي خشيـــة اثـــارة ذلك الحزب لمشاكل داخلية تعصف بالمنجزات التي حققتها بطريقة ودية .

ولعل أجلى صورة لتوضيح شعور ليوپولد تجـــاهي هي تلك التي ذكرها في تقريره الذي رفعه لهتلر في ٢٢ آب ١٩٣٧ حيث قال:

« ان فون پاپن هو اعدى اعداء الحزب النازي النمسوي. ويجب ابعاده عن منصبه بأسرع ما يمكن ».

أما التهمة التي وجهت لي بعدئذ في محـــاكمات نورمبرغ فقد تضمنت الفقرة التالية:

« لقد بذل فون پاپن خلال اشتغـــاله بمنصب السفير الالماني لدى النمسا قصارى جهوده لتقوية الحزب النازي في النمسا».

ركز الحزب النازي حملته علي شخصيا وعلى السفـــارة الالمانية رغم المنع الصادر بحقه لانه كان يستفيد من وسائل دعائية غير محدودة منهـــا صحيفة (دير اوسترايششه بيوباختر) التي شددت النكير عليّ شخصيا وقالت ان الحزب النازي النمسوي يرى ان مهمة السفير الالماني اصبحت منتهية بعد

---

(٦) على الرغم من هذا الاطراء لشخص الدكتور زايس انكوارت فان المومأ اليـــه احيل بعد الحرب العالمية الى محاكمات نورمبرغ وحكم عليه بالاعدام شنقا.
ـ المترجم ـ

توقيع اتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ ٠

أخبرت هتلر بطبيعة الحملة التي شنها عليّ الحزب النازي النمسوي وارسلت من يخبر النقيب ليوپولد بأنني اعتبر علاقته معي بحكم المنتهية وانني امرت السادة موظفي السفارة بقطع كل علاقاتهم معه٠ فما كان منه الا ان اصدر توجيها لاعضاء حزبه يمنعهم بموجبه من اقامة اية علاقةرسمية أو شخصية معي او مع أي فرد من موظفي السفارة الالمانية بڤينا٠

ان افضل وسيلة ـ في نظري ـ لازالة سوء الفهم بين الشعوب هي الحرص على ادامة التماس الثقافي٠ وعليه فقد درجت على تشجيع استغلال كل مناسبة لتبادل الآراء وكان ان سعيت لاقامة معرض للتصاميم الهندسية الالمانية في ڤينا خلال صيف ١٩٣٧٠ ولما حضرت افتتاح ذلك المعرض في احد ايام حزيران ١٩٣٧ تناهت الى سمعي أغان وأناشيد المانية ونمسوية فأردت استغلال تلك الفرصة للتأكيد على عمق العلاقات التأريخية التي تربطالبلدين وأكدت على ضرورة مواصلة المسيرة من اجل التقدم والازدهار للبلدين٠

حصل فيتموز ١٩٣٧ اجتماع للمحاربين القدماء الالمان الذينقاتلوا في الحرب العالمية الاولى٠ وكما يحرص الالمان على الاهتمام بالتقاليد والتراث فان اخوتهم الذين وراء الحدود النمسوية ـ الالمانية يولون التقاليد المتوارثة ذات الاهتمام٠ وعليه فان من الطبيعي التقاء المقاتلين الذين حاربوا جنبا الى جنب ضد عدو مشترك لاستعادة ذكريات أيام المحنة الغابرة ٠

وبالنسبة لنا فاننا نولي عظيم الاحترام لمقاتلي تشكيلات جبال الالب ٠ فهؤلاء النمسويون البسلاء طالما قاتلوا قتالا شديدا في الدفاع عن الوطن المشترك ٠ وكان ان رتبت لقاء بين المحاربين القدماء من كلا البلدين بالتعاون مع الفريق فون غلايزه الذي كان يتمتع بثقة المستشار فون شوشنيغ واتفقنا انا والفريق المذكور على جعل الاجتماع مظهرا وديا للتعاونالعسكري بين البلدين مع تجنب اثارة أي موضوع سياسي محرج٠ ولكن ما قيمة الاستحضارات الجادة لتحقيق هذا الاحتفال الذي أردنا له ان يكون مظهرا من مظاهر تقوية اواصر الاخوة الالمانية النمسوية اذا كان هناك من يعمل

في الخفاء لاحباط مساعينا وتحويل تلك المناسبة الى تظاهرة سياسية عارمة ؟

ما ان وصلت الى مكان الاحتفال بمدينة ڤيلس واستقبلني الفريق فون غلايزه والضيوف الكبار الآخرين الا ورجاني القوم أن استعرض كتيبة الشرف التي أعدت بهذه المناسبة.

ولما عزفت الموسيقى السلام الوطني النمسوي فوجئت بانطلاق حناجر الالوف من الحضور بنشيد «المانيا، المانيا، قبل كل شيء في العالم[٧]» وقد استغل اولئك الناس تشابه اللحن الموسيقي لكلا النشيدين لانهما من تلحين الموسيقار الالماني المشهور هايدن. وسرعان ما قرأت الشعور بالغبن على وجوه المسؤولين النمسويين . وقد ران الوجوم على العسكريين النمسويين ثم نهض الفريق فون غلايزه لالقاء كلمة الترحيب فلاحظت ان أغلب الحضور يتكلم مع جيرانه بضوضاء مرتفعة دون ان يأبهوا للخطيب الرسمي الكبير. ثم جاء دوري لالقاء كلمتي بالمناسبة. وما ان نطقت الكلمة الاولى عبر مكبر الصوت الا وتعالت ضوضاء الحضور بحيث طغت على كلماتي. فقلت اننا اجتمعنا هنا من اجل احياء ذكرى تأريخية نمجد بها ارواح أخواننا الشهداء ونحن بمنأى عن السياسة التي نمارسها يوميا . لكنني لاحظت ارتفاع درجة الضوضاء كلما نطقت بعبارة اخرى جديدة. وعندئذ ادركت ان هذا امر مبيت ووراءه ما ورائه فأختتمت كلمتي فورا . ورأيت ان من المناسب تنبيه المشرفين على الاحتفال بضرورة اختصاره وانهائه بأسرع ما يمكن تجنبا لحدوث ما لا تحمد عقباه .

وقد عجلت بالانصراف مستأذنا من المحتفلين قبل اجراء الاستعراض الختامي بحجة عدم احتمال مساعدة الطقس على الطيران الى ميونيخ اذا ما تأخرت اكثر من ذلك.

وصلت في عصر ذلك اليوم الى ميونيخ لحضور افتتاح معرض الفن

---

(٧) اشتهر هذا النشيد بتسمية اخرى مغلوطة هي (المانيا فوق الجميع) على سبيل الدعاية المضادة لالمانيا خلال الحرب العالمية الثانية والترجمة الدقيقة لكلماته هي ما اوردناه . — المترجم —

السنوي فلما قابلت هتلر جبهني بقوله:

« ما الذي حدث في ڤيلس؟ لقد قيل لي ان الشرطة استخدمت البنادق ضد رجالنا . انها واقعة مخزية ».

بقيت واجما لبرهة قصيرة ثم قلت له انني بالوقت الذي كنت فيه هناك لم اشاهد شيئا من هذا القبيل. والواقع هو ان الشرطة النمسوية اضطرت على التدخل لوضع حد لاستهانة اولئك النازيين النمسويين بالنظام العام وانحيازهم السافر لالمانيا . الا ان اطلاق النار والضرب لم يوجه نحو المحتفلين ولم يصبهم أي أذى لتمسكهم بالضبط ولعدم علاقتهم بالحادث المفتعل.

وبديهي ان هتلر تلقى معلومات مبالغ بها من النازيين النمسويين مما أثار الدوائر الرسمية الألمانية . أما فون شوشنيغ فلم يأبه لتلك الاحتجاجات لأنه ادرى بحقيقة الحادث.

جرت محاولة أخرى لتوثيق اواصر الصداقة الالمانية النمسوية في احتفالات عيد الغناء التي أقيمت ببرسلاو. وقد تم لحسن الحظ تلافي وقوع ما حصل في احتفال ڤيلس ويمكنني التأكيد بأن نتائج التقارب كانت ايجابية على الرغم مما حصل في ڤيلس وهذا مما يؤكد وحدة الدم الالماني الذي يجري في عروق ابناء البلدين الشقيقين . وهذا ايضا دليل آخر على مدى الحيف الذي ألحقته معاهدة ڤرساي بالأمة الألمانية عندما أجبرت النمسا على الاستقلال او بالأحرى الانفصال عن الوطن الأم. المانيا.

تغير الموقف السياسي الاوربي قليلا في صيف ١٩٣٧ اذ دأب موسوليني على ابعاد النمسا قدر استطاعته عن التقارب مع المانيا واسناد اية ممارسة سياسية نمسوية موجهة ضد المانيا . وفي ٢٥ أيلول ١٩٣٧ قام بأول زيارة رسمية لألمانيا يصحبه وزير خارجيته الكونت شيانو[٨] وقد اجرى بميونيخ

(٨) هو الكونت غاليازو شيانو الذي كان صهر موسوليني وقد كان من أعداء المانيا في النظام الفاشي وقد تآمر على موسوليني وخذله في المجلس الفاشي الاعلى فلما استعاد موسوليني السلطة بمساعدة الالمان اعدم شيانو قبيل انهيار ايطاليا . — المترجم —

محادثات مع هتلر اتسمت بالتحفظ • وقد انعم موسوليني على هتلر بهذه المناسبة برتبة عريف شرف بالمليشيا الفاشية • وهكذا نال نائب العريف ترفيعا استثنائيا الى رتبة عريف• ثم قام الضيف بزيارات لاماكن اراد رؤيتها كمصانع كروپ في مدينة ايسن ومشاهدة تمارين الخريف للجيش الالماني بمقاطعة ميكلنبورغ وكان صديقي الفريق البارون فون فريتش قد دعاني لحضور الصفحة النهائية من التمارين ومناقشة الانتقادات التي تقوم بها القيادة العامة للتمارين بحضور الضيوف والمضيفين • ولقد لاحظت الهيئة العامة لمظهر موسوليني المتغطرس الذي حلق شعر رأسه على طريقة اباطرة الرومان والذي بدى متمتعا بالسطوة ومفتخرا بممارستها بينما ظهر هتلر الى جانبه بمظهر المسالم الوديع• وللمراقب المدقق في ذلك الموقف ان يراهن على احد فرسي الرهان فكلاهما حريص على حب اتخاذ القرارات الحاسمة والمغالاة في العناد والميل الشديد للقسوة ولا عجب في ذلك فنحن بصدد المقارنة بين رائدي الفاشية والنازية•

اختتم الفريق البارون فون فريتش مناقشة التمارين بعبارات جازمة ومحددة محذرا من اية مغامرة عسكرية غير محمودة العواقب وبخاصة الاضطرار على خوض حرب على جبهتين لاسيما وان الجيش الالماني لم يتقن تعاليمه العسكرية الضرورية بعد ولم ينجز تناميه الضروري بعد تخلصه من قيود معاهدة فرساي • فلاحظت عندئذ تجهم أسارير هتلر بينما هز موسوليني رأسه مستنكرا ما يسمع• فحصلت على انطباع مؤكد بأن صداقة متينة لابد أن تنشأ بين الرجلين اللذين يبادل أحدهما الآخر اعجابا باعجاب •

حضر تمارين الخريف المذكورة ضيف شرف آخر هو لورد لند نديري وهو وزير النقل الجوي الانكليزي السابق وكان غورنغ قد دعاه بعد مشاهدة تلك التمارين الى المشاركة في صيد الوعول ثم اقام له وليمة على ساحل بحر البلطيق• وقد علمت ان اللورد كان حريصا على معرفة نوايا المانيا المقبلة كما انه كان يراقب تنامي القوة الجوية الالمانية بكثير من القلق•

ولقد اقترحت على اللورد اجراء سلسلة من المناقشات مع هتلر بغية

التوصل الى الحلول المناسبة للمشكلات القائمة. وقلت له ان قيود معاهدة فرساي قد أدت بنا الى تحطيمها قسرا والمغالاة في نقضها ويمكن لبريطانيا تقدير موقفنا واسداء الجميل لنا بانهاء القيود المتبقية ومعاملة المانيا معاملة الند للند . ثم قلت له ان تقارب بريطانيا مع المانيا من شأنه تحويل المانيا عن سياسة المغامرات التي تجرها اليها ايطاليا الميالة للتوسع لاسيما وان الجيل الحالي لا يزال يتذكر المآسي التي جرتها الحرب العالمية الاولى ولذا فهو لا يريد لابنائه ان يخوضوا حربا عالمية ثانية.

استمرت مناقشاتي مع لورد لندنديري الذي اخذ يبحث معي الوسائل الجدية والاساليب المناسبة لحل التناقضات القائمة بين بلدينا فكانت مناقشتي السياسية مع ذلك السيد النبيل من الامور التي أشاعت البهجة في نفسي الى ابعد الحدود. افليس من الأسهل مناقشة المشكلات الدولية بروح ودية مع المسؤولين من قادة الدول الاوربية والتوصل للحلول المرضية لجميع الاطراف دون ضرر او ضرار؟

أراد وزير خارجية النمسا غويدو شميت تقوية علاقات بلاده مع بريطانيا وفرنسا على الرغم من تقليل الدولتين المذكورين من مساعداتهما للنمسا في تلك الفترة بصورة واضحة . وعندما تحدث الدكتور شميت مع نظيره السيد ديلبوس وزير خارجية فرنسا بشأن انقاذ موقف النمسا المالي أجابه الأخير بأن انقاذ النمسا لا يتم الا عن طريق التوحد مع المانيا . وفي تشرين الثاني ١٩٣٧ قام شميت بزيارة أخرى لبرلين تحت غطاء تلبية دعوة غورنغ لحضور افتتاح المعرض الدولي الكبير للصيد . وقد فوجيء الوزير النمسوي عند زيارته لقصر مضيفه (كارين هال)[٩] برؤية خارطة كبيرة لأوربا خالية

---

(٩) درج الاوربيون على تسمية منازلهم باسماء اثيرة ذات معان خاصة في نفوسهم وقد سمى غورنغ قصره بهذا الاسم وفاء لذكرى عقيلته الاولى (كارين فون فوك) وهي نبيلة سويدية بنى بها بعد مغامرة في طائرة سركس كان يعمل به بعد الحرب العالمية الاولى حيث سقطت الطائرة به في ضيعة كارين فتعهدته بالعناية حتى ابل من مرضه ثم تزوجا لكنها ماتت بعد سنوات قليلة بالسرطان فتزوج بعدها الممثلة المسرحية ايمي سونيمان التي لا تزال تعيش في المانيا الغربية .

ـ المترجم ـ

من الحدود الالمانية النمسوية وقد علقها صاحب القصر في صالة الاستقبال. فلما تطلع نحوها الضيف مبهورا علق غورنغ على ذلك بمرح ظاهر ان ليس ثمة حدود تمنع الصياد الماهر من متابعة طرائده . ومع ان الوزير النمسوي احتج على وجود الخارطة المذكورة لدى وزير الخارجية البارون فون نويرات الا انه تزلف لغورنغ بعدئذ عندما دعاه للتصيد بالنمسا صحبة مستشارهـا فون شوشنيغ . وقد تطلبت هذه الدعوة توجيـه رسائل متبادلة عديدة بين شميت وغورنغ لم اعلم بها الا بعد احالة شميت للمحاكمة بتهمة الخيـانة العظمى. وكانت هذه الرسائل المتبادلة قد بدأت في كانـون الثـاني ١٩٣٧ واتخذت صفة شـخصية بتجاوز السبيل الدبلوماسي المألوف .

وجـاء في الرسـالة الأولى المؤرخـة في ٢٩ كانون الثـاني ١٩٣٧ من الوزير شميت الى هرمان غورنغ الاشارة الى حديث الاخير مع الوزير المفوض النمسوي في روما عند زيارته لموسوليني حيث قال له انه يعتبر الاخـلال باتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ السلمية عملا تخريبيا . وقد اكد شميت رأي غورنغ هذا وقال له في رسالته الاولى ان الحكومة النمسوية حريصة على التمسك بالاتفاقية المذكورة الا ان القلاقل التي اصابت بلاده كان مصدرها متطرفي الأحزاب المناهضة لنظام الحكم القائم في النمسا . وقد أجاب غورنغ على تلك الرسالة بقوله ان حكومة المانيا اتخذت قرارا بالتعاون مع مستشـار النمسا والعمل على ازالة العوائق التي تؤدي الى عدم الثقة بين البلدين . وواضح انه كان يبغي كسب ثقة شميت واستمالته لتطوير العلاقة القـائمة تسهيلا لقضية الوحدة . كما يبدو ان النمسا كانت متمسكة باستقلالها الى ابعـد الحدود وعليه فان رغبة غورنغ لم تصادف استجابة مشابهة من شميت . ذلك لأن طبيعة شميت المتميزة بالمرونة دعته للاسترسال في مكاتبة غورنغ املا في الوصول الى نتيجة لكن مستشار بلاده لم يرتض مثل هـذا السلوك ابداء. وكانت حصيلة تلك المراسلات ان وجـه غورنغ دعوة لصديقـه شـميت في ٣٠ حزيران لاجراء حوار بينهما لكن تلك الدعوة اسـتغرقت شـهرين آخرين لاستكمال الاستحضارات الضرورية لها فتحققت الزيارة فعلا في أيلول ١٩٣٧.

في خلال الأشـهر السبعة المنصـرمة تغيرت الصورة العامـة للموقف

الاوربي فأصبح هتلر اكثر قوة واكثر تشككا بطرق التطور المؤدية لتحقيق الوحدة.

ولما أراد شميت في زيارته التي بدأها في أواخر أيلول ومطلع تشرين الأول ١٩٣٧ استعادة السيطرة على زمام الأمور كان الوقت قد فاته حيث انه اقترح على غورنغ مناقشة الموقف مع المستشار فون شوشنيغ شخصيا. وعليه فانه عرض عليه دعوة الصيد بالنمسا بهدف اجراء تلك المباحثات بينهما.

ويعطي غورنغ في رسالته الجوابية لشميت بتاريخ ١١ تشرين الثاني ١٩٣٧ صورة واضحة عن تغير الموقف السياسي . اذ قال فيها بأنه يود تلبية الدعوة الشخصية الموجهة له ولكنه يريد أن يستوثق مسبقا من أن مباحثاته مع فون شوشنيغ ستتمخض عن نتائج ايجابية.

ولما سأله شميت عن مفهوم النتائج الايجابية المقصودة اجابه غورنغ بأنها تعني الخطوات المنظورة للعالم أجمع في مجال توطيد العلاقات الرصينة بين البلدين . وان سياسة البلدين الخارجية ينبغي ان تتطابق تماما من أجل تحقيق مصالح الامة الالمانية . كما يقتضي تحقيق التعاون التام بين القوات المسلحة للبلدين وتوحيد المصطلحات العسكرية بينهما وكذلك انشاء اتحاد كمركي وتسهيل التبادل التجاري بين البلدين . وقال له في رسالته ايضا ان الجانب العسير من المشكلة يكمن في مجالات السياسة الداخلية. وان افتراض تحقيق أية نتائج مرضية يتطلب قيام الدول الموالية لالمانيا واصدقائها بالتعامل مع النمسا وفق نفس اسس الاحترام التي توليها لالمانيا دون محاولة اعتبار المواطنين النمسويين من الدرجة الثانية. وخلص غورنغ الى القول بأن مستشار النمسا اذا لم يوافق على هذا المقترح فان غورنغ يفضل عدم القيام بالزيارة . وأكد في رسالته بأن هتلر اطلع على تفاصيل المقترح وأيدها.

في ٢٣ تشرين الثاني ١٩٣٧ أرسل شميت لغورنغ جوابا مهذبا ولكنه ينطوي على التهرب وقال فيه انه يأمل بقيام غورنغ برحلة الصيد التي دعي اليها رغم كل شيء لأن مجرد اجتماعه مع المستشار النمسوي سيعني وجود

النوايا الحسنة لدى الطرفين • ولو انني احطت علماً بأمر تلك المراسلة في حينها لامكنني آنذاك تحذير الوزير النمسوي من مغبة الاستمرار على ممارسة هذه اللعبة التي لا يمكن ان تكون مجدية عند التعامل مع هتلر وغورنغ•

ولابد للمرء من الاعتراف بأن رسالة غورنغ المؤرخة ١١ تشرين الثاني١٩٣٧ كان لها صدى شديد التأثير على الحكومة النمسوية وانها حظيت باهتمام المستشار فون شوشنيغ ووزير خارجيته شميت اللذين زعما امام هيئة المحكمة في نورمبرغ بعد الحرب العالمية الثانية بأن الشروط التي قدمها لهما هتلر عند مقابلتهما له بعد شهرين ونصف في برختسغادن كانت مفاجئة لهما تماما•

سافرت الى باريس بعد اختتام المعرض الدولي للصيد ببرلين حيث أرادت هيئة المعرض الدولي ايجاد جو رياضي بمنأى عن السياسة • لكنني وجدت نفسي هناك في خضم السياسة عندما اجريت مقابلات ومحادثات كثيرة مع الساسة الفرنسيين أمثال رئيس وزراء فرنسا آنذاك السيد كاميل شوتيه والسادة پول رينو وبونيه وپيتري وديلاديه وغيرهم من الشخصيات السياسية المتنفذة • وقد أعجبت بصورة خاصة في تلك المباحثات بشخصية السيد ليون بلوم الزعيم الاشتراكي المعروف الذي كان يولي قضية النمسا اهتماما خاصا ويحرص على كسب صورة واضحة المعالم عن الموقف السائد فيها• ولم يكن قد استوزر آنذاك ولكنه كان معتبرا من زعماء ما يسمى بحكومة الجبهة الوطنية•

ولكي أزيل محاولات النازيين للتشكيك بهذه الزيارة أو استغلالها لاغراضهم فقد وجب على القيام بمحاولات لكسب ثقتهم في اللقاءات التي عقدتها مع الساسة الفرنسيين• ولقد اعجبت ايما اعجاب بالسيد بلوم لأحاطته الواسعة بمراحل تطور الاشتراكية في المانيا ولاعتباره الماركسية مبدأ ينطوي على الخواء وأمله بأن تكون الاشتراكية الاوربية جسرا يصل بين فرنسا والمانيا لتوطيد العلاقات الانسانية القائمة بين البلدين • ومن الطبيعي ان السيد بلوم لقي مني ترحيبا حارا بآرائه السياسية هذه ورجوته ان يوضح

لرفاقه الاشتراكيين الفرنسيين بأن الاستقلال الذاتي النمسوي ضمن اطار الوحدة الاقتصادية الألمانية سيكون خطوة تقدمية في سبيل تحقيق الاشتراكية الاوربيـة. وينبغي تجنب سياسة الكاردينال ريشيليو التي تعتمد مبدأ (فرق تسد) لأنها تقوض اسس الصداقة القائمة بين فرنسا والمانيا . واكدت له بهذه المناسبة ان هتلر بادر بجعل الالزاس واللورين مسألة مفروغ منها وليس لالمانيا اية نية في اثارتها واقلاق فرنسا بهذا الشأن. وقد سبق لهتلر ان أكد لي أكثر من مرة بأنه حريص على اقامـة أفضل العلاقات مع فرنسا . كما قلت له بأنني سـأكون ممتنـا لو أن فرنسا كفت عن معارضتهـا لمسألة التقارب الألماني النمسوي ومقاومتهـا الحل التدريجي لقضيـة الوحدة بين البلدين الالمانيين.

لم يستطع السيد ليون بلوم اعطائي أي وعد ملزم الا انه قال لي بأنه سيبحث هذه القضية مع اعضاء حزبه ومع اعضاء الحكومة الفرنسية.

وقد أجمع اولئك السادة الفرنسيون الذين قابلتهم تقريبـا على تفضيل الحل السلمي التدريجي لتحقيق الوحدة الألمانيـة ـ النمسوية دون اللجوء للوسائل القسرية التي من شأنها اثارة المجتمع الاوربي. وقد اظهر السيد بونيه وزير مالية فرنسا آنذاك تفهما تامـا لمسألة النمسا ورتب لي لقـاء مع السيد شوتيه رئيس ورزاء فرنسا الذي ابدى اقصى الاهتمام بقضايا اوربا الوسطى وأعرب عن امله في توصل المانيا وفرنسا الى التعاون المخلص في سبيل تحقيق السلام الاوربي. كمـا ابدى السيد شوتيه معـارضته لعودة آل هابسبورغ لحكم النمسا . ولـمـا انتهت مقابلتي لرئيس وزراء فرنسا طوقني بذراعيه مودعا وقال لي:

« أكد للزعيم بأنه سيكون علامة الانطلاق في تأريخ العـالم اذا مـا استطعنا نحن الاثنين تسيير السياسة الاوربية وفق اسس جديدة وسليمة ».

قدمت لهتلر فور عودتي تقريرا ضافيا بطبيعة الحـال ضمنتـه مدى استعداد فرنسا لاقرار السلام وهو ما لمسته في كل محادثات اجريتهـا مع المسؤولين الفرنسيين.

وأكدت له بهذه المناسبة ضرورة الانتباه الى ان هذه المشاعر السلمية لا يمكن اعتبارها دليل على ضعف الدول الغربية او تخاذلها. كما كتبت تقريرا آخر الى الوزير فون نويرات قلت فيه بأن علينا الا تتجاهل الفرصة الذهبية التي قدمتها لنا فرنسا لتحقيق التقارب معها • وكان من نتائج تلك الاتصـالات بشأن فرنسا ان حدثت مراسـلات بيني وبين البـارون فون فايز تسيكر وكيل وزارة الخارجية الالمانية الذي سألني عما اذا كنت اعتقد حقا بامكانية عقد (اتفاقية عامة) مع فرنسا فأجبته بقولي:

« ان رسالتك تتضمن قضية على جانب كبير من الاهمية • ذلك لأنني حصلت في المقابلات التي أجريتها بباريس على انطباع جازم بأن الحكومة الفرنسية القائمة يسرها كثيرا عقد الاتفاقية العامة المشار اليها مع المانيا لأنها تؤمن بأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق التعاون الاقتصادي الوثيق بين البلدين » •

كان انطبـاع المستشار فون شوشنيغ عن رحلتي الى فرنسا مفعما بسوء الظن لأنه تصور بأن المباحثات التي أجريتها بباريس كانت موجهة ضد سياسته.

لاسيما وان علاقاتنا كانت قد توترت بسبب الحوادث التي حصلت في الصيف والتي اشرت لها آنفا وكانت حصيلة تعـاقب الاحداث المذكورة ان وصلت علاقاتنا أنا واياه الى درجة الانجماد • ولذا فقد أصدر فون شوشنيغ في ١ تشرين الثاني ١٩٣٧ اوامره الى الجبهة الوطنية التي يتزعمها بقطع قبول أي اعضاء جدد ينحازون اليها من المعـارضة. واتخذ اجراءات قسرية ضد خصومه بحيث جعل الجبهة السياسية تلتهب ثانية بعد ان سادها الهدوء.

وعندئذ جد ليوپولد وانصاره من النـازيين النمسويين في الدفاع عن وجودهم دفاعا مصيريا.

في هذه الاثناء فوجيء مستشار السفـارة البارون فون شتاين بتلقي رسالة تهديد مغفلة من التوقيع فاضطررت الى طلب حراسة البارون برجال

من الشرطة النمسوية، ولربما تصور البعض ان فون شتاين تمت حراسته حفظا لحياته بسبب قرب تسنمه لمنصبي • والواقع ان لمثل هذا التصور ما يبرره فالمستشار المذكور كان ـ دون ان اعلم ـ عضوا في الحزب النازي منذ عام ١٩٢٨ وقد كشفت اسراره بعد الحرب العالمية الثانية عندما تبين انه كان يعمل من وراء ظهري بكل جد ويتسقط هفواتي وينتقدني بكل ما اوتي من قوة، ولكنه على الرغم من ذلك كله ما ان وجد حياته مهددة بالخطر الا ولجأ الي مستجيرا لأنه لم يجد لنفسه ملاذا غيري.

استدعيت في هذه الفترة السيد ليوپولد واخبرته بوجوب اخبار اعضاء حزبه للكف عن معارضة سياستي لأنه في حالة اتخاذ اية فعاليات مضادة لسياستي سيكون مخالفا لأوامر الزعيم المشددة وان عليه تجنب وضع العراقيل في طريق السياسة السلمية التي دأبت على ممارستها مع الحكومة النمسوية ولو انه يقف الآن في صفوف المعارضة الشديدة للنظام القائم في بلاده • واوضحت له ايضا بأنني عندما حاولت منذ اشهر عديدة ازالة الفجوة القائمة بين بلدينا فمعنى هذا انني لست على استعداد للتعاون معه في سبيل تقويض التعاون القائم بين البلدين، وعليه فانني ارفض من الآن فصاعدا اجراء أي حوار معه وانني امنعه من دخول السفارة الالمانية، ومن الطبيعي انني توقعت هبوب عاصفة مضادة لي جزاء هذا الاجراء من الحزبين النازيين الالماني والنمسوي.

ولكنني اردت بعملي هذا ان اوضح للمستشار النمسوي طبيعة موقفي والمؤسف انه لم يحذ حذوي الا في كانون الثاني ١٩٣٨ عندما طالبني بتوسط هتلر لتحديد نشاط السيد ليوپولد الذي كان متعطشا للزعامة • والعجيب ان هتلر استجاب لمقترحي على الفور ويمكنني التصور الآن بأن السيد ليوپولد لم يكن بالنسبة لهتلر سوى فيل محمل بالخزف واوشك على الوصول الى غايته.

في ٢٥ كانون الثاني ١٩٣٨ داهمت الشرطة النمسوية مكتب المؤتمر السابع في شارع تاينفال بڤينا وضبطت مبرزات كثيرة أهمها ما دعي (اوراق

تافس) وكان تافس هذا مهندسا نمسويا ونازيا قديما وقد وجه مذكرة الى مقر الحزب النازي ببرلين يطالبه بتقديم الجيش الالماني لاحتلال النمسا لأنه يؤكد عدم احتمال تحقيق أي تعاون ممكن مع نظام فون شوشنيغ. وكان من رأيه تشكيل حكومة نمسوية برئاسة ليوپولد بعد نجاح الهجوم الالماني المسلح. كما وجدت وثيقة أخرى تتضمن اقتراح اغتيالي أو اغتيال الملحق العسكري اللواء موف واتخاذ هذا العمل ذريعة لتبرير احتلال الجيش الألماني للنمسا . ولم يحتج المستشار النمسوي على ما جاء في تلك الوثائق لأنه آثر الاستفادة منها في المفاوضات الوشيكة مع هتلر واكتفى باعتقال الدكتور تافس واحالته للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى.

دعتني هذه الواقعة لمفاتحة هتلر بشأن ابعاد ليوپولد عن النمسا تلبية لطلب المستشار فون شوشنيغ على ما أسلفت . فسافرت الى غارمش يوم ٢٧ كانون الثاني ١٩٣٨ لحضور العاب الشتاء الألمانية النمسوية فصادف أن قابلت الدكتور زايس انكوارت هناك وعندما كنا نستعد للتزحلق المتعرج على الجليد تحدثنا بشأن الموقف السياسي فرجاني ان ابذل قصارى جهودي لاقناع هتلر بابعاد النازيين النمسويين عن التدخل في شؤون النمسا . وعندما يكون فون شوشنيغ على استعداد لمنح الدكتور زايس انكورات مسؤولية وزارة الداخلية فانه سيرعى المصالح القومية بحكم حبه للامة الالمانية ولكنه سوف لن يقبل مطلقا بتلقي اية اوامر من المانيا مهما كانت الظروف. وقال ان النمسويين يحبون الالمان ولكنهم لن يأتمروا بالاوامر التي تصدر لهم من برلين فأخبرته بأنني متفهم تماما لآرائه وبعد ايام قلائل ذكرت لهتلر كل ما قاله الدكتور زايس انكوارت كلمة كلمة .

وقلت له بأن ازاحة ليوپولد عن النمسا تجعل المقابلة بينه وبين شوشنيغ أكثر سهولة .

وفي برلين اخبرني اصدقائي من قادة الجيش الالماني باحتدام الصراع بين القادة من أجل الوصول للنفوذ والسلطان بينما يحاول هتلر تشديد قبضته على الجيش تمهيدا لتنفيذ نواياه العدوانية وقد لقي عند اشارته

لخططه الهجومية في المؤتمر السـري الذي عقـده لقـادة الجيش الألماني في ٥ تشرين الثاني ١٩٣٧ معارضة من القائد العـام للقوات البرية الفريق الأول البارون فون فريتش ورئيس الاركان الفريق لودفيغ بيك. وقيل لي انه ظهرت في هذه الفترة قوتان تنافسان الجيش الالماني على مكانته المرموقة في المجتمع اولاهما القوة الجوية التي حظيت برعاية قائدها المتنفذ هرمان غورنغ والتي تم تشكيلها حديثا وثانيتهما هي قطعات الحماية التي شكلها هاينريش هملر وتولى قيادتها الى جانب رئاسته لمنظومة الشرطـة السرية للدولة المرهـوبة الجانب . وهكذا نشب تنافس شديد غير منظور بين هملر وغورنغ من اجل التسلط بالقوات التي تأتمر بأمرهما ولم يتورع الاخير عن الحط من قدر وزير الجيش المشير فون بلومبرغ عندما زين له الزواج ـ بعد ترمله ـ من امينة سره التي هام بها حبا ثم فضحه على رؤوس الاشهاد لانه اثبت للملأ ان سمعتها ليست فوق الشبهات.

وهكذا تم التخلص من فون بلومبرغ كما تم التخلص من البارون فون فريتش قائد القوات البرية بعد أن الصقت به تهمة شنيعة أعطت التبرير لازاحته عن منصبه الرفيع ثم ثبتت بعدئذ براءته منها بالدليل القاطع.

ان كل ما أصفه هنا كان في ذلك الوقت مجرد تخمينات غير مؤكدة لأن الكتمان كان السيماء العامة للنظام النازي. وقد أدت هذه الاحـداث الى امتعاض هتلر وعزوفه عن القاء خطابه المألوف في ذكرى توليه السلطة يوم ٣٠ كانون الثاني من كل عام في سنة ١٩٣٨ .

الفصل الخامس والعشرون

الوَحْدَة

اقلت من منصبي . هتلر يريد مقابلة شوشنيغ . عرفت الحقيقة في محاكمات نورمبرغ . لقاء في برختسفادن . طلبات هتلر . بروتوكول كيبلر . الوحدة . اعظم خطابات هتلر امام مجلس النواب . اجابة شوشنيغ . اشد ضغط من پاريس . شوشنيغ يطلب مهلة . محادثة غورنغ الهاتفية . امر بالتقدم للجيش الالمـاني . مراقبة عن كثب . اختفاء كيتيلر . عودتي للوطن .

في ٢٤ شباط ١٩٣٨ وصلت ازمة الجيش الالماني الى اوجها. ولكَي يصرف هتلر اهتمام الرأي العام في داخل المانيا وخارجها فانه لجأ الى اثارة أزمة أخرى جديدة باصدار أمر التقدم نحو النمسا واحتلالها بالقوة . وكنت قد جلست في مساء ذلك اليوم وأنا خالي البال بمكتبي في شارع مترنيخ عندما تلقيت نداء هاتفيا من برلين وقال المتكلم على الطرف الآخر:

« هنا دار المستشارية . انا أمين سر الدولة الدكتور لاميرز. انالمستشار يود تبليغكم بأن مهمتكم في ڤينا قد انتهت. وعليه فقد امرني بتبليغكم بذلك

قبل أن تقرأونه في صحف الصباح».

فانعقد لساني برهة ثم سألته:

« هل لك أن تخبرني بالسبب الذي اقتضى اتخاذه هذا القرار بصورة مفاجئة . اذ كان بمقدور الزعيم تبليغي بذلك عندما قابلته ببرلين قبل أيام قلائل ؟»

فأجابني الدكتور لاميرز:

« ان هذا جزء من تدبير شامل فقد اقيل معكم السادة فون نويرات وفون هاسل وفون ديركسن . وهذا اجراء يؤسفني كثيرا ولا يمكنني ان اقول أكثر من ذلك » .

وضعت السماعة بهدوء ولكن المفاجأة لم تكن ضئيلة بالنسبة لي وقد بحثنا هذه القضية باسهاب ضمن نطاق العائلة التي عاشت معي طوال اربع سنوات حافلة بالجهد المضني والتفاني في تحقيق الآمال القومية ولمست معي عن كثب مدى النجاح الذي حققته بفضل المساعي الحثيثة التي سرت بها ببطء حتى ادركت الغاية المرجوة بشكل يعجز عنه غيري.

وكنت قد وافقت على المجيء الى ڤينـا لأن المهمة التي كلفت بها كانت مهمة حيوية بالنسبة لبلادي وقد سبق لي ان استعرضت في خاطري الموقف الذي كان سائدا عندما قابلت هتلر في بايرويت. اذ كانت الحالة في منتهى السوء والى الحد الذي جعلها حالة ميئوس منها تقريبا . لكنني كنت متفائلا وكنت على ثقة من امكانيتي على تحسين العلاقات الالمانية النمسوية . والآن اقالني هتلر بعد ان حققت النجاح الباهر واثمرت جهودي وثبت اخلاصي وتأكدت صحة سياستي بفضل الصبر الذي اتسمت به وبفضل الاصدقاء الكثيرين الذين كسبتهم . حتى لقد ساد شعور بأنني اتحرى عن حل لقضية النمسا لا يحقق المزايا لألمانيا وحدها . كما ان الموقف الدولي قد تطور نحو الافضل بعد احداث حزيران ١٩٣٤ المؤسفة. اذ تحول العالم الى الشعور بأن قضية النمسـا والمانيا هي مسألة داخليـة بين بلدين شقيقين . وحتى موسوليني كف عن مقاومته للوحدة. لقد حدث هذا التحول بصورة مفاجئة

دون ان تظهر أسبابه الحقيقية للعيان.

لقد ادركت وادركَ معي اصدقائي المقربين بأن هتلر حقق اغراضه من وجودي في ڤينا وانه على وشك تبديلي بأحد أعوانه • وواضح ان ساعة الحسم قد دنت بالنسبة للنمسا وفقـا لحساباته لا سـيما وانه لابد ان يجد الوسيلة المناسبة للتحلل من الوعد الذي سبق ان قطعه لي بتحاشي اللجوء للقوة في معالجة قضية الوحـدة مع النمسا. حيث انني درجت في كل ممـارساتي السياسية على تجنب اللجوء للسلاح في حل اية قضية مع الاشقاء خشية توسع النزاع وتحوله الى حرب اوربية لا تحمد عقباها.

لجأت في تعاملي الدبلوماسي الى طريقة غير مألوفـة وذلك بتقديم تقاريري الى هتلر مباشرة وقد رجوته مرارا منع تدخل رجال الشرطة السرية للدولة في نشاط السفارة بسبب طبيعة السياسة التي كنت امارسها في النمسا.

زارنا في البيت مساء احد تلك الايام البارون ڤيلهلم فون كيتيلر وهو صديق حميم ومن اعواني المقربين وقد نصحني بالاحتفاظ بالوثائق المهمة في مكان امين مبررا ذلك للاستفادة منها امام المحاكم في حالة اقدام هتلر على تطبيق خططه المتضمنة اجتياح النمسا عنوة • وعرض استعداده لتولي هذا الامر • لاسيما بعد ان ظهرت بوادر تؤكد نوايا هتلر الوشيكة التطبيق منها اقالة البارون فون نويرات وتعيين يواكيم فون ريبنتروپ وزيرا للخارجية واقالة عدد من قادة الجيش الالماني الكبار وتسمية هتلر لنفسه قائدا عـاما للجيش. أما انا فقد ادركت انطباق المثل الشائع على حالتي:

« لقد أدى المراكشي مهمته. وآن للمراكشي ان ينصرف »

ألا ان حب الاستطلاع المتأصل في نفسي دعاني بالحاح لاستشفاف ما كان يدور وراء الستار والتوصل الى قرارات هتلر دون ابطاء.

في صباح ٥ شباط ١٩٣٨ ودعت زملائي رجال السفارة الألمانيـة بڤيـنا وكتبت مذكرة للحكومة النمسوية اشعرها فيها بانتهاء مهمتي لديها. كما تلقيت رسالة خطية من زوجتي وأولادي يشيدون فيها بالأيـام الحلوة التي قضوها

في النمسا واقاموا فيها علاقات حميمة مع اصدقاء كثيرين واستمتعوا بوجودهم بشكل منقطع النظير.

سافرت بقطار الظهر الى زالتسبورغ ومنها عرجت على مقر هتلر في برختسغادن . ولما قابلته قلت له بأنني يؤسفني توقف فعالياتي بالنمسا بعد ان سرت على سياسة ودية مع الحكومة النمسوية وهي السبيل الوحيد لتحقيق الاماني القومية ولاحظت انه كان يتطلع نحو الفراغ الفسيح امامه وواضح انه كان يمعن النظر في أمر غاب عن خاطره ويبدو انه افتقد وجودي في ڤينا بعد أن قطعت شأوا بعيدا في سبيل تحقيق الوحدة المنشودة . أما أنا فلم اشأ اعطائه أي انطباع بأن مقابلتي له كانت للتظلم والاسف على فقدان المنصب وانما لأذكره بما سبق ان وقع عليه في بايرويت.

ولما قلت له هذا انتفض كمن تذكر أمرا غاب عن خاطره . فأنا لم أكسب خلال السنوات الاربع المنصرمة ثقة المستشار النمسوي فون شوشنيغ فحسب وانما كسبت ثقة الكثيرين من كبار الزعماء النمسويين ورجال الدولة النمسوية لدرجة تجعل من العسير على من سيخلفني متابعة النهج الذي وضعت قواعده الراسخة. ثم انني أخبرت هتلر بأن المستشار فون شوشنيغ ابدى رغبته منذ كانون الاول ١٩٣٧ في اجراء مقابلة شخصية معه لكي يتم التفاهم بينهما على حل الكثير من المسائل المعلقة وقد كرر هذه الرغبة مرات عديدة.

وعلى الرغم من صدور أمر اقالتي فانني أرى ان تبادل الآراء بين الرجلين بصورة مباشرة ـ وفق الاسس المقررة في اتفاقية تموز ـ لابد أن يؤدي الى ازالة أي ضرر وشيك على اقل تقدير . وانني آمل الا يخيب هتلر هذه الرغبة التي ابداها المستشار النمسوي خشية ان تتدهور العلاقات بشكل لا سبيل معه لاصلاحها.

اصغى هتلر لاقوالي بجماع فؤاده عندما حدثته بهذا الحديث واخبرته أن مقابلته الشخصية للمستشار النمسوي ربما ستؤدي بهما الى المسلك

الوحيد المتاح لحل المشكلات المعقـدة القائمـة بين البلدين • وحيث انني لا يمكنني الرجوع الى ڤينا أجد لزاما علي ان اقوم بآخر محاولة في سبيل الوحدة الالمانية ـ النمسوية بتقديم هذه المشورة الخالصة • أخذ هتلريدي وشد عليها بكلتا يديه قائلا:

« ان هذه فكرة رائعة • وانني ارجوك الرجوع الى ڤينا لاجـراء ترتيبات المقابلة خلال الايام القلائل القادمة ويسرني كثيرا أن اقابله هنـا لكي تتحدث عن كل شيء بصراحة تامة »•

« ان هذا غير ممكن أبداه لأنني قدمت مذكرة اقالتي للمستشارية الاتحادية النمسوية ولم أعد معتمدا لديها• اضف الى ذلك ان الصحافـة العالمية نشرت اليوم نبأ اقالتي من منصب السفير في ڤينا»•

فأجابني هتلر :

« ان هذا لا يهم وانني لارجوك رجاء حارا يا سيد فون پاپن ان تعود لاستلام مهمة السفير في ڤينا ثانية ريثما استكمل محادثاتي الشخصية مع المستشار النمسوي»•

قلت في نفسي ان الرجل الماثل امامي برهن بعمله هذا على جهلهالمطبق بالاعراف الدبلوماسية وتصورت مدى السخرية التي ستتعرض لها حكومتي عندما يجدني القوم في ڤينا بين ظهرانيهم • ولكن الامر الذي يبرر التضحية هو املي بأن ينطوي رجوعي الى ڤينا على آخر خدمة يمكن ان اسديهـا للنمسا في محنتها•

وافقت على طلب هتلر • (ولو كنت على بينـة من اتصال غورنغ آنذاك بغويدو شميت لما وافقت على الطلب او لربما كنت قد ساومت هتلر على طلب مشروط) يحدوني الامل بأن تتمخض المحادثات الشخصية بينالمستشارين الالماني والنمسوي عن توثيق روابط الصداقة بشكل يقربهما من الوحدة

وكان هتلر حريصا في تلك المرحلة بعد اقالته للفريق فون فريتش[١] وفضيحة الفريق فون بلومبرغ[٢] وتسميته لنفسه قائدا عاما للجيش الا يصور للرأي العام العالمي بأنه يبغي من هذا الاجراء الاستعداد لخوض حرب عدوانية.

وكنت من جانبي على ثقة تامة من ان هذه الوسائل الملتوية حتى وان حققت الاغراض السياسية في بعض الاحوال الا انها تعتبر من اللعبات الخطرة التي تتناقض مع امن الدولة الالمانية .

رجعت الى ڤينا يوم ٧ شباط ١٩٣٨ وانا غير مصدق عودتي وقوبلت بنظرات الاستغراب من زملائي الذين ودعوني قبل يومين وتوجهت فور وصولي لمقابلة المستشار النمسوي.

واود هنا قبل ان اتفصل في المقابلة التي اجراها المستشار النمسوي مع هتلر في اوبر زالتسبرغ يوم ١٢ شباط ١٩٣٨ ان اعرض للقاريء الكريم نص الاتهام الذي وجه الي في محاكمات نورمبرغ توخيا مني للحقائق التأريخية :

لقد بذل فون پاپن قصارى جهوده لتقوية مركز النازيين النمسويين عندما كان سفيرا لبلاده في ڤينا بقصد تحقيق الوحدة ... وقد ادى بعمله

---

(١) منح هتلر العميد فون فريتش رتبة فريق وجعله رئيسا لاركان الجيش الالماني خلفا للفريق فون هامرشتاين ثم انه تعرض لامتهان سمعته الشخصية عندما اتهم بقضية اخلاقية ـ ثبتت فيما بعد برائته منها ـ فاقاله هتلر من منصبه ولما نشبت الحرب العالمية الثانية تطوع فون فريتش للخدمة برتبته السابقة (عميد مدفعي) وصار آمر مدفعية فرقة وقتل بصلية رشاش متاثرا بجراحه البليغة في معركة اقتحام وارشو يوم ١٧ أيلول ١٩٣٩ .

ـ المترجم ـ

(٢) اقام الفريق فون بلومبرغ علاقة حميمة مع احدى امينات سره ـ وكان ارملا ـ ولما تزوج منها تبين للشرطة السرية انها من ذوات السمعة المشينة وان لها اضبارة لدى شرطة الآداب ولما فوتح العريس الشيخ بأمر المراة التي تزوجها أعلن عن تمسكه بها في جميع الاحوال فاقيل من منصبه .

ـ المترجم ـ

هذا الى تغيير طبيعـة الحزب النازي النمسوي بحيث صار يعتبر الحزب النازي الالماني هو المركز الذي تتجمع حوله كل الحركات القومية الالمانية».

كما اتهمني المدعي العام السيد كاميل زاكس بالتهمة التالية:
« ولتحقيق غـرض الوحـدة فان پاپن انتقص من استقلال النمسا وجعلها خاضعة لنظام الحكم النازي».

ولكي يدلل الادعاء العام على هذه الاتهامات فقد زعم انني استدرجت المستشار النمسوي شوشنيغ بكل خبث الى برختسغادن بقصد اجباره على الاذعان لطلبات هتلر التي سبق ان دبرتها معه منذ امد طويل.

والواقع هو انني كنت قد لاحظت منـذ تشـرين الثاني ١٩٣٧ تدهور العلاقات الالمانية النمسوية بشكل مضطرد فأقترحت على المستشار شوشنيغ القيام بمقابلة شخصية لهتلر وتسوية الاختلافات القائمة بين الدولتين بصورة مباشرة كما طرحت نفس الفكرة في كانون الاول ١٩٣٧ على كل من وزير الخارجية فون نويرات والمستشار هتلر . وكنت قد نصحـت المستشـار النمسوي في تلك الفترة بتبديل وزير داخليته الخامل غلايزه هورستينـاو واعطائـه منصب وزاري آخر لكي يتمكن شوشنيغ من السيطـرة على الاضطرابات ويسوي الخلافات القائمة بين حكومته والنازيين النمسويين.

في ٧ كانون الثاني ١٩٣٨ زرت الدكتور غويدو شميت لكي أخبره بأن استمرارنا على تبادل المذكرات الرسمية سوف يكون وسيلة غير ناجعة في معالجة المشاكل القائمة بين البلدين . وعليه فان لقاء المستشارين الألمـاني والنمسوي لابد وان يؤدي الى حل المشكلات القائمة بصورة مباشرة. وقد عاد شميت بعد مقابلته للمستشار شوشنيغ وكتب لي جوابا تحريريا قال فيه ان الوقت الراهن يناسب تماما لاجراء المقابلة المقترحة وهو يرجو ان تتخذ المقابلة صفة سرية.

وفي ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٨ قابلت الدكتور شميت ثانية واخبرته بأن هتلر يدعو المستشار النمسوي لمقـابلته في ١٥ شباط ١٩٣٨ لتلبيـة هذه

الدعوة. فعرض لي الدكتور شميت بهذه المناسبة شكواه من مخالفات عديدة للاتفاقية المبرمة وسمى بعض الحالات التي يشكو بها من المانيا وقال ان مثل هذه الحالات لابد وأن تؤدي الى تدهور العلاقات الحسنة القائمة بين البلدين فسجلت كل ما اشتكى منه وأخبرت برلين بفحواه .

وتوضح اضابير وزارتا الخارجيتين بأن مقابلة المستشارين لم تدبرمن قبلي بصورة منفردة وانما كانت حصيلة مشاورات تمت بيننا واستمرت لمدة عدة اسابيع.

كانت اقالتي المفاجئة في ٤ شباط ١٩٣٨ مباغتة تامة للحكومة النمسوية واستشفت منها عزم الحكومة الالمانية على نقض الاتفاقية المبرمة بين البلدين في ١١ تموز ١٩٣٦.

ومما زاد في الطين بلة أن تناهى الى أسماع الحكومة النمسوية عزم المانيا على ترشيح بيوركل خلفا لي وكان هذا قد عمل محافظا لأقليم السار وحاز هناك سمعة لا يحسد عليها. كما ان ازمة قادة الجيش الالماني واقالة وزير الخارجية البارون فون نويرات وتسمية يواكيم فون ريبنتروب وزيرا لخارجية المانيا دعت المستشار النمسوي للتعجيل بمقابلة هتلر قبل أن تتدهور العلاقات القائمة بين البلدين الى حد تصعب معه معالجة التدهور المضطرد.

وقد ادلى الدكتور غويدو شميت بافادة غادرة امام محكمة نورمبرغ قال فيها بأن المستشار شوشنيغ جمع اعضاء حكومته يوم عودتي الى ڤينا في ٧ شباط ١٩٣٨ واخبرهم بأنه عازم على تلبية دعوة هتلر لمقابلته وانه اخبر موسوليني برغبته هذه فأيد اجراء المقابلة.

كما ان الدكتور شميت زعم بأنه اخبر كلا من سفير بريطانيا وسفير فرنسا بخطط المستشار فون شوشنيغ. ويجب ان اؤكد هنا بأن الدكتور غويدو شميت لم يصن اسرار بلاده التي اؤتمن عليها ثم طفق يشهر بخيانته على رؤوس الاشهاد وكأنه يفاخر بما ينبغي أن يخجل من ذكره.

وقد اردف شميت امام هيئة المحكمة قائلا انه تلقى مني رسالة ذكرت

له فيها حراجة الموقف الداخلي في المانيا نفسها لدرجة لا يمكن معها التستر على سوء الاوضاع وانني أخشى من عدم استطاعة المستشارين بحث جميع المشاكل القائمة • وان مصير العلاقات بين البلدين سوف يتحدد في خطاب هتلر الذي ينوي القائه امام البرلمان في ٢٠ شباط ١٩٣٨ •

ثم قال شميت :

« ان فون پاپن اعطى للمستشار شوشنيغ فكرة مغلوطة بوجوب استغلال الظرف القائم لاسيما وان المانيا تعاني من اضطراب الموقف الداخلي فيمكنه تحقيق الكثير من النتائج لقاء ثمن بخس»•

ولكي افند شهادة الدكتور غويدو شميت فانني استشهد بشهادة الدكتور فون هورن بوستل امين السر العام لوزارة الخارجية النمسوية آنذاك والذي لم يكن معروفا بصداقته لالمانيا حيث قال:

« لقد حصلت على انطباع اكيد بأن زيارة المستشار شوشنيغ لبرختسغادن كانت أمنية حرص كثيرا على تحقيقها لأنه أيقن بأن محادثة الرجل للرجل يمكن ان توضح معالم موقف كل منهما بالنسبة للآخر• وطالما اعرب المستشار الاتحادي عن هذه الفكرة لمحدثيه في كثير من المناسبات قائلا انه يرى من الافضل التحدث للرجل (أي لهتلر) نفسه واستجلاء وجهة نظره »•

واعترف هورن بوستل بأنه هو الذي اخبر السفيرين البريطاني والفرنسي بأمر المقابلة قبل حصولها وان كليهما ذكر له ان هذا هو المسلك الوحيد المتاح للمستشار النمسوي•

وقد اتهمني شوشنيغ فيما بعد بأنني وعدته قبل قيامه بمقابلة هتلر في ١٢ شباط ١٩٣٨ بوجود منهج محدد للمواضيع التي سيتم بحثها وانه لم يجد مثل هذا المنهج الموعود • ويجب ان اؤكد هنا بأن المنهج الذي اشار اليه كان يتضمن وجوب بحث جميع المسائل المعلقة بين البلدين • وهذا ما تحقق فعلا في تلك المقابلة • ولكي ادحض مزاعم شوشنيغ هذه فانني اشير الى

ما اكده مدير الشعبة الالمانية بوزارة الخارجية النمسوية بهذا الصدد حيث قـال :

« وذكر الجانب الالماني بأنه سوف لن يصدر برنامج محدد للمقابلة».

ومن الطبيعي ان لكل من الطرفين رأيه بالمقابلة وما ينبغي ان يتطرق اليه المستشارين في لقائهما. وقد حرص الجـانب النمسوي على محـاولة استشفاف الطلبات المحتملة التي سيتقدم بهـا هتلر دون الاخـلال بروح الاتفاقية المبرمة بين البلدين في ١١ تموز ١٩٣٦ وكنت متفقا مع شوشنيغ بالرأي تماما فيمـا يتعلق بالتمسك التـام باستقلال النمسا والحفاظ على سيادتها. وقد اتفقت معه على وجوب مراعاة هذه النقطة بالذات بالاتصال المباشر فيما بيننا بعد اختتام المباحثات التي سيجريها مع هتلر.

اما الاستحضارات التي قام بها الجانب النمسوي فهي ان المستشار شوشنيغ كلف السيد تسرناتو وهو اقرب معاونيه وامين سر الجبهة الوطنية بمهمة اعداد المقترحات التي يراها مناسبة للبحث بالتعاون مع الدكتور زايس انكوارت المرشح من قبل المانيا لتولي وزارة الداخلية النمسوية . ولما كانت هذه القضايا مقتصرة على السياسة الداخلية فقـد استبعد شوشنيغ وزير الخارجية النمسوية الدكتور غويدو شميت من الاشتراك معهما في اعـداد المقترحات . الا ان الأخير تلقى الاقتراحات المذكورة قبيل سفره مع المستشار الى برختسغادن . وهذه المقترحات مبينة كلها في اضبـارة محاكمة الدكتور غويدو شميت . ومن مطالعتها يتبين مدى اهمال الدكتور تسيرناتو ورئيسه المستشار شوشنيغ لروح اتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ وتعمدهما الاخلال بها وليس ادل على ذلك من استعراض بعض النقاط المشار اليها:

« ان المستشار الاتحادي يرى ضرورة اكمال الاجراءات الواردة في اتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦، اذا ما حصل الاتفاق مع السادة المسؤولين من الدولة الالمانية في المساهمة معه في تحمل مسؤولية اكمال تلك الاجراءات من حيث:

١ ــ تجاوز الاتصالات الرسميــة بين المانيا والمسؤولين النمسويين

باجراء اتصالات عملية في المجال السيـاسي بتوسط شخصي يقوم به المدير العام زايس انكوارت. وعلى اية حال فان اية اتصالات غير شرعية قد تتم مع المانيا يمكن ان تقبل اعتراضات الدكتور زايس انكوارت عليها.

٤ ــ تكون جميع الصحف والمجلات التي توضع تحت اشراف الدكتور زايس انكوارت سائرة وفق النهج السياسي الذي يقرره سلبا او ايجـابا ومتحررة من جميع القيود.

٧ ــ مما لا شك فيه ان هناك مفاهيم اساسية تقضي باشراك العناصر النازية غير المرتبطة بالحزب النازي في منظومات الدولة النمسوية الحديثة.

٨ ــ ان الحالات التي حصلت قبل ١١ تموز ١٩٣٦ تتطلب اصـدار عفو عام عن المساهمين بها خلال فترة محدودة. ولابد ان يتبع ذلك العفو شطب العقوبات التبعية المترتبة على العقوبات الاصلية لاولئك الافراد..

٩ ــ بعـد ترتيب التعاون العسكري الوثيق بين البلدين يتطلب الأمر توحيد التدريب والتجهيز. وهذا يقتضي توحيد التوجيه السياسي باعتماد ما هو متبع لدى الجيش الالماني من تثقيف نازي.

١٠ ــ ينبغي العمل على تطعيم عدد من اعضاء التجمع الوطني في مناصب حساسة (دوائر الدولة والولايات ومجالس البلدية ..الخ) امثال:

المدراء العامون ــ الدكتور يوري ، الدكتور لانغوت ، الاستاذ الدكتور فون زربيك.

مدير الاقتصاد الاتحادي ــ راينتهالر

كما يقتضي تعيين كـلا من فيلكس كراوس والدكتور فريدريش راينر والاستاذ مينغهين.

١١ ــ يكلف الدكتور زايس انكوارت حال وضع هذه النقاط موضع التنفيذ بمهمة التصدي لأية محاولات للتدخل وبخـاصة محاولات احباط التعاون السلمي بين الطرفين».

ولما سئل الدكتور غويدو شميت عن تلك النقاط فيما بعد قال:
« لقد وضعت هذه النقاط باتفاق حصل بين الدكتور زايس انكوارت وتسرناتو» •

وواضح انفحوى هذه الوثيقة اعطاه زايس انكوارت الى ڤيلهلم كيبلر والأخير كان مندوب هتلر غير الرسمي• اما شميت فقد قال عن هذه القضية:
« كما ان تسرناتو قال لي أيضا بأن هنـاك تعاونا وثيقا بين زايس وكيبلر • ولذا فان هتلر كان على بينة من كل ما عند شوشنيغ قبل مقابلته في برختسغادن » •

كما أكد شميت بأن حديثا مطولا دار بين المستشار شوشنيغ وزايس انكوارت وتسرناتو قبل سفر المستشار لملاقاة هتلر وان ذلك الحديث امتد بهم حتى ساعة متأخرة من الليل • ولكن الاسترسال في بحث النقاط المهيـأة من قبل المستشار النمسوي جعلها معلومة بكل تفاصيلها لنظيره قبل وصوله الى برختسغادن حتى لقد قال شوشنيغ نفسه :

« عندما اصبحت الدعوة ضرورية طلبت من زايس انكوارت وتسرناتو اعداد مسودة تتضمن الأسس الواجب بحثها في برختسغادن »•

وقد انطوى تسليم زايس انكوارت لاسرار المستشار النمسوي التي اؤتمن عليها الى كيبلر على الغدر لأنه جعل هتلر بعمله هذا على علم بما لدى نظيره النمسوي فكسب بذلك سببا اضافيا لضمان التفوّق عليه • أمـا أنـا فكنت في جهل مطبق بشأن هذه الواقعة ولم ادر بما كان مبيتا للمستشار النمسوي• وقد قال الدكتور فريدريش راينر في خطبة القاها عام ١٩٤٣ امام زعماء الحزب النازي في النمسا للتدليل على مدى مساهمته في التدابير التي أجريـت لتحقيق الغـرض المطلـوب من مقـابلة هتلر لشوشنيغ في برختسغادن :

« كان الشخص الوحيد الذي لم يزود بأية معلومـات عما سيتم في مباحثات بيرغهوف هو السفير فون پاپن•

أما نحن الآخرين فكنا جميعا على بينة من جميع التفاصيل التي سبق ان بحثت في مجلس الوزراء النمسوي، ذلك لأن وكلائنا كانوا منبثين في كل مكان وصولا الى غرفة نوم المستشار شوشنيغ ».

وأنا لا ألوم المستشار شـوشنيغ في تصوره انني أنـا الذي أفشـيت لهتلر الاسرار التي افضى بها الدكتور زايس انكوارت، ولكنه غير صادق في مزاعمه بأنه بوغت تماما بالموقف الجديد الذي صادفه عند التقائه بهتلر في برختسغادن . فهو لابد أن عرف طلبات هتلر من الرسائل المتبادلة مع هرمان غورنغ ولو قارنا بين فحوى تلك الرسائل والنقاط الملمع عنها آنفا فيملحوظات شوشنيغ لتبين لنا مدى ضآلة الفرق بين طلبات هتلر ونقاط شوشنيغ.

تم الاتفاق على تحديد يوم ١٢ شباط ١٩٣٨ موعدا للقاء المستشارين الألماني والنمسوي . وكان ان سـافرت الى برختسغادن مساء اليوم السابق لـكي أقوم بمهمة اسـتقبال المستشار النمسوي عنـد الحدود النمسوية في صباح اليوم التالي ومرافقته لمقابلة هتلر . وقد قابلت في الفندق أحـد امنـاء سر الوزير فون رينتروب الذي أخبرني بأن الوزير سيحضر ذلك اللقاء في اليوم التالي، كما قال ان الفريق ڤيلهلم كايتل الذي يعتبر مناقرب العسكريين الالمان لهتلر سيكون حاضرا ايضا بالاضافة الى كل من الفريق فون رايخناو والفريق شپيرله، وكان فون رايخناو قائد المنطقـة العسكرية الجنوبيـة المصاقبة للحدود النمسوية اما الفريق شپيرله فكان قائد القاطع الجويلمنطقة باڤاريا.

ولقد تصورت آنذاك بأن استدعـاء هتلر لاولئك القادة الثلاثة كان لمعالجة الموضوع الاثير لديه ــ وهو ترتيب ضم الجيش النمسوي لجيشنـا والاستئناس بآرائهم في هذه المسألة عند الاقتضاء.

فوجئت عند الافطار بالفندق صباح يوم ١٢ شبـاط ١٩٣٨ بوجود نازي نمسوي كنت اعرفه حق المعرفة وهو الدكتور ميوهلمان والذي قيل لي انه مقرب من وزارة الخارجية النمسوية . ولما سألته عمـا جاء به الى

برختسغادن برر وجوده بالاشتراك في المحادثات المهمة التي قيل له انها ستتم في ذلك اليوم. وقد ثبت في محاكمات نورمبرغ فيما بعد ان الدكتور ميوهلمان كان يزود وزارة الخارجية النمسوية بمعلومات سرية عن نشاط الحزب النازي النمسوي. وكان ان تحدثت مع الرجل مليا بشأن حالات عدم التفاهم الصادرة عن كلا الجانبين وقلت له ان مهمة خلفي ستكون اكثر سهولة نظرا لأن التقارب من شأنه ان يجعل علاقة السفير الالماني بالحكومة النمسوية وطيدة .

ثم سألني الدكتور ميوهلمان:

« ألا تظن ان هتلر سيكون مستعدا لتسمية الدكتور زايس انكوارت لمنصب وزير الداخلية لمعالجة القضايا المتعلقة بالاحزاب النمسوية ؟». فأجبته :

« هذا ما لا اعلمه . ولكنني اعتقد بأنه اكثر الناس ملائمة لاشغال هذا المنصب على الرغم من كونه غير نازي».

وكنت أظن في قرارة نفسي ان هتلر لا يرتاح لزايس انكوارت لأنه يتمتع بثقة المستشار فون شوشنيغ. وعندئذ ومضت في خاطري فكرة تكليف الدكتور ميوهلمان بمهمة طرح مقترح تعيين زايس انكوارت وزيرا لداخلية النمسا على هتلر فقال لي ميوهلمان :

« يسرني القيام بهذه المهمة».

وكان ان بر بما وعد على ما شهدناه فيما بعد . وكان هذا المقترح ضروريا.

وصلت الى نقطة الحدود الالمانية ـ النمسوية قرب زالتسبورغ بالساعة الحادية عشرة من صباح ذلك اليوم واستقبلت المستشار فون شوشنيغ ووزير خارجيته غويدو شميت ومرافقه الذين كانوا قد باتوا ليلتهم السابقة في زالتسبورغ ولما قابلتهم سألوا عن اية تطورات جديدة واستفسروا عن الوقت الذي سيقابلون به هتلر . فأخبرتهم بما كنت اعلمه وقلت لهم ان

هتلر بانتظارهم في برختسغادن ومعـه وزير الخارجية الجديد فون ريبنتروپ والفريق ڤيلهلم كايتل والى جانبهما قائدين آخرين.

وقد علمت فيما بعد ان الضيوف تأثروا لسماعهم بوجود اولئك الفرقاء الى جانب هتلر . أما ما ذكره السيد شميت في محاكمته من انه خشي آنذاك من اقدام هتلر على اعتقالهم حال وصولهم للحدود الالمانية فان مثل هذه التصورات الحمقاء لم تخطر على البال مطلقا. كما ان هتلر لم يجعل العلاقات الخارجية مع دولة ما رهينة بالممارسات السياسية الداخلية لتلك الدولة على غرار ما حصل بعدئذ مع الرئيس التشيكوسلوڤاكي هاشا في ١٥ آذار ١٩٣٩.

وصلنا ــ انا والضيوف النمسويون ــ بعد نصف ساعة الى مدخل مقر هتلر في برختسغادن فوجـدناه بانتظار زميله النمسوي عنـد عتبـة المدخل فأستقبل ومرافقيه بكل توقير ثم مـا لبث هتلر ان صحب المستشـار فون شوشنيغ الى مكتبه فتكلما على انفراد لفترة امتدت حتى موعد الفطور وفي هذه الاثناء تناقشنا أنا وشميت وفون ريبنتروپ بالمشكلات القـائمة . أمـا الفرقاء الثلاثة فلم يظهر أحد منهم في تلك الفترة.

كانت تلك الزيارة أول مناسبة رسمية يساهم بها وزير خارجية المانيا الجديد بعد تعيينه المفاجيء بمنصبه المهم في ٤ شباط ١٩٣٨. وكنت اعلم بأن فون ريبنتروپ لديه شعور دائم بعدم احترام الآخرين لشخصه وعليه فقد اتخذ لنفسه سيماء التصرف الرسمي المطلق. لكنني حاولت في تلك المقابلة اضفاء طابع شخصي على اللقاء لأنني أعرف بأن معلومات فون ريبنتروپ عن القضايا النمسوية كانت غير كافية ابدا وانه بحاجة لمساعدتي وقد استهـل فون ريبنتروپ حديثه بكلمة جوفاء فاجأ بعدها وزير الخارجية النمسوي بقائمة المقترحات الالمانية لمواضيع المناقشة وقال له ان المقترحات المذكورة حظيت بموافقة الزعيم على طرحها للبحث وان المقترحات المعروضـة ستكون الخطوط العامة التي ستناقش تفاصيلها في الاجتماع. ولاحظت عن كثب مدى المعاملة الجافية المجردة من اللياقة التي ابداها وزير الخـارجية الالماني نحو زميله النمسوي بينما لاحظت على السيد شميت احتفاظه بدماثة خلقه رغم الشعور

الواضح بالغبن الذي ارتسم على محياه عند مطالعته للورقة المطبوعة بأناقة بالغة والتي تناولها بكل هدوء • أما أنا فلم أكن على بينة من أيــة مقترحــات المانية قبل تلك اللحظة ولما اطلعت بدوري على الوثيقة المعروضة الفيتها تحتوي مطالب عسيرة التنفيذ منها وجوب اعتراف الحكومة النمسويــة بالحركة النازية وتعيين زايس انكوارت وزيرا للداخلية والشرطة وتعيين الفريق غلايزه هورستيناو وزيرا للحرب بالاضافة الى طلب تنحية الوزير المفوض لودفيغ والعقيد آدم مدير شعبة الصحافة عن منصبيهما واحلال آخرين بدلا عنهما وكذلك تعيين الدكتور فيشبوك وزيرا للمالية لغــرض تسهيــل علاقــاتنا الاقتصادية•

لقد كان من الواضح جدا ان خلاصة الطلب الالماني تتضمن ازاحــة شخصيات نمسوية معينة عن المناصب التي تشغلها واحلال شخصيات اخرى معينة ايضا لتحل محلها وهذا هو عين التدخل في الشؤون الداخليةوالانتقاص من سيادة الدولة النمسوية • ثم انه كان بالامكان اقناع المستشار النمسوي بتعيين شخصيات مقربة اليه امثال زايس انكوارت وغلايزه هورستيناو دون الحاجة لتوجيه رسالة جافية تحتوي على عبارات ملؤها التسلط والاذلال كما جاء في الورقة الموجهة اليه والتي منها العبارة التالية:

« ينبغي على المستشار الاتحادي اتخاذ الاجراءات الآتية لمدة اقصاها ١٨ شباط ١٩٣٨ ••••»

عندئذ تحدث الوزير شميت بكلام حسن كنت اتمنى ان يقوله وقد ايدته في قوله عندما زعم بأن الاجراءات المطلوب اتخاذها تتنافى معالدستور النمسوى ــ وهذه حقيقة يجهلهــا فون ريبنتروب ــ ذلك لأن المستشار النمسوي ليس من حقــه اقالة أحد وزرائه أو تعيين أي وزير جديد وهكذا أصبحت المحادثات عسيرة وغير مثمرة بين الوزيرين نظرا لأن الوزير الألماني كان يجهل أوليات الموضوع الذي هو بصدده •

كانت فرصة تناول الفطور مناسبة لاسترداد الأنفاس وقــد أحاط خلالها المستشار فونشوشنيغ وزير خارجيته بطبيعة محادثاته معهتلر بصورة موجزة•

وكان هذا قد تولى دفة الحديث طوال تلك الفترة ولم يسمح لضيفه النمسوي بأن ينبس ببنت شفة ٠ كما انه اتهمه بممارسة فعاليات مناهضة للامة الألمانيـة وتخريب المساعي الوحدوية والاخلال باتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ ثم هدده باللجوء للوسائل القسرية اذا لم يقبل بالمقترحات الألمانية المعروضة عليه كما انه أكد له عدم احتمال التساهل في هـذه المقترحات أو تغييرها ٠ وقد كتب المستشار النمسوي فيما بعـد في كتابه الموسـوم « صلاة على روح الأحمر الأبيض الاحمر »[٣] سردا شاملا لتفاصيل تلك المقابلة المصيرية مع هتلر وعلى الرغم من تصوري لعـدم دقة التفاصيل التي أوردها فون شوشنيغ في كتابه الا انني لا أشك مطلقا بأنه تعرض لضغط هتلر الشديد ٠ وواضح ان فون شـوشنيغ أظهر جلدا يحمد عليه وبقي محافظا على أدبه الجم خلال تلك الزيارة ٠

ظهر الفرقاء الثلاثة على مائدة الفطور حيث تم تقديمهم للتعـارف مع الضيوف ٠ وكان تصرف هتلر في تلك الأثناء رصينا وظهر في غاية الأدب ٠

واقتصر الحديث خلال الفطور على الحرب الأهلية الاسـپانية فتحدث الفريق الطيار شـپيرله بشأن أنواع جديدة من الطـائرات وحول المشكلات السياسـية الراهنـة ٠ ثم مـا لبث الفرقاء أن لاذوا بالصمت المطبـق ولم يشتركوا مع المستشار فون شـوشنيغ بأي حـديث ٠ الا أنهم قـالوا للوزير شـميت بأنهم يجهلون السـبب الذي استدعوا الى برختسغادن من أجله ٠

بدأت بعد الفطور مباشرة الجولة الثانيـة من المحادثات واتسمت بالجدية الشديدة لانها تضمنت مناقشة طلبات هتلر المجحفه والتي سميت في محاكمات نورمبرغ «بروتوكول كيپلر» لأن ڤيلهلم كيپلر هو الذي وضع تفاصيلها بناء على توصيات هتلر ٠ والتي كانت كما ياتي:

مشروع الدكتور كيپلر لمحادثات يوم ١٢ شباط ١٩٣٨ ٠

---

(٣) هذه هي ألوان العلم الوطني النمسوي ٠ — المترجم —

« ١ ــ ان نتائج تبادل الآراء التي تمت هذا اليوم بين الزعيم ومستشار المانيا والمستشار الاتحادي الدكتور شــوشنيغ سوف يعطى النص المبين في (الملحق ١) لصحافة كلا البلدين بغية نشره في صحف يوم الاحد •

٢ ــ بناء على الاتفاق الحاصل سيقوم المستشار الاتحادي باتخاذ الاجراءات التالية في مدة أقصاها ١٨ شباط ١٩٣٨ •

أ ــ تقوم الحكومة النمسوية بمعالجة مشكلات السياسة الخارجية التي تهم البلدين بعد الاستئناس برأي حكومة المانيا وتقوم حكومة المانيا من جانبها بنفس الاجراء ازاء حكومة النمسا في الحالات المشابهة•

ب ــ تعترف حكومة النمسا الاتحادية بالحركة الاشتراكية الوطنية في النمسا وعليها قبول الفكرة النازية ومنحها الشرعية الدستورية • ولذا فان على حكومة النمسا الاتحادية الغاء المنع الصادر بشأن الحركة الاشتراكية الوطنية على ضوء الاعتراف المذكور اعلاه• وقد اوضح المستشار الاتحادي شوشنيغ موافقته على مواصلة انشاء منظومة للسياسة الشعبية•

ج ــ يسمى الدكتور زايس انكوارت وزيرا للداخلية مع تكليفه برئاسة جهاز الامن وعليه التمتع بالحقوق والواجبات المترتبة على ذلك مع مراعاة اعتبار الحركة الاشتراكية الوطنية كما هو مذكور في (ب) اعلاه•

د ــ يصدر المستشار الاتحادي عفوا عاما عن جميع الاشخاص الذين ادينوا من قبل المحاكم أو من قبل الشرطة لنشاطهم النازي • ويمكن للحكومة النمسوية اذا وجدت بقاء مثل اولئك الاشخاص في النمسا مهددا لحسن العلاقات القائم بين البلدين ان تقرر ابعادهم الى المانيا بعد الاتفاق بهذا الشأن مع الحكومة الالمانية•

هـ ــ ان العقوبات التأديبية الصادرة بحق الاشخاص بسبب نشاطهم النازي بما في ذلك العقوبات المالية التي تؤثر على التقاعد والاجور والمعونات المالية ونفقات التعليم ينبغي ان توقف وتتم تسويتها لاعادة حقوق اولئك الاشخاص•

و ـ يجب ازالة جميع العقوبات الاقتصادية الصادرة بحق النازين.

ز ـ تتطلب اعادة ثقة الصحافة من قبل الحكومة ازاحة الوزير لودفيغ عن منصبه وكذلك تنحية العقيد آدم عن عضويـة مجلس شورى الدولة وتعيين بديلين لهما.

ح ـ يتم انشاء العلاقات العسكرية بين القوات المسلحة الالمانية والنمسوية وفق الأسس التالية:

اولا ـ تسمية وزير الداخلية غلايزه هورستيناو وزيرا اتحاديا للجيش.

ثانيا ـ تبادل الضباط بين الجيشين (يحدد العدد بـ ١٠٠ ضابط).

ثالثا ـ توحيد عمل هيئات الركن.

رابعا ـ اقامة علاقات ودية وعلمية وفق خطط مدبرة.

ط ـ توقف جميع الاجراءات المتخذة ضد النازيين وبخاصة ضد العسكريين منهم ويكون هذا القرار ذو اثر رجعي.

ي ـ يتم الاستحضار لقبول النمسا في النظام الاقتصادي الالماني ويتم تعيين الدكتور فيشبوك بمنصـب وزير المالية لوضع هـذا القرار موضع التنفيذ.

٣ ـ تعترف الحكومـة الالمانية بالدكتور زايس انكوارت وزير الداخليـة الجديد بكونه الشخصية الوحيدة المناسبة لتنفيـذ الفقرة (٢.ب) من هذا البروتوكول . وستتخذ الحكومة الألمانية من جانبها التدابير الكفيلة بمنع النازيين الالمان من التدخل في الشؤون الداخلية للنمسا . ويقتضي ان يتم الاتفاق بشأن تنفيذ الفقرة (٢.ب) مع الوزير زايس انكوارت».

تداول فون شوشنيغ لفترة وجيزة مع شميت ثم عاد لاستئناف المفاوضات مع هتلر . وقد حصلت أزمة شديدة في الجولة الثانية من المفاوضات عندما ابدى المستشار النمسوي تمنعا في اقرار الطلبـات التي عرضها عليه هتلر.عندئذ تظاهر الأخير بالانفعال وهدد باجتياح النمسا في حالة عدم الموافقة على طلباته.وما أن غادر فون شوشنيغ مكتب هتلر لاعادة التداول

مع غويدو شميت الا وتناهى الى اسماعنا صراخ هتلر الذي فتح باب مكتبه بعنف وهتف صائحا بنبرة غاضبة:

« فريق كايتل • اين كايتل ؟ عليه ان يأتيني فورا »•

وقد انتفض كايتل ـ على ما رواه فيما بعد ـ وخف لتلبية النداء قائلا :

« ما الذي تأمره يا زعيمي ؟»•

فتهللت اسارير هتلر بابتسامة خصه بها واجابه:

« لا شيء ابدا • كل ما اردته ان تكون هنا قريبا مني»•

ويبدو من تفاصيل الواقعة ان هتلر أجرى هذه التمثيلية البارعة لمجرد الايحاء لشوشنيغ بأن القضية يمكن ان تتطور الى العدوان المسلح على النمسا • وكان هذا دور الفرقاء الثلاثة الذين دعوا الى برختسغادن في ١٢ شباط ١٩٣٨ • وقد كانت هذه الحادثة من جملة القضايا التي شكلت عناصر الاتهام في محاكمات نورمبرغ بدعوى ممارسة (وسائل الضغط القسرية)وهي تهمة جعلت انا ايضا من ضمن المسؤولين عن ممارستها•

عندما وصل الموقف الى هذا الحد من التوتر توجه نحوي شوشنيغ وشميت برجاء التدخل • فقلت لهتلر ان القضية لا يمكن ان تتم بهذه الطريقة نظرا لأن المستشار النمسوي لا يحق له اتخاذ الاجراءات المطلوبة لاسباب دستورية فهو ليس من حقه مثلا اقالة أي وزير أو تعيين أي شخص بمنصب وزير ولذا يجب عليه السفر الى بلاده واستحصال موافقة رئيس جمهورية النمسا• اما اذا لم يضمن المستشار النمسوي امكانية الحصول على الحد الاعلى من الطلبات الالمانية فانني اتعهد بالمساهمة معه في اقناع الرئيس النمسوي واستحصال موافقته• فوافق هتلر على هذا الرأي• وسرعان ما وجدت نفسي في خضم مأزق المفاوضات المطولة مع شوشنيغ وشميت اللذين اقنعتهما بوجوب عدم اهمال المباديء الواردة في اتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ • واخيرا توصلنا الى صيغة مرضية للطرفين تتوضح فيها طلبات المانيا المدرجة في مسودة كيلر ويمكن ان تكون مقبولة لدى المسؤولين النمسويين •

وتضمنت الصيغة المقترحة ما يلي:

ان البروتوكول الصادر نتيجة لمحادثات برختسغادن في ١٢ شباط ١٩٣٨ والذي تسميه المانيا (صيغة كيلر) يتضمن الفقرات التالية :

١ ـ ان الموعد النهائي الذي حددته المانيا بتاريخ لا يتجاوز ١٨ شباط ١٩٣٨ يقتصر على تعيين زايس واشراك النازيين بالجبهة الوطنية .. الخ . واصدار العفو العام ووضع الاسس المالية وتنسيق تعاون الصحافة.

٢ ـ ان الفقرة (٢،آ) المتعلقة بالسياسة الخارجية قد أبدلت في التحديد النهائي الى (اجراء المشاورات الدبلوماسية) بدلا عن (الاستئناس برأي حكومة المانيا) وتضاف لها عبارة (وتحصل النمسا على الاسناد الدبلوماسي والمعنوي وتأييد الصحافة سياسيا بالقدر الممكن من المانيا).

٣ ـ ان الفقرة (٢،ب) تتضمن اعتراف النمسا بالحركة الاشتراكية الوطنية وتضمن حكومة النمسا (عدم اتخاذ اية اجراءات من شأنها منع افراد الحزب النازي من ممارسة نشاطاتهم السياسية) وتعتمد التفاصيل الواردة بالبروتوكول الملحق بهذه الوثيقة ويمكن عند وصف مجال اشتغال زايس انكورات تبديل كلمة (الحركة) بكلمة (النازيين) اينما وردت فيه .

٤ ـ ان الفقرة (٢،د) من المسودة الالمانية تتضمن اصدار العفو العام المبينة تفاصيله في البروتوكول الملحق بها وهي تشمل الاشخاص الذين صدرت بحقهم عقوبات في النمسا فقط.

٥ ـ ان الفقرة (٢،ز) من المسودة الالمانية تتضمن اعادة الثقة للصحافة باقالة الوزير لودفيغ بآخر يحل محله وكذلك تنحية العقيد آدم عن عضوية مجلس شورى الدولة ولا يتضمن البروتوكول الملحق بالمسودة هذين الاسمين وانما يشير الى وجوب تعيين الدكتور ڤولف بمنصب وزاري.

٦ ـ تتضمن الفقرة (٢، ح، اولا) طلب تعيين الوزير الاتحادي غلايزه هورستيناو وزيرا للدفاع والمطلوب ما مبين في الفقرة (٢،ح، اولا) من

البروتوكول بجعله رئيسا لأركان الجيش.

٧ ـ تتضمن الفقرة (٢، ح، ثانيا) من المسودة تحديد عدد الضباط الذين يتم تبـادلهم بين الجيشين بـ ١٠٠ ضـابط ويؤكد البروتوكول تحـديد نفس العدد.

٨ ـ تتحدث الفقرة (٢،ي) من المسودة عن «الاستحضارات لقبول النمسا في النظام الاقتصادي الالماني» ولتحقيق هذا الغرض فليس من الضروري جعل الدكتور فيشبوك بمنصب وزير المالية وانما يكون بمنصب يتيح له امكانية اتخاذ الاجراءات الضرورية بهذا الشأن.

٩ ـ يتضمن البروتوكول مجرد الاشارة للاستحضارات التامة في التبـادل الاقتصادي وسيكون الدكتور فيشبوك في المنصب المناسب لتحقيق هذا الغرض دون الحاجة للاشارة الى أي فرد ذي منصب معين يمكن ان يساهم معه في تنفيذ الغرض المذكور.

ويلاحظ مما ذكر آنفـا عـدم وجود أي رفض واضح لتدخل النازيين النمسويين في مسائل النمسا الداخلية . كما انها لا تتضمن رفض الطلب «بعدم اتخاذ اجراءات لمنع الحركة النازية من ممـارسة تأثيراتها » وانمـا اقتصرت ـ كما حصل في اتفاقية ١١ تموز ١٩٣٦ ـ على طلب قبول بعض النازيين في الجبهة الوطنية وفي الحكومة وفي بعض المؤسسات . واقتصر طلب اصدار العفو العام على النازيين المقيمين بالنمسا فقط. وبذا فقد استمر منع رجوع النازيين النمسويين المقيمين في المانيا من العودة الى بلادهم.

وسوف لن يكون الفريق غلايزه هورستيناو وزيرا للدفاع وانما سيكون رئيسا لأركان الجيش . وسوف لن يكون الدكتور فيشبوك وزيرا للمالية وانما بمنصب يؤهله لاتخاذ التدابير الاقتصادية المطلوبة . والطلب الاصلي الوحيد الذي تم اقراره هو تعيين الدكتور زايس انكوارت وزيرا للداخلية. وهذا معناه عدم تضحية فون شوشنيغ بشيء لأن هذا المنصب كان يشغله الفريق غلايزه هورستيناو . والتضحيـة الوحيـدة التي بذلهـا المستشار

النمسوي هي جعل جهاز الشرطة خاضعا لوزير الداخلية الجديد .

بعد ان اتفق معنا شوشنيغ على هذه التعديلات فسيتوقف اقرارها على مدى تمثيل زايس انكوارت لمصالح النمسا او احتمال خيانته لنا . وقد ابدى زايس من جانبه تأييدا لرأي المستشار النمسوي في عدم احتمال حصول أي تغيير جوهري في ادارة قوة الامن الداخلي. كما وافق زايس انكوارت من حيث المبدأ على بقاء مدير الشرطة العام سكوبل الذي يتمتع بثقة المستشار الاتحادي بمنصبه. وقد اقسم سكوبل بعدئذ عند ادلائه بالشهادة فيمحاكمة شميت بأن زايس انكوارت لم يجر أية تغييرات في جهاز الشرطة وان الجهاز المذكور بقي على ما كان عليه من قبل.

ولما اراد المستشار النمسوي استئناف محادثاته مع هتلر بعد ان فرغ من اعداد المسودة المعدلة معيومع وزير خارجيته شميت أصخت السمع لحديثهما ففهمت ان تدخلي كان ضروريا لاصلاح الحال . ثم ما لبثت ان ولجت الى مكتب هتلر دون استدعاء منه فوجدته بحالة طبيعية ولم يعد يوجه لضيفه أي اتهام وليس لديه أي شعور بالتناقض مع التأريخ الالماني او التحسب من تحمل المسؤولية المشتركة وقلت له:

« انني اعرف المستشار الاتحادي منذ اربعة اعوام بحكم اشتغالي ويمكنني الجزم بأنه يفكر ويشعر بألمانيته مثلكم تماما ولا تكمن الفروق الحاصلة بينكما في وجود بون شاسع بين مستويي ادراككما المشترك للقضية الألمانية وانما تكمن بصورة أشد في نظرتيكما للخطوط العامة للسياسة الدولية حيث يحق لمن يمثل دولته ذات السيادة ان يؤدي واجباته تجاهها ويفكر بمصالحها».

بدت عبارتي هذه مفاجئة لهتلر فأجابني قائلا:

« نعم ولكنك نفسك اقدمت يا سيد فون پاپن على التضحية في سبيل المانيا عندما قبلت في ساعة تأريخية حاسمة تكليف الرئيس فون هندنبورغ بالاشتراك في حكومة اكون انا رئيسها وسيعتبر السيد فون شوشنيغ من الالمان العظماء ايضا في التأريخ الالماني عندما يصافح يدي الممدودة اليه في

سبيل اقامة علاقات جديدة بين النمسا والمانيا ».

فعقبت على قوله:

« هذا صحيح يا زعيمي فأنا ارى ايضا بأن الموقف السياسي في اوربا الوسطى يتطلب ان تلعب المانيا دورها التأريخي وهي محققة لأقرب اتحاد ممكن مع النمسا . وكنتم على الـدوام متفقين معي بالرأي بأن التقـارب النمسوي الالماني لا يتم عن طريق اللجوء للوسائل القسرية وانما يجب ان ينبثق عن رغبة صميمية نابعة من اعماق افئدة كلا الطرفين . فلماذا نضطر اليوم وبصورة مفاجئة للجوء الى القوة فأمنحوا المستشـار وقتا آخـر ولا تطالبوه بأشياء لا يمكن ان يحققها لوحده ».

وهكذا تفرقنا ثانية من اجل اعطاء شوشنيغ وقتا اضافيا لتدبر أمره.

وقد ذكر فون شوشنيغ فيما بعد بكتابه «صلاة على روح الاحمر أبيض أحمر » سرد شامل لتلك المقـابلة واعترف بأنني انا السفير الالماني في ڤينا قمت بدور المدافع عنه ازاء هتلر ولكن اعترافه كان مبتورا ومشوها. ألا انه مع ذلك اعترف على الاقل بأنه قابل هتلر بعد نصف ساعة وان هذا قال له:

« لقد اتخذت قرارا للمرة الاولى في حياتي باعادة النظر في قرار سبق ان اتخذته».

وهكذا تحطم الجليد حيث ان المقصود بعبارة «القرار الذي سبق ان اتخذه» هو اصدار الامر للقوات المسلحة بالتقدم نحو النمسا واحتلالها في حالة فشل المفاوضات.

وبذا فقد انفتح السبيل للتوصل الى تفاهم سلمي بين البلدين . وبقيت المشكلة الرئيسة تتمثل بالشك في مدى اخلاص الدكتور زايس انكوارت لالمانيا . فعلى الرغم من موافقة النمسويين على تعيين الرجل بمنصب وزير داخلية بلاده الا ان هتلر بدأ يستوثق الآن من موقف الرجل . وكان قـد استدعاني اليه وسألني:

« ما الذي تعرفه عن زايس هذا ؟ فأنا لا أعرفه قط . ثم انه ليس نازيا »

ومن الواضح جدا ان تساؤله هذا كان مناورة جديدة لجأ اليها للتأكد من موقف زايس انكوارت فهو رجل معروف لديه تماما بطبيعة الحال . ولكنه الآن وبعد ان ضمن تحقيق كل طلباته فقد أراد أن يرى رجلا متطرفا اكثر من زايس انكوارت بمنصب وزير داخلية النمسا.

ولقد حاولت وصف زايس انكوارت لهتلر كقومي متحمس على الرغم من ان وصفي هذا ينطوي على كذبة دبلوماسية ضرورية . ذلك لأنني اعرف الرجل بصفته محافظ معتدل وارغب كثيرا في رؤيته وهو يتبوأ هذا المنصب الرفيع. وفي تلك اللحظة تذكرت حديثي الذي اجريته صباح ذلك اليوم مع الدكتور ميوهلمان فقلت لهتلر :

« ويمكنني ان اؤكد لكم هذا الرأي بالاستئناس برأي نازي نمسوي ربما يمكن ان يعرض لكم صورة واضحة عن الدكتور زايس انكوارت».

فأستدعى هتلر الدكتور ميوهلمان اليه فورا . ويبدو ان وصفه للرجل كان مرضيا لهتلر مما جعله يكف عن التظاهر بمقاومة فكرة تعيين الدكتور زايس انكوارت وزيراً لداخلية النمسا .

وعلى الرغم من هدوء فون شوشنيغ وشميت لارتياح هتلر الا انهما تعجبا من سلوكه هذا وابديا فيما بعد تعجبهما لوجود الدكتور ميوهلمان في برختسغادن والذي تحدثت عن ظروف وصوله الى هناك آنفا . وقد أثيرت قضية وجوده في محاكمة شميت فشهد تسرناتو بأن الدكتور ميوهلمان كان مخبراً كما اقسم الدكتور زايس انكوارت فيما بعد بأن الدكتور ميوهلمان كان يتلقى المعلومات الضرورية بشأن مؤتمر برختسغادن من كيبلر . أما ادعاء فون شوشنيغ بأنني اخللت بالاتفاق على كتمان لقائه مع هتلر فليس هناك ما يثبت ادعائه.

تم الاتفاق على جميع النقاط المختلف عليها في ساعة متأخرة من الليل فوقع هتلر وفون شوشنيغ على محضر الاجتماع . ثم ما لبثت أن علمت بأن

الضيفين النمسويين اعتذرا بأدب عن قبول دعوة هتلر لهما لتناول العشاء معـه .

وقد رجعت معهما الى زالتسبورغ فوصلناها زهاء الساعة الحادية عشرة ليلا وكان ان ران على الرجلين صمت مطبق طوال الرحلة . وواضح ان فون شوشنيغ لم يشأ التحدث الى رفيقه بحضوري ولكنني حاولت التسرية عنهما فقلت لشوشنيغ :
« وهكذا اصبحت لديك تجربة عن مدى صعوبة التفاوض مع هـذا الرجل العنيد وقد سبق ان قلت لكم دوما ان الساعة هي الثانية عشرة الا خمس دقائق[٤]».
وقلت في نفسي لو ان شوشنيغ كان يعرف هتلر بصورة افضل لتصرف بصفته نظيره ولحافظ على سيادة بلده ولكانت المأساة التي تعرض لها اهون مما حصل له فعلا. والمهم جدا هو ان شوشنيغ حتى بعد لقائه بهتلر لم يكن ملزما بشيء ابداء اذ انه لو ادرك مدى الاجحاف الذي لحق بالنمسا نتيجة لعقد الاتفاقية المقترحة ـ كما زعم فيما بعد ـ لاقدم في الصباح على تقديم استقالته ولتقدم لرئيس جمهوريته برجاء لرفض المطالب الألمانيـة وتشكيل حكومة جديدة .

بقيت امام الحكومة النمسوية فرصة امدهـا خمسة ايام عليها تنفيذ طلبات هتلر خلالها وقد اظهر موقف الدول الغربية من الضغط الالماني على النمسا وقوف ايطاليا وراء المانيا. ولم تكترث بريطانيا لقضية النمسا.

الا ان فرنسا وحدها أبدت استعدادها للوقوف الى جانب النمسا . واتخذ رئيس جمهورية النمسا قراره بقبول الطلبات الألمانية وأشعرت برلين بهذه الموافقة في ١٥ شباط ١٩٣٨ بصورة رسمية . وفي ١٨ منه تم اخبار برلين بانجاز جميع الطلبات السياسية وأعلن في اليوم نفسه في كل من فينا

(٤) ان تعبير (الثانية عشرة الا خمس دقائق) هو كناية شـائعة في اوربا عن الواقعة الخطيرة الوشيكة الحدوث . ويقصد المؤلف ان هتلر يعتزم امرا خطيرا وسينفذه خلال فترة قصيرة . ـ المترجم ـ

وبرلين عن الأتفاقية المبرمة نتيجة لمحادثات برختسغادن .

بانعقاد لقـــاء برختسغادن وقبول التسوية المطروحة من قبل المانيـا وصلت مهمتي في ڤينا الى نهايتهـا. وهكذا قـام رئيس جمهورية النمسا وحكومتها بدعوتنا الى وليمة فطور وداعيـة. ولكننا اذا ما تذكرنا مدى شراسة هتلر ومدى شغفه بالمناكفة لاعطينا الحق لمضيفي سفير هتلر الذي وجب عليهم توديعه لدواع رسمية محضة تفرضهـا المجاملة بين البشر ان يعاملوه بجفـاء أو على الأقل بتكلف ظاهر . لكن الذي حصل فعلا كان على العكس من ذلك تماما . اذ لم يبد رئيس الجمهورية المحترم ڤيلهلم ميكلاس واعضاء حكومته المجاملات المألوفة فحسب، وانما غمرونا بعطف ولطف يتعذر وصفهما. وقد فاجأني الرئيس النمسوي بالانعام علي بأرفع وسام تقديرا لجهودي الاستثنائية خلال السنوات الاربع المنصرمة في سبيل توطيد العلاقات بين البلدين . ومع انه من المألوف تقريبا في جميع ارجاء العالم ان يمنح رئيس البعثة الدبولماسية وساما رفيعا من البلد المضيف لقاء خدماته ولكنني شعرت بالجميل الذي طوقني به القوم عندما قال لي وزير الخارجية غويدو شميت في تلك المناسبة ان اعضاء الحكومة ايدوا بالاجماع مقترح منحي ذلك الوسام الرفيع. ولما رفع الرئيس كأسه ليشرب نخبي همس بأذني وزير الخارجية النمسوي:

« كيف ستكون الحال لو ارسلناك سفيرا لنا في برلين ؟».

فسمعت زوجتي تلك العبارة واجابت عني:

« سيكون ذلك التكليف مدعاة سرور عظيم لزوجي بكل تأكيد ».

وكان أن غمرنا أنـا وزوجتي في تلك الأيام بكثير من الهدايا الوداعيـة التي انثالت علينا بشكل جعلنا نتناسى صعوبة البداية للمهمة التي انجزتهـا تـوا .

وحمدنا الله كثيرا على كسب ذلك العدد الوفير من الأصدقاء النمسويين. ندر أن القى هتلر كلمـة بعـد توتر شـديد كالخطاب الذي القاه في ٢٠ شباط ١٩٣٨ والذي قال فيه:

« يسعدني كثيرا ان اخبركم ايها السادة بحصول تفاهم آخر خلال الايـام القليلة الماضيـة مع بلد قريب منا لاسباب كثيرة . فالمانيا والنمسا الالمانية لا تتقاربان لمجرد ان لهما شعب واحده وانما لأن لهما تأريخ مشترك وثقافة مشتركة ايضاء

فقد تمكنا من التغلب على الصعوبات التي ظهرت عند تنفيذ اتفـاقية تموز ١٩٣٦ وأجرينا محاولة جديدة لازالة سوء الفهم والمعوقات عن طريق التعاون السلمي، ولو لم تفلح في ذلك لجاء يوم ـ سواء عن قصد أو غير قصد ـ يتفاقم به الموقف بيننا بحيث يمكن ان يؤدي لوقوع كارثة،

وانني لمسرور لتمكني من التأكيد لكم بأن هذا المجهود قد تم نتيجة لقيامي بتوجيه دعوة للسيد المستشار الاتحادي للنمسا لزيارتي فتوصلنـا سوية الى توحيد الافكار ووجهات النظر لازالة التوتر في العلاقات القائمة بين بلديناه واصبح بمقدور أي مواطن نمسوي ان يجاهر بانتمائه للنازية دون ان يخشى الملاحقة القانونية ولا يؤثر هذا الانتماء على وضعه السياسي شأنه في ذلك شأن أي مواطن آخر من النمسويين الالمان،

وقد تم الاتفاق لتطبيق هذه الخطوات الايجابية على اصدار عفو عـام لأثبات حسن النوايا بين البلدين وكنتيجة للتعـاون الوثيق واثباتا لروح الصداقة القائمة وتوسيع الفعاليات المشتركة في مجالات كثيرة ـ فيالمجالات السياسـية والشخصية والأقتصادية ـ كل هـذا بروح وبنطاق اتفاقيـة ١١ تموز ١٩٣٦ .

وأود بهذه المناسبة ان اشكر المستشار النمسوي امام الأمة الالمانيةلحسن تفهمه ولحماسه في التعاون وقبوله لدعوتي ولمحـاولته معي ايجاد الطريق المؤدية لأفضل تعاون بين بلدينا خدمة لأمتنـا الألمانيـة التي نحن جميعا من أبنائها وخدمة لوطننا الذي ترعرعنا في ربوعه » .

ومع أن الأذاعـة النمسوية بثت نص الخطاب في حينـه الا أن فون شوشنيغ أقدم على كتابة نص مغـاير في كتابه المذكور آنفـا فأورد القطعـة التالية:

« لم تعد الامة الالمانية راغبة في رؤية عشرة ملايين الماني يعانون من الاضطهاد وقد نفذ صبرها ••• ومن دواعي السرور ان المستشار الاتحادي للنمسا اظهر وجهة نظر أدت الى التوصل لعقد اتفاق مرض مع النمسا».

وهـذا التحريف لا يليق برجل دولة كان يشغل منصب رئيس وزراء بلاده. ونقرأ في الجزء الاول من مذكرات تشرشل النص الآتي:

« ليس هناك بالنسبة للانكليز والامريكان أي نموذج للتضليل والنفاق أشـد من الموقف الذي يحاولون به التأثير على الرجال والنساء الأذكياء في البلدان الحرة بشكل اكثر من ميلهم لرد الفعل بازدراء مكشوف ».

لقد جرت كل هذه التحريفات المفضوحة بعد اثنتا عشرة سنة من تاريخ القاء هتلر لذلك الخطاب. وانا أزعم هنا بأن هتلر كان جادا بكلماته وانه كان يقصد كل كلمـة قالها . ذلك لأنه كان مسـرورا بشكل وحشي للنجاح الذي حققه.

فقد اقترب من آماله بفضل مناورته الذكية دون ان يضطر على اللجوء لاستعمال القوة . ومن المؤكد انه كان يأمل تسهيل المضي في مسلكه من خلال اطراء المستشار النمسوي والمبالغة في مدحه. ويعتقد غويدو شميت ـ الذي يعرف تفاصيل القضية افضل من تشرشل ـ ان خطـاب هتلر كان مرضيا وكذلك كان رأي صديقه وشاهده في القضية التي حوكم عنها الدكتور مايره

بعد اربعة ايام من القاء هتلر لخطـابه اتخذ شوشنيغ قراره باصدار جواب على الخطاب. فذكر ان خطاب هتلر كان جيدا وانه كان وديا بالنسبة للمستشار النمسوي.

ولو لم تكن خطبة هتلر متسقة مع نهج شوشنيغ السياسي او انها لم تحقق له كسب الوقت لما ايدها بهذه الحرارة . الا انه أراد ان يستفيد من صداها على اية حال.

احتشدت قاعة مجلس النواب النمسوي بكل الاعضاء وحضر جميع ممثلي الهيئات الدبلوماسية الاجنبية . وقام افراد من الجبهة الوطنية باحتلال

الشوارع والساحات بقصد اظهار مدى قوة حركتهم وكنت اتمنى لشوشنيغ ان يتخلص من التأثير الشديد الذي وقع عليه خلال الايام القليلة المنصرمة والقلق الذي عانى منه خلال تلك الفترة لكي يبدو بهذه المناسبة في حالة طبيعية . وقد سمعته يخطب قائلا .

« وعلى الرغم من كل الجهود المبذولة للتصرف بعفوية فاننا لم تفلح في ازالة التوتر المخيم على كل من المانيا والنمسا منذ سنين عديدة . وقد أصبحت هذه الحالة غير الطبيعية مقلقة للامة الالمانية لدرجة لا تطاق».

أما عن محادثاته في برختسغادن فقد قال شوشنيغ :

« نحن نعرف تماما بأننا الآن مقيدون بالحدود المعلومة لبلادنا وليس لنا ان تتجاوزها . ويبدو اننا لا يمكن ان نبقى بهذه الحال وان علينا مراجعة موقفنا مرة أخرى لكي نبقى محافظين على شخصية بلدنا واستقلاله دون ادنى شك. فبلدنا هو نقطة المركز لصورة اوربا الشاملة وهذه حقيقة لا سبيل لتجاهلها » .

وقد بينت لهتلر في تقريري الذي رفعته اليه مساء ٢٤ شباط ١٩٣٨ بأن من الضروري لنا تحريك المستشار النمسوي لكي نجنبه الوقوع تحت ضغوط (القوى الوحشية المؤثرة) حيث اصبح من المهم تصحيح موقفه:

وان اختتام البعثة الدبلوماسية الالمانية في ڤينا لمهماتها الرسمية ينبغي الا يؤدي الى تمادي المستشار النمسوي بالتشكيك بنوايا المانيا . ورجوت في ذلك التقرير الاخير التنبيه الى خطورة المسلك الذي شرع المستشار النمسوي بممارسته ضد المانيا لأن خطابه الملمع عنه آنفا كان مفعما بالمناهضة لالمانيا .

في ٢١ شباط ١٩٣٨ كان قد جرى لقاء سري بين هتلر وغورنغ وكيلر وليوپولد . وقد وجه فيه هتلر اتهاما الى ليوپولد لممارسته سياسة غير مسؤولة وهي سياسة ادت الى احباط الثورة الالمانية في النمسا وتعذر تقديم القوات الالمانية لاحتلال النمسا. ويبدو ان جميع الصعوبات التي سبق ان ظهرت في مؤتمر برختسغادن قد أزيلت الآن . أما ليوپولد فقد دافع عن نفسه

لكن هتلر قال ان علاقات المانيا مع النمسا يجب ان توضع الآن وفق اسس جديدة وعليه فانه يرى ضرورة تحول ليوپولد وكبار اعوانه للاقامة في المانيا. وان قيادة الحزب النازي النمسوي يجب ان تعهد الى هوبرت كلاوزنر. ويجب امتناع الحزب المذكور عن ممارسة اية فعاليات مناهضة للنظام النمسوي مستقبلا . ثم ذكر هتلر بأن زايس انكوارت تولى مهمة عسيرة جدا ويجب ان يحظى باسناد الحزب النازي النمسوي لتسهيل قيامه بمهمته. ويجب ان يكون مفهوما بأن زايس انكوارت ربما سيضطر لاصدار اوامر باعتقال بعض اعضاء الحزب النازي. وعندما نقرأ تصورات هتلر وغورنغ هذه فلا يمكننا الزعم بأنهما كانا يفكران بالعمل على تحقيق الوحدة باللجوء للوسائل القسرية خلال فترة وجيزة كما زعم شوشنيغ في معرض دفاعه عن سياسته.

في ٢٦ شباط ١٩٣٨ قمت بزيارتي الرسمية الوداعية للمستشار الاتحادي. وخضنا في تلك الزيارة احاديث اتسمت بتبادل المجاملات والعبارات المهذبة. وقد تطرقت مرة أخرى بهذه المناسبة الى خطورة الموقف وضرورة الوصول الى نتيجة مشرفة للتخلص من التوتر السائد.

وبينما كانت البعثة الدبلوماسية الالمانية تتمع باللطف النمسوي والتمنيات الحارة كان هناك من يندب حظ النمسا العاثر لتفريطها باستقلالها ـ ولو انها كلمة حق أريد بها الباطل ـ وكان الفرنسيون هذه المرة هم حملة راية الاعتراض.

وكنت قد حاولت طوال أربعة أعوام ازالة المشاكل القائمة بين المانيا والنمسا بابعادها عن الميدان الاوربي وجعلها مشاكل داخلية تحل بين البلدين وحدهما.

ولابد لي ان اتأسف لأن هذه المشاكل تحولت الى المجال الاوربي. ووجب على المستشار النمسوي ان يتدخل لأن أي استقلال نمسوي يتحقق بفضل التدخل الفرنسي والتشيكوسلوفاكي لابد ان يؤدي الى خيبة أمل جديدة تصيب الالمان وان مثل هذه الاعتراضات يمكن ان تسبب تبادل

البغضاء لدرجة قد تصل الى حد التهديد. واخيرا فان هذه الملابسات كلها ستكون من المآسي القومية التي تصيب الامة الالمانية كلها بالصميم. ولما أوضحت كل هذه الأفكار للمستشار النمسوي فون شوشنيغ آكد لي تفهمه لها واخذ كل هذه الاعتبارات في حساباته.

غادرت ڤينا في مساء اليوم ذاته لكي اصل الى كيتزبيوهل فأتوقف هناك لفترة قصيرة قبل عودتي الى المانيا . وفي كيتز بيوهل قابلت غراف كاغينيك الذي كان من اقرب أعواني خلال فترة اشتغالي نائبا للمستشار وعمل ممثلا لي ببرلين خلال فترة اشتغالي سفيرا في ڤينا . ثم ما لبث ان لحق بنا ڤيلهلم كيتيلر وكان الاخير بناء على تكليفي له في مساء ٤ شباط ١٩٣٨ قد جمع كل الوثائق المهمة والتقارير التي سبق ان تداولتها بحكم اشغالي لمنصبي في ڤينا طوال السنوات الاربع المنصرمة مع الحكومة النمسوية لكي أقوم بحفظها في مكان امين دون ان تنالها ايدي رجال الشرطة السرية للدولة.

وبعد بضعة ايام من التظاهر بالتزحلق على الجليد سافر كيتيلر وكاغينيك الى سويسرا سوية سرا واودعا تلك الوثائق في خزانة امينة لأحد مصارفها. أما انا فقد رجعت الى ڤينا في ٨ آذار ١٩٣٨ للاشراف على تنقل الأسرة ونقل العفش. وفي اليوم التالي فاجأنا فون شوشنيغ باجراء استفتاء عام بينما لم تعد لي في تلك الفترة اية صفة رسمية ولكنني فكرت بأن واجبي القومي يفرض علي التدخل بعد ان تطور الموقف واصبح في غاية الخطورة.

كان السيد فول غروبر المبعوث الدبلوماسي النمسوي في باريس قد كتب تقريرا مطولا منذ ٢٦ كانون الثاني ١٩٣٨ الى المستشار فون شوشنيغ خلاصته وصف شامل للمأزق الذي زجت الحكومة الفرنسية نفسها فيه. وجاء فيه ما يلي:

« انني بناء على المناسبات المتاحة قد درست الانطباع الحاصل لدى الحكومة الفرنسية وايضاحات وزير الخارجية ورئيس الوزراء بشأن مسألة استقلال النمسا وحرصهم على معالجة الموقف بالوسائل الدبلوماسية. وتوصلت الى الاستنتاج الجازم بأن هذه الايضاحات ربما ستتطور نتائجها الى حد

قيام حرب ولذا فان القضية التي نحن بصددها يمكن ان تهدد السلام».

وفي ٧ آذار ١٩٣٨ تلقى المستشار النمسوي تقريرا لاحقا من مبعوثه الدبلوماسي المذكور يتضمن مقابلته للسيد ليجيه وكيل وزارة الخارجية الفرنسية الذي يعتبر العقل المفكر لسياسة فرنسا الخارجية آنذاك . حيث طلب الى المبعوث النمسوي اخبار فون شوشنيغ بأن فرنسا لا تؤيد سياسته التي يتقرب بها من المانيا لأن في هذا التقارب تهديد يدعو فرنسا لامتشاق الحسام دفاعا عن استقلال النمسا . ولكنه اكد في تقريره هذا بأنه يعتقد جازما بأن فرنسا سوف لن تتدخل باستخدام السلاح الا في حالة استعمال المانيا للقوة في تحقيق الوحدة مع النمسا أي في حالة مقاومة الشعب النمسوي. ذلك لأن اولئك الساسة الفرنسيين تصوروا بأن الشعب النمسوي مؤلف من افراد الحكومة وعدد ضئيل من الدبلوماسيين . وقد ذكر الدبلوماسي النمسوي في تقريره المذكور ايضا:

« لقد ازدادت مخاوف الفرنسيين في الآونة الاخيرة بعد وصول انباء الخطبة الاخيرة التي القاها المستشار النمسوي الى باريس . وعليه فقد عرضت الحكومة الفرنسية هذا الموقف الجديد على مجلس النواب الفرنسي» وليس للمرء ان يتوقع شر اشد من هذا الموقف الذي يمكن ان يتمخض عن اعلان الحرب او التعرض للتهديد السافر على الاقل بتأثير من البرلمان الفرنسي. وقد خلص الدبلوماسي النمسوي في ختام تقريره قائلا بأن فون شوشنيغ اذا ما شعر بالخطر وتأكد بأن اغلبية الشعب النمسوي تقف ورائه فانه سيجد فرنسا جاهزة للتدخل لصالحه ضد المانيا.

ومع ان هذا الزعم لم تثبت صحته تأريخيا الا انه بدى من الواضح بأن السيد پوابيه المبعوث الدبلوماسي الفرنسي في ڤينا كان صديقا مقربا للمستشار النمسوي وانه هو الذي اوحى له بضرورة اجراء الاستفتاء الشعبي لكي يحصل على الاسناد الفرنسي المنتظر. وعليه فان فون شوشنيغ يعتبر مسؤولا مسؤولية تامة عن اثارة مسألة الاستفتاء الشعبي التي لا موجب لها في تلك المرحلة الدقيقة من تأريخ النمسا. ويجب ايضا ان نشير بهذه

المناسبة الى ان الحكومة الفرنسية تشترك معه في تحمل تلك المسؤولية.

في ٩ آذار ١٩٣٨ سافر المستشار الاتحادي الى انسبروك لكي يقوم بالدعاية الانتخابية لصالح الجبهة الوطنية ودعا جميع النمسويين الى التمسك باستقلال بلادهم والمطالبة باعتراف المانيا به .

ثم ان اجراء أي استفتاء شعبي لا يمكن أن يتم بموجب الدستور النمسوي الا بطلب من رئيس الجمهورية وبقرار من البرلمان النمسوي ولم يطلب الرئيس كما لم يقرر البرلمان اجراء الاستفتاء الذي أراده فون شوشنيغ.

اضف الى ذلك ان رد فعل هتلر ـ الذي لم يكن قد انجلى بعد ـ لابد ان يكون عنيفا لأن اجراء الاستفتاء الشعبي قد ينطوي على محاولة بسيطة لتقويض نتائج مؤتمر برختسغادن .

انصرف اهتمامي بشأن هذه القضية نحو اتجاهين . اولهما العمل على تأجيل الاستفتاء العام والآخر هو وضع ترتيب جديد للاقتراع بحيث يتماشى مع اغراض هتلر ولكن دون التضحية بالمستشار فون شوشنيغ.

وأردت تحقيق كلا الهدفين بالايحاء للمستشار النمسوي ـ بصورة غير رسمية ـ لاصدار بيان بالشكل التالي:

« نحن نريد للنمسا ان تكون المانيّة وأن تكون حرة ومستقلة واشتراكية وان تعمل بتعاون وثيق مع المانيا ».

وقد حظيت هذه الصيغة بتأييد النازيين واعضاء الجبهة الوطنية.

الا ان شوشنيغ رفض اصدار البيان المقترح. فما الذي يجب ان اقوم به؟ لقد قال غويدو شميت للسيد فون شتاين الذي تم تنسيبه للعمل معه بأن مسألة التصويت الشعبي يمكن ان تكون مسألة نمسوية داخلية بحتة وليس لها أي تأثير على السياسة الخارجية. أما اصدقائي الدبلوماسيين فلا ينتظر ان يحقق ايا منهم تأثيرا على فون شوشنيغ. وكان المبعوث الفرنسي السيد بوابيه في غاية السعادة. اما موسوليني فانه عندما سأله فون شوشنيغ

ابداء الرأي اجابه بصراحة :

« ان القنبلة التي اعددتها ستنفجر في كفك ».

ولكن يبدو ان المستشار النمسوي لم يقبل بتلك النصيحة.

وأخيرا فان فون شوشنيغ كان زعيما مسؤولا عن بلد ذا سيادة ، وليس باستطاعة احد أن يجبره على التصرف بأية وسيلة كانت. الا ان النازيين النمسويين تلقوا تشجيعا على خوض معمعة جديدة ضد المستشار النمسوي من المستشار الالماني ولو انه كان تشجيعا غير مباشر . ومع انني كنت متحمسا في التصدي للاستفتاء الشعبي الذي عزم المستشار النمسوي على اجرائه.

الا ان انتقادي هذا كان رد فعل شخصي حرصا مني على موقف النمسا وتطلعا نحو دورها في مستقبل الامة الالمانية . ذلك لأن نظرة فون شوشنيغ لدور النمسا في السياسة الدولية تختلف تمام الاختلاف عن نظرتي لذلك الدور .

علمت فيما بعد ان هتلر اوعز الى زايس أنكوارت في ١١ آذار ١٩٣٨ التقدم للمستشار فون شوشنيغ برجاء لتأجيل الاستفتاء الشعبي.

ومن الطبيعي ان هذا الرجاء اتخذ صفة التدخل بالشؤون النمسوية بدرجة قلت أم كثرت . وعليه فان المستشار فون شوشنيغ رفض التأجيل الذي اقترحه هتلر .

بعد يومين من ذلك التأريخ تلقيت نداء هاتفيا يتضمن امرا من هتلر بوجوب سفري الى برلين فورا لمقابلته . ولما كان الوقت مساء ولم تتيسر طيارة لنقلي فقد أخبرت بأنني سوف احضر الى دار المستشارية ببرلين قبل الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي. وكنت اجهل سبب الاستدعاء. وخمنت ان هتلر اما انه يود ابعادي عن مجال نشاطه المركز خشية ان اكون من ضمن العاملين على احباط مساعيه. او انه يريد ان يسمع مشورتي في قضية معينة. وفي الحالة الاخيرة ستتاح لي فرصة طيبة للتوصل معه الى تسوية لاسيما وانني صرت ضجرا من بقائي في ڤينا.

تحركت بالسيارة في الصباح الباكر الى مطـار ڤينا وكان ذلك اليوم يوم جمعة اشتدت به درجة الرطوبة وتكاثف الضباب لدرجة غير مألوفة وكان يوما لا أنساه ما حييت • وما ان آزفت الساعة التاسـعة صباحا ولجت دار المستشارية ودلفت الى الصالة الا ووجدت امامي جمعا حاشداء

وكانت تلك الحالة من الحالات التي ألفتها في عهد هتلر وكنت أرقبهـا عن كثب. وعندما كانت الازمات الصعبة تحدق بالبلاد او يتطلب الامر اتخاذ قرار حاسم ابان عهد اشتغالي مستشارا لالمانيا فانني كنت ادعو الوزراء مع عدد قليل من مستشاريهم الاقربين • أما في عهد هتلر فكنت اشاهد في هذه الحالات اناسا من مختلف المشارب ومعهم عدد من الفضوليين والدهماء الذين لا علاقة لهم بالامر الذي نحن بصدده.

واذكر انني رأيت في هذه المناسبة البارون فون نويرات الذي جـاء ليمثل وزير الخارجية فون ريبنتروپ نظرا لقيام الأخير بزيارة قصيرة الى لندن يودع بها المسؤولين الانكليز وكان مع فون نويرات عدد من كبار موظفي وزارة الخارجية كما شاهدت ڤيلهلم فريك وزير الداخلية ومعه وكيل وزارته والدكتور يوسف غوبلز وزير الدعاية ومعه رهط من رجا ل الصحافة والاعلام ورأيت هاينريش هملر محاطا بعدد من قادة قطعات الحماية •

وأخيراً وليس آخراً فقـد رأيت الفـريق الأول فون براوختش والفريق ڤيلهلم كايتل وعدد من ضباط الركن • وبطبيعة الحال توجه الي سؤال عن طبيعة الموقف السائد في ڤينا حال وصولي الى ذلك الاجتماع وما ان شرعت بوصف الحالة السائدة وملابساتها الا وقاطعني البارون فون نويرات قائلا :

« ألا ترى ان الحل المثالي هو تقدم هتلر ـ بالقوة العسكرية ـ نحو ڤينا؟»

ثم انني ذهبت لمقابلة هتلر بمكتبه على انفراد • وبعـد ان استقبلني استقبالا حـارا أردت أن أعرف ما يريده قبل أن أتكلم ثم حاولت أن أوضح له الأسباب التي حدت بشوشنيغ الى التكلم بهذا العنف في خطـابه المؤرخ

٢٤ شباط ١٩٣٨ وهو خطاب اثار كلا الفئتين المتناحرتين على حد سواء. وحتى الآن فانني اتصور بأن ارجاء الاستفتاء الشعبي يمكن ان ينقذالموقف. ونحن نعتقد حتى بعد انتهاء تلك المرحلة بأن الواجب كان يفرض على النمسا تجنب كل ما من شأنه اثارة النزاع. ولو اننا اوضحنا للسيد فون شوشنيغ بأن الأستفتاء الشعبي الذي يزمع اجراؤه يشكل مخالفة دستورية بالأضافة الى كونه عملية متعذرة التنفيذ عمليا فأنني على ثقة من انه سوف يؤجل العملية حتما . وعلينا في جميع الاحوال تجنب اللجوء لاستخدام القوة العسكرية لأن هذا المسلك حتى ولو لم يقابل بمقاومة جدية فلابد ان يؤدي الى سفك دماء عزيزة . وهو بالاضافة الى ذلك يعتبر من وجهة النظر التأريخية سبة تلحق بألمانيا وتسجل ضدها على مر السنين . وستخف ايطاليا والدول الاخرى المعادية لالمانيا لمساعدة النمسا وهذا موقف لا نريد التعرض له لأنه ربما يقودنا الى خوض حرب أوربية.

حصلت على انطباع بأن هتلر تقبل وجهة نظري. وليس ادل على ذلك من قوله:

« لقد كتبت رسالة الى زايس انكوارت ضمنتها وصية طلبت منه فيها ان يبذل قصارى جهوده للعمل على تأجيل الاستفتاء الشعبي. وسوف نراقب عن كثب ما الذي يمكن ان يفعله انصارنا في ڤينا. وعلى الرغم من معرفتي لمدى حراجة الموقف الدولي الا ان هذا التدهور لا يمكن ان يستمر ».

وكان زايس انكوارت قد تلقى رسالة هتلر في صباح اليوم ذاته . وكان غلايزه هوستيناو قد عاد لتوه من برلين وليس لديه أي شك بمدى حراجة الموقف. ولو كان الوقت المحصور بين الصباح والساعة ١٤٤٥ من ذلك اليوم قد تم استغلاله للمباحثة هاتفيا بين غورنغ وڤينا ولو كان فون شوشنيغ مستعدا للتباحث آنذاك فانني على ثقة حتى الآن بأن تلك المباحثات، كانت ستؤدي للتوصل الى اتفاق مرض للطرفين.

فالعالم كله يعلم الآن بعد كشف الاسرار في محاكماتنا بنورمبرغ ان المحادثة الهاتفية بين برلين وڤينا في ذلك اليوم المصيري كانت مهمة جدا

لأن الساعات القليلة من نهار ذلك اليوم هي التي حددت مصير النمسا.

فقد تولى غورنغ قيادة الطرف الألماني في المكالمات الهاتفية التي اجراها مع زايس انكوارت فأمره بالاستقالة لكي يحرج موقف شوشنيغ ويضطره على الاستقالة هو الآخر وعندئذ ستشكل حكومة نمسوية جديدة ويكلف الرئيس النمسوي ميكلاس الدكتور زايس انكوارت بتشكيل الحكومة.

ولما اعلن المستشار النمسوي بالساعة ١٤٤٥ قراره بتأجيل الاستفتاء الشعبي كان الوقت متأخرا لأن فون شوشنيغ أصبح مجردا من ثقة المانيا.

وبعد ساعة واحدة اخبر زايس انكوارت برلين بأن المستشار فون شوشنيغ قدم استقالة حكومته للرئيس النمسوي. وفي الساعة ١٧٠٠ أخبرت برلين بأن الرئيس ميكلاس كلف زايس انكوارت بتشكيل الحكومة الجديدة . وعندئذ أصدر هرمان غورنغ أوامره بأن الحكومة الجديدة يجب ان يتم تأليفها قبل الساعة ١٩٣٠ وان يكون اعضائها جميعا من النازيين. ثم اكد على طلبه هذا مهددا :

« ان الحكومة الجديدة يجب ان يتم تأليفها قبل هذا التوقيت والا فان القوة هي التي تفرض تأليفها ».

بعد ان اجرى هرمان غورنغ هذه المكالمة الهاتفية جاء الينا في الصالة الكبرى واستدعانا اليه . وكنا جميعا بلا عمل وبلا متابعة لتطورات الاحداث وكان يبدو جذلا وهو يفرك كلتا راحتيه بسرور ظاهر حيث قال:

« لقد انتهت القضية بالشكل المطلوب اذ استقال شوشنيغ وسيشكل الحكومة الجديدة زايس انكوارت من اشخاص نثق بهم ».

عندئذ خففت نحو هتلر وقلت له:

« هاقد تحققت كل طلباتكم . والآن ارجوكم بحق السماء ايقاف الاجراءات المتخذة للتقدم نحو النمسا بالجيش الالماني. لأن كل شيء سيتم سلميا ولا حاجة بنا للمغامرة ولأننا ربما نفاجأ بكارثة لا قبل لنا بها».

ولابد لي من الاشارة الى ان القادة العسكريين الالمان الذين كانوا

حاضرين في المستشارية يؤيدون ما قلته لهتلر ويتمنون ايقاف الاستحضارات الجارية لاحتلال النمساء

فأجابني هتلر :

« اجل ، اجل ، هذا ما يمكنني اجراؤه »

« خبروا فون براوختش فورا بأن أمر التقدم قد اوقف».

وقد اخبرني فون براوختش فيما بعد - حيث انه لم يكن حاضرا في دار المستشارية آنذاك - بأن أمر التقدم كان مجرد مناورة سياسية ومع اننا لم نكن نتوقع مقاومة من النمسا فيما لو تم ذلك التقدم الا ان الاشتباك مع ايطاليا كان واردا مع احتمال تدخل تشيكوسلوفاكيا وفرنسا أيضا .

ثم ان هتلر ما لبث ان ذهب الى الصالة الكبرى وزفر بارتياح قائلا :

« الحمد لله الذي وفر لنا جهودا كثيرة »

وصافحني بكلتا يديه وعلى محياه امارات السرور وكان البارون فون نويرات في غاية السرور. اما الدكتور يوسف غوبلز فقد بدت على وجهه خيبة امل واضحة لأنه كان قد أعد ملايين المنشورات الجاهزة للالقاء من الطائرات في صباح اليوم التالي والموجهة فيها بلاغات من الحكومة الالمانية لابناء الشعب النمسوي.

لم تستمر فرحتنا الا لفترة وجيزة امتدت الى الساعة ١٧٢٦ عندما اتصل بنا زايس انكوارت هاتفيا مفيدا بأن الرئيس النمسوي قبل استقالة شوشنيغ الا انه رفض تكليف زايس بتشكيل الوزارة الجديدة .

عندئذ أصدر هرمان غورنغ أمره الى زايس انكوارت بالتوجه مع اللواء موف الى الرئيس ميكلاس فورا واخباره بأنه ما لم يتم تأليف الحكومة النمسوية الجديدة برئاسة زايس انكوارت قبل الساعة ١٩٣٠ فان الجيش الالماني سيتقدم لاحتلال النمساء

ورأيت هتلر غاضبا في الصالة وهو ينادي فون براوختش بالهاتف :

« أمر جديد ، تهيأوا فورا للتقدم نحو النمسا - سنوجه برقية الى زايس

انكوارت نطلب منه فيها ان يرجونا بتقديم المساعدة العسكرية له ».

وكما نعلم الآن — وبعد ان مضى كل شيء — فان زايس انكوارت لم تكن له مثل هذه الرغبة ولم يشأ ان يطلب المساعدة العسكرية الالمانية والواقع هو انه لم يرسل مثل هـذا الطلب قط. والذي حدث فعلا هو ان البرقية المطلوبة دبرها وزير البريد الالماني فوصلت حالا الى دار المستشارية بالصيغة المبررة للتقدم العسكري نحو النمسا فلما تسلم البارون فون نويرات تلك البرقية قلت له:

« ألا تعتقد بأن هذا العمل ربما سيجرنا الى حرب عالمية ثانيـة؟ اننا سنكون الطرف المعتدي».

فدمدم فون نويرات قائلا :

« نعم . نعم»

ومضى نحو جهاز الهاتف وهو في عجلة من أمره.

كان هرمان غورنغ مسيطرا في ذلك اليوم على جميع النداءات الهاتفية مع ڤينا وهو يتابع الاحداث بصورة مستمرة وكنا نحصل منـه على آخر الاخبار وكان الموقف السائد في ڤينا بمنتهى الخطورة . فقد تواترت الانباء عن نشوب قتال في الشوارع وبدء حرب أهلية . وفي الساعة ٢٠٤٥ أصدر هتلر امره التحريري للفريق الاول فون براوختش بالتقدم العسكري نحو النمسا في صباح اليوم التالي . وشعرت في البداية بانهيار كل الآمـال التي عقدها العالم على تحقيق السلام.

فالتقدم بالقوات المسلحة نحو بلد شقيق لابد ان يؤدي الى اسـالة دماء أبناء الأمة الألمانيـة الواحدة من القطرين . وربما سـيؤدي الى نشوب حرب أوربية . وقد ظهرت امارات الحيرة والقلق على وجوه القادةالعسكريين ايضا ولم يفرح لهذا القرار سوى شخص واحد هو الدكتور يوسف غوبلز. وهكذا حم القضـاء بعد تلك التبدلات الكثيرة التي طرأت على الموقف وترتب على ابناء الشعب النمسوي ان يتجرعوا مرارة الاجراءات القسرية.

ما ان غادرت بناية دار المستشـارية بعد حلول ظلام ذلك اليوم الا وانتابتني هواجس جمه. فقلت في نفسي ان بسمارك رائد الوحدة الالمانية لم يقدم على تحقيق اندمـاج النمسا بالقـوة من اجل بعث الامبراطورية الرومانية المقدسة التي سبق للامة الالمانية تشييدها.

ذلك لأنه آثر اقامة اتحاد مع امبراطورية النمسا والمجر من أجل تحقيق اوثق العلاقات بين الدولتين الالمانيتين . وطالما صرح بسروره لوجود علاقات صداقة حميمة بين برلين وڤينا وحرصه الشديد على تجنب كل ما من شأنه تهديد هذه الصداقة المستمرة. والآن يبدو ان هتلر قد اعتزم امرا وانه لن يتورع عن التعامل مع النمسا وفقا للاساليب المعروفة في القرون الوسطى وانه يود الاعتداء على النمسا بطريقة آثمة وتوصلت الى قرار جـازم بأن ما ينفذه هتلر في تلك الساعات المصيرية يشكل فعلا خيانيا منافيا لمسـار التأريخ الالماني.

لكن الذي حدث في صباح اليوم التالي كان مخالفا لكل تصوراتي القاتمة اذ ان الجيش الالماني دخل بلاد النمسا دون ان يطلق رصاصة واحدة وقد استقبله ابناء الشعب النمسوي باضمامات الورود فعلى الرغم من نوايا هتلر الكئيبة المبيتة للنمسا فان أبنائها الأماجد أثبتوا أصالتهم وكانوا من جانبهم سعداء بتحقيق الوحدة.

وعلى الرغم من تحدث بعض المؤرخين عن اساليب هتلر القسريـة في تحقيقه الوحدة الا انهم اجمعوا على اعجابهم بتجـاوب الشعـب النمسوي وسعادته بانجازها فتحدثت الصحافة العالمية بايجابية تامة عن صـواب هذا العمل الرائع فاللغة واحدة والشعور الواحد والتفكير المتشـابه والوحدة الجغرافية كلها مقومات ضروريه لقيام الوحدة الحقيقية بين ابناء الامة الواحدة.

الا ان الصحافة البريطانية بقيت متحفظة ازاء هذا الحدث ولم تعتبره سوى عدوان الماني سافر على دولة مجاورة ذات سيادة.

والحقيقة هي ان عمليـة الوحدة كانت أمل الملايين من الالمان الذين تربطهم وشائج القربى على جانبي الحدود الالمانية النمسوية والذين هم من

ارومة واحدة وتأريخ مشترك على مدى اكثر من الف سنة ولهم ثقافة واحدة فلا عجب ان يرحبوا بالوحدة ويفرحوا بها على الرغم من الاسلوب القسري

الذي لجأ اليه هتلر في التنفيذ وهذا الاسلوب كان رد الفعل الطبيعي على تحريم الحلفاء للوحدة بين النمسا والمانيا بعد انتصارهم عليهما في الحرب العالمية الاولى • فقد اثبت لهم هتلر بأن المعاهدات الجائرة التي ابرموها بعد الحرب المذكورة لم تكن سوى قصاصات ورق•

جرى استفتاء شعبي بشأن الوحدة في ١٠ نيسان ١٩٣٨ وأسفر عن تأييد الاغلبية الساحقة من ابناء الامة الالمانية للوحدة في كلا القطرين • ولربما يزعم الزاعمون بأن الاساليب النازية المعروفة هي التي حققت هذه النتيجة ولكن الحق يفرض علي التأكيد بأن اساليب الدعاية المنظمة هي التي اوقدت جذوة الحماس في نفوس جماهير الامة الالمانية وجعلتها تعيش فورة حب الوطن العارمة المتمثلة بتحقيق الوحدة وهي فورة منبثقة من اعماق افئدة الملايين من الالمان•

وفي مساء اليوم ذاته وصل هتلر الى مدينة لينز النمسوية في موكب احتفالي شعبي رائع وسادت الفرحة نفوس القوم وكنت انا ايضا في غاية السعادة •

لأن وحدة الشعبين الالمانيين قد تحققت بدون اراقة دماء بل وباحتفالات شعبية غير متكلفة • وفي ذلك اليوم المشهود ـ وهو يوم الاحد المصادف ١٣ آذار ١٩٣٨ ـ تلقيت أمرا من هتلر بالطيران الى ڤينا في صباح اليوم التالي• ولما حطت طائرتي في مطار ڤينا علمت لأول مرة بأن بيانا اذيع من اذاعة برلين في مساء اليوم المنصرم تضمن انعام هتلر علي بوسام رفيع• وفي المطار التقيت بوكيل وزارة الخارجية الالمانية السيد لاميرز الذي وصل معي من برلين بنفس الطائرة وتبادلنا حديثا يتعلق بالحدث العظيم وبآمال المستقبل • وقد تواترت الاخبار من مختلف ارجاء العالم وكلها تشير الى عدم احتمال حصول أي نزاع دولي بسبب تحقيق الوحدة الالمانية ـ

النمسوية • وكان من رأي الدكتور لاميرز بأنه ربما سيكون من المفيـد جدا تعييني بمنصب ممثل الدولة الألمانية المطلق الصلاحيات في النمسا لأنني أعرف مشاكل هذه البلاد أفضل من أي شخص آخر ولأنني سأكون بموقف رسمي يتيح لي امكانية الحفاظ على التقاليد النمسوية وسأقيم جسرا متينا من علاقات الصداقة بين ڤينا وشمال المانيا • فقلت في نفسي ربما سيكون هذا المقترح هو السبب الحقيقي لسفري الى ڤينا هذه المرة• وعندئذ رجوت الدكتور لاميرز أن يخبر هتلر عني بأنني بعد ان عشت الاحداث التي صادفتني في الاسـابيع الماضية وعدم التزامه بالاتفاق المبرم بيني وبينه في بايرويت فانني سوف لن اقبل بالعمل في أي منصب•

ويمكن ان ابرر عودتي الى ڤينا لأصدقائي ولمنتقدي على حد سواء لكي يتفهموا موقفي بأن اقول لهم:

ان الاناس المتدفقين عاطفة لا يُسألون عن فعاليات قديمة سبق لهم ان قاموا بهـا في ظروف مر عليها ردح من الزمن• واود ان اعتذر هنا لهؤلاء ولهؤلاء بأن احرر لهم هنا ما كتبه تاليران[٥] في مذكراته:

« عندما يعود المرء بذاكرته الى عشرين سنة مضت فلابد انه يتوصل الى استنتاج مفاده ان أي شخص آخر يكون بمحله سوف لن يتصرف الا بالطريقة التي سبق ان تصرف بها آنذاك• وان ما عمله وما قاله وما كتبه أو ما عاتب أو ما أيد لا يمكن ان يكون خطأ بالنسبة للظروف التي مرت به في ذلك الحين • ويمكنني أن أزعم هنا بأنه لا يكاد يوجد من يشذ عن هـــذه القاعدة • وعليه فانني اعطي الحق كله لأي انسان سواء اكان اميرا او رجلا

(٥) كان تشارلس موريس دي تاليران سياسيا من رجـال الثورة الفرنسية المرموقين عمل وزيرا لخارجية بلاده في عهد نابليون بونابرت ولويس فيليب ولويس الثامن عشر ومثل فرنسا في مؤتمر ڤينا الذي حاولت به دول اوربا المنتصرة على نابليون اقتسام الغنائم على حساب فرنسا وقد تميز في المؤتمر داهية اوربا المشهور الامير مترنيخ ـ وزير خارجية النمسا ـ الا ان تاليران حقق لفرنسا مكاسب وفيرة وحفظ لها الكثير من حقوقها رغم كونها الدولة المندحرة• ـ المترجم ـ

من عامة الناس في تحمل المسؤوليات التي سبق ان تولاها لأنه صادف ظروفا عاشها هو وليس غيره.

فالوقت الذي سبق ان تصرف به قد تغير واصبحت الظروف التي يعيشها غير الظروف التي أحاطت به عند تصرفه في واقعة قديمة لأن الظروف لابد ان تؤثر على الاحداث تأثيرا لا يستهان به. فما يمكن اعتباره اليوم من الامور البسيطة والمسموح بها قد يكون من الامور الملعونة المستنكرة في تلك السنين الماضية[٦]».

لقد كان نشاطي في ذلك اليوم المشهود بسيطا . فقد أثر في نفسي الحدث الذي تحقق بشكل يفوق التصور . وأردت ان اقول لهتلر وانا واقع تحت تأثير الانفعال بأن المستقبل متوقف على طبيعة وطريقة التصرف الذي سيقوم به ازاء النمسا ووسائله في حل مشكلاتها.

هبطت طائرتنا في مطار اسبيرن ضاحية ڤينا ولما تنقلنا بالسيارة الى المدينة لاحظت الموجة الاحتفالية الغامرة التي شملت كل مكان مررنا به . وكانت أعلام الصليب المعقوف منشورة ترفرف من شرفات المنازل ومما لا شك فيه ان المانيا جهزت النمسا بآلاف كثيرة من تلك الاعلام ولكنني كنت على ثقة من ان هذه المظاهر الاحتفالية لم تكن مجرد مجهود دعايوي مارسه الدكتور غوبلز وانما كانت الانعكاسات الحقيقية للمشاعر الجياشة في نفوس النمسويين المحبين لأمتهم اعرابا عن سعادتهم بتحقيق املهم القديم في اندماج النمسا مع المانيا.

وقف هتلر على منصة صغيرة مقابل القصر الامبراطوري يحيط به عدد صغير من الضيوف لاستعراض القطعات الالمانية التي مرت من امامه وقد اتيحت لي بهذه المناسبة فرصة تقديم عدد من سفراء الدول الاجنبية لهتلر كان منهم ممثلو پولندا والمجر وبلغاريا ويوغسلافيا وايطاليا.

(٦) فات المؤلف الاستشهاد في هذه المناسبة بقول ماثور لمواطنه الشاعر الالماني العظيم ڤولفغانغ يوهان غوتيه الذي قال (لا تلومن احدا ما لم تجعل نفسك بمكانه) . — المترجم —

اختلطت القوات الألمانية التي كانت بقيادة الفريق فون بوك بالقوات النمسوية التي ارتدى افرادها ابهى حللهم بهذه المناسبة. وقد ذكرني تعاقب القطعات الالمانية والنمسوية في مسير الاستعراض بأيام القتال المشترك الذي خضناه سوية ابان الحرب العالمية الاولى.

اتيحت لي خلال فترة الاستراحة القصيرة فرصة التحدث لهتلر بما كان يجيش في خاطري فقلت له بأننا يجب ان نحسن علاقاتنا بهذه المناسبة مع الكنيسة فالنمسا بلد كاثوليكي ولو عزلنا الكنيسة عن الشعب كما فعلنا في المانيا فسنتعرض للمشاكل خلال اسابيع قليلة . فأجابني بأن علاقاتنا ستكون رائعة مع النمسا اذا ما أحسنا ادارتها وحافظنا على تراثها . ثم انه ابتسم بسرور ظاهر وقال لي:

« لا تقلق ابدا فسأتدبر أمر النمسا على أحسن ما يمكن ان يكون ».
فقلت له:

« ربما سيكون من الافضل ازالة كل مخاوف النمسويين هذا اليوم باثبات حسن النية تجاه الكنيسة. أفلا ترى ان من المناسب قيامكم باستقبال الكاردينال بعد اختتام الاستعراض لكي توضحوا له تطميناتكم ؟».
فأجاب:

« أجل . يسرني ذلك كثيرا . ارجو اخباره بأنني سيسرني استقباله بعد انتهاء الاستعراض مباشرة في فندق أمپريال».

فرحت كثيرا لتحقيق هذه الامنية وعجلت بأرسال من يخبر نيافة الكاردينال برغبة هتلر مؤكدا له بأنني يشرفني ان اختتم خدمتي للنمسا بمرافقته شخصيا عند مقابلته لهتلر .

استقبلت نيافة الكاردينال عند مدخل الفندق بعد ساعتين وكان الشارع مكتظا بآلاف النمسويين المحتشدين على جانبيه وهم يهتفون للكاردينال عند ترجله من سيارته.

صحبت الكاردينال حال وصوله لمقابلة هتلر فأختلى به زهاء ساعة

ولما خرج الكاردينال انيتسر من المقابلة بدت على محياه امارات الجذل. وقد أخبرني بعد خروجه بأنه اكد لهتلر اخلاص النمسويين طالما بقي ملتزما باتفاقية ضمان حرية العبادة والتعاون على مكافحة الالحاد حيث سيلقى اسناد الكنيسة التـام . كما انه قال لهتلر بأنه كنمسوي أصيل لا يمكن أن يرضى للنمسويين ان يكونوا مواطنين من الدرجة الثـانية في دولة المانيا الكبرى فطمنه هتلر بهذا الشأن ايضا.

وكانت تلك المناسبة هي آخر مرة اشاهد بها الكاردينال انيتسر حيث شكرني من اعماق فؤاده على تدبير ذلك اللقاء وافترقنا على امل ان تكون تلك البادرة فاتحة عهد جديد من العلاقـات الحسنـة بين الدولة الالمانية والكنيسة. ولن اجد اعتذارا عن فعالياتي خلال تلك الفترة أبلغ من الاشارة في معرض هـذا الاستطراد الى الكلمة المفعمة بالحكمة والتي قالها البابا بيوس الثاني عشر في ٢ حزيران ١٩٤٦ :

« هل كان من الممكن آنذاك اتخاذ الاجراءات المنـاسبة لمنع الكارثة لرهيبة التي وقعت. وهل كان بالامكان انقاذ الشعب الالماني من الوهدة التي تعرض لها ؟ وهل كان بالامكان تجنيب أوربا والعـالم ما تكبـداه من سيول الدماء؟ ليس بمقدور احد ان يضمن دفع المقدور ».

لم تمر علي فرحتي العظيمة بتحقق الوحدة التي تمت بسلام دون غصة منغصة. فقد علمت بعد وصولي الى ڤينا بأن معاوني وصديقي البارون فون كيتلر قد اختفى بصورة غامضة ليلة الاثنين ١٣/١٤ آذار ١٩٣٨ وكان قد قضى تلك الأمسية مع أمينـة سـري الآنسة روزا التي كانت تقطن بمسكن قريب من السفارة وهي صديقته الشخصيـة منذ امد طويل. وقد ودعهـا منصرفا بعد أمسية قضياها معا قبل منتصف الليل بقليل.

وكان فون كيتيلر عندما غادر المكان في أحسن حالاته ولم تكن تساوره آية مخاوف بشأن نفسه. ولكنه اخبر صديقتـه المذكورة بأنه كان يشعر بوجود من يتعقبـه فناشدته أن يكون حذرا . الا أنه لم يزد أن ابتسم لها . فلما غادر المسكن شـيعته بنظرها حتى لفـه الظلام في الشارع الكائن وراء

السفارة حيث كان يركن سيارته.

وقد لاحظت الفتاة ان ثلاثة رجال كانوا يتعقبونه على بعد خطوات قليلة. وفي الصباح وجدت سيارته بمكانها لم تمس وكان منزله خاليا وواضح انه لم يرجع في تلك الليلة الى بيته . ولم يره أحد منذ ذلك الحين .

ومن المنطقي ان يلاقي فون كيتيلر مصيرا غامضا بعد ان عرف عنه مناوأته للنازية وبعد ان دأب على التردد المستمر على عدد من الاصدقاء النمسويين في ڤينا وفي المدن الاخرى كما انه كان كثير السفر الى المجر لنفس الغرض.

ولابد انه سمع بوصول أول وحدة من الشرطة السرية للدولة الالمانية الى ڤينا واقامة افرادها في مبنى السفارة . ولما سألنا كل اصدقائه المعروفين عنه فاننا لم نسمع عنه أي خبر.

ما ان فرغت من مرافقة هتلر في الاستعراض ومقابلة الكاردينال انيتسر له الا ورتبت محاولات أخرى للتحري عن فون كيتيلر لأن مصيره كان يهمنا جميعا بعد ان ادركنا فداحة الخسارة بفقدانه. وقد وجدت ان من الافضل بدء التحري عنه لدى ادارة الشرطة السرية للدولة نفسها وهكذا توجهت في صباح الثلاثاء الباكر لزيارة راينهارد هايدريش بمكتبه وسألته عما اذا كانت لديه اية معلومات عن البارون المفقود الا ان هايدريش تظاهر بالمفاجأة والاستغراب ووعدني بتوجيه تعميم فوري للبحث عنه. وفي مساء اليوم نفسه التقيت بقائد الشرطة السرية للدولة هاينريش هملر في فندق امپريال فسردت له تفاصيل اختفاء صديقي ورجوته ان يسدي لي المعونة الممكنة في البحث عنه. وكانت ترافقني البارونة فون شتوتسنغن وقد انفعلت تلك السيدة النبيلة عند سماعها تفاصيل اختفاء الرجل فقالت لهملر بصورة مفاجئة:

« من المؤكد يا سيد هملر ان ملابسات اختفاء البارون فون كيتيلر تدل على وضاعة جديدة قام بها رجال شرطتك السرية فأنا أعلم بأنهم يتعقبونه منذ امد طويل وليس من المستبعد ابدا ان رجالك اخذوه الى أحد معسكرات

الاعتقال »٠

الا ان هملر انكر معرفته لأي شيء يتعلق بمصير الرجل ووعد باسداء كل معاونة ممكنة في سبيل تسهيل امر البحث عنه٠ وفي صباح اليوم التالي عاودت الاتصال بهايدريش ولكنني لم أحصل على نتيجة واعلنت في الصحف عن مكافأة مقدارها ٢٠٠٠٠ مارك لمن يدلي بمعلومات تساعد على كشف مكان صديقي المفقود٠ وفي ذلك اليوم علمت من النائب العام في ڤينا بأن الحادث سجل ضد مجهول٠ وبعد عودتي الى المانيا حاولنا الاتصال بأبويه المفجوعين وتعاونا معهم على الخطوات التالية ٠ وعندئذ كتبت رسالة شخصية لهتلر رجوته مساعدتي في البحث عن صديقي وقلت له بأن الشرطة السرية للدولة ليست بعيدة عن الشبهات في هذه القضية بالذات وانه ربما أخذ قسرا الى أحد معسكرات الاعتقال ٠ ولما لم احصل على اجابة عن تلك الرسالة فقد رجوت هتلر الموافقة على مقابلتي لبحث هذه القضية شفويا الا انه رفض مقابلتي لهذا الغرض٠ وكان هتلر قد اعتاد رفض التباحث بشأن اية قضية من هذا القبيل٠ وفي هذه الاثناء وصل الى ڤينا أحد اخوة البارون فون كيتيلر فأتصل ببعض رجال التحري الخصوصيين بحثا عن أخيه الاكبر٠

وأود هنا ان اتحدث قليلا عن حراجة موقفي الشخصي في تلك الفترة فقد منحني هتلر وساما رفيعا خلال ذلك الأسبوع وهذا اعراب عن التقدير الاستثنائي ولما كنا نعيش احتفالات الوحدة فليس من المعقول ان اقدم على رفض الوسام اعرابا عن استنكاري لحادث اختفاء صديقي٠

وكانت شرطة الدولة السرية قد تحرت منزل البارون فون كيتيلر بڤينا ووجدت هناك نقودا سويسرية واكتشفت الادلة الكافية على سفره المفاجيء الى زيوريخ٠ وحامت شكوكي حول شخص معين اتخذته الشرطة السرية للدولة مخلب قط في مثل هذه الاعمال وسبق له ان ساهم في اغتيال البارون فون بوسه ومن المؤكد جدا انه سمع بسفرة فون كيتيلر المفاجئة الى سويسرا فأخبر بها اسياده٠

لما رفض هتلر مساعدتي لجأت الى هرمان غورنغ الذي كان له تأثير

على الشرطة السرية للدولة وقد صارحني غورنغ حال استفساري عن فون كيتيلر بأنه قتل بناء على امر صادر من هايدريش. كما ان مساعد غورنغ اللواء بودن شاتز اكد لي غضب غورنغ عند سماعه بالنبأ واتصل بهتلر طالبا ايقاع اشد العقوبات بهايدريش لاقدامه على هذه الفعلة .

أما غورنغ فقد وعدني بالاسناد التام وقال بأنه سيطلب من الشرطة السرية اضبارة القضية لدراسة ملابساتها.

ولما زرت غورنغ ثانية بعد بضعة أيام أوضح لي بأن سبب اغتيال البارون فون.كيتيلر هو قيامه بتهريب وثائق سرية الى سويسرا اودعتها له أنا في شباط ١٩٣٨ وان جميع الادلة التي تدينه متوفرة لدى الشرطة السرية. وان القضية في غاية الخطورة لاسيما وانها تتعلق بتهريب وثائق حكومية ذات صفة سرية الى خارج البلاد مما تترتب عليه أشد العقوبات كما اكتشفت الشرطة السرية وجود خطط مدبرة أعدها فون كيتيلر لاغتيال الزعيم وهذه تعتبر من جرائم الخيانة العظمى.

وجمت قليلا ولم أحر جوابا لدى سماعي لتلك التفاصيل. اذ تساءلت مع نفسي. كيف توصلت الشرطة السرية لمعرفة هذه المعلومات الدقيقة ؟ اذ ليس بمقدور احد التوصل الى هذه التفاصيل ما لم يكن من أصدقاء ڤيلهلم المقربين. ولما لم يعد بمقدوري انكار علمي بتهريب الوثائق المذكورة فقد قلت لغورنغ:

« لقد اوعزت انا بأرسال تلك الوثائق السرية المهمة الى سويسرا على اثر استدعائي المفاجيء من ڤينا لكي اتمكن من اثبات النهج السياسي الذي مارسته باللجوء الى الوسائل السلمية التدريجية والتأكيد على نفي ممارسة أية سياسة عدوانية ضد النمسا عند تحقيق وحدتها مع المانيا.

لا سيما بعد أن اثبت الزعيم بأقالتي المفاجئة رغبتـه في تطبيق نهج آخر غير الذي ارتسمته فاذا ما احلت يوما للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمىفستتوفر لدي الوثائق التي تثبت برائتي. وانني وحدي اتحمل مسؤولية ارسال تلك

الوثائق الى سويسرا ولم يكن البارون فون كيتيلر سوى رسول نفذ مهمته بناء على أمر صادر مني ».

وهكذا أصبح موقفي حرجا بصورة مفاجئة. وصرت اتوقع القاء القبض علي في كل يوم واحالتي للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى. أما صديق فون كيتيلر الذي تجسس عليه لدى الشرطة السرية للدولة فقد اختفى بصورة مفاجئة ايضا. وقد برزت التهم التي وجهتها الشرطة السرية للدولة ضد البارون فون كيتيلر فكانت منها تهمة افشاء خطط تقدم الجيش الألماني لمسؤولين نمسويين ومنها محاولته الحصول على سلاح ناري مزود بجهاز كاتم للصوت بغية اغتيال هتلر به عندما تسنح الفرصة له او لأحد اصدقائه. ومع انني كنت قد سمعت من البارون نفسه هذا القصد واستهجنته محذرا من مغبة الاقدام على هذه المحاولة الا انه يبدو ان الموما اليه تحدث عن هذه الفكرة امام شخص ثالث لم يتحمل السر فتسبب افشاؤه في أن يورد الرجل حتفه. والآن فانني بعد ان عرفت بالتهمتين المثبتتين في اضبارة البارون لدى الشرطة السرية فقد استطعت تحديد الرجل الذي افضى للشرطة بالمعلومات الدقيقة بصورة مؤكدة. ذلك لأن غراف كاغنيك الذي رافق زوجتي برحلتها الى برلين بالطائرة يوم الأحد قال لها عند توديعه لها:

« ابذلي جهدك لكي يغادر البارون كيتيلر ڤينا بأسرع ما يمكن فهو مهدد بالخطر ».

ولربما كان تحذيره هذا نتيجة لتأنيب الضمير ازاء صديق لم يصبه بسوء.

دلت تحرياتنا الخاصة على ان سيدة كانت تستقل سيارة تحمل رقما المانيا كانت ترصد فون كيتيلر قرب منزل الآنسة روزا قبيل مغادرته للمنزل المذكور في تلك الليلة . ولما سألت هملر عمن يملك السيارة التي تحمل ذلك الرقم الالماني أجابني بأن الرقم المذكور لسيارة من مقاطعة ماكلنبورغ وانها لم تغادر المانيا قط.

في أواخر نيسان ١٩٣٨ تم العثور على جثة غريق مجهول في نهر الدانوب وسرعان ما تعرف غوسقين شقيق البارون فون كيتيلر على الجثة التي كانت لأخيه ولكنها لم تسلم للأسرة الا في ٢٥ مايس ١٩٣٨ حيث ووريت التراب.

وفي تلك اللحظات الممضة حزنا تذكرت عبارة قيمة للبارون الفقيد قالها بمناسبة تشييع المرحوم البارون فون بوسه في ٣٠ حزيران وكان نصها:
« دعونا نناضل وليقل الآخرون ما يشاؤوا فالقضية في سبيل المانيا ».

وعند القاء نظرة شاملة على فعالياتي خلال السنوات الأربع التي قضيتها بمنصبي الذي شغلته في ڤينا يمكنني ان اوجز تلك الفعاليات بما يلي:

انني تقبلت النهوض بتلك المهمة العسيرة والمشرفة معا بموجب الاتفاق الذي توصلت له مع هتلر في بايرويت عام ١٩٣٤ على امل اللجوء للوسائل الودية لاقامة العلاقات الممتازة المتطورة بين البلدين الشقيقين لأنني آمنت بأن ذلك هو الحل الأمثل لمعضلة الوحدة مع النمسا .

لقد قام الحزب النازي النمسوي باللجوء الى وسائل قسرية جافية بايحاء من الحزب النازي الالماني وهذا احباط متعمد للمساعي السلمية التي دأبت على ممارستها بهدوء وكسبت بها ثقة ابناء الشعب النمسوي بألمانيا.

والغريب في هذا الأمر ان مناقضة نشاطاتي كانت تتم بأمر من الحزب النازي الالماني الذي يتزعمه هتلر الذي هو رئيس الحكومة التي اقوم بخدمتها بكل اخلاص.

لكنني أظن بأن سبب هذا التناقض لابد ان يكون بتأثير من المتطرفين الغلاة من اعضاء الحزب النازي الكبار . مع انني قلت لهتلر في مناسبات عديدة بأن الوسائل القسرية لا يمكن ان تؤدي الى تحقيق نتيجة سلمية وكان يؤيد هذه الافكار الا انه لابد ان يتأثر بأقوال اصحابه فيسايرهم باتخاذ اجراءات تحبط الخطط التي دأبت على تنفيذها بعناية وادركت بها نتائج طيبة.

واعتبارا من صيف ١٩٣٧ تمكنت من احكام قبضتي وبصورة تدريجية على المسائل المشتركة بين المانيا والنمسا، على الرغم من محاولات غورنغ

المتعطش للسلطة وممارساته للتأثير على السياسة الدولية كمراسلاته مع غويدو شميت او زيارته لموسوليني واستطاع تحقيق الكثير من المكاسب نظرا للموقع السياسي المرموق الذي يتمتع به بصفته الرجل الثاني في الدولة الالمانية مما اتاح له فرصة التباحث مع فون شوشنيغ او مع غويدو شميت من موقع أقوى من موقعي وبالتالي فانه كان بمقدوره التحرك بصورة اسهل وتنفيذ التزاماته بطريقة افضل واسرع.

وان الملابسات التي حصلت امامي في دار المستشارية يوم ١١ آذار ١٩٣٨ أكدت لي مدى تأثير غورنغ على سير الاحداث وكانت دعوته الدائمة لايجاد (حل شامل) للقضية النمسوية قد حفز هتلر على اتباع هذا الرأي.

وحتى في لينز يوم ١٣ آذار كان قرار هتلر بعدم اعطاء النمسا أي شكل من الحكم الذاتي بناء على تحريض مباشر من غورنغ. وهكذا ذهبت كل تحذيراتي المخلصة لهتلر والمتضمنة تجنب اللجوء للوسائل القسرية التي لابد ان تثير الدول الاخرى المنزعجة من تحقق الوحدة لكي لا نعطيها أي مبرر للتدخل او الانتقاد. واعتقد جازما بأن المستشار النمسوي فون شوشنيغ لو ابدى تفهما اكثر ولو تعامل معي باخلاص اوفر ولو سايرني في نهجي السياسي السلمي لسارت الامور بشكل افضل بالنسبة له ولبلادنا. ولو انه اخبرني في حينه بمباحثاته الجارية مع غورنغ لادركت مرامي الاخير ولمحضت فون شوشنيغ النصيحة ولأخذت مباحثات برختسغادن مسارا آخر . الا ان فون شوشنيغ نفسه اعترف بعد حين بجهله التام بالمشاعر الحقيقية للشعب النمسوي وكان هذا من اسباب فقدانه المبادأة في مباحثاته العاصفة مع هتلر ببرختسغادن .

وقد تبين بجلاء في ٤ شباط ١٩٣٨ عندما انهيت مهمتي وغادرت فينا بأن هتلر لم يعد يأبه للوسائل التي حرصت على اتباعها في تحقيق الوحدة ولكن التأريخ لابد ان يقول كلمة الانصاف ويشهد للاجيال بأنني كنت على صواب وان غيري كان على ضلال.

الفصل السادس والعشرون

مِنْ أَنقَرَة إِلى نورمبرغ

نشُوبُ الحَرْبْ

العودة الى المانيا . اقضية الخيانة العظمى ؟. احرب ام سلام . نزاع مع فون ريبنتروپ . رجاء موجه لملك السويد . ايطاليا غزت البانيا . عرض لقبول منصب، في انقرة . شروطي . هتلر يلغي اتفاقيــة لندن البحرية . الوصول الى اسـطنبول . مخاوف تركيا . تذبذب بين شـيانو وفون ريبنتروپ . زيارة هتلر . فون ريبنتروپ يطير الى موسكو . حرب مع پولندا . اندحار المانيا مؤكد . ثلاثة احتمالات .

عندما انتهت قضية النمسا رجعت الى مسكني في (ڤالرفانغن) بمنطقة السار وكان مسكني قد صار في وسط تحصينـات الجدار الغربي المليء بالاسلاك الشائكة وموانع الدبابات والترتيبات الدفاعية من جميع الانواع. وهكذا وجدت نفسي بعد ست سنوات من العمل في النمسا وقد وصلت نذر الحرب الى عقر داري وصرت اتوقع بعد هذه الاستحضارات المحمومة لشوب حرب جديدة.

ساورتني في تلك الفتـرة هموم كثيرة لانني اقـدمت على ارسـال تقاريري المعنونة الى هتلر الى سويسرا مما يحتمل معه احالتي الى المحـاكمة

بتهمة الخيانة العظمى.

وكان كيتلر وكاغينيك قد اودعاها في خزانة بأحد مصارف زيوريخ وكان صاحب ذلك المصرف ابن عم كيتيلر . ولا علاقة لموت كيتيلر بذلك الموضوع فقد (اختفى) قبل أن تتاح للشرطة السرية الألمانية فرصة التحقيق معه. الا ان متابعتهم له اتاحت لهم امكانية اكتشاف مكان الوثائق المخفية . ولو أنهم وضعوا أيديهم عليها لقدموها الى هايدريش ولأعطوه سلاحا ماضيا لتبرير اختفاء كيتيلر ولاتيحت لهم ولهتلر وغورنغ فرصة تصفية الحساب معي أيضا.

وقد ذكر ڤالتر هاغن وهو عضو فعال جدا في هيئة الاستخبارات العسكرية في كتابة الموسوم (الجبهة السرية) ان هايدريش بقي حتى موته يحاول ارسال من يغتال فون پاپن وقد كلف مرؤوسيه بهذه المهمة التي لم يكتب لها التنفيذ.

لم أرسل الى سويسرا أية وثائق سرية تدينني امام شرطة الدولة السرية . ولم تحتو تلك الاضبارات على الوصايا السرية التي وجهها لي الرئيس فون هندنبورغ . ولكن ربما كان كيتيلر قد علق على وثائقي ومحادثاتي بملحوظات ضد نظام هتلر وأودعها الخزانة السرية مع وثائقي . ولكي أتخلص من هذا المأزق فقد أوفدت كاغينيك الى زيوريخ وزودته بهوية من مكتب المراسلات الدبلوماسية التابع لوزارة الخارجية ولما وجد كاغينيك ان الاضبارات الضخمة التي كانت حصيلة عمل اربع سنوات حافلة أكبر من ان تستوعبها حقيبته التي ربما ستجلب نظر رجال الشرطة الدولة السرية فقد قرر احراق القسم الأكبر منها وعاد الي بالجزء المتبقي منها دون أن يكتشفه أحد .

وقد توسمت ان الشرطة السرية ادركت بشكل او بآخر ما اقدمت عليه وكان ان تأكدت مخاوفي عندما اخبرني مدير مكتب المراسلات الدبلوماسية بوزارة الخارجية بأن شرطة الدولة السرية توشك على اعتقال كاغينيك لكنه افلت في آخر لحظة عندما لجأ الى السويد. ثم انني لجأت الى اجراء حصيف عندما أودعت تلك الوثائق الى هتلر نفسه ليتحرى شخصيا عما اذا كنت

استحق الاحالة بسببها الى المحاكمة بتهمة الخيانة العظمى. وقد اعدت على اسماعه تبريرا لاقدامي على ايداع تلك الوثائق في سويسرا يتضمن محاولتي لتبرئة نفسي من التهم التي قد تلصق بشخصي بسبب فعالياتي السياسية في النمسا عندما كنت سفيرا فيها. وقد علمت فيما بعد ان تحقيقات شرطة الدولة السرية اوصلتها الى الخزانة التي كانت تضم الوثائق ـ ولكن بعد فوات الأوان ـ ولما فتحتتلك الخزانة وجدت خاوية . وقد بقيت مبلبل الخاطر ومتوجسا من شر وشيك طوال اسابيع عديدة حتى حدث ما غير الحال ودعى هتلر وغورنغ الى اصدار توجيهاتهما لكل من هملر وهايدرش بجعل القضية منتهية بالنسبة لي.

علمت بتطورات الموقف بشأن مسألة السوديت من الصحافة فقط. وقد عشنا بطبيعة الحال توتر الاعصاب الىحد الارهاقعندما تابعنا المفاوضات المطولة بين هتلر وتشامبرلن . وقد اعجبني ما كتبه الاخير فيما بعد بشأن مقابلته الاولى لهتلر عندما ذكر ما يلي:

« على الرغم من الجفوة والفظاظة الواضحتين فقد توسمت من قراءة وجهه امكانية التوصل الى ما يرضي. وقد حصلت على انطباع بأنني بمواجهة رجل يمكن الوثوق به اذا ما أعطى كلمة » . وعندما يتحدث المؤرخون عن اتفاقية ميونيخ وينحون باللائمة على تشامبرلن فانني اعود بذاكرتي للحفاوة المفرطة التي قوبل بها الرجل عند وصوله الى المانيا لأنه جاء يحمل بوادر السلام للشعب الالماني.

وقد كتب له المهاتما غاندي رسالة بهذه المناسبة جاء فيها:

« ان ملايين الامهات في اوربا وفي العالم اجمع يباركن مساعيك السلمية اليوم ».

كانت مساهمتي الوحيدة في محادثات بادغوسبرغ[1] تتمثل ببرقية

---

(1) بادغودسبرغ هي ضاحية مدينة بون عاصمة المانيا الاتحادية حاليا وتقع على نهر الراين . ـ المترجم ـ

ارسلتها الى هتلر ذكرته فيها بالوعد الذي سبق ان قطعه على نفسه بتأمين السلام للشعب الالماني. كما كتبت رسالة الى تشامبرلن ذكرته فيها بمساعينا الحثيثة لتحقيق السلام الأوربي في مؤتمر لوزان . وقلت له أن الشعب الألماني يشكره من اعماق فؤاده على مساعيه الحميدة في سبيل السلام. وقد دلت الوثائق البريطانية التي أعلنت فحواها للملأ فيما بعد على أن تشامبرلن كان يسعى لتصحيح وضع المانيا السياسي بعد الاجحاف الذي أصابها نتيجة لخسارتها الحرب العظمى .

ومع انني فقدت رسالة تشامبرلن الجوابية مع الاسف أثر انهيار داري خلال الحرب الا انني لا أزال اتذكر عبارة مهمة جائت بتلك الرسالة وكان نصها:

« لقد كنت محظوظا عندما وصلت مباشرة الى قلب المانيا » .

الا ان اوهامنا بتحقيق السلام سرعان ما تبددت عندما القى هتلر خطابا في تشرين الثاني ١٩٣٨ في مدينة ساربروكن وضمنه سخطه على بريطانيا بدعوى مبالغتها بالتسلح. وبينما كان فون ريبنتروب يوقع على اتفاقية مع فرنسا بباريس وهي اتفاقية كنت قد بذلت الكثير من الجهود لوضعها موضع التنفيذ فان هتلر كان يسعى لتقويض أسس السلام الاوربي .

وقد علمنا فيما بعد ـ اثر كشف الأسرار في محاكمات نورمبرغ[٢] ـ . بأن هتلر كان قد اتخذ قراره قبل ذلك التأريخ بادارة الحرب وخطى بضع خطوات سرية بهذا الاتجاه.

---

(٢) جرت محاكمات نورمبرغ ـ وهي أول بادرة من نوعها بالتاريخ ـ بمحاكمة زعماء المانيا التي خسرت الحرب العالمية الثانية امام قضاة من الدول الاربع المنتصرة وهي بريطانيا وفرنسا وروسيا والولايات المتحدة الامريكية وقد جرت المحاكمات في مدينة نورمبرغ التي كانت موئل الحزب النازي ومقر احتفالاته السنوية ـ ولم يسكنها اي يهودي منذ القرن السابع عشر ـ وقد تمخضت المحاكمات المذكورة عن اعدام ٢١ شخصية وسجن ٧ شخصيات واطلاق سراح ثلاثة فقط احدهم مؤلف هذا الكتاب . ومما هو جدير بالذكر ان احد المتهمين ـ البارون فون نويرات ـ توفي اثناء المحاكمة وانتحر ثلاثة منهم خلال فترة المحاكمة . ـ المترجم ـ

في هذه الاثناء تلقيت دعوة من جمعية الصداقة الالمانية ـ السويدية لالقاء محاضرة بستوكهولم في كانون الثاني ١٩٣٩ وقـد أخبرت الجمعيـة بتلبية الدعوة بعد ان حصلت على موافقة وزير الخارجية فون ريبنتروپ.

ولما كان لي في السويد عدد كبير من الاصدقاء ومنهم ملك السويد الذي ابدى اعجابه بسياستي فقد كنت آمل ان أجد آذانا صاغيـة لما سأؤكده من رغبة عميقة تحدونا لتحقيق السلام.

ولما مررت ببرلين وأنا في طريقي الى السويد عرجت على وزارة الخارجية وقابلت فون ريبنتروپ الذي طلب مني عـرض مسـودة محاضـرتي عليـه فرفضت الطلب لأنني ـ وبكل صراحة ـ لم اكن قد أعـددت اية مسودة للمحاضرة المذكورة . ثم قلت له بأنني حتى وان كنت كتبتهـا فانني أمتنع عن ارائتها له. فأجابني بجفاء ظاهر:

« لقد سبق لك ان القيت محاضرة معاديـة للدولة وسوف لن اسمح بتكرار مثل هذا الخطر ».

ولما قرأ آيات التعجب لهذا الاتهام المفاجيء على محياي اردف موضحا ادعائه:

« لقد كان هذا في ماربورغ »

فأجبته عندئذ:

« أجل يا سيد فون ريبنتروپ. لقد القيت المحاضرة المذكورة متحملا كامل مسؤولياتي الرسمية بصفتي نائب المستشار آنذاك. ولـم يكن من حقك الاعتراض عليها او توجيه النقد لي. واذا كنت الآن غير راغب بقيـامي بالتحدث للناس في ستوكهولم فأرجو اخباري بذلك بصراحـة لكي ابرق لصاحب الجلالة ملك السويد معتذرا عن القاء المحاضرة».

ثم تركت مكتب فون ريبنتروپ دون أي انتظار لانني يصعب على التفاهم مع وزير خارجية المانيا الذي كان أسيرا لاوهامه ولمركب النقص الذي يعاني منه . الا أن الرجل ما لبث أن خف ورائي معتذرا عما بدر منه . وقد سر فيما بعد لأنه وجد من يتبرع لتحسين سمعة المانيا ويطري سياستها في الخارج.

كانت صفوف المقاعد المرصوصـة في الحديقة الشتائيـة بفندق غراند بستوكهولم مشغولة برمتها وقد تحدث قبلي صديق المانيـا الكبير سفن هدين قائلا ان المرء يحدوه الامل باستعادة الشعب الالماني لمكانته المرموقة في قلب اوربا لكي يساهم في وضع اسس السلام المتوازن. وأخبر الحاضرين بأن مجرد وجودي في ذلك المكان ينطوي على العزم الاكيد لجميع شعوب أوربا لاقرار السلام في القارة وتوجه لي بشكره الجزيل.

استقبلني الملك باحترام وبتفهم تام لارائي كما هي العادة. وقد تقدمت لجلالته باقتراح خلال مقـابلتي له وقلت له انه بصفته عميد ملوك اوربا فيمكنه ان يخطو خطوة تنطوي على كل معاني الصداقة الصميمـة للشعب الألماني وتخدم شعوب أوربا قاطبة عندما يوضح لهتلر بأن سياسته الخارجية لابد ان تؤدي الى الحرب . فبعد مؤتمر ميونيخ ومعاهدة باريس اصبحت جميع السبل مفتوحة من اجل اقـرار السلام الاوربي المنشود . وقد رحب ملك السويد بوجهة نظري وتحمس لهـا. ولكنني علمت فيما بعد ان تغير الوزارة السويدية بوصول حكومة اشتراكيـة جديـدة الى سدة الحكم في تلك البلاد ادى الى عدم قبول الحكومة الجديدة للاقـدام على هـذه الخطوة.

وعندمـا رجعـت الى برلين استقبلني الوزير فون ريبنتروب بمنتهى المودة وعرض علي منصب السفير في انقرة ــ وهو منصب شغر منذ ثلاثة أشهر ــ لكنني رفضت المنصب . ثم انه جدد العرض في شباط ١٩٣٩وعاودت الرفض . وفي اواسط آذار ذهبت الى دريسدن لاجراء معالجة طبية ضرورية في مصح «ڤايسن هرش» وقد لاحظت هناك المساعي المحمومة لتشكيل فرق جديدة فأدركت بحكم خبرتي ــ وأنا ضابط الركن القديم ــ بأن وراء هذه الجهود نوايا أكيدة لدخول الحرب . وسرعان ما صح توقعي عندما تلقيت امرا مكتوما من ادارة النفير يقضي بتعييني في حالة نشوب الحرب بمنصب آمر لواء مشاة في احدى فرق الاحتيـاط المتشكلة بمنطقة ڤيزبادن والتي عليها ان ترابط على خط التحصينات الغربي على حدود فرنسا.

ثم تعاقبت نذر الحرب بصورة متلاحقة وكانت أولاها في ١٥ آذار ١٩٣٩ عندما انهارت حكومة هاشا في تشيكوسلوفاكيا وتقدم الجيش الألماني نحو براغ. وكانت حصيلة هذه الفعلة ان فقد هتلر سمعته السياسية كرجل دولة لأنه لم يحافظ على كلمته. وكان تشامبرلن اشد من اصيب بخيبة الامل لأنه سبق ان صدق مزاعم هتلر ثم رآه ينكص عنها بلا حياء على رؤوس الاشهاد . ولم يعد بمقدور هتلر مطلقا ـ بعد ان تجاوز حدوده بشكل سافر ـ استعادة اية فرصة لكسب السلام.

بينما كنت اتعالج في دريسدن ناقشت تدهور الموقف مع رفيقي القديم منذ ايام حملة فلسطين الفريق فون فالكنهاوزن . وفي هذه الاثناء تلقيت نداء هاتفيا من وزارة الخارجية ببرلين. وقد تحدث الي هاتفيا الوزير فون ريبنتروب بلهجة ودية مكررا رجاءه لقبولي منصب السفير في انقرة قائلا انه يرجو الا يسمع مني كلمة رفض هذه المرة. ولما ابديت تعجبي لهذا الالحاح قال لي السيد فون ريبنتروب بأن موسوليني اقدم في اليوم السابق على اجتياح البانيا بصورة مباغتة وان بضعة فرق ايطالية قامت باحتلال تلك البلاد. وكان من الواضح ان فون ريبنتروب فوجيء بهذا العمل الذي قامت به حليفة المانيا بالمحور دون استشارة المانيا وهو اجراء مشابه لما قام به هتلر عندما أقدم على احتلال براغ. ثم قال لي فون ريبنتروب بأن هذا العمل من شأنه زيادة حدة التوتر السياسي في اوربا وكان هذا الاعتراف وحده دالا على عدم امكانية حصول أي تدخل اوربي لتهدئة الحالة المتدهورة . أما انا فلم يكن بمقدوري الحصول على فكرة واضحة عن تطورات الموقف من ذلك النداء الهاتفي بطبيعة الحال وهكذا قطعت علاجي ورجعت الى برلين.

صادف يوم ٧ نيسان ١٩٣٩ يوم الجمعة الحزينة[٣] وهو يوم لا أنساه ما حييت. فقد عانيت من القيام بمهمة السفير في انقرة طوال خمسة اعوام من الجهد النفسي الى درجة تفوق قدرتي على التحمل.

---

(٣) هي يوم الجمعة التي تم فيها صلب السيد المسيح من قبل اليهود .
ـ المترجم ـ

ما ان وصلت الى برلين حتى حصلت على صورة واضحة عن الموقف، وانني اعلم علم اليقين بأن اتاتورك كان يعتبر التمسك بالمضائق التركية قضية مقدسة تستحق كل تضحية،

وكثيرا مـا حذر قائلا بأن الخطر الأوربي الوحيـد الذي تتعرض له المضائق لن يجيء من غير ايطاليا الفاشية ، ومما لا شك فيه ان احتلال الطليان لألبانيا بهذه الطريقة الغادرة وتصريح الكونت شيانو بأن ايطاليا عازمة على الاحتفاظ بثلاثين فرقة تحت السلاح معناه ان للاتراك ما يبرر مخاوفهم من تعاظم قوة ايطاليا وكان اتاتورك وخلفه عصمت اينونو قد حرصا على ترصين حلف مع دول البلقان للتصدي لأية مطامع اوربية تهدف للاستحواذ على أي جزء من جنوب شرق اوربا، الا ان رومانيا كانت قد توصلت الى عقد اتفاقية تجارية مع المانيا وهذا العمل يعتبر في نظر الاتراك انحيـازا رومانيا وشيكا الى صفوف المحور،

ثم ان بلغاريا رفضت الانضمام الى حلف البلقان وصارت تتودد لألمانيا، وهكذا وجدت تركيا نفسها شبه وحيدة بمواجهة الخطر الايطالي المتمثل بالنواة الاساسية لسياسة موسوليني الذي دأب على تسمية البحر الابيض المتوسط (بحرنا) وهي ايمائة واضحة لعزمه على جعل البحر المذكور بحيرة ايطالية والتوسع بامبراطوريته حول ذلك البحر من جميع الاتجاهات ،

والواقـع ان الموقف الاوربي زاد اضطرابه لدرجـة تفوق الوصف وجدّت جميع الدول بمساعيها المحمومة اما لحمـاية نفسهـا او لضمـان الحصول على مغانم كانت تصبو اليهـا ، وقد أرسل الانكليز والفرنسيون بعثات عسكرية الى موسكو بغية الحصول على ضمـانات لسلامة پولندا ورومانيا والاتفاق مع روسيا للتعاون في التصدي لعدوان هتلر الوشيك،

رفع الانكليز ميزانية الدفاع بعد ان لاحظوا توتر الموقف الدولي الى ٧٠٠ مليون باون ، وأجروا مناورات واسعة لأساطيلهم كما أجروا محادثات مع هيئة الركن البولندية واخذوا يطلقون التعهدات جزافا لكل من پو لندا

ورومانيا واليونان وتركيا. وقد قال لي سير نيڤيل هندرسون في تلك الفترة بأن المجال لا يزال مفتوحا لانقاذ الموقف المتدهور اذا ما تمكنا من افهام هتلر بكل جدية ووضوح بأن أي عدوان جديد سيتمخض حتما عن نشوب حرب عالمية. وان بالامكان الغاء معاهدة فرساي وحل معضلة الممر الپولندي دون الاضطرار على اللجوء للحرب.

ذكّرني هذا الموقف بموقف مشابه عشته عندما استدعيت من بايرويت للذهاب الى النمسا في عام ١٩٣٤ بعد اغتيال مستشارها دولفوس مباشرة. وقد استغرب اغلب أصدقائي لقبولي هذه المهمة آنذاك ومنهم ڤيلهلم كيتلر الذي قال لي متفهما لموقفي:

« من الطبيعي انك يجب ان تقبل المهمة ».

أما الفريق فون فالكنهاوزن الذي كان يعمل مستشارا في الصين لدى تشيان كاي تشيك واستدعاه هتلر بشيء من التهديد فقد قال لي عندما شد على يدي مودعا في دريسدن حينما استدعيت الى برلين استحضارا للسفر الى انقرة:

« ان كل فعالياتنا لا تجدي فعلينا الا نغادر سفينتنا الموشكة على الغرق».

وكنت قد توصلت الى اتخاذ قراري بمحاولة انقاذ المانيا والعالم اجمع من الكارثة المحدقة بنا فذلك افضل بكثير من العودة لارتداء قيافتي العسكرية التي خلفتها منذ عشرين عاما والاشتراك بحرب بلا أمل في الجبهة الغربية .

لم يزودني فون ريبنتروپ بتوجيهاته بأي شيء جديد . وواضح انه كان يأمل مع هتلر باحتمال التوصل الى حل سلمي لمعالجة مشكلة الممر الپولندي دون اللجوء الى الاشتراك بحرب عامة . وكان تقدير فون ريبنتروپ للموقف يتضمن اعتبار التهديد البريطاني لالمانيا مجرد مناورة تضليلية . وكانت هناك احتمالات كثيرة منها اقدام موسوليني على حماقة تجر اوربا الى حرب عدوانية نتيجة لحسابات موسوليني المغلوطة. وهكذا وجدت نفسي مضطرا على اتخاذ

قرار جازم بقبول المنصب المعروض علي والتوجه الى انقرة.

كانت شروطي مشابهة لشروطي السابقة التي طرحتها على هتلر في عـام ١٩٣٤ عندما كنت في بايرويت حيث اردت أن اكون تحت امرة هتلر المباشرة. والتأكيد لي بعدم تدخل رئيس شرطة الدولة السريـة في السفارة بأعمـالي مطلقا وان تقتصر فعالياته في السفارة على مهماته الوظيفية ـ وافق هتلرعلى شروطي لكنه رجاني تحقيق أفضل تعاون ممكن مع وزارة الخارجية. وقد انحى باللائمة على موسوليني مدعياً انه السبب في تدهور الموقف السياسي الاوربي لاقدامه على احتلال البانيا وتناسى ما فعله هو في ١٥ آذار ١٩٣٩ عندما اجتاح تشيكوسلوفاكيا.

ولو أردت تقدير نقده لموسوليني فلابد ان أعود بذاكرتي الى الماضي القريب في ٢٨ نيسان ١٩٣٩ عندما القى هتلر خطابا في مجلس الأمة رد به على وساطة الرئيس الامريكي فرانكلن روزفلت التي طالب بها هتلر بتقديم تعهد بعدم وجود اية نوايا عدوانية المانية للاعتداء على ثلاثين أمة سماها روزفلت برسالته وقد كان هتلر بليغا في خطابه المفعم بالسخرية والذي جعله الاجـابة الرسمية على رسالة روزفلت فقال:

« لقد حرصت على استطلاع اراء جميع الامم الثلاثين الواردة اسماؤها في رسالة الرئيس روزفلت وكانت اجابات اغلبها بأنها لا تشعر بأي خطر يتهددها من جانب المانيا اما الجزء الباقي فقد استنكر التساؤل اصلا».

ثم ان هتلر الغى في ذلك الخطاب الاتفاقية البحرية المعقـودة بين المانيا وبريطانيا. كما انه قال بأن «الضمان الانكليزي لبولندا جعلني اشعر بفقدان روح المعاهدة التي سبق ان عقدتها مع المشير بلسودسكي » وهذا معناه انه اعتبر تلك المعاهدة المعقودة بين المانيا وبولندا والتي تبادل بها الطرفان التعهد بعدم اعتداء احدهما على الآخر والتي سبق لهتلر ان ابرمها مع رئيس جمهورية بولندا المشير بلسودسكي قبل خمس سـنوات عديمة القيمة . وكانت نتيجة ذلك الخطاب ان قام تشامبرلن بعد يومين فقط باعلان التوصل الى اتفاقية بريطانية فرنسية لضمان أمن بولندا.

ولو تمعنا بالاخطاء التأريخية التي حصلت آنذاك لتبين لنا ـ دون ادنى شك ـ بأن هتلر لم يكن الملام الوحيد . فالضمان الانكليزي لپولندا لم يتخذ صفة التحذير الجدي لألمانيا وقد برهن على عدم جدواه في انقاذ پولندا عندما هاجمها هتلر وهكذا كان مجرد ورقة عديمة القيمة . وكان يمكن اعتبار الضمان الانكليزي حاسما للموقف فيما لو استطاع تشامبرلن اقناع السوفيت بالتضامن معه في اصدار هذا الضمان ـ حتى ولو تم هذا الضمان لقاء تعديل خط الحدود الروسية ـ الپولندية لصالح روسيا فيما بعد ـ فمثل هذا الضمان كان سيجعل هتلر يحجم تماما عن المغامرة باشعال حرب طاحنة على جبهتين والشروع بالاعتداء على پولندا.

لكن الحقيقة هي ان بريطانيا لم تحاول في اتصالاتها مع موسكو التوصل الى اصدار ضمان مشترك لپولندا ،مما حفز الروس للاتفاق مع هتلر بشأن پولندا.

سافرت الى انقرة في أواخر نيسان ١٩٣٩ بقطار الشرق السريع وكانت قد احتدمت برأسي مختلف الافكار والهواجس طوال تلك الرحلة . وكنت قد جعلت فون ريبنتروپ على ثقة تامة بأنني سأبذل قصارى جهدي في انقرة للمناداة بالسلام وعدم جعل التوتر السياسي الحاصل بسبب مشكلة پولندا مدعاة للقلق المتزايد في أوربا . وقد أوضح لي من جانبه تأييده للخطوات التي عزمت على تنفيذها وطلب أن تكون مهمتي : التأكيد للاتراك بأننا نسعى جاهدين لتجنب حصول أي نزاع اوربي. كما اننا سنحاول اقناع اصدقائنا الطليان بضرورة تجنب اللجوء الى تهديد اقطار البلقان وتركيا . وان الهدف الاساس من مهمتي هو الحفاظ على الحالة الراهنة وان اسعى لتجنب دخول تركيا في أي حلف مناوىء لنا ـ وقد اكد لي فون ريبنتروپ بأن هتلر ايد الخطوط العامة لهذه السياسة.

استقبلني في اسطنبول قنصلنا العام فيها وعدد كبير من ابناء الجالية الالمانية وقد عكر مشاعري سماعي نبأ ارسال ستالين احد اعوانه ويدعى السيد پوتمكين الى انقرة لاجراء محادثات مهمة مع الحكومة التركية .

وعليه فقد قررت مواصلة السفر الى انقرة بذلك المساء فقابلت وزير الخارجية السيد شكري سراج اوغلو وحدثته بالغرض الذي أوفدت من أجله • وكان سراج اوغلو رجلا واضحا ومريحا وكان من طراز الرجال الذين تسهل اقامة علاقات ودية معهم وهو يعالج مختلف المسائل بصراحة مثيرة للاعجاب•

استطعت في اليوم التالي لوصولي تقديم اوراق اعتمادي لرئيس الجمهورية وهو الرئيس عصمت اينونو الذي خلف الرئيس مصطفى كمال (اتاتورك) وكانا قد ناضلا جنبا الى جنب في سبيل حرية بلادهما كما خاضا في سبيلها معارك حاسمة • وكان عصمت اينونو قد شغل منصب رئيس وزراء بلاده طوال عهد رئاسة صديقه الحميم اتاتورك وساهم معه في وضع الاسس الراسخة للجمهورية التركية الحديثة•

تحدثت الى الرئيس باسهاب واوضحت له بأن عدوان ايطاليا على البانيا قوبل من المانيا بالامتعاض لدرجة اثرت على الصداقة الالمانية ــ الايطالية القائمة • وقد قابل الرجل تطميني لبلاده وتأكيدي لحرص المانيا على سلامتها بالارتياح التام لكنه لم يكتف بهذه الكلمات الودية لأن ايطاليا اعربت هي الاخرى عن مثل هذه المشاعر لكن موقفها لم يتغير • لأن الكونت شيانو اكد عزم بلاده على الاحتفاظ بتشكيلات قوية في البانيا اصرارا منه على العدوان بينما تكفي قوة من الشرطة للمحافظة على الأمن في تلك البلاد الصغيرة • كما ان الطليان دأبوا على تقوية وجودهم في جزر الدوديكانيز وزيادة التحصينات فيها • فهل في نية المانيا اسناد هذه السياسة ؟

دافعت بحرارة عن سياسة بلادي وأخبرته بتأكيدات هتلر وفون ريبنتروب وارائهما بشأن تركيا • فقال لي الرئيس التركي عندئذ بأنه يسعى لاقامة حلف مع كل من بريطانيا وفرنسا وانه لا يزال في دور المباحثات الشفوية معهما • فرجوته ان يمنحني فرصة الرجوع الى برلين لكي احرك هتلر ازاء اصدقائنا الايطاليين بغية احباط مساعي ايطاليا المناوئة لتركيا فوعدني الرئيس اينونو بأنه سيتريث في عقد الاتفاقية مع الانكليز والفرنسيين وسينتظر ما ستتمخض عنه مساعيي ببرلين•

أبرقت حال رجوعي للسفارة رسـالة مطولة الى كل من هتلر وفون ريبنتروب ضمنتها تقريرا عن المخاوف التركية . واقترحت عليهما ممارسـة ضغط شديد على ايطاليا لكي تحتفظ بأقل ما يمكنها من قوات في البانيا بما يكفيها للمحافظة على الامن والنظام.

واقترحت ايضا قيام ايطاليا ـ اعراباً عن حسن نواياها ـ بمنح تركيا جزيرتين صغيرتين من جزر الدوديكانيز لا أهميـة لها وتبعـدان عن المياه الاقليمية التركية مسافة ثلاثة اميال فقط. وقد لاحظت بعدئذ رد فعل الكونت شيانو على رسالتي المذكورة بمذكراته التي نشرت نشرت بعد الحرب العالمية الثانية. اذ كتب في ١ مايس ١٩٣٩ ما يلي:

« اشار فون ماكنزن[٤] من روما وآتوليكو[٥] من برلين الى عدم ارتياح تركيا لسياستنا واقترحا علينا اعطـاء الاتراك اشارات مطمئنة. وقد قال لي الزعيم[٦] ان الاتراك يستحقون مهاجمتنا لهم لمجرد خشيتهم من الهجوم».

وهذا معناه ان المساعي التي قمت بها لم تلق من الطليان أي اهتمام.

قررت كتابة مذكرة ضافية بشأن مخاوف الحكومة التركية من تهديد ايطاليا الى هتلر وأعطيت نسخاً من تلك المذكرة الى كل من فون ريبنتروب والفرقاء كايتل وفون براوختش وهالدر .

والمؤسف انني لم احتفظ بنسخة اصلية من الوثيقـة المذكورة لكن فحواها كانت كما يلي تقريبا:

« ان بواعث اقدام تركيا على عقد اتفاقية دفاعية مع كل من بريطانيا وفرنسا هي خشيتها من التعرض لعدوان ايطالي. فايطاليا تحاول منذ خمسة عشر عاما الاستيلاء على السواحل الشرقية لحوض البحر الابيض المتوسط. ويخشى الاتراك من اسناد المانيا لهذه المطامع الاستعمارية الايطالية بحكم قيام

(٤) هو سفير المانيا لدى ايطاليا آنذاك .

(٥) هو سفير ايطاليا لدى المانيا آنذاك .

(٦) المقصود بنيتو موسوليني . ـ المترجم ـ

المحور بينهما.

وان جميع التأكيدات الاعتيادية التي قد تقوم بها ايطاليا تعتبر في هذا الموقف عديمة الاهمية. وعليه فانني اقترح ان تقتصر القوة الايطالية التي تحتل البانيا على قوات الشرطة الضرورية للمحافظة على الأمن والنظام كما اقترح للبرهنة على حسن نوايا ايطاليا ازاء تركيا تخليها لها عن جزيرتين صغيرتين لا أهمية لهما من جزر الدوديكانيز وتقعان قرب السواحل التركية . وعلينا ان نبذل جهودنا لاستمالة تركيا خشية انحيازها الى خصومنا مما سيؤثر على موقفنا الى حد كبير . ذلك لأن أي نزاع بشأن البانيا أو بولندا ربما سيؤدي الى نشوب حرب عالمية ثانية وسنخسر هذه الحرب اعتبارا من اليوم الاول لنشوبها.

لقد كانت تركيا الى جانبنا في حرب ١٩١٤ــ١٩١٨ ومع ذلك فاننا لم نستطع قطع شرايين المواصلات البريطانية لا في الخليج العربي ولا في شرق البحر الابيض المتوسط.

أما الآن فموقفنا اصعب لأن المواقع المسيطرة عسكريا في الشرق الادنى وفي الاناضول ستكون جاهزة لصالح خصومنا مما سيسهل عليهم ادارة الحركات ويزيدها تعقيدا بالنسبة لنا.

وعليه فان الحفاظ على السلام يعتبر قضية حياة بالنسبة لالمانيا ».

قوبلت هذه المذكرة بأول استنكار من وزير الخارجية . اذ كان من رأيه انه ليس من حقي عرض مثل وجهة النظر هذه على شخصيات اخرى. لكنني أردت ان اوضح لكبار قادة الجيش الالماني آنذاك بأن الحرب تعني انتحار المانيا . وان عليهم ان يتدبروا مع هتلر ايجاد حل لتفاقم الحالة السياسية في اوربا. وقد عنيت من تلك المذكرة ــ اعتمادا على تجاربي في القتال ابان الحرب العظمى في فلسطين وفي الصحراء السورية ــ ان من الخطر على المانيا انحياز تركيا الى صفوف اعدائنا.

صادف رجوعي الى برلين الاستعداد للاحتفال بعقد المعاهدة الألمانية ــ الايطالية التي وقع عليها بالاحرف الاولى فون ريبنتروب والكونت شيانو

في أول مايس ١٩٣٩ وكنا نتوقع قيام هتلر بالرد بشدة على جواب تشامبرلن.

أقيم احتفال كبير بمناسبة عقد المعاهدة في البناية الجديدة لدار المستشارية ووجدت هذه المناسبة فرصة سانحة للتحدث الى الكونت شيانو بصراحة. وكانت نفسي قد اطمأنت للمادة الاولى من المعاهدة التي تشير الى ضرورة تبادل الدولتين للآراء بصدد جميع المشاكل الاوربية.

وكنت لا ازال اعتقد بأن موسوليني احصف الحليفين وانه يتمكن عند الضرورة من سحب هتلر وايقافه عن الاستمرار على زيادة حدة الموقف السياسي . وعليه فقد توجهت لوزير خارجية ايطاليا برجاء لتهدئة تركيا والتوصل معها الى تفاهم ايطالي-تركي.

انصت لي الكونت شيانو وانتظر فراغي من كل ما اوردته في مذكرتي السالفة الذكر وهو يتميز غيظا . ولما فرغت من كلامي اندفع بكل حماس نحو فون ريبنتروب .

راقبت شيانو وهو يحدث فون ريبنتروب فلاحظت ان وجه الاخير يزداد امتقاعا ثم ما لبث أن توجه نحوي وقال لي بغضب ظاهر :

« من الذي سمح لك بتوجيه النصائح للكونت شيانو بشأن سياسة ايطاليا الخارجية ؟ ان هذا سلوك لا يطاق. ومن الذي يتحمل هنا مسؤولية السياسة الالمانية . انت أم انا؟ ثم ما هذا التصرف بهذه الليلة التي نحتفل فيها بعقد معاهدة الصداقة الالمانية الايطالية . لقد شكى لي الكونت شيانو من تصرفك بمنتهى المرارة».

عندئذ اجبته:

« مما لا شك فيه انك المسؤول عن سياسة المانيا الخارجية يا سيد فون ريبنتروب. الا ان هذا لا يمنع من محادثتي لوزير خارجية ايطاليا عن متطلبات الموقف الدولي الراهن. ثم انك كنت قد ارسلتني قبل ثلاثة اسابيع الى انقرة بمهمة التحري عن الوسائل التي يمكننا اللجوء اليها لانقاذ الموقف في جنوب شرق أوربا. وقد وجدت لزاما علي ان أعرض الحالة السائدة على الكونت

شيانو كما عرضتها عليك. فاذا وجدت ان تصرفي هذا كان مغلوطا فانني اعرض عليك استقالتي راجيا قبولها. ثم انني اصارحك بأن لهجتك معي لم تعجبني وارجو ان تلاحظ بأنني لم آلف مثل هذه المعاملة ».

ثم استدرت جانبا وتركته واقفا لوحده.

عندما كنت ساهما في اليوم التالي افكر بما ينبغي علي عمله وصلتني رسالة من فون ريبنتروب يأسف فيها على ما بدر منه في الليلة الماضية من جفاء كما انه يعتذر عن الكونت شيانو ايضا. ويدعوني في رسالته للحضور الى منزله في مساء اليوم نفسه لحضور وليمة اقامها على شرف الكونت شيانو لكي يمكننا مواصلة الحديث سوية.

أدت تلك المحادثة الصريحة مع الكونت شيانو الى تحفظه تجاهي فقد علمنا من رسائل السفارة الايطالية في انقرة ان وزير الخارجية الايطالي كلف سفيره دي پيپو بمهمة مراقبتي بحذر زائد. وقد جاء في مذكرات الكونت شيانو التي نشرت بعد الحرب ما يلي:

٢١ مايس ١٩٣٩

« قال لي فون ريبنتروپ ان رغبة المانيا ومصالحها تقتضي الحصول على فترة سلم امدها ثلاث سنوات على الاقل. كما ان فون ريبنتروپ تحدث عن موقف تركيا . ويبدو انه متأثر بتقارير سفيره فون پاپن الخيالية والتي مفادها ان تركيا تخشى كثيرا من ايطاليا » .

رجعت الى مقر عملي في انقرة دون ان احقق أية فوائد من اتصالاتي مع وزيري خارجية المانيا وايطاليا . وأخذت ألاحظ مراقبة السفير الايطالي دي پيپو لفعالياتي بكثير من الاسفاف ، أما وزير الخارجية الايطالي فقد كتب بمذكراته ما يلي :

٤ أيلول ١٩٣٩ .

« ان فون پاپن مستمر على تدبير الدسائس في انقرة. وقد اقترحت

تقديم احتجاج تحريري عن فعالياته الى فون ريبنتروپ».

وجدت أمامي مجالا واسعا للاتصال بالوزراء الاتراك وبزملائي السفراء الاجانب لكي المس آرائهم عن كثب. فوجدت ان الرأس المدبر لسياسة تركيا الخارجية كان امين سر الخارجية التركية نعمان مينمينجي اوغلو وهو رجل قدير قدم لبلاده خدمات جليلة في أصعب مرحلة من مراحل تأريخ تركيا الحديثة ويتمتع بكفاية نادرة في مجال اختصاصه كما انه لديه وضوح تام بشأن ضرورات السياسة الاوربية ويتمكن من ايجاد الحل المناسب لكل موقف صعب من مواقف السياسة المعقدة . وهو يحب التكلم بكل صراحة ويمكن الوثوق بكلامه الى ابعد الحدود. وكان رأيه الاولي بشأن المانيا الهتلرية انها تسبب له الكثير من الخوف والقلق . فهو يريد لألمانيا أن تبقى قوة شديدة البأس ومرهوبة الجانب في وسط اوربا بحيث تخشاها روسيا ولا تجسر على اية محاولة للوصول الى المضائق التركية والتوسع على حساب الاقطار الاخرى. الا ان سياسة المحور العدوانية من شأنها الاخلال بالتوازن الاوربي لأنها تنطوي على المغامرة التي اقدمت المانيا وايطاليا على خوضها لدرجة ارهبت تركيا وغيرها. وقد حزمت تركيا امرها على الاجابة بالدخول في الحرب ضد اية دولة تحاول الاعتداء على احدى دول حلف البلقان اما جوابي على كلامه فهو ان رغبتي الوحيدة هي الحفاظ على السلام. وكنت اقول في نفسي ان هذا السبب وحده هو الذي يدعوني لبذل كل المساعي الممكنة للنجاح بهذه المهمة على الرغم من كل تجاربي الشخصية المريرة غير المشجعة التي سبق ان حصلت عليها في تعاملي مع النظام النازي.

وصفت لنعمان مينمنجي اوغلو ـ خلال محادثاتي معه ـ شخصيتا هتلر وفون ريبنتروپ ورجوته قضاء اجازته في المانيا وزيارة الاخير ببرلين وقلت له بأنه لابد ان يقع في موقع اثير في فؤاده. وقد تحققت هذه الامنية وحدثني عنها نعمان مينمنجي اوغلو بعد عودته وقال ان فون ريبنتروپ دعاه الى منزله الريفي وبقى يتجول في الحديقة طوال ساعات عديدة شارحا له مزايا الانضمام للمحور بدلا عن الدخول في حلف مع فرنسا وبريطانيا . ثم اعاد على مسامعه مرات عديدة مدى قوة المانيا وايطاليا وان رغبة المانيا

تنحصر في التخلص من قيود معاهدة فرساي المجحفة. وكانت لفون ريبنتروب صورة قاتمة عن انحلال الامبراطورية البريطانية الوشيك . ولم يخبرني نعمان مينمنجي اوغلو بطبيعة الحال عن عدم استجابته لدعوة فون ريبنتروب لضم تركيا الى المحور. لكنه ابدى تعجبه من مسلك وزير الخارجية الالماني.

كنت معجبا من بين جميع زملائي الدبلوماسيين الاجانب بممثل الدولة المعادية الاولى لبلادنا والذي كان جل اهتمامي بنشاطه وهو سفير بريطانيا سير هوغ ناتشبول هوغيسن وهو رجل كيس حلو الشمائل وقد حصل عني على انطباع مشابه لأنه يعتبر مثالا للنبيل الانكليزي من الطراز القديم ولو انه ذكر بعض الأمور غير الحقيقية عن زميله الألماني[7] في كتابه الموسوم «دبلوماسي في السلم والحرب» ولابد انه كانت لديه مبررات ضرورية لما كتب .

كتب سير هوغ عن وصولي الى انقرة ما يلي:

« لقد مارست حكومته ضغطا على الاتراك لمدة تزيد على السنة لكي يقبلوه سفيرا لبلاده في انقرة. وقد رفض الاتراك قبوله حتى آخر تاريخ ممكن لتأجيل وصوله . ولما وصل استقبلوه بفتور ظاهر ».

وأنا لا أفهم ابدا لماذا رفض الاتراك ـ حسب زعم سير هوغ ـ قبولي ثم عادوا فقبلوا . لقد سبق ان عرض علي المنصب ثلاث مرات رفضته فيها ولما قبلته في آخر مرة قامت الحكومة الالمانية بمفاتحة الحكومة التركية بترشيحي قبل التحاقي بأسبوعين فقط ولو حصل اعتراض الحكومة التركية فعلا فان الاعتراض والموافقة اللاحقة لم تستمر أكثر من اسبوعين وليس اكثر من سنة.

ويبدو ان سير هوغ كان متأثرا بالدعايات الموجهة ضد شخصي فكتب

---

(٧) المقصود هو المؤلف بالذات . أما مبررات الكتابة فاهمها قضية التجسس المعروفة باسم عملية (شيشرون) والتي كان السفير الانكليزي مسؤولاعنها مسؤولية مباشرة وسيتطرق لها المؤلف في فصل قادم من هذا الكتاب .
ـ المترجم ـ

عني في كتابه :

« كان اسم فون پاپن مرتبطا بصورة وثيقة بكل ما هو مقرف وخبيث في عالم الدبلوماسية ».

ولا الومه على هذا ابدا لأن هذه هي الصورة التي ينبغي ان تكون لدى كل دبلوماسي انكليزي عن كل دبلوماسي الماني . لأنه ليس من المعقول ان يعامل الانكليزي خصمه باعتباره (أمينا) او يتمتع بأية فضائل.

وأود في هذا المقام ان أصحح واحدة من التهم الكثيرة التي الصقها بي الرجل على الرغم من مرور سنين عديدة على حدوث الواقعة التي انا بصددها. فقد حدث ان دعوت السفير البريطاني سير هوغ والسيدة عقيلته لتناول الفطور في منزلي يوم ١٥ آب ١٩٣٩ ولم يدر بخلدي ان ذلك اليوم بالذات سيكون يوم نحس مشهود . فقد تلقيت وأنا على مائدة الفطور وقبل تناول الفطور مباشرة برقية تفيد بوفاة أمي الحبيبة. وقد تحاملت على نفسي وكتمت عواطفي ريثما يفرغ ضيوفي من فطورهم وينصرفوا. ولربما كنت قليل المجاملة اثناء ذلك الفطور – بسبب تأثير النبأ المفجع على نفسي – وكان ان كتب السفير الانكليزي في مذكراته بصدد يوم افطاره عندي:

« لقد بدى على فون پاپن اثناء الفطور تأدب وظيفي رهيب » فهل لي ان استميحه عذرا بعد كل هذه المدة الطويلة ؟ انني آمل ان يقدر ظروفي النفسية ويقبل تبريري لذلك الثقل الذي ظهر على ملامحي قسرا دون قصده.

كان زميلي الفرنسي السيد رينيه ماسيغلي دبلوماسيا مشهورا في جميع ارجاء العالم بسبب اشتغاله قبل ذلك الحين في عصبة الامم . ولم يقدر مدى معاناة الشعب الالماني ابان عقد العشرينيات كما لم يحاول مد يد المساعدة لالمانيا بأية صورة كانت وعليه فاننا كنا على علاقة لا نحسد عليها.

اقتضى حادث وفاة والدتي ان اقوم بسفرة الى المانيا في وقت بالغ الحرج. فطرت الى ديوسلدورف يوم ١٦ آب ١٩٣٩ وبعد ان شيعتها الى مثواها الأخير وجدت من الضروري أن اقابل هتلر واستطعت مقابلته يوم

٢٠ آب ١٩٣٩ في برختسغادن[٨] وقد لاحظت خلال تنقلي اليهـا جوا وجود ارتال عسكرية تتقدم على كل الطرق تقريبا، فقدرت ان المانيا اعلنت النفير الشامل ولكن بصورة مكتومة، وقد تركز همي على الاستفسار عن آخـر تطـورات المـوقف مع پولندا . وعليه فقـد سألت هتلر عن سبب هـذه الاستحضارات الواضحة للحرب فأجابني ضاحكا ــ وكان في احسن حالاته:

« تحت الختم تكمن أخطر الأسرار[٩] . هل لي أن اوجزك بشأن الواقعة العظمى التي نحن بصددها ؟»

ثم استرسل في سرد اجراءاته بطريقة رائعة حيث قال انه افلح في نسف محاولات الحلفاء الغربيين لاستمالة روسيا الى جانبهم واردف قائلا:

« سيطير فون ريبنتروپ غـدا الى موسكو لكي يوقع مع السوڤيت معاهدة لعدم الاعتداء».

فوجمت مذهولا وأنا في غاية الفرح، ذلك لأن انطباعي الاول عن هذا النبأ كان كما يلي:

الآن تم تجنب الحرب . فبعد ان توقع المانيا مع روسيا على معاهدة لعدم الاعتداء سيتوقف البولنديون عن العناد بشأن قضية الممر التي توشك ان تؤدي الى نشوب الحرب، لأن الضمان الانكليزي وحده ــ دون التأكد من حياد السوڤيت ــ لا يكفي للاستمرار على العناد او الوصول بالقضية الى اعلان الحرب . وقد تنفست الصعداء وهنأت هتلر على هذه السياسة التي حقق بها النجاح الدبلوماسي الرائع، وقلت له بأنه ترسّم في هـذه الخطوة فكرة بسمارك التي تقضي بالتوصل الى تفاهم مع روسيا . كمـا قلت له بأن موقف المانيا السياسي سيكون اكثر رصانة في اوربا مما لو حققنا اغراضنا السيـاسية باللجوء للحرب، لأنني أجد من الخطر علينـا اللجوء

---

(٨) تقع برختسغادن في المانيا الغربية على مقربة من حدودها مع النمسا وكان فيها مقر هتلر الصيفي . ــ المترجم ــ

(٩) هذا مثل الماني مشهور .

ــ المترجم ــ

للاساليب القسرية في التعامل مع جيراننا الاوربيين الاقوياء او اثارة الضغائن مع شعوب الاتحاد السوفيتي او جعل علاقاتنا الدولية مبنية على الاستفزاز والارهاب.

ضحك هتلر . ولم يحاول التخفيف من حماسي. ولم ينبس ببنت شفة وانما تطلع ببصره وكأنه يرنو الى الفراغ اللامتناهي لأنه كان قد حزم أمره على اقتسام پولندا مع السوفيت . ولست أدري عما اذا كان قد قرر في تلك الأيام التضحية بأقطار البلطيق(١٠) والتخلي عنها للسوفيت لقاء توقيعهم على اتفاقية عدم الاعتداء. أو انه كان قد اتفق معهم على خط حدود معين في المناطق الشرقية من أوربا. لأن النتيجة لم تظهر الا بعد المفاوضات التي استمرت ثلاث ساعات بين فون ريبنتروپ من جهة وبين ستالين ومولوتوف من الجهة الاخرى وكان ذلك يوم ٢٣ آب ١٩٣٩ .

وعلى كل حال فان الملحوظة الواضحة بشأن تلك الاتفاقية ذات الصفة السرية قد تجلت فيما بعد نتيجة لتطورات الحرب وتمخضت عنها حدود پولندا المستقلة بشكلها الجديد(١١) . وواضح ان هتلر كتم عني نواياه في الحديث الذي دار بيننا يوم ٢٠ آب ١٩٣٩ .

في صباح يوم ٢١ آب ١٩٣٩ ذهبت الى المطار بقصد العودة الى انقرة فصادفت فون ريبنتروپ وكان متجها بمهمته المشهورة الى موسكو فودعته فنشرت صحيفة (فولكشه بيوباختر) صورتي مع الوزير اثناء توديعي له . فتكهن الناس بأن لي ضلعا في الاتفاقية الالمانية ــ السوفيتية ثم مضى بعضهم

---

(١٠) هي جمهوريات استونيا وليتوانيا ولاتفيا التي اصبحت منذ عام ١٩٣٩ جمهوريات سوفيتية .

ــ المترجم ــ

(١١) تخلت پولندا بعد الحرب العالمية الثانية عن اقليمها الشرقي لصالح الاتحاد السوفيتي وحصلت على نصف پروسيا الشرقية ــ التي اقتسمتها مع الاتحاد السوفيتي ــ كما حصلت على اقليم پوميرانيا الواقع شرق المانيا واصبحت حدودها تمتد مع نهري الاودر وفرعه نايسه .

ــ المترجم ــ

في تصوراته زاعما بأنني التقيت مع زميلي السفير السوڤيتي بأنقرة بعد ثلاثة ايام بسفينة في عرض البحر لبحث تفاصيل اتفاقية الصداقة الجديدة . والواقع هو انني طرت عائدا الى اسطنبول يحدوني الامل بأننا سنتجنب الحرب التي كانت أسوأ ما ينتظرنا . وقد أوضحت للحكومة التركية بأن الاتفاقية الألمانية السوڤيتية هي اتفاقية ترمي الى وضع اسس سلمية لحل مشكلة النزاع الالماني ـ البولندي بشأن الممر.

أما بالنسبة للتطور المأساوي الذي حصل في آخر ايام آب ١٩٣٩ ببرلين فقد كنت مع شديد الأسف بعيدا عن الاحداث وكنت شاهدا بعيدا ومستبعدا عن الايجاز بشأنها. وقد تقوضت احلامي السعيدة بكسب السلام عندما سمعت مثل ملايين البشر خطاب هتلر المشؤوم بمهاجمة پولندا لحل معضلة الممر كما انني لم ادرك آنذاك بأنه اقدم على المرحلة الاولى من خطته الواسعة لخوض حرب عالمية. وكان ان وقع المحذور.

لقد كان هتلر واهما الى ابعد الحدود عندما تصور بأن التهديد الانكليزي ـ الفرنسي كان مجرد حيلة وانه سيتمكن من حل المعضلة البولندية لوحده بقوة السلاح. وعندما اعلنت بريطانيا الحرب علينا في يوم الاحد المصادف ٣ أيلول ١٩٣٩ ادركت آنذاك بأننا سنخسر الحرب. وهذا ليس مجرد ادعاء اطلقه الآن جزافا وانما هناك شاهد عليه . فقد كتبت أمينة سري المخلصة الآنسة ماريا روزه في مذكراتها :

«علمت بنبأ نشوب الحرب من راديو سفارتنا بأنقرة مع السفير واغلب موظفي السفارة . ثم ذهبت مع السفير الى الحديقة وكان في غاية الانزعاج والشحوب . ولم يسبق لي ان رأيته بمثل تلك الحال مطلقا. حتى ولا في الايام القاتمة التي اعقبت ٣٠ حزيران ١٩٣٤ ولا بعد اغتيال صديقه كيتلر. ولذا فأنني اتذكر تماما نص العبارة التي قالها لي: تمعّني بما سأقوله لك. ان الاصرار على هذه الحرب هو اكبر جريمة واكبر حماقة ارتكبها هتلر وزمرته . وان المانيا لا يمكن ان تكسب هذه الحرب التي ستؤدي بنا الى الدمار».

ولقد سائلت نفسي في ذلك اليوم القدري عما يجب ان افعله وكأنني أتكهن بما يخفيه لي القدر باحالتي بعد الحرب الى محكمة دولية بتهمة المساهمة في اشعال نار الحرب.

وكان من الواضح وضوح الشمس ـ حتى بدون البرهنة بالوثائق والمستمسكات ـ ان هتلر هو الذي اراد الحرب وهو الذي ساق المانيا الى مصيرها المحزن. لكنني وجدت امامي بتقديري للموقف آنذاك ـ بصفتي ضابط ركن سابق ـ ثلاثة مسالك فقط.

اولها القيام باحتجاج علني في العالم الخارجي لفضح نوايا هتلر وهذا المسلك ينطوي على تحطيم الروح المعنوية للشعب الالماني في وقت المحنة. ثم ان اختيار المنفى في خارج المانيا معناه عدم احتمال العودة لالمانيا وهذا مسلك لا ارتضيه لنفسي. فقد اثبتت التجارب ان الوطنيين المتحمسين لا يمكن ان يستعجلوا في هجر اوطانهم لأنهم ربما يضعون أنفسهم بمأزق حرج فيما لو انتهت الحرب بعد فترة قصيرة وعاد السلام .

وهكذا بقي امامي مسلك من اثنين فاما البقاء بمنصب السفير او الاستقالة والعودة للوطن حيث ينتظرني منصب آمر لواء مشاة احتياط بموجب لائحة النفير. ولم يكن من العسير اختيار المسلك الافضل. وكان ان قررت البقاء بمنصبي سفيرا لبلادي في انقرة لكي أبذل المستحيل في سبيل تجنب الكارثة المحدقة بالمانيا من موقعي الحساس والمطل على العالم الخارجي.

الفصل السابع والعشرون

ضمان الحياد التركي

الحرب تغير من نمط حياتنا . حياد روسي وتركي . حلف البلقان . موقع بلغاريا الحساس . وساطة هولندا السلمية . فون ريبنتروب يمتنع عن اجراء اية محادثات سياسية معي . محادثة مع فون فيتزليبن . هتلر واتفاقية ويستفاليا للسلام . رجاء الملكة ولهلمينا . محادثة مع الملك بوريس. انا اطالب بالعدالة واعادةالحياةالدستورية. غزو الدانمرك والنرويج . غزو بلجيكا وهولندا . رسالة الى صديق. دخول ايطاليا الحرب وحق التحالف مع تركيا . سياسة بريطانيا وسياسة المانيا . زيارة لهتلر . غضبه بشان موقف بريطانيا . هل لا زال السلام ممكنا ؟ خطاب البرلمان واصدائه . تقرير السيد ماسيغلي . ايطاليا تهاجم اليونان . التزامات تركيا . كلمة لاينونو . زيارة مولوتوف لبرلين. قرار ذو اهمية تاريخية. عملية((باربا روسا)).

أدى نشوب الحرب الى تعقيد حياتنا الاجتماعية في انقرة الى حد كبير. اذ كان في انقرة شارع رئيسي واحد يدعى شارع جانقايه وكنا نلتقي عند المسير فيه يوميا مع جميع أعضاء الهيئات الدبلوماسية الاخرى وغالبا ما كنا نلتقي ببعضنا أكثر من مرة في اليوم الواحد عندما نسير في ذلك الشارع . وقد

ادى نشوب الحرب الى تعقد علاقاتنا السابقة وخصوصا مع اعضاء السفارات التي دخلت بلدانها الحرب ضد بلادنا . الا ان السفير الانكليزي سير هوغ شذ عن هذه التعقيدات عندما اخذ يرفع قبعتــه لي او لزوجتي كلما قابلنــا مصادفة دون ان نتبادل واياه الكلام. وقد وجدنا هذا التصرف النبيل الذي يدل على اصالة روح الفروسية في نفسه مدعاة للاجابة بالمثل.

كان عدد المحايدين الحقيقيين قليلا ولوحظ ان أغلب الدبلوماسيين يناصبون المانيا الهتلرية شيء من العداء مع استثناء واحد هو استمرار السفير الاسپاني المركيز ديپرات دي ناتتواليه الذي اولانا كل محبته واخلاصه. وهو دبلوماسي مجرب وشجاع لا يتورع عن المجاهرة بشعوره الموالي لالمانيا حتى وان تعرض للنقد الشديد بسبب صداقته لالمانيا . وقد وجـدنا بشخصه وشخص عقيلته اللطيفة صداقة حميمة استمرت حتى بعد اندحار بلادنا في الحرب أي في الفترة المظلمة التي أعقبت الحرب.

كان جـارنا المبـاشر في انقرة السفير السويسري لاردي الذي كانت عواطفه كلها للطرف الآخر ولكنني اجريت معه على الرغم من معرفتي لهذه الحقيقة محاورات عديدة بقصد احاطة السفير الانكليزي علما بوجهة نظري بشأن بعض الامور. ولم اتردد في عام ١٩٤٤ عندما قطعت العلاقات الدبلوماسية التركية ـ الالمانية عن تكليف السفير السويسري بمهمة رعـاية المصـالح الالمانية في تركيا.

واذا ما انتقدني احد لهذا التكليف رغم علمي بمناوأته لنا فانني ابرر التصرفات المريرة التي شعرنا بها وكأنها مضادة لنا بأنها مجرد مظاهر لطبيعته الرتيبة الجامدة ولا اظن انها مقصودة بحال.

وكان هناك محايد آخر يولينا الكثير من عواطفه وهو القنصل الهولندي فيليبس كريستيان فيسر المشهور ببعثته الاستكشـافية في جبال قرهقورم الآسيوية . وقد تحدثت معه كثيرا بشأن الضـرورة الملحـة لانهـاء الحرب بالسرعة الممكنة. وكان ان كتب الكثير من التقارير بهذا الصدد.

سارت الحملة على پولندا وفق الخطط المرسومة وحققنا نجاحا باهرا

فيها وقد كتب السفير الالماني بموسكو غراف شولنبورغ في ٢ أيلول ١٩٣٩ تقريرا عن مداولات الحكومة السوفيتية مع الاتراك من اجل الابقاء على حيادهم. وكان فون ريبنتروب قد حمل هذه الرغبة معه الى موسكو بناءعلى رجائي الخاص لأنني كنت اهدف الى تحديد عدد الدول المتحاربة الى أقل ما يمكن بغية انهاء الحرب بسرعـة وبسهولة اكثر. وكانت محاولة بريطانيا لاستمالة رومانيا على أمل ايصال المساعدات الانكليزية عن طريقها الىپولندا ايفاء بالضمان الذي سبق ان قطعته لها امرا طبيعيا . الا ان دخول رومانيا الحرب يهدد حياد تركيا. ثم ان معاهدة مونترو نصت على حق تركيا في منع مرور اية وسائل حربية عبر مضيقي البسفور والدردنيل.

ناقشت مع زميلي الهولندي فيسر كيفية التوصل الى السلام المنشود بعد انتهاء الحملة على پولندا . لاسيما وان الجبهة الغربيـة كانت هـادئة نسبيا ولم يحدث أي قصف متبادل لأن الالمان لم يتعرضوا على فرنسا مما حدى بالفرنسيين ان يقولوا لأنفسهم:

« اذا لم يرم علينا الالمان فسوف لن نرميهم ابدا».

وقدرت آنذاك ان الطرفين راغبان في وضع حد للحرب القائمة وكل ما يحتاجه الموقف هو بذل المساعي الدبلوماسية لاقرار السلام. وكان الحل الذي وضعته لانهاء الحرب يتضمن منح پولندا استقلالهـا بعد استرجاع الاقسـام الالمانية التي سبق ان استحـوذت عليهـا. كمـا يقتضي منح تشيكوسلوفاكيا سيادتها وجعلها مرتبطة بالمانيا بمعاهدة صداقة. ويجب منح بلاد البلقان وبلدان شرق البحر الابيض المتوسط ضمانا المانيا للحفاظ على وجودها. ولما تبلورت هذه الفكرة في خاطري قررت عرضها على هتلر والوزير فون ريبنتروپ بصورة شخصية. ولكن القضية أصبحت رسمية تماما بعدان عرض فكرتها القنصل الهولندي فيسر على حكومته وقامت هذه بمنـاقشة تفاصيلها مع الحكومة الانكليزية. ممـا اضطرني على طرح المقترح بصورة رسمية على الوزير فون ريبنتروپ . كما أن القنصل فيسر عرض الفكرة على السفير البريطاني في انقرة الذي أخبر بها حكومته على الفور.

في هذه الاثناء القى ادولف هتلر خطابا في البرلمان يوم ٦ تشرين الاول ١٩٣٩ وكان كلامه عموميا الا انه اراد أن يوضح للملأ طبيعة اهداف السياسة الخارجية للدول الكبرى. واراد ايضا:

« وضع دستور اوربي يضمن لجميع الشعوب الشعور بالامن والراحة وبذا يمكن تحقيق السلام ».

وقد فسرت هذه الخطبة بأنها استحضار واضح لقبول السلام. فقررت بتأييد من فيسر الذي كان يقوم بزيارتنا القيام بسفرة طارئة الى برلين.

في ١٨ تشرين الاول ١٩٣٩ وصلت الى برلين فوجدت فون ريبنتروپ مريضا لكنه حذرني من عرض أية مقترحات تتعلق بالسلام على هتلر . لكنني لم التزم بهذه النصيحة وقابلت هتلر بعد يومين حيث بحثت معه الموقف السائد وامكانية التوصل الى سلام بوساطة تقوم بها هولندا . ثم عرضت عليه خلاصة المقترح الذي سبق ان ناقشته مع القنصل الهولندي فيسر. فقال لي هتلر انه سيقابلني بشأن الموضوع بعد عودتي من زيارة لأسرتي في اقليم السار.

كان تأثير محادثاتي مع هتلر قيام فون ريبنتروپ بعمل عدواني سافر ضدي لأنه لم يكد يودعني الا ووجه رسالة رسمية دورية الى وزارة الخارجية معنونة الى جميع موظفي ديوان الوزارة يمنعهم بموجبها من استقبالي أو اجراء اية محادثات سياسية معي. ولم يحدث في تأريخ العمل الدبلوماسي سوى مرة واحدة ان قام وزير خارجية بمنع سفير من ممارسة وظيفته بوضع كل المعوقات في سبيله وكان فون ريبنتروپ هو وزير الخارجية الذي قام بذلك العمل وكنت انا ذلك السفير الذي أعيق عن تنفيذ مهمته الاصلية . ولا تزال بحوزتي نسخة من تلك الوثيقة العجيبة.

حدث اثناء زيارتي القصيرة انا وزوجتي لمزرعتنا في منطقة السار ان التقيت بالقائد العام في قاطع الجدار الغربي الفريق الاول فون ڤيتزليبن[1] وكان معروفا لدي بالذات وقد صار بعدئذ من ضحايا محاولة اغتيال هتلر

(١) وصل بعدئذ الى رتبة مشير . — المترجم —

الفاشلة في ٢٠ تموز ١٩٤٤ وقد تحدثت اليه مليا بصدد امكانية انهاء الحرب حتى خلافا لرغبة كل من فون ريبنتروب وهتلر. فقال لي فون ڤيتزليبن بأنه لايزال يأمل تجنب هتلر لخوض حرب عالمية. وعلى الرغم من تفاؤل هذا القائد الكبير فانني بقيت اتحرى عن الوسائل التي يمكنني اللجوء اليها لمنع الكارثة من الوقوع انقاذا لبلادي من وهدتها.

عندما رجعت الى برلين قابلت هتلر للمرة الثانية في تلك الزيارة بناء على اتفاقه السابق معي. وقد ابتدرني الرجل بالاعتذار عن الامر المضحك الذي سبق ان أصدره الوزير فون ريبنتروب. فقلت له بأن من المتعذر علي العمل مع وزير يلجأ لمثل هذه الوسائل. لكنه برر تصرف فون ريبنتروب هذا لكونه ذو أعصاب قليلة التحمل ولذا فانه لا يمكن ان يتحمل كل المشاكل التي تعرض له.

ثم انني تطرقت لانطباعي عن الحالة العسكرية السائدة على الجبهة الغربية . ورجوته ان يبذل كل مساعيه لوضع حد للحرب وعدم العمل على توسيعها لكنه رفض قبول مقترحي السابق بشأن پولندا وتشيكوسلوفاكيا.

عندئذ قلت لهتلر ان وزير خارجيته لا يمكن أن يمنعني عن مصارحتكم بما يدور على لسان كل الماني في هذه الأيام. اذ يجب علينا ان نبذل قصارى جهودنا لتجنب الانسياق في توسيع هذه الحرب وتحويلها الى حرب عالمية ثانية.

لم يقاطعني هتلر وانتظرني حتى افرغ من كلامي ثم اقترب مني متوددا ووضع يديه على كتفي قائلا:

« لا . لا يا عزيزي پاپن . ان هـذه الواقعة سوف لن تتكرر . فالآن ستتم اعادة النظر باتفاقية ويستفاليا للسلام ».

وكتمت انفاسي مرددا في خاطري (اتفاقية ويستفاليا للسلام؟) انهـا عبارة لم يسبق ان سمعت عنها في كل دراساتي للتأريخ. ولما قرأ هتلر على محياي علائم الحيرة اردف موضحا بأنه يقصد الاتفاقية التي وقعت بعد حرب

الثلاثين عاما بمدينة مونستر في عام ١٦٤٨ ولم يعد من الضروري تكرار اعتراضاتي لانني صرت واثقا من عدم جدواها. ذلك لأن هتلر اتخذ قراره الجازم ولم يشأ الاصغاء لأية نصيحة. ومع ذلك فقد تركت قاعة دار المستشارية بعد ان خضت جدالا مطولا من اجل ايضاح الحقائق استمر زهاء الساعتين بدون انقطاع تحولنا خلالها ـ انا وهتلر ـ لبحث قضية الحرب والسلام وقلبناها على جميع الأوجه.

كانت اجهزة فون ريبنتروپ تعمل بصورة منتظمة جدا... فقد بقيت رسالة ملكة هولندا (التي سبق ان وجهتها الى هتلر ترجوه فيها ايقاف استعداداته للمضي في الحرب لكي يسهل اتخاذ ما يقتضي لاقرار السلام) بلا جواب.

ولما قابلت مشير الدولة هرمان غورنغ وعرضت عليه فكرة انهاء الحرب نصحني الرجل بضرورة الكف عن الاشارة لامكانية تغيير النظام في المانيا عند التقائي بالدبلوماسيين الاجانب في الخارج او الاشارة الى امكانية عودة الملكية الى المانيا. ذلك لأن برقيات اولئك الدبلوماسيين الاجانب يتم استراقها كلها وتقرأ من قبل المسؤولين الالمان وربما يصدقون ما جاء فيها وعندئذ ستؤدي بي الى مصير محزن . ثم أردف قائلا بأنه شخصيا يؤيد وضع حد عاجل للحرب الا ان هتلر وفون ريبنتروپ[٢] يسعيان لمواصلة الحرب ضد بريطانيا . وانه عاجز عن منعهما من المضي في هذا السبيل.

عدت راجعا الى انقرة وانا مصاب بالاحباط والخذلان . وقد بتنا ليلة في صوفيا قضيتها في حديث مطول مع بوريس ملك بلغاريا ولم اتمكن من مصارحته بأنني استنفذت كل ما لدي من وسائل لتحديد نطاق الحرب لكنني اكدت له بأنني سأبذل ما بوسعي من اجل الابقاء على حياد تركيا. وبذا سيتخلص من جميع مخاوفه.

(٢) عمل فون ريبنتروپ سفيرا لبلاده في لندن خلال الفترة ١٩٣٣ ـ ١٩٣٨ ورغم انه حائز على فكرة معينة عن الانكليز الا ان هؤلاء كانوا يعرفونه ايضا حق المعرفة .

ـ المترجم ـ

تكلم الملك عن سياسته بصراحة تامة. فهو لا يريد الالتزام بأي ارتباط مع أية جهة. لكنه يؤيد نضالنا من اجل التخلص من قيود معاهدة ڤرساي. وقال ان الزمن كفيل بمدى امكانية بلغاريا للقيام بعمل مشابه تحذو به حذو المانيا. وقد كانت مشاعره مناهضة لتركيا بشكل واضح. اذ رجاني الا أحمل مزاعم الاتراك بالحفاظ على الحياد على محمل الجد لأنه لا يثق بمزاعمهم. لكنه كان يؤيد وجهة نظري بوجوب الكف عن محاولات اقامة تكتلات متناحرة. وقال لي عندما ودعني بأنه يرغب برؤيتي كلما مررت من صوفيا.

ما ان وصلت الى انقرة الا ولاحظت ان زميلي الهولندي مصاب مثلي بخيبة امل شديدة بعد أن علم بخططنا. الا اننا ابقينا رغم ذلك على علاقتنا الوثيقة.

أرسلت الى هتلر في اواخر كانون الاول ١٩٣٩ مذكرة أخرى تطرقت فيها لاستعراض الموقف العام وسردت له المسالك المفتوحة لنا للتخلص من مأزق الحرب.

وتطرقت في تلك المذكرة الى تفاقم دعايات الحلفاء لدرجة أصبحت معها سلاحا ماضيا وقلت ان خلاصة الدعايات المعادية هي الزعم بأن نظام الحكم النازي نظام استبدادي وانه يمارس العدوان على الشعوب المحايدة وبخاصة على الاقطار المجاورة لالمانيا . ولكي نفند هذه الدعايات المعادية يمكننا اللجوء الى وسيلة في غاية البساطة خلاصتها قيام هتلر بتنفيذ وعوده التي سبق ان قطعها على نفسه للشعب الالماني. باصدار الدستور واجراء انتخابات حرة لكي يتمكن الشعب من مناقشة مشكلاته بحرية اوسع. ثم تطرقت الى مزايا النظام البرلماني خلال الحرب. وضربت مثلا على ذلك بالنظام الانكليزي الذي يتعاون فيه الشعب مع الحكومة في سبيل مصالح الوطن. وقلت ان بمقدور المانيا اللجوء لنظام مشابه لجني المزايا المتحققة عند تطبيقه. والمؤسف انني لم اسمع ابدا عن مصير تلك المذكرة.

تلاحقت الاحداث في النصف الاول من عام ١٩٤٠ بسرعة مذهلة. ففي نيسان ١٩٤٠ قامت القوات المسلحة الالمانية بغزو الدانمرك والنرويج. وفي

١٠ مايس ١٩٤٠ قرر هتلر تقويض اتفاقية ويستفاليا للسلام عندما اقدم على مهاجمة كل من بلجيكا وهولندا وفرنسا وكان ذلك اليوم من ايام حزني المشهودة. فكتبت الى صديقي فيسر رسالة شخصية قلت له فيها:

« ان المأساة التي تشهدها بلاد اوربا الغربية تحز في نفسي الى اقصى الحدود. فالسيل الملتهب من اللظى لا يبقى ولا يذر. والانكى من هذا ان وقت الضياع الذي نشهده والذي يتحكم بمصائرنا يجب ان يضطرنا على فقدان اعز الاصدقاء.

اسمح لي ان اقول لك في هذه الساعة مرة أخرى: بأنني ـ بل انا جميعا ـ كنا سعداء لأننا وجدنا لانفسنا سبيل الحياة (حتى ولو لمدة قصيرة) بالتعرف على الانسان والوطني الغيور والاوربي الدكتور فيسر. لكن الذي حدث هو اننا اضطررنا على الافتراق ولكن على امل اللقاء للعمل المشترك في سبيل بلداننا وفي سبيل اوربا.

أما بالنسبة للساعة الراهنة وبالنسبة للمستقبل فأجد من المناسب ان اتمثل قول الشاعر :

« ان الحياة والحرية ليست جديرة الا بمن يجب ان يستخلصها لنفسه في كل يوم ».

في ١٠ حزيران ١٩٤٠ دخلت ايطاليا الحرب الى جانبنا وعندئذ ثارت حفيظة تركيا مجددا لخشيتها على نفسها من خطر التعرض لعدوان ايطالي وشيك. وكانت تركيا قد عانت منذ انعقاد اتفاقية فون ريبنتروب ـ مولوتوف بين المانيا والاتحاد السوفيتي من برود علاقات السوفيت السياسية بها الى درجة ملحوظة . وكان السبب في ذلك هو ان روسيا بقيت ترنو نحو احلامها القديمة بالاستحواذ على مضيقي البسفور والدردنيل طالما بقيت تركيا على علاقة جيدة مع الدول الغربية .

لقد دأبت بطبيعة الحال على تطمين وزير الخارجية التركي شكري سراج اوغلو ووكيل وزارته نعمان مينمنجي اوغلو والتصدي لاحتجاجاتهم

على سياسة روسيا الواضحة لهم على الرغم من اصرار فون ريبنتروب على اصدار تعليماته المؤيدة لخطط روسيا. ووجب علي التحدث مع السفير الروسي في انقرة تيرتيبيف مرات عديدة لأن هذا كان يشعر بشيء من عدم الارتياح لعدم استطاعة بلاده تغيير اتفاقية مونترو. لا سلميا ولا باللجوء لاستخدام القوة.

ولعل من الممتع ان اعود الى مذكرات زميلي السفير البريطاني سير هوغ الذي ذكر فيها ان السبب في عدم التزام الاتراك بالاتفاقيات يرجع الى نقص تسليح الجيش التركي.

ثم قال متسائلا :

اين يمكن ان يقاتل ذلك الجيش؟
وهل سيقاتل ضد ايطاليا أم سيقاتل بعدئذ ضد اليونان؟

ثم انه لا يوجد مجال كاف لمناورة السفن التركية. اضف الى ذلك عدم امكانية مطالبة تركيا بدخول الحرب بعد ان انهارت فرنسا وتعرضت بريطانيا لكارثة دانكرك[٣].

وكان هذا اعترافا واضحا بمدى تدهور موقف الحلفاء الغربيين في تلك المرحلة من الحرب. كما ان هذا الموقف يوضح طبيعة الجهد المزدوج الذي بذله كل من سيرهوغ والسيد رينيه ماسيغلي مع جميع المسؤولين الاتراك من اجل الحفاظ على المعاهدة المعقودة بين تركيا وبلاديهما وحرصهما على ضمان المقاومة التركية لأية محاولة قد تجري لنقضها.

كان الجيش التركي يفتقر للأسلحة الحديثة المتطورة وخصوصا الدروع

---

(٣) انسحبت اغلب قوة الانقاذ البريطانية لفرنسا من ميناء دانكرك تاركة جميع اسلحتها ومعداتها بعد انهيار مقاومة الجيوش الفرنسية في حزيران ١٩٤٠ لكن هذه العملية تعتبر نصرا انكليزيا مشهودا لان الانكليز اعادوا تدريب وتسليح تلك القوات فساهمت في المعارك اللاحقة دون ان يخسروها. ويجمع المؤرخون العسكريون على ان السبب في افلات تلك القوة من الاسر يعود لعدم رغبة هتلر في القضاء عليها لانه منع تطويقها واتاح لها فرصة الهروب عن طريق البحر . — المترجم —

والطائرات ولما كان الانكليز قد فقدوا اغلب معداتهم واسلحتهم في كارثة دانكرك فانهم لم يكونوا بموقف يساعدهم على تلبية متطلبات الجيش التركي من تلك المعدات. وكان للمشير فوزي تشاقماق رئيس هيئة الاركان العامة التركية وللرئيس عصمت اينونو تصورا واضحا بشأن متطلبات الحرب الحديثة. وقد حرصت في محادثاتي معهما ومع الفريق علي فؤاد أردن على ايضاح تجاربنا في الحملتين على پولندا وفرنسا لهم. كما قام ملحقنا العسكري في انقرة اللواء روهده ــ الذي سبق أن عمل خبيرا لدى الجيش التركي ــ بتزويد المسؤولين الاتراك (بموافقة مني) بما يحتاجونه من معلومات عسكرية مسموحة.

عندما علمت بأن بعثة عسكرية بريطانية على وشك الوصول الى تركيا بدعوة خاصة من الحكومة التركية وجهت الدعوة لعدد من اصدقائي العسكريين الاتراك لمشاهدة فلم سينمائي عن فعاليات جيوشنا في مختلف الميادين . ولما كان مصورونا الحربيون يندفعون الى أقصى الأمام فان الأفلام التي شاهدناها كانت واقعية تماما وتشرح بكل وضوح وسائل القتل الحديثة في الحرب التي كانت قائمة. وقد أثرت تلك الافلام على مشاهديها وكانت استحضارا جيدا لاستقبال البعثة العسكرية البريطانية التي قوبلت بفتور واضح حيثما حلت في تلك الزيارة.

كان الفرق بيننا وبين الانكليز جوهريا في نوايا كل منا تجاه تركيا . فبينما كنا نكرر دعواتنا لتسليح الجيش التركي بأحدث الأسلحة والمعدات بقصد رفع مستوى قدرته القتالية دأب الانكليز طوال اربع سنوات على المحاولة بشتى الوسائل سحب تركيا الى صفوفهم في الحرب . وعليه فقد بذلت جهودي لتقوية الجيش التركي بحيث يكون قادرا على حماية حياد تركيا ــ ازاء أي خصم كان ــ والدفاع عن وطنه بمقدرة تامة. ولكن الم يكن بالامكان اجراء محاولة لتوحيد اوربا ؟ وهل كان الحلف الألماني ــ الروسي مجرد اجراء مرحلي من اجل تحقيق اهداف محدودة ؟ ثم أنه ألم يعد بالامكان التوصل الى سلام في وسط اوربا دون التفكير بأي انتقام مع

الاعتراف بسيادة شعوب المنطقة وربطها باتفاقية شاملة للصداقة ؟ ألم يعترف هتلر ضمن شروط الهدنة المتفق عليها في كومبن[٤] بامكانية التوصل الى تفاهم في اوربا؟ واذا أرادت اوربا ان تحيا بوئام فهل كان الاختيار الوحيد أمام تشرشل محصورا بين القضاء على روسيا الشيوعية أو القضاء على المانيا النازية؟ تبين لي بوضوح ان الاتراك ـ رغم بعد بلادهم النسبي عن بلادنا ـ يتفهمون طبيعة الوضع السائد في المانيا افضل من تفهم الانكليز لظروف المانيا وحالة الشعب الالماني تحت وطأة نظام هتلر.

وقد استغربت اشد الاستغراب عندما اخبرني غراف شولنبورغ هاتفيا في ١٣ تموز ١٩٤٠ بأن مولوتوف أخبره بأنه اتصل به سير ستافورد كريبس[٥] قائلا بأن سيادة المانيا على أوربا تشكل خطرا على روسيا مثلما تشكل خطرا على بريطانيا . وليس أدل على ذلك من استيلاء المانيا على اقطار البلقان بقصد جعل الاتحاد السوفتي أمام الامر الواقع. كما اخبرني غراف شولنبورغ ببرقيته المرقمة ٦٤/١٣ بأن سير ستافورد كريبس يرى ايضا بأن الروس لا زالوا راغبين في الاستحواذ على المضائق التركية.

أما أنا فكنت أحاول حتى في ذلك الحين ايجاد وسيلة أحصر بها نطاق الحرب ضمن القارة الاوربية تمهيدا لوضع حد لها. وعليه فقد استقبلني هتلر قبل ان يلقي خطابه في مجلس النواب يوم ١٩ تموز ١٩٤٠ بثلاثة ايام. وكان في غاية الغضب لأن صحافة الحلفاء شددت عليه النكير في الآونة الأخيرة والصقت به تهما باطلة ونسبت اليه ما لم يقله قط.

حاولت التأثير عليه بعرض خططي التي تتلخص بوضع أسس جديدة لانشاء أوربا الحديثة وقلت له ان التأريخ سوف لن يتيح لنا اية فرصة

---

(٤) عقدت هدنة الحرب العالمية الاولى يوم ١١ـ١١ـ١٩١٨ في غابة كومبين قرب باريس بعربة قطار احتفظ بها الفرنسيون ذكرى لاندحار المانيا فلما سقطت فرنسا في حزيران ١٩٤٠ عقدت الهدنة بعربة القطار المذكورة لكن الالمان اتلفوها قبل انسحابهم من باريس عام ١٩٤٤ . ـ المترجم ـ

(٥) كان سير ستافورد كريبس سفيرا لبريطانيا بموسكو ثم صار وزيرا في حكومة العمال التي راسها اللورد اتلي بعد الحرب العالمية الثانية. ـ المترجم ـ

مشابهة للفرصة السانحة حاليا لجمع رجالات اوربا وحكمائها ما عدا اولئك القابعين وراء القنال في جزيرتهم المنعزلة عن اوربا . ولو استطعنا التوصل الى اتفاق مع فرنسا وهولندا وبلجيكا والاقطار الاسكندنافية من اجل وضع اسس السلام دون اجبارها على التخلي عن اية اقاليم من بلادها او اعطائنا اية امتيازات اقتصادية فاننا سنضمن عزل بريطانيا عن اوربا . وعلينا بهذه المناسبة تجنب أي اجراء من شأنه توسيع نطاق الحرب.

ثم اننا حتى لو كنا قد نجحنا في غزو الجزر البريطانية فلابد ان الامبراطورية البريطانية كانت ستواصل الحرب من العالم الجديد . وعلينا الا ننسى السوفيت. فهؤلاء سوف لن يبقوا محافظين على حيادهم الى امد غير محدود. لأنهم سينتظرون ريثما يجهد المتقاتلين انفسهم بالحرب الدائرة وعندئذ يجيء الروس في آخر الامر لكي يحققوا اهدافهم الثورية في اوربا بصورة أسهل.

انصت الي هتلر باهتمام دون ان يقاطعني . وكان يؤيد ما ذهبت اليه من حيث المبدأ. الا ان الامر الذي فكر به آنذاك هو من الذي سيسدد نفقات الحرب الباهظة اذا ما انهيت الحرب دون غرامات مالية ؟ فقلت له ان ايجاد اوربا المستقرة سيؤدي الى حصول ازدهار اقتصادي ومما لا شك فيه ان المانيا ستحصل عندئذ على تعويضات عادلة عما خسرته بسبب هذه الحرب. وانني ارى ان هذه ستكون آخر حرب تعرضت لها اوربا. فقال هتلر ولكن اذا استمرت بريطانيا على مواصلة الحرب فمن الذي سيدافع عن هولندا وبلجيكا اذا سحبنا قطعاتنا منهما؟

فأجبته بأننا اذا ما اتفقنا على هـذه الأسس فيمكننا انشاء حلف دفاعي مشترك تقوم بموجبه بأشغال المواقع المهمة لأغراضنا الدفاعية المشتركة لحين انجلاء الخطر الماثل .

حصلت من محادثاتي مع هتلر على انطباع بأنه مشغول الذهن لمعالجة هذه المشكلة بالذات . وانه كان يأمل التوصل الى تفاهم مع فرنسا لتحقيق العمل المشترك مع المانيا . ولكنه لم يكن راغبا في معاونة ايطاليا على تحقيق مطامعها الكثيرة. وكان يستهزيء بفعالياتها العسكرية التي قامت بها حتى

ذلك الحين.

كنت آمل ان يعرض هتلر في خطابه الذي عزم على القائه في مجلس النواب يوم ١٩ تموز ١٩٤٠ آرائه بشأن السلام المنشود . لكن ما قاله في ذلك الخطاب كان مخيبا آمال الشعب الالماني. اذ قال في خطابه المذكور:

« لا اجد سببا مبررا لاستمرار هذه الحرب . لاسيما وان الضحايا التي ستترتب عليها ستكون رهيبة.. ويحتمل ان السيد تشرشل سيتجاهل هذا النداء ويقول ان الخسائر المتوقعة ما هي الا مجرد ثمرة للرهبة المتولدة لدى المتشكك في تحقيق النصر النهائي. وفي هذه الحالة سوف لن اكترث لما يفكر به....».

أما جواب السيد تشرشل فقد صار معروفا . اذ قال بهذا الصدد:

« ان وجهة نظر حكومة صاحب الجلالة تتضمن مواصلة الحرب باستخدام الوسائل المتاحة لكي نساهم جميعا في التخلص من الكارثة المحدقة ببلادنا وننفذ جميع الواجبات المترتبة علينا ».

وهكذا اضطرت اوربا على تسديد الثمن الباهظ.

بقيت ببرلين لكي ارقب تطور الاحداث عن كثب. ثم ما لبثت ان زرت هتلر بمقره مودعا يوم ١ آب ١٩٤٠ فوجدت ان رأيه تحول الى عقد اتفاق مع الفرنسيين لكي يستفيد منهم في المقاومة المسلحة ضد الانكليز. أما انا فاعتقدت ان هذه الفكرة خيالية بعد ان رجعت الى برلين وسمعت آراء عمدتها[٦] الذي كان ينادي بضم شمال فرنسا الى المانيا واحياء امارة برابان القديمة التي ترقى الى عهد كارل الشجاع.

في هذه الفترة داعبني فون ريبنتروب مداعبة سمجة أخرى من تلك التي الفتها منه . فقد اكتشف اعوانه في مكاتب وزارة الخارجية الفرنسية تقريرا سبق كتبه السفير الفرنسي بأنقره اندريه ماسيغلي ضمنه محادثة مع

---

(٦) كان عمدة برلين آنذاك الدكتور يوسف غوبلز وزير الدعاية المعروف . ـ المترجم ـ

وزير الخارجية التركي شكري سراج أوغلو • وكان ماسيغلي قد اقترح شن هجوم جوي على حقول نفط باكو • وقد فضح امر هذا التقرير فأثار تعجب السوفيت وقلق الاتراك•

أما ماسيغلي فقد انكر الواقعة بطبيعة الحال ـ ولم يكن بمقـدوره اتخاذ أي مسلك آخر ـ وقام شكري سراج اوغلو بايجاز سفيره في موسكو بشأن الواقعة ببرقية مفتوحة تتضمن وجوب الادعـاء بأن قضية التقرير المنسوب الى ماسيغلي مجرد قصة مفتعلة وأمره بتهدئة الروس • الا أن فون ريبنتروب لم يقتنع بانهاء الواقعة على هذه الصورة وانما أراد اشاعة نبأ مفاده ان انكار ماسيغلي لا يمكن ان يكون مقنعا• وواضح ان فون ريبنتروب كان يبغي من هذه الشائعة الاطاحة بشكري سراج اوغلو على أمل حلول وزير خارجية تركي جديد بمحله يكون اكثر ميلا الى المانيا•

أما بالنسبة لي فعلى الرغم من عطف السيد سراج اوغلو على بريطانيا بشكل سافر فقد كنت على علاقة حسنة بالرجل وقد سائني تعرضه لذلك الهجوم الرخيص• لأنني ايقنت بأن غريمي السفير الانكليزي لابد ان ينسب لي تدبير تلك المكيدة• وعليه فقد صارحت فون ريبنتروب بأن تشهيره بوزير خارجية تركيا سيجعل تعاون هذا الوزير معي متعذرا • لكن فون ريبنتروب لم يأبه لذلك التحذير واكتفى بالادعاء بأن مثيري هذه الازمة هم رجـال مكتب الصحافة بوزارته وقال انه عاقبهم بالطرد جزاء على فعلتهم • لكنه بالواقع تسبب منذ ذلك الحين بمقاطعة وزير الخارجية التركي سراج اوغلو للسفارة الالمانية بأنقرة ممثلة بشخصي•

قبل ان يفاجئنا خريف ١٩٤٠ بتطورات جديدة نشبت في ڤينا مشكلة الحدود بين رومانيا والمجر• فلكي تعوض رومانيا عن فقدان اقليم (زيبن بيرغن)[٧] أرادت المانيا تعويضها بتعديل خط حدودها على حساب المجر[٨]•

(٧) معناه لغة (الجبال السبعة) وهو اقليم روماني تقطنه اقلية المانية .
ـ المترجم ـ

(٨) لا تزال المجر تشعر بشيء من الغبن بفقـدان بعض اراضيها التي ضمتهـا رومانيا اليها منذ ذلك الحين .

ـ المترجم ـ

وقد استغلت روسيا هذه المشكله فانحازت الى رومانيا بعد ان اوفدت اليها في ٩ تشرين الأول ١٩٤٠ بعثة عسكرية لتدريب التشكيلات الرومانية[٩] . وكانت هذه هي الخطوة الاولى، لتوسيع نطاق الحرب العلميه الثانيه لكي تشمل بلاد البلقان.

وتفاقمت الحالة في پولندا حتى أصبحت لا تطاق. فقد كنا ـ انا وزوجتي ـ قد اقمنا خلال فترة اشتغالي في ڤينا علاقة صداقة وطيدة مع المبعوث الدبلوماسي الپولندي في ڤينا فون غاڤرونسكي وعقيلته المحترمة التي كانت كريمة غراف فراساتي سفير ايطاليا السابق ببرلين .

وكنت قد حصلت بوساطته على موافقات عديدة لزيارة پولندا في تلك الفترة كما انه كتب بعدئذ كتابا نفيسا ضمنه صورة جلية عن مدى معاناة الشعب الپولندي.

في ٢٨ تشرين الاول ١٩٤٠ اجتازت تشكيلات ايطالية كبيرة حدود البانيا المحتلة بصورة مباغتة وباشرت بالاعتداء على سيادة اليونان . وبذا تحققت نبوءة اتاتورك بالحذر من مطامع ايطاليا التوسعية . وكان من اشد حماقات هتلر ان أيد حليفه موسوليني في هذا العدوان السافر . لكن تأييد هتلر جاء في غير محله لأن العدوان ارتد الى نحر المعتدي. فمما لا شك فيه ان اضطرار المانيا على التدخل في البلقان ادى الى بعثرة القوات الالمانية بشكل يخل بمبدأ تحشد القوة . وكانت حصيلة الهجوم الألماني على البلقان ان أصيبت تركيا بالهلع الشديد لأنها تصورت بأن دورها سيحين وشيكا . لا سيما بعد ان رأت ايطاليا وحليفتها المانيا تطبقان على اليونان شريكة تركيا في حلف البلقان. وقد استغل الحلفاء هذه الحقيقة وصاروا يذكرون تركيا بالتزاماتها ازاء اليونان ويمارسون عليها ضغطا أشد.

الا ان هذا الموقف الحرج لم يكن ليستثير رئيس جمهورية تركيا

(٩) انحازت رومانيا ـ بقيادة المشير انطونسكو ـ الى المانيا خلال الحرب العالمية الثانيه .
ـ المترجم ـ

الواقعي عصمت اينونو ومستشاريه الاقربين فبعد العدوان الايطالي المباغت على اليونان بيوم واحد صادف يوم ٢٩ تشرين الاول ١٩٤٠ عيد الجمهورية التركية وتم الاحتفال بهذه المناسبة بشكل طبيعي كالمعتاد • الا ان ذلك اليوم كان يوما مشهودا بالنسبة لي• فقد جمعنا نحن رؤساء السلك الدبلوماسي تحت قبة البرلمان لتقديم التهاني لرئيس الجمهورية بهذه المناسبة • وقد جرى الفصل بين ممثلي الاقطار المتحاربة في قاعتين كبريين متجاورتين وكان استدعائنا يتم حسب الحروف الابجدية كل من قاعته التي استقر فيها آنفاه وتم استدعائي للمثول امام حضرة الرئيس التركي بعد استئذان السفير البريطاني سير هوغ كناتشبول وأعوانه من الرئيس اينونو•

ابتدرني الرئيس التركي بنظرة جادة هي غير النظرة الحانية التيالفتها منه في جميع المرات السابقة وافتقدت على وجهه الابتسامة اللطيفة التيعهدته يتلقاني بها ــ انا رفيقه في الحرب العالمية الاولى ــ وكان هذا اكثر مما اطيقه•

قدمت للرئيس التهنئة الرسمية لحكومة المانيا بهذه المناسبة السعيدة ثم اردفت قائلا:

« انني أعلم يا سيدي الرئيس مدى قلقكم وقلق بلادكم في هذه الساعة الحرجة • كما انني أقدر مدى المرارة التي تواجهون بها هذه المشكلة الجديدة • لكنني أرجو ان تسمحوا لي على الاقل ان أقول لكم الآن وفي هذا المقام:

ان المحادثات الدبلوماسية قد تكون بالنسبة اليكم جعجعة بلا طحن ولكن يقف امامكم الآن رجل سبق له ان تشرف بارتداء قيافته العسكرية والمساهمة بالقتال الى جانبكم وهو رجل يحب تركيا كمحبته لوطنه الثاني• وطالما ستراني ــ يا سيدي الرئيس ــ بموقعي هذا فسوف لن تخل بلادي بالسلام القائم مع بلادكم • وهذا ما يقتضي ان اوضحه لكم بصفتي ممثل الدولة الصديقة التي سبق ان حالفتكم في الحرب وهو ما ارجو أن تضعوه نصب عينكم عندما تتخذوا أي قرار بصدد المشكلة القائمة »•

وسرعان ما قرأت على ملامح الرئيس عصمت اينونو تهللا واضحا لأنه فرح لما قلته وتناول يدي مصافحا فأدركت اننا عدنا للتفاهم.

تم استدعائي الى برلين بعد بضعة أيام فظننت ان استدعائي ربما يكون بسبب التوتر الحاصل نتيجة لقيام قواتنا بالحملة على اليونان . لكنني فوجئت بأن استدعائي قد تم لحضور مناقشة للتأريخ العالمي خلال يومي ١٢ و١٣ تشرين الثاني ١٩٤٠ بقصد التوصل الى قرار بشأن مستقبل بلادنا على ضوء تأريخ العالم.

اوضح لي فون ريبنتروپ في محادثة اجريتها معه يوم ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٠ الغرض من محادثاته التي كان يوشك على اجرائها مع وزير الخارجية السوڤيتي مولوتوف بطريقة تملص بها من ذكر الحقيقة. اذ قال لي ان الوقت قد حان لاجراء تفاهم مع الروس بشأن المستقبل وتقسيم مناطق النفوذ الواسعة بيننا وبينهم. اذ يجب علينا ان نضمن لهم مخرجا الى (المياه الدافئة) وأراد ان يستمع الى وجهة نظري بشأن موقف تركيا وقضية مضائقها . فأعدت على مسامعه ما سبق ان رددته مرارا وهو ان الاتراك يرون مسألة احتفاظهم بالسيادة على مضيقي البسفور والدردنيل قضية حياة أو موت.

الا اننا بمقدورنا اللجوء الى تدبير يرضي الروس ولا يثير مخاوف الاتراك بتغيير اتفاقية مونرو بحيث يسمح الاتراك بمرور السفن العسكرية الروسية عبر المضائق التركية . وانني أحذر من اللجوء الى هذا الاجراء قسرا لأن هذا يعني اجبار تركيا على دخول الحرب الى جانب الطرف الآخر.

كان هتلر ــ كشأنه دوما ــ في غاية الدقة . فقد رغب بمعرفة ما يمكن أن نقدمه للروس لقاء ابقائهم الى جانبنا . فلربما تتفاقم هذه المشكلة بعد انتهاء الحرب ونحن أنفسنا مرتبطين بالتزامات لا قبل لنا بها وعليه فلابد لنا من معرفة طلباتهم من الآن. ذلك لأن مشكلتنا هي عدم معرفتنا بالثمن الذي يبدي الروس استعدادهم لدفعه لقاء الامتيازات التي يريدون الحصول عليها. اذ ربما يأمل الروس الحصول على موطيء قدم لهم في منطقة الخليج العربي الغنية بالنفط على حساب الامبراطورية البريطانية للاستعاضة بها عن

حقول نفط رومانيا، وقد يكون هذا الاجراء مناسبا لنا من الناحيةالاقتصادية، ولكن كيف يمكننا معالجة موضوع المضائق مع الاتراك ؟

والمأثور عن هتلر ان له شعور صائب في كل ما يتعلق بالتطور التأريخي ولذا فقد حاولت ان اترجم له من هذه الناحية مدى ارتباط تأريخ تركيا ووجودها بسيادتها على المضائق • فقد استولى الاتراك على مضيق الدردنيل الذي يسمونه (غاليبولي) منذ عام ١٣٥٦ أي قبل استيلائهم على القسطنطينية بزهاء مائة عام • أما مضيق البوسفور فقد استولوا عليه في عهد يلدرم بايزيد[١٠] في عام ١٣٩٣ الذي أمر بانشاء (قلعة الاناضول) وهي التي بنى محمد الفاتح[١١] فيما بعد على اساسها (روميلي حصار) وهكذا نجد ان المضائق بقيت بحوزة الاتراك منذ ستة قرون • وقد تمكن بطرس الاكبر[١٢] من احداث اول ثغرة في السيادة العثمانية على المضائق في تموز ١٧٠٠ عندما اجبر الاتراك على السماح لاسطوله بالمرور من المضائق• وقد بقي زعماء روسيا كلهم منذ ذلك الحين يسعون للتمسك بهذا الحق مع محاولاتهم

---

(١٠) يلدرم بايزيد ـ هو السلطان العثماني بايزيد الاول ولقب يلدرم معناه (الصاعقة) تولى الحكم عام ١٣٨٩ واستولى على مدن سيواس وقيصري وارزنجان ثم على انقرة وازمير وقد توفي سنة ١٤٠٣ .

ـ المترجم ـ

(١١) محمد الفاتح ـ هو ابن السلطان مراد ولد عام ١٤٣٢ وفتح القسطنطينية عام ١٤٥٣ وتوفي عام ١٤٨١ .

ـ المترجم ـ

(١٢) بطرس الاكبر ـ هو ابن القيصر اليكسس ولد بموسكو عام ١٦٧٢ واصبح قيصرا على روسيا عام ١٦٨٢ ثم امبراطورا عليها عام ١٧٢١ واشتهر بانه العاهل الذي حقق لروسيا منافذ على البحر الاسود وبحر قزوين وبحر البلطيق واقتبس عن اوربا حضارتها الوئيدة لكي تواكب بلاده الركب فوضع اسسا راسخة لها وحقق توسعا اقليميا وتقدما حضاريا واجتماعيا بفضل الاصلاحات الواسعة التي اشتهر بها في شتى المجالات التنظيمية للدولة والمجتمع . وقد خاض حروبا ناجحة ضد الدولة العثمانية وفارس والسويد . وهو الملك الروسي الوحيد الذي لا يزال يحظى بالاعتبار والتقدير في روسيا لكونه من الرواد القوميين الذين حققوا المجد التليد لأوطانهم .

ـ المترجم ـ

المستمرة للاستيلاء على المضائق لضمان حرية الملاحة لاساطيلهم من البحر الاسود الى البحر الابيض المتوسط وبالعكس لكي يجعلوا من البحر الاسود بحيرة روسية وينفذوا الى مياه البحر الابيض المتوسط ذو المياه الدافئة فيبسطوا سطوتهم على سواحله. وقد سبق للدول الاوربية ان تظافرت منذ زمن طويل من أجل منع الروس من تحقيق هذه الامنية . ولو اعتبرنا روسيا من الدول الاوربية لأمكننا بحث هذا الموضوع . واليوم لا يمكن اعتبار روسيا من الدول الاوربية.

اننا يمكن ان نعتبر تركيا من الدول العازلة لروسيا عن اوربا . ولو تصورنا استحواذ الروس على سواحل البحر الاسود كلها وخليج ازميت حيث سينفتح امامهم المحور المؤدي الى كل من أنقرة وبورصة وازمير وهذا معناه ضياع الوحدة الجغرافية المعروفة بأسم آسيا الصغرى برمتها.

وعليه فانني اقترح بأننا يمكننا الاتفاق مع الروس على التوصل الى تفاهم مع الاتراك والدول الاخرى المعنية لتعديل بعض بنود اتفاقية مونترو. ولكن ينبغي علينا الالتفات الى ان الموقف الراهن لا يمكن ان يؤدي الى تهديد مصالح الروس في البحر الأسود طالما بقيت تركيا على الحياد ومتمسكة بحقها في منع مرور جميع الاساطيل الحربية من المضائق. وعليه فأنني أرى من الضروري اقناع مولوتوف لتشجيع المساعي المبذولة لابقاء تركيا على حيادها.

ثم انني عرضت لهتلر شكوكي بقناعة الروس لهذا الاجراء. وذكرته برجاء البلغار لنا بعقد اتفاقية للتعاون مما اثار حفيظة الروس لأنهم يحاولون بكل وضوح تقوية نفوذهم في بلاد البلقان . وهذا من شأنه أنه يتعارض مع مصالح موسوليني الذي هاجم اليونان ودعانا لمساعدته في تلك الانحاء ونحن الآن على أتم استعداد لمقاومة أي نزال انكليزي في اليونان كما اننا لا يمكن ان نسمح بتهديد الروس لجناحنا الجنوبي في البلقان طالما بقيت هذه الحرب قائمة.

وصل مولوتوف الى برلين وبصحبته معاون قومسير الشعب السوفيتي

للشؤون الخارجيــة ديكانوسوف يوم ١٢ تشرين الثاني ١٩٤٠ ولم اشترك انا بالمحادثات التي أجريت معهما، ولكنني حضرت حفل الاستقبال الذي اقيم على شرفهمــا في فندق كايزر هوف ببرلين وقــدمني فــون ريبنتروپ الى مولوتوف، ولاحظت ـ وفي نفسي شيء من السخرية ـ انني لم اكن غير معروف تماما بالنسبة للرجل ، وكان ترتيب جلوسي على مائدة الطعام بين ديكانوسوف وقائد الشرطة السرية السيء الصيت هايدريش ، وقد لاحظت ان السيد ديكانوسوف كان صغير الجرم وسيم الطلعة دائب الحركة ولكنه لا يتكلم سوى الروسية وكان ذلك مدعاة أسفي فمع انني اتقن عدة لغات الا انني لم اتعلم من الروسية شيئا ، ولم يكن هناك أي مترجم على مقربة منا، وعليه فقد حاول هايدريش ان يعوض عني في مجاملة الضيف ومع انه لا يمكن ان يجاريني في ادارة دفة الحديث الا انه كان الرجل الملائم لمحادثة ذلك الضيف بالذات ، وقد قال لي هايدريش في تلك المنــاسبة انه عندما يكون في الطائرة مثلا فانه يشعر بأنه قريب الى الله اكثر من شعوره عندما يكون في الكنيسة، فلم اتمالك نفسي واجبته:

« هذا واضح تماما ، فأنت ستكون ـ وانت في السماء ـ اقرب الى الله ببضعة آلاف الامتار ، ولكن الا تتصور بأنك ستكون ايضا اقرب الى الجحيم وبنفس المسافة ؟»،

وبذا اختتمت محادثاتنا ـ انا وهايدريش ـ الى الابد،

عاد الضيفان الروسيان الى بلادهما بعد يومين فقط على امل مواصلة المحادثات على الصعيد الدبلوماسي، ويبدو ان مباحثات اليوم الاول اتسمت بشيء من الحــدة ، ذلك لأن هتلر كان كشأنه دوما اكثر دقــة من وزير خارجيته، فبينما كان فون ريبنتروپ يحاول ان يوضح للضيفين بأننا كسبنا الحرب منذ أمد بعيد كان هتلر يصر على اعتبار الحرب القائمــة حالة حاسمة ستؤدي الى حياة المانيا او فنائها، وان على مولوتوف أن يقدر طبيعة ظروف الحرب الحرجة واحتمالاتها الواردة ، وعند التطرق في المحادثات الى موضوع (منــاطق النفوذ) ومجــالات المصالح الروسية ابدى هتلر ملحوظة مفعمة

بالتنبؤ:

« اذا سرنا على هذه القاعدة فلابد ان تتوقع حساب مجال حيوي للصين ايضا فهي حريصة ايضا على كسب مجال حيوي لملايينها الكثيرة».

لكن مولوتوف توخى الدقة المتناهية بشأن القضايا المطروحة ولم يشأ الاسترسال في اية مباحثات نظرية . فطالب باخلاء فنلندا التي تمسك بها هتلر ورفض سحب قواته منها مهما كانت النتائج.

ثم ان مولوتوف اعتبر الضمان الالماني لرومانيا موجها ضد الاتحاد السوفيتي وطالب بالغائه . وما الذي سيقوله هتلر اذا منح ستالين لبلغاريا ضمانا مشابها لاسيما وان بلغاريا مصاقبة للمضائق التي يتطلع نحوها الروس ؟ وان التوصل الى تفاهم مع تركيا قد يكون ممكنا ولكن روسيا لا تريد اية ضمانات من الورق فهي تريد اتخاذ تدابير عملية حقيقية . وأشد ما يهم مولوتوف في هذه المباحثات محاولة روسيا ايجاد منافذ مائية لها الى بحر البلطيق.

بعد ان غادرنا الضيفان الروسيان استدعاني هتلر فأجريت معه محادثة وداعية قصيرة . ولما سألته عن مدى تأثر موقف تركيا نتيجة لمحادثاتنا مع الروس أجابني بأنه ينظر للموضوع بشيء من التأثر المكدر . وقال انه حصل عن الروس على انطباع مفاده عدم تفكيرهم بالمشاكل المنتظر مصادفتها بعد الحرب وأنهم جعلوا بعض الاهداف الصغيرة نصب أعينهم في هذه المرحلة فتحولوا بعد استحواذهم على اقطار البلطيق الى فنلنداء وما الذي بوسعنا عمله اذا ما تحولوا الى منح بلغاريا ضمانا بسلامتها ؟ وضد من سيكون هذا الضمان؟ وعليه فمن الطبيعي اننا سنسعى لتلبية طلباتهم الصغيرة تجنبا لاصطدام مصالحنا بشأن القضايا الكبيرة . ثم انه ليس بالامكان ايجاد تضامن بين المانيا والاتحاد السوفيتي لأن هذا التضامن معناه تحقيق النصر الكامل لصالح السوفيت.

لم استطع مناقضة هذا الرأي بطبيعة الحال . لكنني ساورني شعور

جامح بنفاذ الصبر ولم اتمكن من السكوت فقلت له:

« ولكن ما الذي سنكسبه اذا ما اقتسمت العالم مع السوفيت؟ ثم اننا حتى اذا سهلنا بلشفة بلغاريا وساعدنا الروس على الاستيلاء على المضائق التركية فهل تعتقد بأن الروس سيمتنعوا عن ابتلاع البلقان كلها بنفس الطريقة التي ابتلعوا بها دويلات البلطيق ؟ فهم قد ضمنوا لرومانيا حدودها وتربطهم ببلغاريا علاقات صداقة وطيدة وان لم يكن بينهم وبينها حلف معلن. أما المجر فقد كانت جزءا من امبراطورية النمسا والمجر لسنين طويلة وتعتبر افضل حد فاصل بوجه الغزو الآسيوي. فكيف يمكن التخلي عن كل هذه البلدان من اجل ترضية الروس ؟ وسيقاتل الاتراك حتى النفس الاخير اذا ما تعرضت سيادتهم على المضائق للانتقاص لحساب الروس . وعليه فان دخول الاتراك للحرب سيكون مؤكدا وستكون حصيلة الحرب خروج الروس الى البحر الابيض المتوسط » فأمعن هتلر نظره نحوي وظل ساهما برهة من الزمن.

لقد حذرت بما فيه الكفاية من ضمان روسيا لبلغاريا . وبدى لنا في تلك الفترة اننا وصلنا الى المرحلة الحاسمة من تأريخنا. وصرت اشعر بمدى معاناة هتلر من الموازنة الصعبة التي عليه اختيار المسلك المناسب على ضوئها بالمسير مع الروس يدا بيد ضد الامبراطورية البريطانية والولايات المتحدة الامريكية لاسيما وانه اصبح مضطرا على اتخاذ قرار جازم ــ بنعم او لا ــ وعلى هذا القرار سيتوقف تغيير الوضع العالمي. وعندما اوشكت على مفارقة هتلر في ذلك اللقاء اختتمت محادثتي معه قائلا:

« ألم نستلم الحكم سوية بوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٣ على أمل حماية المانيا ــ ومعها اوربا ــ من البلشفية ؟ » .

اقتضى علي عندما وصلت الى انقرة التكتم الشديد بشأن المحادثات التي اجراها مولوتوف ببرلين . وكان تصريح فون ريبنتروب بصدد الموضوع المذكور أكثر من هزيل . ولو تسربت الحقيقة للاتراك لكانت حصيلة ذلك

ضد الحكومة التركية للجانب الآخر. وكان سفيرنا بموسكو غراف شولنبورغ قد عرض على فون ريبنتروپ منذ ٣٠ تشرين الأول ١٩٤٠ عدم اخبار دول الحلف الثلاثي بعزم المانيا على اجتياح المجر ورومانيا وسلوڤاكيا وبلغاريا قبل زيارة مولوتوف لبرلين . اذ كان من الحصافة بحث هذا الموضوع معه لأنه ليس من مصلحتنا زيادة شكوك الروس بصدد نوايانا في البلقان بصورة مضطردة. ولكن هتلر وفون ريبنتروپ لم يشيرا الى تلك النصيحة ابداً.

في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٠ اعلن دخول رومانيا في الحلف الثلاثي وبعد يومين من ذلك التأريخ جاء جواب مولوتوف على دخول رومانيا في حلف مع المانيا ويتضمن الجواب استعداد الاتحاد السوڤيتي للدخول في الحلف الرباعي ولكن وفق الشروط التالية:

١ ـ الانسحاب الفوري لجميع القوات الالمانية من فنلندا.
٢ ـ الاعتراف بمعاهدة التعاون بين الاتحاد السوڤيتي وبلغاريا وتدبير قواعد لمرور القوات البرية والبحرية السوڤيتية عبر مضيقي البسفور والدردنيل.
٣ ـ الاعتراف بالمنطقة الممتدة الى الجنوب من باطوم وباكو باتجاه الخليج العربي باعتبارها منطقة مهمة لمصالح الاتحاد السوڤيتي.
٤ ـ يجب عقد بروتوكول سري في حالة اصرار الاتراك على رفض التخلي عن المضائق حيث يترتب على ذلك اشتراك الدول الأربع في اتخاذ اجراءات عسكرية ضد تركيا من أجل الاستيلاء على المضائق.

وكان جواب هتلر على هذه الطلبات السوڤيتية اصدار وصاياه الى القائد العام للقوات المسلحة في ١٨ كانون الاول ١٩٤٠ للاستحضار لتنفيذ (عملية باربروسا) وجاء في تلك الوصايا وجوب الانتهاء من جميع الاستحضارات اللازمة للشروع بالعملية المذكورة قبل ١٥ مايس ١٩٤١ .
وهكذا وقع المحذور.

انه من غير المعلوم تماما عما اذا تأثر هتلر بتحذيراتي من تلبية رغبات السوڤيت. أو عما اذا كانت تقاريري المتعاقبة التي أرسلتها من أنقرة قد

أثرت بشكل ما على اتخاذ هتلر لقراره الحاسم. ذلك لأنني لم اتصور آنذاك بأن هتلر سيحول القوات الجاهزة لغزو بريطانيا وتحشيد جميع القوات الجاهزة لديه لغزو الاتحاد السوفيتي في ربيع ١٩٤١ .

وانني بصفتي عسكري سابق لا يمكن ان اتصور الحماقة التي أقدم عليها هتلر بالمغامرة في زج المانيا بحرب على جبهتين والاندفاع بهذا الاتجاه على الرغم من التحذيرات المتكررة التي قامت بها هيئة الاركان العامة الالمانية . ولكنني وجدت في هذا العمل اجراء حاسم من شأنه خيانة اوربا برمتها.

الفصل الثامن والعشرون

الصِّرَاعُ حَوْلَ تُرْكِيا

الحرب على جبهتين ٠ خطر مهاجمة تركيا ٠ تحد متبادل بين هتلر وتشرشل ٠ مقترحات ملك السويد لاقرار السلام ٠ ايدن وديل في انقرة ٠ وعود هتلر ٠ الحملة على يوغسلافيا ٠ مخـاوف روسـية ٠ محادثات في مقر هتلر ٠ الملك بوريس واقتسام الغنائم ٠ تركيا تزودنا بالكروم ٠ غيرونغ في انقرة ٠ ثورة في العراق ٠ الرئيس اينونو مستعد للتوسط من أجل السلام ٠ ميثاق الصداقة الالماني ـ التركي ٠ المانيا تهاجم الاتحاد السوفيتي ٠ في مقر هتلر ٠ اصطـدام جديد مع فون ربنتروب ٠ حرب مع الولايات المتحدة الامريكية ٠

أدت المقاومة البطولية التي ابداها اليونانيون في دفاعهم عن وطنهم الى بقاء القوات الايطالية الغازية في مواقعها دون أن تتمكن من اجتياح بلاد اليونان ٠ وجاء في تقارير مبعوثنا الدبلوماسي في اثينا وهو معاوني السابق پرنس فون ارباخ اننا يجب ان نتوقـع تدخلا بريطانيا مؤكدا في اليونان ٠ وعليه فقد اهتم هتلر كثيرا للامر وصار يفكر باحتلال بلاد البلقان برمتهـا

لحل كل مشاكل هذه المنطقة[1]. فصار هذا التدخل الالماني مثلا نموذجيا لتضارب مصالح المحور وبروز الصعوبات الناتجة عن توخيهما لهدف معين يحاول كل طرف منهما الاستئثار به.

ارسلت المانيا ـ بعد المجموعة الكبيرة من المدربين والمستشارين العسكريين الذين سبق ان أوفدوا الى رومانيا ـ بضع فرق الى تلك البلاد في كانون الثاني ١٩٤١ شكلت مجموعة جيوش ولكي تندفع هذه القوات من رومانيا الى اليونان فلابد لها من المرور عبر بلغاريا . وسيؤدي ذلك الى دخول تركيا الحرب ضدنا بصورة حتمية. لكن تخلي تركيا عن التزاماتها في حلف البلقان كان باتا لدرجة لم تنفع معها كل مساعي بريطانيا الحثيثة لاستمالة تركيا الى صفوف الحلفاء.

في هذه الاثناء ابدت هيئة الاركان العامة الالمانية اعتراضاتها على زج المانيا في حرب على جبهتين وحذرت من تأثيرات الحملة على البلقان على قدرة القوات المسلحة الالمانية ان كانت نية القيادة العليا متجهة لمواصلة الحرب ضد بريطانيا . لاسيما بعد ان فشلت القوة الجوية الالمانية في معركة بريطانيا ولم تتمكن من فرض الحصار التام على الجزر البريطانية . وقد كتبت في مفكرتي خلال مايس ١٩٣٩ بأن الامبراالطورية البريطانية لا يمكن ان تحيا اذا ما تمكنا من قطع شريانها الحيوي المار من قناة السويس واستطعنا حرمانها من منابع النفط الغزيرة في منطقة الخليج العربي. والطريق المؤدية الى هذين الهدفين يمكن ان تمتد بنا من صحراء شمال افريقيا أو عبر بلاد سوريا. واذا لم تتمكن من السيطرة على السواحل الشرقية للبحر الابيض المتوسط فلابد من الاندفاع نحو الهدفين الحيويين عبر الاراضي التركية.

هبطت ثقتنا بالايطاليين الى الصفر بعد اندحارهم الشنيع في اليونان. ولم يبق امامنا أي مسلك غير المرور من سوريا لاحتلال قناة السويس ومنطقة

---

(١) ان احتلال بلاد البلقان من قبل القوات الالمانية كان تنفيذا لهدف مركزي جعله هتلر نصب عينه قبل وصوله الى السلطة لانه اعتبر بلاد البلقان كلها (المجال الحيوي) لتوسع المانيا وكتب ذلك في كتابه المشهور (كفاحي) . ـ المترجم ـ

الخليج العربي. وقد قدرت بأن المرور من سوريا سيكون متعذرا هو الآخر اذا ما انحازت تركيا الى صفوف الاعداء.أما فون ريبنتروب الذي لم يكن يؤمن بالاتفاقيات فقد أمطرني بوابل من وصاياه التي حاول بها الالحاح على لاستمالة تركيا وتحويل ميلها للحلفاء الى الانحياز لصفوفنا . وكان جوابي المتكرر هو أن الاتراك اناس يحافظون على عهودهم ويلتزمون بالمواثيق التي يعقدونها وانهم ليسوا على شاكلة غيرهم من الذين يعتبرون المعاهدات مجرد قصاصات من الورق لا قيمة لها.

وكان تقدير هتلر واقعيا عندما قال بأن الهجوم الالماني على المضائق ربما سيؤدي ــ وباحتمال كبير ــ الى استيلائنا على المضائق التركية . ولكنني اوضحت مرارا بأن ما سيعقب ذلك هو الانتحار بعينه. فالدفاع عن شبه جزيرة الاناضول (التي يخترقها طريق ادامة واحد يؤدي الى اسكي شهر ويمر عبر جبال طوروس المنيعة ولا محيد فيه عن المرور من مضائق وانفاق كثيرة جدا) يعتبر بالنسبة للجندي التركي الشجاع من الامور السهلة التي اتقنها جيدا بينما يستنزف الهجوم على الاناضول قوات كبيرة جدا من المهاجم ويعرضه الى خسائر فادحة.

أسندني ملحقنا العسكري الحصيف اللواء روهده بعرض التحليلات والآراء التي كنت اتوصل اليها والمتميزة بالصراحة الخالية من البهرجة على هيئة الاركان العامة وخصوصا تلك المتعلقة بالصعوبات التي تنتظرنا في حالة مهاجمة تركيا . وكانت حصيلة ذلك ان اقتنع بها رئيس هيئة الاركان الفريق الاول فرانز هالدر ثم ما لبث ان عرضها على هتلر واوضح له تعذر تنفيذ أية خطط ضد تركيا في تلك المرحلة من الحرب. وكانت وزارة الخارجية الالمانية ترى عدم وجود جدوى من تعاون دبلوماسييها مع العسكريين آنذاك الا ان تعاوننا الوثيق اثبت خطل ذلك الرأي.

في ٢٨ كانون الثاني ١٩٤١ كتبت تقريرا صريحا الى هتلر ضمنته تقديرا للموقف السائد في جنوب شرق اوربا وخلصت في ختامه الى ضرورة الحرص على تجنب الاخطار التي ستنجم عن شمول بلغاريا بنطاق الحرب

ونصحته (في حالة الاضطرار على المرور من الاراضي البلغارية بقصد الوصول الى اليونان لنجدة ايطاليا المتورطة هناك) بتوجيه رسالة شخصية الى رئيس الجمهورية التركية توضح له فيها ضمان عدم التجاوز على الاقاليم التركية والبرهنة على ذلك بالقرار على عدم وصول أي جندي الماني لمسافة ٣٠ كيلومترا عن الحدود البلغارية ـ التركية اثباتا لحسن نوايا المانيا ازاء تركيا •

والطريف ان ونستون تشرشل كتب بعد ثلاثة أيام فقط رسالة شخصية للرئيس التركي يحذره من الخطر الشديد المحدق بتركيا نتيجة لاعداد القوة الجوية الالمانية مطارات بلغارية عديدة استحضارا لعدوان جديد وجاء في تلك الرسالة ما يلي:

« انكم اذا منعتم المانيا من مرور قواتها عبر بلغاريا فستهاجم الطائرات القاصفة الالمانية مدينتي اسطنبول وادرنة بنفس الليلة ••• اذ مما لا شك فيه ان الالمان يرغبون بالوصول الى سلانيك بدون مقاومة او اجبار اليونان على الخضوع لايطاليا والسماح لهم باستعمال مطارات اليونان • وسيؤدي هذا الى تهديد الاتصالات بين الجيش التركي وقواتنا التي في مصر بصورة خطيرة وسيمنعون الاسطول البريطاني من المرور من بحر ايجة وسيسيطرون على منفذ الدردنيل وسيعزلون تركيا عن أوربا من ثلاث جهات• وأنا اعلم يا سيدي الرئيس بأن تركيا وقد وجدت نفسها مهددة بهذا الخطر المميت لا. ان تعلن الحرب•••»•

ثم تسائل تشرشل في رسالته المذكورة • لماذا يدع المرء الالمان يستحوذون على القواعد الجوية البلغارية دون رمي اطلاقة واحدة عليهم؟ انهم سيكررون نفس المناورة التي سبق ان مارسوها ضد الدانمارك والنرويج وهولندا وبلجيكا• وواصل تشرشل رسالته قائلا فيها:

« هل ينبغي ان نظل سادرين ونحن مشتتي الجهود بينما يقوم الالمان باستحضاراتهم القاتلة دون ان تتصدى لمقاومتهم ؟ ان بريطانيا على أتم استعداد لارسال عشرة أسراب من الطائرات القاصفة والمقاتلة الى تركيا حالا مع ارسال

خمسة اسراب أخرى فيما بعد من الاسراب القائمة بمقاتلة المحور من المطارات اليونانية حاليا • وبذا سيمكننا قصف آبار النفط الرومانية • والمهم اكثر في هذا الموضوع هو اننا سنحقق تأثيرا مباشرا على روسيا التي ستكون حقول نفطها في باكو ضمن مجال القاصفات البريطانية • والى جانب الطائرات فان بمقدور بريطانيا تزويد تركيا بمائة مدفع لمقاومة الطائرات مع طوائفها التي يمكن ارسالها اما بملابس مدنية أو بقيافة عسكرية حسبما ترغب به تركيا تماما »•

وفي ١٢ شباط ١٩٤١ كتب رئيس الورزاء تشرشل الى القائد البريطاني الفريق ويقل رسالة جاء فيها:

« ••• اذا استطاعت اليونان بمساعدة بريطانيا تعويق القوات الالمانية بضعة اشهر فسيزداد املنا باستمالة تركيا الى جانبنا»•

ويقتضي الا يتحقق امل الحلفـاء هذا حيث يبدو انه في الواقع مجرد برهان على التفكير الواقعي للاتراك الذين كانوا يتعرضون لضغوط الحلفاء التخويفية بينما كانت المانيا حريصة على طمأنتهم والتأكيد لهم بأنهم سيبقون بعيدين عن الحرب • وهكذا قررت في أواخر كانون الثـاني ١٩٤١ اجراء محاولة سلميــة جديدة • فتذكرت علاقتي الســابقة المتينة مع جلالة ملك السويد وكتبت له رسالة شخصية بشأن الموقف السائد ورجوته مفــاتحة جلالة ملك بريطانيا بمبادرة جديدة للسلام ثم سلمت الرسالة للسيد ثيبرغ وزير السويد المفوض لدى تركيا الذي كان يسند محاولتي السلمية بتفهم تام لموقفي• والمؤسف انني لم أعلم في حينه بالاجابة الواهية التي تلقاها ملك السويد من تشرشل في الصيف المنصرم• وعليه فان الملك ارسل لي مع وزيره المفوض اسفــه لأنه لم ير في تلك الظروف ما يشجع على اجــراء مثل تلك الوساطة•

لم يلبث الموقف ان ازداد حراجة عندما وصل الى انقرة في ٢٦ شباط ١٩٤١ كلا من وزير خارجية بريطانيا السيد انطوني ايدن والمشير سير جون ديل لبحث امكانية اقامة جبهة البلقان المؤلفة من اليونان ويوغسلافيا وتركيا

وكنت قد اقمت وليمة في اليوم السابق لحضورهما دعوت لها السيد رفيق سيدام رئيس وزراء تركيا واعضاء حكومته. وكانت تلك الوليمة مناسبة جيدة اكدت بها لاولئك السادة أملي في حرص تركيا على تمسكها بسياسة الحياد . وقد علمنا فيما بعد من رسالة ايدن الموجهة الى تشرشل في ٢٨ شباط ١٩٤١ بأن الترك قد عزموا على القتال في حالة تعرض بلادهم لأي عدوان . ولكنهم لا يملكون جيشا حديثا قادرا على تنفيذ اية خطط هجومية ولذا فأنهم سوف لن يغامروا بزج ذلك الجيش بأية مغامرة لا تحمد عقباها الا بعد تجهيز جيشهم بمعدات حديثة.

وصادف في اليوم الاول لزيارة الانكليزيين للعاصمة التركية ان اعلنت بلغاريا انضمامها للمحور. وبعد ايام قلائل انجلت مخاوفي كلها عندما تلقيت في ٤ آذار ١٩٤١ رسالة من هتلر موجهة الى الرئيس عصمت اينونو كانت تحتوي على مفاجأة سارة لي وله لأنها تضمنت تطميننا رسميا بأن القوات المسلحة الالمانية ستبقى على مسافة لا تقل عن ٣٠ كيلومترا عن الحدود التركية حتى ولو اضطرت القوات الالمانية على التصدي لتدخل انكليزي تندفع به قواتهم من اليونان باتجاه بلغاريا.

وهكذا يبدو اننا تجاوزنا مرحلة الخطر هذه المرة ايضا.

ولو كان لي ادنى شك بصدق هتلر في تطميناته هذه لما بقيت بمنصبي ساعة واحدة. ولما شاع امر الرسالة المذكورة هنأني العديد من اصدقائي الاتراك من اعماق افئدتهم. فقد كان يساورهم شعور عميق بوجوب النأي ببلادهم عن اتون الحرب المستعرة دون التفريط بسمعة بلادهم أو الاخلال بموقف حيادها المشرف.

الا ان الحرب امتد اوارها الى يوغسلافيا وكما علمنا فيما بعد فان خطط هتلر لغزو روسيا تطلبت التعجيل باجتياح البلقان قبل المباشرة بالاعمال العدوانية ضد الاتحاد السوفيتي. واستغربنا كثيرا في تلك الفترة لتدهور العلاقات الالمانية الروسية بصورة مضطردة. فقد استفسر مني السفير السوفيتي فينوغراف يوم ١ نيسان ١٩٤١ عن معنى اعلاننا التعهد بالدفاع عن السواحل الرومانية والبلغارية على البحر الاسود ازاء أي تدخل خارجي.

واستطعت ان أجيبه بأن هذا ربما يعتبر تحذيرا للاسطول البريطاني . لكنني خابرت الوزير فون ريبنتروپ باليوم نفسه وافهمته بأن الروس اعتبروا تحذيرنا هذا موجها ضدهم.

عندما اوشكت حملتنــا على يوغسلافيا على الانتهاء وسقطت بلغراد بأيدينا استدعاني هتلر الى مقره فوصلت الى هناك يوم ١٨ نيسان ١٩٤١ فوجدت بوريس ملك بلغاريا مع هتلر في قطاره الخاص على مقربة من مونيخ كرشن. وكانت القوات البلغارية قد ساهمت مع القوات الالمانية في اجتياح اراضي يوغسلافيا تسديدا لثأر قديم بينهما يرقى الى ايام الحرب العالمية الاولى . والآن جاء الملك البلغاري يحمل طلباته لهتلر . وكنا على استعداد لتلبية أية طلبات معقولة ولكن دون الاضرار بمصــالح اليونان او تركيا. وكانت المطالبة الرئيسة للملك هي الحصول على اقليم مقدونيا مع مقاطعة أخرى صغيرة على بحيرة اوخريدا وكنت أعلم ان هذا يمس مصالح الكونت شيانو الشخصيــة لأنه كانت لديه املاك جيدة هناك. ثم ان ملك بلغاريا طالب بمنفذ لبلاده على بحر ايجة وكان يقصد استعادة ميناء ديديغاتشي الذي استحوذت عليه اليونان بالقوة في عام ١٩١٨ وحرمت بلغاريا منه. كما ان الملك طــالب أخيرا باقليم سلانيك فقلت لهتلر انني أعتبر هذا الطلب غير ممكن. لأنني لا اتصور امكانية وجود اليونان بدون اقليم سلانيك. وكان ان أدت هذه المطالبــات الى سلسلة من الصعوبات الجديدة مع حلفائنــا البلغار دون ان نجد لها حلا ناجعا . ولعل اصعب ما طالب به ملك بلغاريا هو اعادة فتح الممر البلغاري بين بلغاريا وتركيا والذي حرمت منه بلغاريا بعد الحرب العالمية الاولى لأن الاتراك خسروا بذلك الممر اهم قلعة بحرية لهم في تراقيا الشرقية وهي قلعة ادرنة لأن تحصيناتهم اصبحت بدون تلك القلعة عديمة الاهمية . كما ان وجود ذلك الممر يؤثر على المواصلات البرية الدولية حيث يمر خط سكة الحديد الوحيد الذي يربط تركيا باوربا من ذلك الممر الضيق وعليه فقد اقترحت جعل خط سكة حديد ادرنة ــ صوفيا الذي يمر من الاراضي اليونانية تحت الادارة التركية.

وكانت حصيلة تنفيذ مقترحي المذكور ان سر له الاتراك غاية السرور بينما غضب الملك بوريس لأنه شعر بحيف كبير اصاب بلاده المحالفة لألمانيا ولم يتفهم مراعاتنـا لتركيا التي اعتبرها دولة حليفة لاعدائنـا وقد بذلت جهودا مضاعفة لاقناع الملك بأن ما يعتبر متعذرا الآن يمكن ادراكه بعد تطور الاحداث وان عليه التذرع بالصبر الى ان نحقق النصر المأمول وعندئذ ستحوز بلغاريا مكانتها المرموقة في بلاد البلقان.

أما تركيا فكانت تحاول جاهدة لجعل نفسها قوة اوربية لا يستهـان بها. ووجدت ان بالامكان ادامة التفاهم معهم بالتأكيد على تحالفنا السابق معهم ابان الحرب العالمية الأولى وتناسي الصراعات التأريخية القديمة معهم من أجل ضمان تحقيق السلام في جنوب شرق اوربا. وقد انتقد الملك بوريس سياستي زاعما اننا يجب ان نعامل اصدقائنا الاتراك بأقصى درجات الشك واجبارهم على توقيع اتفاقية سلمية معنا. لا سيما وان الانكليز دأبوا على محاولة شن تعرض واسع ضد اوربا بالاندفاع من الاراضي التركية.

تفهمت تماما مدى حراجة موقف الملك بوريس ازاء الاتحاد السوفيتي مع الالتفات الى حقيقة مهمة هي تأثر الشعب البلغاري بوشائج النسب السلافي الذي يربطه مع الشعب الروسي برباط وثيق. وعليه فقد حافظ الملك على علاقة متينة مع روسيا رغم ارتباطه بالحلف الثلاثي مع المحور وخوضه الحرب ضد يوغسلافيا. وكانت البعثة الدبلوماسية السوفيتية الكبيرة في صوفيا ــ والتي بقيت فيها حتى عام ١٩٤٤ ــ شوكة في عين هتلر . وقد كانت بطبيعة الحال مركزا مهما لجمع المعلومات لصالح موسكو وعليه فقد كرر محاولاته لاغلاقها لكنني طالما نصحته بالكف عن مثل هذه المحاولات لأنها تمس مشاعر حلفائنا البلغار في الصميم.

سافرت من مقر الزعيم الى برلين لأن رغبتي بالعودة الى انقرة لم تتحقق بسبب رغبة الوزير فون ريبنتروب في بحث عدة مسائل معي. وكانت اشدها الحاحا مسألة حرصنا على الاستمرار في استيراد معدن الكروم من تركيا. ولو كنا قد اشترينا مقـادير وفيرة من هذه المادة في وقت مبكر لما جعلنـا

للانكليز امكانية الاشتراط في الاتفاقية التي عقدوها مع تركيا لايقاف تصدير الكروم الى المانيا • لكن هذا التحديد لم يبق نافذا عندما استطعنا الاستمرار على الشراء من تركيا في مطلع سنة ١٩٤٢ وكانت جهودي المتواصلة في التصدي لمقاومة الانكليز لهذه الصفقات من المشاكل قد تطلبت بذل كل ما لدي من قوة لأنني كنت أعلم بعدم وجود أي مصدر آخر لنا يمكن ان نحصل منه على تلك المادة المهمة لمواصلة التسلح• والمؤسف اننا تعرضنا لهذه الازمة المزعجة بسبب عدم كفاية جهاز الاستيراد الالماني الذي أدى الى تقويض علاقاتنا التجارية العريقة مع تركيا•

وهكذا وجب علي أن أحاول ايجاد بداية جديدة لانشاء قواعد تجارية تلائم مصلحة تركيا • واستطعت التوصل الى عقد اتفاقية حزيران التي ضمنت بها الاستمرار على استيراد الكروم من تركيا حتى صيف ١٩٤٤ عندما استطاع الحلفاء التأثير على تركيا بعد تغير الموقف الحربي واجبار حكومتها على ايقاف تصدير الكروم الى المانيا•

عندما رجعت الى انقرة بعد غيبتي الطويلة وجدت الحالة فيها متوترة لأن مختلف الاوساط السياسية حسبت لغيابي الف حساب وكان أهم الاسئلة المطروحة يتعلق باحتمال الضغط على تركيا واجبارها على الانحياز للمحور بعد ان سيطرت المانيا على البلقان واليونان • والواقع هو ان الموقف اضحى في غاية الدقة وقد كانت الحكومة التركية شديدة القلق لتغيبي عن انقرة ولو انني تركت ابنتي لوحدها مضطرا بسبب الموقف العائلي طوال تلك الفترة•

جعلت ثورة العراق ضد بريطانيا حياتي خلال الاسابيع الثلاثة التالية بمنتهى الصعوبة • وكانت بريطانيا قد عقدت معاهدة مع العراق في عام ١٩٣٠ حصلت بموجبها على قاعدتين جويتين في البصرة والحبانية مع تسهيلات عسكرية اخرى جعلت من العراق محمية بريطانية • وفي آذار ١٩٤١ تشكلت حكومة منبثقة عن حركة التحرر العربي برئاسة رشيد عالي الكيلاني على انقاض حكومة كانت موالية للانكليز• وقد فر الوصي على العرش• فأمر

تشرشل ــ الذي خشي من ضياع منابع النفط وانابيب نقله الى البحر ــ بأرسال لواء هندي الى البصرة[٢]، وبذا أجبر حكومة رشيد عالي الكيلاني على خوض حرب لم تستكمل الاستحضار لها. وقبل ان تتاح للعراقيين فرصة التعاون مع المحور .

قامت القوات العراقية ــ بعد نزول القطعات الهندية في ميناء البصرة ــ بمهاجمة مطار الحبانية يوم ٢ مايس ١٩٤١[٣] ولكنها لم تتمكن من احتلاله واستطاع الانكليز تحشيد كل الوسائل المتاحة لهم لترجيح كفة القتال لصالحهم فأستطاعوا تحقيق ذلك في ٧ مايس ١٩٤١ .

رفض تشرشل الوساطة التركية . اما هتلر وهيئة اركان القيادة العامة للقوات المسلحة الالمانية فقد تصوروا ان الوقت قد حان لتسديد ضربة قاتلة لبريطانيا بعد ان تمكنت المانيا من تحقيق انتصارها اللامع في الحملة على اليونان وامنت التفوق الجوي في شرق البحر الابيض المتوسط. لكن فرصة المانيا الرائعة في تلك الفترة كانت بارسال قواتها المظلية الممتازة والمتفوقة لاحتلال بغداد والبصرة وقذف القوات الهندية في البحر والحصول بضربة واحدة على منابع النفط الغزيرة في الخليج العربي[٤]. لاسيما وان القائد العام للقوات الفرنسية المرابطة في سوريا كان الفريق دينتز الموالي لحكومة ڤيشي كما ان القوات الانكليزية التي كانت في فلسطين آنذاك كانت ضعيفة جدا.

---

(٢) بلغت قوة الحملة الانكليزية على العراق (١٤٨٠٠) رجل في قاطع البصرة (الفرقة الهندية ١٠) و (٧٢٩٠) رجلا في قاطع الحبانية مع اعداد وفيرة من الطائرات الحديثة . ــ المترجم ــ

(٣) تؤكد مختلف المصادر التاريخية المنصفة بان الانكليز هم الذين بدأوا العدوان على القوات العراقية يوم ٢ مايس ١٩٤١ نتيجة لتدبير مبيت وذلك تنفيذا لامر صادر عن قيادة تشرشل نفسه للفريق سمارت قائد القوات البريطانية في الحبانية . ــ المترجم ــ

(٤) زج هتلر قواته المظلية الممتازة في اكبر انزال جوي وبحري على جزيرة كريت اليونانية في مايس ١٩٤١ ومع انه حقق انتصارا باهرا في هذه الغزوة الا انه تكبد خسائر فادحة في قواته المظلية والبحرية بحيث لم يعد بمقدور تلك القوات تنفيذ اية عملية مشابهة بعدها . ــ المترجم ــ

ولكن هذه المعركة ـ معركة العراق ـ كانت مجرد البداية للصراع بين الموت والحياة بالنسبة للامبراطورية البريطانية نفسها. اذ كيف يمكن ايصال المهمات العسكرية الضرورية عبر سوريا ما لم يتم تأمين سلامة القوافل البحرية بتحقيق التفوق البحري؟ وكان الانكليز قد افلحوا في ٢٨ آذار ١٩٤١ بتسديد ضربة قاصمة للاسطول الايطالي قرب ماتا ـ پان . كما تلقت القوات البحرية الالمانية التي ساهمت في الانزال بكريت ضربة شديدة بالاضافة الى عدم توقع الالمان لأية مساعدة ايطالية في تلك المعركة.

بقي طريق تركيا البري مغلقا بوجوهنا بسبب امتناع هتلر عن قبول اعتراضاتي. وهكذا لم يكن بمقدورنا الأسراع في تقديم اية معاونة جدية للثوار العراقيين . وكانت كل المعونة الألمانية التي أمكن تدبيرها للعراق هي ارسال بضع طائرات الى الموصل يوم ١٣ مايس ١٩٤١ ولكنها لم تحقق اية نتائج تذكر . وقد كان الرائد فون بلومبرغ ابن وزير حربية المانيا السابق ممن ساهم في تلك المهمة وقد لقي مصرعه عندما أصيب بنيران العراقيين فوق بغداد خطأ[٥].

وقد تلقى اللواء الطيار فيلمي ـ الذين تم تعيينه قائدا عاما للقوات الالمانية في العراق ـ وصايا هتلر المؤرخة ٢٣ مايس ١٩٤١ المتضمنة وجوب اسناد حركة التحرر العربي[٦]. أما كيفية اسقاط المواضع الانكليزية الكائنة بين البحر الابيض المتوسط والخليج العربي بالتوفيق مع التعرض على قناة السويس فسيتم فيما بعد وهذا ما سيجري حسمه بعد بارباروسا[٧]. ومما

---

(٥) يؤكد السفير الالماني ببغداد آنذاك فريتز غروبا في مذكراته (رجال ومراكز قوى في بلاد الشرق ص ٤٠٩) بأن الرائد فون بلومبرغ قتل بمعركة جوية فوق بغداد نتيجة لاصابته برصاصة في الدماغ خرقت قمرة الطيار وهبطت طائرته من قبل طيارها بسلام وقد زعم الانكليز ان العراقيين قتلوا فون بلومبرغ خطأ والواقع هو ما يؤكده فريتز غروبا بصفته شاهد عيان للواقعة. ـ المترجم ـ

(٦) ان نص الوصايا المذكورة مبين في الملحق (٢) من كتاب (رجال ومراكز قوى في بلاد الشرق) لفريتز غروبا ترجمة فاروق الحريري . ـ المترجم ـ

(٧) هو الاسم الرمزي لعملية العدوان الالماني على الاتحاد السوفيتي التي شرع بها الجيش الالماني في ٢٢ حزيران ١٩٤١ . ـ المترجم ـ

لا شك فيه ان الماكنة الحربية الالمانية والقيادة السياسية الالمانية التي كانت على وشك تنفيذ هذه الحركة الواسعة لم يكن بمقدورها اسداء معونة جادة للعراق.

قام المبعوث الدبلوماسي الالماني في سوريا رودولف راهن بتجميع مقادير من الاسلحة الفرنسية للفرق العراقية ولكنها وصلت الى الموصل بعد فوات الأوان. كما ان الطائرات الالمانية القليلة التي ارسلت الى العراق لم تتوفر لها مقادير الوقود المصفّى الضرورية وهذه لم يكن بالامكان ايصالها الا عن طريق تركيا البري. وقد امطرني في هذه الفترة الوزير فون ريبنتروب بوابل من برقياته المتعاقبة للحصول على موافقات الاتراك بمرور مختلف المواد الضرورية للمجهود الحربي العراقي عبر تركيا. بينما رفض الاتراك هذه الطلبات بطبيعة الحال ولم يسمحوا الا بمرور البنزين لأنه لم يكن مدرجا في قوائم المواد التي يعتبرونها من المواد الحربية.

حاولت افهام فون ريبنتروب بطبيعة موقف الاتراك الدقيق في تلك المرحلة الحرجة لأنهم كانوا معرضين للتجاذب الشديد بين الحلفاء من جهة ومن المحور من الجهة الاخرى كما دأبت في تلك الفترة على الاتصال بوزير خارجية تركيا شكري سراج اوغلو.

وصل الى انقرة فجأة السيد رودولف راهن لكي يعمل على حل مشكلة نقل المواد العسكرية الى العراق عبر تركيا . وقد عبر في كتابه الذي ضمنه ذكرياته عن تلك الفترة عن غضبه لأنني تركته ينتظر مدة ساعة ونصف لانني كنت مشغولا في حفلة لممارسة رياضة التنس وواضح انه ـ رغم بقائه في الشرق مدة طويلة ـ لم يسمع بالمثل الجميل الذي يردده الاتراك والذي مفاده. « العجلة من الشيطان ».

وصلت ثورة العراق الى نهايتها في ٣٠ مايس ١٩٤١ وتقدمت القطعات الهندية من البصرة الى بغداد[٨] وفر اعضاء الحكومة العراقية مع مفتي فلسطين الأكبر الى خارج العراق كما وصلت مغامرة السيد راهن الى نهايتها عندما

(٨) احتلت بغداد قوات العدو المندفعة من الحبانية وليست تلك التي نزلت بالبصرة .
ـ المترجم ـ

اضطر على ترك سوريا بعد ان اقتربت قوات اللواء كاترو التابعة لفرنسا الحرة من مدينة دمشق من الجنوب.

فرح تشرشل الى اقصى الحدود عندما سمع بانهيار مقاومة العراق. وقد كتب في مذكراته بعدئذ:

« من المؤكد ان هتلر فقد فرصة رائعة لأنه حقق انتصارا تافها في كريت لقاء ثمن باهظ » .

وانتقد هتلر لأنه لم يستخدم قوات مظلييه المدربة والمجهزة بأحسن المستويات لاحتلال حوض الفرات وانما هاجم بهم جزيرة كريت العديمة الاهمية والتي كلفه احتلالها ثمنا غاليا . ألا انني اتصور بأن هذا الرأي كان مغلوطا لأن هتلر ما كان بمقدوره القضاء المبرم على الامبراطورية البريطانية بعد تنفيذ عملية جريئة في منطقة الخليج العربي.

تحدثت بعد عودتي الى انقرة مع كل من رئيس جمهورية تركيا ووزير خارجيتها وناشدتهما التوسط لانهاء النزاع العراقي ـ الانكليزي لأننا ليس من مصلحتنا توسيع نطاق الحرب في منطقة الشرق الاوسط بذلك الاتجاه. وقد اخبرني الرئيس عصمة اينونو بأنه على اتم استعداد للتوسط بهذا الشأن اذا اعتقدت الحكومة الالمانية بأن هذه المساعي يمكن ان تؤدي إلى نتيجة سلمية . ومن الطبيعي ان انهاء الحرب العراقية ـ الانكليزية كان من مصلحة الجمهورية التركية لاسيما وان الجيوش الالمانية كانت ترابط على مقربة من حدود تركيا الشمالية وحدودها الغربية بينما لم يكن للانكليز ثمة امل في التصدي للقوات الالمانية في جنوب شرق اوربا. وكان من رأي الرئيس اينونو ان المانيا يمكنها كسب الحرب ضد بريطانيا في حالة تحقيق النجاح في حركة حاسمة . اما انا فكنت متشائما من تنفيذ عملية «باربروسا» وكنت انتظر نشوب معارك جديدة في ليبيا . ولم يكن من الصواب مباحثة وزارة الخارجية الالمانية بأية محاولة سلمية. ذلك لأن الوزير فون ريبنتروپ كان قد اصدر الكثير من التوجيهات الرسمية المشددة بالامتناع عن أية محاولة للقيام بمحادثات سلمية . وانه سبق ان قال لي

برلين:

« يبدو أنك لم تقتنع بعد بأننا كسبنا هذه الحرب يا سيد فون پاپن »٠
فأجبته بأنني لم اقتنع بعد طالما ان الحرب لا زالت قائمة٠

في هذه الاثناء هبط رودولف هيس بطائرته بصورة مفاجئة على الارض الانكليزية بمبادرة فردية منه لتحقيق السلام على طريقته الخاصة مع بريطانيا وكانت تلك الفضيحة مثار استهزاء كلا من هتلر وتشرشل على حد سواء٠ وأرى ان من المناسب القاء الضوء التأريخي على تلك الواقعة بملحوظات قليلة لابد منها٠ فأول الدلائل المستخلصة من تلك الحادثة هي ان الانكليز حصلوا على أول ايمائة مؤكدة على وجود انشقاق خطير في صفوف زمرة هتلر المقربة منه ٠

فقام تشرشل باخبار الرئيس الامريكي فرانكلين روزڤلت في ١٧ مايس ١٩٤١ بحادثة طيران رودولف هيس الى بريطانيا ٠

ولكن تشرشل اكد في مذكراته بأن هيس حذر الانكليز من الخط المحدق بأوربا في حالة اقدام هتلر على مهاجمة الاتحاد السوڤيتي٠

أما من وجهة نظر الدعاية التي لجأ اليها الانكليز بعد الحادثة فكانت كما يلي:

هبط رودولف هيس من السماء بصورة مفاجئة وعندما حطت طائرته على الارض الانكليزية استدعي لمقابلته سير ايڤون كيرك پاتريك الذي كان مسؤولا عن توجيه الاذاعة البريطانية ضد المانيا لأنه سبق له الاشتغال بمنصب امين سر السفارة البريطانية ببرلين خلال الفترة ١٩٣١ــ١٩٣٩ وهو على معرفة وثيقة بحقائق الامور في المانيا ٠ وقد اوضح رودولف هيس في اول الامر مكانته في الدولة الالمانية ثم أشار الى انه من الواجب على بريطانيا أن تبذل كل ما بوسعها وبصورة مباشرة لمنع هتلر من شن هجومه الوشيك على الاراضي الروسية ٠ ذلك لأن اندحار هتلر على ايدي الروس من شأنه تفشي الشيوعية في اوربا ثم وصل الى السبب الذي حدى به للقيام بمغامرته

حيث قال ان على كل من المانيا وبريطانيا التوصل الى تفاهم سريع في سبيل الحفاظ على قارة اوربا . وقد اخبرني من اثق به بأن تشرشل لم يهمل مزاعم هيس لكنه وجد نفسه ازاء نقطة تحول جدية في مسار الحرب الناشبة الا ان سير ايفون كيرك پاتريك اعتبر القضية كلها العوبة مدبرة بأتقان وان هتلر يرمي من ورائها تصديق الانكليز لأقصوصة هيس بينما تعتبر بريطانيا هجوم هتلر على روسيا فرصة رائعة للقضاء على المانيا وانهاء اسطورة الأمة الالمانية المتفوقة.

وقد ذكر تشرشل فيما بعد بأن ستالين قد سر كثيرا لحادثة طيران هيس بعد ان علم تفاصيل افشائه لسر هتلر ولم يصدق في حينه ابدا مزاعم تشرشل واجابته السلبية على عروض هيس.

بذلت جهودي خلال اسابيع عديدة وبعلم من برلين في سبيل المضي نحو خطوة عملية جديدة الغرض منها تقوية اواصر العلاقات الالمانية ـ التركية وتحويل العلاقات القائمة من اتفاقية عدم الاعتداء الى اتفاقية حياد حقيقي وصداقة متينة . وقد اقترحت هذه الفكرة على كل من السيدين شكري سراج اوغلو ونعمان مينمنجي اوغلو وكان ان ايدا فكرة عقد الاتفاقية المقترحة.

ولم يكن فون ريبنتروپ متحمسا للفكرة بطبيعة الحال حيث دأب على مطالبتي بالضغط على الاتراك بالامتناع عن منح الانكليز اية ضمانات مشابهة هذا والا ينبغي علي عدم ابرام اية اتفاقية مع تركيا . لكنني جعلته لا يشك قيد أنملة بأن الاتراك يولون اخلاصا تاما لحلفائهم وانهم يخبرون السفير البريطاني في انقرة بكل مراحل مفاوضاتنا معهم . ولما عاد فون ريبنتروپ الى الايصاء بعدم عقد الاتفاقية المطلوبة مع تركيا في حالة عدم تعهدها بعدم عقد اية اتفاقية مشابهة مع الطرف الآخر. فأضطررت عندئذ على مخابرته هاتفيا واخباره بأن الاتراك (سادة) وان من شمائل (السادة) احترام التزاماتهم الدولية وعندها تراجع فون ريبنتروپ عن عناده وتوصلنا الى توقيع الاتفاقية التالية مع تركيا في ١٨ حزيران ١٩٤١:

« ان الدولة الالمانية وجمهورية تركيا رغبة منهما في وضع الاسس المتينة للصداقة القائمة بينهما اتفقتا على توقيع هذه الاتفاقية التي تتضمن ما يلي:

المادة الاولى – تتعهد الدولة الالمانية وجمهورية تركيا بالاحترام المتبادل وعدم الاضرار بمصالح كل منهما من قبل الاخرى والامتناع عن مهاجمة أي منهما للاخرى وعدم اشتراك أي منهما في اتفاق او معاهدة من شأنها الحاق الأذى بالاخرى سواء بطريقة مباشرة او غير مباشرة.

المادة الثانية – تتعهد الدولة الالمانية وجمهورية تركيا بمعالجة جميع القضايا المشتركة بينهما في المستقبل بروح الصداقة والتوصل الى تفاهم تام بشأنها عن طريق الاتصال المباشر بين الدولتين.

المادة الثالثة – تكون هذه الاتفاقية نافذة المفعول اعتبارا من يوم توقيعها وهي تسري لمدة عشرة اعوام...

وكانت المفاجأة عامة لأن المفاوضات تمت بكل ثقة واخلاص وقد أحيطت السفارة البريطانية في انقرة علما بعقد هذه الاتفاقية . كما اكد لي اصدقائي الاتراك بأن علاقات الصداقة القديمة القائمة بين بلدينا هي الضمان الاساس لازدهار علاقاتنا المقبلة .

وقد كتب زميلي السفير الانكليزي في انقرة سير هيوغ بشأن الاتفاقية المعقودة مع تركيا:

« لقد كانت فكرة غير مريحة بالمرة . وواضح ان الترك تعرضوا الى ضغط شديد حيث لم يكن ما يبرر لعقد اتفاقية الصداقة المبرمة مع المانيا ».

ولكن هل كان من اللياقة بشيء بالنسبة للدبلوماسي جيد ان يمس شعور الاتراك كما فعل السفير المذكور عندما عقد مؤتمرا صحفيا مساء يوم ١٨ حزيران ١٩٤١ قال فيه للصحفيين بأن الاتفاقية المعقودة بين المانيا وتركيا لا قيمة لها وانها لا تدل ابدا على فشل السياسة البريطانية.

وفي ٢٥ حزيران ١٩٤١ قال السيد شكري سراج اوغلو امام التجمع الوطني التركي:

« ان العمل الذي حققناه ونحن محاطون بالحرائق والدمار والانهيارات الناتجة عن الحرب كان عملا جميلا ومحظوظا يحقق السلام للشعب الالماني وللشعب التركي بل ولجميع ابناء الانسانية.

ويلاحظ من الاطلاع على متن الاتفاقية ان المساواة بين الطرفين المتفقين يدل على اخلاصهما المتبادل . وأجد من واجبي ان اتقدم بالشكر الجزيل لرجال الدولة الالمانية امام هذا التجمع لأنهم اتاحوا لنا الفرصة لتوطيد علاقاتنا واكدوا صداقة بلادهم لنا ومنحونا الكلمة المخلصة وساهموا معنا في بناء صرح الصداقة الالمانية التركية العتيدة » بعد ستة ايام من ذلك التأريخ وفي الصباح الباكر من يوم ٢٢ حزيران ١٩٤١ اجتازت القطعات الالمانية حدود الاتحاد السوفيتي من ساحل بحر البلطيق الى سواحل البحر الاسود . ولم نكن نحن على بينة من ذلك الامر بطبيعة الحال . وسرعان ما تواترت الانباء عن النتائج الاولية لتلك الحملة الكبرى.

والذي حصل بالنسبة لي هو انني فوجئت بالواقعة كما فوجيء الرسميون الاتراك عندما اوقظت من نومي في الهزيع الأخير من ليلة اليوم المذكور لأستلم برقية من فون ريبنتروپ تتضمن وجوب اخبار الحكومة التركية فورا بالأسباب التي حدت بالمانيا لتنفيذ غزونها الجديدة مع العلم بأن وزارة الخارجية الالمانية جعلت بعثاتها الدبلوماسية في جهل مطبق بشأن خطط هتلر.

وجدت السيد شكري سراج اوغلو في غاية القلق لأن رجال الدولة الاتراك كانوا يخشون من حصول نزاع مسلح بين المانيا والاتحاد السوفيتي قد يمتد الى المضائق وكان هذا الهاجس شغلهم الشاغل كلما تلبد الجو السياسي بالغيوم الخطرة . وقد عبر السيد سراج اوغلو عن شدة تأثره بالواقعة عندما قال لي:

« هذه ليست حرب . انها غزوة صليبية ».

أما السيد نعمان مينمنجي اوغلو فلم يكتم اعجابه بألمانيا عندما قال بأننا اصبحنا اقوى العناصر المؤثرة في ميزان السياسة الاوربية . والواقع

هو اننا اجمعنا على ان قرار هتلر هذا لابد ان يتمخض عن نتائج لا يمكن التكهن بها سلفاء وقد بادرت دون ان اتلقى من برلين اية توجيهات وبتأثير الغزوة المباغتة الى التوجه باقتراح للسيد سراج اوغلو ليكلف السفير البريطاني بمهمة الاستفسار من رئيس وزراء بريطانيا عما اذا كان الوقت قد حان لدفن كل الضغائن القائمة بين الاقطار الاوربية ووضع حد للتقاتل فيما بينها انقاذا لحضارة بلاد الغرب •

وقد عجل السيد سراج اوغلو بمحاولة اللقاء بالسفير الانكليزي سير هيوغ لكي يطرح عليه فكرتي الا ان السفير المذكور كان يقوم بنزهة بحرية بيخته الخاص في بحر مرمرة ولم يكن بالامكان الألتقاء به الا بعد عودته • ولما التقى به في الايام التالية وأوجز له وجهة نظري تعهد تشرشل نفسه بالاجابة على المقترح على امواج الاثير عندما وجه نداءً للعالم قال فيه:

« ان النظام النازي لا يمكن مقارنته بأي شكل مع أسوأ مساويء الشيوعية ••• فالنازية تجسد كل اشكال مساويء البشر المتمثلة بقسوتها ووحشية عدوانها ••• وان لدينا هدف واحد فقط ورغبة وحيدة لا سبيل للمحيد عنها الا وهي القضاء على هتلر وعلى كل أثر للنظام النازي••• »

ان الحلف الذي عقد بين بريطانيا وروسيا في ١٢ تموز ١٩٤١ كان رد الفعل الاول بطبيعة الحال على حرب هتلر الجديدة • الا ان تشرشل اوضح معالم نواياه في خطاباته التي القاها بمؤتمرات طهران وبوتسدام[٩] التي

(٩) عقد مؤتمر طهران خلال الفترة ٢٨ تشرين الثاني — ١ كانون الاول ١٩٤٣ وحضره روزفلت وتشرشل وستالين وكانت اهم قراراته الاتفاق على توسع بولندا بعد الحرب على حساب الاراضي الالمانية وفيه أخبر ستالين بخطة (اوفر لورد) وهي خطة الحلفاء الغربيين التي تحورت بعدئذ ونجم عنها غزو نورماندي في ٦ حزيران ١٩٤٤ وعقد مؤتمر يالطا (وهي مدينة روسية تقع على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة القرم) خلال الفترة ٤—١١ كانون الثاني ١٩٤٥ وحضره روزفلت وتشرشل وستالين وفيه تقرر اقتسام المانيا وكذلك تقسيم برلين وقد حصل الاتحاد السوفيتي في هذا المؤتمر على النصف الجنوبي من جزيرة سخالين بشرط قيامه باعلان الحرب على اليابان بعد سقوط المانيا مباشرة وعقد مؤتمر بوتسدام بعد سقوط المانيا في مدينة بوتسدام ضاحية برلين وموئل العسكرية البروسية العريقة خلال الفترة ١٧ تموز — ٢ آب ١٩٤٥ وحضره هاري ترومان (بعد وفاة الرئيس فرانكلين روزفلت) وتشرشل وستالين وفيه تم اقتسام اوربا بين المنتصرين وتحدد مصير المانيا المحتلة واخبر ستالين رسميا باختراع القنبلة الذرية . — المترجم —

تمخضت عنها الصورة السياسية الحالية لاوربا • وكان السيد شكري سراج اوغلو قد ذكر في خطابه الملمع عنه آنفا امام التجمع الوطني التركي بأن الاتفاقية التي عقدتها مع تركيا لم تكن موجهة ضد روسيا بأية حال من الاحوال وانها كانت اتفاقية صداقة تحقق لتركيا السلام •

وفي هذه الاثناء تدهورت العلاقات الانكليزية ـ التركية حتى وصلت الى الحضيض وفي ١٧ تموز ١٩٤١ وصل الى انقرة السيد شولنبورغ مع هيئة ركنه وقد حدثني عن شكوكه باحتمـال تحقيق هتلر للنجاح المأمول من الحرب ضد الاتحاد السوفيتي•

وفي ايلول ١٩٤١ قطعت ايران[١٠] علاقاتها الدبلوماسية معنا تحت ضغط انكليزي روسي• وكان مبعوثنا الدبلوماسي في طهران نازيا معروفا وسبق ان كان مسؤولا عن تنظيـم النشـاط النازي في ايطاليا باشراف الوزير فون ريبنتروب• وكان اوضح لأحد افراد سفارتي اسرار النجاح الدبلوماسي عند التعامل مع هتلر حيث قال له ان التقـارير التي ترفع للزعيم مباشرة تحظى باهتمامه دوما • كما ان هتلر يستفسر عادة عن صفة كل تقرير وهل هو سلبي أم ايجـابي• فاذا كان سلبيا اودع في خزانات الوثائق دون ان يقرأ واذا كان ايجابيا قرأه بكل اهتمام•

زارني بمقر السفارة الصيفي أمير البحر كاناريس الذي بثني الكثير من معاناته •

وأنا اعرف كاناريس منذ اكثر من ثلاثين عاما حيث دأب على اسداء الكثير من المعاونة لي خلال ازماتي مع النازيين كما في حالتي اغتيال فون بوسه وفون كيتيلر وكنت اتصـوره من الخصـوم الالـداء لطرق هملر وهايدريش • وقد حصل ما كنت اتوقعه عندما اصطدم جهازه السري مع الشرطة السرية للدولة وكان ان وصل الصراع بين تينك المنظمتين في تركيا

(١٠) كانت روسيا وبريطانيا تحتلان ايران بقواتهمـا المسلحة حيث هاجمتها قواتهما يوم ٢٥ آب ١٩٤١ واستسلمت القوات الايرانية في ٢٩ آب ١٩٤١ فنفي رضا شاه بهلوي الى جنوب افريقيا ونصب ولده محمد بدلا عنه .
ـ المترجم ـ

الى عدم تورع احداهما عن الوشاية بالأخرى لدى دوائر الشرطة التركية بينما بقي كاناريس عاجزا عن التدخل ووضع حد لهذه المهزلة. وقد وجدت في كاناريس وطنيا غيورا تصدى للنظام النازي دون ان يحاول التسبب في اندحار بلاده. ولقد كان كاناريس راضيا جدا من فعاليات الملحق العسكري الالماني بأنقرة لأن التقارير التي كان يرسلها الى برلين كانت واقعية ومفيدة بدرجة تفوق تقارير الملحقين العسكريين في العواصم الاخرى وبخاصة اولئك العاملين في الاقطار المحايدة. وكان ملحقنا العسكري في انقرة من المتشككين في عاقبة الحرب ضد الاتحاد السوفيتي شأنه في ذلك شأن العسكريين المجربين الآخرين.

تعاونا في هذه الفترة مع الاتراك لارسال معونة غذائية عاجلة الى اليونان للتغلب على حالة المجاعة التي تعرضت لها بلاد الاغريق . ويطيب لي هنا ان اعترف بجميل الاتراك الاماجد الذين اسدوا تلك المساعدة الانسانية المشكورة لليونانيين المساكين . وفي هذه الاثناء ساعدت الكاهن رونكالي ممثل الفاتيكان في اسطنبول على السفر الى اليونان لرعاية مصالح الكاثوليك في اليونان خلال تلك الازمة.

اضطررت على السفر الى برلين في أيلول ١٩٤١ على الرغم من كوني شبه مريض آنذاك فرافقتني زوجتي ورئيس اطباء المستشفى الالماني الاستاذ الدكتور كوينكه وبعد ان انجزت مهمتي ببرلين حاولت زيارة هتلر بمقره في بروسيا الشرقية[١١] وقد رجاني عدة اشخاص ان اصارحه بالانطباع السيء الذي نتج عن مهاجمتــه لروسيا . ولما ذهبت الى ذلك المقر صحبني السيد لاميرز ولم يكن من الصعب على مباحثة هتلر بشأن الموقف الحرج الذي وضع به نفسه وبلاده عندما هاجم الاتحاد السوفيتي. وكان ان اصغى هتلر لأقوالي بكل اهتمام ثم انحى كعادته باللائمة على النازيين المتطرفين الذين زينوا له هذه الحملة وركز انتقاده هذه المرة على معاونه مارتن بورمان الذي وصمه (بهذا الماجن) ولما ودعت هتلر صحبني السيد لاميرز ايضا.

---

(١١) كان هذا المقر في راستنبورغ ببروسيا الشرقية. — المترجم —

قابلت ولدي قبل عودتي الى انقرة وكان مشغولا بتصليح دبابته التي أعطبت خلال الحملة على يوغسلافيا حيث اخبرني بأنه سيشترك مع مجموعة الجيوش الهاجمة على موسكو. وكانت الحرب ضد الاتحاد السوفيتي قد كلفتني خسارة احد ابرز أعواني الاكفاء وأعني به البارون فون مينسنغن نائب القنصل العام في اسطنبول حيث استدعي للقتال ضمن سرب ريختهوفن[١٢] ولما اشترك بالقتال الجوي اسقطت طائرته.

لم تمر علي تلك السفرة الى برلين دون نزاع جديد مع وزير الخارجية فون ريبنتروپ ذلك لأن برلين كانت تعرف مفتاح الجفر للسفارات المعادية والسفارات المحايدة في انقرة وكان هذا في غير صالحي او صالح زملائي الآخرين لأننا ما ان تتحدث بأي موضوع مع أي فرد من رجال السلك الدبلوماسي الا وتصل نسخة من التقرير الذي يشير للمحادثة (مهما كانت لغة ذلك التقرير) في صباح اليوم التالي الى مكتب الوزير فون ريبنتروپ. وقد قال لي فون ريبنتروپ نفسه ذلك فأقترحت عليه التقدم بنصيحة للايطاليين كي يبدلوا نظام الجفرة المتبع لديهم خشية تمكن الانكليز من كسرها وفضح اسرارهم الا ان فون ريبنتروپ رفض ذلك المقترح وكان من رأيه مواصلة الاطلاع خلسة على ما يفكر به زعماء حليفتنا . اما متابعة الانكليز لنشاط الاسطول الايطالي وتأثيرهم بالتالي على سير العمليات التي تشترك بها القوات الالمانية في شمال افريقيا واحباطهم لخطط التموين الحيوية لقواتنا هناك فهذه كلها اقل اهمية في نظر فون ريبنتروپ من تجسسه على صديقه الكونت شيانو واستشفاف مقاصد الأخير ومعرفة طريقة تفكيره لأنه لم يقدر ما تكلفه هذه الوسيلة الخبيثة من ضحايا وأرواح الجنود الشجعان الذين يقاتلون في سبيل الوطن.

---

(١٢) كان سرب ريختهوفن سربا تراثيا متميزا منذ الحرب العالمية الاولى ولما قتل قائده البارون فون ريختهوفن عين النقيب (المشير بعدئذ) هرمان غورنغ قائدا للسرب وقد أعاد الالمان تشكيله قبل الحرب العالمية الثانية حيث برز منه طيارين مقاتلين متفوقين على اقرانهم . ــ المترجم ــ

وفي ٢٦ أيلول ١٩٤١ وصلتني البرقية التالية التي لا تدل على الصعوبات التي صادفتها في تعاملي مع فون ريبنتروب وانما تعطى فكرة واضحة عن تفكيره وقابليته كوزير للخارجية:

أشار السفير خسرو غيريده[١٣] في تقريره الصادر هذا اليوم الى محادثة اجراها معكم واتسمت بالسرية التامة . وقد وردت في هذا التقرير بعض التفاصيل العسكرية كتقدير حجم القوات الروسية التي في شبه جزيرة القرم بين فرقة ونصف وفرقتين وهي قوة يسهل علينا ابادتها والاندفاع نحو مراكز الصناعة الروسية والتقدم لأحتلال موسكو في تشرين الاول ١٩٤١ ثم ان التقرير المذكور للسيد غيريده اشار ايضا الى ان قضاء الجيش الالماني على القوات المسلحة السوڤيتية سيفسح لالمانيا مجال التوصل الى حل سلمي مع الدول الغربية.

ومما لا شك فيه ان تقرير غيريده هذا لابد ان يتسرب من الاتراك الى الانكليز ومن ثم الى الروس ايضا.

ولابد ان اعدائنا سيستفيدوا من هذه المعلومات العسكرية وكما سبق ان قلت لكم شفويا هنا فان أية محاولة سلمية تتقدم بها المانيا لابد ان تنطوي على اشارة تدل على الضعف وعليه فانني ارجوكم الحذر من التطرق للمواضيع المتعلقة بالحركات العسكرية في الاحاديث التي تتم في انقرة لأنها تصل الى مقرنا هذا اولا بأول وذلك حرصا منا على عدم تسربها للعدو . ثم ان الجيش الروسى قد ابيد القسم الاكبر من قواته وسيتم القضاء على البقية الباقية منه خلال هذا العام بالوسائل التقليدية والعلمية . وباستيلاء القوات الالمانية على مصادر الحبوب والمواد الخام والمناطق الصناعية فان المانيا قد حققت الانتصار على روسيا في هذه الحملة . واننا على استعداد لمواصلة الحرب لثلاثين سنة أخرى ضد بريطانيا اذا كانت لها الرغبة في الاستمرار على القتال.

وان ما جاء في تقرير غيريده بشأن امكانية تحقيق السلام لا يخدم

---

(١٣) هو السفير التركي في برلين آنذاك . — المترجم —

مصلحة المانيا بشيء بالاضافة الى كونه مخالفا لسياستها أضف الى ذلك ان توسط الاتراك لدى الانكليز بهذا الشأن يجعلهم يتشككون بمدى جديتنا في طلب السلام بعد انهيار مقاومة الروس • وسيتردد الانكليز كما سبق ان ذكرت لكم شفويا وعندئذ يجب علينا ان نتصرف وفق الروحية الانكليزية التي تميل الى خوض حرب طويلة الامد •

وعندما يدرك الانكليز بعد انهيار روسيا اننا لا نفكر ابدا بالسلام وانما سنكون على استعداد لمواصلة الحرب ضد بريطانيا (اعتمادا على قاعدتنا الصناعية وبلادنا الكبرى) لسنين عديدة وعند الاقتضاء ضدالولايات المتحدة الامريكية ايضا فلربما ستتنامى لدى الشعب البريطاني الرغبة في اقرار السلام وسنتوقع من بريطانيا نفسها ان تتقدم نحونا برجاء لاقرار السلام• وانني اكرر هنا رجائي لكم للالتزام بما قلته لكم شفويا بهذا الصدد • واؤكد لكم بأننا سوف لن نخطو الخطوة الاولى نحو السلام قط• وعليه فان السياسة السديدة الوحيدة تتمثل بالاستمرار على مواصلة الحرب حتى يتقدم الانكليز نحونا برجاء السلام وهكذا ينبغي الكف عن اجراء أية مناقشة بهذا الشأن•

توقيع فون ريبنتروپ

وقد جرت لي حادثة اخرى مع فون ريبنتروپ نتيجة لاجرائي مقابلة مع الصحفي الاسپاني ماسوليڤر• وكان هذا صحفيا نابها وممثلا لصحيفة (ڤانغارديا) وقد تحدث الي بشأن الموقف الحربي وامكانات السلام• وكان ان أخبرته بامكانات تحقيق السلام خلافا لأمر الوزير فون ريبنتروپ وقد ابرق ماسوليڤر بتقريره الصحفي من فندقه بأنقرة فتلقاه الصحفي الامريكي راي بروك واذاعه بالراديو ــ بشكل محرف بطبيعة الحال ــ مما اثار علي حفيظة فون ريبنتروپ مجددا فأرسل لي برقية صب فيها جام غضبه•

ولا اود هنا التطرق الى الكارثة التي اصيب بها الجيش الالماني على ابواب موسكو الا ان نتيجتها المباشرة كانت اقالة المشير فون براوختش وتولي هتلر مهمة القيادة العليا بصورة فعلية • وقد أدت معركة موسكو الى

اصابة ولدي بجرح بليغ. ثم ما لبث العالم كله ان سمع في ٧ كانون الأول ١٩٤١ بمهاجمة اسراب الطائرات اليابانية وبصورة مباغتة ميناء بيرل هاربر واغراقها القسم الاكبر من الاسطول الامريكي في المحيط الهادي . وواضح ان الزعماء اليابانيين لم يقدروا مدى حراجة الموقف الذي جروا اليه حلفائهم الالمان في تلك الفترة الدقيقة . ومن نافلة القول التأكيد هنا بأن هتلر وجد هذه الفرصة مبررا لأقدامه بعد اربعة ايام من ذلك التأريخ على اعلان الحرب على الولايات المتحدة الامريكية . وهكذا وجد العالم الجديد نفسه مجبرا على خوض الحرب العالمية الثانية.

وقد رجعت بخاطري في تلك الايام الى سنة ١٩١٦ عندما حاولت اسداء النصح للقيصر غليوم الثاني لتجنب خوض الحرب ضد الولايات المتحدة الامريكية مهما كانت الاسباب وها هو التأريخ يعيد نفسه . وقد كنا تتصور آنذاك ما اصبح حقيقة مؤكدة اليوم بأن روزفلت لم يكن قادرا على استدراج بلاده لخوض الحرب لو لم يقدم اليابانيون على فعلتهم. واليوم يدرك الجميع بأن هذا التطور قد اثلج صدور الانكليز وابتهج له تشرشل قائلا:

« لقد كسبنا الحرب. وستبقى بريطانيا العظمى على قيد الحياة. ولم ينته تأريخنا ... فقد تحدد مصير هتلر ... »

ولم يتفهم أحد تطورات الموقف بهذا الشكل الرهيب بصورة تفوق تفهم رجال الدولة الاتراك . حيث كتب لي السيد نعمان مينمنجي اوغلو في بطاقة التهنئة بعيد رأس السنة يوم ٣١ كانون الاول ١٩٤١:

« ان هذا الشتاء القاسي يجعلني آمل ان يكون سببا لانهاء المذبحة الرهيبة الدائرة . وانني اعتبركم من طليعة الرجال العاملين على ايجاد حل جذري للمعضلة التي تهدد حضارتنا ».

ولكنني تساءلت مع نفسي. هل بمقدور احد ان ينقذ الشعب الالماني من هذا النظام وتخليص الامة الالمانية واوربا كلها من ربقته ؟ هذا سؤال وجدت نفسي منهمكا في ايجاد الجواب المناسب له خلال السنوات الثلاث التالية .

الفصل التاسع والعشرون
سؤال لروزفلت

محاولة اغتيال. سنسلح تركيا. محاولات للسلام بوساطة الفاتيكان. صراع حزبي في تركيا . فشل كل مساعي المحور . حـادثة خلال الصيد . اصبح سراج اوغلو رئيساً للوزراء. ستالينفراد نقطة تحول الحرب . التهديد الروسي . « الاستسلام بدون قيد او شرط » . لقاء بين اينونو وتشرشل . محاضـرتي في اسطنبول . غضب فون ربنتروپ . حركة المقاومة الالمانية . سؤال لروزفلت . الكاردينال شپيلمان يزور تركيا . رسـائل اسـرى الحرب الألمان . استسلام ايطاليا . تجربة مع محافظين المانيين . افشاء سر خطير .

كان شتـاء ١٩٤١ ــ ١٩٤٢ قارس البرد في انقرة ايضا لدرجة يمكن اعتباره معها شتاء سيبرياً . فعلى الرغم من وقوع العاصمة التركية بارتفاع يوازي ارتفاع ناپولي عن مستوى سطح البحر وتمتع اهلها بصيف دافيء وشتاء معتدل الا ان ذلك الشتاء كان زمهريريا بشكل غير مألوف في شبه جـزيرة الاناضول.

اذ غالبا ما كانت تحدث في الصيف مع ارتفاع درجة الحرارة عواصف

رملية متجهة من الجنوب اما في الشتاء فكانت درجة الحرارة معتدلة ويتساقط الجليد فيكسو المنطقة بطبقة خفيفة • ولم تكن في المدينة وسائل تسلية كافية اذ ان فيها القليل من المسارح وصالات الموسيقى وعليه فقد تشاغل الدبلوماسيون الاجانب في الأمسيات بممارسة العاب البريدج والپوكر • وقد رأيت أن من المناسب تغيير طريقة قضاء اوقات الفراغ وقررت السفر بالسيارة الى المناطق الجبلية القريبة من انقرة — رغم برودة الطقس — لمراقبة الذئاب الجائعة في الليالي المقمرة والتي كانت تقترب من المدينة بحثا عن الطعام• وذلك لكي الهو بضع ساعات في الاسبوع بعيدا عن مزعجات العمل وأغير قليلا من نمط الحياة الرتيبة المملة•

وبينما كنت اتنقل سيرا على الاقدام — كما هي عادتي في كل يوم — من محل اقامتي ومعي زوجتي الى السفارة زهاء الساعة العاشرة في شارع (بوليڤار اتاتورك) يوم ٢٤ شباط ١٩٤٢ وكان الطريق شبـه خال من المارة القينا فجأة على الأرض بفعل انفلاق مفاجيء لقنبلة قذفت علينا• ثم هببت فورا وتأكدت مسرورا من سلامة عظامي ثم حاولت مساعدة زوجتي (التي اصابها ارتباك طفيف) على النهوض ثم صرخت بها محذرا :

« لا تخطي ولا خطوة اخرى »

لأنني تصورت بأننا مشينا على لغم • ولما القيت نظرة عجلى حول المكان لم اعثر على أي انسان قريب منا • وهكذا يبدو اننا تعرضنا للغم صغير وضعه احدهم باعتناء قبل وصولنا او نصبه أحد سكان البيوت القريبة من المكان• ولكن الحذر كان واجبا لأننا ربما تتعرض للغم آخر• وفي تلك اللحظات الحرجة صادف ان مرت بالقرب منا سيارة أجرة فطلبت من سائقها ايصالنا الى نقطة الشرطة القريبة من السفارة • ولم تكن لتسجيلنا للحادث أية اهمية لأن الانفجار أدى الى تحطم زجاج النوافذ في الأبنية المحيطة به الى مسافة عدة مئات من الامتار • وسبب تجمع عدد كبير من الفضوليين • وقد خف للموقع وبسرعة مذهلة عدد من رجال الأمن الاتراك الاكفاء حيث استعانوا بخبير تحريات سويسري كان قد وصل للبلاد قبل مدة قليلة واجريت تحريات

واسعة واجراءات شديدة منها قطع جميع الاتصالات مع الخارج بينما سرت في اسطنبول اشاعات متضاربة بشأن الحادث.

نقلنا بعدئذ للسفارة وكنت قد اصبت بجراح ادمت احدى ركبتي ومزقت السروال كما اصبت بتمزق في طبلتي الاذنين اما زوجتي فكانت بحمد الله ناجية من كل ضرر . الا ان ظهر معطفها كان ملوثا بقطرات من الدماء وقطع صغيرة من اللحم كانت من جسم المعتدي الذي اختفى وقد نال من سوء فعلته جزاء يستحقه بكل جدارة . وفي خلال ٢٤ ساعة فقط استطاعت الشرطة التركية حل الاجزاء الغامضة من اللغز.

وكانت التحريات الدقيقة في مكان الحادث قد دلت على وجود بعض المتروكات لشخص مجهول منها فردة حذاء معلقة في شجرة قريبة ثم قادت التحريات الى معرفة الفاعل وكان تلميذا يونانيا من مقدونيا التحق بالجامعة في اسطنبول واتخذ لنفسه مسكنا في فندق صغير ثم وصلت التحريات الى بناية القنصلية الروسية في اسطنبول فطوقتها الشرطة على الفور ولم تكترث لاعتراضات السفير وأصرت على التفتيش حتى تم تسليم طالب آخر كان شريكا للفاعل.

وقد ابدى رئيس الوزارة التركي شديد اهتمامه للحادث وشدد الاجراءات الرادعة حيث استمر التحقيق والمحاكمة بضعة اشهر وأراد ان يضرب المثل في صرامة الاجراءات بصرف النظر عن النتائج السياسية التي قد تترتب على ذلك لأنه حرص على عدم جعل بلاده مسرحا لحوادث الاغتيال السياسي. ولذا فقد عوقب الفاعلون بعقوبات شديدة بعد ان ثبت قيام المقدوني قبل الحادث ببضعة اسابيع بالتردد على القنصلية المذكورة وتدربه على اطلاق النار بالمسدس وكان يعلم بأنني اذهب الى السفارة حوالي الساعة العاشرة من صباح كل يوم وان الشارع يكاد يكون خاليا من المارة في ذلك الوقت وهذه فرصة مناسبة لارتكاب جريمة الاغتيال . ثم تبينت معالم الجريمة من الاستنطاق والتحقيق التفصيلي حيث كان على الطالب المذكور ان يهاجمني من الخلف ويطلق على نار مسدس من طراز (والتر) وفي حالة

مضايقته بعدئذ من قبل شخص قريب او من رجل شرطة عليه القاء قنبلة دخان بعد الضغط على نابض الاطلاق فيها ليتوارى عن الانظار . ولكن يبدو ان ذلك الطالب كان حريصا على النجاة بجلده وقد رماني بالمسدس بيده اليمنى من مسافة ست خطوات من الخلف بينما كان يحمل قنبلة الدخان بيساره حيث اراد قذفها بعد اطلاق النار مباشرة.

ولربما ضغط الجاني على نابض اطلاق القنبلة قبل الوقت المناسب بثانية او ثانيتين ولما أراد توجيه رصاصته الاولى نحو رأسي بدأت قنبلة الدخان بتشغيل آليتها فأرتبك وطاشت اطلاقته واعقبها فورا انفلاق القنبلة وهي لا تزال بيده فمزقته الى آلاف الأرب وكانت هذه طريقة مثالية لاخفاء آثار جريمة الاغتيال لأن الطالب المنكود الطالع زود بقنبلة تمحيه من الوجود بينما قيل له انها مجرد قنبلة دخان لستر اختفائه . ولشدة انفلاق تلك القنبلة وقربها منا فأن نجاتنا تعتبر معجزة الهية . وقد دلت التحريات العميقة على ان الفاعل المدبر للحادثة كان القنصل الروسي في اسطنبول الذي غادر البلاد بالقطار في وقت مبكر عن طريق ارضروم ولم تقبض عليه نقاط التحري العديدة في مناطق الحدود.

أمطرنا اصدقائنا الاتراك بوابل من التهاني بالسلامة من الأعتداء فأرسل الرئيس التركي وعقيلته لزوجتي اضمامة ورد رائعة . وأرفقا بها بطاقة تتضمن سرورهما لنجاتنا من محاولة الاغتيال على ارض بلادهما . اما رفعت باشا رفيقي القديم منذ ايام الحرب العالمية الاولى فقد اخذني بأحضانه قائلا:

« أي حظ سعيد ان يسمع المرء هدير المدافع دون ان يكون في ساحة القتال ».

وفي المساء استقبلت الوزير علي فؤاد باشا فدار الحديث حول محاولة الاغتيال اللئيمة الفاشلة . ولم تلبث ان سرت بعض الهمهمات التي تشير الى احتمال كون المحاولة من تدبير الشرطة السرية للدولة الالمانية وان القصد منها تصفيتي نهائيا لكنني رجحت كون المحاولة من تدبير السوفيت لأن

محاولاتي في تلك الفترة تركزت على ممارسة سياسة من شأنها الحفاظ على حياد تركيا بقصد منع السوفيت من اجتيــاز المضائق التركية وهكذا كان لمحاولة اغتيالي ما يبررها.

وقد كتب الدكتور يوسف غوبلز في دفتر يومياته ان محاولة اغتيــالي تمت بتنسيق بين الانكليز والروس.

في اواسط آذار ١٩٤٢ طرت الى برلين بعــد ان اجرى لي الجراح التركي الممتاز الدكتور تاپتاس عملية جراحية نــاجحة اعــادت لي سمعي. وأردت ان أقابل هتلر لكي يمنح تركيا تطمينات أخرى. لاسيما وان المضائق التركية لم يكن يهددها في تلك الفترة سوى الروس . الا ان أي تراجع تقوم به في روسيا أو في شمال افريقيا سيحفز الانكليز على الضغط الشديد ثانية على تركيا لأجبارها على دخول الحرب ضدنا . وعليه فقد كان من مصلحتنا الاستمرار على تأييد استقلال تركيا وابعادها عن الانكليز وحلفائهم. وكانت لدينا بعثة عسكرية ارسلت الى انقرة لدراسة متطلبات التسليح الملحة للجيش التركي الا انها لم تكن جادة في عملها لأن تركيا لا هي بالحليفة ولا هي بالتي يحتمل انحيازها الى جانبنا . ورأيت اننا اذا ما تبرعنا للاتراك بالاسلحــة اللازمة لتسليح فرقة او فرقتين مدرعتين فستكون تركيا بموقف يؤهلهــا لممارسة سياسة مستقلة بين المحور والحلفاء.

أجاب هتلر على مقترحي بقوله :

« ولكن الا يحتمل ان يستعمل الاتراك هذه الاسلحــة في يوم مــا ضدنا ؟»

وكان تصوره هذا في غير محله بطبيعة الحال وسرعان ما اقنعته بوجهة نظري فأوفد في صيف ١٩٤٢ الدكتور كارل كلوديوس الخبير التجــاري الألماني الى انقرة لوضع تفاصيل الاتفاقية المطلوبة وما لبثنا ان عقدنا مع الاتراك اتفاقية تتضمن تسليف تركيا مبلغ مائة مليون مارك لتسليحها بموجب تلك الاتفاقية على ان يسدد القرض ببضائع تركية وبخاصة مادة الكروم الخام المهمة للصناعة العسكرية .

ومما لا شك فيه ان الانكليز انتابهم شعور بالتعجب المفعم بالغضب لأنهم لم يجهزوا تركيا بالأسلحة وانما نحن الذين جهزناها بها . الا ان زميلي اللدود سير هيوغ دأب على التصور بأن هتلر سوف لن يحجم عن مهاجمة تركياه واتيحت لي ـ انا ورجال السلك الدبلوماسي الاجانب الآخرين ـ فرصة مشاهدة الدبابات الالمانية الصنع تشارك في مسير الاستعراض بمناسبة العيد الوطني التركي للعام التالي بعد ان تم تسليح اول فرقة مدرعة تركية بأسلحة المانية وكانت هذه المبادرة الالمانية احسن دليل على الصداقة الحميمة لأنها لا يمكن ان تقارن بمجرد الخطب والزيارات المتبادلة لاعضاء البرلمان.

وحيث ان الترك كانوا يتحرقون شوقا لرؤية ميادين القتال للاطلاع على وسائل الحرب الحديثة فقد حصلت على موافقة هتلر لدعوة وفود من القادة الاتراك لزيارة مختلف قواطع الجبهة الشرقية . وكان الفريق الاول علي فؤاد ايردن من اول رفاق الحرب العالمية الاولى الذين وجهت لهم الدعوة لزيارة قواطع الجبهة الشرقية في الجزء الجنوبي منها ومنطقة القرم وكذلك زيارة جدار الاطلسي في الجبهة الغربية . وقد لقى اولئك الضيوف ترحابا بالغا حيثما حلوا في جبهات القتال . وكان الموقف قد انجلت معالمه في هذه الفترة حيث لم يبق لهتلر أي أمل في الحصول على نتيجة حاسمة ضد كل من قوات بريطانيا وامريكا واتحاد السوفيتي في ميادين القتال . اذ لم تستطع موجات الهجوم الالماني اجتياح موسكو او اجتياز حوض الفولغا. وعليه فقدتدبرت رحلة الى روما مع صديقي البارون فون ليرسنر على امل التوصل الى وساطة جادة من رجال الفاتيكان لدى الحلفاء لانهاء الحرب القائمة حتى ولو اقتضى الأمر للتفاهم مع نظام الماني جديد يخلف نظام هتلر . وكان البارون فون ليرسنر من رجال الدبلوماسية الاكفاء وله تجارب غنية في هذا الميدان . وكان يخشى على نفسه من تعقيبات الشرطة السرية للدولة منذ مطلع الحرب . وعليه فقد رجوته مرافقتي بعد الزيارة الى انقرة بصفته رئيسا لجمعية (اتحاد الشرق) وكان قد قابل في روما الكثير من الشخصيات البارزة في دولة الفاتيكان وعلى رأسها الأب ماغليوني ومساعده الأب موتتيني وقد اكد له كلاهما بأن الحلفاء يحجمون عن الخوض في اية محادثات سلمية مع المانيا .

وقد اشتد في هذه الفترة من الحرب ـ كما نعلم ـ احتمال التوصل الى اتفاق بين هتلر والسوڤيت لدرجة باتت وشيكة . ولهذا السبب بالذات رفض الحلفاء محاولاتنا السلمية رفضا باتاء وهكذا ذهبت محاولتنا هذه ايضا أدراج الرياح.

استولت قواتنا في حزيران ١٩٤٢ على سيواستوپول وطبرق واندفع رومل بمبادأته وشجاعته المعروفتين نحو وادي النيل رغم المعوقات الكثيرة التي اعتورت اندفاعه وكان يبغي الوصول الى قناة السويس وفي تموز ١٩٤٢ وصلت قوات رومل الى العلمين(١) . ولو تمكن من قطع قناة السويس فلربما أتيحت لنا فرصة سلمية أخرى. وقد قال لي زميلي السفير الياباني بأننا يجب أن نضع حداً لهدر الدماء الألمانية بمحاولة التوصل الى اتفاق مع السوڤيت . وكما تبين لنا الآن بجلاء فان هذه كانت وجهة نظر الحكومة اليابانية آنذاك. الا ان نصائح اليابان اصطدمت هي الاخرى بعناد فون ريبنتروپ.

في هذه المرحلة الدقيقة من الحرب ظهر افتقار المحور للتنسيق بين مجهودات قواته المسلحة. حيث عجز الاسطول الايطالي عن ادامة شحن مواد التموين الضرورية لقطعات الفيلق الافريقي بعد ان وصل قائده رومل الى ابواب القاهرة . ولو تم توحيد الجهود باستخدام القوات الاحتياطية التي كانت لا تزال متيسرة لدى دولتي المحور لاسيما الاساطيل البحرية والقوات الجوية وتشكيلات المظليين لتم التوصل الى انتصارات محققة بفعل التنسيق المشترك للقوات الكبيرة المتيسرة الا ان هتلر لم يدرك بأن السوق هو فن التعاون المتبادل مع الابتكار واتخاذ قرارات غير متوقعة من الطرف الآخر.

---

(١) تقع محطة قطار العلمين الصغيرة الكائنة على ساحل البحر الابيض المتوسط على بعد ٨٨ كيلو مترا الى الغرب من الاسكندرية وقد حصلت المعركة جنوب الموقع المذكور . ـ المترجم ـ

دأبت طوال اشتغالي في انقرة على عقد اجتماع شهري يحضره سفيرا ايطاليا واليابان وكان يحضر معنا ملحقونا العسكريون وكبار موظفو سفاراتنا من اجل تبادل وجهات النظر • وكان زميلي السفير الياباني السيد كوري هارا مرهف الحس تهمه كل المسائل العسكرية • واذكر انه اشار الى ان اليابان مشغولة تماما بالقتال الدائر في شرق آسيا لدرجة يتعذر معها عليها المساهمة ولو بقسط ضئيل في التخفيف عن وطأة الحرب التي أخذت تشتد على المانيا• وكان اقصى امانينا ان تشن اليابان تعرضا من جانبها على الاتحاد السوفيتي فتجبره على تحويل جزء من قطعـاته نحو الشرق الاقصى• وكان تحذيري منصبا على وجوب تجاهل المصالح الاقليمية وتوحيد القوى لضرب العدو بكل شدة وبقوات المحور كلها لأننا اذا تصرفنا بصورة فردية فستتسنى للعدو فرصة ضربنا كل على انفراد بالتتـابع وسوف لن تتمكن من تحقيق اية مزايا على العدو • ثم سألت السفير الياباني عن مدى امكانية مساهمة بلاده في حرب الغواصات لتسهيل نشاطنا في هذا المضمار فأجابني ضاحكا:

« ان كل ما لدينا هو بضع غواصـات • وهي لا تكاد تكفي لمجهودنا الحربي »•

فأختتمت ذلك الاجتماع بملحوظة قلت فيها انني لم اقرأ في التاريخ كله عن حلف حربي لم يتحقق به أي تنسيق في مجال تعيين الاهداف والوسائل المتاحة كحلفنا هذا•

وعلى الرغم من ان الحرب تحجب عن الناس اسباب المسرة الا انه ليس من المعقول أن أمارس كل تلك المجهودات مشدودا الى مكتبي طوال خمسة اعوام دون ان أجـد لنفسي ولاعواني متنفسا للترويح عن انفسنا فأنشأت مسبحا وملعبا للتنس في انقرة وفي اسطنبول لكي يمارس منتسبو السفـارة رياضتهم المفضلة حسب اهوائهم • وكان بمقدورنا ممارسة الفروسية في الصيف والتزحلق على الجليد في الشتاء•

أما بالنسبة للمولعين بالصيد فكان بمقدورهم ايجاد الصيـد المناسب في هضبة الاناضول وغالبا ما كنا نتذرع بحفـلات الصيد هـذه للانفراد

بمسؤول دبلوماسي واجراء المحادثات السرية معه بمنأى عن مراقبة الفضوليين أو سرقة المكالمات الهاتفية او لتحاشي الآذان التي للجدران • واذكر انني أردت يوما صيد البط البري على ساحل البحر عندما دوت قرب اذني اطلاقتان مرتا بالقرب من رأسي ورأيت انهمار خردقهما في البحر على لا هدف فأدركت لتوي انني كنت الهدف فلما خرجت من مكمني هرب امامي جمع من الناس ميزت منهم احد موظفي السفارة البريطانية بأنقرة فناديتهم عن كثب:

« انه من العار عليكم اطلاق النار على مكمني فنحن في انقرة غير مشتركين بالحرب »•

وقد حدثني أحد موظفي السفارة الالمانية ـ وكان قريبا من المكان ـ بأن الذي أطلق علي النار بندقيته هو السفير الامريكي شتاين هاردت• ولما قابلني هذا الشخص بعدئذ في عام ١٩٤٦ عندما كنت في سجن نورمبرغ كان الوقت قد فاته لممارسة سياسة مشتركة جيدة او المساهمة برحلة صيد موفقة•

في ٧ تموز ١٩٤٢ رقد رئيس وزراء تركيا رفيق سايدام في الفراش نتيجة لمرض الم به وكان هذا الرئيس القدير وزيرا للصحة في بلاده اضافة لرئاسته للحكومة • وقد كلف الرئيس عصمت اينونو وزير الخارجية السيد شكري سراج اوغلو برئاسة الوزارة بينما اصبح السيد نعمان مينمنجي أوغلو وزيرا للخارجية• وقد ذكر رئيس الحكومة الجديد فيخطاب القاه بمناسبة استيزاره بأن حكومته ستحرص على النأي بتركيا عن الاشتراك بالحرب وانها ستمضي في تنفيذ اتفاقيتها المعقودة مع بريطانيا وستلتزم بالوقت نفسه بمعاهدة الصداقة المعقودة مع المانيا•

على اثر هذه التغييرات الوزارية تم تغيير السفير التركي ببرلين السيد خسرو غيريده فأسفت كثيرا على نقل هذا الدبلوماسي القدير الذي كان يحظى باحترام كل من يعرفه • أما خلفه فقد صار السيد صفوت اريكان وهو مقاتل باسل حارب في معارك الدردنيل ابان الحرب العالمية الاولى بمعية القائد على فؤاد جبه صوي ثم اصبح بعدئذ وزيرا للدفاع والمؤسف ان هذا الصديق الكريم لألمانيا لم تمتد به الحياة فقضى بعد انتهاء الحرب بأمد

قصير .

أطل علينا الخريف بقلق متزايد نتيجة للانتكاسات العسكرية التي تعرضت لها الجيوش الالمانية في جبهة روسيا . وكان القادة الالمان قد حذروا هتلر بعد احتلال القفقاس من مغبة الاستمرار على التوغل في فيافي روسيا المترامية الاطراف والاندفاع بالوقت نفسه لاحتلال ستالينغراد ولكنه لم يأبه لنصائحهم بطبيعة الحال . فالروس يعرفون المواقع الواهنة على امتداد خط الجبهة. وقد ركزوا هجماتهم في اغلب الاحيان على الفرق الايطالية . وهي تشكيلات يفتقر رجالها للمعنويات ولم يتطور موقفها بعد الحرب . ثم وقعت كارثة ستالينغراد التي فقدت فيها صديقي العزيز هانز ڤيده ماير والذي سقط اثناء المعركة عندما كان على رأس كتيبته كما جرح فيها ولدي جرحا ثانيا استوجب اعادته الى المانيا للمعالجة.

في ايلول ١٩٢٤ دعيت من قبل امير البحر هورتي الوصي على عرش المجر لزيارة بودابست فوجدت الرجل في غاية القلق بشأن مصير ولده الاكبر الذي فقد في الحرب كما انه كان متشائما من عاقبة المعركة القائمة في ستالينغراد(٢)(٣). وقد اظهر لي قلقه الشديد بشأن الفرق الهنغارية التي كانت تقاتل في شمال ستالينغراد . وقد وعدته بمباحثة هتلر وهيئة ركن القيادة الالمانية العليا بشأن الفرق الهنغارية . وكنت في قرارة نفسي شبه يائس من اقناع هتلر لأن هتلر بعد ان ازاح الفريق الاول فرانز هالدر عن منصب رئيس الأركان منذ ٢٥ أيلول ١٩٤٢ اخذ يعالج حتى دقائق الامور المتعلقة بالقتال بقرارات فردية . وبعد تلك الزيارة عرجت على ڤينا لزيارة ولدي الجريح الذي كان يرقد باحدى مستشفياتها لكنني رفضت الامتثال لأوامر

---

(٢) بدات معارك ستالينغراد في ٢ أيلول ١٩٤٢ واحكم الروس تطويق الجيش السادس الالماني في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٢ واستسلم الجيش المذكور في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٣ . — المترجم —

(٣) فقد الرومانيون نتيجة لاستسلام الجيش السادس الالماني فرقة الخيالة الاولى وفرقة المشاة العشرين الرومانيتين حيث استسلمتا مع القوات الالمانية التي وقعت بالاسر. اما الهنغاريون فقد افلتت فرقهم من التطويق بفضل حصافة قائدهم . — المترجم —

فون ريبنتروب بالسفر الى برلين لمواجهته لأن برقيته لي كانت مجردة من المجاملة الضرورية.

في تشرين الاول ١٩٤٢ شن مونتغومري تعرضه المقابل على موضع العلمين فاضطر المشير رومل على التراجع . وقد لاحظت امارات الارتياح بادية على وجوه رجال الدولة الاتراك نتيجة لانحسار جيوشنا هنا وهناك ذلك لأن تطويق الجيوش الالمانية لبلادهم من الشمال والغرب والجنوب جعل تركيا في وضع سوقي غير مريح بالمرة طوال تلك الفترة. وقد اعقبت تلك التطورات عملية الانزال الانكلو امريكي المباغتة في المغرب وفي الجزائر يوم ٧ تشرين الثاني ١٩٢٤ وهكذا انتهى عام ١٩٤٢ بعد ان تعرضت القوات الالمانية لأولى انتكاساتها في روسيا وفي شمال افريقيا . وبدى من الواضح لكل ذي بصيرة ان المبادأة تحولت منذ تلك الأيام من ايدي قادتنا لأيدي قادة الاعداء. الا ان هتلر لم يعترف بهذه الحقيقة وهي اننا تعرضنا الى نقطة التحول في الحرب لغير صالحنا.

في ٧ كانون الثاني ١٩٤٣ اجريت محادثات مطولة مع السيد نعمان منمنجي اوغلو وكان تصوره للموقف الدولي السائد مشابها لتصوري له.

فأنلحار الجيش السادس الالماني في ستالينغراد لاحت بوادره بالأفق. ولابد للحلفاء الغربيين من أن يعجلوا في اتخاذ اجراء سريع لانقاذ أوربا من الوقوع في براثن الروس . وهذه مسألة تهم تركيا ايضا بطبيعة الحال . وقد ادرك وزير خارجية تركيا الذكي مدى دقة موقف بلاده فتشبث بمبدأ الحفاظ على حيادها وبذل قصارى جهوده للابتعاد عن الحرب. الا انه اعترف بالوقت نفسه بأنه يتوقع ان تكون خطوات التعامل مع الحلفاء المقبلة اصعب فأصعب لأنه لاحظ شروعهم بممارسة ضغوطهم على بلاده بدعوى تنفيذ الاتفاقيات الودية المعقودة لاسيما وان الموقف المالي لتركيا يلجئها دوما لطلب المعونات الخارجية. وكان رئيس الوزراء سراج اوغلو قد وضع ضرائب جديدة كما أمر بمصادرة بعض الممتلكات الاجنبية الصغيرة فحاولت انقاذ ما يمكن انقاذه لحماية بعض المؤسسات الالمانية العاملة في تركيا من الافلاس . وكان

ان حذى زميلي الانكليزي حذوي فلجأ الى وسائل مشابهة ٠ والطريف أننا تعاونا مع الانكليز بصورة غير مباشرة في مجال تمويل ميزانية الدولة التركية لذلك العام٠

في ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٣ تواترت انباء مؤتمر الدار البيضاء[٤] وتطلع الكل بمنتهى اللهفة نحو مقررات ذلك المؤتمر اشفاقا على مصير اوربا٠ وقد تمثلت القسوة المتناهية لأعداء المانيا باقرار العبارة اللئيمة «الاستسلام بدون قيد او شرط » وقد تم هذا القرار بناء على مقترح طرحه الرئيس الامريكي روزفلت٠ ولو قارنا بين هذا النص المميت ووثيقة الاطلسي السلمية التي سبق له ان وقعها مع بريطانيا لوجب علينا الاستغراب لهذا التحول من المحاولة السلمية الى القسوة المتناهية التي تشطب كل أمل في التوصل الى وضع اية صيغة كريمة لانهاء الحرب ٠ ومهما قيل من مبررات لهذا القرار فلابد من التأكيد بأن الضرر الناتج عنه لا يلحق بألمانيا وحدها وانما يتعداها الى اوربا بلا أي شك٠

ظننت في الاشهر الاولى التي أعقبت مؤتمر الدار البيضاء بأن هذا القرار كان مجرد محاولة ضغط دعايوية٠ وكنت قد تصورت بأن الرئيس الامريكي يتمتع بكياسة سياسية كافية تعطيه مرونة في التصرف٠ والمؤسف هو انني كنت واهما٠

جدد تشرشل في مؤتمر الدار البيضاء قراره بوجوب استمالة تركيا الى الاشتراك بالحرب وأراد التفاوض بهذا الشأن مع رئيس جمهورية تركيا ورئيس حكومتها فدعاهما الى جزيرة قبرص٠ فأجابه الرئيس عصمت اينونو بأن الدستور التركي يمنعه من مغادرة بلاده ولذلك فقد عرض على تشرشل

---

(٤) عقد مؤتمر الدار البيضاء في المغرب خلال الفترة ١٤ـ٢٦ كانون الثاني ١٩٤٣ واشترك به تشرشل وروزفلت مع رؤساء اركانهما كما دعي اليه ستالين وحضر مراقبا دون أن يشترك بالمؤتمر . وكان اهم قراراته عدم قبول أي صلح او هدنة منفردة او جماعية مع اية دولة من دول المحور والاصرار على مقاتلتها حتى اجبارها جميعا على الاستسلام بدون قيد أو شرط .
ـ المترجم ـ

زيارة انقرة . وكان من رأي حكومة الحرب البريطانية ألا يتسرع تشرشل بتلبية دعوة الرئيس التركي. وفي ٢٥ كانون الثاني ١٩٤٣ كتب تشرشل الى حكومة الحرب رسالة جاء فيها:

« ليس لأحد ان يطالب الاتراك بالاشتراك في القتال خارج حدود بلادهم ولكننا نطالبهم بالسماح لنا باستخدام القواعد الجوية التركية لكي تنطلق منها طائراتنا للاغارة على حقول النفط الرومانية ».

وأخيرا تم الاتفاق على اللقاء في مدينة اطنة التركية حيث اشترك من الجانب البريطاني مع تشرشل كلا من القادة سير هارولد اليكساندر وسير هنري ماتيلاند وسير الان بروك والفريق الاول الطيار دروموند والقائد البحري دونداس كما مثل وزارة الخارجية البريطانية سير اليكساندر كادوغان . أما الجانب التركي فقد مثله الى جانب الرئيس عصمت اينونو رئيس اركان الجيش المشير فوزي تشاقماق ورئيس الوزراء ووزير الخارجية وعدد من الاختصاصيين . وتلخص الطلب البريطاني بدعوة تركيا للاشتراك بالحرب . الا ان تشرشل فاجأ الرئيس التركي بتقديم مذكرة عند افتتاح الجلسة تضمنت التأكيد على تخويف تركيا من المانيا بتذكيرها بمبدأ «اندفعوا نحو الشرق[٥]» ومحذرا تركيا من خطر وشيك بقوله:

« ربما سيحاولوا في الصيف المقبل شق طريقهم عبر تركيا ».

ثم رجا تركيا قبول ارسال الحلفاء ٢٥ سرب طائرات انكليزية وامريكية للانطلاق من اراضيها.

في المرحلة التالية من المفاوضات ابدى الاتراك حرصا على توطيد علاقاتهم المقبلة مع روسيا اكثر من رغبتهم في الاشتراك بالحرب . ثم ابدى رئيس الوزراء سراج أوغلو ملحوظة قيمة جاء فيها:

« عندما يقضى على المانيا فسيصبح كل جنوب شرق اوربا شيوعيا

---

(٥) هذا نص عبارة استعمارية مشهورة اطلقها الامير فون بسمارك مستشار بروسيا ورائد الوحدة الالمانية ابان الحقبة الاخيرة من القرن التاسع عشر.
ـ المترجم ـ

وسلافيا ».

ثم قال بكل صراحة بأنهم لا يشعرون بتهديد المانيا لتركيا كما ان المشير فوزي تشاقماق اكد له مرارا بأن الجيش التركي يفتقر الى التجهيزات الضرورية لجعله جيشا قادرا على مواكبة جيوش الحلفاء. واخيرا اتفق الطرفان على ارسال بعثة عسكرية من الحلفاء لدراسة متطلبات الجيش التركي.

وقد قيل لي ان الرئيس اينونو قال لتشرشل بهذه المناسبة انه يجب ان يضع حدا سريعا لهذه الحرب ذلك لأن الاصرار على تحطيم المانيا معناه منح السوفيت موقف ملائم للاستحواذ على اوربا كلها وتهديد تركيا بخطر جدي. ثم سأل رئيس وزراء بريطانيا عما اذا كان على استعداد لبحث مخرج لهذه الأزمة بالمناقشة معي للتحري عن امكانية اقرار السلام. وقال له بأنني امثل المانيا المؤمنة بحرية اوربا وسلامها. الا ان تشرشل رفض مقترح الرئيس التركي قائلا بأن التقائه معي سيكون مدعاة وصمه بالخيانة العظمى.

كتب السفير البريطاني بأنقرة عن نتائج المفاوضات مع الاتراك في مذكراته متهكما :

« لقد تضمنت المباحثات الكثير من العبارات الودية المتبادلة وتمت ضيافتنا بشكل رائع وتبادل الحضور تزيين قوائم الطعام بتوقيعاتهم الكريمة ثم تبادلوها مع اعضاء الطرف الآخر».

لكن نتيجة تلك المحادثات لم تكن غريبة اذ تضمنت مذكرات السفير سيرهيوغ قوله:

« لقد تمخضت محادثات اطنه عن ارتياحنا التام . لأنها أفسحت امامنا المجال لمواصلة ضباط من قواتنا البرية والبحرية والجوية للمفاوضات في انقرة بالمستقبل القريب ».

لكنني يمكن ان اؤكد لزميلي الانكليزي بأنه كان متفائلا اكثر مما ينبغي لأنني أعرف ردود الفعل التركية افضل مما يعرفه بهذا الصدد كما انني سمعت من هتلر شخصيا في مطلع سنة ١٩٤٣ بأنه سيمتنع عن القيام

بأي عدوان على تركيا. اضف الى ذلك انه كان هناك اتفاق ضمني متين الاركان بيني وبين زعماء الدولة التركية يتلخص بما يلي:

« ان ميثاق صداقتنا سيبقى قائما مع استمرار الاتراك على الالتزام بالحلف الانكليزي التركي الا ان تركيا سوف لن تدخل الحرب الا بعد اضطرارها على اتخاذ هذا المسلك ».

ثم ان رجال الدول الاخرى لم يكونوا اقل قلقا من الاتراك بشأن مستقبل اوربا الغامض في تلك المرحلة الحرجة من الحرب فقد كتب الرئيس الاسپاني فرانكو رسالة الى السفير البريطاني بمدريد يوم ٢١ شباط ١٩٤٣ رجاه ايصالها الى رئيس الورزاء تشرشل وجاء فيها:

« ان قلقنا البالغ بشأن التقدم الروسي سوف لن يقتصر على الاقطار المحايدة وانما يشمل كل اقطار اوربا التي ستقلق بطبيعة الحال بسبب مصير بلادها المجهول . فالشيوعية خطر داهم يهدد العالم بأسره. وان الجيش الروسي المنتصر سيجعل من روسيا دولة ذات سطوة على النطاق العالمي. واذا استمرت الحرب على هذا المنوال فان القوات الروسية سوف تتوغل في اعماق الاراضي الالمانية . واذا حدث هذا فعلا فستتعرض انكلترا نفسها للخطر بسبب تأسيس دولة شيوعية في المانيا وستستولي روسيا على كل أسرار العسكرية الالمانية وستستفيد من المهندسين والفنيين والخبراء والعلماء الالمان وعندئذ سيتسنى لروسيا انشاء دولة عظيمة تمتد من المحيط الاطلسي الى المحيط الهادي فهل ستكون هناك ثمة قوة في اوربا يمكنها الوقوف بوجه هذه الدولة لا سيما وان اوربا مؤلفة من عدد كبير من الشعوب التي تفتقر للوحدة وتعاني من الخراب الذي أصاب بلدانها بفعل الحرب القائمة . وستكون عاجزة عن حماية نفسها ازاء خطط ستالين الطموحة.

اننا نتمنى للشعب البريطاني كل الخير . واذا استولت روسيا على المانيا فسوف لن يكون بمقدور أحد ايقاف اندفاع روسيا ».

وقد اجاب تشرشل على رسالة الرئيس فرانكو هذه برسالة مؤرخة في ٢٥ شباط ١٩٤٣ وجاء فيها:

« .. انني آمل ان استطيع البرهنة لكم بأن مخاوفكم ليست لها اية أسس فأنتم تزعمون بأن الشيوعية هي الخطر الوحيد الذي يتهدد اوربا وان انتصار الروس سوف يؤدي الى انتشار الشيوعية في اقطار اوربا الاخرى. وان معنى هذا تدمير الحضارة الاوربية والقضاء على الثقافة المسيحية.

ان تقديراتنا للموقف تشير الى عكس تصوراتكم تماما . فهل تعتقدون حقا بأن احدى الامم يجب ان تكون قوية لدرجة تستطيع معها السيادة على اوربا بعد الحرب؟ فلو افلحت روسيا اكثر من غيرها في اعادة انشاء بلادها بعد الحرب هل بمقدورها انجاز ذلك دون مساعدة بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية ... انني استطيع التكهن بأن اقوى قوة عسكرية ستظهر في اوربا بعد الحرب ستكون بريطانيا . وعليه فانني واثق بأن تأثير بريطانيا على اوربا سيكون اقوى من أي وقت مضى منذ ايام سقوط نابليون».

وكانت هاتان الرسالتان تمثلان عالمين متناقضين . ويمكنني القول بلا تحفظ:

لم يكن المحايدون وحدهم مشفقين على مصير اوربا ولديهم الصورة الواضحة عما سيحدث عندما يصل المنتصرون الى أهدافهم النهائية . وانما كنا بدورنا مدركين للخطر الوشيك بكل ابعاده حيث كنا تتوقع ما سيحدث وعليه فقد بذلنا قصارى جهودنا لانقاذ ما يمكن انقاذه .

كانت محاولتي السلمية التالية قد تمثلت بالمحاضرة التي القيتها في اسطنبول يوم ٢١ آذار ١٩٤٣ بمناسبة يوم الشهيد التركي. وكنت متأثرا بطبيعة الحال بالكارثة التي أصابت الجيش السادس الالماني في ستالينغراد. فتوجهت بنداء مخلص للعالم من اجل انقاذ اوربا. وقلت في تلك المحاضرة ان الانتصارات الكثيرة التي حققناها في مختلف ارجاء قارة اوربا لم يكن الغرض الأساس منها تعديل حدود بلادنا او احتلال مناطق جديدة وانما لدواعي الحفاظ على حضارة الغرب . ثم تساءلت .. هل هناك تضامن اوربي؟

ان اوربا الراهنة هي حصيلة التنظيم المتواصل منذ الفي عام وكان محورها الفعال خــلال تلك الحقبــة الطويلة من الزمن المانيا وايطاليا كما ساهمت في تشييد حضارتها بقسط وافر بريطانيا وفرنسا واسبانيا والبرتغال وعدد كبير من الشعوب الصغيرة ولا يمكن التفكير بوجود حضارة الغرب دون اعتبار الدور الرائد الذي قامت به ايطاليا عندما حملت راية الثقــافة المسيحية واحتلت أجزاء واسعة من العالم القديم ٠ كما ان لألمانيا دورهــا البارز ضمن الامبراطورية الرومانية المقدسة عندما واصلت تقدمها الحضاري على انقاض تلك الامبراطورية ٠ وكيف يمكن للغرب ان يواصــل تقــدمه والحفاظ على دوره القيادي في العالم بدون المانيا وايطاليا ؟

ان اوربا هي رمز النضال الحضاري منذ ايام برنهاردس فون كليرفوكس وپيترس فون اميانز وعلينا الاستمرار على مواصلة الصراع في سبيل القيم الروحية التي سبق ان قاتلنا من اجلها وكذلك من اجل الحفاظ على التقدم الحضاري وفي سبيل الحفاظ على وحدة اوربا »٠

وطالبت القوى الغربية بمراجعةدراسة التأريخوملاحظة الدور المهم الذي تلعبه اوربا في وسط القارة ٠ وحذرتهم من مغبة مساعدة روسيا علىالانتصار على المانيا لأن انتصارها سيؤدي الى انتشار الفكر الشيوعي في اوربا وصولا الى سواحل المحيط الاطلسي٠

ثم عرضت لرجال دولتي بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية فكرة اعادة بناء اوربا الجديدة على أسس الحرية والسلام والتقدم مع احترام القيم الروحية السائدة ٠

وقد قيل لي فيما بعد ان الصحافة في الاقطار المعادية اسهبت فيتحليل محاضرتي التي تشير الى (التضامن الاوربي) وقد سألني الكثيرون عنكيفية تحقيق هــذه الأمنيــة بدون هتلر ٠ وبعد ان ترددت اصداء الفكــرة بقى يساورني امل واحد هو ان الرئيس الامريكي روزفلت ربما سيستغل هذه الفرصة ويمضي بالفكرة قدما في اتجاه التنفيذ ٠ أما رد الفعل في المانيا نفسها فكان غريبا ٠ ذلك لأنني توقعت سورة غضب جامحة منالوزير فون ريبنتروب

بسبب مناقضتي ثانية لتاكيده على بوجوب الكف عن التحدث بأية مناسبة عن فكرة السلام . لكن هذا لم يحدث . ولربما خشيت الحكومة الالمانية من التشهير بي على رؤوس الأشهاد . لكنني عندما استدعيت بعد ايام قلائل الى مقر القيادة العليا لاحظت على الوجوه امارات الاستحسان والرضا لهذه المبادرة . وكنت قد وصلت الى برلين في منتصف نيسان ١٩٤٣ فصحبني وزير الخارجية فون ريبنتروپ بقطار خاص الى مقر القيادة المذكور في بروسيا الشرقية . وكانت هذه هي المناسبة الاولى للتحادث بعد ايام معركة ستالينغراد . وقد قال لي انه يلقي تبعة الفشل والتسبب في تلك الكارثة على عاتق القادة وعصابة الرجعيين الذين لا تزال لهم كلمة مسموعة في صفوف القوات المسلحة الالمانية ثم قال:

« لو اتيحت لهتلر فترة زمنية كافية كتلك التي اتيحت لستالين خلال عقد الثلاثينات لكي يتمكن من تطهير الجيش لما تعرضنا لهذه النكسة . ولكننا سنعمل جادين على تلافي ما حصل حيث يجب علينا استئصال شأفة هذه الزمرة الرجعية بكل سرعة . وكلما عجلنا بتنفيذ هذه الفكرة كان ذلك افضل».

كان (وجار الذئب) وهذا هو الأسم الذي سمي به مقر القيادة العليا في بروسيا الشرقية يقع داخل غابة صنوبر كثيفة قرب راستنبورغ في بروسيا الشرقية وهو ذو ابنية متناثرة مشيدة من الطابوق ولم تكن بناية مقر هتلر لتختلف عن غيرها من الأبنية . وكانت بنايته تحتوي على جناح للسكن وعدة مكاتب وصالة للطعام. وقد جعلت نوافذ تلك الابنية في غاية الصغر بسبب الحذر من الغارات الجوية .

وكانت كثافة الغابة تجعل المكان مقبضا . وكانت الاضاءة الكهربائية ضرورية في الليل وفي النهار . وكانت رائحة المكان مشابهة لرائحة المستنقعات . وكانت المنطقة محاطة بثلاثة اسيجة منيعة من الاسلاك الشائكة. وكانت الاجراءات الامنية تتضاعف كلما اشتدت وطأة الحرب واصبح من الضروري لكل من يدخل المنطقة ان يحمل وثيقة مرور خاصة . وكان يقتضي

على كل زائر للمنطقة ان يتعرض للتفتيش الدقيق. ولم اقابل هتلر في تلك الزيارة وهذا ما لم اتوقعه او يتوقعه فون ريبنتروب.

وكان هتلر قد تولى القيادة العليا منذ كانون الاول ١٩٤١ بعد اقالة المشير فون براوختش[٦]. ودأب هتلر منذ ذلك الحين على اصـدار وصايا عامة لقادة القوات البرية ويترك لهم انجاز التفـاصيل . ومنذ استلام هتلر لمنصب القائد الأعلى في الميدان لم يعد بمقدور أي قائد الماني اتخـاذ قرار حاسم في الميدان لأن هتلر استمر على متابعة تنفيذ ادق التفاصيل طوال فترة استمرار الحرب . والانكى من ذلك ان مقر القيادة العليا في بروسيا الشرقية

صار يتدخل في تحرك أية قطعة بمستوى فوج فاكبر. وكان تأثير ذلك النمط من القيادة على ادارة الحركات العسكرية مدمرا . ذلك لأن الاوامر كانت تصل في اغلب الاحيان بعد يومين من صدورها وهذه فترة كافية لتغير الموقف وتحول تلك الاوامر الى اجراءات مغلوطة. ولما اشاد المحيطون به بعبقريته العسكرية آمن هو نفسه بذلك وكأنه اكتشف في نفسه قدرة جديدة . وكان يتخذ القرارات السوقية والتعبوية المرتجلة[٧] التي اثبت بها عدم مقدرته على

---

(٦) كان المشير فون براوختش يشغل منصب القائد العام للقوات البرية.
ـ المترجم ـ

(٧) اعلن هتلر بالراديو عزمه على احتلال سـتالينغراد مما حفز الروس على التصدي له بكل قواتهم المتيسـرة . ولمـا تم تطويق الجيش السادس (٢٠ فرقة) اصر هتلر على عدم ترك ستالينغراد بينما كان بمقدور ذلك الجيش كسر التطويق والخروج منها ـ كما ذكر المشير فون مانشتاين قائد مجموعة جيوش الدون في كتابه الموسوم انتصارات ضائعة ـ لكن اصـرار هتلر على صمود الجيش السادس في ستالينغراد أدى الى ضياع ستالينغراد واستسلام الجيش السادس في خرائبها .
ـ المترجم ـ

ممارسة هذه المهمة واتخاذ القرارات الصحيحة • وقد رفض هتلر منذ عام ١٩٤١ زيارة الجبهة او القيام بتفقد القواطع المهددة شخصياه

الا انه كان يتمتع ــ والحق يقال ــ بقدرة ممتازة على معالجة القضايا التقنية• ومع انه لم يكن يحسن سياقة السيارة الا انه كان يتقن دقائق الفن الآلي•

وكثيرا ما كان يحوز اعجاب الضباط والمهندسين المشتغلين في قضايا تطوير التسليح وتحسين التجهيزات الفنية الحديثة• وغالبا ما كان يكتشف الحلول المناسبة للمعضلات التقنية التي تصادف الخبراء لدرجة اثارت اعجابهم• وكان بمقدوره تفهم خصائص كل سلاح جديد بعد ايجازه بشأنه مرة واحدة• وكثيرا ما كان يناقش تفاصيل تصاميم المنشآت الجديدة مع المهندس شبير[٨]• وكان تودت من خيرة مستشاريه في هذا المجال وكان هتلر يحب الاطلاع على أدق التفاصيل قبل اصدار موافقته بشأن أي مشروع•

عندما رجعت الى برلين عثرت على عقدة السر الدفين وذلك عند التقائي بنازيين قديمين من الأسر الالمانية النبيلة جدا في العمل ضمن زمرة المقاومة السرية لنظام هتلر وهما غراف هيلدورف مدير شرطة برلين وغراف غوتفريد بسمارك محافظ مدينة بوتسدام • وكانا قد انضما للحركة في وقت مبكر فزوداني بمعلومات مفصلة عن دواعي انقضاضهما واصحابهما على النظام النازي وسردا مساوئه وفضائح المعتقلات وخرق القوانين في لقاء مدبر اجريته معهما في مكتبة «نادي الاتحاد» بعيدا عن الانظار ثم قالا انهما يعملان ضمن زمرة مخلصة عزمت على انقاذ المانيا من شرور هتلر وان زمرتهما برئاسة رئيس اركان القوات المسلحة الالمانية السابق الفريق الأول لودفيغ بيك وقد

---

(٨) كان البرت شبير مهندسا شابا نابها اكتشفه هتلر وجعله وزيرا للانتاج الحربي وهو مصمم منشآت ممتاز وقد حكم بعد الحرب في محاكمات نورمبرغ بالسجن لمدة عشرين عاما ولما خرج من السجن عام ١٩٦٦ كتب يومياته في سجن شبانداو . وقد توفي البرت شبير في المانيا الغربية عام ١٩٨٠ . ــ المترجم ــ

اتخذت هذه الزمرة قرارا بابعاد هتلر عن السلطة ولكنها حرصت على تجنب اشعال نيران ثورة تحطم المانيا في هذه المرحلة الحرجة من تأريخها حفظا لسلامة القوات الالمانية المقاتلة في مختلف الجبهات. وعليه فقد اتجه الرأي الى عدم قتل هتلر وانما اجباره على التخلي عن زعامة المانيا واحالته الى محاكمة علنية. وكان المفروض ان يقوم لواء الخيالة بقيادة العقيد البارون فون بويزيلاغر بمهاجمة مقر القيادة العليا والقاء القبض على هتلر واعوانه تمهيدا لاحالتهم للمحاكمة.

أراد المتآمرون معرفة موقف دول الحلفاء الغربيين منهم في حالة نجاح الحركة وتخلص المانيا من نظام هتلر واستعداد نظامها الجديد لاقرار السلام فتوجه لي السيدان غراف هيلدورف وغراف بسمارك بالسؤال عما اذا كنت على استعداد لابداء وجهة نظرهم هذه للحلفاء الغربيين.

كانت هذه هي المرة الاولى التي اقابل بها اناسا من أعضاء المقاومة الالمانية. وبعد أن اوضحا لي تفاصيل المسألة واطلعت على سير الامور في القيادة العليا كان جوابي بالايجاب طبعا لأن القضية لا تخص المانيا وحدها وانما تخص مصير اوربا برمتها .

لقد كنت وسأبقى غير مؤمن بنظرية القتل السياسي. لأن القتل هو القتل ولذا فان فكرة اعتقال هتلر واحالته للمحاكمة لاقت في نفسي هوى ولو كان رأيهم متجها نحو قتله لما تعهدت بالعمل معهم . كما ان الحافز المباشر الذي دعاني للتعاون معهم هو ادراكي للتوتر والقلق الذي سيصيب المانيا في الصميم بعد تبديل نظام الحكم القائم قسرا وهذه الحقيقة تتطلب الحصول على ضمانات لمستقبل المانيا من الدول المعادية. ويجب علينا قبل كل شيء التثبت من عدم تمسك الحلفاء بتطبيق القرار الجائر القائل بوجوب استسلامنا بدون قيد او شرط بعد ان تتغير حكومة هتلر انقاذا لألمانيا وحفظا لتراثها الحضاري المتميز في وسط اوربا.

تعهدت بالاتصال من انقرة في اول الأمر مع الرئيس الامريكي روزفلت. واتفقت مع المقاومة السرية على جعل السيد آدم فون تروت تسوزولتس

(الذي اوفدته وزارة الخارجيـة الالمانية لاجراء محـادثات في انقرة) رجل الارتباط المعتمد فيما بيننا • ولما رجعت الى انقرة رجوت البارون فون ليرسنر الاتصال بمعتمد الرئيس روزفلت فيها جورج ايرل وكان هذا الأخير قد ترك الحزب الجمهوري في عام ١٩٣٢ لكي يلتحق بروزفلت وبعد ستة اشهر اصبح اول حاكم لولاية پنسلفانيا عن الحزب الديموقراطي ثم عمل وزيرا مفوضا لبلاده في ڤينا وانتقل منها الى صوفيا فعمل بها خلال الفترة ١٩٤٠ــ١٩٤٢ ولما طلبت بلغاريا ابعاده عن البلاد اوفده روزفلت الى اسطنبول بصفة ملحق بحري في سفارة الولايات المتحدة الامريكية في تركيا • وبناء على ذلك فهو الشخص الذي يعتبر موضع ثقة الرئيس روزفلت ويمكن ان يكون افضل من يعتمد عليه روزفلت في كل ما يتعلق ببلاد البلقان • وعليه فقد توسمت ان يكون الرجل المناسب لتحقيق الاتصال السري مع الرئيس روزفلت والتوجه اليه بسؤالنا والعودة بجوابه عليه•

في هذه الاثناء حقق الاتصال مع الدكتور ليفركويهن احد اعضاء هيئة المخابرات الامريكية العاملين في اسطنبول فأتصل الاول معي واخبرني بقرب وصول الكاردينال سپيلمان راعي مدينة نيويورك الى تركيا • وكانت الحكومة التركية قد ارسلت من يخبرني بصورة رسمية منذ منتصف آذار ١٩٤٣ بأن الاسقف المحترم سيكون على اتم استعداد للمجيء الى تركيا للالتقاء بممثل للحكومة الالمانية وتبادل وجهات النظر معه • ولما فاتحنا وزارة الخارجية بهذا الشأن رفض الوزير فون ريبنتروپ تلبية الطلب• الا انني كررت الرجاء على الوزارة لأن الكاردينال يوشك على القيام بزيارته للشرق الأدنى بناءعلى توجيهات الرئيس روزفلت شخصيا • ألا ان ممثل هيئة المخابرات الامريكية أكد لنا بأن الكاردينال يرغب بالحصول منا على صورة للموقف السائد في الشرق دون الالتزام بأي اتفاق رسمي• ولما اخبرنا وزارة الخارجية بذلك منع الوزير فون ريبنتروپ اجراء أي اتصال مع زعماء الكنيسة بهذا الصدد • وعليه فقد وجدت نفسي غير قادر على تحقيق اللقاء مع الكاردينال • امـا السيد ايرل فلم اسمع عنه شيئا•

تدهور الموقف العسكري في هذه الاثناء لدرجة اشد سوءا وعلمت بأن صديقي القديم منذ ايام القتال في الحرب العالمية الاولى والمرافق الشجاع آنذاك الفريق الاول فون آرنيم قد اضطر على الاستسلام في تونس يوم ٧ مايس ١٩٤٣ وقد ادركت مدى المرارة التي تعرض لها ذلك المسكين بسبب عدم كفاءة هتلر بينما تعرض للجفاء الشديد بعد وقوعه في براثن خصمه الفريق الاول آيزنهاور الذي رفض مقابلته .

لاحظت في تلك الفترة ان الحرب كانت تزداد ضراوة كلما اقتربت الجبهة من المانيا التي أصابها التدمير ومحقت مدنها وقرا ها . واصبحت معرضة لكارثة شديدة الوطأة ويزداد التأثير عليها من يوم لآخر . وفي ١٨ حزيران ١٩٤٣ وصلتني برقية مفادها ان شقيقتي الصغرى انقذت وهي في الرمق الاخير من تحت انقاض بيتها الذي تحطم على رؤوس ساكنيه في ديوسلدورف. كما سقط ولدا أخي شهيدين في جبهة روسيا بفاصلة اسابيع قلائل . وهكذا وجب على الشعب الالماني بذل دمائه في سبيل الوطن . ولم يخل بيت من خسارة ولم تنج أسرة من المعاناة التي تعتبر ضريبة الحفاظ على شرف الوطن.

ولعل اسوأ ما صادفنا في الحرب هو موقف اسرى الحرب الميئوس منه والذين تعرضوا لشتى ضروب المعاملة القاسية دون ان يعلم أهلهم وذووهم بمصيرهم. وقد سمعت في يوم ما من ممثل هيئة الصليب الاحمر السويسري بأنه حصل على ٤٠٠ رسالة من أسرى حرب المان لدى روسيا بصورة استثنائية فرجوته الاطلاع على قائمة بأسمائهم وعناوينهم فلما اطلعت عليها وجدت ان احدهم كان ابن تاجر كتب من جيراننا فأبرقت لذويه مطمنا لهم بأن ولدهم على قيد الحياة .

ترتبت على رسالة ذلك الجندي نتائج عجيبة. فقد انتشرت الانباء في طول المانيا وعرضها سريان النار في الهشيم بأنني حصلت على قوائم مفصلة من الروس تتضمن اسماء الأسرى الالمان.

فأنهمرت علي خلال شهر واحد آلاف الرسائل من المانيا وكلها يرجوني مرسلوها أن اتحرى عن ابنهم المفقود واخبارهم في حالة وجـوده بالأسر. وقد علمت ـ ولكن بعد ان وضعت الحرب اوزارها ـ بأن هتلر منع وصول رسائل جنودنا الأسرى الى عناوين ذويهم.

ولما شاعت أنباء سوء معاملة الاعداء لاسرانا ـ بفضل استطاعة عدد منهم الافلات من الأسر ـ أردت الاحتجاج لدى الصليب الاحمر الدولي على تلك المعاملة اللاانسانية الا ان فون ريبنتروپ منعني من القيـام بأية متابعة بهذا الشأن. الا انني لم اتمكن من تجاهل نـداءات الآباء والامهات المفجوعين بأبنائهم فأستمررت على الاتصال بهيئة الصليب الاحمر الدولية لكي ابحث عن كل من يتصل بي أهله لعلي احصل على نبأ مفرح يطمنهم فكانت سفارتي الملاذ الوحيد لاولئك انحيرى لأنني اهتممت بالجانب الانساني من قضيتهم . لكن فون ريبنتروپ لم يرق له نشاطي في هذا المجال فكتب لي توجيها يتضمن عدم الاجابة عن أي استفسار من هذا القبيل في المستقبل واحالة امثال هـذه الرسائل الى برلين . فأجبته بأنني لم أقم بأي نشاط رسمي يتطلب اصدار توجيهات معينة وانه ليس من حق الوزارة منعي من الرد على الرسـائل الشخصية التي ترسل الي من الوطن . وهكذا استطعت ان ابشر الكثيرين من ذوي المفقودين بوجود ابنائهم في الأسر طوال تلك الفترة التي امتدت لحين قطع العلاقات الدبلوماسية مع تركيا.

في ٢٨ آب ١٩٤٣ توفي بصورة مفاجئة وبظروف غامضة جلالة الملك بوريس في عاصمة بلاده صوفيا . وكان قد قابل هتلر قبل اسبوع من وفاته. ولابد ان تترتب على وفاته نتائج مفجعة لبلغاريا . وكان ولي عهده الأمير سيمون قاصرا ولا يمكن التفكير بتوليه العرش امـا امه فكانت ابنة ملك ايطاليا فكتور عمانوئيل الثاني وهي سيدة عاشت بمنأى عن السياسة. وبعد فترة ليست بالطويلة حلت النكبة بايطاليا ولما ايقن السلاڤيون بأن دور المانيا سيأتي وشيكا انقضوا عليها منتقمين فأفتقدنا عندئذ مدى اهمية صداقة رجل قوي مخلص كالملك الفقيد بوريس . وعليه فان ازاحته عن الوجود كان من

اهداف اعدائنا الثمينة ـ وليس أعداء هتلر ـ على الرغم من ان دعايات الاعداء زعمت بأن الملك بوريس كان من ضحايا النازية وللحق اقول انالنظام النازي كان بريئا من جريمة اغتيال العاهل البلغاري.

أما الملكة الارملة فقد اوضحت لصحيفة (فيغارو) الفرنسية بأن الطيار الذي اعاد الملك بوريس من مقابلة هتلر تلقى منه وصايا تتضمن وجوب التحليق بطائرته على ارتفاع شاهق وبأسرع ما يستطيع ثم الانقضاض من حالق وقد كرر ذلك خلال السفرة فكان يرتفع بطائرته الى عشرة آلاف متر ولما كانت الطائرة غير مزودة بأقنعة الاوكسجين فان قلته في تلك الارتفاعات أثرت على جهاز تنفس الملك. وقد اكد الوصي على عرش بلغاريا الأمير كوريل هذه المزاعم وقال ان هتلر هو الذي سبب موت الملك بوريس لأن الأخير امتنع عن اعلان الحرب على روسيا.

الا ان جميع الحقائق تناقض اتهام المانيا بقتل الملك بوريس. ذلك لأنه رجع من برختسغادن سليما معافى ثم قام قبل مرضه بثلاثة ايام بتسلق قمة جبل موسالا اعلى جبال بلغاريا . وفي ٢٣ آب ١٩٤٣ رقد في فراشه مريضا بصورة مفاجئة وفي ٢٦ آب ١٩٤٣ اشارت النشرة الطبية المعلنة بأن الملك يشكو من مرض اصاب الرئة والقلب والدماغ.

لعب الملحق الجوي الالماني في صوفيا اللواء فون شوينه بيك والذي يتمتع بثقة الملك دورا متميزا في تلك الفترة . وقد اطلعت على مذكرات اللواء فون شوينه بيك والتي يمكن استخلاص المعلومات المهمة التالية منها:

وصلت الى صوفيا جوا مجموعة من الاطباء الالمان بناء على رغبة الملك الملحة وكان بين اولئك الخبراء الجراح المشهور الاستاذ الدكتور زاور بروخ وكذلك الطبيب المشهور في ڤينا الاستاذ الدكتور ايبنغر المختص بالامراض الباطنية . وقد تبين ان البطانة المحيطة بالملك والمتسلطة عليه كانت تمنع اجراء أية فحوصات ضرورية وواضح انها كانت تخشى اكتشاف طبيعة المرض المفضي للموت . وهكذا وجدت زمرة الاطباء الألمان نفسها بلا حول ولا قوة

لأنها لم يكن بمقدورها اتخاذ أي قرار جدي لانقاذ حياة الملك ولكنها اكدت بأن الملكة والمحيطين بها هم المسؤولين عن تدبير موت الملك ، وقد تأكد للجنة الطبية الالمانية ان احشاء الملك ودماغه قد اصابها التلف لدرجة لا سبيل معها لانقاذه من حالة التسمم التي اصابته.

والطريف ان هتلر انتابه غضب شديد على البيت المالك الايطالي لأنه كان من رأيه ان الملكة هي المسؤولة عن تدبير اغتيال زوجها.

فأمر فون ريبنتروپ ان يتصل بالقنصل الالماني في صوفيا وهو الوزير المفوض بيكيرله لكي يأمر قطعات الحماية التي بأمرته باعتقال الملكة وولدها ونقلهما الى برلين بالطائرة. ولما أراد بيكيرله تنفيذ هذا الأمر بطبيعة الحال تصدى له اعضاء القنصلية الالمانية وحذروه من مغبة الاقدام على تنفيذ هذا العمل. وقد تطرق تشرشل في مذكراته الى وفاة الملك بوريس بقوله:

« وبوفاة الملك بوريس تم القضاء على جميع اصدقاء المانيا في بلغاريا».

كما ذكر وزير الدفاع البلغاري الفريق ڤيلتشيف فيما بعد بأن هتلر هو الذي دبر تصفية الملك بوريس ، ولكنني رغم ادانة هتلر عن قضايا أخرى كثيرة اؤكد ثانية برائته من هذه الفعلة.

في ٨ أيلول ١٩٤٣ استسلمت ايطاليا فأحتلت قواتنا روما والتجأ الاسطول الايطالي الى جزيرة مالطة. فأهتبل الانكليز هذه الفرصة واحتلوا بعض جزر الدوديكانيز التي لم تكن قواتنا تحتلها حيث نزلت قواتهم فيجزر ساموس وكوس وليروس القريبة من سواحل تركيا ، وواضح انهم أرادوا بهذه الحركة ارائة الاتراك مدى تخاذل القوات الالمانية واكتساحهم لها فيؤثروا بذلك على تركيا نفسيا لكي تنحاز الى جانبهم. الا ان قوتنا الجوية منعت الانكليز من تموين قواتهم النازلة في تلك الجزر من التموين بالعتاد والارزاق فأضطرتهم على الجلاء عنها بعد فترة وجيزة وكانت طائراتنا القاصفة تمر يوميا على مقربة من أجواء اسطنبول وازمير فيشاهد سكانهما اعمالها الانتقامية ، ويعلق تشرشل على هذه الحالة في مذكراته بقوله:

« لقد ركزت في محادثاتي مع الزعماء الاتراك على استمالتهم للدخول الى جانبنا في الحرب في خريف ١٩٤٣ بعد انهيار ايطاليا ولعل السبب الذي جعلهم يتمسكون بحياد بلادهم يعود لفشلنا في الحركات التي جرت في بحرايجه».

لم يستطع الالمان ولا الانكليز تفهم طبيعة ذلك الموقف من الناحية النفسية . فقد اجتمع وزراء خارجية دول الحلفاء في موسكو للبحث عن القرار المناسب لانهاء الحرب بأسرع ما يمكن. وقد تمخض ذلك الاجتماع عن قرار الوزير البريطاني انطوني ايدن بوجوب اشراك تركيا في الحرب قبل انتهاء عام ١٩٤٣ دون ان يأبه لرأي الاتراك أو يراعي نتيجة المباحثات التي تمت بين رئيسه تشرشل والرئيس اينونو ودون الالتفات لموقف الجيش التركي الذي كان بأمس الحاجة للتجهيزات الحديثة. وقد علق السفير البريطاني بأنقرة سير هيوغ على هذا القرار في مذكراته بأن هذا القرار المرتجل حمّل العلاقات البريطانية ـ التركية ما لا تطيقه.

تمكن هتلر في هذه الفترة من تحرير صديقه موسوليني من الاعتقال[٩] وسماه «رئيس الجمهورية الفاشية» فعمل هذا بتعاون وثيق مع القوات الالمانية من شمالي ايطاليا.

وبينما سارت الحرب نحو نتيجتها المتوقعة ببطء رتيب حصلت الحادثة الصغيرة التالية :

وصل الى انقرة فجأة رجلان من المانيا واخبراني بأن احدهما تعين بمنصب حاكم جورجيا والآخر حاكم اذربيجان السوفيتيتين وطالباني بتزويدهما بتفاصيل الحالة الاقتصادية . ولما خشيت من تعرضنا للفضيحة في حالة معرفة العدو لما اقدمنا عليه واحتمال استهزاء دعايات العدو بتصرفات حكومتنا فقد رجوت برلين التعجيل باسترجاعهما فعادا بخفي حنين.

---

(٩) نشرت تفاصيل اختطاف موسوليني من قبل مختطفه الرائد في قطعات الحماية اوتو سكورزيني بكتابه الموسوم (مرحبا بالحظر) ترجمة فاروق الحريري ص ١٩٤ ـ ٢٥٧ . ـ المترجم ـ

في هذه الاثناء ايضا تعرضت لتجربة محرجـة جداء اذ اتصل بي في ٤ تشرين الاول ١٩٤٣ مدير مصرف الشرق الالماني پوست الذي اعرفه حق المعرفة واخبرني بأن شخصا اجنبيا جاء الى انقرة بصفة سرية جدا ويريد الاختلاء بي للتحدث معي بشأن قضايا بالغة الاهمية • وقال انه مرسل اليه من قبل الاستاذ ريوستوف• وكان الأخير مهاجرا المانيا الى امريكا ولم تكن لي معه اية علاقة رسمية ولكنه معروف لدي بصفته شخصية جديرة بالثقة لشدة تعلق روحه بوطنه القديم•

وهكذا وجدت ان من الضروري اجراء المحاورة المقترحة مع الغريب الغامض الصفة • وقد تضمنت التوصية التي ارسلها لي الاستاذ ريوستوف قوله ان الرسول الذي سيأتيني يحمل جواز سفر برتغالي وهو رجل امريكي الجنسية • وهو يرغب بالتحدث الي بتكليف شخصي من الرئيس روزقلت•

لكنني توجست خيفة من مغبة الالتقاء مع ذلك الغريب خشية ان يكون مدسوسا علي• وحيث ان السيد فون تروت تسو زولتس كان قد اتصل بي في تموز ١٩٤٣ فقلت له بأن روزقلت لم يجب على رسالتي بعد فلربما يكون هذا المبعوث السري مكلفا بايصال اجابة روزقلت المنتظرة• وعليه فقد قررت استقباله•

دخل علي في صباح اليوم التالي رجلا يناهز الثلاثين من العمر وقدم لي جواز سفره البرتغالي • وقد قدرت من الوهلة الاولى انه لم تكن له ايـة علاقة ببعثة ايرل• وقال انه مكلف من قبل الرئيس روزقلت شخصيا بالاتصال معي لبحث امكانات اقرار السلام بالسرعة الممكنة• وقال ان الرئيس اطلع بكل اهتمام على محاضرتي التي سبق ان القيتها في آذار ١٩٤٣ ويرغب بالحصول على صورة واضحة عن الحالة السائدة في المانيا وانه يتسائل عما اذا كان في المانيا اناس يمكن أن يتحدث معهـم بشأن السلام • لأنه اتخذ قرارا بعدم التفاوض مع هتلر واعضاء الحزب النازي مطلقا• ولم يكن الرسول المجهول خالي الوفاض وانما اراد ان يثبت لي سلامة هويته فسلمني اضمامة صغيرة تحوي فلما مصغرا طوله أربعة سنتمترات ويتضمن شروط الرئيس الامريكي

المقترحة والتي يمكن اعتمادها اساسا لاقرار السلام المنشود مع المانيا •
وكان الشرط الاولي الوحيد يتضمن وجوب قيامنا بالقاء القبض على هتلر وتسليمه للحلفاء تمهيدا لاحالته لمحكمة دولية • واقترح اختطاف هتلر بطائرة وايصاله للحلفاء • وقد حصلت من محدثي على فكرة بجدية تفكيره• فوعدته بدراسة مقترحة والالتقاء به في اليوم التالي في مكان آخر بعيدا عن مكتبي•

وأود ان اؤكد بأنني ارجعت معي الى المانيا في آب ١٩٤٤ كل مذكراتي واوراقي السرية بما فيها ذلك الشريط المصغر ولكن هيئة الاستخبارات الفرنسية استولت عليها بعد الحرب في قرية غيموندن وعليه فسأسرد للقاريء كل ما يحضرني من معلومات لا تزال عالقة في ذاكرتي•

اتفقت في اليوم التالي على قيام مدير المصرف پوست بدعوة الرسول المجهول الشخصية الى منزله في بويوك‌آدا[١٠] لكي اوافيه بيختنا الخاص عن طريق آخر•

وفي اليوم التالي اجريت مع الرجل محادثات مطولة جدا • لأن الشريط المصغر والذي قرأته بعدسة مكبرة بعد جهود مضنية تضمن تجاهل دور المانيا المتميز في وسط اوربا • وكان من الطبيعي رجوع المانيا الى حدودها القديمة من الغرب واحترام المانيا لسيادة پولندا • ولما كانت المواد الخام المستخرجة من مناجم المانيا غير كافية لصناعتها ومنتجاتها الزراعية غير كافية لاعاشة سكانها فانها كانت تأمل الاستفادة من اقليم اوكرانيا الذي ينتظر أن يكون له كيانا مستقلا ويرتبط بالمانيا بشكل ما لكي نضمن لالمانيا مصدرا انتاجيا يتكامل به اقتصادها • الا انني لم اتقبل فكرة فصل اوكرانيا عن روسيا وجعلها مرتبطة بالمانيا بشكل معين لأن هذا التدبير من شأنه خلق مشكلة دائمة وجعل المانيا في نزاع مستمر مع روسيا وسيؤدي بنا الى حروب

---

(١٠) عبارة تركية معناها (الجزيرة الكبيرة) وتقع في بحر مرمره قرب اسطنبول.
ـ المترجم ـ

عديدة معها في المستقبل . ولذا فقد آثرت وضع اسس السلام الاوربي وفق ما ترتضيه كل شعوب اوربا.

لكنني لم انس التأكيد على الرجل بأنني سوف لن اخطو من جانبي اية خطوة أخرى ما لم احصل على ما يثبت لي صحة هذه المزاعم واتأكد من ان الرئيس روزفلت سيلتزم بما يتم عليه الاتفاق. ويجب على روزفلت ان يزودني بنص مكتوب يؤكد به موافقته على النقاط التي سنتوصل اليها قبل ان نقدم على تنفيذ اية خطوة ايجابية . ذلك لأننا لا نريد التورط بحالة مشابهة لنقاط ويلسون الاربع عشرة التي تم تفسيرها بعدئذ بشكل مغاير لروح المبادرة[11]. واذا لم اتمكن من الطيران الى القاهرة فأين يمكن ان يتم لقائي مع الرئيس روزفلت لكي نجري مباحثاتنا فورا؟ ثم كررت اسفي لعدم تلبية العرض ما لم احصل على تأكيد تحريري ملزم. اما اذا اقدمت على الهرب الى بلدان الحلفاء لغرض التفاوض فسأفقد قيمتي المعنوية ولن اكون في هذه الحالة ندا للرئيس روزفلت في اية مفاوضات. واخيرا اتفقنا على اعادة اللقاء بعد اطلاع الرئيس روزفلت على اجابتي.

لم يعقب هذه القضية السرية أي تقدم او تطور لاحق واظن جازما بأن الرئيس اقلع عن متابعة هذه المغامرة وآثر الاستمرار مع حلفائه على مطالبة المانيا بالاستسلام دون قيد او شرط. ولكن هل كان امامنا أي مسلك آخر للنجاة ببلادنا من مصيرها المحتوم؟

---

(١١) دعا الرئيس الامريكي وودرو ويلسون الى عقد هدنة عامة لانهاء الحرب العالمية الاولى رغم ان بلاده دخلت الحرب في مراحلها الاخيرة ووضع اربعة عشر بندا تكون اساسا لاقرار السلام فقبلها الطرفان وعقدت الهدنة بالساعة ١١ يوم ١٩١٨/١١/١١ لكن تطبيق هذه البنود لم يرض المانيا والدولة العثمانية بسبب غلو الحلفاء في المطالب الوفيرة التي الحقت بمصالحهما وبسيادتهما الضرر.

ـ المترجم ـ

الفصل الثلاثون

عَمليَة شيشرونُ

نعمان يقابل ايدن في انقرة . تزايد ضغط الحلفاء على تركيا . اصبح موقف المانيا العسكري ميئوسا منه . قصف جوي كثيف على برلين . زيارة لهورتي. عملية شيشرون . اقالة المشير فوزي تشاقماق . فرار الدكتور فرميهرن الى صفوف الانكليز. خطط الحلفاء في البلقان غير قابلة للتنفيذ. انقطاع العلاقات الاقتصادية بين المانيا وتركيا . حماية الهاربين . اعاقة طرد اليهود من فرنسا. جواب روزفلت المنتظر. تقرير السيد ايرل . اصبح تزويدنا بالكروم التركي ممنوعا . مشاجرة اخرى مع فون ريبنتروب . زيارة في باريس. فطور مع لافال. اقالة نعمان. الشروع بعملية «اوفرلورد». تركيا تقطع علاقاتها الدبلوماسية مع المانيا.

لوضع مقررات محادثات موسكو موضع التنفيذ فقد دعي وزير خارجية تركيا نعمان منمنجي اوغلو لزيارة القاهرة لاجراء محادثات مع نظيره البريطاني. فلبى الرجل الدعوة على الرغم من مرضه لكي يعمل جاهدا على الابتعاد بوطنه عن الحرب.

امتعض الاتراك من فكرة الاشتراك بالحرب الى جانب الحلفاء اهتبالا لفرصة كونها على وشك الانتهاء بنتيجة معلومة سلفا وهو اندحار المحور بقصد الحصول على حصة مجزية من الغنائم كما نوه لهم الحلفاء في معرض استمالتهم للدخول للحرب الى جانبهم ضدنا وهذا ما اوضحه السيد نعمان منمنجي اوغلو لزميله الانكليزي بكل وضوح مذكرا اياه بالموقف المناقض للشهامة الذي أقدم عليه موسوليني في عام ١٩٤٠ عندما طعن فرنسا من الخلف واثار استهجان كل شرفاء العالم[١]. كما ان تركيا ليست لديها اسباب تدعوها للاشتراك بالحرب اضف الى ذلك ان موقفها السياسي والعسكري لا يستوجب اشتراكها بالحرب.

اختتمت محادثات القاهرة بالاتفاق على اجابة الحكومة التركية عما اذا كانت مستعدة من حيث المبدأ للدخول بالحرب لكي يمكن اجراء مباحثات أخرى ضرورية .

أما في حالة رفض تركيا للطلب فان ذلك سيؤدي الى الحاق الضرر بالعلاقات التركية البريطانية القائمة.

اما مدى خيبة الأمل التي اصابت الطرفين فمبينة بالتقرير الذي رفعته الى برلين بعد مقابلتي لنعمان على اثر عودته من القاهرة والذي جاء فيه ما يلي:

« تنيجة لاستقبالي من قبل السيد نعمان يوم امس تبينت لي مدى حراجة الموقف الحالي لتركيا .. وقد عبر السفير البريطاني بعد عودته من القاهرة عن انقطاع علاقات الصداقة بين تركيا وبريطانيا ولم يعد يستقبل أي تركي بمنزله . كما انه حول اقامة السفارة الى اسطنبول تعبيرا عن عدم

---

(١) بدات معركة فرنسا في ١٠ مايس ١٩٤٠ وفي ١٠ حزيران ١٩٤٠ اعلنت ايطاليا الحرب على فرنسا وبريطانيا وفي ١٤ حزيران ١٩٤٠ سقطت باريس بيد الالمان وفي ٢١و٢٢ حزيران ١٩٤٠ تم عقد الهدنة بين المانيا وفرنسا وبعد يومين عقدت الهدنة بين ايطاليا وفرنسا.
ـ المترجم ـ

التزام بريطانيا - كدولة كبرى - بالاستجابة لرجاء اتاتورك بالتحول من اسطنبول الى العاصمة الجديدة انقرة . وقد قام السفير البريطاني بتقديم مذكرة باسم بلاده فور عودته يطالب فيها الحكومة التركية بقطع جميع علاقاتها الاقتصادية مع دول المحور . ويبدو من متابعة الصحف الصادرة في بلدان الحلفاء ان هذه الاعمال مدبرة مسبقا وتم الاتفاق عليها.

وقد ذكر لي السيد نعمان بأن تركيا ستتمسك بمصالحها الاقتصادية ضمن مجالات التبادل التجاري المتاحة لها ولكنها ربما ستضطر مرغمة على التوقف عن التعامل الاقتصادي مع دول المحور.

ولما سألته عن وسائل الضغط التي يحتمل ان يتبعها الحلفاء للضغط على تركيا لاجبارها على الانصياع لرغباتهم قال ان تركيا بحاجة دائمة للحصول على بعض المواد الاولية المهمة كالمطاط والقصدير والقطن واحيانا الحبوب كما انها بحاجة ملحة للنفط ووصول كل هذه المواد الى تركيا يتوقف على موافقة الحلفاء. وقال انه سيسعى بكل ما اوتي من قوة لينأى ببلاده عن الحرب.

ولكن تركيا ربما ستضطر على الدخول للحرب اذا ما تعرضت لضغوط اقتصادية شديدة لاسيما وان اقتصادها متوقف على الحلفاء.

وقد اكد بهذه المناسبة على تمسك بلاده بالاتفاقيات المعقودة مع الدول وهو يعلم بأن الاستمرار على تنفيذ تلك الاتفاقيات سيجعل تركيا عرضة لضغوط جديدة أشد وطأة . وعليه فأنه لا يرى ضرورة لارسال وفد الماني آخر للنظر في تجديد اتفاقية التبادل التجاري بالوقت الحاضر.

ويبدو انه ينتظر تغير الموقف العسكري لصالحنا لكي يكون موقفه اقوى تجاه الحلفاء».

ولما وجدت ان الاتراك انفسهم اخذوا يتوقعون اضطرارهم على الاشتراك بالحرب اذا ما ازدادت عليهم الضغوط السياسية والاقتصادية قررت الطيران الى برلين ثم قدمت تقريرا شفويا في مقر هتلر عن الموقف

السائد في تركيا وزودته بالمعلومات المستجدة وصارت هذه المعلومات مهمة جدا لنا خلال الاشهر القليلة التالية.

ولما اطلعت في ذلك المقر على سير العمليات العسكرية ادركت مدى تدهور موقفنا على مختلف الجبهات وقدرت ان اسباب ذلك ترجع الى عدم مقدرة القيادة العليا . ذلك لأنني لاحظت تدخل هتلر في تحركات بعض الأفواج وضياعه في غمرة التفاصيل غير الضرورية حيث جعل تحركات تلك الافواج رهينة بأمر يصدر عنه لاحقا. وكان هذا الانتحار بعينه لاسيما وان آمرينا وقادتنا تعلموا ــ بموجب كراسات القيادة العسكرية ــ الاستقلال بالتصرف ضمن المهمات المحددة لهم لكي يظهروا ابداعاتهم ومبادراتهم ويستغلوا الفرص الذهبية التي تتاح لهم في الميدان . وعليه فقد قدرت اننا كلما وضعنا حدا أسرع لهذه الحرب كلما كان ذلك افضل. ولاحظت أن غارات الحلفاء الجوية أخذت تزداد شدة يوما بعد يوم على مدن المانيا وتحيلها الى اكوام من الركام وان المانيا اخذت تخسر آلاف الارواح في كل يوم مما حدى بي أن اقرر مضاعفة جهودي للاتصال بالرئيس روزفلت والحصول على جوابه.

وكان من المهم جدا لي ان عشت ليلتين ببرلين لا يمكن ان انساهما ما حييت عندما شهدت بأم عيني شدة وطأة الغارات الجوية عليها . حيث قبعت مع ولدي وبناتي في قبو الفحم ببيتنا الكائن في شارع لينيه رقم ٩ ونحن نسمع اصوات الانفجارات المدوية وتومض امام ابصارنا من كوة القبو الضيقة السنة اللهيب المحرق لمنشآت وطنية عزيزة على افئدتنا . وقد نالت المنزل احدى قنابر الحريق فأتت على غرفة المكتبة ومع اننا كافحنا الحريق حتى اطفأناه الا ان المسكن لم يعد صالحا للسكن بسبب خلع جميع ابوابه وتحطم جميع نوافذه اثناء عملية الاطفاء كما دمر سطح المنزل ايضا. وعليه فقد أردنا قضاء بقية الليلة في فندق ايسپلاناده القريب، لأنه كان البناء الوحيد الذي لم يصبه الضرر في تلك المنطقة. لكننا لم نفكر بالراحة بعد ان انتشرت النيران من حولنا في البيوت المجاورة فساهمنا في عمليات مكافحة

الحرائق. وفي الصباح تبين لي بأن جميع الابنيــة الممتدة على طوار شارع فيلهلم قد اصابها الدمار وكانت منها أبنية وزارة الخارجية الالمانية . كمـا اتت الغارة الجوية على جميع مباني محطات القطارات لدرجة جعلتني اشك في امكانية السفر مساء ذلك اليوم عائدا الى تركيا . ومن ظهر ذلك اليوم رابطت في محطة قطار سيليزيا املا في الحصول على قطار يتجه نحو الشرق وبعد انتظار طويل خيم الظلام وحدثت غارة جوية أخرى جعلتنا نبحث بلهفة عن مأوى يقينا شر الطائرات المغيرة.

وفي خضم هذه الظروف العسيرة وصل القطار الموعود الى المحطـة مما أثار اعجابي بحسن ادارة سكك الحديد واخلاص رجالها ومهارتهم في تدبير النقل المنتظم حتى في أسوأ الظروف.

جـاني امير البحر هورتي ان اقوم بزيـارة لبودابست. فأستقبلني بحفاوة واخذني بالقطار الى ميزوهيغويس وهي المصيف الهنغاري الممتاز الواقع على حدود رومانيا . وكان الوصي على عرش المجر يقيم لوزرائه في كثير من الاحيان حفلات صيد في تلك المنطقة. وعندما وصلنا اليها عرض علي وزير داخليته كيرستس فيشر وثيقة غريبة هي تقرير عن «عصبة الالمان» في هنغاريا أي (النازيين الهنغاريين) تقترح فيه جعل هنغاريا اقليما المانيا وقـد ابدى الوصي على عرش المجر استهجانه لمثل هذا المقترح الذي يراد به القضاء على سيادة دولة صديقة لالمانيا وكان اسلوبه في الحديث مهذبا الى ابعـد الحدود.

وعدت الوصي هورتي بايضاح وجهة نظره لبرلين وقد بررت بوعدي فور عودتي الى برلين لأن رئيس وزراء هنغاريا السيد نيكلوس فون كالاي قال لي بأنه لم تعد تتوفر لديه اية اتصـالات مع القنصل الالماني العقيد في وحدات العاصفة[٢] هانس فون ياغوف. وقـد زعم هورتي نفسه بأن من

[٢] هي الوحدات المعروفة بمختصر تسميتها SA والتي درج المترجمون العرب على اعتماد مختصر التسمية في كثير من المواضيع المترجمة عن الالمانية او عن الانكليزية .

ـ المترجم ـ

الواضح عدم امكانية انتهاء الحرب بتأثير استعمال السلاح وحده . وعليه فقد اراد اشعار زعماء الدول الاجنبية بأنه يرغب بالتعرف على مقاصد الدول الغربية . وقد ايدت من اعماق فؤادي اقدامه على هذه الخطوة التي تدل على حرصه الشديد على الحفاظ على سيادة بلاده بعد ان لمس مطامع الدولة الكبرى التي سبق ان حالفها وخاض الحرب الى جانبها.

أما المنبع الجديد للمعلومات فكان (شيشرون)[٣] ويمكن للراغب في الاطلاع على تفاصيل هذه القضية الرجوع الى الكتاب الذي وضعه الملحق السابق بالسفارة السيد لودفيغ مويتسيش[٤] والمعنون (عملية شيشرون) وكنت من حيث المبدأ ضد نشر هذه القصة لأنني لم اشأ جعل زميلي الانكليزي سير هيوغ بموقف غير مريح بعد الحرب.

وكان ولدي قد تعرف على عائلة سير هيوغ ببكين ولما رجع ولدي من الارجنتين الى أوربا بعد نشوب الحرب عرج على انقرة فتلقاه سير هيوغ بترحاب بالغ وتحدث اليه بكل مودة. وعليه فقد تأثرت بهذا الوفاء وأردت ان اوفي الرجل بعض حقه بالعمل على منع نشر هذه القضية التي تمسه شخصيا . ولكن اقدام معاوني السابق على سرد كل تفاصيل القصة وتكريمه لي بعرضها علي قبل طبعها جعلني بموقف غير القادر على الاستمرار بالوقوف بوجه السيد مويتسيش ومنعه من نشر قصته المثيرة. وكان ان نوهت في

(٣) كان شيشرون رجل دولة روماني وقانوني وفيلسوف ومعلم وكاتب بشر بالافكار الجمهورية وقد ولد عام ١٠٦ قبل الميلاد وتلقى علومه في روما وفي اليونان وقد تنقل بين روما واليونان وكتب الكثير من الكتب واليه يعود الفضل في نقل الفلسفة اليونانية الى اوربا وقد قال عنه المفكر الفرنسي ڤولتير (نحن مدينون بالشكر الجزيل لشيشرون لانه علمنا كيف نفكر) وقد قتل شيشرون بعد أسره في ٧ كانون الاول عام ٤٣ ق.م نتيجة لملابسات سياسية . وقد اطلق اسم شيشرون كاسم رمزي على الجاسوس (ديلو) في المراسلات السرية بين السفارة الالمانية بأنقرة ووزارة الخارجية الالمانية . ـ المترجم ـ

(٤) الكتاب المذكور مترجم للعربية . وقد عاش السيد لودفيغ مويتسيش بعد الحرب في قريته الصغيرة بالنمسا ولا زال فيها حتى يوم الناس هذا . ـ المترجم ـ

الترجمة الانكليزية للقصة المذكورة ــ عند تقديمي لها ــ الى ان الذي حدى بي لاقرار نشرها هو الرغبة المخلصة في ذكر الحقيقة ليس الا.

وعلى اية حال فان القضية بدأت بشكل أدهشني تماما . فقد جائني السيد ينكه ــ وهو احد وزيري المفوضين ــ في أحد الايام يحمل تقريرا يتضمن الافادة بأن خادما يعمل ضمن هيئة دبلوماسية اجنبية اتصل بهاتفيا وزوده بمعلومات مهمة. وكان السيد ينكه صهراً للوزير فون ريبنتروب وسبق له ان عمل في تركيا سنين طويلة بصفة تاجر . وذكر في التقرير ان الخادم الذياتصل به كان يدعى (ديلو) ولكنني علمت ان اسمه الحقيقي هو (الياس). ولم اكترث للقضية عندما اخبرت بها لأول مرة لأنني لم اتصور ان جاسوسا يمكن ان يشرع بعمله عن طريق الاتصال بالهاتف . وعليه فقدامرت السيد مويتيسيش بالتحري عن مدى صدق الرجل في تعامله معنا.

كان السيد لودڤيغ مويتسيش ملحقا تجاريا في سفارتنا ولكنه كان في الحقيقة ممثل ادارتي الشرطة السرية للدولة وأمن الدولة . ولكي اوضح وجوده بهذه الصفة بعد ان اشترطت على الحكومة عدم تعامل رجال الشرطة السرية للدولة مع السفارة التي اشغل رئاستها خشية تدخل هؤلاء بأعمالنا الحساسة فانني قبلت وجودهم بعد نشوب الحرب بطبيعة الحال تلبيةلمتطلبات الأمن ولكن بشرط كونهم يعملون بأمرتي وكان السيد مويتسيش من رجال سفارتي الا انه لم يكن يستمزج رأيي بالتقارير التي كان يرفعها . كما انني لم اكن مهتما بالاطلاع على تلك التقارير. ولم نكن من جانبنا نزوده بأية معلومات عن النشاط السياسي والدبلوماسي للسفارة. ولهذا السبب فانه لم يزود بالخطوات التي اقدمت عليها بعد ان زودني بالمعلومات الثمينة التي حصل عليها من البرقيات الانكليزية المسروقة. واذا زعم في كتابه المشار اليه آنفا بأن المعلومات المهمة التي تمكن من الحصول عليها لم تستفد منها المانيا كما ينبغي لأنها قوبلت بالاهمال البالغ فانني اخالفه تماما برأيه هذا.

ولو كنت قد ادركت صحة المعلومات التي زودنا بها ذلك الرجل لأوصلتها الى ملحقنا العسكري بدلا عن ممثل الشرطة السرية للدولة . ولو

لجأت الى هـذا الحل لوفرت على نفسي الكثير من المزعجات • ولم يعد بمقدوري بطبيعة الحال تحويل القضية من ايدي رجال الشرطة السرية للدولة الى أيدي رجال الجيش بعد ان انهمك السيد مويتسيش بمعالجة القضيـة بكل أبعادها•

الا انني أظن بأن رجال الجيش ـ لو كانوا قد تولوا معالجة القضيةـ ما كان بمقدورهم التعامل مع (ديلو) بنفس المهارة التي اظهرها زملائهم رجال الشرطة السرية•

سوف لن انسى ذلك اليوم الذي عرض علي به السيد مويتسيش اولى ثمرات اشتغاله مع شيشرون • وكان مويتسيش قد اشتغل بهمـة طـوال الليل في تحميض وطبع اول شريط تلقاه من شيشرون فدخل الى مكتبي مهمل القيافة وغير محلوق اللحية ووضع مجموعة التصاوير التي انجزها قائلا:

« سيدي السفير هذه هي اول نتـائج عمل هذا الرجل الثمين الذي وضع نفسه بخدمتنا»•

وكانت الصور لمجموعـة من البرقيـات الانكليزية • ولما سألته عن مجتوياتها هز كتفه لأنه لم يكن يعرف من اللغة الانكليزية ما يكفي لمعرفـة محتويات تلك المجموعة من البرقيات • ولما تناولت الصورة الفوقانية ادركت من الوهلة الأولى انني ازاء وثائق حقيقيـة فسألت السيد مويتسيش وقد تملكتني خشية الشرب من نفس الدواء:

« هل هناك مثل هذا الرجل بين ظهرانينا بحيث يمكنه تصوير وثائقنا البالغة السرية ؟»•

وكان الباعث الذي دعاني للثقة من صحة الوثائق المصورة هو انها كانت مطبوعة على نماذج انيقة من اوراق وزارة الخارجية البريطانية وهي تشكل مجموعة من البرقيات المرسلة الى سفارتها بأنقرة ولم تكن الصيغة والمضمون لتدع أدنى شك بأصالتها • وكانت من ضمنها رسـالة تحتوي على اجابة السير سير هيوغ كناتشبول على التوجيهـات التفصيلية الواردة اليه من

وزير الخارجية ايدن وكان الغرض منها تحريض تركيا على الاشتراك بالحرب الى جانب الحلفاء.

قام الدكتور ارنست كالتنبرونر – الرئيس المباشر للسيد مويتسيش – باخبار هتلر بأهمية المصدر الجديد المتمثل بالوكيل الذي اتصل بنا من تلقاء نفسه .

ثم تلقى السيد مويتسيش رسائل وتوجيهات عديدة من برلين بصورة مباشرة دون الاتصال بي. فلما اخبرني بأنه تلقى اوامر بوجوب الاتصال ببرلين مباشرة قلت له غاضبا :

« طالما انا السفير الالماني في انقرة فانني لا اسمح بمثل هذا التجاوز قط. اخبر بهذا رئيسك المباشر. فأنت لا تزال تعمل بأمرتي. وانني آمرك بأن تطلعني على كل ما يقع بيدك من معلومات».

وكان هذا اجراء طبيعيا . فالتقييم السياسي للوثائق التي نستولي عليها سيبقى ضمن مجال اختصاصي. ولو كانت لبرلين رغبة اخرى لامكنني الدخول معها بحوار .

أما لو شاء فون ريبنتروپ ان يؤيد كالتنبرونر في حجب تلك المعلومات السرية عني فانني كنت سأستقيل فوراً.

أما بصدد اشارة السيد مويتسيش الى فضحي للاسرار فان الواقعة التي اشار اليها كانت كالآتي:

كانت احدى البرقيات الموجهة للسفير البريطاني تنصحه التعجيل بالاتصال بالسيد نعمان واذكر ان تلك البرقية كانت تتضمن وجوب استحصال موافقة الحكومة التركية على نصب اجهزة رادار انكليزية في تراقيا الشرقية لكي يسهل على أسراب الطائرات الانكليزية التوجه لقصف منابع النفط الرومانية . وقد وجدت ان من الضروري ان أبادر بالاحتجاج فوراً. وعندئذ وجب علي ان اوضح للسيد نعمان بأنني حصلت على معلومات مؤكدة من الجانب البريطاني بشكل ما. فزعمت له بأنني حصلت على هذه المعلومات من

الملحق الجوي البريطاني أو احد اعوانه الذي تحدث بهذا الشأن امام احد السادة من موظفي السفارات المحايدة. وحذرت وزير الخارجية التركي من مغبة السماح للانكليز بنصب محطـات الرادار في تراقيا الشرقية لأن ذلك ربما سيجعل برلين تمتعض وتقدم على شن غارات انتقامية على اسطنبول. فأستغرب الرجل من دقة معلوماتي وعجل بالاتصال بالسفير الانكليزي فورا ليخبره بأقوالي.

وفي صباح اليوم التالي وضع السيد مويتسيش امامي مجموعة برقيات مصورة تضمنت احداها توضيح من السفير البريطاني الى لندن يسرد به كل ما قاله له وزير خارجية تركيا عن مقابلتي له وجاء في تلك البرقية قوله:

« ان فون پاپن يعرف اكثر مما ينبغي»

وقد عرضت هذه الرسـالة المسترقة على الوزير فون ريبنتروپ ايضا بطبيعة الحال . وكان من رأيه ان مفاتحة السلطات التركية بهذا الشأن لابد ان تؤدي الى تهديد المصدر بالافتضاح. ولما ذكرت له السبب الذي دعاني لهذه المبادرة قال بأنه في حالة كون المصدر بالغ الاهمية فيجب عدم المغامرة لدرجة تهدد حياته.

ومن نافلة القول ان أؤكد في هذا المقـام بأنني اعطيت لذلك الوكيل اسمه الرمزي (شيشرون) متوقعا افتضاحه بنسبة عالية . الا انه لم يكن بين افراد السفارة عدا نائبي من يعلم شيئا بأمره. اذ لم يعلم به الملحق العسكري المسؤول عن قضايا الدفاع ولا امينة سري الخاصة الآنسة روزه التي عملت معي سنين طويلة وقد فاتحتني يوما بطلب استقالتها لأنها لاحظت قيامي بحجب جزء من الاسرار عن انظارها وهذا ما اعتبرته دليل على عدم تمتعها بثقتي. وكنت اكتب رسائلي الى برلين بيدي. وكان السبب المباشر لهذه التحوطات المبالغ بها هو فرار امينة سر الملحق مويتسيش والتي تحظى بثقة ادارة الامن العام الالمانية الى صفوف الاعداء حيث أعطتهم صورة واضحة عن طبيعـة اشتغال مؤسسات هملر وكالتنبرونر.

وبعد ان اطلعت على كتاب مويتسيش قرأت للمرة الاولى عن البرقية

التي تشير الى قصف صوفيا جوا فأستهجنت اللجوء الى هـذا الاسلوب لاثبات صحة المعلومات واظن ان مثل هذه البرقيات لابد ان تجد طريقها الى مكتب كالتنبرونر • ولابد ان تنجلي الحقيقة لكل ذي عينين اذا مـا اميط اللثام عن ملابسات هذه القضية•

وكانت المعلومات التي حصلنا عليها عن مؤتمر وزراء الخارجية بموسكو واكملتها مقررات مؤتمري طهران والقاهرة والتي استمرت حتى شباط ١٩٤٤ قد جعلتنا في ذلك الوقت الحرج ازاء نتائج لا تقدر بثمن • فقـد تضمنت البرقية المرقمة ١٥٩٤ والمؤرخة في ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٣ والصـادرة من وزارة الخارجية البريطانية الى سفيرهـا في انقرة مقررات مؤتمـر طهران وتضمنت ما يلي:

« ان الخطوة التالية التي نصح بها مستشارونا العسكريون يتوقف تنفيذها على اجابة تركيا • لأن هذه الاجابة ستحدد لنا عما اذا كنا سنتصرف على اساس وجود تعاون انكلو-تركي او عدم وجوده• ويجب ان تتذكروا بهذه المناسبة بأنه تم الاتفاق في مؤتمر موسكو على استمالة تركيا وزجها بالحرب قبل نهاية هذا العـام • وستلجأ الدول الثـلاث الكبرى ـ عند الاضطرار ـ الى ممارسة ضغوطها على تركيا بصورة مجتمعة •• وانا لا اعلم مدى الضغط الذي مارسه سفيرنا في موسكو على سفير تركيا فيها ولكن صار من المعلوم انه تقـدم بطلب اشتراك تركيا بالحرب• حيث قال السيد ليثينوف في اجتماع سفراء الحلفاء بموسكو يوم ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٣•• (لقد بات من المتفق عليه دعوة تركيا للاشتراك بالحرب•••) فاذا اراد الاتراك تجنب التهديدات ورغبوا في بحث موضوع دخولهم للحرب معنا على انفراد فيجب أن يستعجلوا ويتخذوا قراراتهم المناسبة »•

وقد أجاب السفير على رسالة ايدن هذه ببرقيته المرقمة ٨٧٥ التي جاء فيها:

« أكد لي نعمان استعداده للمضي معنـا حـالما يصبح من الواضح ان

الحركات في الغرب[٥] ستبدأ بنجاح لصالح الحلفاء أي بعد اسبوعين من الشروع بها مثلا •• واذا لم نحقق ادخال تركيا للحرب خلال هذه الايام فقد يكون من المناسب اتباع رأي نعمان الذي اكد استعداده لبحث تفاصيل هذه الفكرة مع رئيس الوزراء» •

وقد استطعنا بفضل شيشرون الاطلاع على المحادثات التي جرت بين الرئيس التركي وتشرشل وروزفلت في القاهرة • وهكذا تعرفنا على الوسائل التي لجأت اليها الحكومة التركية للتخلص من ضغط الحلفاء المتزايد عليها لاجبارها على الاشتراك بالحرب •

بعد اختتام مؤتمر طهران في ١ كانون الاول ١٩٤٣ والذي حضره تشرشل وروزفلت وستالين تلقى السفير البريطاني في انقرة توجيها من حكومته لدعوة رئيس جمهورية تركيا لمقابلة الرؤساء الثلاثة المذكورين في القاهرة•

الا ان الرئيس اينونو رفض من حيث المبدأ خوض اية مناقشات القصد منها تنفيذ مقررات مؤتمر موسكو بدعوة بلاده للاشتراك بالحرب • الا انه أبدى استعداده لتلبية الدعوة اذا كان القصد من المناقشات ايجاد افضل الوسائل التي تحقق مصالح تركيا • وقد ابدى الحلفاء استعدادهم لاعطائه هذه التطمينات • ولم اتصور كيف يمكن للحلفاء الايفاء بهذا الالتزام اذا كانوا مصرين على تنفيذ مقررات مؤتمري موسكو وطهران • ولكن يبدو ان زعماء الحلفاء ارادوا بهذه الكذبة الصغيرة استدراج الرئيس اينونو للاشتراك معهم بحوار يستطيعوا بنتيجته تحقيق اغراضهم السياسية•

في ٣ كانون الاول ١٩٤٣ غادر الرئيس اينونو انقرة الى اطنة وبصحبته وزير الخارجية نعمان منمنجي اوغلو والامين العام للوزارة السيد أجيكالين حيث كانت بانتظارهم في المطار طائرة الرئيس روزفلت الخاصة•

---

(٥) المقصود انزال قوات الحلفاء في سواحل فرنسا والذي تم بعدئذ في ٦ حزيران ١٩٤٤ •

— المترجم —

بين الوفد التركي في تلك المفاوضات موقفه بصورة جازمة وواضحة حيث قال الرئيس عصمت اينونو بأنه لا يرغب بالامتثال لمقررات مؤتمري موسكو وطهران والاشتراك بالحرب وجعل بلاده كأداة من ادوات الشطرنج يلعب بها الحلفاء لتحقيق مراميهم • وقال انه يبدو له بأن الحلفاء يرغبون باستعمال القواعد الجوية والبحرية التركية لمواصلة الحرب انطلاقا من الاراضي التركية دون تكليف القوات المسلحة التركية بمهمات القتال وهذا ما ترفضه تركيا أيضا• الا ان الرئيس التركي ابدى استعداده بطبيعة الحال لمناقشة الخطط التي تهم مصالح تركيا في المرحلة التي ستعقب الحرب • كما ابدى الاتراك قلقهم من تصريح ستالين بأن روسيا سوف تعلن الحرب على بلغاريا حال موافقة تركيا على الانحياز للحلفاء•

ولو اطلعنا على مقررات مؤتمر موسكو وقلق الاتراك من اعلان روسيا الحرب على بلغاريا لتعجبنا عند مطالعة مذكرات السفير البريطاني سير هيوغ التي جاء فيها:

« لم ينس الاتراك كيف كانوا تابعين لألمانيا في عام ١٩١٤ ••• ذلك لأن الالمان استخدموهم ــ دون وازع من ضمير ــ مجرد اداة من ادوات الشطرنج يلعبون بهم على رقعة الحرب • ولم يراعوا مصالح تركيا وانما كانوا يسعون لتحقيق مطامعهم»•

فيا لها من محاولة مبتسرة لزحزحة الاتراك عن عنادهم بتجنب الدخول للحرب ــ رغم انها لم تستند للحقيقة ــ والاصرار على ذكر مثل هذه الآراء حتى في المذكرات•

بعد مفاوضات عسيرة ومطولة استطاع الحلفاء التغلب على شكوك الاتراك فأعلنوا في القاهرة بأن الحكومة التركية سوف تعلن عن موقفها خلال شهر كانون الاول ١٩٤٣ • ويبدو ان الحلفاء لم يرغبوا بجعل خططهم لسنة ١٩٤٤ معلقة بنهايات سائبة • وتضمنت الطلبات التركية (بالاضافة الى تسليح وتجهيز الجيش التركي بمعدات مبالغ بها) دفع تكاليف باهظة في حالة موافقة تركيا مستقبلا على طلبات الحلفاء كما تعهد الاتراك من جانبهم

بانجاز متطلبات المؤسسات والمرافق السوقية في الفترة الممتدة لحين اشتراكهم بالحرب • وبعد دراسة موضوع القواعد الجوية والبحرية من قبل هيئة الاركان العامة التركية ذكرت بأنه من المتعذر بقاء تركيا على الحياد بعد استخدام الحلفاء للقواعد الجوية والبحرية التركية•

وفي كانون الاول ١٩٤٣ كتب سير هيوغ برقية الى وزارة الخارجية البريطانية وتمكنا من الحصول على نصها الذي كان مفاده:

« لا ينبغي علينا لوم الاتراك اذا ما قرروا اجابتنا سلبا بشأن اشتراكهم بالحرب »•

وتبين من متابعة خطط الحلفاء لسنة ١٩٤٤ انهم كانوا يبغون زج الاتراك في التعرض الشامل لتطهير البلقان من القوات الالمانية• وكانت تلك الخطط تتضمن قيام الحلفاء بانزال في ساحل سلانيك• ولكي تتوفر متطلبات الانزال المذكور فقد ارادوا ان تكون القواعد الجوية التركية المحيطة بميناء ازمير التركي جاهزة قبل ١٥ شباط ١٩٤٤ وكان المطلوب من الاتراك السماح بتكديس مقادير وفيرة من القنابر في بلادهم والسماح بهبوط اعداد كبيرة من اسراب المقاتلات والقاصفات الحليفة استعدادا لتنفيذ مهمات الاسناد•

ادى حصولنا المستمر على مراسلات السفارة البريطانية بأنقرة مع لندن بفضل شيشرون الى مضاعفة نشاطنا السياسي والدبلوماسي لأننا استطعنا الحصول على صورة واضحة عن تبادل الآراء بين تركيا والحلفاء والمناقشات المتواصلة بشأن المستقبل بعد اندحار المانيا الذي اصبح مسألة وقت ليس الا كما اننا حصلنا على فكرة عامة عن خطط حركات الخصم في وقت مبكر•

وقد تبين لنا وجود اختلاف في وجهات نظر زعماء الحلفاء الثلاثة بشأن مستقبل المانيا نتيجة لما حدث في مؤتمر طهران•

فالاتفاق فيما بينهم على فرض استسلام المانيا دون قيد او شرط لم يحل التناقضات التي نتجت عن اختلاف آرائهم• فبينما كان تشرشل وستالين

يعتبران هذا الطلب وسيلة تعبويـة رديئة لأنهمـا كانا يريدان تحطيم ارادة شعبنا ـ ومعه ارادة هتلر ـ على المقاومة باستنزاف آخر طاقاته في حين كان رأي روزفلت مختلفا عنهما.

تم اخبـار هتلر ببرقياتي ولم تحصـل مراسلـة روزفلت لنـا في ٢٤ كانون الاول ١٩٤٣ على اقل اهتمام في مقر قيادتنا. وجاء في تلك الرسالة:

« ان الأمم المتحدة ليس في نيتها استعباد الشعب الالماني. فنحن نرغب باعطائه فرصة طبيعية ليعيش بسلام ويكون عضوا نافعا في الاسرة الاوربية».

وكان هذا كلاما رائعا لو انه كان جادا في تحقيق عرضه هذا. وأرى على ضوء مؤتمر طهران وموقف روزفلت بأنه كان من الممكن حدوث تغير في سير الاحداث لو ان هتلر كلف هملر بتوسيط شخص سويدي مؤتمن للقيام بمحادثات في لندن خلال كانون الاول ١٩٤٣ من اجل وضع تفسير محدد لعبارة «الاستسلام دون قيد او شرط».

ويشير كوردل هول[٦] في مذكراته الى هذه النقطة بقوله:

« أخبرنا الانكليز بأنهم يرون بأن اجابتنا لالمانيا يجب ان تقتصر على القول بأن الأمم المتحدة تطالب المانيا بالاستسلام دون قيد او شرط دون الاشارة الى أي تفسير للعبارة . فأيدنا من جانبنا ضرورة اعطاء مثل هذا الجواب».

والطريف اننا تمكنا بفضل شيشرون من القاء نظرة على مقررات لجنة رؤساء اركان جيوش الحلفاء المنبثقة عن مؤتمر طهران وتبين من الاطلاع عليها وجود اختلافات في وجهات النظر بشأن خطط الحركات الواسعة.

اذ كان تشرشل يصر بعناد على جعل الانزال الرئيسي في البلقان بالهجوم على سلانيك او عبر البحر الادرياتيكي بدلا عن الانزال في سواحل شمال فرنسا . ثم حصل الاتفاق على القيام بانزال ثانوي في سلانيك ـ كان ذلك

---

(٦) هو وزير خارجية الولايات المتحدة الامريكية خلال وبعد الحرب العالمية الثانية .

ـ المترجم ـ

بناء على رغبة ستالين ــ على ان تندفع القوات الانكليزية بجهدها الرئيسي في عملية (اوفر لورد) التي تحدثت عنها الكثير من البرقيـــات التي صورها شيشرون.

ومع ان رغبة تشرشل كانت منصبة على تحرير بلدان البلقان من الالمان ومنع وقوعها بيد السوفيت الا ان رغبة ستالين كانت مناقضة لذلك تماما لأنه كان يرى ان (تحرير) بلدان البلقان يدخل ضمن مهمته وهذا معناه ان أي هجوم انكليزي من هذا الاتجاه من شأنه اعاقة خطط ستالين المقبلة.

اتاح لنا الاطلاع على محادثات القاهرة وقرارات طهران فرصة التعرف على نوايا العدو لدرجة جعلتنا نتعرف على دقائق فعاليات العدو المقبلة.

وقد ذكر السيد مويتسيش في كتابه الملمع عنه آنفا ــ وهو في هذا على صواب ــ ان المعلومات التي وردت في برقيات شيشرون لم يصدقها رجال المقر الأعلى الالماني. لأنهم تصوروا انها لعبة استخبارات ماكرة يمارسهـا الخصم ضدنا. ولربما كان فون ريبنتروب من ضمن الناس الذين ايدوا هذه الفكرة لأنه دأب على حجب الأنباء السيئـة عن هتلر . الا ان التنبؤ المسبق بقصف مدينة صوفيا جوا يوم ١٥ كانون الثاني ١٩٤٤ ــ والذي تطرقت له آنفا ــ قطع دابر الشك بصحة الوثائق التي حصل عليها شيشرون.

لم اتلق من هتلر ولا من فون ريبنتروب أية وصايا بشأن السيـاسة العامة الواجب اتباعها بهذا الصـدد او ذاك. بينما كان السفراء الآخرون يحصلون من وزارات خارجيتهم على المعلومات المهمـة والوصايا الدقيقة وآراء حكوماتهم بشأن كل قضية ومواقفها من كل مسألة. وعليه فقد كان لزاما على وزارة الخارجية الالمانية ان توضح لي كيفية التصرف بالمعلومات المهمة المكتسبة عن طريق شيشرون . ولكن هل صحيح ما زُعم بعد الحرب من ان خطط الحركات التي اراد تشرشل تنفيذها ازاء البلقان قد قلصت بصورة تدريجية الى حد الاضمحلال ؟ وللاجابة على هذا السؤال فان طبيعـة الجواب تتوقف على القرار الذي سأتخذه بهذا الصدد.

فهذه القضية تتطلب قدرا كبيرا من تحمل المسؤولية. ويبدو لي ـ اذا ما ناقشت الموضوع من وجهة النظر العسكرية البحتة ـ ان الاندفاع من سلانيك الى الشمال باتجاه اليونان ومقدونيا ويوغوسلافيا يعتبر من الامور البالغة الصعوبة بسبب الطبيعة الجبلية للمنطقة وافتقارها للطرق. ولو اندفعت قوات الحلفاء عبر ايطاليا في ربيع ١٩٤٥ وصولا الى جبال الالب لكان من الأسهل عليها التوغل في بلاد البلقان.

انني لا ارى ان مدعاة السبيل الذي سلكه الحلفاء الغربيون هو مجرد تقصير امد الحرب. ولكن لو اقدم الحلفاء الغربيون على الاندفاع في البلقان فهل كان عليهم ان يتحاشوا سيل القوات السوفيتية أم انهم يوقفون ذلك السيل؟ ان الذي حدث هو ان اخليت هذه الساحة لصالح الروس بناء على طلب ستالين وبتأييد من روزفلت. الا ان الأمر الذي لاحظته عن كثب هو محاولة الروس الدائبة للوصول الى المضائق التركية والحصول على موطيء قدم فيها. ولقد تذكرت ملياً مقترحات مولوتوف التي عرضها علينا في تشرين الثاني ١٩٤١ فلو منحنا تركيا ومضائقها للروس لاصبح الطريق في شرق البحر الابيض المتوسط مفتوحا لنا ولأصبحت الجبهة الاوربية مغلقة من الجنوب.

ادى استرسالي بهذه الافكار الى التصور بأنه كان من الصحيح والمهم للمستقبل ان اعمل من موقعي على احباط اية حركات يزمع الحلفاء تنفيذها ضد البلقان. وهذا ما يتوائم مع مراقبتي للموقف الذي ساد أوربا بعد ان وضعت الحرب اوزارها. كما اننا نعلم الآن كيف ان الحلفاء الغربيين كانوا حريصين على منع تحقق الكابوس المتمثل باحتمال توصل ستالين الى شكل من الصلح المنفرد مع المانيا.

لهذه الاسباب فقد حرصت خلال الاسابيع التالية على استغلال المعلومات المكتسبة من الرسائل التي زودنا بها شيشرون من أجل تعزيز موقف الاتراك ضد خطط حركات الانكليز. وكان وزير خارجية تركيا وقادة جيشها على ثقة من ان انطلاق القوات الانكليزية من قواعد جوية وبحرية تركية لابد ان يؤدي الى هجوم مقابل الماني يعرض بلادهم للخطر وهذه حالة لا يمكنني

التصدي لها والعمل على منعها بأية حال من الأحوال. وكنت قد ذكرت لهؤلاء بصورة واضحة بأن انتقامنا سيتمثل بقصف جوي شديد على كل من اسطنبول وازمير بحيث يجعل عاليهما سافلهما.

بناء على ذلك فقد شرعت هيئة الأركان العامة التركية بمطالبة حلفائها الجدد بالتعجيل بتجهيز القوات المسلحة التركية بأسلحة مقاومة الطائرات وجعلوا تعاونهم مع الحلفاء رهين بوصول تلك الاسلحة والمعدات وعندئذ جد رجال البعثة العسكرية البريطانية باعداد قوائم مطولة بهذه الاسلحة واعتدتها ومعداتها الضرورية وقد لاحظت من الاطلاع على البرقيات المتبادلة فيما بينهم ان الانكليز يميلون لمماطلة الاتراك بهذا الصدد.

وقد لاحظنا ان الأسلحة المطلوبة بدأت تصل الى موانيء ثانوية امثال الاسكندرونة ومرسين ولكن ببطء شديد ثم تنقل منهما الى الاناضول بقطار طوروس ومعنى هذا التلكؤ ان التجهيز سيستمر زهاء السنة.

جاء في المذكرة الجوابية التي قدمتها الحكومة التركية للحكومة الانكليزية في ١٢ كانون الاول ١٩٤٣ والتي استرقها شيشرون من خزانة السفير الانكليزي سير هيوغ بعد ايام قلائل ووجدت سبيلها الى مكتبي اعتذار نعمان عن مساهمة تركيا في الحركات ضد سلانيك في ١٥ شباط ١٩٤٤ مالم يتم تجهيز القوات المسلحة التركية بتجهيزات ضرورية وبمقادير كافية.

اضطرب الحلفاء لوصول هذه المذكرة التركية الى ابعد الحدود . وكان من رأي السفير سير هيوغ صرف النظر عن التودد الى تركيا وانهاء علاقات الصداقة القائمة معها. الا ان وزير الخارجية سير انطوني ايدن اخبره ببرقية جوابية بأن هذا الاجراء العدائي غير ممكن في الظروف الدولية السائدة . لكنني اكدت لهتلر بأن تشرشل سوف لن ينفذ هجومه المزعوم على سلانيك في شباط ١٩٤٤ وكانت هذه المعلومات مهمة جدا لتوزيع القوات المسلحة الالمانية وفق الحركات الجارية.

اقتصرت معلوماتنا عن عملية (اوفر لورد) على معرفة هذا الأسم الرمزي

فحسب ٠ ولقد بذلت جهودا مضاعفة في شتى الاتجاهات لمعرفة المزيد عن هذه العملية وتوخيت الحصول على مكان وزمان تنفيذها ولكن دون جدوى٠

كان القرار التركي بالحصول على مقادير وفيرة من الاسلحةوالتجهيزات من الحلفاء قبل الاقدام على الاشتراك بالحرب من القرارات الصائبة بطبيعة الحال وقد تفهمناه بكل ابعاده ٠ وكنت لا ازال متعلقا بأمل الالتقاء في يوم ما مع كل من تشرشل وروزفلت ووضع اسس الدفاع المشتركة عن اوربا اذا قبلا بتجنب تعريض المانيا لذل الاستسلام بدون قيد او شرط٠ وكان السيد ايرل قد اكد للبارون فون ليرسنر مرات عديدة بأنه يتوقع الحصول قريباعلى اجابة الرئيس روزفلت والتي ستكون لصالحنا٠

اعطت مقررات مؤتمري طهران والقاهرة (التي اطلعنا عليها جميعا بفضل نشاط شيشرون) لهتلر وفون ريبنتروب صورة مجسدة عما سيحدث لالمانيا بعد انتهاء الحرب لصالح الحلفاء٠ وأردت من جانبي ان اشرح لهتلر محاولات التوسط وفتح الحوار مع روزفلت للتوصل الى نهاية مشرفة للحرب واردت مفاتحته بذلك في اول زيارة اقوم بها للمقر الأعلى٠ الا ان كانون الثاني ١٩٤٤ أطل علينا بأعمال وفيرة لم تدع لي مجالا للسفر الى المانيا ٠ كما ان موقفي الشخصي تدهور في هذه الاثناء في نظر هتلر والزمرة المحيطة بهوعليه فان الزيارة المنتظرة لم تتحقق الا في اواخر نيسان ١٩٤٤٠

وعلى كل حال فانني يمكنني ان ازعم بأن المعلومات التي حصلت عليها بفضل عملية شيشرون اوضحت لي بجلاء مصير المانيا المنتظر ولذا فقد بذلت قصارى جهودي للتعجيل بانهاء الحرب٠ ووجب علي في تلك الفترة ان احـاول الاتصال بالرئيس روزفلت بأمل تخليص المانيا من ذل الاستسلام بدون قيد او شرط وان لم اتمكن فالعمل على انهاء الحرب مع الحلفاء الغربيين لانقاذ المانيـا من الخطر الشيوعي٠ ولم تكن مصلحـة الأمن الالمانية ولا السيد مويتسيش على علم بفعالياتي هذه بطبيعة الحال٠

لطالما سئلت عمـا آل اليه مصير شيشرون بعد الحرب ٠ وقد قيل لي

انه امتهن الغناء في اسطنبول دون ان يحقق أي نجـاح يذكر ثم انه شرع بالتظلم بين آونة واخرى زاعماً بأنه تعرض للتضليل فأصابه الفقر وساءت حالته. ومـا لبثت شركة فوكس الامريكية ان صورت شريطا سينمائيا يعرض قصة شيشرون بصورة مشوهة ويدعى ذلك الشريط (الأصابع الخمسة) وهو مفعم بالاساءة الى زميلي الانكليزي سـير هيوغ . كما ان الأميرة الپولندية التي حشرت شخصيتها في الرواية لم يكن لها أي وجود بالواقع.

تزايد عـدد افراد البعثة البريطانيـة في تركيا بصورة مضطردة رغم المذكرات العديدة التي وجهها السيد نعمان . كما ظهر إتجاه واضح بين قادة القوات التركية الى التصور بأن الحرب واقعة لا محالة . ولو ان اصدقاء المانيا الكثيرين ومنهـم سفير تركيا السـابق ببرلين السيد خسرو غيريده اكدوا لي مرارا بأن الحكومة وحزب الاكثرية ليست لهما أية رغبة في خوض غمار الحرب او حتى قطع العلاقات مع المانيا . ولم يتغير موقف الحكومة مني في مطلع العام الجديد حيث اهدى السيد نعمان لزوجتي بمناسبة رأس السنة تحفة فضية من أواني الطعام التركية القديمة.

أدى لوم الانكليز على تأخر تجهيز الجيش التركي بمتطلباته الضرورية الى نشوب ازمة داخلية حادة ضد قيادة الجيش ورئيس اركانه المشير فوزي تشاقماق. فقد زعم البعض ان الرجل اصبح في سن عالية وهو لا يتفهم ادارة الحرب الحديثة بالاضافة الى كونه منحاز للالمان بشكل سافر.

ويبدو ان الرئيس عصمة اينونو رأي أن من المناسب استبعاد صديقـه القديم ومساعده الكفوء تلبية لمتطلبات الموقف . وقد لعبت الولايات المتحدة الامريكية دورا مؤثرا في هذا المضمار . ولما اقيل المشير تشاقماق حل محله الفريق الأول قاسم اورباي ثم خلفه الفريق الأول صالح اومورتاغ وكلاهما من ذوي الميول الموالية للحلفاء الغربيين. لكن المشير فوزي پاشا تشاقماق الذي قاتلت واياه سويا في جبهة الاردن عام ١٩١٨ والذي قاتل بشكل متميز الى جانب الرئيس الراحل اتاتورك وصديقه الحميم الرئيس عصمة اينونو في حرب الاستقلال كان اكثر من رئيـس هيئة اركان اعتيادي لأنه كان خبيرا في

جميع المسائل العسكرية وتتجسد بشخصيتـه الرائعـة جميع المثل العليا وبخاصة الروح الوطنية الاصيلة وحب الشعب التركي. وانني لأعتبر نعت خصوم تركيا لهذا الرجل المجبول على المجاملة والمشهور بحسن الشمائل بأنه ميال للالمان او نعت قائد آخر بأنه ميال للانكليز من الاخطاء التي لا تغتفر ذلك لأن جميع القادة الاتراك كانوا من الوطنيين المتحمسين وكانوا جميعا يتصرفون وفق مصالح بلادهم ويخدمون شعبهم بكل اخلاص.

ويظهر ان برلين لم تكترث لهذه التغييرات لأنها كانت منشغلة بالاحتفال بيوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٤ وهو ذكرى وصـول هتلر الى السلطة حيث تحتفل الاذاعة الالمانية في مثل ذلك اليوم من كل عام بكلمة يلقيها عـادة هانز فريتشه وهو رجل حصيف عرفته فيما بعد عن كثب عندما سجن معي في نورمبرغ فبقينا معاً لفترة طويلة.

سافرنا في احد تلك الايام من اسطنبول الى بورصة بقصد المكوث في حماماتها بضعة ايام لمعالجة الروماتيزم المزمن الذي اعاني منه . لكن الهدوء الذي استمتعت به في عاصمة العثمانيين الرائعة لم يلبث ان انقطع بصورة مفاجئة بعد ان زارني أحد أعواني في السفـارة وهو الدكتور الاردت واخبرني بأن أحد افراد ادارة الامن الالمانية العـاملين في اسطنبول وهو الدكتور فرميهرن قد هرب الى صفوف الانكليز. والدكتور فرميهرن متزوج من البارونة پليتنبرغ وهي من قريباتي البعيدات وقد كان صدى هروب الرجل في برلين سيئا للغاية . وقد بالغ بعض خصـومي الالداء فطـالبوا باحالتي للمحاكمة فورا ولعل اسوأ النتائج المترتبة على ذلك الحادث هو ان ادارة الامن العسكري للقوات المسلحة التي كانت لا تزال برئاسة اميرالبحر ڤيلهلم كاناريس اسرعت باخبار هملر بالواقعة الذي اسرع بدوره باخبـار هتلر . ومع انني عجلت بالسـفر الى اسـطنبول الا أن ذلك لم يحسن موقفي الذي اصبح فجأة في غاية الحرج. وقد علمت فيما بعـد ان هملر تطوع بعرض فكرة انتقامية تتلخص بارسال طائرة خاصة تحمل مجموعة من رجال قطعات الحماية الذين يرتدون الملابس المدنية الى انقرة لاختطافي والعودة بي

تحت تأثير السلاح الى برلين ومع ان فون ريبنتروب تحمس للفكرة الا ان هتلر لم يقبل تلك الخطة ورفضها جملة وتفصيلا٠

في ٣ شباط ١٩٤٤ غادرت تركيا البعثة العسكرية الانكليزية وكان على رأسها الفريق الاول الطيار لينيل والملاحظ ان الاستحضارات لعملية الانزال المقررة يوم ١٥ شباط في سواحل سلانيك شملت الاستعدادات لاشراك القوة الجوية ايضا لكن هذه المحاولة اصطدمت بعناد الاتراك الذين آثروا التريث قبل الاقدام على خوض غمار الحرب ٠ ولما فشلت عملية الانزال في سلانيك هاجمت الصحافة البريطانية حكومتها بسبب فشلها دبلوماسيا وعسكريا في تنفيذ هذه الخطة ٠ بينما وصلت العلاقات الانكليزية ــ التركية الى اسوأ حالاتها لذات السبب٠

في ٨ شباط ١٩٤٤ وجهنا الدعوة لاعضاء الحكومة التركية ولعدد من اصدقائنا لحضور حفلة موسيقيــة يعزف فيها على البيانو العازف الالماني المشهور ڤالتر غيسه‌كنغ وقد حضر الحفلة السيد نعمان الذي يهوى الموسيقى ولم يخف على شعوره بعدم الارتياح للموقف السائد ٠ وزعم بأن تركيـا لم يعد بمقدورها الاستمرار على التسبب في تدهور العلاقات القائمة بينها وبين الانكليز وحلفائهم الامريكان ٠ وانه يرى ان من واجبه محاولة ايجاد مجال آخر للتقارب معهم٠ ففهمت انه كان يقصد المجال الاقتصادي٠

ثم ان حكومة برلين لم تتفهم موقف الحكومة التركية وبالتالي فهي لم تسهل عليها الامور من جانبهـا ٠ فقد حدث ان تأزمت العلاقات بين الحكومتين الالمانية والهنغـارية حتى خشي رئيس الوزراء الهنغاري فون كالاي على حياته فلجأ تحت جنح الظلام الى القنصلية التركية في بودابست فأستشاط وزير الخـارجية الالماني فون ريبنتروب غضبا وكلمني بالهاتف طالبا من الحكومة التركية الامتناع عن منح فون كالاي حق اللجوء السياسي الى بلادها٠ ولم اكن لأقبل ــ بطبيعة الحال ــ تعريض حياة رجل الدولة الهنغاري للخطر ٠ وبعد محاورة ودية للغـاية مع وزير الخارجية التركي

نعمان اقنعته بابقاء ذلك اللاجيء في قنصليتهم متمتعا بحصاناتها الدبلوماسية. ثم أخبرت فون ريبنتروب بأن الاتراك لم يوافقوا على الطلب.

وأراد هتلر في تلك الفترة ملاحقة اليهود الالمان الفارين من المانيا لأنه لمس مكائدهم والحاقهم الضرر بالمجهود الحربي الالماني فأمر بسحب جوازات سفر جميع الالمان اللاجئين الى تركيا واعلان تجريدهم من الجنسية الالمانية. فأتصلت بفون ريبنتروب هاتفيا واخبرته بصعوبة تنفيذ هذا الطلب لأنأغلب الالمان المقيمين في تركيا هم من اساتذة الجامعات وقد اشتغلوا في تركيا بموافقة الحكومة الالمانية . ثم انني ذكرت له بأن بعض الالمان المقيمين في تركيا ليسو من اليهود وانهم يحبون بلادهم ويتعاطفون معها الى ابعدالحدود ولذا فليس من المعقول مقابلة حماسهم الوطني بسحب جوازات سفرهم وتجريدهم من صفة المواطنة الالمانية . والواقع هو اننا سوف لن تؤثر على هؤلاء وهؤلاء باجراءاتنا هذه قيد انملة . وقد قوبلت على موقفي هذا بالسخط والادعاء بأنني كنت اشتري حوائجي من مخازن اليهود في تركيا وهو زعم ظالم لا اساس له من الصحة.

وحدث ان قمت بعمل انساني لصالح اليهود في هذه الفترة عندما اتصل بي صديق يهودي قديم هو الاستاذ الدكتور مارشيونيني الاختصاصي بالامراض الجلدية بالمستشفى المركزي بأنقرة ورجاني قبول زيارة امين سر اللجنة الصهيونية في تركيا بارلاخ فلما زارني الأخير اخبرني بأنه يود ان يوسطني لانقاذ زهاء عشرة الاف يهودي عزلوا في جنوب فرنسا تمهيدا لسوقهم الى معسكر الابادة في پولاندا وهؤلاء اليهود كانوا من حملة الجنسية التركية وقد هاجروا الى فرنسا قبيل الحرب. فوعدته ببذل المساعي لانقاذ ارواح هؤلاء الناس . وكان ان اتصلت بنعمان منمنجي اوغلو واخبرته بأنه ليس هناك ثمة امل في انقاذ اولئك اليهود لأنهم ليست لهم صفة المواطنة التركية قانونا لكنني اقترحت عليه توجيه رسالة رسمية الي لكي استحصل موافقة هتلر على اخلاء سبيلهم حفظا لعلاقات الصداقة القائمة بين بلدينا وكان ان نجحت الفكرة عندما استجاب هتلر للطلب التركي ولم يأمر بتصفية اولئك اليهود.

أدت المصائب المتعاقبة التي لحقت بألمانيا في تلك الفترة الى معاودتي التفكير في انقاذ بلادي وتجديد محاولة الاتصال مع الرئيس الامريكي روزفلت على امل التوصل الى صلح مشرف تخرج به المانيا محافظة على كرامتها وسيادتها دون ان يتعرض الشعب الالماني للهوان فرجوت صديقي البارون فون ليرستر في آذار ١٩٤٤ ان يجدد الاتصال مع ايرل واكدت عليه ضرورة الامتناع عن تزويده بأية مستمسكات مكتوبة والحصول منه على اجابة الرئيس روزفلت. واتخذت الترتيبات اللازمة لسفر السيد ايرل الى برلين والالتقاء بأصحابي فيها (وهما السيدان فون بسمارك وفون هيلدورف) لوضع اسس التصرف لتحديد مصير هتلر واحالته للمحاكمة بعد القاء القبض عليه. وعلى الرئيس الامريكي ان يتخذ قراره العاجل لايقاف القتال على طول الجبهة الغربية[٧] وتحويل قوات الحلفاء والقوات الالمانية الى الشرق لايقاف اندفاع القوات الروسية وضمان استقلال المانيا وفق حدودها لعام ١٩٣٨ مع ضمان استقلال دول البلقان المتحالفة مع المانيا . ويجب ان تكون هذه المبادىء هي الاساس المعتمد في المفاوضات السرية القائمة لانقاذ أوربا.

واذا وجد الرئيس الامريكي نفسه على استعداد لقبول مقترحي هذا أي انه في حالة تبديل النظام النازي القائم بنظام وطني الماني بديل فيجب التخلي عن طلب استسلام المانيا بدون قيد او شرط لكي تتمكن من التفاوض على اسس مشرفة لانهاء الحرب . وحتى أضمن سلامة رفيقي غراف هيلدورف وغراف بسمارك عند التقائهما سرا مع المفاوض الامريكي ايرل فقد اقترحت ان يكون اللقاء في مكان ما من البلقان ليكون الثلاثة بمنجاة من مراقبة الشرطة السرية للدولة .

وقد اوضح السيد ايرل في مقابلة صحفية اجراها يوم ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٩ لصحيفة (فيلادلفيا انكوايرر) ما يلي بشأن الواقعة المذكورة :

---

(٧) كانت القوات الالمانية مشتبكة بقوات الحلفاء في ايطاليا فقط ولم يكن انزال الحلفاء في نورماندي شمال فرنسا قد تم تنفيذه بعد.
ـ المترجم ـ

«اوصلنا هذا المقترح مع رسول خاص للرئيس روزفلت فورا ٠ فلما اطلع عليه اصدر اوامره التي تنص على ان أي تفاوض مع العدو لا يمكن ان يتم الا مع القائد العام لقوات الحلفاء الفريق الاول آيزنهاور»٠

وبذا وصلت محاولتي الى طريق مسدود ٠ ذلك لأنني ليس لدي اية امكانية للاتصال بالقائد الامريكي آيزنهاور بالاضافة الى انه ليس بمقدوره اتخاذ أي قرار سياسي مهما كان مستواه بله اتخاذ مثل هذا القرار الحاسم٠ ثم ان السيد ايرل اوضح بأن قرار الرئيس هذا دعاه للطيران الى واشنطن لكي يقابل الرئيس شخصيا ويجدد المحاولة لتحريضه على عقد صلح جزئي مع المانيا من اجل انقاذ اوربا من الخطر الروسي الداهم ٠ وقد قال بشأن اجابة الرئيس روزفلت على هذه المحاولة:

« الا ان الرئيس اوضح لي بأن غزو فرنسا بات وشيكا وان الالمان سيتم دحرهم خلال أشهر معدودة٠ ثم ان روسيا العديدة القوميات والتي يتكلم سكانها عدة لغات مختلفة لا يمكن ان تشكل خطرا جديا ٠ وسيصبح الغرب هو المتفوق بعد الحرب دون منازع»٠

عندئذ قال ايرل بأنه هدد الرئيس روزفلت بقوله انه اذا لم يستجب لنداء السلام خلال اسبوع واحد فسيشهر بسياسته علنا ويفضح اصراره على الحرب ويخبر الشعب الامريكي بخطل سياسة الرئيس روزفلت لأنه سيتسبب في تعريض امريكا لخطر مباشر مصدره روسيا ٠ فذكر ايرل تفاصيل تلك المقابلة بقوله:

« عندئذ كتب الرئيس فورا وبصورة لا تقبل الشك : انني امنعك من عرض اية معلومات او آراء بهذا الشأن بصورة علنية لأنك حصلت على هذه المعلومات بحكم اشتغالك بالأسطول الامريكي او بوسيلة اتاحتها لك وظيفتك بشكل ما طالما بقيت بالخدمة الرسمية ٠ ثم ان الرئيس جعل قراره هذا بأثر رجعي٠ وأصدر امره بانهاء وظيفتي كملحق بحري في سفارة الولايات المتحدة الامريكية بتركيا ٠ وطلب من قيادة الاسطول جعلي بمنصب نائب حاكم جزر ساموا في المحيط الهادي حيث سأساهم في حكم منطقة يبلغ تعداد

سكانها ١٦٠٠٠ نسمة ».

وانني احيي موقف السيد ايرل واتخاذه القرار بمقابلة الرئيس روزفلت شخصيا وقد ذكرني العقاب الذي تعرض له بتجربة مشابهة سبق ان عشتها مع المستشار الالماني بيتمان عندما سألني رأيي بشأن حرب الغواصات في عام ١٩١٦ فلما اجبته بغير ما يشتهي ونشرت الصحف ذلك اصدر اوامره للقائد فون فالكنهاين بالحاقي بفوج مشاة مقاتل في الجبهة الغربية خلال ٢٤ ساعة.

ما ان حلت ايام عيد الفصح لسنة ١٩٤٤ الا ووجدنا انفسنا في خضم ازمة عائلية كان مسرحها مدينة اسطنبول. فقد سقطت اوديسا بيد الروس واصبحت شبه جزيرة القرم مطوقة من جميع الجهات واصبحنا بقلق شديد بشأن مصير ابنتنا ايزابيلا التي حاولت الالتحاق بعد تمتعها بالاجازة بمستشفى الميدان في القرم . وقد حاول سفير البابا في انقرة المطران رونكالي التخفيف علينا من وطأة الحادث فصور لنا الموقف بشكل يوحي بالأمل. ولما وجدت لديه عطفا شديدا على الشعب الالماني حاولت توسيطه لدى الحلفاء لعل الفاتيكان يؤثر على زعمائهم فيستجيبوا لنداء الانسانية.

في ٢٠ نيسان ١٩٤٤ اتصل بي وزير خارجية تركيا السيد نعمان واخبرني بأنه يأسف كثيرا لأن حكومته اتخدت قرارا بايقاف تزويد المانيا بمعدن الكروم اعتبارا من ١ مايس ١٩٤٤ وكنت اتوقع مثل هدا القرار مند امد بعيد لأن الحلفاء كانوا متعضين من تزويد تركيا لنا بهذه المادة . ومن الطبيعي ان هذا القرار جاء ضربة شديدة لبرلين بسبب حاجة صناعة فولاذ الدبابات لهذه المادة الحيوية . ولابد ان يكون افتقاد هذه المادة معوقا لجهودنا الحربي. وكان ان عمدت برلين الى مضاعفة احمال القطارات من الكروم خلال الايام العشرة المتبقية واستطعنا بفضل تعاون رجال سكك الحديد الاتراك نقل اكبر كمية ممكنة من هذه المادة خلال تلك الايام العشرة.

كان رد فعل فون ريبنتروب على الاجراء التركي شديدا . حيث ابرق لي يأمرني بالعودة فورا الى برلين . وفي ٢٦ نيسان ١٩٤٤ طرت الى برلين

وبصحبتي ابنتي الصغرى. وكانت تلك السفرة معقدة للغاية لأن الطيران فوق تراقيا الشرقية لم يكن مسموحا . كما ان الطيران بطائرة غير مسلحة من طراز يونكرز فوق البلقان في الوقت الذي تفاقم به شر طائرات الحلفاء في تلك المنطقة اصبح من الامور البالغة الخطورة . وفي ٢٧ نيسان ١٩٤٤ اعلنت الحكومة الالمانية بأن السفير الالماني في انقرة سوف لن يعود الى تركيا . ولما اخبرني فون ريبنتروپ بهذا الاجراء وقال لي انه سيوجه مذكرة شديدة اللهجة للحكومة التركية تتضمن التهديد باتخاذ اجراءات انتقامية قلت له ان مثل هذه المذكرة ستكون عديمة القيمة وستكون مصدر تندر الحلفاء وانني ارى ان أي اجراء من شأنه التسبب في توتر علاقاتنا مع تركيا لابد ان يكون قرارا مغلوطا. فالسفير يجب ان يبقى بموقفه حتى في حالة نشوب نزاع سياسي بين الدولتين . واذا اراد ابعادي عن منصبي في هذه الفترة بالذات فمن الافضل الاعلان عن منحي اجازة اعتيادية . ويمكنه بعدئذ الاعلان عن استقالتي الا ان فون ريبنتروپ لم يتقبل هذا الرأي وقال ان القرار في هذه القضية سيصدر عن الزعيم نفسه.

قابلت هتلر وكان معي وزير الخارجية فعرضت عليه الموقف بكل تفاصيله ثم طرحت عليه مقترحي كما بين فون ريبنتروپ مقترحه هو الآخر وعندئذ اتخذ قراره الذي يتضمن عدم الاقدام على اصدار أي تهديد بالانتقام طالما نحن غير قادرين فعلا على تنفيذ الوعيد الذي سنقدم على توجيهه للاتراك. وايد مقترحي مؤكدا ان السفير يجب ان يبقى في موقعه حتى في حالة نشوب نزاع سياسي بين الدولتين وامرني بالطيران فورا الى انقرة.

ذكرت في معرض وصفي للموقف السائد كيف ان شيشرون زودنا ببرقيات تتضمن مقررات مؤتمر طهران . فأعاد هتلر على مسامعنا ما يضمره الحلفاء من شر لالمانيا وكيف انهم يبغون تمزيق المانيا واجبارها على الاستسلام بدون قيد او شرط. ثم اكد رفضه لفتح أي حوار مع الحلفاء بقصد التوصل الى اتفاق سلمي. الا انه كان يعتقد باحتمال تغير آراء الانكليز والامريكان في حالة تقدم الروس بخطى حثيثة نحو اوربا وقد ايده فون ريبنتروپ بطبيعة

الحال لأنه كان يرى عدم وجود أي امل في مناقشة الاعداء.

في ذلك اليوم بالذات وصلني نبأ اصابة ولدي (الذي كانت وحدته ـ وهي كتيبة استطلاع مدرعة ـ ترابط في رينز بفرنسا) بجرح شديد اخلى بسببه الى احدى مستشفيات پاريس فرجوت هتلر السماح لي بزيارة قصيرة لباريس فوافق على سفري اليها.

سافرت بالقطار مارا بساربروكن وميتز وشالون سورمارن فتأثرت كثيرا لاصابة هذه الاخيرة بالتدمير الشديد بتأثير غارات الحلفاء الجوية نظرا لكونها عقدة مهمة لسكك الحديد . وكانت القوات الجوية للحلفاء قد دأبت منذ اسابيع عديدة على مهاجمة سكك الحديد الفرنسية وجسور السكك ومنشآت المواصلات الاخرى في طول فرنسا وعرضها . ولم يبق في ميتز سوى خط حديد واحد صالح للتنقل بعد ان بذلت جهود مضاعفة لجعله صالحا. وهناك اكتشفت وجود سفيرنا الذي خدم فترة طويلة بموسكو فريدريش ڤيرنر غراف فون دير شولنبورغ الذي كان مسافرا الى باريس هو الآخر ليبقى بها بضعة ايام. وكانت تلك المناسبة هي المرة الاخيرة التي شاهدته فيها لأنه فقد حياته بعدئذ عندما اصبح احد ضحايا محاولة اغتيال هتلر الفاشلة في ٢٠ تموز ١٩٤٤ .

بعد ان اطمأننت على ولدي وتأكدت من نجاح العملية الجراحية التي اجريت له حاولت الحصول على انطباع واضح عن طبيعة الموقف السائد في فرنسا . فزرت المشير غيرد فون روند شتيدت بمقره لكي احصل على ايضاح مطمن عن الاجراءات الدفاعية المتخذة ازاء الانزال المعادي المحتمل وشيكا. وكان فون روندشتيدت متشككا من مقدرة دفاعاتنا على الصمود بعد ان افلح الطيران المعادي في تدمير شبكات المواصلات وبخاصة سكك الحديد الفرنسية لدرجة جعلت تنقل الاحتياطات في غاية الصعوبة. وقال لي انه سبق ان اخبر هتلر بهذا الموقف . ولم اتمكن من مفاتحته بشأن التآمر لازاحة هتلر عن السلطة لأننا لم نكن على انفراد.

ولما زرت حاكم باريس العسكري الفريق هـاينريش فون شتولپناغل وجدت تشاؤمه يفوق التشاؤم الذي ابداه المشير فون روند شتيدت.

اقام السفير الالماني اوتو آبيتس بمناسبة وجودي بباريس وليمة فطور دعى اليها رئيس وزراء فرنسا پيير لاڤال وبعض الزعماء الفرنسيين الآخرين. وقد اختلى بي الوزير لاڤال وقال لي بأنه بذل قصارى جهوده بعد اندحار فرنسا متعاونا مع المانيا في سبيل اعادة ترتيب اوربا الموحدة . ولكن هتلر لم يشأ تحقيق هذه الامنية العزيزة. والآن وقد اصبح الغزو متوقعا من يوم لآخر فاذا نجح الحلفاء في الاندفاع من فرنسا نحو اعماق اوربا فمعنى هذا نهاية الحرب ونهاية هتلر معاً. وان انقاذ هتلر من وهدته لن يتم الا بتعاون الشعب الفرنسي مع الالمان لاجتياز هذه المحنة. ولن يتم هذا التعاون الا بعد وضع اسس جديدة للتعاون الالماني الفرنسي.

ثم رجاني ان اوضح لهتلر بأن هذه الفترة ربما تكون آخر فرصة متاحة لنا لتحقيق التعاون بين الشعبين وإذا اردنا ضمان بقاء الشعب الفرنسي الى جانب المانيا عندما يقوم الانكليز والامريكان بالغزو المحتمل لفرنسا فيجب ان يثبت له هتلر انه يبادله اخلاصا باخلاص ويأمر بالتخلي عن جميع التحديدات والاجراءات القسرية المفروضة عليه.

تأثرت كثيرا لمصارحة رجل الدولة الفرنسي لاڤال الذي تعاون معنا الى ابعد الحدود وحافظ على العلاقات الالمانية الفرنسية في تلك الفترة الحرجة من تاريخ فرنسا . ومع انني لم استطع منحه الا امل ضئيل القدر الا انني تعهدت له بنقل اقواله هذه الى هتلر في اول فرصة.

بعد ٢٤ ساعة كنت مع هتلر . وقد توضحت امام ناظري بكل جلاء الاوهام التي تعلق بها هذا الرجل . فقد طالبت يوغسلافيا آنذاك بالحصول على ميناء كاتارو على ساحل دالماسيا الا ان هتلر لم يقبل بذلك لأنه اعتبر الميناء المذكور (ميناء حربي الماني) وموقع مهم لسيطرة المانيا على شرق البحر الابيض المتوسط. كما انه رفض المقترحات التي نوه عنها رئيس وزراء فرنسا.

ما ان رجعت الى انقرة الا واجرى الحلفاء غزوهم المنتظر لساحل فرنسا يوم ٦ حزيران ١٩٤٤ بتطبيق خطة (اوڤر لورد) التي كنا نجهل زمانها ومكانها • وبعد عشرة ايام اقيل السيد نعمان منمنجي اوغلو من منصب وزير خارجية تركيا وكنا نحن المسببين لاقالته • فقد رجت قيادة الاسطول الالماني استحصال موافقة الاتراك على مرور بضعة سفن صغيرة من الموانيء الرومانية عبر المضائق التركية وبحر ايجه وأكد الملحق البحري بسفارتنا امير البحر فون دير مارڤتز للاتراك بأن تلك السفن خالية من اية صفة حربية وهي لا تحمل اية اسلحة او مهمات كما ان ركابها كلهم من المدنيين وهم غير مسلحين ولا تتوفر على ظهور السفن اية اسلحة للرمي الفوري• وما ان مرت اول سفينة المانية عبر المضائق الا وقابلها الحلفاء بتوجيه أشد الاحتجاجات للحكومة التركية•

أخبرني الوزير نعمان بأن السفن التالية سوف لن يسمح لها الاتراك بالمرور ما لم اؤكد له شخصيا بأنها لا علاقة لها بالمجهود الحربي الالماني كما يزعم الحلفاء• فكلفت الملحق البحري بمهمة التحري شخصيا في تلك السفن وتقديم تقرير بحمولتها وركابها • ولما اكدنا لوزير الخارجية التركي خلو السفن من المحظورات أوعزت السلطات التركية لادارة الموانيء بالسماح للسفينة الثانية بالمرور • ولما فتشها رجال الكمارك الاتراك اخبروا حكومتهم بأن السفينة كانت محملة بأسلحة خفيفة واجهزة رادار كما وجدت في مخازنها ملابس عسكرية تخص الرجال الذين يرتدون الملابس المدنية وهم على ظهرها• وبناء على ذلك فقد منعت تلك السفينة من المرور • وانني على ثقة من ان ملحقنا البحري تعرض للتضليل بشأن طبيعة حمولات السفن المذكورة • فهو دبلوماسي مجرب ولا يمكن ان يعرضني للمأزق المحرج الذي جعلني بموقف لا احسد عليه ازاء الحكومة التركية • وكانت النتيجة المؤسفة التي ترتبت على تقديمنا تقارير غير صحيحة للوزير نعمان مما جعله عرضة للوم والتأنيب لدرجة فقد معها منصبه الرفيع• ولم يأسف احد على اقالة السيد نعمان منمنجي اوغلو مثل اسفي عليه• فهذا الرجل الذكي الذي لا مثيل

له تميز بالحصافة والمرونة في ادارة السياسة الخارجية لبلاده • الا ان عزائي هو ان اقالته عن منصبه لم تؤثر على صداقتنا الشخصية قيد شعرة •

لم تتمكن القوات الالمانية من القضاء على قوات الحلفاء الغازية لفرنسا وكان الخرق الواسع في منطقة آفرانشييه بداية الصفحة النهائية للغزو التي اراد بها الحلفاء ترسيخ اقدامهم على ارض قارة اوربا• واصبح من الواضح تماما ان تركيا اخذت تتعرض الى ضغوط اشد لزجها بالحرب • وقد صح ما توقعناه تماما عندما قدم الحلفاء مذكرة لتركيا يخبرونها فيها بأنها اذا ما أرادت مراعاة موقفها في مفاوضات السلام فعليها الاسراع بالدخول في الحرب الى جانبهم• ثم ان روسيا التي ستخرج منتصرة من الحرب لابد ان تهدد تركيا بمطالبها الباهظة وعندئذ سوف لن يكون بمقدور الحلفاء الوقوف الى جانب تركيا ما لم تكن الى جانبهم في الحرب• وهكذا اصبح اشتراك تركيا بالحرب الحل الوحيد الذي ينقذ تركيا من مطالبات الروس بالمضائق والمناطق الكائنة شرق البحر الابيض المتوسط•

وعلى الرغم من هذا الموقف الدقيق الذي تعرض له الاتراك فقد قيل لي ان عددا كبيرا من ممثلي التجمع الوطني التركي نادوا بضرورة الحفاظ على الصداقة التقليدية القائمة بين تركيا والمانيا • ولكن ذلك كل لم يجد فتيلا• فقد حم القضاء واتخذ التجمع الوطني قراره في ٢ آب ١٩٤٤ بقطع العلاقات الدبلوماسية مع المانيا وهو قرار تقبلته بتفهم تام• وكنت قد اخبرت برلين باحتمال حصول هذا الأمر منذ أمد بعيد•

كانت حادثة انتهاء مهمتي الدبلوماسية في تركيا مؤلمة جدا• وعندما زرت الرئيس عصمة اينونو مودعا تبادلنا ذكرياتنا في الايام السالفة الجميلة وقد قال لي الرجل بهذه المناسبة:

« عندما يدعو الموقف توسطي لصالح المانيا فانني سأكون دوما على اتم استعداد للنهوض بمثل هذه المهمة • كما ان علاقاتنا الشخصية لا يمكن ان تتأثر رغم الاحداث التأريخية التي مرت بنا»•

وقبل ذلك اليوم بأسبوعين وافتنا الاخبـار بحصول محاولة فاشلة لاغتيال هتلر في ٢٠ تموز ١٩٤٤ وقد علمت بالمحـاولة في عصر ذلك اليوم نفسه عندما كنت في ثيراپيا ضـاحية اسطنبول. وقيل لي ان المدبر الأول للمحـاولة هو العقيد الركن كلاوس غراف فون شتـاوفنبرغ. وفي المساء تأكدنا من فشل المحاولة . ثم وافتنا الاخبـار بأن الشرطـة السرية للدولة استأصلت شأفة المشتركين بالمؤامرة والعالمين بها. ثم القى روبرت لاي كلمة في دار الاذاعة حمّل بها وزر المحاولة هيئة ضباط الجيش الالماني والمحافظين الالمان ثم اذاع راديو برلين بعض اسماء المتآمرين الذين القى القبض عليهم ولاقوا مصيرهم وكان بينهم غراف هيلدورف وغراف بسمارك ولا يمكنني وصف حالة الحزن التي تعرضت لها بسبب هذه الواقعة.

وقد اقترح علي السيد ينكه ارسال برقية تهنئة لهتلر احمد الله بها على سلامته وبقاء حياته الثمينة للشعب الالماني.

استمعت في مساء يوم ٢ آب ١٩٤٤ لخطاب القاه تشرشل في الاذاعة تطرق فيه لانتصارات الحلفاء المتوالية واشار الى محاولة اغتيال هتلر الفاشلة والنتائج التي ترتبت عليها . وفي الختام ذكر انه مسرور لانقطاع العلاقات الدبلوماسية بين تركيا والمانيا . وقال ان سفير المانيا بأنقرة الذي سبق ان نجا من حمام الدم في ٣٠ حزيران ١٩٣٤ لابد ان يصيبه هذه المرة شيء من التصفية التي اعقبت محاولة الاغتيال الفاشلة .

ويبدو ان لتحذير تشرشل ما يبرره . فقد سبق للرئيس اينونو ان حدثه بشأن المساعي التي ابذلهـا في سبيل تحقيق السلام المشرف لألمانيا . ولربما اخبره الرئيس الامريكي روزفلت بشأن الرسالة التي سبق ان وجهتها له. وهو يعلم ان هتلر ـ اذا ما ساوره ادنى شك بأمري ـ فسوف لن يغفر لي تصرفاتي هذه قط.

في هذا الموقف الحرج بالذات اتصل بي احد رؤساء البعثات الدبلوماسية المحايدة بتكليف من الحلفاء يطلب الي المكوث في تركيا وعدم مبارحتها ابدا زاعماً ان مصيري اصبح واضحا تماما ولذا فان عودتي الى المانيا اصبحت

محفوفة بالخطر . وقال ان الحلفاء يضمنون سلامتي اذا ما اعلنت اداتني للنظام النازي وانفصالي عنه . الا انني ربأت بنفسي عن الانحدار الى حضيض الخيانة وقلت له بأنني افضل الموت في بلادي على اللجوء الى بلد اجنبي بهذا الشكل المخزي. وبعد يومين رحلت الى المانيا متمثلا بالكلمة المأثورة التي قالها الفريق مونك للملك كارل الأول وكروموبل:

« ان من واجبنا ان نناضل دوما في سبيل وطننا بصرف النظر عن شكل الحكومة القائمة في بلادنا ».

الفصل الحادي والثلاثون

تمّ اعتقالي



الرجوع الى المانيا . الموقف بعد محاولة الاغتيال . محادثة مع الامير بسمارك . آخر محاورة مع هتلر. رجعت الى السار . الجدار الغربي بلا اسلحة وبلا جنود . الحلفاء يمارسون تعبية غير مفهومة. احتججت لدى هتلر بسبب اخلاء اقليم السار . خرق امريكي. آخر محاولة المانية للصمود في الجبهة الغربية . وفاة روزفلت. معسكرات الاعتقال. في مقر آيزنهاور. لقاء مع هورتي. عزلت لأنني مجرم حرب . العقيد اندروس . رسالة من هورتي الى تشرشل . وصلت الى نورمبرغ .

أمرني فون ريبنتروپ بمغادرة تركيا خلال ٢٤ ساعة . وهذا ما يجعل تسليم مسؤولية رعاية مصالحنا للسفارة السويسرية في انقرة متعذراء وفي ٥ آب ١٩٤٤ غادرت تركيا التي قضيت فيها افضل سنوات خدمتي مستقلا عربة وزير الخارجية بقطار الشرق السريع الذي اجتاز بي الحدود الى بلغاريا وكانت معي زوجتي وحفيدتي التي كان ولدي قد ارسلها لتتربى في احضان جدتها.

وكان صدى انقطاع العلاقات الالمانية ـ التركية شـديد الوطأة على حلفائنا البلغار الذين تطيروا من هذه البادرة الخطيرة . وظهرت للعلن امارات التعاطف مع روسيا التي ترتبط مع بلغاريا برابطة القومية السلافية كما ظهرت للعلن بعض النداءات العدوانية الموجهة ضد تركيا والتي كانت كامنة في نفوس القوم. وشعرت اينما حللت في تلك البلاد بأنني محاط بحفاوة بالغة . وعندما وصل القطار الى محطة صوفيا وجدت جمعا غفيرا من المستقبليـن وهـم يحملون لنا اضمامات الورود ويهدون لنا سلال الفواكه النفيسة. اما افراد القنصلية الالمانية في صوفيا فقد كانوا قد غادروا المدينـة قبل مدة وجيزة خشية وقوعهم بأيدي رجال الجيش الروسي الذي كان يسعى حثيثا نحوها.

وقد حياني وزير خارجية بلغاريا السيد دراغنوف ـ وكان من زملائي القدماء ـ بترحاب بالغ لأنه سبق ان خدم معي سفيرا لبلاده في ڤينا ابان مدة خدمتي فيها. كما انه خدم بمنصب مشابه في سفارة بلاده ببرلين لمدة طويلة وقد تلقاني الرجل من فيليپ پول وصحبني بالقطار حتى اوصلني الى صوفيا . وقد تحدث الي ملياً بشأن تطورات الموقف المحرج الذي وصلنـا اليه . وكان ان توصل الدبلوماسي الذكي الى استنتاجات تدل على الحصافة فأصاب بها كبد الحقيقة مستجليا أسرار الأيام القابلة . فتكاشفنا ولم نخف قلقنا العميق بشأن المستقبل فأسديت له نصيحة مفادها ان على بلاده التملص من النزاع الناشب في جنوب شرق اوربا بأسرع ما يمكن بالانحيـاز للدول الغربية.

تحرى عني في صوفيا رئيس وزرائها ولاحظت ان عاصمة بلغاريا ـ شأنها شأن بلغراد ـ قد أصابها دمار ماحق بفعل الغارات الجوية التي شـنها عليها الحلفاء. وكان المشير فون ڤايكس قد أمر بتخصيص عربة قطار بالغة الاناقة لي اذ وجدت ان جدرانها مطلية بلون سماوي مريح وعليها شـارة البيت المالك اليوناني. ولما وصلنا الى بوداپست ـ لؤلؤة الدانوب ـ الفيتها سالمة من الدمار وقد ران عليها هدوء يوحي بالسلام وتمتع اهلوها بشمس الخريف . الا ان امير البحر هورتي كان قد عزله هتلر من الوصاية على عرش

المجر. وفي صباح اليوم التالي عبر قطـارنا الحدود الالمانية وكنت اتوقع ظهور رجال من الشرطة السرية للدولة لالقـاء القبض علي في اية لحظة لأن احتمال وجود اسمي في اوراق الكثير من الرجال الذين القى القبض عليهم نتيجة لمحاولة اغتيال هتلر الفاشلة يوم ٢٠ تموز ١٩٤٤ او ان اسمي ربما ورد في التحقيق مع البعض منهم. وعلى أية حال فانني اعطيت حفيدتي الوصايا الضرورية لمعرفة طبيعة الموقف الذي اعيشه وتصرفاتها الواجبـة في حـالة احتجازي وابعادي عنها.

ولكن الله سلم ولم اتعرض الى اية مزعجات فلما وصلنا الى دريسدن رأيت سائقي الامين بانتظاري فأرسلت معه حفيدتي وعفشي الى ڤالرفانغن. وفكرت انني ربما سيتم اعتقالي بعد وصولي الى برلين تجنبا للضجة الناجمة عن اعتقالي حال وصولي للوطن. ولما وصلنـا الى محطة قطار پوتسدام حانت اللحظات الحرجة التي توقعت فيها ظهور الرجال المكلفين باعتقالي في اية لحظة. الا انني استغربت كثيرا عندما وجدت بانتظاري جمع من كبـار موظفي وزارة الخارجية برئاسة الوزير المفوض البارون فون دوينبرغ. وقد لاحظت من الوهلة الأولى ان التحفظ الشديد هو السيماء المميزة لتصرفات اولئك السادة . وقد علمت من البارون فون دوينبرغ بأسماء بعض المعتقلين من رجال وازرة الخارجية وكان منهم السيد فون تروت تسو زولتس والسيد فون هيفتن وقال بأنه يتوقع اعتقال السفير غراف فون دير شولنبورغ خلال ساعات قلائل . أما انا فقد اخبرني بوجوب الحضور في اليوم التالي بمقر الزعيم . كما علمت بأن الأمير اوتو فون بسمارك كان يسعى لمقابلتي بلهفة شديدة فدعوت الأمير لتناول طعام العشاء في منزلي مساء ذلك اليوم . فلما وافاني الرجل ابدينا قلقنا بشأن مصير أخيه الصغير غراف غوتفريد فون بسمارك وكان هذا عضوا سابقا في الحزب النازي ومحافظاً لمدينة پوتسدام. وقد رجاني الأمير اوتو ان اتوسط لدى هتلر لانقاذ حياة شقيقه السجين من الموت الزؤام الذي يوشك ان يعصف بها. وللمرء ان يقدر مدى حراجـة موقفي ازاء هذا الرجاء في تلك الفترة التي لم اكن بها آمناً على حياتي ولما

لم يكن من الفطنة في شيء ان أخيب ظن الأخ الملهوف على حياة اخيه فقد وعدته ان ابذل ما في وسعي بهذا الصدد.

استقللت القطار من محطة القطار التي محقتها الغارات الجوية وسافرت في ساعة متأخرة من تلك الليلة الى پروسيا الشرقية وكان ركاب القطار قليلين. وفجأة التقيت بمارتن بورمان المتلفع بقناع المكر والغموض فبادرني بابتسامة ملؤها التهكم وقال لي:

« ها قد اصبحت انت ايضا من المرشحين للتصفية ».

فتجملت بالصبر معللا نفسي بالأمل. ولما وصلت الى المقر الأعلى وجدت الوجوم هو الحالة السائدة على وجوه القوم. ولم اجد من صديقي اللذين اعتمدت عليهما وهما السيد فون شميدن والدكتور ميغيرله أية نصيحة او مشورة نافعة. اما الوزير فون ريبنتروپ فكان قد اعتراه غضب شديد (لخيانة) الأتراك وكان في غاية الخنق على المساهمين في محاولة اغتيال هتلر يوم ٢٠ تموز ١٩٤٤ وقد اشتد غضبه على موظفي وزارة الخارجية الذين شاركوا في تلك المحاولة . وترتب علي خوض مناقشة حساسة بشأن انقطاع العلاقات الدبلوماسية مع تركيا . وقد علمت بأن احد المتآمرين وهو غراف ليهن دورف قد القي القبض عليه ثم تمكن من الهروب فكتبت له النجاة.

قابلت هتلر عصر اليوم التالي حيث تم ايصالي الى المنعة التي يتحصن بها بعد اجراءات امنية معقدة . حيث كانت الحراسة مضاعفة في نقاط السيطرة وصار كل زائر يتعرض لتفتيش دقيق يشمل القبعة والسترة ومحتويات الحقيبة وكل ما يحمله معه. وكان رافقني رجلان من قطعات الحماية حتى اوصلاني الى باب المنعة.

وبعد بضع دقائق دخل علي ادولف هتلر وكان ذراعه ملفوفا بالضماد وكان شاحب الوجه وقد بدى كأنسان محطم ولكنه حاول ان يتلقاني بتحية حارة. ومن البديهي انه استهل حديثه عن حادث يوم ٢٠ تموز ١٩٤٤ وكانت عباراته غير مترابطة وقد اعطاني انطباعا بأنه يريد ان يهوّن من شأن الواقعة.

ثم تحولت ملامحه فجأة الى تشكيل غريب يجسد القسوة المتناهية وتوسعت حدقتا عيناه السوداوين وهو يقول:

« لقد خامرني شعور غامض بأن السادة الرقيقي الحاشيـــة من ابناء الطبقة العليا سيحاولون ازاحتي. ولم ينجح هؤلاء السادة في تحقيق أمنيتهم ولذا فسأمضي في اداء مهمتي حتى النهـاية . وانني لسعيد لأن الاغلبيــة الساحقة من ضباط الجيش الالماني تقف ورائي بكل اخلاص كما يقف ورائي شباب المانيا . والآن ما الذي عندك يا سيد فون پاپن؟»

حاولت ان اوجز له التطورات الأخيرة للمقف السياسي في انقرة وذكرت له ضغوط الحلفاء الشديدة وتهديداتهم المتواصلة لتركيا لكي يدخلونها في الحرب الى جانبهم ويبدو انهم استطاعوا اخيرا اجبارها على قطع العلاقات الدبلوماسية معنا. ثم اوجزت له محاورتي الوداعية مع رئيس جمهورية تركيا وذكرت له استعداد الرئيس اينونو للتوسط في اية مساع سلمية لانهـاء الحرب. ولم اذكر له ذلك لأنني اعتقد باستجابة هتلر لهذه المحاولة وانما لمجرد منعه في آخر لحظة من التأثر بآراء فون ريبنتروپ المتطرف الحاقد والايعاز باتخاذ اجراء انتقامي ضد تركيا بتوجيه بضع طائرات تشن غارات جوية على بلدانها الآمنة وتثير علينا غضب الاتراك فتجرهم الى الحرب لقاء هذا الاجراء الأهوج الذي لا سبيل لتسويته اذا ما جرى تنفيذه. وقد تبينت رضى هتلر وارتياحه لأقوالي وعدم احتمال تأثر تركيا بضغوط الحلفاء منذ فقدان القرم.

وقد استغللت انشراح نفسه فحـاولت الاسترســال بالحديث نحو الاحتمالات السياسية المتوقعة نتيجة لتطورات الحرب وحاولت ان اوضح له بأن المانيا اصبحت تحت وطأة ضغطين شديدين موجهين من الشرق والغرب. وهذا معناه اننا يجب ان نحصل على نتيجة حـاسمة على احدى الجبهتين وفقا لمباديء السوق وهذا الحسم لا يمكن ان نحققه ما لم نقذف الروس الى ابعد ما يمكن عن حدود المانيا بحشد كل القوى المتيسرة لدينا ضدهم ــ حتى ولو اقتضى الأمر بعد عقد هدنة مع الحلفاء الغربيين ــ لكي نحقق الانتصار المنشود.

كما ان معلوماتنا عن مؤتمري طهران والقاهرة نتيجة لاستراق المراسلات السرية بعملية شيشرون جعلتنا على بينة تامة من نوايا الأعداء. والآن اصبح بمقدورنا انقاذ اوربا على الاقل من خطر الغزو المحدق بها من الشرق. فهل لهتلر ان يوافق على ايفادي الى اسبانيا لعرض هذه الفكرة بصورة رسميةعلى الحلفاء الغربيين؟

رفض هتلر هذه الفكرة بمرارة واضحة وقال ان التوصل الى مثل هذا الاتفاق غير ممكن قطعا. ورفض فكرة التفاوض جملة وتفصيلا عندما شد على اسنانه وزم شفتيه بقوة قائلا:

« يجب ان تستمر هذه الحرب حتى النهاية دون اية محاولة للاتفاق. واذا انجزنا صنع الأسلحة الجديدة فسوف نري الامريكان مغبة محاولتهم التسلل الى اوربا . وان أي اتفاق مع هؤلاء الناس يعتبر أمرا غير ممكن » .

ثم امتقع وجهه وبان عليه شيء من الوهن وقد تبينت وجود بقع داكنة وتجعيدات غائرة على محياه . وعاد مجددا للتنديد بفعلة من تآمروا عليه في ٢٠ تموز ١٩٤٤ وبعد ان فرغ من كلامه قلت له:

« لقد تناهى الى سمعي ان بعض المقربين اليكم قد شملتهم الاتهامات ومنهم غراف غوتفريد بنسمارك. وأنا لا اعلم بطبيعة الحال عن هذه الواقعة ولست ادري ما اذا كان توقيفه نتيجة مساهمة فعلية او مجرد الظن به . واود الاشارة هنا الى انكم يجب ان تتفادوا مزاعم الصحافة الاجنبية من ان حفيد المستشار الحديدي من المساهمين في هذه القضية . واذا كان حقاً من المشتركين بالمحاولة فأرجو ان يكون عقابه السجن المؤبد وليس الاعدام الذي ستهلل له ابواق الدعاية المعادية وتشهر بنا لاقدام الحكومة على اعدام حفيد مؤسس المانيا الكبرى الحديثة ومحقق الوحدة».

بهت هتلر لاقوالي هذه وحدق بي ملياً زهاء ثانية ثم دمدم مزمجرا :
« أجل . هذه العصابة من النبلاء جحدت كل افضالي التي لا يمكن ان تضاهيها اية افضال لأحد على أحد».

ولكنني كنت لا ازال متصورا بأن كلامي اثر في نفسه بعض الشيء وتاكدت من ان بسمارك سوف لن يشنق ولكنه سيبقى رهن الاعتقـال الى ان تثبت اداتته.

وفي ختام المقابلة فاجأني هتلر باهدائي علبة صغيرة كانت تحتوي على (صليب الفارس لصليب خدمة الحرب) وقال لي بهذه المناسبة:
« لقد اسديت للوطن الكثير من الخدمات الممتازة . وانا واثق ان انتهاء مهمة بعثتك في تركيا ليس ذنبك. وقد كنت هناك جنديا باسلا في الخطوط الامامية لتلك الجبهة وليس أدل على ذلك من محاولة الروس لاغتيالك».

ثم مد يده الي مصافحا ايذانا باختتام اللقاء وكان ذلك آخر عهدي به. ولما غادرت القاعة تلقاني رجال الصحافة لتصويري وانا احمل الوسام الرفيع بينما كنت مؤمنا في قرارة نفسي بأنني لا استحقه. وقد لاحظت وجود هرم من الخرسانة يرقى ارتفاعه الى العشرة امتار وكان قد شيـد فوق مقر جديد اعد لضمان حياة هتلر لكنه لم يقم به ولا دقيقة لأنه ما ان انجزت كل مرافقه الا واضطر المقر الأعلى على الانسحاب من پروسيا الشرقية كلها بشبه هزيمة قبل ان يتعرض لخطر التطويق من القوات الروسيـة الزاحفـة نحو المنطقة.

ما ان رجعت الى برلين الا وحاولت ــ مستغلا تكريمي بالوسام الرفيع ــ الاتصال بهملر لانقاذ ارواح بعض الاصدقاء والمعارف ــ وكنت اشغـل منصب رئيس نادي اتحاد سباق الخيل منذ احد عشر عاما . وقد اعتقل من الهيئة الادارية واعضاء ذلك النادي فقط خمسة عشر رجلا بسبب علاقتهم بمحاولة اغتيال هتلر الفاشلة يوم ٢٠ تموز ١٩٤٤ وقد علمت بأن بعض اولئك التعساء لاقوا مصيرهم . كما كان بين المعتقلين عدد من زملائي السابقين في كتيبة الحرس الامبراطوري ممن كنت على ثقة من عدم تورطهم القضية التي اوقفوا بسببها . ولكي انقذ ارواح اولئك الناس من الموت فقد أدمت الاتصال مع هملر والالحاح عليه حتى شهر شباط ١٩٤٥ ومع ذلك فانني

لم أستطع تخليص امين سر الدولة السابق ارڤين پلانك حفيد صديقي القديم ڤيده ماير ولا القس بونهويفر ولا السيد كامينيجي كما لم تُجدِ النداءات التي وجهتها المنظمات الدولية الانسانية فتيلا ازاء قسوة نظام هتلر .

رجعت من برلين للاقامة بمدينتي الصغيرة ڤالر فانغن في مطلع ايلول ١٩٤٤ فازداد ضغط القوات الفرنسية على الجيش الالماني في تلك الانحاء مما دعى الكثير من السكان الى الفرار بأرواحهم باتجاه فرنسا .

واندفعت موجات الهجوم المعادي عبر نهر الراين كسيل جارف لا سبيل لايقافه . وترتب علينا ان تتجرع مرارة الاحتلال الذي اذقنـاه للفرنسيين طوال أربعة أعوام. ولما اكتسحت منطقتنا ارتال الاقسام الأرضية من القوة الجوية الفرنسية لاحظت ان عجلات الحمل كانت موقرة بأحمـال متنافرة فكنت تجد البيانو والاجهزة المنزلية المنهوبة ومعها الابقار ودجاجات القرويين كما جلب نظري وجود عدد كبير من الفتيات الفرنسيات الفاتنات يرتدين الزي العسكري ويرافقن الارتال الى كل مكان . ومع ان النسبة الكبرى من اولئك الاوانس والسيدات كن يقمن بواجباتهن الوطنية في ميدان الشرف الاأن عين العسكري المحنك الذي عركته الحياة لم تفتها ملاحظة وجود بعض النسوة اللائي رافقن الرتل لأغراض أخرى مع الأسف.

لم يكن مقر القيادة العليا للزعيم مهيأ للاخلاء ازاء هـذا الاندفـاع الفرنسي السريع . ولذا فقد زارني في احدى تلك الليالي نائب الحـاكم العسكري الالماني لمنطقة ڤيزبادن الذي كان قاطعنا ضمن مسؤوليتـه عن الجدار الغربي. وقال ان طلائع الجيش الامريكي وصلت الى مدينة ميتز على جانبي نهر موزل ويظهر ان مقصدها اجتياح خط ترير ـ ساربروكن .

وقد أمر هتلر بمنع القيام بأي انسحاب من الســار وطلب وجـوب الاحتفاظ بهذا الاقليم مهما كانت الظروف . ولكن هتلر فاته ان جدار الغرب أضحى مجرد وهم لا قيمة له. فأسلاكه الشائكة ممتدة ولكن منعاته غير مشغولة ورشاشاته ليس ورائها رماة وليس ثمة مدافع تحتل مواضع رمي وكل ما تيسر في ذلك القاطع هو احتياط واهن يمتد على جبهة طولها ثمانين

كيلومترا في قاطع ترير ـ ساربروكن وقوامه افراد من مدرسة ضباط الصف بمدينة سار لويس.

ولو اراد القائد الامريكي العام الفريق الاول آيزنهاور الاندفاع بعزم لما وجد مقاومة جادة ولاستطاع خلال يوم واحد اكتساح منطقة السار برمتها بقواته الآلية السريعة.

رأينا ـ انا ونائب الحاكم العسكري لمنطقة ڤيزبادن ـ ان لا مخرج لنا من هذا المأزق ولكنني قلت لذلك القائد الالماني بأنني ارى ضرورة التخلي عن اوسع مناطق المانية ممكنة لكي يحتلها الحلفاء الغربيون قبل ان يدهم الروس المانيا ويحتلون القسم الاكبر منها . ولكن حدث ما يحصل عادة في أغلب الحروب من مواقف غير متوقعة . فقد تسمرت قيادة الحلفاء على امتداد نهر موزل وبقيت سادرة دون ان تقدم على الاندفاع بينما جد الروس في الاندفاع وكأنهم يخوضون سباقا في ركض المسافات القصيرة . في الوقت الذي كانت به قيادة الحلفاء الغربيين تخشى من مقاومة التشكيلات الالمانية المحطمة . حيث لم يكن يدافع عن قلعة ميتز الحديثة سوى حفنة من الشباب الشجعان من منتسبي مدرسة عسكرية صغيرة وتمكنوا من الصمود فيها طوال اسابيع عديدة بوجه اندفاع جيوش الحلفاء.

استمر الاعداء على تدمير المدن الالمانية بلا هوادة وبلا انقطاع. بينما بقي هتلر عاجزا عن اتيان اية ردود فعل حاسمة . وفي هذا الموقف الشديد الحراجة أردت أن اقوم بآخر محاولة سلمية بالاتصال مع الدول الغربية على أمل الحصول على تفاهم بشأن ايقاف القتال لكي تتاح لقواتنا فرصة التصدي للروس وصدهم عن حدودنا الشرقية على الرغم من مصارحة هتلر لي بعدم الموافقة على مثل هذا الاجراء فقد رجوت البارون فون شتينغراخت وكيل وزارة الخارجية لكي يتصل بالوزير فون ريبنتروپ ويخبره بأنني على استعداد للتوجه الى مدريد بقصد محاولة الاتصال مع القوى الغربية لوضع حد للحرب على الجبهة الغربية لكي تتفرغ لمقاتلة العدو القادم من الشرق ونحقق الاتفاق مع الحلفاء الغربيين على التراجع الوئيد فنتيح لهم فرصة احتلال المانيا

خطوة فخطوة بينما نستمر على مواصلة القتال في الجبهة الشرقية.

كان البارون فون شتينغراخت رجلا واضح الرؤية وكنت على ثقة من انه سوف يعرض فكرتي للوزير فون ريبنتروب بشكل جيد مع اسناده للرأي الذي بادرت بعرضه . ولكن هلاّ يقدم الامريكان على ايجاد حل لمعضلة اوربا دون اعطائها لقمة سائغة للروس؟ وهل كان كرم تشرشل بمنح پولندا شريحة كبيرة من الأرض الالمانية بموجب الوعد الذي اعطاه لستالين في مؤتمر طهران مجرد هدية من القوى الغربية لارضاء ستالين ؟ انني لم اعلم بطبيعة الحال في حينه بموافقة بريطانيا على جعل حدود پولندا الغربية تمتد مع نهر الأودر مع اعطائها ميناء شتيتين بموجب المذكرة التي كتبها سير اليكساندر كادوغان الى رئيس وزراء حكومة المنفى الپولندية في ٢ تشرين الثاني ١٩٤٤ والتي جاء فيها:

« لقد اردتم ان تعرفوا فيما اذا كانت حكومة صاحب الجلالة توافق من حيث الأساس على جعل حدود پولندا تمتد على خط نهر الاودر مع اعطائها ميناء شتيتين . والجواب هو ان حكومة صاحب الجلالة ترى ان لپولندا الحق في الاستحواذ على الاقاليم التي تجعل حدودها تمتد للخط المشار اليه ».

وقد فات اولئك الناس الذين وهبوا اجزاء من بلادنا للآخرين انهم وافقوا بهذا ضمنا على اعطاء لروس موطيء قدم على سواحل بحر البلطيق.

رجع الي البارون فون شتينغراخت بجواب فون ريبنتروپ الذي كان مفاده ان أية محاولة من هذا القبيل ما هي الا دليل على الانهزامية وان مجرد محاولة فتح حوار سلمي مع الاعداء سيفت في عضد مقاتلينا الشجعان ويثبط هممهم.

تلقى الآمر المحلي لجدار الاطلسي في هذه الاثناء امرا بمنع وقوعي او عائلتي بأيدي العدو مهما كانت الظروف ووجوب اخلائي الى الخلف مع العائلة. الا انني رفضت الامتثال لهذا الأمر طوعا فالجندي القديم يجب الا يعطي انطباعا سيئا لمواطنيه في تشبثه بالحياة في الظروف المحرجة والفرار

من وجه العدو . ولذا فقد قررت البقاء حتى صدور الأوامر بنسف جسور ساربروكن.

في اواخر تشرين الثاني ١٩٤٤ اصدر هتلر امره باخلاء القرى الكائنة غرب نهر السار دون ابطاء. لكنني بعد ان عقدت مؤتمرا مع المحافظ ومدير الأمن روشلنغ اتصلت بهتلر هاتفيا وأخبرته بأن اخلاء القرى المذكورة سوف لن يسبب فقدان آلاف المواطنين الالمان لمساكنهم وما تحتويه من مقتنيات ثمينة بالاضافة الى اضطرارهم على التخلي عن مواشيهم الا ان هذا الاخلاء ينطوي على التفريط بقطعة غالية من ارض الوطن بلا قتال . واقترحت عليه ابقاء السكان غير القادرين على حمل السلاح وسحب القادرين على القتال فقط.

تلقيت في تلك الايام رسالة من قس زير بورغ وهو الكاهن ديشانت هيلد وكان قد تجمع في كنيسته زهاء ثلاثة آلاف مواطن بينما شرع رجال من قطعات الحماية بتهديدهم بنسف طرق المواصلات في حالة عدم انسحابهم من المنطقة واخلائها من السكان. فأستصدرت امرا للضابط المسؤول يسمح بموجبه للسكان بالبقاء في املاكي. وقد علمت بعد الحرب بأن اولئك الثلاثة آلاف انسان حافظوا على وجودهم في تلك المنطقة حتى نهاية الحرب وهم برعاية ذلك الكاهن الشجاع.

وصلت طلائع الجيش الامريكي الى موضع السار في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٤٤ وفي صباح اليوم التالي تركت منزلي القديم مخلفا ورائي ذكريات الاحقاب الماضية للاسلاف الاماجد وكانت بنايته تحفة نادرة وهو يحتوي على مكتبة رائعة وفيه ٢٤ لوحة فنية ثمينة لم نستطع حمل أي منها معنا.

وقد فررنا من مسكننا التليد لاجئين الى مسكن صديقنا البارون فون زاليس ومع ان الرجل تلقانا بكل ترحاب ومودة الا اننا لم ننس ابدا بأننا اصبحنا بلا مأوى.

ولما فشل تعرض فون روند شتيدت الاخير في الآردين نهب الجنود

الامريكان كل شيء يمكن الاستفادة منه ثم اشعلوا النيران بمنازل ڤالرفانغن.

وقد جائت ابنتي ايزابيله باجازة عيد الميلاد القصيرة من مستشفى الميدان الذي كانت تعمل به في جبال تاترا[١] وقد خدمت متطوعة بهذه المهمة منذ بداية الحملة على روسيا . ثم عزمت على الرجوع رغم الموقف الغامض الذي يهدد بنسف كل شيء. ومع اننا سعدنا بوجودها معنا في فترة العيد الا انني كنت فخورا بها لأنها كانت تؤثر البقاء في العيد الى جانب الجرحى في الجبهة.

اسست الشرطة السرية للدولة نقطة مراقبة في قريتنا لكي تتمكن من مراقبة تحركاتي. وقد اخبرني آمر تلك النقطة بطبيعة مهمته سراً.

في اواسط آذار ١٩٤٥ عبرت الدروع الامريكية نهر موزل بجبهة واسعة متجهة نحو الجنوب ووصلت الى ضواحي غميوندن.

وفي مساء ١٥ آذار ١٩٤٥ اتصل بي مرافق الفريق الأول هاوزر قائد مجموعة الجيوش وهو البارون فون تيونغن واخبرني بأنه تلقى امراً من مقر قيادة الزعيم يتضمن وجوب نقلي مع جميع افراد أسرتي عبر نهر الراين . ومن البديهي انني وازنت هذا الأمر وقدرت عواقب الموقف فتوصلت الى قراري الجازم بوجوب الاستسلام ومما لا شك فيه انني بقيت قلقا بشأن اولادي الثلاثة الذين تركتهم عرضة لانتقام رجال الشرطة السرية للدولة ولو انني انا الذي آثرت ابقاء زوجتي وبناتي في مكانهم لأنني لم اشأ تعريضهم لمغامرة ثانية لا مبرر لها.

اضطربت موازين القيادة في الصفحة الختامية من الحرب لأن هتلر استمر على ادارة القتال بالهاتف من مقره البعيد وصار يتدخل حتى في تحركات السرايا. واخذ يصر على الصمود في كل خط دفاعي ويصدر أوامر الاعدام في حالة خرق العدو للجبهة واكتساحه لتلك الدفاعات الواهية . وقد اضطر القادة في كثير من المواقف على التضحية بفرق كاملة لأنهم لم

(١) تقع جبال تاترا في تشيكوسلوفاكيا.

ـ المترجم ـ

يتلقوا اوامر بالانسحاب وكانوا يخشون اتخاذ القرارات الضرورية.
واصبحت الجيوش الالمانية التي في منطقة السار مهددة بالتطويق لأن القيادة لم تتبع مفاهيم قيادة القطعات التي تقضي بنقل تلك القطعات عبر الراين والدفاع وراء ذلك المانع الممتاز.

حاولت الوصول عبر الطرق المخربة وبين القطعات المنسحبة بلا انتظام الى بيت ابنتي المتزوجة بمدينة شتوكهاوزن في مقاطعة ويستفاليا. وكانت هذه المدينة قد اضحت محطة استراحة للاجئين الهائمين على وجوههم قبل انهيار المانيا.

وكان ان تم تطويق منطقة الروهر الصناعية برمتها بعد وصولي الى بيت ابنتي بقليل . وقد لاحظت ان الدمار اصبح مظهرا شاملا لالمانيا . واصبح اجتياز اية منطقة مرورا على الطرق محفوفا بالخطر بسبب التعرض للغارات الجوية التي تشنها طائرات الاعداء من ارتفاعات واطئة . ولم يتورع الطيارون المستهترون بالقيم الانسانية عن مهاجمة النساء والاطفال والفلاحين في الحقول وابادتهم.

الا ان فلاحي ويستفاليا حافظوا على رباطة جأشهم وتمسكوا بعناية الله الصمدانية وكان من عادة اولئك الطيارين الاغارة على المدنيين بالاستفادة من ضوء القمر ايضا عندما يكون ضوء النهار باهتا. وقد قررنا جمع النساء والاطفال في كوخ صيد صغير كائن في اعماق الغابة . بينما قام ولدي رغم كونه في دور النقاهة ومعه صهري بحراسة الكوخ من مئات اسرى الحرب الروس الذين فروا من الأسر واخذوا يسلبون كل ما تقع ايديهم عليه للحفاظ على ارواحهم من البرد والجوع.

في ٩ نيسان ١٩٤٥ تكامل الطوق حول الكوخ واخذ الرجال الى معسكرات الاعتقال . وفي ظهر اليوم التالي ظهرت قطعة من المشاة امام الكوخ فأستسلمت لعريف يحمل مسدسا وطلب مني ابراز هويتي. ومع انني قلت له بأنني لم تكن لي اية صفة عسكرية وانني ابلغ من العمر اكثر من خمس وستين سنة فأنه اشار لي بأنني موقوف . عندئذ رجوناه ان يستريح قليلا في الكوخ

ريثما احتسيت مع ابنائي صحنا من الحساء ثم جمعت حوائجي المهمة في حقيبة ظهر واستقللت معه سيارة جيب انطلقت بنا نحو المجهول.

قضيت السنوات الاربع التالية من حياتي سجينـا متنقلا بين سجون الاشغال الشاقة ومعسكرات العمل وكان كل ما معي من متاع ما استوعبته حقيبة الظهر وكنت أسفر من مكان الى آخر وانا لا اعلم عمـا يضمره لي المستقبل. ولم تكن المرحلة الاولى من تلك الفترة تستأهل التطرق لتفاصيلها. وكل ما اذكره هو ان الضباط الامريكان عاملوني بأدب واخذوني في اول الأمر الى مقر الفرقة في ريوتهن. وهناك التقيت بولدي وبصهري. ثم انتقلنا سوية الى ڤيرل وديولمن ومنها الى هالترن حيث مقر الجيش. ومن مهازل القدر انني مررت في اليوم الأول من أسري من المدينة التي قضيت فيها سنوات لا تنسى من شبابي ثم منحتني بلديتها بعدئذ شرف مواطنتها فأوصيت بدوري أن يتم دفن رفاتي فيها.

كانت المعالم القديمة للمدينة مسحوقة بتأثير الحرب بحيث يصعب الاستدلال على الطريق ومع ذلك فقد مررنا عبر الطريق المرصوفـة بالحجر والبوابـة الأثرية الى المطار فاستقللت طائرة أوصلتني الى هالترن وكنت في ديو لمن أعرف كل بناية وكل بيت بحكم اشتغالي محافظ شرف لتلك البلدة. الا ان المدينة كانت ممسوحة من الوجود وابنيتها مسواة بالأرض. ورأيت اطلالها ماثلة على ضوء القمر وقد شمل التدمير كنيستها وقصر الامير فون كروي ايضا.

حظينا في مقر الجيش بهالترن باستقبال لائق. وفي اليوم التالي نقلت بالطائرة ايضا الى مقر مجموعة الجيوش. وهناك حاول ضباط الاستخبارات ان يحصلوا منا على اسرار كنا نجهلهـا . ولكنهم كانوا لطفـاء معي لأنهم سمحوا لي بجلب بعض الملابس من دار البارون فون زاليـس في غميوندن . والأهم من ذلك بكثير هو انني حصلت هناك على معلومات تفيد بأن زوجتي وابنتي قد سلمتا من خطر القتال واستقرتا بمنزلنا.

عندما وصلنا الى ڤيزبادن علمت بوفـاة الرئيس الامريكي روزڤلت. ولم نكن قد أدركنا ان رجل الدولة هذا كان حاقدا على المانيـا النازية لدرجة

لا يمكن معها ان تتوقع أية رحمة فان من الواضح ان وفاته كانت خاتمة السراب الذي سعيت ورائه في سبيل انقاذ ما يمكن انقاذه . فلقد كان السلام الذي حققته معاهدة فرساي رديئا لأن تلك المعاهدة التي اريد بها توطيد السلام بعد الحرب العالمية الاولى صارت من اهم اسباب نشوب الحرب العالمية الثانية نظرا لتلاعب الدول الكبرى المنتصرة بالالفاظ لدرجة اخلت بالمفاهيم التي جاء بها الرئيس الامريكي الأسبق وودرو ويلسون . وتساءلت مع نفسي بقلق. هل ستتكرر مثل هذه المأساة ؟ فروزفلت لم يكن رجلا خياليا مثل ويلسون . وانما كان رجلا عمليا . وكان تدخله في الحرب مدعاة انقاذ بريطانيا واوربا من شرور هتلر . وكان تأثيره الشديد على الحلفاء كفيلا بتحقيق سلام رائع لأوربا. ولكن وفاته جعلتنا في تلك الفترة المصيرية اشد جهلا بالمصير الذي ستؤول اليه أوربا. ذلك لاننا كنا نجهل بأن المستقبل ينطوي على التخلي عن نصف قارة اوربا في لعبة السلام الجديدة.

كما لم نكن نعلم بخطة مورغنتاو لجعل المانيا بلد زراعي وتجريدها من كل مقومات الصناعة ولذا فقد حزنت كثيرا لوفاة روزفلت واعتبرت موته خسارة كبيرة للعالم كله. وكنت على ثقة من ان خلف روزفلت لن يكون بنفس مقدرته وذكائه ومعلوماته الواسعة بشأن مشكلات العالم. وقد اتجهت انظارنا بعد وفاة روزفلت نحو تشرشل الذي اظهر خلال الحرب مواقف واقعية جدا في كثير من المناسبات وابدى حرصه الشديد على حماية اوربا من مطامع الروس ولأنه كان يعرف الضرورات الاوربية بشكل يفوق معرفة خليفه روزفلت لها. والمؤسف ان تغير الاوضاع السياسية الداخلية في بريطانيا جعله يتخلى عن مسؤولياته لخلفه كليمنت اتلي كما انه من الخطأ القاء تبعة التساهل مع الروس في مؤتمر پوتسدام على اتلي وحده . ذلك لأن تشرشل ساهم ايضا في وضع خطط مؤتمر پوتسدام بقدر ليس بالقليل.

فوجئت خلال وجودي في ڤيزبادن باكتشاف سر خطير آخر. فقد علمت من الضباط الامريكان باكتشافهم لآثار جرائم رهيبة قام بها النظام النازي في معسكرات الاعتقال الالمانية . ولم تتصور نحن الذين لم تكن لدينا ادنى فكرة سابقة عن مثل هذه الافعال الشنيعة حصول الافعال المذكورة حقا

لو لم يؤكدوا لنا بأنهم شاهدوا تلك المعسكرات بأنفسهم وكنا نعتبر وجود معسكرات الاعتقال العوبة دعائية ماهرة دأب الاعداء على ترديد وجودها بينما انكرت الحكومة الالمانية وجودها . وقد اعقبت ذلك الاكتشاف فضيحة التشهير بالمانيا في صحف العالم لممارسة حكومتها لتلك المجازر المنافية للانسانية.

والواقع هو ان وجود تلك المعسكرات كان مؤكداء والمعروف لدينا انها وجدت منذ عام ١٩٣٣ حيث أصبحت أسماء اورانينبورغ وزاكسن هاوزن وداخاو معروفة لدى عامة ابناء الشعب الالماني. ولا ازال اتذكر بيتا من الشعر دأب الاطفال الالمان على ترديده آنذاك وكان مفاده:

« يا الهي العظيم اجعلني تقيا ولا تدعني بداخاو اقيم».

وكنت اعلم قبل الحرب ان هذه المعسكرات كانت اماكن اعتقال نموذجية روعيت فيها التدابير الصحية وكان تجهيزها نموذجيا وطعام السجناء جيدا وقد حدثني عن هذا بعض معارفي من الاجانب الذين دعوا لزيارتها آنذاك وكان بينهم عدد من ضباط الشرطة. ولم يطلع اولئك الضيوف بطبيعة الحال على الوسائل القسرية التي يعامل بها المعتقلون ولا الضغط النفسي الذي يتعرضون له فيها. حيث كانت تدابير الكتمان شديدة جدا حتى في ذلك الحين. كما كان المعتقلون الذين يتم الافراج عنهم مسلوبي الارادة ويفضلون الصمت على التصريح بأي شيء مما كابدوه.

وبعد نشوب الحرب تضاعف عدد المعتقلات الى حد كبير. ولما برزت الحاجة لتأسيس معسكرات العمل الكثيرة لأسرى الحرب في الجبهة الشرقية اصبح من الصعوبة بمكان التمييز بين معسكرات الاعتقال ومعسكرات اسرى الحرب ومعسكرات العمل وكانت الصيغة السائدة مع مرور الزمن هي التشدد في الكتمان وممارسة الارهاب واستمرت هاتان الظاهرتان بصورة مضطردة مع استمرار الحرب . ولا يمكن اعتبار الحالة الرهيبة التي صورتها افلام الدعاية والتي عرضت علينا في نورمبرغ بأنها كانت حالة مستمرة وانما الذي حصل فعلا هو ان بعض معسكرات الاعتقال التي كانت تحت ادارة

رجال من الشرطة السرية للدولة تم فيها اعدام السجناء قبيل انتهاء الحرب تخلصا منهم.

كما ان شحة المواد الغذائية مع استمرار الحرب ادى الى تعريض ملايين الاسرى والمعتقلين للجوع لأن الحكومة الالمانية وجدت صعوبات جمة في اطعام جنودها المقاتلين وابناء الشعب فجاء اطعام تلك الجموع الغفيرة من الاسرى والمعتقلين ضغثا على ابالة. وبات الحفاظ على ارواح اولئك المنكودين من الامور البالغة الصعوبة.

وفي الفترة الاخيرة من الحرب اصبحت اية ملحوظة او نقد يوجه نحو معسكرات الاعتقال سواء من حيث وجودها او نمط ادارتها او تزايد عددها يؤدي بصاحبه الى الاعتقال بطريقة فورية. ومن الطبيعي ان شدة الكتمان ادت الى جهل الصحافة الاجنبية بوجود الكثير من المعتقلات ولم يعرف احد بوجود معسكرات بيلسن ورافنسبروك وفلوسنبيورك الا بعد الحرب عندما اكتشفت فعلا.

وللتدليل على شدة الكتمان المعتمد في هذا الشأن اذكر ان ولدي خدم لمدة ستة اشهر تقريبا في مدرسة عسكرية كانت تقع قرب غوتا وكان معسكر اعتقال بوخنڤالد يبعد زهاء ٢٥ كيلومترا عن تلك المدرسة كما كان على بعد ثمانية كيلومترات من ڤايمار بينما لم يعلم ولدي بوجود ذلك المعسكر مطلقا وكل ما كان يعلمه هو ان بوخنڤالد فيها معسكر لأحدى وحدات قطعات الحماية المشهورة.

في أواخر نيسان ١٩٤٥ نقلنا بصورة سرية جدا بالطائرة الى ريمس حيث مقر القائد آيزنهاور وهناك تم استنطاقي من قبل زمرة قوامها أربعة ضباط برئاسة اللواء سترونغ وكان معه ضابطان روسيان والعميد الامريكي باتس . وكنت لا ازال في جهل تام بشأن الأسباب التي دعت لتوقيفي.

وكان سؤالي الاول للواء سترونغ:

« لماذا انا موقوف هنا؟ هل انا معتبر اسير حرب لديكم فأنا لم اشغل

أي منصب عسكري خلال الحرب. كما انني تجاوزت السن المقررة لاعتقال اسرى الحرب وفقا لاتفاقية جنيف لأسرى الحرب ».

فأجابني بقوله :

« انني غير قادر على تزويدكم بأية معلومات عسكرية لسبب بسيط هو انني لا اعرف شيئا عنها . لكنني اعلم من الاحاديث العامة بأن هتلر عازم على المقاومة حتى النهاية في جبال الألب الباڤارية والنمسوية».

ثم سألني:

« هل تعتقد بوجود امكانية لتقصير امد الحرب؟ ان هذا لابد ان يكون من مصلحة المانيا ايضا».

فأجبته :

« اجل انا اعتقد بهذا بكل تأكيد »

عندئذ سألني:

« هل انت على استعداد لتوجيه نداء للشعب الالماني بالراديو تناشد به مواطنيك القاء السلاح وانهاء الحرب لأن اية مقاومة اخرى اصبحت غير مجدية ؟»

فأجبته:

« سأكون على استعداد لتوجيه مثل هذا الطلب . وانا اعتقد بأنني سألقى استجابة من كثير من الاوساط الالمانية . ولكنني ارى ان توجيه مثل هذا النداء وانا اسير لديكم وبناء على أمر منكم يعتبر امراً غير لائق بي وانما افضل ان اوجهه وأنا رجل طليق بمحض ارادتي. ولذا اظن ان من الأفضل أن تقوم طائرة بنقلي الى أي قاطع من الجبهة لكي أقوم بالاتصال المباشر مع قادة الميدان الالمان».

عندئذ سألني اللواء سترونغ:

« من هم القادة الالمان الذين تعتقد انهم على استعداد للاستجابة لندائك؟»

وبعد لحظة تأمل اجبته:

« الفريق الاول بلاسكوفيتز والفريق غراف شفيرين».

عندئذ توقفت المحادثة . فأدركت ان اولئك الضباط ارادوا الرجوع الى قائدهم الاعلى لتلقي توجيهاته. وفي صباح اليوم التـالي اجريت معي محاورة جديدة وقيل لي ان مقترحي قد رفض. وبعد بضعة ايام نقلت من ريس بصورة سرية ايضا وكان تنقلي هذه المرة باتجاه الشمال . ومررنا عند ميدان قرب منزل فون دونشيري وهو المكان الذي تحدث فيه المستشار الحديدي بسمارك مع الامبراطور الفرنسي الأسير نابليون الثالث. ولما ذكرت ذلك للضابط الانكليزي الشاب الذي كان مكلفا بمرافقتي قال لي ان بسمارك وغيره من البروسيين المتطرفين هو المسؤول عن ظهور هتلر الذي تسبب في هذه الكارثة . ووجدت من غير المجدي الاسترسال في المناقشة لاثبات خطأ وجهة نظره . اذ كيف اتمكن من الاشادة بمحقق الوحدة الالمانية لعدو مأخوذ بنشوة الانتصار.

في المساء وصلنا الى شاتو دي ليزبيوليه بالقرب من شبا حيث تنـازل الامبراطور ڤيلهلم الثاني عن العرش فأدى بنا الى الكارثة التي نشهد آخر فصولها. وتم استقبالنا بترحاب واضح حيث قال لنا الرائد زيغر من الجيش الامريكي والنقيب روبرت شو من الجيش الانكليزي بأننا سنعامل بصفتنا ضيوف الحلفاء. وقد حافظ الرجلان على علاقاتهما الودية معنـا منذ تلك اللحظة.

والمؤسف انني فصلت هناك عن ولدي الذي ارسل الى معسكر اسرى الحرب في ريڤان. اما صهري ماكس فون شتوكهاوزن فقد اخلي سبيله. ثم انني التقيت بالوصي على عرش المجر امير البحر هورتي فوجدته بحالة يرثى لها. وكان آخر عهدي به قبل ذلك الحين في كانون الاول ١٩٤٣ عندما وجه لي دعوة للصيد في بلاده. فلما رأيته ثانية بعد سنة ونصف من ذلك التأريخ بدى لي وكأنه تقدم بالعمر خلال هذه الفترة سنين عديدة . وقدرت ما كابده الرجل من احزان علاوة على مقتل ولده البكر الطيار . والجحود الذي لقيه من هتلر وتصرفات القنصل الالماني الذي كان مع رجـال الشرطة السريـة .

للدولة الالمانية يتصرفون في المجر تصرف رجال العصابات. ثم كان اختطاف ولده الثاني ولما وعد الرجل برؤية ذلك الولد حيا لم يبر هتلر بوعده وانما اعتقله فجأة ووجد هورتي نفسه اسير هتلر في احدى قلاع باڤاريا حيث مكث في سجنه ستة اشهر حتى حررته جيوش الحلفاء ثم مـا لبث الامريكان ان اعتقلوه فألتقيت معه بالمعتقل؟

لم تستمر اقامتنا في ذلك المعتقل المريح فترة طويلة . فقد نقلنا بصورة سرية ايضا في مايس ١٩٤٥ الى فندق صغير في باد موندورف القريبة من لوكسمبورغ. والذي أثار تعجبنا هذه المرة ان الفندق كان محاطا بسلسلة كثيفة من الاسلاك الشائكة ويقوم على حراستـه جنود امريكان مسلحون بالرشاشات ويتحصنون في ابراج مرتفعة تحيط ببناية الفندق.

وفي الداخل كان المكان خاليا من الاثاث ما عدا الفراش وبعض الكراسي. وقد تسائل هورتي بعجب عما اذا كان هذا نوعا جديدا من معسكرات اسرى الحرب المخصصة لزعماء الدول المندحرة . ولم يتمكن الضباط المرافقون لنا من الاجابة على هذا السؤال. الا انهم وعدوا بايصال اسئلتنا الى مقر القائد آيزنهاور لكي نحصل على ما يضمن تجنب أي سوء فهم لموقفنا.

علمنا بعد قليل ان الفندق يقع على بعد ١٠٠٠ متر فقط عن فندق آخر يدعى (غراند هوتيل) وجعل موئلا لاقامة جميع زعمـاء المانيا العسكريين والسياسيين الذين اتهموا بممارسة جرائم الحرب وانهم سيحالون الى محكمة خاصة. ولم اتصور في تلك الفترة ان هذا الاجراء سديدا او قانونيا.

ثم ما لبثنا ان وجدنا انفسنا معزولين عن العالم الخارجي اعتبارا من تلك الفترة. وكنا نحصل على الطعام يوميا من مطبخ سجن (غراند هوتيل) وهو محفوظ في علب قديمة وكان يقدم باردا بطبيعة الحال وبمقادير غير كافية. رفض هورتي تناول أي طعام وسرعان ما تدهورت حالته الصحية الى حد خطير.

اصبحنا تحت سلطة عقيد امريكي يدعى برتون اندروس[٢]. وادركنا من الوهلة الاولى ان الفريق الاول ايزنهاور وجده الرجل المناسب لأدارة مجرمي الحرب.

وكنا نظن في اول الأمر خطأ ان آسرينا يبذلون قصارى جهودهم للاهتمام بوضعنا في السجن. ولكننا سرعان ما اكتشفنا الوهم الذي انسقنا ورائه عندما انهار امير البحر هورتي واوشك على الهلاك فرجوت ضابطا امريكيا ان يستدعي لنا طبيبا عسكريا من (غراند هوتيل) ولكنه عاد بعد قليل ومعه العقيد برتون اندروس وكان الاخير رجلا متوسط القامة ممتلئا حليق الوجه عدواني النظرات يرتدي خوذة فولاذية لامعة ويحمل بيده سوطا وكانت نبرته الصوتية واضحة الاصطناع لدرجة لا تطاق لأنها كانت غير طبيعية بالمرة.
وكانت تلك هي المناسبة الاولى التي رأيته فيها ولم يكذب ظني به عندما قرأت على وجهه كل آيات الحقد واللؤم الواضحة ولكنني رغم ذلك بادرته بقولي:

« كيف تسوغون لانفسكم معاملة رئيس دولة مثل هذه المعاملة المهينة المجردة من الحياء؟ وكيف يمكنكم تحمل مسؤولية حياة رجل اربى على السبعين بحيث اصبح مشرفا على الهلاك بسبب سوء معاملتكم له ؟ الا تعلموا بأن الولايات المتحدة الامريكية من الدول الموقعة على اتفاقية لاهاي الدولية التي تنظم التعامل الانساني لأسرى الحرب ؟».

ويبدو ان كلماتي هذه فاجأت العقيد الامريكي تماما لكنه اجابني:
« أنا لا اعرف ابدا هوية المعتقلين هنا. وانا لم اسمع بوجود رئيس دولة معتقل هنا قط. ان علي ان اتدبر الحراسة المشددة فحسب. وما سوى ذلك فلن يهمني».

فقلت له:

---

(٢) كان برتون اندروس وغيره من المتعاملين مع الاسرى ومجرمي الحرب من اليهود الالمان والنمسويين المتجنسين بالجنسية الامريكية.
— المترجم —

« عليك اذا ان تخبر المقر الذي تتبعه بأن الوضع المزري الذي وصلنا اليه يتطلب مساعدة فورية ».

ومع انه لم يحر جوابا الا ان نظراته فضحت خبيئـة نفسه التي اربأ بنفسي عن تكرار وصفها. وكانت نتيجة كلامي معه ان اصبح الطعام بمقدار اكثر بقليل واصبح انظف ولكن العقيد ازال فراشنا وابدله بأكياس من التبن وأمر بازالة زجاج نوافذنا ووضعت طبقات من النسيج السلكي على النوافذ وفي هذه الفترة تم تحويل عدد من سجناء (غراند هوتيل) ليقيموا معنا وكان من المنقولين معنا وزير المالية السابق غراف شفيرين كروسيك وآخر امين سر للدولة البارون شتينغراخت وتم حشرنا بواقع ستة الى ثمانية اشخاص في كل غرفة . ولما رجوتهم جعل امير البحر هورتي في غرفة لوحده بسبب مرضه تلقيت زجرا ورفض طلبي. كما نقل خادمه الأمين ــ وهو رجل مدني لم يسبق له ان ارتدى ملابس عسكرية وتطوع لمرافقته بالأسر ــ الى احد معسكرات الاعتقال.

وأخذت منا ملابسنا ومقتنياتنا القليلة التي اخذناها معنا خلال فرارنا. والشيء الوحيد الذي تمكنت من تحقيقه للمسكين هورتي هو انني استطعت الاقامة معه بنفس الغرفة واتيحت لي فرصة تزويده ببطانيات اضافية غطيت بها فراش القش الذي أعد لمنامه.

وحدثت لي مشادة اخرى مع اندروس عندما سألته فيما اذا كنا نعتبر سجناء مدنيين أم اسرى حرب. حيث قال لي:

« انتم اسرى حرب »

فقلت له:

« اذاً فنحن لنا الحق بموجب اتفاقية لاهاي الدولية بكتابة رسائل الى ذوينا».

فصرخ بوجهي:

« كلا . ليست لكم اية حقوق »

عندئذ اجبته بهدوء:

« اذا يمكننا اعتبار الولايات المتحدة الامريكية من الدول التي لم تعد موقعة على اتفاقية لاهاي».

فقال :

« ان هذا لا يهمني ابدا »

فأجبته :

« لكن هذا يهمنا . فنحن نرى ان جيش الولايات المتحدة الامريكية لا يمكن ان يغمط حقوقنا التي ضمنتها لنا القوانين الدولية ».

فأنفتل راجعاً دون ان ينبس ببنت شفة. وبعد بضعة ايام تلقينا اوراق ومظاريف حيث اتيحت لكل منا فرصة كتابة رسالة لذويه.

حاول امير البحر هورتي توجيه رسالة لجلالة الملك جورج السادس ملك بريطانيا ولما لم ينجح في محاولته هذه رجاني مساعدته في توجيه رسالة لونستون تشرشل . وقد حصلت على اذن منه لنشرها نظرا لاهميتها بالنسبة لمقررات مؤتمر بوتسدام:

« عندما احرر لكم هذه الرسالة شعورا مني بالواجب فانني ارجو من سعادتكم الا تسيئوا فهمي رغم اهمية اعمالكم ومسؤولياتكم الجمة . ذلك لأنني اعتبر سعادتكم رجل الدولة الاوربي الوحيد الذي يقدر مدى خطورة الموقف بصورة صحيحة. ولذا فان لي الرغبة الشديدة ان اعرض لكم مسألة شعبي العزيز التي تكمن في سويداء قلبي والذي اضطررت على الابتعاد عنه.

وحيث انني لم اتصور في حينه ان النظام النازي كان يضللني ويكذب علي ولأنني لا ازال الرئيس الشرعي لدولة المجر فانني لا ازال اشعر بمدى المسؤولية الملقاة على كاهلي واقدر مدى تأثير النتائج المترتبة على القرارات المتعلقة بمسؤولية شعبي.

وكنت قد رجوتكم في رسالتي الاولى عدم اتخاذ أي قرار سياسي بشأن المجر دون الاستئناس برأي الشعب المجري نفسه ــ كما حصل بعد الحرب العالمية الاولى ــ لأن ما اخشاه هو انني قرأت في الصحف نبأ تخلي

تشيكوسلوفاكيا عن روتينيا الكربات للاتحاد السوفيتي وهو اقليم لا يسكنه تشيك ولا سلوفاك وانما يتألف سكانه من الروتينيين والمجريين • وحيث ان هذه المنطقة تتدفق منها الانهار الضرورية لزراعة المجر ويسكنها المجريون فانها مهمة جدا للمجر وان التخلي عنها للغير سيجعل التوصل الى اتفاقية بشان توزيع المياه من الأمور البالغة الصعوبة في المستقبل•

وأود ان اذكركم بأن المجر فقدت بعد الحرب العالمية الاولى زهاء ثلثي اراضيها التي عاش بها الشعب المجري منذ اكثر من الف عام وذلك بتأثير وجود اقليات رومانية وصربية ولكن تلك الاراضي المفقودة بقيت ذات اغلبية مجرية حتى الوقت الحاضر•

كما ان توقيع وثيقة الأمم المتحدة كان محاولة جادة لتجنب شرورالحرب ولضمان الحق والعدالة ويمكن اعتبار هذه المؤسسة املنا الوحيد للحفاظعلى حضارة العالم الغربي• وتعلمون سعادتكم الدور المهم الذي قامت به المجرفي الماضي للمحافظة على التراث• كما ان شعبنا متمسك بالقيم الروحيةوبالتقاليد المتوارثة ومما لا شك فيه انشعبنا مقدر لمسؤولياته وسيدافع عن قيمه هذه بكل قوة•

ويجب منح الشعب المجري ــ بطبيعة الحال ــ فرصة الدفاع عن التراث الاوربي في بلدان البلقان• ونحن نأمل ان تتولوا سعادتكم معالجة هذه القضية شخصيا•

ان تصنيف وثيقة الامم المتحدة للشعوب بكونها «اصدقاء واعداء» يبدو لي مجانبا للصواب ذلك لأن اناسا من مختلف الشعوب قاتلوا ضد الاتحاد السوفيتي ــ منهم فرنسيون وبلجيكيون وهولنديون ودانماركيون ــ اما بصفة متطوعين او مجبرين على المساهمة في الحرب•

وقد آثرت (بدلا عن الفرار الى المنفى او تقبل معاهدة جائرة كما فعل السيد ادوار بنيش عندما رضيباتفاقية ميونيخ التي ضيعبها تشيكوسلوفاكيا او كما فعل الرئيس اميل هاشا عندما فتح للالمان الطريق المؤدية للاستيلاء على براغ) البقاء على الجسر لكي اناشد القبطان في لحظة الخطر ابداء

المساعدة الممكنة لانقاذ بلادي.

ومن الطبيعي ان ابذل جهودي لمحاولة الاتصال بوزراء بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية لكي ابين لهم حقيقة مهمة هي ان التشيك والسلوفاك كانوا من ضمن الشعوب التي ساهمت في مقاتلة الاتحاد السوفيتي فحصلوا على الاستقلال بينما اهديت للاتحاد السوفيتي مقاطعة من تشيكوسلووفاكيا تضم مئات الآلاف من المجريين.

واود ايضا ان ابين بأن في يوغسلافيا أربعة احزاب هي قوات نيدش وقوات ميخائيلوفيتش والمسلمين والكرواتيين وقد اهملت اصوات هؤلاء كلهم عندما اعطيت الثقة للشيوعيين وحدهم . ومما لا شك فيه ان معاداة قوات ميخائيلوفيتش ادت الى ابعاد يوغسلافيا عن التضامن مع اوربا. ثم ان الصرب والكرواتيين تستحكم بينهم عداوة مذهبية شديدة منذ عهد بعيد نظرا لأنهم ارثدوكس ورومان كاثوليك . ثم ان شعوبا ناضلت في سبيل الحرية طويلا مثل الكرواتيين والسلوفاك لا يمكن جعلهم تابعين بصورة مطلقة لشعوب اخرى يكرهونها . ثم هل يمكن ان تحيا كرواتيا والمجر دون احياء الاتحاد القائم بينهما منذ اكثر من ثمانمائة عام واعطائهما ميناء فيومي لكي يكون لهما منفذ على بحر الأدرياتيكي. ويشبه هذه الحال ضرورة منح النمسا ميناء تريست الذي يعتبر حيويا لوجودها.

ولو اتيحت للمجر الامكانات الاقتصادية الممكنة والضرورية لوجودها لاصبحت تتمتع بالقوة الكافية للنضال سياسيا واقتصاديا ضد النظام الذي بات يهدد العالم كله الآن.

وانني اؤكد بأن المجر اذا ما اعطيت هذه الامكانات فستكون حجر الزاوية في رعاية مصالح وافكار العالم الغربي في هذا الجزء المهم من اوربا.

واخيراً هل لي ان اؤكد لكم املي الوطيد في ان الشعب البريطاني لابد ان يجدد ثقته بكم من اجل ضمان مستقبل افضل لشعوب اوربا بشكل يعجز عن تحقيقه أي رجل آخر . وان مصير شعبي بين أيديكم .

معسكر السجن في ١٩٤٥/٧/٥

التوقيع

نيكولاس هورتي[٣]

وكنت قد كتبت عبارة «فرصة الدفاع عن التراث الاوربي» بحروف كبيرة للتأكيد على اهميتها. ولكن ماذا كانت النتيجة؟

في ١٠ حزيران ١٩٤٥ كنت قد كتبت مذكـرة للفريق الاول آيزنهاور دافعت فيها عن وصمنا بالجرائم الجماعية وذكرته بالوعود اليومية التي كانت تكيلها دعايات الحلفاء زاعمة «ان الاستسلام بدون قيد او شرط ليس معناه العبودية ولكنه يعني معاقبة جميع المجرمين وهو يعني ايضا العـدالة لكل الآخرين» وهذا هو كل ما ارجو تحقيقه ليس الا.

كما كتبت بشأن مصير هورتي رسالة لملك السويد . ولكنني لم أحصل على جواب واحد على كل رسائلي. وفي اوائل آب ١٩٤٥ نقلت الى جناح منفصل في فندق (غراند هوتيل) بموندورف. حيث قيل لنا باننا سننقل الى مكان آخر وشيكا. وبعد ايام قلائل تركنا هورتي واغلب الآخرين الى مكان اجهله.

وبعد يومين اوقظت في الفجر لكي انقل بطائرة نقل ووجدت معي في المطار المشير هرمان غورنغ والوزير فون ريبنتروپ والفريد روزنبرغ وڤيلهلم شترايشر فلم تتحدث مع بعضنا البعض وكانت تحيتنا لبعضنا باردة.

لقد لاحظت على رجال الدولة الالمانية السابقين ان ملابسهم كانت مهلهلة وهم بلا اربطة عنق واحذيتهم بلا اشرطة فخطرت ببالي صورتهم الانيقة المشرقة في احتفالات يوم الحزب النازي بنورمبرغ عام ١٩٣٧.

طرنا بطائرتي نقل من احد مطارات لوكسمبورغ وكان معي في الطائرة كل من الفريد روزنبرغ وهانزفرانك ويوليوس شترايشر وآخرين ثم ركب

توفي امير البحر هورتي بمنفاه بالبرتغال يوم ٩ شباط ١٩٥٧ .

ـ المترجم ـ

بجانبي العقيد اندروس وكان سوطه الذي لا يفارقه بيده. ولما اقلعت طائرتنا ادركت انها اتجهت شرقا ولكنني تعذرت علي معرفة الاتجاه بسبب كثافة الغيوم ولما حطت طائرتانا على المدرج ميزت معالم المدينة التي محقتها الغارات الجوية فكانت نورمبرغ.

الفصل الثاني والثلاثون

في السّجن



وراء قضبان السجن. استجوابات . علماء نفس مستنطقين. الاتهامات . اختيار المحامي عني. الحالة في السجن . شاخت والمصور . ملاحظات بشان المتهمين معي.

صعدت سلم قصر قديم يحرسني جنديان ثم ولجت بابا ضخما مصنوعا من الحديد. وكانت تلك هي المرة الاولى التي رأيت فيها تلك القلعة في حياتي. ولم يكن هناك أي شك في تعذر الافلات من ذلك المكان الرهيب. فهي ذات ثلاثة طوابق في كل منها ممر طويل جدا تتراصف على جانبيه زنزانات حصينة ترتبط ببعضها البعض بمدخل ضيق. ولكي لا يحاول أي سجين منا الانتحار بالقاء نفسه من الطابق الثالث فقد غطيت جميع النوافذ بمشبك سلكي سميك جدا. وهذا ما ادى الى حصول تيار من الهواء البارد الذي يشبه برودة السرداب يمر على امتداد الممر بصورة دائمية مما استوجب علينا الانزواء وراء جدران سجننا تخلصا من ذلك الزمهرير.

قادني العقيد اندروس شخصيا الى الزنزانة رقم ٤٧ ملقيا نظرة ازدراء مهينة وتركني فيها قائلا:

« يبدو ان هذا هو المكان الذي يناسبك »

ثم اغلق علي باب الزنزانة حيث تركني وحدي واردت ان اخلو لنفسي واتأمل واقعي. وادركت ان هـذا السجن اعد لنا على عجل وكانت نـوافذ الزنزانة عالية وعليها قضبان غليظة من الحديد تحجب الرؤية الى الخـارج. وكانت مصابيح السقف مقطوعة اسلاكها وكانت الزنزانة خالية منأي سلك. وكان في الزاوية سرير منام يطوى وعليه بطانية رمـادية اللون . وكان في الزنزانة كرسي ومنضدة صغيرة هما كل اثاث الزنزانة. وكانت عتبة الباب قابلة للطي حيث يعبر لنا منها الطعام. كما كانت في الباب كوة تتيح للحارس ان يرصد وجودنا وما نفعله في اية لحظة يشاء.

وواضح ان الزنزانة كانت خالية من جميع المواد والادوات التي يمكن استعمالها للانتحار . فكانت النوافذ بلا زجـاج واستعيض عنها بالنسيج السلكي. والحمد لله الذي جعل الطقس دافئا في تلك الفترة.

كان الطعام غير كاف ابدا. وقد قيل لنا بأننا سنحصل علىتعيين الماني من الارزاق وان حالة الطعام ستتحسن ولكننا شعرنا بأننا اصبحنا عرضة للايذاء المتعمد بشتى الوسائل. ولما كانت الزنزانات بدون اضاءة فاننا كنا ننام في ظلام دامس ونظرا لضيق النوافذ فقد كان الظلام يخيم في السـاعة السادسة خلال شهري ايلول وتشرين الاول بحيث تصبح المطالعة من الامور المتعذرة علينا فنضطر على اللجوء لفراشنا حال هبوط الظلام. وكان اسوأ ما عانيت منه في تلك الفترة هو انني لم اعرف ابدا طبيعة الاتهام الموجه لي.

كانت المشكلة التي اقضت علي مضجعي هي اختيار المحامي الذي يدافع عني. ووجدت ان اختيار المحامي سيكون وفق الطريقة التي كانت مألوفة في العهد النازي الذي اضطربت فيه مفاهيم العدالة وذلك لأننا ازاء محكمة دولية اعدها لنا المنتصرون وليس لدينا أي خيار. لكنني بقيت قلقا اكثر لأنني لم اعلم بالقاعدة القفهية التي ستتبع في المحـاكمة وهل هي نظـام المحلفين أم

النظرية القديمة (العين بالعين والسن بالسن).

لم تكن لدي اية معلومات او انباء منذ عيد الميلاد عن ابنتي اللتين كانتا في الجبهة الشرقية وهل انهما لقيتا حتفيهما أم استقرتا في المعتقلات الروسية او انهما عادتا بلطف من الله الى الوطن سالمتين. وهكذا لم يبق لي سوى الأمل والدعاء. وفي ايلول ١٩٤٥ علمت من القس الكاثوليكي العسكري الامريكي بأن زوجتي وابنتاي وصلن الى نورمبرغ سعياً وراء وسائل خلاصي.

تعجبت كثيرا عندما كنت مارا من حمام السجن الى الزنزانة وشاهدت امير البحر هورتي. وكان معزولا لوحده هو الآخر. ولم نتمكن من التحدث الى بعضنا البعض بطبيعة الحال. ولاحظت ان حالته العامة قد تحسنت بشكل ظاهر. وعلى الرغم من شدة رقابة الحراس ونظراتهم الصارمة فقد تبادلنا نظرات ودية عبرنا بها عن الاحترام الذين يكنه احدنا للآخر.

شغلت نفسي خلال تلك الاسابيع الطويلة من السجن الانفرادي الرهيب مستفيدا من الكتب التي تحتويها مكتبة السجن. فقرأت كتبا كثيرة من مؤلفات غوتيه واستمتعت كثيرا بمطالعة كتاب (المبررات) للكاردينال نيومان.

في ٣ أيلول ١٩٤٥ تم استنطاقي لأول مرة. وقد لاحظت ان مستنطقي السيد دود كان رجلا مهذبا وشريفا بل وودوداً معي. وقد حاولت ان اشرح له مسيرتي السياسية . ولما وصفت له ملابسات وصول هتلر الى السلطة قال لي:

« اجل . وبعد ذلك مباشرة أي في شباط ١٩٣٣ قمت انت بتأسيس المحاكم الشعبية مما ادى الى اضطراب موازين العدالة في المانيا وايصالها الى مستوى يثير السخرية».

فأستنكرت قوله هذا وقلت له:

« لابد ان تكون قد توهمت بتصورك هذا . فالمحاكم الشعبية لم

تؤسس لا في عهدي عندما كنت مستشارا ولا في الوقت الذي صرت فيه نائبا للمستشار . ولابد انها تأسست بعد ذلك بمدة طويلة».

ويبدو ان السيد دود خلط بين تأسيس المحاكم الشعبية واعلان تأليف المحكمة الخاصة بعد حريق بناية مجلس النواب. وكانت تلك المحكمة قد تألفت من ثلاثة قضاة كان احدهم فقط غير خبير بالقانون وهو السيد رونالد فرايزلر[1] الذي سماه هتلر بالذات للمشاركة في تلك اللجنة.

وقد تبينت من ملحوظات المستنطق انه لديه معلومات سطحية عن حقائق الامور التي جرت في المانيا خلال فترة حكم هتلر . ولما تطرقنا الى انقلاب ٣٠ حزيران ١٩٣٤ ابدى استغرابه لقبولي منصب السفير في النمسا بعد ان عانيت شخصيا من عداء هتلر واستهانته بي. فحاولت ان اصف له مدى دقة الموقف السياسي آنذاك وبررت له قبولي بالمنصب لأن مقتل دولفوس جعل المانيا على حافة الاشتراك في نزاع اوربي. الا ان السيد دود لم يقتنع بتبريري هذا عندئذ حاولت انهاء المحاورة عندما قلت له بمرارة:

« يؤسفني كثيرا انك لا تريد ان تفهم الموقف الذي يؤدي به المرء دوره الوطني متجاوزا الضغائن والاحقاد الشخصية ».

وعندها اظهر المستنطق دود مشاعره الانسانية متجاوزا دوره كحاكم يمثل الدول المنتصرة واعتذر مني قائلا انه يقدر القيم الوطنية التي حدت بي الى قبول ذلك المنصب. وكانت هذه المحاورة سببا في قيام جسر من الثقة بيني وبين هذا الإنسان الرائع رغم جهلي بما يخبئه لي التحقيق من اتهامات أخرى. ولما رأيته آخر مرة ــ وكان ذلك قبل ان أُبلغ باتهامي بجرائم الحرب

---

(١) كان فرايزلر اسير حرب لدى الروس عام ١٩١٤ ثم انتمى للحزب الشيوعي وصار في عام ١٩٢٠ قومسيرا شيوعيا في اوكرانيا . الا انه انتمى للحزب النازي عام ١٩٢٥ حيث اشغل منصب وكيل وزارة العدل الالمانية واشتهر بكونه اقسى القضاة في المانيا النازية وهو الذي نكل بالمتآمرين على اغتيال هتلر في ٢٠ تموز ١٩٤٤ وقد قضى نحبه بتأثير غارة جوية على برلين يوم ٣ شباط ١٩٤٥ .

ــ المترجم ــ

امام المحكمة العسكرية الدولية ـ ودعني بقوله:

« ما عليك الا ان تحافظ على رباطة جاشك وعندئذ ستسير الامور كما تشتهي»۰

ولما اعلنت برائتي بعث لي علبة من سيكار هاڤانا النفيس تعبيراً عن سروره ولا ازال اذكره بخير ما حييت۰

لقد اضاء لي السيد دود وراهبين كاثوليكيين من رهبان الجيش الامريكي هما الأب فلاين وخلفه الأب سيكستوس اوكونور بصيصا من الأمل في ذلك الموقف القاتم من حياتي۰ وعلى الرغم من تعرضنا للاستنطاق والتحري من اناس كثيرين الا انني لم الاحظ ان أحدهم كان من علماء النفس او الخبراء في مواضيع التحليل النفسي۰

وكان ان اجرى لنا اختبار للذكاء من قبل رئيس المحققين الامريكان النقيب غلبرت حيث قدم لنا اوراق مؤشرة بخطوط ونقاط وثقوب فقلت له انني افضل توجيه اسئلة بالتأريخ والجغرافيا والسياسة والاقتصاد بدلا من هذه الوريقات المبسطة۰ ويبدو انه لم يهيء الاسئلة التي اردتها فقام باعداد اختبار آخر بالحساب ۰ وبعد مدة اخبرنا بنتائج فحوص الذكاء فكان الاول الدكتور هيالمار شاخت وهذا أمر لم نفاجأ به مطلقا اما الثاني فكان المهندس البرت شپير وكنت انا الثالث اما الاخير فكان يوليوس شترايشر۰

ولكي اكون على بينة من تواريخ الاحداث رسمت على جدار زنزانتي تقويما تابعت به تعاقب الأيام۰ فقد اغلقت ورائي بوابة السجن يوم ١٢ آب ١٩٤٥ وفي ٣ أيلول كان قد جرى اول استنطاق لي كما اسلفت وفي ١٩ تشرين الاول ١٩٤٥ دخل العقيد اندروس واتباعه الى زنزانتي لأول مرة۰ وقد لاحظت من اول وهلة ان اتهامي «بجريمة الحرب والاجرام ضد الانسانية» لا اساس له من الصحة۰ وان اخطر ما يهددني هو الاتهام بالمشاركة في الاستحضار لحرب عدوانية ۰ ولما كنت على بينة من طرق المحاكمة الجارية في كل من بريطانيا والولايات المتحدة الامريكية فقد تأكدت من امكانية تبرئة نفسي من هذه

التهمة ايضاء وعندما علمت بأننا سنحاكم بصورة فردية كتبت لزوجتي رسالة مفرحة قلت فيها:

« ستبدأ المحاكمة في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٥ ومن المؤكد انها ستستمر يومين او ثلاثة فقط. ولما كنت على ثقة من انني بريء وانني اقل المتهمين حظا من خطر الادانة فأتوقع ان اعود اليكم طليقاً قبل نهاية شهر تشرين الثاني ١٩٤٥».

لكنني كنت برسالتي هذه كثير التفاؤل لأن المحاكمة الفضيعة التي حدثت بعد سنة تقريبا شملت ٢١ متهماً واتخذت صفة دولية وطنطنت لها الصحافة اجريت لنا بصورة مجتمعة وكان الغرض منها ادانة الشعب الالماني.

عرضت علينا يوم تبليغنا بالاتهامات قائمة بأسماء المحامين الالمان الذين يمكننا تسمية احدهم ليمثل كل متهم. ولما وقع اختياري على الدكتور دكس قيل لي ان الدكتور شاخت كلفه بالدفاع عنه قبلي. فأرسلت رسالة الى الدكتور شاخت ارجوه الموافقة على قيام الدكتور دكس بالدفاع عن كلينا بصورة مشتركة واخباري في حالة عدم موافقته على ذلك لكي اختار محاميا آخر. الا ان رسالتي لم تصل للدكتور شاخت. وكانت حصيلة ذلك ان بقيت حتى ١٠ تشرين الثاني ١٩٤٥ بلا محام.

لكنني تلقيت مساعدة ثمينة لحسن الحظ من صديق حميم هو غراف شافغوتش الذي سمع بمحام نابه من برسلاو هو الدكتور كوبوشوك فكلفه بمهمة التوكل عني فأبدى الرجل براعة رائعة في المحاكمة لأنه كان يعالج كل موقف بسرعة وبدهاء. وكان الرجل قد احاط بكل ما يحدث من ملابسات في محاكمات نورمبرغ علماً وادرك ان المحاكمات السياسية تختلف بطبيعتها عن المحاكمات الاعتيادية المألوفة في المانيا . ولما لم اكن على معرفة شخصية سابقة بالمحامي فقد اردت ان يكون ولدي الى جانبه لأنه رافقني لفترة طويلة من حياتي السياسية بحيث يمكنه اسداء مشورة جيدة للمحامي يكمل بها الجوانب غير الواضحة لديه. وبعد جهد جهيد تدبرنا قضية الحصول على اجازة لولدي من معسكر اسرى الحرب في شتيناي ليكون متفرغا للدفاع عني

طيلة مدة المحاكمة • ولولا خدمات الدكتور كوبوشوك والمساعدات القيمة التي اسداها لي ولدي لكانت نتيجة المحاكمة بشكل آخر بكل تأكيد•

ولعل القاريء الكريم يجد بعض المتعة عندما احدثه قليلا عن التجارب النفسية التي خضعت لها انا وزملائي خلال الاحد عشر شهراً التي عشناها في السجن الانفرادي • وكان الحلفاء قد استولوا على آلاف الوثائق التي يمكن جعلها ادلة تثبت اداتتنا • وكما حاول العقيد اندروس ايجاد وسائل خبيثة لأزعاجنا كتعتيم الزنزانات وممارسة الحرب النفسية فقد تعرضنا لوسائل أخرى مؤذية جعلتنا نقضي تلك الليالي الحالكة تحت وطأة السهاد منها وضع حرس أمام كل زنزانة يتم تبديله كل ساعتين ليلا ونهارا لمراقبتنا باستمرار خشية محاولة أي منا الانتحار • وكانت كل محاولة من هذا القبيل تقاوم باجراءات مضادة مستعجلة • وكانت في الممرات مصابيح مبهرة توجه نحو الزنزانات لمراقبة فعاليات السجناء وهذا ما جعلنا عرضة للتصرفات الكيفية واللهو الذي قد يحلو لبعض الحراس ممارسته كأن يوجهوا المصباح القوي نحو وجه المتهم ليعذبوه او قد يشفقوا عليه فينحون المصباح الملعون جانبا• وقد اجبر المتهمون على الاستلقاء عند النوم على جوانبهم اليمنى لكي تتاح للحراس امكانية مراقبة وجوههم بصورة مستمرة• وعندما كنت اتقلب في نومي من ذلك الجنب للجنب الأيسر كان الحارس يمد يده فيهدهدني من كتفي قائلا :

« انقلب غلى جنبك الأيمن لكي اتمكن من رؤية وجهك»•

وليس غريبا ان هذه الوسيلة القسرية تجعل المرء نصف نائم طوال الليل لكنه يتم ايقاظه عند الصباح بالضوضاء المفتعلة • اضف الى ذلك ان موعد تبديل الحراس يسبب جلبة وضوضاء تشمل البناية كلها وتردد اصداء تحركات الجنود وايعازاتهم فتقض علينا مضاجعنا مرة كل ساعتين•

وقبل ان يتبع نظام اضاءة الممر بالمصابيح الموجهة نحو الزنزانات كان الحراس مجهزين بمصابيح جيب وكان هؤلاء يوجهون اضواء مصابيحهم على وجوه المتهمين• ولما اشتكيت لضابط اجنبي في صباح احد الايام من احد حراسه لأنه اضاء مصباح اليد على وجهي خلال نصف ساعة فقط من الليلة

المنصرمة ١٢٧ مرة اجابني غاضبا:
« انه يؤدي واجبه »

لقد تعلمت النوم في هذه الظروف بعد شهر واحد من ترويض النفس. ولولا ممارستي المستمرة للصيد والرياضة طوال حياتي لما استطعت التعايش مع ذلك الظرف المقلق. ورغم ذلك فقد تركت السجن وأنا انسان كسير النفس.

كان التحدث مع الحراس ممنوعا علينا . الا ان اولئك الشباب كان بينهم من يحاول الاتصال بنا وجمع تواقيع مجرمي الحرب. وكنت في اغلب الاحوال ارفض طلبات اولئك الحراس واعدهم بأنني سوف اوقع كل دفاتر جمع التواقيع التي تعرض علي يوم اطلاق سراحي. وغالبا ما كنت اسمع منهم قولهم:

« ألا ان جميع الآخرين وقعوا لنا في دفاترنا ما عداك. ثم انك اول من سيشنق».

فأجيبهم:
« سيكون شنقي من سوء حظكم لأنني سوف لن اوقع لأحد منكم في دفتره » وكانوا يطلقون في هذه الحالة بعض اللعنات وهي حالة اتفهمها تماما بعد أن يصاب المتلهفون على جمع التواقيع النادرة بخيبة أمل . الا أن اولئك الهواة كانوا ينتقمون لأنفسهم مني بخبث عندما يجيء دورهم في الحراسة ليلا وكان الحصول على الصحف أو أية معلومات عن العالم الخارجي من الأمور الممنوعة علينا. كما حاولت زوجتي في هذه الفترة ارسال غطاء للمخدة فلم تفلح.

ولما اقترب موعد عيد الميلاد عزم الطباخون ـ وهم من أسرى الحرب الالمان ـ على اعداد قطع من الكعك ليتحفونا بشيء منها في ليلة العيد . فلما احيط العقيد اندروس علماً بذلك اصدر اوامره الفورية بمنع تقديم الكعك لأي منا بمناسبة العيد ومنع تقديم أي طعام استثنائي لنا بهذه المناسبة.

وعندما كنت آجد فرصـــة للتحدث مع الحراس ليلا كنت اسألهم عن تجاربهم في الحرب وآرائهم فيالسبب الذي حدى بالولايات المتحدة الامريكية لتشن حربا ضد المانيا قبل ثلاثين سنة في الحرب العالمية الاولى فكان جواب أغلبهم:
« ربما بسبب النازية ».

وكانوا يستغربون كثيرا عندما اواجههم بالحقيقة واقول لهم ان هـــذا المبدأ السياسي لم يكن معرفا آنذاك وانما زعمت الحكومة الامريكية بأنهـا اقدمت على الحرب انتقاما لفعاليات الغواصات الالمانية ضد السفن الامريكية ومن المؤكد ان اغلباولئك الجنود لم يعرفوا ملابسات اشتراك بلادهم بالحرب ضد المانيا آنذاك لأن القـرار بالحرب اتخـذه الرئيس الامريكي وودرو ويلسون وهذه حقيقة تأريخية لم يعد يعرفها اغلب ابناء الجيل الجديد من الشباب الامريكان.

وغالبا ما كنت اجد بين اولئك الحراس بعض الشباب الكرام الذين يرون ان تكليفهم بمهمة حراسة مجرمي الحرب اهانة لمسلكهم العسكري . وبلغ العطف بأحدهم مبلغه ــ وهو من اصل ايطالي ــ فمنحني خلسة الصليب الذي كان يعلقه في سلسلة برقبته.

كانت تحدث بعض الحوادث المؤسفة بين آونة وأخرى خلال وجودنـــا بالسجن فعندما كنا نحصل على استراحة الظهيرة خلال المحاكمات ويقدم لنا فيها الفطور كنا نجمع كل اربعة في غرفة صغيرة حيث يجلس كل سجينوامامه منضدة صغيرة ووجهه نحو احد جدران تلك الغرفة . وحدث ان اجلست في احدى المرات بغرفة كان معي فيها البارون فون نويرات وامير البحر كارل دونيتز وهايلمار شاخت فدخل علينا صحفي امريكي محاولا تصويريخلال احتسائي صحن الحساء فأنفجرت بوجهه غاضبا وقلت له ان هـــذه الفعلة تدل على قلة الحياء مما اضطره على الانهزام من امامي ومعاودة المحاولة مع الدكتور شاخت الذي نهره هو الآخر وصب على وجهه القهوة الساخنة التي كانت ملء فنجانه . فصرخ الصحفي من الألم ونادى الحراس فخف لنجدته

العقيد اندروس الذي اراد السيطرة على الموقف. وكانت حصيلة الحادث ان عوقب الدكتور شاخت بمنعه من ممارسة رياضة التمشي لمدة اربعة اسابيع ومنعه من احتساء القهوة لمدة مماثلة . وكانت تلك الحادثة من الطرائف الممتعة القليلة التي ادخلت السرور الى نفوسنا.

وكانت رياضة التمشي من الممارسات المؤذية اكثر من كونها مفيدة لأن ساحة السجن كانت ضيقة وكنا نجبر على ترك فاصلة خمسة عشر خطوة بين سجين وآخر وتقتصر مدة التمشي على عشر دقائق في كل يوم.

اتخذت ادارة السجن تدابير صارمة لمنع محاولات الانتحار بعد ان افلح اثنان من المتهمين بالانتحار وهما الدكتور كوتي رئيس نقابة الاطباء النازيين والدكتور روبرت لاي رئيس اتحاد نقابات العمال الالمان حيث تمكنا من شنق نفسيهما بشرشف الفراش المربوط بعتلة تنظيف مياه المرحاض في الزنزانة . وبعد ان انتهت محاكماتنا تمكن القائد العسكري المشهور الفريق الاول بلاسكوفيتز[٢] من القاء نفسه من الطابق الثالث فمات لتوه.

كما استطاع المشير هرمان غورنغ الانتحار هو الآخر بعد ان حكم عليه بالموت قبيل شنقه بفترة وجيزة. وقد قيل الكثير بشأن من اوصل اليه السم الزعاف ولكنني لا اظن ان عقيلته او محاميه او أحد الالمان العاملين في مطبخ السجن[٣] استطاع ان يزوده بالسم اعتمادا على تجربتين خضتهما

---

(٢) كان الفريق الاول يوهانس بلاسكوفيتز قائدا ميدانيا اشغل مناصب رفيعة خلال الحرب العالمية الثانية بدئا من قائد الجيش الثامن من مجموعة جيوش الشمال في الحملة على بولندا عام ١٩٣٩. ووصولا الى قائد قوات (قلعة هولندا) حيث استسلم للحلفاء في ٥ مايس ١٩٤٥ وكان انتحاره في ٥ شباط ١٩٤٦ بسجن نورمبرغ وعمره ٦٣ عاما .
– المترجم –

(٣) هناك رواية يزعم فيها الصحفي النمسوي (بلايب تروي) انه هو الذي زود هرمان غورنغ بالسم وانه ثبته باللبان تحت حافة المنضدة في قاعة المحكمة واشر نحو مكانه بسهم بالطباشير وراح يراقب غورنغ اثناء الجلسة فلم يلاحظ شيئا ولما انتهت المرافعة وجده قد اخذ السم من مكانه ومسح السهم المؤشر ثم انتحر به في غرفته قبل اعدامه بثلث ساعة فقط ولم ينفع جرس الانذار ومحاولات ادارة السجن غسل معدته لأنه كان قد فارق الحياة. – المترجم –

بنفسي في تلك الفترة • فقد عرض علي احد الحراس ان انتحر بتناول بعض حبوب السم ولكنها لم تكن من سم سيانيد البوتاسيوم الذي انتحر به غورنغ• كما حاول حارس آخر اعطائي مطواة جيب صغيرة لكي اقطع بها شرايين رسغي بسرعة فأضع بذلك حدا لحياتي• لكنني رفضت العرضين ولما الح علي الجندي المذكور هددته بالنداء على ضابطه فكف عن الالحاح•

ولما بدأت محاكمتنا كنا نرتدي الملابس المدنية في صباح كل يوم لكي نمثل امام المحكمة الدولية وعليه فقد اعيدت لنا اربطة العنق واشرطة الاحذية• وواضح ان هذه الاجراءات كانت تتم لاظهار حسن معاملة ادارة السجن لنا• وكنا في هذه الفترة نحلق وجوهنا في كل يوم تحت اشراف جنديين من الحراس•

كانت الدراسات النفسية والتجارب التي اجريت على السجناء خلال عام كامل وفيرة ومجدية الى ابعد الحدود لأننا تعرضنا في تلك الفترة للضغط الشديد المتواصل• الا اننا اصبح بمقدورنا التحدث بايجاز شديد خلال المحاكمات او تبادل قصاصات صغيرة من الورق بحكم جعلنا متقاربين وبخاصة مع الاشخاص الجالسين مباشرة فقد كان يجلس الى يميني خلال المرافعة الفريق الأول الفريد يودل وهو رجل لم تكن لقضيتي اية علاقة بمجال اختصاصه والقضية المرفوعة ضده اذ كان دفاعه مركزا على الجانب العسكري البحت• وقد القى دفاعه بطريقة عسكرية ومنطقية متميزة بالوضوح والجزم ولما صدر عليه حكم الاعدام تلقى الحكم بهدوء وصبر• اما الى شمالي فكان يجلس الوزير النمسوي زايس انكوارت• وهو رجل شاركني فعالياتي خلال فترة تحقيق الوحدة مع النمسا• كما انني انا الذي رشحته لهتلر لكي يتعاون مع الحكومتين النمسوية والالمانية خلال تلك المرحلة الدقيقة من تأريخ المانيا لانني كنت على ثقة من اخلاصه• وكان تصرفه سديدا في كل فعالياته آنذاك• والانتقاد الذي يؤاخذ عليه انه كان ضعيفا بعض الشيء في تعامله مع المتطرفين•

قال الرئيس النمسوي السابق ميكلاس في شهادته بقضية غويدو شميت بأن زايس انكوارت لم يخدم النمسا في فعالياته آنذاك• فأستنكرت هذا

القول ولم اشأ ان اكون شيطانا اخرس حيث شهدت لصالحه قائلا انه كان بنظري يمثل مصالح النمسا خير تمثيل وان شمائله وتصرفاته كانت نمسوية بحتة ولما تحققت الوحدة اصبح من خيرة المخلصين للدولة الالمانية ولعل من سوء طالعه ــ ليس اكثر ــ ان رشحه هتلر في وصيته ليكون وزيرا لخارجية المانيا.

كان يجلس امامي مباشرة في الصف الاول هانز فرانك الذي لم اتبادل معه خلال الفترة ١٩٣٣ــ١٩٤٥ عشر كلمات على اكثر تقـديـر وقد احيل للمحاكمة بسبب فعالياته عندما اشغل منصب حاكم بولندا المدني. وكنت امقته لأنني اشعر بأنه يبادلني نفس الشعور . وقد صدق ظني عندما حدثني عنه القس الكاثوليكي اوكونور الذي قال بأن فرانك على ثقة من مصيره المحتوم وهو يعرف تماما ان أي دفاع لن يجدي لانقاذ رأسه. فصار يقضي وقتـه بالتأمل ويعد نفسه لتلقي الحكم المتوقع. وهو من المجموعة الصغيرة التي تشكل طائفتنا الدينيـة في السجن (انـا واياه وارنست كالتنبرونر وزايس انكوارت) وتتلقى معونات القس اوكونور . وعندما كنا نلتقي في الصلاة كانت تتاح لنا فرص التحدث لبعضنا البعض. حيث اكد لي مرة بأنه لا يفهم ابدا كيف انساق وراء هتلر حتى تسبب انسياقه هذا في معاناته التي استمرت طوال عام كامل لا يتوقع خلاله غير تلقي حكم الموت.

اتخذ يواكيم فون ريبنتروب مجلسه في الصف الامامي. وقد قيل لي بأنه اتكل كليا على جهود محاميه لأنه غير قادر على المساهمة في الدفاع عن نفسه. فهذا الرجل الذي تولى مهمة تسيير سياسة هتلر الخارجية طوال اثنى عشر عاما ظهر في محنته مجردا من كل مقدرة وكأنه ثمرة ذات قشر ولكنها بدون لب او كواجهة جميلة دون خلفية ذات قيمة ومن البديهي انه استفاد من القانون غير المكتوب الذي تمسكنا به جميعا والذي ينص على ان كل فرد منا يسوغ له الدفاع عن نفسه ولكن دون ان يتهم الآخر بشيء. وعليه فانني لم اوجه ضد فون ريبنتروپ في دفاعي ولا كلمة واحدة.

بقي الفريد روزنبرغ ويوليوس شترايشر بدون اكتراث لما ينتظرهمـا

وقد تشاغل الاول برسم تخطيطات كثيرة بقلم الرصاص ، وكانا بنظري بلا حول ولا قوة. وكنا نسمع في ساعة متأخرة من بعض الليالي صرخات منكرة يطلقها يوليوس شترايشر ولست ادري ان كان ثمة من يعتدي عليه غلاً او انه كان يعاني من حالة نفسية معينة. وقد شكى لي البارون فون نويرات مرة بقوله:

« اية معاناة يتعرض لها المرء عندما يجبر على الجلوس بجانب مثل هذا المتهم المنهار نفسيا ».

كان جل عطفي على العسكريين الذين اتهموا معي موجها نحو اميري البحر اريش ريدر وكارل دونيتز. اما المشير ڤيلهلم كايتل فكنت اعتبره من «قادة المكاتب» ولم يحظ بعطف متميز مني او من الآخرين اما القائدين البحريين فقد نافحا عن نفسيهما بجدارة وبخاصة دونيتز[٤] الذي تعرض لاتهامات شديدة وكان يفندها بمقدرة رائعة.

كانت روحية البارون فون نويرات عالية دوما ، الا انه كان متأثرا مع الاسف بلهجته الشڤابية[٥] ولم يتمكن من التغلب على هذا الجانب السلبي الذي لم يكن لصالحه. كما لم يتمكن من تبرئة نفسه من الفعاليات التي قام بها خلال فترة توليه منصب وزير الخارجية في عهد هتلر.

---

(٤) كان كارل دونيتز قائدا للغواصات الالمانية ابان الحرب العالمية الثانية ثم منح رتبة أمير البحر الاكبر وتولى منصب قائد البحرية الالمانية اعتبارا من ٣١ كانون الثاني ١٩٤٣ ولما انتحر هتلر اوصى به مستشارا لالمانيا فتولى هذه المسؤولية اعتبارا من ٥ مايس ١٩٤٥ وفي ٢٣ مايس ١٩٤٥ اعتقلته القوات البريطانية مع اعضاء حكومته وقد احيل لمحاكمات نورمبرغ وحكم عليه بالسجن لمدة عشرة اعوام ثم اطلق سراحه ولا يزال يعيش في قرية صغيرة قرب هامبورغ.

— المترجم —

(٥) الشڤابيون هم سكان مقاطعة ڤيرتمبرغ التي عاصمتها شتوتغارت.

— المترجم —

كان البرت شپير وبالدور فون شيراخ اصغر المتهمين سناه وكان الثاني قد بذل جهودا جبارة في تنظيم الشباب الالمان قبل ان يتولى مهمة محافظ ڤيناه اما شپير فكان متفائلا ويتحدث كثيرا عن المستقبل وكان يزعم ان الامريكان ينوون تكليفه بمهمة تعمير الأسكا(٦).

أما ڤيلهلم فريك وزير داخلية هتلر فقد بذل قصارى جهوده ليصور نفسه (موظفا صغيرا) في ادارة هتلر لكنه لم يفلح وقد انكشف لنا الرجل لكونه ضحلا الى درجة مفجعة وغير قادر على اتخاذ أي قرار وعليه فانه كان الوحيد من نوعيته بين صفوفنا • ولعل الفضيلة الوحيدة التي تحلى بها فريك انه آمن بمصيره وايقن ان أية محاولة لانقاذ رأسه لن تكون مجدية.

لعب رودولف هيس دور المجنون فأتقنه لدرجة لم يصدق معها احد منا بأنه كان يمثل • ومن المؤكد انه بطيرانه الى بريطانيا بمحض ارادته حاول أن يضع نهاية للحرب • وكان آنذاك متمتعا بكامل قواه العقلية • ولما فشل في مسعاه ترتب عليه تسديد ثمن اخطائه الماضية رغم قراره الشجاع. ويكفيه فخرا انه حذر العالم من مغبة عدوان هتلر ـ الذي كان وشيك الوقوع ـ على الاتحاد السوڤيتي كما انه قدر بصواب تام مدى تأثير خسارة المانيا وانتصار الروس على اوربا برمتها والمؤسف ان رجال الدولة البريطانية لم يقبلوا بتحذيره هذا. لقد كانت تصرفات هيس في قاعة المحكمة وفي السجن غير طبيعية بالمرة. اذ دأب على الجلوس في قاعة المحكمة بدون انتباه وبدون اكتراث وكأن الأمر لا يعنيه • كما رفض التحدث الى محاميه. وعليه فقد قرر الاخير التقدم بطلب اجراء فحص طبي على موكله للقرار على مدى قدرته على الاشتراك بالمرافعة • فقامت لجنة طبية بفحص هيس لمدة عدة اسابيع قررت بعدها سلامة حالته العقلية. وفجأة باغت هيس محاميه والمتهمين

---

(٦) حكم على هذين المتهمين بالسجن ٢٠ عاما وخرجا سوية بفترة متقاربة ولم يرسل الامريكان البرت شپير الى الاسكا وانما عاش في المانيا الغربية والف كتابا ممتعا عن حياته في سجن شپانداو بعد اطلاق سراحه عام ١٩٦٦ وقد توفي عام ١٩٨٠. اما بالدور فون شيراخ فلا يزال يعيش في بلاده بعد اطلاق سراحه.

ـ المترجم ـ

الآخرين بقوله انه كان يدرك عدم جدوى الدفاع وعليه فقد آثر مقاطعة المحكمة تماما ولم ينطق بعبارة واحدة وانه تظاهر بالجنون طوال هذه الفترة ليتجنب اية فعالية في مهزلة نورمبرغ وقال انه بحالة عقلية طبيعية ولما ادرك مدى الخطر الذي يتعرض له في حالة استرساله بالتظاهر بالجنون آثرالتوقف عن المضي في لعبته هذه.

وكان لتصريحه هذا دويا كدوي القنبلة . الا انه استمر على الصمت طوال فترة المحاكمة ولم ينطق بكلمة واحدة. وكنت انا من ضمن الذين ايقنوا بأن الرجل مصاب بمرض نفسي. وليس ادل على ذلك من عبارته التي اطلقها بعد انتهاء المحاكمة(٧).

كان الدكتور هيالمار شاخت يجلس في اقصى الصف الاول ولم تزايله روحه المرحة وتفاؤله قط. ولقد حافظ ـ كعهدي به دوما ـ على ذكائه الوقاد وطريقته التهكمية في القاء نكاته اللاذعة. وكان يتصدى لكل هجوم يتعرض له بهجوم مقابل اعنف. ولكنه كان حتى في ذلك الموقف انانيا بعض الشيء كما كنا نعهده من قبل حيث حاول الاستشهاد بهانس غيزيفيوس الذي قام بدور الوسيط بين الشرطة السرية للدولة وأمير البحر كاناريس والذي كان بالواقع من وكلاء مصلحة الاستخبارات الامريكية كما عرض بعض الوثائق التي تؤكد مساهمته في التآمر على الدولة الالمانية مؤملا نجاته ـ كما حصل فعلا ـ حتى ولو شنق المتهمون العشرون.

وعلى الرغم من انتحار الدكتور يوسف غوبلز الا ان هانس فريتشه كان يمثله في محاكمتنا على الرغم من معرفة كل الالمان لنبرته الصوتية المتميزة عندما كان يلقي احاديثه من اذاعة برلين مستهلا كل حديث بقوله:

« الآن يتحدث اليكم هانس فريتشه »

---

(٧) يذكر البرت شپير في مذكراته الموسومة (يوميات شپانداو) مراسيم اعدام المحكومين بالشنق وكيف انهم عزلوا عن الآخرين وجعلوا بالطابق الارضي. ولما نادى الجلاد على يوليوس شترايشر سمع احد المحكومين بالسجن يهتف بصوت عال (حييت يا شترايشر) وكان ذلك الهاتف رودولف هيس.

ـ المترجم ـ

وقد انصب دفاع الرجل المجيد على الترديد بأنه كان ينطق (بصوت سيده) ليس الا . وذلك على الرغم من اعتقاده المخالف لما كان يقوله.

وأخيرا وليس آخرا يطيب لي ان اتحدث بشيء من الاسهاب عن المشير هرمان غورنغ الذي كان المتهم الرئيس في هذه المحاكمات لاسباب عديدة. لاسيما بعد انتحار هتلر وغوبلز وهملر وغيرهم من الأشرار. والآن اصبح غورنغ المرشح الوحيد لتحمل المسؤولية الكبرى اما سواه فيعتبر متهما من الدرجة الثانية بالنسبة له. كما انه كان المتهم الوحيد الذي يتمتع بشجاعة نادرة تؤهله للدفاع عن نفسه بكل جدارة. وبقي متمتعا بسلطته ونفوذه على المتهمين الآخرين عندما قال لنا جميعاً في غفلة من الحراس محذرا:

« ولا كلمة ضد هتلر»

وهدد من يخالف امره هذا بالشهادة ضده بشكل يبرر اعدامه.

وقد وجدت ان غورنغ لم يتغير عما الفته عنه عندما تحدث في ختام المحاكمة معي ومع فون نويرات وكايتل وكل الفرق بين حالته السابقة وحالته الأخيرة هو انه مجرد من اوسمته ونياشينه التي كان يزهو بها على الدوام ابان فترة مجده. وقد تجاهل المستقبل المجهول متحدثا عن مراحل حاسمة من الماضي. كما حاولت في مناسبة أخرى ان اذكّره بمكانته عندما كان يدعى (ولي عهد المانيا) مستفسرا عن السبب الذي دعاه الى عدم التدخل ومنع هتلر من زج المانيا بالحرب والتسبب في تخريبها. وكررت المحاولة مرة ثانية ولكن من الواضح انه لم يشأ التحدث بهذا الموضوع المهم فتصام عنه. ولما عاودت الاستفهام قال لي:

« لقد تقبلت تحمل كل المسؤولية . بالقدر الذي استطيع ولكنني لم اتمكن من منع وقوع الحرب. على الرغم من اعتباري لها قضية مجردة من الحظ. ولربما كان بمقدورك او فون نويرات الحفاظ على السلام. الا ان فون ريبنتروب لم يستطع ذلك لأنه دأب على الثرثرة بكل ما يرضي هتلر».

وقد اكد لي في تلك المحادثة انه لاحظ ان هتلر اصبح في السنةالاخيرة من الحرب مجردا من القابلية على اجراء الحسابات السديدة . ولكنني ادركت

ان غورنغ احجم عن التدخل لانقاذ المانيا لاسباب انسانية تعود لعلاقاته الحميمة التي كانت قائمة مع هتلر .

هذه حقائق غريبة عن محاكمات نورمبرغ ولعل اغرب ما فيها ان هذه المحاكمات لم يشر احد من المتهمين أو الحكام بكلمة واحدة ضد هتلر بينما كان المفروض أن تكون هذه المحاكمات مخصصة لادانة المتهم الأول هتلر لأنه هو الذي تسبب في كل ما حصل. وكان المفروض محاكمة هتلر حتى ولو مات وهذه افضع غلطة نفسية ارتكبتها هيئة المحكمة في نورمبرغ.

الفصل الثالث والثلاثون

المحاكمة

النظام الاساسي . نظام المحكمة . ساحة المحاكمة . القضاة . المتهمون يهاجمونني . صعوبات اعداد الشهود . اهمال وثائق مهمة . قضية النمسا . شهادة غويدو شميت . محاورتي مع سير ديڤد ماكسويل فايف عند استنطاقه لي . الحكم . كلمتي الاخيرة . افكار بشأن المحاكمة .

كانت محاكمات نورمبرغ بادرة جديدة في العلاقات الدولية عبر التأريخ الطويل للمسيرة الانسانية . وسوف لن احاول هنا تقديم تقرير مفصل عن سير المحاكمات لأن محضر المحاكمات الذي يتضمن التقارير الرسمية الشاملة لاقوال المتهمين والدفاع والمناقشات والمحاورات والوثائق المبرزة من الحكام والمحكومين تتألف مما لا يقل عن اثنين واربعين اضبارة ضخمة . ويمكنني هنا بيان بعض الملحوظات الموجزة التي اذكر فيها ما شاهدته شخصيا مع ملحوظات عامة بشأن طبيعة الاسلوب الذي اتبع معنا والنتائج التأريخية والقانونية المترتبة عليه . وان تقييم محاكمات نورمبرغ بعد اجرائها بخمسة

اعوام يمكنني من عرض الحقائق دون الوقوع بأخطاء ناجمة عن التسرع او الانسياق وراء العواطف وانما بموضوعية تامة.

تم اقرار النظام الاساسي لمحاكمات نورمبرغ باعتبارها اداة لتنفيذ القانون الدولي نتيجة لاتفاق ممثلي الدول المنتصرة بالحرب العالمية الثانية بلندن في ٨ آب ١٩٤٥ باعتبار الشخصيات القيادية الالمانية مسؤولة عن نشوب الحرب وكان المسؤول عن اعداد النظام الاساسي المذكور هو عضو المحكمة العليا الامريكية القاضي جاكسون وجاء في المادة الثالثة من ذلك النظام حرمان المتهم وهيئة الدفاع من حق مناقشة القضاة او أي عضو من هيئة المحكمة. كما منحت المادة السادسة من النظام لهيئة المحكمة حق توقيف الاشخاص بسبب فعالياتهم الفردية او انتمائهم لمنظمات تعتبر منظمات اجرامية معادية للسلام ساهمت في شن حرب عدوانية مناهضة للبشرية . كما اعتبر قادة القوات المسلحة الالمانية من المجرمين الذين يستحقون العقاب لمجرد اصدارهم الاوامر لقطعاتهم في الحرب.

ولعل المادة التاسعة من ذلك النظام اشد مواده اجحافا بحق المتهمين لأنها تمنح المحكمة حق اعتبار منظمات معينة منظمات اجرامية فيكون مجرد اثبات عضوية أي فرد لأية منظمة منها دليلا كافيا لادانته.

وقبل ان نمثل امام المحكمة لم يكن بمقدورنا فهم المعاني المحددة المقصودة في القانون الذي نحاكم بموجبه. اضف الى ذلك ان مفاهيم العدالة السائدة في امريكا وفي بريطانيا تختلف اختلافا جذريا عن المفاهيم السائدة في قارة اوربا.

كما ان أحد القضاة الاربعة يمثل دولة اوربية عريقة أما الرابع فيمثل الاتحاد السوفيتي ذو السيماء الشرقية الواضحة.

وتتضمن المادة الثالثة عشرة منح المحكمة حق مصادرة الوثائق التي بحوزة المتهمين اما المادة الرابعة عشرة فتمنح القضاة الاربعة حق توجيه أي اتهام لأي من المتهمين وقبول الشهادات او رفضها. وكان هذا اجراء جديد وغير مألوف في القوانين المرعية . وتعطي المادة التاسعة عشرة للمحكمة حق

تقدير اعتبار اية دلائل مهمة او غير مهمـــة. واخيراً فان المادة الســـادسة والعشرون تعتبر لوحدها مسألة مثيرة للانتباه ذلك لأن الحكم الصادر عن المحكمة ليس هناك اية سلطة يمكن ان تنقضـــه ويعتبر قرار المحكمة مبرما وواجب التنفيذ.

لقد سبق ان ذكرت الاتهامات الاربعـــة الرئيسة التي وجهت ضدي. وتم تزويدنا جميعا بنماذج تتضمن النقاط الشخصية التي يمكن ان تفند بها كل ما موجه نحونا من تهم. وكان اتهامي بالاشتراك في اثارة حرب عدوانية يستند على الزعم بأنني كنت خلال الفترة ١٩٣٢ حتى ١٩٤٥ عضوا في الحزب النازي (وهذا ما لم يحصل) وانني كنت عضوا في البرلمان ومستشارا ونائبا للمستشار وقومسيرا فوق العادة لاقليم السار ورئيس لجنة مخول بعقـــد الاتفاقيات وسفيرا في ڤينا وفي انقرة. وانني قمت من جميع هـــذه المواقع بالتأثير شخصياً على الآخرين وانني ادمت الاتصال الوثيق مع هتلر لكي اعزز موقف الحكومة الالمانية لتسيير المصالح النازية وترصين مركز هتلر الا.تبدادي والاستحضار لشن حرب عدوانية.

ولابد ان القاريء الذي تابع مسيرة حياتي في كتابي هذا يدرك تماما مدى حرصي على السلام ومناوأتي للحرب ولابد ان يدرك ايضا بأن اتهامي بالاستحضار لشن حرب عدوانية يعتبر امرا غير ممكن.

ثم ان القوانين الالمانية لا تعرف مصطلح (التآمر) بهذا المفهوم وليس بمقدوري معرفة الترجمة الدقيقـــة لهذا المصطلح من القوانين الانكليزية ــ الامريكية للغة الالمانية . وقد تطلب تفهمي للمقصود بذلك المصطلح معاناة شهرين كاملين.

في اليوم السابق لبدء المحاكمة قدم المحامون مذكرة مشتركة للمحكمة اعترضوا بموجبهـــا على اتهام موكليهم (بجريرة الأجرام ضد السلام) لأنه لا يوجد اجرام بهذه الصيغة في القانون الدولي وبالتالي فلا يمكن اصدار اية عقوبة لهذا السبب.

الا ان المحكمة رفضت هـذا الاعتراض مستندة على المادة الثالثة من القانون كما رفضت الطلبات الأخرى المشابهة دون بيان الاسباب.

افتتحـت الجلسـة الاولى للمحكمة الدولية بالساعة العـاشرة يوم ٢٠ تشرين الثاني ١٩٤٥ وادخلنا الى ساحة المحكمة للمرة الاولى وترتب علينا التردد عليها زهاء سنة كاملة ننتظر خلالها مصيرنا المجهول. ولاحظـت من الوهلة الاولى ان القاعة المذكورة كانت تغص بجمع غفير من الناس لدرجة تعتبر معها حالة غير اعتيادية بالنسبة للمحكمة . وقد احاط بالمتهمين رهط من رجال الانضباط العسكري الامريكان الذين يعتمرون خوذهم الفولاذية المطلية باللون الابيض الناصع اللامع وهم مصطفين بصفين متراصين احدهما امام المتهمين والآخر خلفهم. وجلس المحامون في الصفوف الثلاثة من المصاطب التي كانت امامنا . كما جلس المتـرجمون في ممر ضيق الى يسارنا وجلس قبالة الممر الضيق ممثلو الادعاء العـام للدول الأربع وكان جلوسهـم على امتداد اربع مناضد طويلة . وفي نهاية السـاحة كانت هناك فسحـة كبيرة نسبيا مخصصة للصحفيين والمصورين الذين تقاطروا من جميع ارجاء العالم. وكانت هناك فسحة اخرى صغيرة للمتفرجين . وقد احتشد فيها عدد كبير من العسكريين الذين يرتدون قيافات مختلفة بشكل ظاهر وهم يمثلون الدول التي سبق ان قاتلتنا.

وكانت الامة الوحيدة التي لم يمثلها أي فرد في هيئة المحكمة او هيئة الادعاء العام او الصحافة او المتفرجين هي الأمة الالمانية لسبب واضح وبسيط معاً هو ان المتهمين جميعاً كانوا من ابنائها.

انقطع همس المتحدثين بصورة مفاجئة عندما اعلن المنادي عن دخول اعضاء هيئة المحكمة الى القاعة فنهضنا جميعا احتراما لهم. وتطلعنا باهتمام زائد نحو وجوه قضاتنا للمرة الاولى لكي نحصل على فكرة عن شخصياتهم.

كان رئيس المحكمة هو القاضي الانكليزي لورنس . وهو شخصيـة قانونية مرموقة يتدفق حيوية ويتميز باستقلال الرأي والاخلاص لمهنة القضاء. وغالبا ما ساورني شعور جارف بأنه لابد ان يجد لنفسه منفذ من القيود التي

فرضتها عليه وثيقة لندن التي مهدت للمحاكمة . وقد لاحظت عليه فيما بعد انه قلما كان يوجه لي اسئلة شخصية خلال المرافعة.

وكان جاره الجالس الى يساره هو القاضي بيدل الذي اعتبره اذكى القضاة قاطبة. لأنه كان يتابع سير المحاكمات بكل اهتمام وكانت اسئلته للمتهمين وللشهود تدل على المقدرة والحصافة لأنها دقيقة ومهمة. والذي جلب اهتمامنا بصورة خاصة هو نقيضه ممثل الادعاء العام الامريكي القاضي جاكسون الذي لاحظت عليه وعلى معاونه پاركر جهلهما الفاضح بمسار الدعاوي.

اما ممثل فرنسا فكان الاستاذ دونيديه دي ڤابر فكان قاضيا غامضا لم نستطع ان نكون عنه اية فكرة. فهو لم يوجه لأي منا أي سؤال طوال فترة المحاكمة وكان دؤوبا على الكتابة لايام واسابيع او اشهر دون كلل او ملل. ولابد ان ملحوظاته التي دبجها يراعه تملأ مجلدات ضخمة.

واخيرا فان ممثل روسيا الفريق نيكيتشنكو لم يحظ باهتمام أي فرد منا فنحن نعرف مشاعر السوڤيت تجاهنا سواء في هذه المحاكمة او بدونها. كان وجهه ينم عن شباب متدفق ويبدو عليه الحماس فيتحفز بشكل ظاهر عندما يذكر ممثل الادعاء العام السوڤيتي اللواء رودنيكو ملحوظة ما وقد عانى كليهما من الحرج عندما تطرقت المحكمة الى المعاهدة التي عقدت بين هتلر وستالين قبيل نشوب الحرب العالمية الثانية وعندما تم التطرق الى مذبحة كاتين[1].

---

(1) بعد ان اكتسحت القوات الالمانية النصف الشرقي من پولندا في عدوانها على الاتحاد السوڤيتي واندفعت متوغلة بالاراضي الروسية اكتشفت في ربيع ١٩٤٣ وجود جثث ٤١٤٣ ضابط پولندي مطمورة في غابة كاتين التي تقع على بعد ٢٠ كيلومترا الى الغرب من سمولنسك. وقد تبادل الروس والالمان التهم بشأن تحديد الفاعل ثم استقدم الالمان مجموعة من اطباء هيئة الصليب الاحمر الدولية لتحديد تاريخ قتل الضحايا. وقد شاع في حينه ان ستالين هو الذي اصدر الامر بقتل اولئك الضباط البولنديين.

— المترجم —

كانت الاتهامات الموجهة لكل منا تعسفية الى ابعد الحدود وقد تضامن في توجيهها لنا ممثلو الادعاء العام للدول الأربع المنتصرة.

وتم الشروع بمحاكمتي يوم ٢٣ كانون الثاني ١٩٤٦ عندما القى الرائد هاركورت بارنغتون نائب المدعي العام الانكليزي لائحة الاتهام الموجهة ضدي. وزعم فيها انني اتحمل مسؤولية النشاطات التي قمت بها خلال الفترة الممتدة من ١ حزيران ١٩٣٢ حتى تحقيق الوحدة مع النمسا في آذار ١٩٣٨. وجرى اتهامي بأنني سايرت النازيين وشجعتهم رغم علمي بخططهم ووسائلهم بممارسة تأثيراتي الشخصية من اجل تبوء هتلر مكانته الرفيعة وانني ساعدته في الوصول الى السلطة وانني ساهمت في استحضار هتلر لتولي منصب المستشار وسهلت له ذلك. كما انني بايقاف نظام تحريم منظمة وحدات العاصفة في حزيران ١٩٣٢ جعلت الحزب النازي يحصل على امتياز كبير الاهمية ساعد في توليه السلطة. وبخاصة عندما اقدمت على الاشتراك بالاجتماع الذي حدث في منزل السيد فون شرويدر بمدينة كولن في ٤ كانون الثاني ١٩٣٣ فكان ذلك الاجتماع ـ بنظر الادعاء العام ـ التمهيد المباشر لايصال هتلر الى منصب المستشار.

ولكي يثبت الرائد بارنغتون هذا الاتهام ضدي فانه استشهد بشهادة مطولة مشفوعة باليمين ادلى بها البارون فون شرويدر ثم قال بأن البارون متهم هو الآخر في قضية لاحقة . كما تم اتهامي بقضية تصفية اليهود في نيسان ١٩٣٣ استنادا على قرار الحكومة الالمانية المتخذ آنذاك وكذلك اتهمت بتقويض الاتفاقية الالمانية ـ الفرنسية . ثم ما لبث المدعي العام المذكور ان تطرق بصورة مفاجئة الى محاضرتي في جامعة ماربورغ. وقال عنها انها كانت اول انتقاد علني للنظام النازي الا ان وجه اتهامه لي بهذا الصدد هو قوله:

« لو أن المتهم قطع علاقاته بالنازية آنذاك لوفر على العالم الكثير من الآلام . ذلك لأن هتلر عندما يفقد نائب المستشار ويقوم هذا بشرح اخطار النازية للعالم كله فان المانيا لن تكون قادرة على اعادة احتلال اقليم الراين ولما وقعت الحرب العالمية الثانية».

ووصف الادعاء العام فعالياتي في النمسا بالادعاء انها كانت استحضارات تمهيدية لشن حرب عدوانية . واستشهد الادعاء العام بهذه المناسبة بفقرات من تقاريري المرفوعة الى هتلر عرضها السفير الامريكي بڤينا آنذاك السيد ميزو شميت الذي شهد بعد ان اقسم اليمين زاعما انني سبق ان قلت له في عام ١٩٣٤ بأنني جئت الى النمسا لسبب واحد هو القضاء على حكومتها واحلال الحكومة الالمانية بمحلها وتوسيع نفوذ دولتي ليمتد الى حدود تركيا. كما زعم في شهادته ايضا بأنني رغم كوني كاثوليكي مؤمن استغللت صفتي هذه للتأثير على شخصيات مهمة مثل الكاردينال انيتسر فضللته وأوقعته بخطأ فاحش. وزعم ان الاتفاقية التي افلحت بعقدها بين النمسا والمانيا في ١١ تموز ١٩٣٦ كانت مجرد مناورة ماكرة للايقاع بالنمسا . لأنني اجبرت النمسا بموجب تلك الاتفاقية على أشراك النازيين النمسويين في حكم البلاد فأوصلتهم الى السلطة.

والحقيقة هي ان جزءا من تلك الاتفاقية كان سريا ـ وقد تم جعله سريا في حينه بناء على رغبة المستشار النمسوي فون شوشنيغ ـ بينما اصبحت هذه الملحوظة مسألة سلبية اضافية ضدي.

واود ان اوضح نقطتين مهمتين بهذا الصدد. اولاهما هي انني يمكنني ان اثبت بأن فعالياتي السياسية خلال الفترة ١٩٣٢ـ١٩٣٤ لم تكن موجهة قط لهدف ايصال هتلر الى السلطة او تقوية مركزه بأي شكل كان.

وثانيتهما هي انني يمكنني ان اثبت بأني لم احاول ابدا اللجوء الى وسائل ملتوية للايقاع بحكومة فون شوشنيغ وانما على العكس من ذلك بذلت قصارى جهودي لاحباط خطط النازيين النمسويين وكبح جماحهم نظرا لأن الغرض الاساس من مهمتي في النمسا هو تطوير العلاقات القائمة بين البلدين الشقيقين وصولا لتحقيق الوحدة . فكيف يمكنني تبرئة ساحتي من هذه التهمة؟

لقد تصورت ان افضل وسيلة للدفاع عن نفسي هي ايضاح وجهة نظري

السياسية للمحكمة وتفنيد الاتهامات الموجهة نحوي تباعاء لكنني لم احدس بطبيعة الحال مدى تصديق اعضاء المحكمة لأقوالي واعتراضاتي. ولعل الصعوبة الكبرى التي صادفتني هي ان قوات الحلفاء المنتصرين اعتقلت كل الماني كان يشغل منصبا مهما في الدولة الالمانية بتهمة جرائم الحرب وهكذا لم يعد بمقدوري ايجاد الشهود الذين يمكنهم تبرئة ساحتي. كما لا تتوفر لدي اية وثائق ولم يكن هناك أي مصدر لتزويدي بالوثائق الضرورية لأحقاق الحق. ذلك لأن وثائق الدولة الالمانية إما انها اتلفت بتأثير القتال او انها وقعت غنائم بيد القوات المحتلة. وكانت اضباراتي الشخصية التي حرصت على الاحتفاظ بها في ڤالرفانغن وبرلين قد احترقت او فقدت نتيجة لظروف الحرب.

وانهارت منظومة المواصلات الالمانية لدرجة يمكن اعتبارها معها غير موجودة. ولم تتوفر لدي اية امكانات لمعرفة عناوين اصدقائي ومعارفي بل انني لم اكن متأكدا عما اذا كانوا على قيد الحياة . كما لم يكن بمقدوري تحقيق أي اتصال مع أي فرد غريب خارج السجن. وحتى لو ثبت لدي بأن الصديق أو الشخص الذي أعرفه لا يزال على قيد الحياة فانني لست متأكدا عما اذا كان ذلك الشخص على استعداد للشهادة لصالح احد (مجرمي الحرب) أمام المحكمة العسكرية الدولية في نورمبرغ وهي محكمة ذات نظام فريد يحرم المتهم من ابسط حقوق الدفاع.

تم توقيف عدد كبير من الشخصيات الالمانية التي كانت تشغل مناصب رفيعة في الدولة وكان هؤلاء يخشون الادلاء بشهاداتهم لكي لا يتحولوا الى متهمين. ولم نكن نحن المتهمين لنميز بين الشاهد المطلق السراح والشاهد المتهم في قضية أخرى المحاكمة هو الآخر.

كما لم تتوفر لدينا اية فكرة عن طبيعة ومقدار الوثائق التي بحوزة الادعاء العام . ففي حالة قضيتي مثلا عرض الاتهام مجموعة من التقارير التي ارسلتها من السفارة في ڤينا الى وزارة الخارجية الالمانية خلال الفترة من آب ١٩٣٤ حتى ربيع ١٩٣٨ مما دعاني للتصور بطبيعة الحال ان الادعاء العام

حصل على جميع التقارير التي ارسلتها في تلك الفترة . فأردت الدفاع عن نفسي بابراز الوثائق السرية التي سبق ان اخفيتها في أحد مصارف سويسرا ولما تقدمت بطلب استرجاع الوثائق المذكورة رفضت المحكمة طلبي هذا معللة ذلك بأن الاتهام لا تتوفر لديه اية وثائق اخرى تدينني. وللقاريء الكريم ان يقدر مدى قبول هذا الزعم.

وقد ادركت في تلك الفترة مدى صعوبة عمل المحامين الالمان المدافعين عنا لأنهم كانوا يواجهون صعوبات متتابعة ويتعرضون لمناقشة وثائق مكتومة يبرزها الادعاء العام في مختلف مراحل المحاكمة . اضف الى ذلك ان نمط المحاكمات المألوف في المانيا يختلف تماما عن طبيعة المحكمة العسكرية الدولية في نورمبرغ من حيث ان القاضي الالماني يتمتع بحق مناقشة المتهم والشهود في معرض تحريه عن الحقيقة. اما في محكمتنا فقد اصبح من المألوف نشوب نزاع بين الدفاع والادعاء العام دون ان يتدخل القضاة.

وثمة قضية اخرى ذات طابع حساس في محاكمتنا هي اشتراك الروس معنا في غزو پولندا عام ١٩٣٩ بينما جلس فريق روسي في صف القضاة ليحاكمنا عن مهاجمة پولندا . اضف الي ذلك ان الحلفاء الغربيين مارسوا ايضا وسائل مشابهة للوسائل التي مارسناها في الحرب وصاروا يحاكموننا عنها. وقد قال القاضي الانكليزي اللورد لورنس:

« نحن لا نرغب هنا بسماع ما فعله الحلفاء ».

يعتبر الانفعال والهجوم وسيلة رديئة للدفاع عن النفس امام المحاكم. الا ان حالتي التي لم اكن احسد عليها امام تلك المحكمة كانت تستدعي المغامرة بالتصدي للتهم الظالمة التي تعرضت لها لكي ابريء نفسي منها.

وللحق اقول ان حالة فريدة فقط دلت على حب الانصاف وتجلت في تلك المحاكمات حيث اتهمنا في ادارة حرب الغواصات بأغراق السفن المعادية دون اعطائها انذار مسبق مما يستدعي اداتنا بجريمة اخرى من جرائم الحرب. وقد كتب امير البحر الامريكي نيميتز القائد العام للقوات البحرية

الامريكية في المحيط الهادي موضحا للمحكمة بأن الغواصات الامريكية تلقت منذ اليوم الاول من الحرب امراً بأغراق اية سفينة معادية دون اعطائها أي انذار مسبق وكانت هذه الرسالة كافية لاسقاط التهمة المذكورة عن امير البحر الأكبر كارل دونيتز لكونه القائد السابق للغواصات الالمانية.

حاولت في تلك الفترة الاستشهاد ببعض الشهود الذين قدرت امكانية حضورهم امام المحكمة للادلاء بشهاداتهم لصالحي وكان من هؤلاء الوزير المفوض السابق لدولة الفاتيكان لدى تركيا المطران رونكالي والوزير الهولندي الدكتور فيليب فيسر والوصي على عرش المجر امير البحر هورتي. وصديق العمر البارون فون ليرسنر ومعاوني السابق ابان اشتغالي نائبا للمستشار وسفيراً في ڤينا فون تشيرشكي ومستشار السفارة في ڤينا الأمير ارباخ وغيرهم. والشاهدين اللذين رجوتهما رجاء شخصيا للادلاء بشهادتيهما هما مستشار السفارة السابق في انقرة الدكتور كرول وامين سري الشخصي لسنين عديدة غراف كاغنيك.

وحدث ان جائتني معونة غير متوقعة عندما اعترف غورنغ بتحمله مسؤولية ادارة كل التفاصيل المتعلقة بالوحدة مع النمسا في آذار ١٩٣٨ وقد أكد بهذه المناسبة ان هتلر كان على استعداد لتحقيق الوحدة باللجوء للقوة.

ثم ان موقفي تجلى بصورة اوضح عندما أدلى وزير خارجية النمسا الدكتور غويدو شميت بشهادته بناء على رجاء زايس انكوارت. حيث تمكن شميت بشهادته من دحض المزاعم غير المعقولة التي ادعاها السفير الامريكي السابق في ڤينا السيد ميزر شميت والتي سردتها آنفا.

وجاء في شهادة الدكتور غويدو شميت توضيح شامل للمفاوضات التي قمت بها حتى توصلت الى عقد اتفاقية تموز ١٩٣٦ مع النمسا وقال انها تمت بمبادرة من النمسا وان المستشار النمسوي فون شوشنيغ كان راضيا عن كل ما جاء فيها. واضاف قائلا ان البنود السرية من تلك الاتفاقية جعلت بهذه الصفة بناء على رغبة المستشار النمسوي فون شوشنيغ. وقال في معرض

وصفه لمقابلة فون شوشنيغ لهتلر في برختسغادن يوم ١٢ شباط ١٩٣٨ انني لم امارس أي ضغط عليه او على المستشار فون شوشنيغ وانما حاولت التوسط بين النمسا والمانيا ليس الا . كما اثبت عدم علمي بالنقاط المتفق عليها بين فون شوشنيغ وصديقه تسرناتو قبل اجراء مقابلة الاول لهتلر في برختسغادن.

واود التأكيد في هذا المقام على اجابتين ادلى بهما الدكتور غويدو شميت لا لانهما تعطيان انطباعا واضحا عن موقفي من قضية النمسا آنذاك فحسب وانما توضحان دوري بشكل محدد المعالم. ففي اجابته على اتهام الادعاء العام لي بتضليل النمسا في اتفاقية تموز ١٩٣٦ قال الدكتور شميت:

« كلا فأنا لا اتصور ابدا بأن هذه الاتفاقية كانت مضللة وانما كانت اتفاقية الند للند بين المانيا والنمسا وهذا لا يغير شيئا من حقيقتها حتى ولو اخلت بها المانيا فيما بعد».

وللاجابة على سؤال آخر عما اذا لم تكن الحكومة الالمانية متهمة لكونها لم تلتزم بتعهدها في عدم تغيير سياسة النمسا الداخلية خلافا لما جاء بالاتفاقية المعقودة بينها وبين النمسا قال الدكتور غويدو شميت:

« اجل لقد ساورتنا شكوك كثيرة بهذا الشأن. وكان هذا هو جوهر الصراع الذي نشب بين البلدين فقد اضطررنا على خوض صراع مرير ضد النازية من أجل ضمان استقلال بلادنا بينما كنا قد تعهدنا بالوقت نفسه بالتعاون التام مع حكومة المانيا التي كانت قيادتها نازية. وهكذا بات من المتعذر علينا التوفيق بين مناوأة النازيين النمسويين لنا وولائنا لدولتنا الموحدة التي يتزعمها النازي الاول هتلر . وقد صادفت هذه الصعوبة كل فرد يعمل لصالح الوحدة وازعجته. وكان ممن تعرض لهذه المضايقة بصورة شديدة السفير الألماني لدى النمسا».

كان الدكتور شميت موقوفاً آنذاك وقد ارسل مخفورا الى النمسا بعدئذ ليحاكم بتهمة الخيانة العظمى ثم ما لبث ان ابرئت ساحته واخلى

سبيله . اما الشاهدين الاخرين اللذين رجاهما الوزير السابق زايس انكوارت الأدلاء بشهادتيهما لصالحه فكانا الفريق فون غلايزه هورستيناو وامين العاصمة النمسوية السابق الدكتور راينر . وقد وصفا باسهاب في شهادتيهما صراعي المرير ضد المتطرفين من النازيين النمسويين . وهكذا تجلت للجميع برائتي من التهمة التي وجهت لي عن فعالياتي ابان خدمتي في النمساء

بدأ استجوابي في ١٤ حزيران ١٩٤٦ ولما شرع غورنغ بالادلاء بشهادته المتعلقة بتطور الحركة النازية بالتفصيل قررت المحكمة عدم تحديد مدة معينة لتلك الشهادة المهمة. الا ان المحكمة لم تعد تسمح بالأستماع لأية شهادة مشابهة عند مناقشة أي متهم آخر وكان هذا الاجراء سلبيا بالنسبة لي لأنني كنت متهما باسناد هتلر وتشجيعه على الوصول الى السلطه . ولما كنت متهما عن فعالياتي السياسية بدئا من يوم تولي منصب المستشار في حزيران ١٩٣٢ واصبح من المتعذر على بطبيعة الحال وصف الملابسات التي اوصلتني الى منصب المستشار لأنني لم اكن نازيا مثل غورنغ لكي اتشدق بمدح الفكر النازي. ولكي افند مزاعم الادعاء العام بصدد محاضرتي فيجامعة ماربورغ فقد عرضت للمحكمة نص المحاضرة المذكورة بغية التمعن بما جاء فيها. وقد استمر دفاعي النهائي امام المحكمة ثلاثة ايام كاملة. وبعد عطلة يومي السبت والأحد ثم باشر باستجوابي سير ديڤد ماكسويل فايف بعدظهر الاثنين المصادف ١٨ حزيران ١٩٤٦ .

كان سير ديڤد اكفأ المدعين واوسعهم علما بالقوانين . وقد اظهر بتصرفه معي كل مقدرة وسار في استجوابه لي على النمط الانكليزي ـ الامريكي المألوف وقد كان سياسيا محترفا وعضوا في مجلس العموم البريطاني. ولذا فهو يتمتع برؤية واضحة للتطورات السياسية بدرجة تفوق زملائه الامريكان. لقد استهل محاورته معي باتهامي بمساعدة هتلر على الوصول الى السلطة رغم معرفتي الوثيقة لمساوىء المبدأ النازي. الا انه لم يتمكن من اثبات فعاليات من هذا القبيل في فترة اشغالي لمنصب نائب المستشار . ثم عاد فأتهمني بالتعاون مع النظام النازي لقبولي منصب السفير

في ڤينا بعد انقلاب روهم. واتهمني ايضا بعدم جديتي في مناوأة النظام النازي رغم انني كنت معروفا بمعارضتي العلنية لنظام هتلر . ولم يكن بمقدوري تفنيد هذه المزاعم الا بترديد وحوب الرجوع الى التطور التأريخي للحركة النازية ثم قلت ان سكان المانيا يعرفون واقع الحال الذي عاشوه في تلك الفترة افضل من غيرهم لاسيما وانهم كانوا متأثرين بالاجحاف الذي اصاب المانيا نتيجة لتطبيق معاهدة فرساي الجائرة بعد الحرب العالمية الاولى مما اتاح لهتلر المتطرف امكانية الوصول الى سدة الحكم.

ثم ان سير ديڤد خاض معي مناقشة مطولة بشأن مراسلاتي الشخصية مع هتلر بعد محاولة روهم الانقلابية . وقد بررت تلك المراسلات الى حرصي على ادامة الاتصال مع رئاسة الحكومة الالمانية آنذاك لانقاذ العاملين معي واصدقائي من الاعتقال المفاجيء والقتل والتعقيبات التي شملت عددا منهم. مؤكداً لهتلر بأن نائب المستشار واعوانه لا علاقة لهم بقضية روهم من قريب او بعيد وان غرضي الوحيد هو انقاذ اولئك الرجال من المصير المظلم الذي تعرضوا له دون ذنب. ولما حاول سير ديڤد تأكيد الاتهام بتضليلي النمسا خلال فترة اشتغالي سفيرا لديها كان اثبات برائتي من السهولة بمكان.

والواقع ان سير ديڤد لم يحاول اداتني بتهمة الاستحضار للحرب والمشاركة في تدبير حرب عدوانية ومناوأة السلام العالمي. وانما قال لي:

« نحن نلومك لأنك كنت على علم تام بطبيعة ما حدث لالمانيا قبل وقوعه. وقد رأيت بأم عينك كيف تعرض اصدقائك واصحابك للقتل. ولعل السبب الوحيد الذي حدى بك لقبول منصب بعد آخر في النظام النازي هو انك كنت متعاطفا مع سياسته . وهذا ما ندينك به يا سيد فون پاپن».

فأجبته :

« هذا هو رأيك يا سير ديڤد. اما انا فقد قدرت بتأمل عما اذا كنت سأستمر على خدمة بلادي وخدمة المثل التي آمنت بها وخدمة الأمة الالمانية او ان انسحب من الميدان لاتوارى في زوايا النسيان وكان ان آثرت العمل على الهزيمة».

الا ان سير ديفد استمر على مناقشتي على ضوء الافادات التي ادلى بها الشهود وبخاصة افادة الدكتور كرول مما اكد لي ان تهمة الاشتراك بالاستحضار لشن حرب عدوانية كانت لا تزال قائمة ضدي وعليه فقدتحولت للتركيز على جهودي المتواصلة التي بذلتها خلال اشتغالي سفيرا في انقرة من أجل تقليص أمد الحرب.

والأمر الوحيد الذي اقلق بالي هو خشيتي من التعرض الى عقوبة جماعية تشمل كل المتهمين بجريرة المساهمة في ايصال هتلر الى سدة الحكم والتعاون في الاستحضار لشن حرب عدوانية وتعريض سلام العالم للخطر.

ولقد زعم اغلب المتهمون وكثير من المحامين ان هذه القضية هي قضية سياسية ولذا فاننا لا يمكن ان نتوقع صدور البرائة على أي فرد منا وكان ان تحقق هذا الرأي بعد سماع الكلمة الختامية للادعاء العام والتي علمت منها ان المدعي العام الفرنسي طالب بأعدامي وكذلك فعل المدعي العام الروسي وعليه فقد اخبرت المحامي في تلك الليلة بوجوب عدم اعطاء أي توقع لعائلتي عن الحكم قبل صدوره. الا انه قال لي بهذه المناسبة انه يرى ان فرصة البرائة الى الأدانة تبلغ ٥٠ الى ٥٠ بالمائة . ثم ان المحكمة اجلت جلساتها الى نهاية آب ١٩٤٦ وبذا أخرت النطق بالاحكام لشهر آخر.

وقبل منح هذه الفترة طالبت المحكمة جميع المتهمين بتقديم (كلمة اخيرة) وحددت لكل متهم منا مدة سبع دقائق فقط يلقي خلالها تلك الكلمة الأخيرة. وقد قلت انا كلمتي مشيرا في مستهلها الى آمالنا بعد الحرب العالمية الأولى:

« لقد كان من الواضح بالنسبة لي ان بعث الوطن يمكن ان يتم بانتهاج طريق السلام واعتماد القيم الروحية. ولم يكن هذا المسلك هو المسلك الكفيل بمعالجة المشكلات السياسية فحسب وانما معالجة المشكلات الاجتماعية المتفاقمة ايضا. كما انني آمنت بأن اللجوء للدين حالة ضرورية لنبذ موجة الالحاد العاتية المتخذة مظهر التقدمية تضليلا. ثم انني لاحظت

في خضم هذه التناقضات ان مصير المانيا معلق الى حد كبير بالسلام الأوربي. ولكن المؤسف هو ان قوة النازيين الغاشمة تغلبت في بلادي على قوة الخيرين فأدى ذلك الى مسير المانيا حثيثاً نحو الكارثة . فهل يبرر اندحار المانيا احتراق الأخضر مع اليابس؟

واذا وجدنا انفسنا في بلاد خسرت الحرب فهل يترتب علينا جميعا تسديد ثمن الخسارة ؟ انني اعتقد بأنني اديت واجبي وتحملت مسؤولياتي وفق ما آمنت به دوماً دون ان افرط بحقوق وطني وامتي».

تقرر النطق بالاحكام في ٣٠ أيلول ولم تخرج طبيعة الاحكام الصادرة عن التخمينات المجردة من كل أساس . واتخذت تدابير أمنية صارمة للحفاظ على أسرار المحكمة لدرجة ابقي معها المترجمون محبوسين في بناية المحكمة طوال فترة اصدار الاحكام وترجمتها وبلغ التوتر غايته في ختام المحكمة ولدرجة فاقت التوتر الذي عشناه يوم افتتاح المحاكمات.

غصت قاعة المحكمة بأناس من مختلف اصقاع الارض وكلهم لهفة لكي يخبروا مواطنيهم بما ستتمخض عنه محاكمات مجرمي الحرب ولكن يبدو ان تلك القاعة ـ على سعتها ـ لم يكن فيها مكان لألماني واحد عدا المتهمين ورجل متحمس لأداتنا لدرجة فاقت خصومنا هو رئيس وزراء باڤاريا هويغنر. اما نحن فقد ارقنا السهاد في الليلة التي سبقت النطق بالأحكام لأن القلق أخذ منا كل مأخذ وبالنسبة لي فانني لم يغمض لي جفن في تلك الليلة.

قام القضاة بالتشاور فيما بينهم وقرروا ادانة من ثبتت عليهم قضايا معينة ثم أصدروا أحكامهم بعد روية وامعان. ولما حان موعد النطق بالاحكام ران على قاعة المحكمت صمت رهيب ثم شرع رئيس القضاة الانكليزي باعلان أحكام المحكمة بدئاً بهرمان غورنغ وكان قلقي يزداد من آونة الى أخرى انتظاراً لدوري لأنني كنت الرابع قبل الأخير .

بقي رجال الصف الاول من المتهمين واجمين دون ان يطرف لهم جفن. ثم جاء دور الدكتور شاخت الذي نال البراءة وعندئذ جاء دوري بعده ولما

نطق القاضي ببرائتي لم تصدق اذني ما سمعت فبقيت واجماً وحرصت على عدم اتيان اية حركة تنم عن الابتهاج لكن الحكم ببرائة ثلاثة متهمين فقط هم انا والدكتور شاخت وهانس فريتشه اثار غضب رئيس وزراء اقليم باڤاريا هويغنر الذي قال لعدد ضئيل من الصحفيين الالمان:

« ان هذه البرائة فضيحة لا تطاق . وسأبذل جهدي لاعادة توقيف هؤلاء السادة حال خروجهم من باب السجن».

وعلى الرغم من ابتهاج البعض وانزعاج البعض الآخر لبرائتنا نحن الثلاثة فان المعنى العميق الذي انطوت عليه تلك التبرئة هي أنها أول اشارة من الحلفاء الى عدم رغبتهم في ادانة الشعب الالماني بجريرة اثارة الحرب العالمية الثانية.

أصدر رئيس المحكمة اوامره باخلاء سبيلي من السجن حال انتهاء الجلسة. وكان الوقت ظهرا عندما نطق القاضي بالحكم على آخر متهم. ولما جاء رجال الانضباط العسكري لاطلاق سراحي هنأني بعض المتهمين وكان بينهم هرمان غورنغ الذي قال لي:

« أهنئك على برائتك وهذا ما لم اشك به ابدا».

فلم احر جوابا لأن الكلمات لم يعد لها أي معنى ازاء رجل حكم عليه بالموت وراح يهنيء الآخر بالحياة. فصافحته وفي النفس حسرة. وكذلك صافحت الفريق الاول الفريد يودل والوزير زايس انكوارت الذين قضيت معهم بضعة اشهر مفجعة.

والآن وانا اكتب هذه المذكرات بعد خمسة اعوام من المحاكمة يطيب لي ان اعود بذاكرتي متأملا الاحداث المريرة التي مررت بها في تلك التجربة فنحن نعلم الآن ان ستالين اقترح في مؤتمر يالطا اتخاذ قرار بتصفية زهاء خمسين الف شخصية سياسية قيادية في المانيا الهتلرية وبذا ستحل معضلة التعامل مع المانيا . ولم يعترض الرئيس روزفلت على هذا المقترح وانما ايد ولده[٢] هذه الفكرة . الا أن تشرشل رفض ذلك بقوله ان الحكومة البريطانية

---

(٢) كان احد ابناء الرئيس الامريكي الاسبق فرانكلن روزفلت مرافقا عسكريا لأبيه. كما خدم ابن آخر له وهو جيمس روزفلت ضابط ارتباط لدى الحملة البريطانية على العراق عام ١٩٤١ .

ـ المترجم ـ

لا يمكن أن تقر مثل هذه الخطة • ولابد لنا من عرفان جميله هذا لأن الشر الذي أضمر لنا اقتصر على تلك المحاكمات • أما مدى أحقية الدول المنتصرة في محاكمتنا بموجب القانون الدولي فهذه بطبيعة الحال مسألة أخرى •

لقد كانت محكمة نورمبرغ مجرد وسيلة عبر بها المنتصرون عن رغبتهم في الانتقام ولم تضم بين قضاتها قضاة المان ولا محايدين• ولو صحت مزاعم الادعاء في محاسبة رجال الدولة التي شنت حربا عدوانيــة في عام ١٩٣٩ فان اولئك الرجال كان يمكن ان ينالوا نفس العقوبات تقريبا فيما لو جرت محاكمتهم من قبل قضاة المان لأن القوانين الالمانية تدينهم على الافعال التي قاموا بها • وانني أظن أن محاكمات نورمبرغ كانت بادرة مغلوطة في العلاقات الدولية يخشى من تكرر حدوثها•

ثم ان المنتصرين اباحوا لانفسهم ممارسة نفس العمل الذي مارسه هتلر وحاكمونا عن افعال قاموا بها في تلك الحرب فقد اقتسمنا بولندا مع الروس في أيلول ١٩٣٩ ثم كان العدوان على فنلندا وابتلاع دويلات البلطيق واحتلال اجزاء من رومانيا[٣] وهي أفعال مشابهة تماما لما قامت به المانيا نحو جيرانها • اضف الى ذلك ترحيل الملايين من الالمان بصورة قسرية من بلادهم في الاقاليم التي صارت ضمن اراضي تشيكوسلوفاكيا وروسيا وبولندا[٤] وهذه الافعال مشابهة تماما لما فعله هتلر في الاتحاد السوفيتي وبولندا ابان فترة الاحتلال الالماني•

---

(٣) عوضت بولندا عن المناطق التي فقدتها بمناطق أخرى استحوذت عليها من المانيا فوصلت حدودها الى نهر الاودر وفرعه نايسه فحصلت بذلك على نصف بروسيا الشرقية (وحصلت روسيا على النصف الآخر) كما حصلت على نصفي اقليمي بوميرانيا وسيليزيا وصولا الى مدينة برسلاو . اما رومانيا فقد حصلت لقاء الاقليم الذي ضم للاتحاد السوفيتي على منطقة بنفس مساحتها من المجر . كما ان تشيكوسلوفاكيا تخلت هي الاخرى عن منطقة صغيرة لصالح الاتحاد السوفيتي.
— المترجم —

(٤) المقصود اقليم بروسيا الشرقية الذي اقتسمته روسيا وبولندا .
— المترجم —

ولو تصفحنا القانون الدولي واتفاقيات لاهاي[٥] المعقودة في عام ١٩٠٧ لوجدناها خلوا من الاشارة للنتائج المترتبة على الغارات الجوية على المدنيين والتعامل مع السكان في المناطق المحتلة.

وأخيراً اود ان انوه عن تأثيرات الصحافة المناهضة لنا ابان محاكمتنا سواء في المانيا ـ حيث كانت الصحافة خاضعة لادارة الحلفاء ـ أو في مختلف اقطار العالم. ولكن على الرغم من تشويشاتها المنكرة فان محاكمات نورمبرغ لم تؤد الى النتائج المرجوة منها للتأثير على الشعب الالماني. ذلك لأن الاجحاف والاكاذيب واللهجة العدوانية لابد ان تؤدي كلها الى نتائج عكسية.

اضف الى ذلك ان التقارير التي كانت تذيعها محطات الاذاعة في المانيا كانت تمثل وجهات نظر الحلفاء. ويسيطر عليها ويسيرها آنذاك غاستون اولمان وهو الماني سابق متجنس بالجنسية الكوبية وقد مكث مع الحلفاء وتحت ظلال حرابهم طوال فترة وجودهم في المانيا ثم هرب متلفعا بظلام الليل خشية الانتقام. وكانت كل التقارير التي يذيعها ذات جانب واحد وهي بعيدة عن الموضوعية والانصاف لدرجة استفزازية أدت معها الى نتائج معكوسة. كما انني اود أن اقدم للقارىء الكريم نموذجا من التقارير التي كتبتها عني الصحافة العالمية أبان فترة محاكمتي لكي يحصل على فكرة واضحة عن مسار الصحافة العالمية المناهضة لنا في تلك الفترة. فقد كتبت مجلة (لوك) الامريكية بعددها الصادر في ٣٠ نيسان ١٩٤٦ مقالا بقلم السيد جورج بيدل جاء فيه:

« فرانز فون پاپن ـ الجاسوس الاول والدبلوماسي في الحرب العالمية الثانية هو فون پاپن سفير المانيا الذي كان معيناً للعمل في تركيا .. ولپاپن هذا وجه حيوان وذكاء انسان وله مخطم كلب من فصيلة الذئاب او ثعلب او ابن آوى او جرذ... فهو دائب الحركة هنا وهناك ويدس انفه في كل

---

(٥) نظمت اتفاقيات جنيف حقوق اسرى الحرب والمدنيين الذين يتعرضون لويلات الحرب لكن تطبيقها من قبل مختلف دول العالم يختلف عن الاسس الانسانية الوارد فيها. ـ المترجم ـ

قضية، وهو لا يقوم بأية حركة مباشرة من الأمام وانما لابد ان يلتف نحوها من الجانب او من الخلف، ولعله من العسير وصف الغضب الذي يعتري ذلك الحيوان وهو يقترب نحو حتفه»،

الفصل الرابع والثلاثون

كُرهٌ وانتقامٌ وتوبةٌ

متطوع لدخول السجن . ليلة المشانق . ردود الفعل . اعادة توقيفي. التطهير من النازية . في المعتقلات والسجون . محاكمتي الثالثة في نورمبرغ. ملحوظات ختامية.

عزلت أنا والدكتور شاخت وهانز فريتشه عن بقية المتهمين الذين صدرت بحقهم احكام مختلفة بعد اداناتهم. الا ان رئيس وزراء بافاريا السيد هويغنر خلافا لرفاقه الآخرين من اعضاء الحزب الاشتراكي الديموقراطي لم يساهم بالمقاومة من على ارض الوطن وانما آثر السلامة باللجوء الى سويسرا وقد ابدى أسفه لبراءتنا نحن الثلاثة وتوعد باعادتنا الى السجن ــ كما اسلفت ــ مما جعلنا نفكر باحتمال العودة لزنزاناتنا المقيتة.

اتصلت بالادارة العسكرية الامريكية لتخصيص من يرافقني في الوصول الى القطاع الفرنسي أو الانكليزي من المانيا وقلت للمسؤولين الأمريكان ان السيد هويغنر لا يعترف بالبراءة التي اصدرتها المحكمة الدولية وهو عازم

على الحاق الاذى بنا وانني افضل الذهاب الى القطاع الفرنسي بغيةالالتحاق بزوجتي المقيمة هناك ورؤية اولادي الذين اودعوا المعتقلات منذ عام ١٩٤٥ الا ان السلطات العسكرية الفرنسية رفضت قبولي في القطاع الفرنسي من المانيا. اما السلطات العسكرية الانكليزية فقد أرادت استطلاع رأي سكان ويستفاليا في مدى قبولهم لرجوعي الى قريتي. وكان ان اخبرها المجلس البلدي الذي يسيطر عليه الحزب الاشتراكي الديموقراطي بأن جيراني لا يمانعون بعودتي الى مسكني. ومع ذلك فان الادارة العسكرية الانكليزية اعتبرت قضيتي مسألة سياسية مهمة فأرادت الاستئناس برأي لندن وكان ان رفضت لندن بدورها قبولي في القطاع الانكليزي رغم استعدادي للمثول امام اية محكمة المانية.

كان شاخت وفريتشه اقل صبرا مني. فقد تركا سجن نورمبرغ حال اطلاق سراحهما منه وتم القاء القبض عليهما ثانية بنفس الوقت. اما انا فقد اضطررت على ترك زنزانتي الكائنة بين زنزانتي الفريد يودل وزايس انكوارت لكي اشغل زنزانة اخرى في الطابق العلوي فأصبح بمقدوري مراقبة كل ما يجري في الطابق الارضي وكنت ألاحظ طريقة اقتياد المحكومين وتصفيد قسم منهم تمهيداً لقيامهم بالتمشي اليومي.وفي ١٤ تشرين الأول ١٩٤٦ نقلت فجأة الى جناح آخر من أجنحة السجن فبات من الواضح لي أن تنفيذ احكام الاعدام اصبح وشيكا. فتنفيذ مثل هذا الاجراء الرهيب لابدان تسري أنباؤه سريان النار بالهشيم في جميع سجون العالم مهما كانت الإجراءات الأمنية وتدابير الكتمان المتخذة. وهكذا ايقنا جميعا بأن شنق المحكومين منا بالاعدام سيتم في ليلة ١٥/١٦ تشرين الاول ١٩٤٦ فلم يطبق لأي منا جفن على جفن في تلك الليلة الليلاء التي وضعت نهاية مأساوية للمحاكمة التي استمرت خمسة عشر شهرا وعانينا خلالها من العنت والاذلال. اما المحكومون الذين ينتظرون تنفيذ حكم الموت بحقهم فقد كان بعضهم محافظين على اعتدادهم بأنفسهم رغم علمهم بأن تنفيذ الحكم بات مؤكدا. كما حاول البعض الآخر منهم الاعتذار عما بدر منهم وبرروا افعالهم بأنها كانت تنطوي على الطاعة المطلقة للزعيم. اما المجموعة الثالثة منهم فلم يكن افرادها اذكياء

بدرجة كافية ولم تكن لديهم المقـدرة التي تؤهلهم لنفي تهمة الاجرام بحق السلام والانسانية وهي تهمة رددها القضاة والمدعي العام والمحققون طوال فترة المحاكمة بغية التأثير علينا نفسيا وقانونيا.

وحيث اننا وجب علينا تسديد ثمن الاتهام الذي الصق بنا جميعا فقـد تساءلت مع نفسي بالحاح ـ وانـا استعرض مواقف المتهمين الاخيرة ابان وجودهم بالسلطة ـ عن مدى حماسهم الثوري وايمانهم بالاشتراكية الوطنية (النازية) فخلصت الى نتيجة مهمة هي ان الثوري الوحيد بين كل هؤلاء كان المشير هرمان غورنغ.

وتحضرني بهذه المناسبة كلمة قالها دانتون[1] امام هيئة محكمة الثورة التي قضت باعدامه وكان قد صرخ بوجه القضاة قائلا:

« لقد وضعتم ايديكم على حياتي كلها. ولعلهـا تبعث في يوم مـا وتطالبكم بتسديد الثمن . انكم تريدون التوصل للديموقراطية على انقـاض هذه الحرب بينما جعلتم بلادكم تنوء تحت وطأة الارهاب وتغرق في بحر من الدماء.

لقد تمزق الحجاب الذي يتلثم به طغاتكم الذين سيبتهجون لموتنـا. ولكن الى أي مدى سيرتقون السلم المؤدي الى الحرية والمشيد بشواهـد القبور ؟».

لقد كان الفرنسيون ثوارا اما الالمان فلم يكونوا كذلك قط. ذلك لأن الالمان اتسموا بالطاعة وحب الانتظام. وهم يحيون مهتمين بشؤونهم دون ميل فطري للانتقاد. وعلى الرغم من تركيز الدعاية التي مارسهـا غوبلز الا انهم حافظوا على سجاياهم التي جبلوا عليها.

(1) يعتبر جورج دانتون من رجـال الثورة الفرنسـية الكبرى الذين لعبوا دورا مهما في مراحلها الاولى وهو حقوقي وشخصيـة قيادية متميزة وقد ولد بشامبين عام ١٧٥٩ ونال شهـادة الحقوق عام ١٧٨٤ واعدم بباريس مع مجموعة من اصدقائه في ٥ نيسان ١٧٩٤ .

ـ المترجم ـ

تقرر اغلاق ابواب سجن شپانداو[٢] على المحكومين الذين افلتوا من حكم الاعدام لكي يقضوا بقية ايام اعمارهم وراء جدرانه . وعليه فقدقررت مغادرة السجن وليكن ما يكون.

كان من المألوف ابان العهد النازي ان يعاد توقيف المرء بعد برائتهمن التهمة الموجهة اليه حال خروجه من التوقيف اذا لم يرق للنظام النازي ابقائه مطلق السراح. ويبدو ان اتفاقا حصل بين رئيس وزراء باڤاريا والفريق كلاي لاتهاج نفس الطريقة النازية ضدي ولكن بتحوير بسيط حيث لا يتم توقيفي عند باب سجن نورمبرغ وانما ابقى تحت مراقبة الشرطة وترفض ادارة الاسكان تأجيري غرفة للاقامة فيها. ولما كنت غريبا في مدينة نورمبرغ فستقبض علي الشرطة بتهمة التشرد. ولكن هذا الترتيب احبطه رفيق قديم من رفاقي ابان عهد اشتغالي في كتيبة اولان قبل الحرب العالمية الأولى هو مدير مكافحة الاجرام في نورمبرغ السيد آدم الذي تدبر لي مسكنا آوي اليه. وسوف لن انسى له هذا الصنيع ما حييت. وقد اقمت في ذلك المسكن الذي نصبت امامه ادارة الشرطة نقطة مراقبة.

ولما كانت حالتي الصحية تتطلب معالجة ضرورية فقد رجوت صديقي آدم ان يحصل لي على سرير في مستشفى قريب من نورمبرغ. ولما تأكد للحكومة المحلية ان الشيوعيين المحيطين بضواحي المدينة سيحاولون تهديد حياتي بالخطر فقد منع السيد زاكس رئيس لجنة التطهير تحويل اسكاني الى المستشفى.

الا أن المجلس البلدي رفض ادخالي مستشفى نورمبرغ لأنني مجرم حرب رغم المساعي النبيلة التي بذلها رئيس الأطباء لقبولي في المستشفى.

واخيرا حصلت على سرير في مستشفى سانت تريزيا وقد بذلت فتيات الطائفة الكاثوليكية شجاعة نادرة في رعايتي بينما خصصت ادارة الشرطة

---

(٢) يقع سجن شپانداو في مدينة برلين وسمي بهذا الاسم نسبة الى ضاحية شپانداو التي يقع فيها السجن المذكور.

— المترجم —

نقطة حراسة لمراقبتي طوال فترة مكوثي بالمستشفى وجعلت مكانها في المدخل الرئيسي للمستشفى.

ولا اريد الاستطراد في وصف المعاناة التي لقيتها خلال السنوات الثلاث اللاحقة باسهاب ولكنني اذكر جيدا ان دعوى جديدة اثيرت ضدي في اواسط كانون الثاني ١٩٤٧ عندما ابلغني وزير التطهير من النازية في اقليم باڤاريا لوريتس بأنه اصدر اوامره باتخاذ التعقيبات القانونية ضدي. وكان المومأ اليه قد اشار في مناسبات عديدة بأنه سوف يحرص على عدم افلات مجرم مثلي من العقاب الصارم. وتألفت المحكمة من سبعة اشخاص اغلبهم من الشيوعيين والاشتراكيين الديموقراطيين وكانت برئاسة كاميل زاكس وهو حقوقي مجرب.

وعلى الرغم من براءتي بموجب قرار المحكمة العسكرية الدولية في نورمبرغ الا ان هذه المحكمة اخذت تحاكمني عن تهمة جديدة هي (المساعدة في وصول النازيين للحكم) واتخذت من وصية المشير فون هندنبورغ وثيقة لاداتي وفي خلال فترة المحاكمة صرح الوزير لوريتس بأنني ينبغي ان يحكم علي بالسجن لمدة عشرة اعوام مع الاشغال الشاقة بينما حذر القاضي زاكس من (خطر التواطؤ) لتبرئة ساحتي وقال انه سيرميني بالسجن على اية حال وانه سوف لن يسمح باخلاء سبيلي مطلقاً. وعليه فقد منعت من توكيل أي محام. بينما تضمنت لائحة الاتهام المطالبة بسجني ثمانية اعوام مع الاشغال الشاقة وتغريمي مبلغ خمسة آلاف مارك وحرماني من الحقوق المدنية مدى الحياة.

وأود ان اشير بهذه المناسبة الى حادثة لها علاقة بهذه الدعوى للتدليل على مدى الاجحاف الذي تعرضت له آنذاك. فقط حط في احد المطارات التركية في مطلع سنة ١٩٤٣، طيار الماني شاب بصورة اضطرارية فقمت له بواجبات الضيافة الرسمية والشخصية وابديت له كل معونة ممكنة خلال فترة مكوثه في تركيا. الا انه هرب في عام ١٩٤٤ الى بريطانيا لأن دمائه كانت غير صافية حيث كانت امه يهودية ـ كما صرح هو نفسه بعد وصوله الى

بريطانيا ـ وقال انه لم يشأ الاستمرار على الخدمة في القوة الجوية الالمانية لذلك السبب بالذات • والآن ظهر ذلك الطيار الشاب بصفة ـ شاهد الملك ـ ليشهد ضدي مستشهدا بخطبة القيتها في آذار ١٩٤٣ بمناسبة يوم الابطال الالمان وقال انني اشدت فيها بهتلر•

ولم يكن من الصعب تزويد المحكمة بنص الخطبة التي القيتها آنذاك وقلت في معرض تبريري لاقوالي آنذاك بأن الشاهد كان صغير السن لدرجة لم يدرك معها المعاني التي قصدتها في الخطبة المذكورة•

تدهورت حالتي الصحية في هذه الفترة الى درجة استوجبت ادخالي المستشفى فأدخلت في مستشفى العمال بمدينة نورمبرغ ثم نقلت منها الى مستشفى آخر في فيورت ولما تقرر نقلي الى مستشفى ثالث في مدينة غارمش وجد المسؤولون ان المستشفى الاخير اكثر من مريح بالنسبة لي فأمروا باعادتي الى معسكر الاعتقال في ريغنزبورغ• لكنني نقلت من هناك بصورة اضطرارية الى مستشفى الارسالية الكاثوليكية فحظيت بعناية الاخوات المرضات اللائي بذلن قصارى جهودهن لمعالجتي من الازمة القلبية التي تعرضت لها•

لكنني تعرضت في تلك الفترة لحادث كاد يودي بحياتي• فقد هاجمني وانا بالحمام احد رجال قطعات الحماية السابقين بصورة مفاجئة وانهال علي بالضرب فأصاب عظم الوجنة وقصبة الانف ومزق الشفتين واهاب العينين مما استوجب نقلي الى غرفة العمليات فورا• وكان ذلك الرجل قد هاجم اشخاصا آخرين فأصابهم ايضا قبل وصوله الى مستشفى ريغنزبورغ ولم يكن الطبيب الخفر الذي استقبله على علم بتلك الافعال•

ولما جرى فحصه من قبل اللجنة الطبية تبين انه مصاب بلوثة تستوجب احالته الى مستشفى الامراض العقلية • أما انا فقد كان من حسن حظي وجود طبيب اختصاصي بالتجميل ضمن المعتقلين معي فقام بمهمته الانسانية وحباني برعايته حتى ابللت من تلك الاصابات الموجعة التي تلقيتها قضاء وقدرا•

ولما اقتضت اجراءات اعادة البناء اخلاء مستشفى ريغنزبورغ في عام

١٩٤٨ نقلت الى مستشفى غارمش ثانية. وفي هذه الاثناء استدعاني الدكتور كيمبنر المدعي العام لمحكمة نورمبرغ عدة مرات لاستجوابي دون ان تؤخذ افادتي. ثم ما لبث ان أمر بنقلي الى السجن حيث مكثت به هذه المرة سنة ونصف كنت انتظر خلالها تعليقي بحبل المشنقة.

وكان ذلك السجن يحمل لوحة كبيرة على واجهته كتب عليها (مخصص للمشبوهين والمتشردين) ولما اعيد بناء السجن المذكور ايضا نقلت منه الى معسكر (لانغ ڤاسر) قرب نورمبرغ حيث زارتني هناك السيدة فريدا اوتلي المشهورة بكتابها النفيس «الثأر الباهظ» وقد تحدثت الي تلك السيدة الفاضلة بشأن حقوقنا القانونية وأكدت خطأ القائد الامريكي كلاي في التعامل معنا وفي سياسة الاحتلال التي مارسها ويطيب لي هنا ان اجزل لها شكري العميق.

في كانون الثاني ١٩٤٩ تمكن المحامي من استئناف قضيتي وتحولت المحاكمة نحو اتجاه جديد . فقد اصر السيد زاكس على حرماني من الحقوق المدنية طوال حياتي وهذا معناه حرماني من حقوقي التقاعدية وانا الذي خدمت بلادي في المجال العسكري لمدة خمسة وعشرين عاما وفي المجالين السياسي والدبلوماسي مدة مشابهة.

وكان القانون صارما معي هو الآخر هذه المرة اذ تعذرت براءتي تماما لانني كنت متهما بتسهيل ارتقاء هتلر للسلطة. كما انني تعرضت لحساب عسير لأنني لم أعمل على الاطاحة بهتلر . ولربما أثرت تلك السنين القليلة التي اعقبت الحرب على بعض الناس فتصوروا ان الاطاحة بهتلر كانت من الامور السهلة دون ان يفكروا بالنتائج المترتبة على ازاحة هتلر في الوقت الذي كانت به جيوشنا مشتبكة مع الاعداء في مختلف جبهات القتال بينما كان اولئك الاعداء متفقين على وجوب استسلام المانيا دون قيد او شرط. وهذا معناه ان الحكومة الجديدة التي ستعقب هتلر عليها ان تسلم الوطن ومقادير الشعب الالماني للاعداء طواعية فهل هناك ابلغ من هذه الخيانة؟ ومن الذي له الحق بمطالبتي بخيانة وطني بالتصدي لرئيس الدولة الالمانية؟

ولما حاولت استئناف القضية في مقاطعة شمـال الراين - ويستفـاليا رفض وزير العدل في تلك الولاية اميلونكسن اقرار برائتي لأنه لم ينس ان نائبي في ولاية بروسيا أقصاه من منصبه كمدير عام في ديوان الحكومة بتاريخ ٢٠ تموز ١٩٣٢ ٠

عندئذ استشطت غضبا وقلت لقضاتي بكل صراحة:

« انني لا ارجو منكـم أية رحمة، وكل ما اريده هو احقـاق حقي والاعتراف بأنني لم اكن نازيا قط»٠

وكان ان نلت البرائة لسبب بسيط هو انني كنت بريئا٠

وقبل ان اختتم هذا الكتاب الذي جعلته سجلا لحياتي اجدني ملزما بالاشادة القلبية بالمدينة التي أنجبت آبائي وأعني بها (ڤيرل)[٣] فقد استقبلت عند زيارتي لها في عام ١٩٣٣ بالاعلام المنشورة والموسيقى والورود ثم منحني المجلس البلدي فيها عضوية مواطن شرف مدى الحياة وكرم أسرتي بتسمية احد شوارعها بأسم الأسرة لأن اجيالا عديدة سكنت في ذلك الشارع٠

ولما كانت عضوية مواطن شرف وتسمية الشارع بأسم الأسرة الغيتا في عام ١٩٤٥ فقـد تقـدمت بطلب لمجلس بلدية المدينـة عام ١٩٥١ أرجوه النظر في اعادة تسمية الشارع بأسم اسرتي لكي لا يصيب الأسرة كلها حيف بسبب ادانة احد أفرادها الا ان المجلس رفض هذا الطلب٠

ولعله من غير المألوف ان يتضمن كتاب السيرة الذاتية التعبير عن رغبة في تحديد مكان القبر بعد الممات ومع ذلك فانني اوصي على رؤوس الاشهاد وعلى آخر صفحة من هذا الكتاب ان يكون دفني بأقليم السـار الذي كان مجال همتي طوال حياتي في مسعـاي نحو التقـارب الالماني ــ الفرنسي٠ ويطيب لي أخيرا وليس آخرا ان اشيد بمدينة ڤيرل التي قضيت فيها طفولتي وأحببتها مدى حياتي وأحبني أهلها ولقيت منهم كل تقدير ٠ وسأبقى أتسائل :

---

(٣) تقع مدينة ڤيرل شرق اقليم الروهر الصنـاعي بولاية شمـال الراين ويستفاليا٠

ـ المترجم ـ

« اين ستستقر عظامي التي اصبحت في يوم ما بلا وطن فتجد راحتها الابدية ؟»

وعندما احرص على موئلي بعد الممات بهذه اللهفة فان هذا يدل على مدى الغرور الذي يصيبنا في هذه الحياة الدنيا الفانية(٤).

---

(٤) توفي فرانز فون پاپن في ٢ مايس ١٩٦٩ بمدينة ساسباخ ودفن باقليم السار وفقا لوصيته.

الطبعة الاولى

رقم الايداع ١٤٢١
في المكتبة الوطنية
بغداد لسنة ١٩٨٥

دار افاق عربية للصحافة والنشر

تصميم وطبع دار آفاق عربية للصحافة والنشر

منشورات مكتبة التحرير ١٩٨٥ ٣٫٥٠٠ ديناراً